THE BOOK WAS DRENCHED

TIGHT BINDING BOOK

PAGES MISSING WITHIN THE BOOK ONLY

Damage Book

UNIVERSAL
LIBRARY

كتاب ا ن

قطف الزهور

في

تاريخ الدهور

تأليف

يوحنا افندي ابكاريوس

عفي عنهُ

طبعة ثانية

طبع في بيروت سنة ١٨٨٥

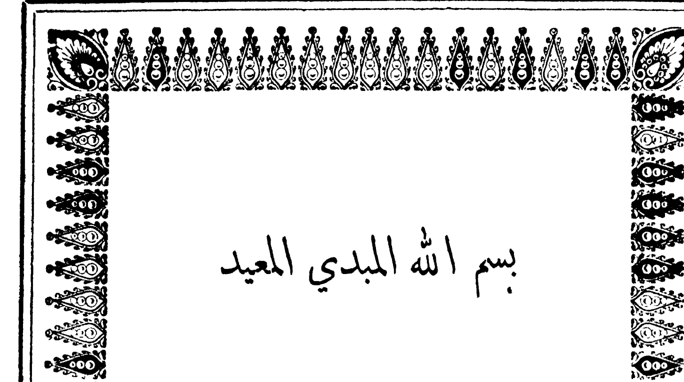
فهرس الكتاب

وجه

القسم الرابع

في تاريخ اميركا وفيهِ تسعة فصول

القسم الخامس



بسم الله المبدي المعيد

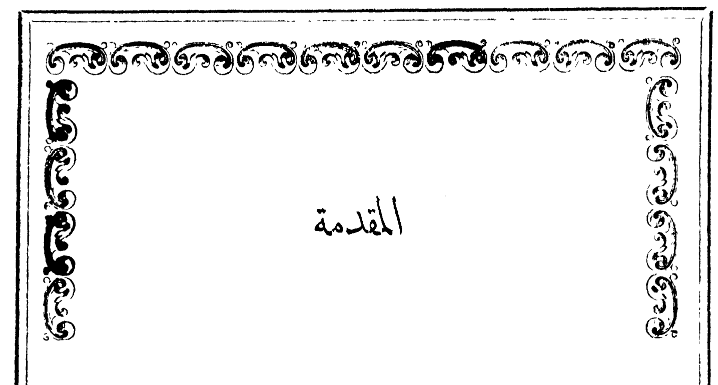
الحمد لله الواحد الجبار . المحتجب عن ذوي البصائر والابصار . الذي له علم ما كان وما سيكون . في كل الدهور والقرون . اما بعد فاذ كان في فن التاريخ للانسان فوائد عظيمة . ومنافع جسيمة . لانهُ ينبئ عن احوال الممالك والبلدان . وحوادث ابناء الزمان . وما يتعلق بالحروب والوقائع . واختراع الفنون والصنائع . فضلاً عن انهُ لذيذٌ مقبول . لا تملّهُ الآذان ولا تأباهُ العقول . شرعت في تأليف هذا الكتاب . في فن التاريخ المستطاب . الذي لم يسبق بمثلهِ بلغة العرب في هذا الباب . وضمنتهُ اخبار دول العالم . والآثار المتعلقة ببني آدم . منها ما استخرجتهُ من المؤلفات الاجنبية . ومنها ما اقتطفتهُ من امهات الكتب العربية . متجنبًا فيهِ التطويل . قاصدًا بذلك التقريب والتسهيل . لينطبع في ذاكرة المطالع . وآذان السامع . خبر مختصر . عن تاريخ البشر . ويكون للعامة ولشبان المدارس المامٌ عام . الى معرفة ما حدث في سالف الايام . من الامور التي تستحق الذكر والاهتمام . استغناء بهذه الصفحات القليلة . عن مطالعة المؤلفات الطويلة . آملاً ان يكون ذلك واسطة ووسيلة . لانهاض همة كل اديب بارع . للتقدم الى هذا الميدان الواسع .

والمبادرة الي اتحاف ابناء الوطن . في هذا الزمن . بمؤلفات مسنوفية شافية . في فن التاريخ وعلم الجغرافية . ليكون قطر الشام . متقدماً عاماً بعد عام . في زيادة التقدم وكمال الانتظام . ولما تم جمعهُ . وطاب سمعهُ . سميتهُ قطف الزهور في تاريخ الدهور . وقسمتهُ الي خمسة اقسام بحسبٌ اقسام الكرة الارضية يتضمن كلٌّ منها تاريخ دول كل قارة والى فصول يتضمن كلٌّ منها تاريخ دولةٍ منذ منشاها الى الوقت الحاضر . وانا التمس من اطلع عليهِ ونظر بعين البصيرة اليهِ ان يغض الطرف عما يرى فيهِ من الخلل والتقصير .

ويسبل ذيل المعذرة على ما حذف عمداً او سهواً

فان العصمة والكمال لله وحدهُ

وهو العليم الخبير



المقدمة

في وصف التاريخ والجغرافية

التاريخ قصة الجنس البشري ويتضمن ذكر الوقائع والاخبار المتعلقة بالقبائل والاقاليم منذ خليقة العالم ولولاهُ انطمست اخبار الاولين وجهلت حوادث الملوك الماضين ولم يعلم شيء من عوائدهم واصطلاحاتهم وعقائدهم . وقد قسم العلماء التاريخ الى ثلثة اقسام كبرى . فالاول تاريخ الازمنة القديمة من عهد الخليقة الى انقراض السلطنة الرومانية الغربية سنة ٤٧٦ للميلاد المسيحي وهو يتضمن تاريخ اليهود واشور وبابل والفرس والصين والهند ومصر وطوائف اليونان والرومان وذكر نهوضهم وسقوطهم .وما يتعلق بعوائدهم واديانهم وحروبهم واحكامهم الى غير ذلك . والثاني تاريخ القرون المتوسطة من سنة ٤٧٦ الى سنة ١٤٥٣ حينما سقطت السلطنة الشرقية ودخلت الدولة العثمانية الى القسطنطينية . ويشتمل هذا القسم على ظهور الاسلام وامتداد سلطة اهلهِ وشوكتهم وعلى اخبار البرابرة وغزواتهم في اوروبا وعلى تاريخ التزامات الامراء وسلطنة شارلمان وانقسامها وقيام السلطنة الالمانية ومنازعات ملوكها مع احبار رومية وعلى الخصام والاختلاف الذي وقع بين الاحبار المذكورين وبين ملوك اوروبا وامرائها من جهة حقوق تسمية الاكليروس وتصرفهم ويحتوي

على تاريخ الحروب الصليبية وغيرها من الاضطرابات والوقائع التي حدثت في جهات اوروبا . واما الثالث فهو من سنة ١٤٥٣ الى يومنا هذا ويشتمل على الاكتشافات العظيمة كاميركا والهند وغيرها والاصلاح الديني الذي نبغ في المانيا وبلاد السويس وامتد الى اكثر الاقطار الاوروبية وعلى حروب فرانسا والمانيا في زمن شارلكان وخلفائهِ وعلى الثورة الانكليزية التي حدثت في القرن السابع عشر واستقلالية اميركا وظهور نابوليون الاول ومغازيهِ الى غير ذلك مما لا يسعنا ذكرهُ هنا . ولكننا لم نسلك في هذا الكتاب على هذا الترتيب العام نظرًا لصعوبة مناولتهِ في المطالعة لان القصد بالمطالعة هو الاستفادة والفكاهة معًا فلا يجدها القاري في مؤلفٍ ترتبت صفحاتهُ على النسق المذكور لانه يضطرُّ في اكثر الاحيان ان ينتقل من قصةٍ الى قصة ومن ذكر دولة الى اخرى بحسب وقوع الحوادث وتواريخها بدون ان يستوفي الكلام عليها الاَّ بعد مطالعة الكتاب باسرهِ فلذلك فتحنا لكل دولة فصلاً مخصوصًا يتضمن اخبارها منذ منشاها الى الان تسهيلاً للمطالع

اما الجغرافية فعلمٌ مدارهُ هيئة الارض واقسامها وانواع اهلها ووصف مدنها وانهرها وجبالها واقاليمها وما يتعلق بحواصلها وغلاَّتها . فالتاريخ من شانهِ ان يسجل الحوادث التي جرت والجغرافية من شأنها ان تنبئنا بالاماكن والبلدان التي حدثت فيها تلك الحوادث . واذ كانت بينهما علاقة كلية فلا بد من معرفتها ولو على سبيل الايجاز وهذا هو المقصود من هذا المختصر وفي اثناء الكلام على اخبار الدول وما حدث فيها من التغييرات والحروب سنذكر ان شاء الله اعمال بعض افراد الرجال الذين اتصفوا بالمعارف واشتهر فخرهم بين الناس وما ينسب اليهم من الاعمال الغريبة والاختراعات العجيبة . واذ كانت تواريخ الناس القدماء الذين عاشوا قبل الطوفان مجهولة الحال ولا يعلم المؤرخون شيئًا عنهم اذ لم يمتدوا الا في قسمٍ صغير من اسيا فقط ضربنا عنهم صفحًا . وقبل ان نتقدم في الكلام على اخبار الامم وتواريخ الممالك

والدول التي اشتهرت من بعد الطوفان الى هذا العصر يجب ان نذكر شيئًا من جهة الارض واقسامها وعدد اهلها وسكانها على طريقة مختصرة لاجل اتمام الفائدة فنقول

الارض جسمٌ مستدير على شكل كرةٍ وتنقسم الى يابسة ومياه فالمياه مشتملة على مقدار سبعة اعشار منها والباقي اي ثلثة اعشار يابسة . وتنقسم اليابسة الى برين كبيرين شرقي وغربي فالشرقي يشتمل على اوروبا وافريقية واسيا والغربي على اميركا الشمالية والجنوبية

اما المياه فهي غمرٌ واسعٌ يسمى باسماء مختلفة بحسب اقسامهِ فالقسم الذي بين اوروبا واميركا يدعى الاقيانوس الاتلانتيكي يبلغ عرضهُ من الشرق الى الغرب نحو خمسة الاف ميل والقسم الذي بين اميركا واسيا يقال لهُ الاوقيانوس الباسيفيكي او المحيط وعرضهُ نحو اثني عشر الف ميل ثم الاوقيانوس الهندي وهو الواقع جنوبيّ اسيا ثم الاوقيانوس الشمالي حول القطب الشمالي وهو مغمورٌ غالبًا بالجليد ثم الاوقيانوس الجنوبي ثم البحر المتوسط او بحر الروم وهو الواقع بين اوروبا وافريقية . وهذه البحور جميعها متصل بعضها ببعض وقد سميت بالاسماء المذكورة لسهولة الحفظ والاستدلال . وفي العالم ايضًا انهر كثيرة نذكر البعض من اكبرها واشهرها كنهر النيل في افريقيا ونهر الكنك في بلاد الهند ونهر فولكا في اوروبا ونهر مسوري في البلاد المتحدة ونهر امازون في اميركا الجنوبية ونهر الدانوب اي الطونا وهو يخرج من باد في جرمانيا ويصب في البحر الاسود وفي كل هذه الانهر تجري سفنٌ كبيرة مشحونة بالركاب والبضائع من جهةٍ الى اخرى

وينقسم العالم الى اربعة اقسام كبرى يقال لها قارات اولها قارة اسيا وهي قسمٌ متسعٌ من الارض تشتمل على ممالك ومدائن كثيرة مسكونة من امم وطوائف وشعوب مختلفة وعدد سكانها سبع مئة وستون مليونًا تقريبًا وذلكَ اكثر من نصف اهل العالم . واشهر شعوب هذه القارة الصينيون ثم الهنود اي

سكان الهند ثم التتر ثم العرب ثم الاتراك ولهم ممالك متسعة في قارة اوروبا وسياتي ذكرهم مفصلاً

ثانيها قارة افريقيا وهي بلاد العبيد وتشتمل على بلاد نوبيا والحبشة ومصر وغيرها وعدد اهلها نحو مئة مليون

ثالثها قارة اوربا وهي تنقسم الى جملة ممالك كبيرة كانكلترا وجرمانيا وفرانسا وقسم من المملكة العثمانية والمسكوب والنمسا وايطاليا وغيرها وفيها اكبر مدن العالم واحسنها وعدد سكان هذه القارة لا يزيد على ٣٠٠ مليون

رابعها اميركا وهي قارة متسعة جدًّا وفيها جملة جمهوريات كجمهورية البلاد المتحدة والمكسيك وممالك كمملكة برازيل والاملاك الانكليزية وغيرها واعظم هذه البلاد واشهرها الولايات المتحدة في اميركا الشمالية واهلها المعروفون بالاميركانيين الذين اشتهروا بالحرية وجودة العقل حتى انهم يعدُّون بين شعوب العالم من الرتبة الاولى ويوجد في هذه القارة جملة مدائن كبيرة وجميلة واكثرها من نصف هذه القارة خالٍ من السكان وعدد اهلها نحو مئة مليون

وبقي غير القارات المذكورة عدَّة جزائر في البحر المحيط تُعدُّ كقسمٍ خامس للعالم منها جزائر الاوقيانوس الباسيفيكي كجزيرة جافا وسومطرا وبورنيو واكبر جزيرة بين جزائر العالم جزيرة يقال لها اوستراليا سياتي الكلام عليها في محلها ان شاء الله تعالى وعدد سكان هذه الجزائر نحو ٣٠ مليونًا

اما الاديان في العالم فتنقسم الى اربعة اقسام كبرى وهي وثنية ومسيحية واسلامية ويهودية كما ترى مجموعها في هذا الجدول

عدد اهل العالم بوجه التقريب

بحسب القارات		بحسب الاديان		
مليون		مليون		
٧٦٠	اسيا	٧١٥	وثنية	
١٠٠	افريقيا	٣٠٠	باباوية	مسيحية
٣٠٠	اوروبا	٩٠	روم	مسيحية
٩٠	اميركا	١٣٠	بروتستانية	مسيحية
٣٠	جزائر البحر	١٤٠	اسلامية	
		٥	يهودية	
١٢٨٠		١٢٨٠		

في اقسام رتب الجنس البشري ولغاتهم الاصلية

ومع ان العدد المذكور اعلاهُ جميعهُ من اصل واحد ترى بين الناس اختلافًا وتفاوتًا عظيمًا في اللون والشكل والطباع والعوائد . ويقسم الجنس البشري باعتبار اللون الى ثلاثة اقسام وهي الابيض والاصفر والاسود

اما الابيض فمنهُ تقريبًا كل سكان اوربا واميركا الشمالية ثم سكان غربي اسيا وبعض اهالي اميركا الجنوبية وهذا القسم هو اعظم واشهر الاقسام المذكورة واليهِ تنتسب الرئاسة على باقي طوائف العالم . وهو ينقسم ايضًا الى عائلتين كبيرتين وهما السامية واليافثية نسبةً الى سام ويافث ابني نوح فالعائلة السامية تتضمن كل شعوب غربي اسيا كالعرب والفرس والترك والتتر واليهود والكلدان والسريان الذين كانت منازلهم بقرب برج بابل بعد التبلبل واستمروا محافظين على معيشتهم في المرعى والجولان وهي العائلة التي اصطفاها الله سبحانهُ وتعالى واختصها بالاعلانات الالهية وبقيت معرفتهُ معلومة ومفهومة بين بعض

شعوبها زمنًا طويلاً حتى انها من بعد فقد هذه المعرفة وتوغل شعوبها في العبادات الاصنامية كانت اصنامها اسمى من اصنام باقي طوائف العالم فانهم انتخبوا آلهتهم من الاجرام السماوية كالشمس والقمر والنجوم بينما كانت الهة غيرهم من دبابات الارض وصخور البحر . اما العائلة اليافثية فتتضمن كل الشعوب التي تتكلم باللغات المعروفة بالهندية الجرمانية اوالهندية الاوروبية كاللغة السنسكريتية وهي لغة مقدسة عند الهنود القدماء واللغة الزّندية وهي من اللغات المقدسة ايضًا عند الفرس الاولين ثم اللغة السلاوية التي منها تشتق اللغات المسكوبية والبولونية والسربية وغيرها . ثم اللغتين الالمانية والكلتية اي الغالية القديمة ثم اليونانية واللاتينية وغيرها . وهذه الشعوب اليافثية لم تبقَ على حالها الاولى متفرقة في البوادي ومشتغلة بالملاهي ورعي المواشي كالشعوب السامية بل انعكف اكثرها على الزراعة واكتساب الصنائع والعلوم وانشاء العمائر والابنية ففاقوا على باقي اخوانهم تمدُّنًا وقوَّةً وشهرةً غير ان معتقداتهم الدينية كانت في رتبةٍ ادنى من الساميين فانهم لتفرقهم وهجرهم مواطنهم وتوغلهم في البراري والقفار نسوا تلك المعارف الدينية المتصلة اليهم من نوح واولادهِ فاشركوا بالله بان عبدوا معهُ القوات الطبيعية والمناظر الرائقة التي كانت تتراءى لهم كالرعد والبحر والنور والظلام وغير ذلك

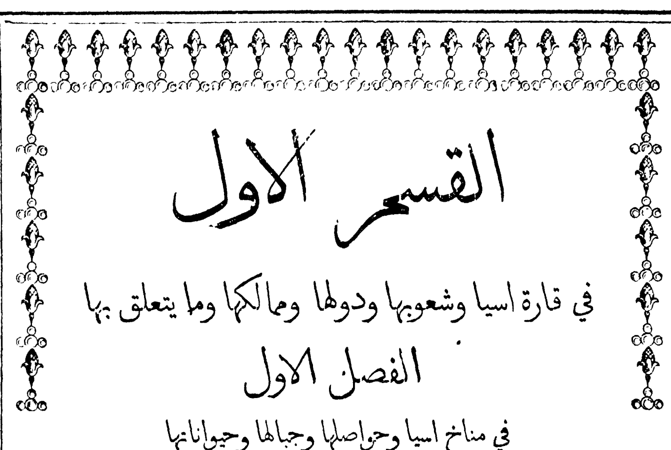
اما القسم الثاني وهو الاصفر فيمتاز باصفرار البشرة التي هي اشبه بزيت الزيتون ولا يعلم الى مَن مِن اولاد نوح ينسب هذا الجنس من البشر على انهُ بالنظر الى المعارف والاداب هو ادنى جدًّا من القسم الاول مع انهُ كثير العدد ويتضمن كل شعوب اسيا الشرقية كالمغول الذين هم جنسٌ من التتر ثم التتر والهنود واهل الصين ويابان وبعض شعوب روسيا في اوروبا وسكان شمالي اميركا المعروفين بالاسكيمو وغيرهم

واما القسم الثالث وهو الجنس الاسود فتغني اشكالهُ عن الوصف . ومنهُ اكثر سكان اواسط افريقيا وجنوبها وسكان اميركا الاصليون الذين

وُجدوا قبل دخول الاوروبيين الى تلك القارة ثم سكان اوستراليا والجزائر المجاورة لها . وكان عدد كثير من هذا الجنس قد اتى وسكن في غرب اسيا وجنوبها كبابيلونيا وبلاد العرب وكنعان وفينيقية ومصر واختلط مع العائلة السامية فنتج من ذلك الاختلاط فروعٌ عديدة . وهذا الجنس اقل تمدنًا من الجنس المغولي وكثيرٌ منهُ في حالة التوحش التام وهم يعبدون الاصنام من الدرجة الدنيا كالحيوانات والدبابات والاشجار وكهنتهم من السحرة اهل الخداع والنفاق الذين يضرّون كثيرًا بالشعب ويتصرفون في اموالهم ونفوسهم بزعمهم ان ذلك مما يصرف غضب الالهة عنهم

وقد قسم العلماء اهل العالم الى اربع مراتب وكل رتبة تمتاز عمَّا سواها بالمعارف والفنون فاصحاب الرتبة الاولى يقال لهم المتنورون والثانية المتمدنون والثالثة نصف المتمدنين والرابعة المتوحشون او البرابرة

اما المتنورون فهم الذين في اعلى درجة من التمدن والمعارف وعندهم انواع الكتب النفيسة والمدارس الكلية والابنية الفاخرة والمراكب البخارية والسكك الحديدية . واما المتمدنون فهم الذين عندهم نوعٌ من التنوير ولكنهم لم يصلوا الى درجة الكمال فلهم عناية ومعرفة بالصنائع والمهن وبعض العلوم غير ان مدارسهم قليلة والعلوم فيها بسيطة حتى ان كثيرين منهم لا يتعلمون القراءة والكتابة ومنهم اهل الصين والهند والبعض الآخر من اهالي اسيا وافريقيا واوروبا . واما نصف المتمدنين فهم الذين في الحال البربرية يسكنون في اكواخ من طين وليس عندهم معابد ولهم عوائد غليظة ردية ومنهم اغلب العبيد في افريقيا وغيرهم من عشائر اسيا . واما المتوحشون فهم الذين يعيشون كالوحوش والبهائم بين الاجام والغابات ويقتاتون من الصيد بالقوس والنشاب ومنهم هنود اميركا وبعض العبيد في افريقيا وبعض سكان اسيا وجزائر الاوقيانوس



القسم الاول

في قارة اسيا وشعوبها ودولها وممالكها وما يتعلق بها

الفصل الاول

في مناخ اسيا وحواصلها وجبالها وحيواناتها

قد ذكرنا فيما سبق ان اسيا هي بلاد متسعة جدًّا تحتوي على مدن عديدة وشعوب كثيرة وبرارٍ واسعة ونتكلم عليها الآن باوضح بيان فنقول

ان هذه القارة واقعة في الجهة الشرقية من الكرة الشرقية والهواء في جنوبيها حار جدًّا واكثر اراضيها مخصبة ينمو فيها البن والفلفل والفستق واللوز والزيتون وقصب السكر والارز والموز والكافور والعود والند وغير ذلك من الاصناف كالرياحين والتوابل والافيون والصبر والازهار البهجة ذوات الروائح الذكية وفي جنوبي هذه القارة مملكة الصين والهند والعجم والاتراك والعرب

وفي اواسط اسيا جبالٌ شامخة رؤوسها مغمورة بالثلج الدائم وهي من اعلى جبال الدنيا يبلغ ارتفاع بعضها نحو ستة اميال تقريبًا . وفي شمال هذه الجبال اراضٍ باردة فيها سهول متسعة واهلها قبائل من التتر ينتقلون من مكان الى مكان في طلب المرعى لجمالهم وخيولهم ومواشيهم . وليس في تلك السهول المقفرة سوى قليل من المدن والقرى واكثر اهلها يسكنون في الخيام ويقتاتون من لحوم مواشيهم والبانها ويقتنصون الابل وحمار الوحش وغير ذلك من الحيوانات البرية في تلك النواحي والاقاليم

وفي هذه القارة اجناس كثيرة من الحيوانات التي تستحق الاعتبار كالفيل في الغياض والكركدن على شطوط الانهر والاسد في البراري والسهول والنمر والفهد في الاجام . وفيها ايضاً اجناس هائلة يبلغ طولها ثلاثين قدماً او نحو خمس عشرة ذراعاً وانواع كثيرة من السعادين والقرود في الاماكن الحارة وفيها ايضاً الخيول الحسان والجمال والهجن المستظرفة وغيرها من الحيوانات المختلفة لم نذكرها خوف الاطالة وفي الجهات الجنوبية من اسيا تحدث زوابع عظيمة جدًّا فتقصف الاشجار احياناً . واحياناً تجف الارض وتيبس من قلة المياه فيحدث من جرى ذلك جوعٌ شديد . واحياناً تاتي مع الرياح ربوات عديدة من الجراد فتفسد الزرع وتبتلع كل نباتٍ اخضر . واحياناً ياتي الوبأ ويهلك الوفاً كثيرة من الناس . اما الآن فقد ضعفت قوة الامراض الوبائية اولاً بسبب اعتناء ولاة الامور بالكورنتينا والتدابير الحسنة لحفظ الصحة العامة ثانياً بسبب تقدم الناس في هذا العصر الى درجة سامية من التمدن في المعيشة والرفاهية

فنرى مما تقدم ان اسيا هي ارض العجائب والغرائب في تاريخها وجغرافيتها وانها اكبر اقسام الارض . فيها اعلى الجبال واكثر انواع الحيوانات والحرولات وفيها تظهر احسن الفصول وسكانها اكثر عدداً من بقية القارات . ومما يزيدها اعتباراً وشرفاً انها هي الارض التي خُلِق الانسان فيها ومنها امتلأت الارض سكاناً وتفرّقت في العالم وفيها حدثت اغرب الحوادث المتعلقة بتاريخ البشر وفيها ايضاً وُلد اعجب واعظم الاشخاص الذين عاشوا في هذا العالم وفيها ظهرت الانبياء وانتشرت اكثر المذاهب الدينية وفيها ايضاً صنع الله القدير عجائبهُ العظيمة . وهي التي ارتقى اهلها في سالف الازمنة الى درجة سامية في الصنائع والمعارف بينما كان باقي اهل العالم تائهاً في قفر الجهالة والتوحش

الفصل الثاني

في الخليقة والطوفان وتشعب الارض ثانيةً

كان خلق العالم منذ نحو ستة الاف سنة وتفصيل حديثهِ مذكور بعباراتٍ رائقة واضحة في الاصحاح الاول من سفر التكوين

اما آدم وحواء فخلقهما الله عزَّ وجل ووضعهما في بستان عدن الذي هو في القسم الغربي من اسيا بالقرب من نهر الفرات وقد كانا الشخصين الوحيدين في هذا العالم ولم يكونا يشعران بالوحدة لان الله كان معهما . ثم ولد لهما اولاد وعلى تمادي الايام كثر نسلهما جدًّا وابتنوا لهم قرًى ومدنًا في تلك الجهات المجاورة للفرات وسكنوها ولكنهم زاغوا اخيرًا وارتكبوا الشرور وتركوا عبادة الله حتى امتلأت الارض ظلمًا منهم

ولما رأى الله ان شر الانسان قد كثر على الارض وان كل تصوُّر افكار قلبهِ انما هو شرير قصد اهلاكهم وابادتهم بالطوفان ولم تكن تلك الدينونة التي نزلت بهم قصاصًا لهم فقط بل موعظةً وانذارًا لجميع شعوب الامم في القرون المستقبلة ليعلموا بان الشر والويل يعقبان الخطية

ومما يستحق العجب انهُ لم يكن بين تلك الطوائف المذكورة رجلٌ صالحٌ غير نوح فسرَّ الله ان ينجيهُ مع عائلتهِ من ذلك البلاءِ فاعلمهُ بقصدهِ وامرهُ ان يبني لنفسهِ فلكًا ليعوم على الماء وان يدخل ذلك الفلك هو وبنوهُ وامرأتهُ ونساء بنيهِ ويُدخِل معهُ ازواجًا من اجناس الحيوانات والدبابات والطيور لكي يملأُوا الارض ثانيةً بعد اتمام حكمهِ . ففعل نوح كما امرهُ الله وبعد ان صاروا جميعًا داخل الفلك انفتحت كوى السماء وانفجرت كلُّ ينابيع الغمر وغطت

المياه جميع الارض ومات كل ذي جسدٍ كان يدب على الارض من الطيور والبهائم وجميع الناس واما الفلك فكان عائمًا بدون خطر على وجه المياه

فهكذا انقطعت جميع الشعوب واندرست واصبحت الارض ثانيةً بعائلةٍ واحدةٍ من جنسنا البشري . وكان وقوع هذه الحادثة المخيفة بعد الخليقة بالف وست مئة وست وخمسين سنة . وكان حدوث الطوفان على راي الاكثرين في شهر تشرين الثاني ولن الامطار كفت في شهر اذار وبعد ذلك جفت المياه

وكان الفلك قد استقر على راس جبلٍ عالٍ في بلاد ارمينية يقال لهُ اراراط لم يزل الى يومنا هذا . فخرج حينئذٍ نوح مع عائلتهِ من الفلك ومنهم تشعبت الارض ثانيةً . اما الحيوانات فتفرقت الى كل الجهات وفي مدة اجيالٍ قليلة ملأت الارض .

فانطلق بنو نوح مع عيالهم الى ارض شنعار الواقعة في جنوب جبل اراراط بالقرب من نهري الفرات ودجلة واستوطنوا هناك وكانوا يزدادون يومًا فيومًا حتى انهم في مدة مئة سنة بعد الطوفان صاروا شعبًا عظيمًا . وكان الى ذلك الوقت لم يزل اكثر اهل بيت نوح احياء فكانوا يخبرون اولادهم كيف طافت المياه وغطَّت وجه الارض وكيف اهلكت جميع الناس والحيوانات ما عدا الذين التجأُوا الى الفلك وكان الذين بلغهم خبر الطوفان يخافون جدًّا ان يجلب شر البشر عليهم قصاصًا ثانيًا نظير ذلك فاجمع رايهم على بناء برجٍ عظيم لكي يلتجئوا اليهِ وقت الحاجة ويتخلصوا بهِ من الغرق والهلاك فشرعوا في تأسيسهِ على شاطئ نهر الفرات الى جهة الشرق واجتهدوا في قامتهِ غاية الاجتهاد حتى رفعوهُ عن الارض مسافة ليست بقليلة وربما كانوا قاصدين بجهلهم ان يصلوا بهِ الى الجو ومن هناك الى السماء ولكن مع كل اجتهادهم وتقدمهم في البناء كانت الشمس والنجوم لا تزال بعيدة عنهم كبعدهم عنها عند بداءة مشروعهم في هذا العمل

فاتفق ذات يوم انهُ بينما كان هؤلاء الجهلة منهمكين في ذلك حدث

امرٌ عجيب يستحق الذكر وهو ان الله سبحانهُ وتعالى بلبل السنتهم حتى لم يَعُد يفهم احدهم كلام الآخر ومن الاختلاف في الفهم نتج الاختلاف في الآراء بين الرؤساء والمرؤوسين

فهذه الحادثة العجيبة اقلقتهم وشوشت افكارهم حتى اضطروا ان يكفوا عن بناء البرج والصعود الى السماء . ولما خاب املهم وحبط عملهم تأسفوا غاية الاسف على عدم نجاحهم وعزموا على الانتقال من هناك والجولان في اقطار العالم . والمظنون ان كل فرقةٍ منهم ممن كانت تتكلم بلغةٍ واحدة تجمعت وانضم بعضها الى البعض وذهبت الى جهةٍ معلومة من الارض . ودُعي اسم ذلك البرج برج بابل الى يومنا هذا

وقد سبق القول ان الارض تشعبت بعد الطوفان باولاد نوح وهم سام وحام ويافث . وكان ليافث هذا سبعة بنين

الاول جومر وهو الذي هاجر الى الشاطي الشمالي من البحر الاسود ومن ثم تفرق نسلهُ غربًا وسكنوا في الجنوب الغربي من اوروبا وفي جزائر بريطانيا واكثر الاوروبيين من نسلهِ . وقد كان لجومر ثلثة بنين الاول اشكناز ومحلهُ الشاطي الجنوبي من البحر الاسود . الثاني ريفات ومحلهُ شرقي اشكناز . الثالث تجرمة ومحلهُ الجانب الشرقي من ريفات

الثاني ماجوج ومحلهُ بلاد التتراي الشاطي الشمالي من بحر الخزر واكثر سكان اواسط اسيا من نسلهِ كالمغول . الثالث مادي ومحلهُ شمالي بلاد العجم . الرابع ياوان ومحلهُ بلاد اليونان وباسمهِ سمى دانيال النبي اهالي هذه البلاد . وكان لياوان هذا اربعة بنين الاول اليشة ومحلهُ هلاس وهي الولاية الجنوبية الغربية من بلاد اليونان . الثاني ترشيش ومحلهُ كيليكيا في اسيا الصغرى في الاناضول وباسمهِ سميت مدينة ترسيس وذهب بعضهم الى ان من نسلهِ مَن سكن ايضًا في بلاد اسبانيا . الثالث كتيم ومكانهُ عند شطوط بحر ايطاليا وبلاد اليونان . الرابع دودانيم ومكانهُ البانيا اي بلاد الارناوط جنوبًا من

مدينة تريستة ويظن ايضًا انهُ سكن في نواحي مرسيليا في جنوب فرنسا . الخامس توبال ومحلهُ بجوار ماجوج وبين البحر الاسود وبحر الخزر . السادس ماشك ومسكنهُ في جوار توبال وماجوج وقد سكن بعض نسلهِ على شواطي بحر البلتيك ومنهُ تسلسل بعض المسكوبيين . السابع تيراس ولا يعلم محل سكناهُ والمظنون ان نصف اهل الارض من نسل يافث

واما حام فكان لهُ اربعة بنين . الاول كوش وكان لهُ ستة بنين ومحلهُ غربي بلاد العرب وقد سكن اكثر نسلهِ افريقيا ومنهم من سكن عند الشطوط الشمالية من خليج العجم وامتدَّ شمالاً الى ما بين النهرين . ويظن ان اكثر اهالي افريقيا من نسلهِ لانهم كانوا ينسبون اليهِ وان بنيهِ جميعًا سكنوا بلاد العرب وافريقيا ما عدا نمرود فانهُ سكن على الفرات وهو الذي اسس مدينة بابل . الثاني مصرايم ومحلهُ مصر ولذلك سميت مصرًا نسبةً اليهِ وقد تفرع منهُ سبع قبائل الاولى لوديم ومحلها غربي مصر . الثانية عناميم وهذه كانت من القبائل الرُّحَّل . الثالثة لهابيم سكنتْ جنوبي لوديم . الرابعة نفتوحيم ومحلها على شاطي البحر في الجهة الغربية من مصر والمظنون ان نبتون (اله البحر عند الاقدمين) ماخوذٌ منها . الخامسة فتروسيم ومحلها مصر العليا . السادسة كسلوحيم ومحلها بين مصر وارض كنعان على شط البحر ومنها الفلسطينيون . السابعة كفتوريم ومحلها جزيرة قبرس . الثالث فوط وقد سكن شمالي افريقيا ونسلهُ مذكور مع كوش ولود . الرابع كنعان ومحلهُ الارض المنسوبة اليهِ وهي هذه البلاد . وكان لهُ ابنان الاول صيدون وهو الذي بنى المدينة المدعوَّة باسمهِ اي صيدا ويظن انها اقدم مدن العالم . والثاني حِثّ . وقد خرج منهُ غير هذين الولدين تسع قبائل سكنت ارض كنعان الى ايام يشوع بن نون

واما سام فكان لهُ خمسة بنين . الاول عيلام ومحلهُ جنوبي بلاد العجم . الثاني اشور ومنهُ الاشوريون الذين كانوا مستعبدين لنمرود وكوش . الثالث ارفكشاد وقد توطن بين النهرين ومن نسلهِ خرج ابرهيم خليل الله . وكان لهُ ولد وهو

شالح الذي ولد عابر المأخوذ منهُ اسم العبرانيين ولهُ فالج ويقطان وكان ليقطان اخي فالج ثلثة عشر ولدًا منهم قبائل بلاد العرب المخصبة وسكن الاسمعيليون بينهم . الرابع لود ومنهُ اللوديون ومحلهم برالاناضول . الخامس ارام ومحلهُ بين النهرين ولذلك سميت هذه الارض سهل ارام وكان لهُ اربعة بنين. الاول عوص ومحلهُ عند راس خليج العجم . الثاني حول ومحلهُ عند مخرج نهر الاردن حيث يدعى باسمهِ . الرابع ماش وقد سكن الاناضول ايضًا

فيتبين لنا مما تقدم ان اكثر اهالي اوروبا وشمالي اسيا ايضًا من نسل يافث وان اهل اواسط اسيا من نسل سام واما اكثر اهالي افريقيا فمن نسل حام . واما بلاد اميركا وجزائر البحر فقد عمرت من اسيا وافريقيا بانتقال بعض الناس اليها وتوطنهم بها مارّين ببوغاز بيرِنْ الذي يظن انهُ كان برزخًا

وقد اكتشف بعض السياح المتأخرين على شاطي الفرات تلّة كبيرة من اللبن مجبولًا بالحمر مجففًا بالشمس والارجح ان هذهِ التلة من آثار خراب برج بابل الذي شرع بهِ اولئك القوم بينونهُ من نحو اربعة الاف سنة

الفصل الثالث

في مملكة اشور

الباب الاول

في نينوى وبابل

اشتهرت هذه الدولة بالدولة الاشورية نسبةً الى اشور بن سام بن نوح اول ملوكها وكان من امرها انهُ عند تفرق الناس في العالم كما سبقت

الاشارة استوطن منهم جماعة في بلاد شنعار بالقرب من برج بابل وتمكنوا فيها وكانت حارّة الهواء ومخصبة التربة فكسوها بالمدن والقرى . ولما حسنت احوالهم وانتظمت امورهم اتحدوا وارتبطوا معًا وصاروا امّة مستقلة وكانت اول مملكة في العالم . وكان موقعها شرقي الدجلة يحدها شمالاً بلاد الارمن وغربًا ما بين النهرين وشرقًا بلاد مادي وجنوبًا بابيلونيا وكانت وقتئذٍ منفصلة عن مملكة اشور . واول ملوك هذه الدولة اشور المذكور وباسمهِ دُعيت البلاد كما مرّ . وكان ملكًا مقتدرًا ذا شوكة عظيمة وهو الذي بنى مدينة نينوى سنة ٢٢٢٩ ق م وبنى لها سُورًا منيعًا بلغ ارتفاعهُ ٥٠ ذراعًا واقام لوقايتها وصيانتها خمسة عشر برجًا علوّ كلٍّ منها مئة ذراع . قيل ان المدينة كانت كبيرة متسعة حتى لم يكن احد يستطيع ان يدور حولها ماشيًا باقل من ثلاثين ساعة . وقد اكتشف احد السياح مؤخرًا بين خرائبها بعض عاديّات مردومة وتصاوير منقوشة ومرسومة على التماثيل والاحجار فنقلت بعضها الى بلاد الانكليز وبعضها الى فرنسا وغيرها من البلاد الاوروبية

واما بابل عاصمة بابيلونيا فهي مدينة كبيرة شهيرة اعظم من نينوى اتساعًا واجمل رونقًا وحسنًا بناها نمرود حفيد حام اي الابن السادس لكوش ابن حام الذي كان معاصرًا لاشور المذكور . وكانت هذه المدينة قائمة في وسط سهلٍ فسيح وارضٍ مخصبة جدًّا يخرقها نهر الفرات جاريًا في وسطها من الشمال الى الجنوب . ويحيط بها سوران عظيمان يبلغ محيطها ستين ميلاً وعرضها سبعًا وثمانين قدمًا بحيث تجري فوقها ست مركبات صفًّا واحدًا وارتفاعها ثلثماية وخمسين قدمًا وكان لها مئة باب من نحاس من كل جهة خمسة وعشرون بابًا وكان لها ايضًا خمس وعشرون سوقًا تمر من جانب الى جانب شرقًا وغربًا وكذا شمالاً وجنوبًا اي سوق ممتدة من كل باب الى ما يقابلهُ في الجهة المقابلة وانقسمت المدينة بهذه الاسواق الى ٦٧٦ مربعًا بنيت البيوت حولها وفي وسطها احسن البساتين والمتنزهات . وكان في وسطها هيكل بعل اله الاشوريين بنتهُ

الملكة سميرامس الآتي ذكرها واقامت فيهِ تمثالاً من ذهب للصنم المذكور علوهُ ٤٠ قدماً وكان من اعظم الهياكل واعلى من كل ما بناهُ البشر يبلغ ارتفاعهُ ٦٦٠ قدماً وهو اعلى من اعظم الاهرام المصرية وقد وصفهُ هيرودوتس المؤرخ اليوناني فقال انهُ كان مربع الشكل ومساحتهُ من كل الجهات ٤٠٠ ذراع وفي وسطهِ برجٌ عظيم يبلغ ارتفاعهُ سماية قدم. ويعلو هذا البرج سبعة ابراج علوّ كل واحدٍ منها ٧٥ قدماً. وكان في البرج الاخير مسجد فيهِ مائدة من ذهب وفي البرج الاسفل مسجد آخر فيهِ تمثال من ذهب وبقربهِ مائدة وكرسي من ذهب يساوي ثمنها نحو ٢٢٣ مليونا من الغروش وكان خارج هذا المسجد مذبحان احدهما من ذهب يقدمون عليهِ الذبائح وهي من اناث الحيوانات واما الاخر فكان عظيما جدًّا قد اعدوهُ لتقديم الذبائح المعتادة. وكانوا يوقدون عليهِ كل سنة في عيد الاله المذكور ٢٠٠٠ اقة بخور

الباب الثاني

في اخبار الملكة سميرامس

وكانت الملكة سميرامس المقدم ذكرها زوجة الملك نينوس الذي كان قد انفرد باستكبار مملكة اشور واستولى على جميع الممالك الواقعة بين نهر الهند والبحر المتوسط فتولّت على المملكة بعد وفاة زوجها وبذلت الهمة في تحسين مدينة بابل وترميمها فاقامت فيها الابنية العظيمة والهياكل المنتظمة وانشأت القصور والبساتين والترع والقناطر وغير ذلك من المباني المزخرفة والمتنزهات البهجة

ومن العجائب ان هذه الملكة لم تكتفِ بما كانت عليهِ من العظمة والجاه وطيب العيش بل اهاجها الطمع الى الاستيلاء على باقي ممالك الدنيا فجمعت جيشًا عظيمًا وزحفت بهِ على بلاد هندستان في الجنوب الشرقي من مملكة اشور

كان خليل الله عاش من العمر ١٧٥ سنة وتوفي في حبرون وهي المعروفة الان بمدينة الخليل ودُفِن بجانب زوجتهِ سارة في مغارة المكفيلة وهي لم تزل الى يومنا هذا ويقصدها كثير من السياح

واما اسحق بن ابرهيم فرُزق ولدين وهما عيسو ويعقوب فاشترى يعقوب من اخيهِ عيسو بكوريتهُ باكلةٍ من العدس وبعد ذلك اكتسب من ابيهِ بالحيلة البركة التي كانت معدة لعيسو فصار هو الوارث للبركة والموعد عوضًا عن اخيهِ البكر. ورُزق يعقوب اثني عشر ولدًا وهذهِ اسماؤُهم راوبين. شمعون لاوي. دان. يهوذا. نفتالي. جاد. اشير. يساخر. زبلون. يوسف. وبنيامين. ومن هولاء تسلسلت اسباط بني اسرائيل الاثنا عشر. اما يوسف احد اولاد يعقوب فكان اخوتهُ قد باعوهُ للاسماعيليين فاخذوهُ الى مصر وباعوهُ عبدًا سنة ١٧٢٩ ق م وبعد ما اقام ١٤ سنة في الاسر تقدم في باب فرعون طوطميس الثالث احد ملوك الدولة الثامنة عشرة كما سنبين ذلك باكثر وضوح في الكلام على تاريخ مصر وكان الواسطة في حفظ حياة ابيهِ واخوتهِ من الموت بالجوع. وفي سنة ١٧٠٦ ق م انحدر ابوهُ يعقوب مع اولادهِ الاثني عشر الى مصر وسكنوا هناك وتكاثروا حتى صاروا امة عظيمة. ومات يعقوب سنة ١٦٨٩ ق م ويوسف سنة ١٦٣٥

ولما توفي فرعون ملك مصر الذي كان يحب يوسف خلفهُ فراعنة آخرون لم يكونوا يعرفون الاسرائيليين فاساءوا اليهم وظلموهم وساموهم اعمالًا شاقة جدًّا وعاملوهم كالعبيد. وكان من جملة القساوة البربرية التي اجراها احد الفراعنة المذكورين مع العبرانيين اصدارهُ امرًا بان كل ذكرٍ يولد لهم يُلقَى حالًا في نهر النيل. وقصد في ذلك ان يقطع نسلهم لئلا يكثروا وتقوى شوكتهم على المصريين ويغتصبوا منهم البلاد

الباب الثاني

في خروج بني اسرائيل من مصر تحت رياسة موسى واستيلائهم على ارض كنعان

وما زال بنو اسرائيل يكابدون المشقات والمتاعب حتى ولد موسى فجعلتهُ امهُ في تابوت والقتهُ بين الحلفاء على حافة النهر ووقفت اختهُ من بعيد لتنظر ما يكون من امرهِ وبعد ذلك بقليل حدث ان ابنة فرعون جاءت الى النهر مع جواريها لتغتسل فرأَتهُ واستخرجتهُ من التابوت ورقّت لهُ وقالت هذا من العبرانيين فمن لنا بمن ترضعهُ فقالت لها اختهُ انا اذهب وادعو لكِ مرضعةً من العبرانيات فقالت اذهبي فذهبت الفتاة وجاءت بامهِ فسلمتها ابنة فرعون الصبي فاخذتهُ وارضعتهُ ولما ترعرع اتت بهِ اليها واسلمتهُ لها ونشأَ عندها ودعت اسمهُ موسى وعلمتهُ كل علوم المصريين وفنونهم التي كانوا قد امتازوا بها على باقي اهل العالم فاتقنها اتقانًا جيدًا . ولكنهُ مع ما كان عليهِ في بيت فرعون من الرفاهية والصولة لم ينسَ مشقات العبرانيين وتنهداتهم متذكرًا انهم اخوتهُ فكان يشفق عليهم ويود خلاصهم

ثم اعطى الله موسى وهرون اخاهُ قوّةً من السماء على أن ياتيا فرعون ويطلبا اليهِ اطلاق العبرانيين من عبودية المصريين وجور فراعنتهم ويصنعا العجائب امامهُ ليعلم بان هذا الطلب هو من الله . فخرجا اليهِ وصنعا عجائب كثيرة وضربا المصريين بالضربات العشر المعلومة واحدة بعد اخرى فسلم فرعون اخيرًا باطلاق سبيلهم فساروا حتى انتهوا الى ساحل بحر الاحمر المعروف ببحر السويس الفاصل بين مصر وبلاد العرب ولكنهُ بعد خروجهم بقليل ندم على ما فعل فجمع فرسانهُ وجنودهُ وتبعهم ليعيدهم للذل والعبودية فامر الله موسى ان يضرب البحر بعصاهُ فضربهُ فانفلق قسمين فعبروا على

اليابسة حتى انتهوا الى الشط الثاني ولما ادركهم فرعون اتّبعهم وحاول ان يعبر وراءهم ولما صار في وسط البحر امر الله المياه ان ترجع كما كانت فانطبقت على فرعون فغرق في البحر هو وكل جيشهِ وفرسانهِ ومركباتهِ

وكان عدد العبرانيين الذين خرجوا من مصر تحت قيادة موسى نحو مليونين ونصف . وكان خروجهم منها في زمن منفطا الثاني احد فراعنة الدولة التاسعة عشرة بعد ان اقاموا فيها مدة ٢١٥ سنة وذلك من نزول يعقوب الى وقت خروجهم . وكان عمر موسى وقتئذٍ ثمانين سنة وكان على جانب عظيم من الحلم والتواضع والحكمة

وان قال قائل كيف جزمت بان الاسرائيليين اقاموا في مصر ٢١٥ سنة وموسى يقول ان اقامتهم كانت ٤٣٠ سنة ويوافقهُ على ذلك بولس بقولهِ ان الناموس الذي صار بعد ٤٣٠ سنة لا ينسخ عهدًا قد سبق فتمكن من الله فنقول ان المراد في هذا القول اعتبارًا من يوم تغرب ابرهيم في ارض كنعان وليس المقصود فيهِ التغرب في مصر وواقعة الحال تؤيد الخبر وهاك بيان ذلك

سنة	
٢٥	من وصول ابرهيم الى بلاد كنعان الى ولادة ابنهِ اسحق
٦٠	من ولادة اسحق الى ولادة ابنهِ يعقوب
١٣٠	من ولادة يعقوب الى نزولهِ الى مصر
٢١٥	مدة اقامة الاسرائيليين في مصر كما تقدم القول
٤٣٠	

وان قال آخر ان المدَّة الموحى بها من الله الى ابرهيم بالوعد هي اقصر من المدَّة المحكي عنها من موسى وبولس بثلاثين سنة فالجواب ان كلام الوحي لا يشير الى ذات ابرهيم بل الى نسلهِ حيث يقول ان نسلك سيكون غريبًا في ارض ليست لهم اربعماية سنة واما موسى وبولس فيشملان غربة ابرهيم ايضًا اذ يحسبان انهُ كان غريبًا مثل نسلهِ فاذ قد تقرر ذلك وجب علينا ان نحذف من الحساب

المتقدم ذكرهُ الخمس والعشرين سنة المنسوبة الى غربة ابرهيم لحين ولادة اسحق فيكون الباقي ٤٠٥ سنين ولاجل التخلص من فرق الخمس سنين نقول انهُ كان من عادة اليهود في تلك الايام ان نفطم اطفالها في نهاية الوقت الذي انتقلوا بهِ من سن الطفولية الى سن الصبا اعني بعد مرور خمسة اعوام من تاريخ الولادة فنرى اذًا مما تقدم ان المدّة التي حددها الله لابرهيم يبتدئ تاريخها من ذالك اليوم الذي كان محفوظًا لاحتفال فطام الولد وعلى هذه الكيفية تكون الموافقة تامّة

وكان قصد الله في اخراج العبرانيين من مصر ان يذهبوا الى ارض كنعان التي وعد ان يملكهم اياها على لسان ابرهيم . وكان طريقهم على اطراف بلاد العرب التي هي شرقي بلاد مصر والبحر الاحمر . ولكي لا يضلوا عن الطريق اقام لهم عمودًا من سحاب ليرشدهم في مسيرهم نهارًا وعمود نارٍ يضيء لهم ليلاً في رحلاتهم . واذ كانت تلك البراري المقفرة بلا نبات ولا ماء كان الله يقيتهم بالمنّ عوض الخبز وبالسلوى عوض اللحم ويأتيهم بالماء من وسط الصخرة وقد اعانهم ونصرهم في محاربتهم لاهل عماليق

ولكنهم مع كل هذه المراحم لم يعتبروا احسانات الله فعصوا وتمرّدوا عليهِ بانواع مختلفة وكثيرًا ما تركوا عبادتهُ وعبدوا الاصنام . وبينما كان الله معلنًا ذاتهُ لموسى على جبل سينا الزم الشعب هرون ان يصنع لهم عجلاً من ذهب ليعبدوهُ عوضًا عن الخالق الذي اخرجهم وانقذهم من عبودية المصريين بذراعٍ رفيعة وقوّة عظيمة

ولسبب مخالفتهم وتعدياتهم الكثيرة غضب الله عليهم وانتقم منهم اشد انتقام فامات بعضهم بالوبا وجعل الارض تفتح فاها وتبتلع بعضهم واضلَّ الاخرين عن الطريق اربعين سنة فتاهوا في برية بلاد العرب مع ان المسافة بين مصر وارض كنعان لا تبعد اكثر من مايتين وخمسين ميلاً وهي عبارة عن اثنتي عشرة مرحلة فقط وزد على ذلك انهُ لم يدخل الى ارض كنعان احد من ذلك

الجيل الذين خرجوا من مصر الاَّ يشوع بن نون وكالب بن يفنَّة والباقون ماتوا في البرية ولم يدخلها غير اولادهم واولاد اولادهم حتى ان موسى ايضًا لم يسمح لهُ بالدخول بل اراهُ تلك الارض الواسعة من راس الفسجة في جبل نبو وهناك مات ولم يُعرَف قبرهُ الى هذا اليوم

ثم اقام الله للاسرائيليين بعد موسى يشوع بن نون فقادهم الى ارض الميعاد واخضع لهم اهل تلك البلاد وقتل ملوكها واحرق مدنها بالنار وقسم املاكها وارضها على اسباط اسرائيل الاثني عشر . وبعد موت يشوع ارتدَّ بنو اسرائيل عن الله وعبدوا الالهة الغريبة فسلَّط الله عليهم الفلسطينيين واسلمهم بيدهم فكانوا يضايقونهم ويذلونهم ويسبونهم وكانوا عند ما يلتجئون الى الله ويصرخون اليهِ في وقت الضيق والشدَّة يشفق عليهم ويقيم لهم قوَّادًا من ذوي الاهلية واللياقة في السياسة والحروب وكان يزينهم بشجاعةٍ وحكمةٍ لكي ينقذهم من مصائبهم وشدائدهم ويكونوا ولاة امورهم . وتلقب هولاء القواد بالقضاة اذ كانوا يقضون ويحكمون بين الشعب وذلك في المدة المتوسطة بين موت يشوع المذكور وقيام شاول الملك الاول وكانت سلطة هولاء القضاة اقل من سلطة الملك فلم يكن لهم سلطان ان ينظموا احكامًا او قوانين جديدة بل كانوا يحامون عن الشرائع ويحافظون على حقوقهم وينظرون لكليات مصالحهم وينتقمون من المجرمين ولاسيما الذين يتوغلون في العبادة الوثنية . وكان عدد هولاء القضاة اربعة عشر واستمرَّ حكمهم بحسب راي الاكثرين نحو ثلث مئة وعشر سنين وذلك من بعد موت يشوع بعشرين سنة الى تتويج شاول الملك الاول والجدول الآتي يبيّن اسماءهم وتاريخ حكمهم

جدول اسماء القضاة وتاريخ حكمهم

٠١	عثنئيل بن قناز اخو كالب	سنة ١٣٩٤ ق م
٠٢	اهود بن جيرا البنياميني	١٣٣٦
٠٣	شمجر بن عناة	
٠٤	باراق بن ابينوعم ومعهُ دبورة النبية	١٢٩٦
٠٥	جدعون بن يواش ويقال لهُ يربّعل	١٢٤٩
٠٦	تولع بن فواة بن دودو	١٢٠٦
٠٧	يائير الجلعادي	١١٨٣
٠٨	يفتاح الجلعادي	١١٤٣
٠٩	ابصان من بيت لحم	١١٣٧
١٠	ايلون الزبلوني	١١٣٠
١١	عبدون بن هِلّيل الفرعتوني	١١٢٠
١٢	شمشون بن منوح	١١٤٠
١٣	عالي الكاهن	١١٨٣
١٤	صموئيل النبي	١١٤١

الباب الثالث

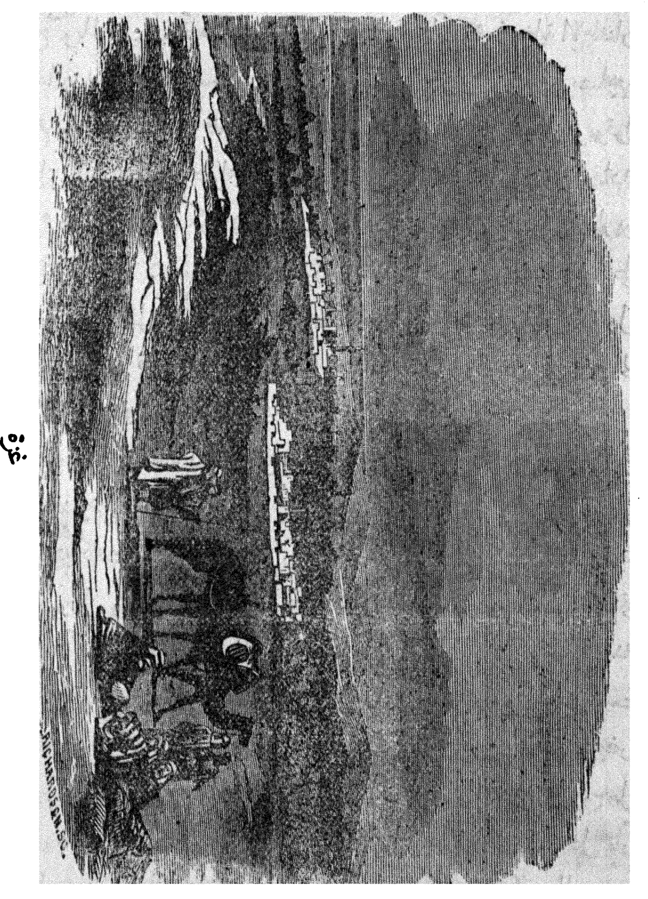
في ذكر جدعون وشمشون من قضاة الاسرائيليين

وحيث كان بعض اولئك القضاة ذوي شجاعةٍ وبأْسٍ رأينا ان نذكر بعض افعالهم تذكارًا لهم فنقول انهُ في مدة قضاء جدعون اتى المديانيون بجيوشٍ عظيمة وجموعٍ كثيرة وضايقوا الاسرائيليين وحاصروهم مدة سبع سنين

واذلوهم كثيرًا فامر الله جدعون المذكور ان ينزل اليهم بثلاثمائة رجل فنزل اليهم بهذا العدد وكان كل واحد منهم حاملاً بيدهِ الواحدة جرة فارغة داخلها مصباحٌ وبالاخرى بوقًا فلما اشرفوا عليهم وجدوهم نيامًا وهم في غاية الاطمئنان غير مبالين بشيءٍ فامر جدعون رجالهُ ان يكسروا جرارهم ويشهروا مصابيحهم بيسارهم ويبوقوا بابواقهم ففعلوا كما امرهم فتناولوا المصابيح باليسار وبوقوا بالابواق ونادوا باعلى اصواتهم للرب ولجدعون فانتبه المديانيون من رقادهم بغتةً وهم يظنون ان عسكر الاسرائيليين قد هجم عليهم ودهمهم فخافوا واضطربوا ونهضوا في الحال لا يعلمون ماذا يفعلون وكانوا يزاحمون بعضهم بعضًا على الهزيمة والفرار ويقتل كلٌّ منهم صاحبهُ وهو لا يعرفهُ واشتدَّت بينهم المعركة طول ذلك الليل حتى قتل بعضهم من البعض عددًا كثيرًا وولى من بقي منهم الى بلادهِ غير مصدقين بنجاتهم

ومن اعظم قضاة اسرائيل واشهرهم شمشون الجبار وكان من اشد جبابرة العالم واقدرهم لم ياتِ الزمان بمثلهِ . ولم يفعل احدٌ كفعلهِ ومما يستحق العجب ان سبب قوتهِ كانت ناشئة من شعر راسهِ لانهُ كان اذا اطلق شعرهُ تضاهي قوتهُ قوة مئة رجل واذا حلقهُ تضعف ويصير كباقي الناس . ومن افعالهِ انهُ التقى يومًا باسد كاسر فقبض عليهِ وشقهُ نصفين كما يشق الرجل الجدي وليس في يدهِ شيءٌ . والتقى يومًا بثلاثين رجلاً فقتلهم واخذ ثيابهم وامتعتهم . وفي ايامهِ تغلبت الفلسطينيون على الاسرائيليين وضروا بهم فغضب شمشون من ذلك ونهض لمقاومتهم والانتقام منهم . فامسك مرةً ثلثماية ابن آوى واخذ مشاعل وجعل ذنبًا الى ذنبٍ ووضع مشعلاً بين كل ذنبين في الوسط ثم اضرم المشاعل نارًا واطلقها بين زروع الفلسطينيين فاحرق الاكداس والزروع وكروم الزيتون . وقتل مرةً منهم الف رجل بفك حمار من بعد ما قطع الوثق التي كان مقيدًا بها وهي حبلان جديدان . ونزل يومًا الى غزة فأوصد عليهِ الفلسطينيون ابواب المدينة لكي يقتلوهُ عند الصباح ولما علم بذلك قام عند نصف الليل ونزع

مصراعي باب المدينة مع القائمتين والعارضة وحملها على كتفيهِ وصعد بهما الى راس تلة بعيدة



غزة

وكان شمشون مع شدَّة بغضهِ للفلسطينيين ومواظبتهِ على اضرارهم قد احب امراة منهم اسمها دليلة فكانت تظهر لهُ المحبة والوداد وهي في الباطن عاملة على اهلاكهِ لان الفلسطينيين كانوا قد وعدوها بمبالغ وافرة لتخدعهُ وتعلم منهُ بماذا

تقوم قوتهُ العظيمة فاخذت دليلة تتملقهُ بانواع الخداع والحيل لكي يقر لها بهذا الامر فخدعها شمشون وقال لها انهُ اذا رُبط بسبعة اوتار طرية تذهب قوتهُ فجرّبت ذلك وربطتهُ بسبعة اوتار ثم قالت لهُ الفلسطينيون عليك يا شمشون وكانت فرسانهم كامنةً عندها في البيت فقطع الاوتار كما يقطع فتيل المشاقة اذا شم النار . ثم الحت عليهِ ثانيةً بتشديد ان يعلمها الصحيح فقال اذا اوثقوني بحبال جديدة لم تستعمل اضعف واصير كواحدٍ من الناس . فربطتهُ بحبالٍ جديدة ونادتهُ كالاول فقطع الحبال عن ذراعيهِ كما يقطع الغلام الخيط فاغتاظت دليلة اخيرًا وكررت عليهِ السوال واذ لم يمكنهُ مخالفتها اخبرها بواقعة الحال ولما انكشف لها الامر وعرفت باطن الطوية وان قوتهُ قائمة باطلاق شعرهِ وعدم رفع موسى على راسهِ لانهُ كان نذيرًا لله من بطن امهِ ارسلت فدعت اليها وجوه آل فلسطين واوقفتهم على الحقيقة واخذت منهم الفضة التي وعدوها بها ثم جعلتهم في كمين وانامت شمشون على ركبتها ودعت رجلاً حلق لهُ شعرهُ ففارقتهُ قوتهُ وبهذه الوسيلة اسلمتهُ لاعدائهِ فاخذهُ الفلسطينيون واوثقوهُ بسلاسل من نحاس وقلعوا عينيهِ وسجنوهُ وجعلوهُ يطحن الشعير والحنطة . وابتدا شعر راسهِ ينبت بعد ان حلق فعادت اليهِ قوتهُ كما كانت وصار من اشد الناس . واتفق في بعض الايام بينما كان الفلسطينيون مجتمعين يوم عيد الههم داجون وهم في غاية الفرح والحبور على اسر شمشون انهم دعوا شمشون من السجن ليلعب امامهم ويبسطهم فجاء الى القاعة التي كانوا مجتمعين فيها وكان البيت مملوًّا من الرجال والنساء وعلى السطح نحو ثلاثة الاف نسمة يتفرجون على لعبهِ وكان في وسط القاعة المذكورة عمودان كبيران كان البيت قائمًا عليهما فلما فرغ شمشون من لعبهِ قبض على العمودين المذكورين الواحد بيمينهِ والآخر بيسارهِ وانحنى عليهما بقوتهِ من بعد ما استعان بالله فسقط البيت على من فيهِ وماتوا جميعًا فكان الذين اماتهم بموتهِ اكثر من الذين اماتهم في حياتهِ

الباب الرابع

في ذكر شاول وداود وسليمان

اذ لا يسعنا في هذا المختصر ان نستوفي كل اخبار ملوك اسرائيل ووقائعهم وحروبهم رأينا ان نذكر اعظمهم واشهرهم على وجه الاختصار فنقول . لما نفرَ شعب اليهود من احكام القضاة اخذوا يسعون في اقامة ملك عليهم ليسوسهم ويدبر امورهم فاجتمع جمهورهم وقصدوا النبي صموئيل وكان يومئذٍ قاضيًا ورئيسًا عليهم والتمسوا منهُ ان يختار لهم ملكًا من اهل الدراية والاستقامة فاشار عليهم ان يكفوا عن هذا الطلب واظهر لهم المظالم والمتاعب التي كانت الملوك تجريها في تلك الايام المظلمة . واذ كانوا لا يسمعون لهُ ولم يقدر على ردهم انتخب لهم شاول بن قيس ومسحهُ ملكًا عليهم سنة ١٠٩٥ ق م وهو اول ملوك اسرائيل . وكان جميل الصورة طويل القامة فحكم نحو اربعين سنة وكان في اول امرهِ سالكًا طريق الحكمة والاستقامة ممتازًا بمكارم الاخلاق والتقوى لكنهُ اخيرًا تجبر وتكبَّر اذ اتخذ لنفسهِ وظيفة الكهنوت المحصورة في الكهنة فقط وعصى الله باستبقائهِ اجاج ملك عماليق واعفائهِ عن خيار الغنم والبقر خلافًا لامر الله الذي كان قضى بتحريمها وقتلها


كاهن عبراني يمسح ملكًا

وكان في ايامهِ بين الاسرائيليين وباقي الشعوب المجاورة لهم حروبٌ متصلة

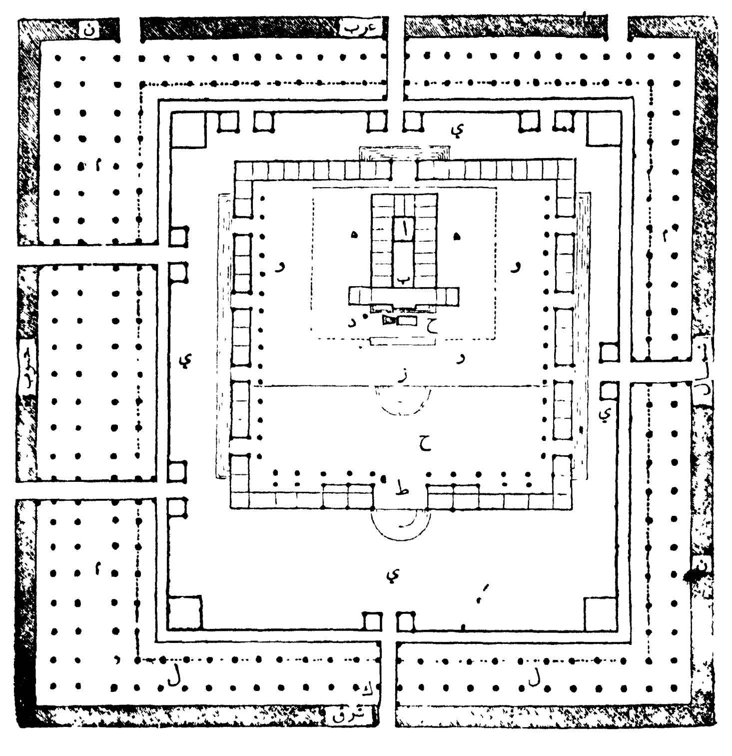
واجتمع الفلسطينيون يومًا لقتال الاسرائيليين فالتقاهم شاول بجموع اسرائيل . وكان في معسكر الفلسطينيين شخصٌ من الجبابرة الطغاة اسمهُ جليات طولهُ ستّ اذرع وكان متدرعًا بالحديد ومتسلحًا بالاسلحة المانعة ووزن سنان رمحهِ احدى عشرة اقة . وكان ينزل كل يوم الى ساحة الميدان ويتهدد الاسرائيليين بالكلام ويستدعيهم للمبارزة والقتال فيتأخرون عنهُ ويخافونهُ كما تخاف الشاة من الذئب ولم يزل على ذلك حتى اقبل على اسرائيل داود بن يسى من سبط يهوذا من مدينة بيت لحم وكان شابًا صغير السن يرعى الغنم لابيهِ وكان مع صغر سنهِ شجاعًا جسورًا فلما سمع صوت الفلسطيني استأذن من الملك شاول لمبارزتهِ فاذن لهُ بذلك فاسرع ونزل الى ميدان الحرب بثيابهِ المعتادة ولم يكن مع داود سلاحٌ سوى مقلاعٍ وخمسة احجار من زلط في كنفهِ فلما رآهُ ذلك الجبار صاح عليهِ صيحة عظيمة واخذ يتهددهُ ويشتمهُ فلم يكترث داود بكلامهِ بل تقدم لاستقبالهِ واخذ حجرًا من كنفهِ ووضعهُ في المقلاع وقال انت تاتي اليَّ بالسيف والرمح وانا آتي اليك باسم رب الجنود ثم رمى المقلاع وقذفهُ بالحجر فارتز في جبهتهِ وسقط على وجههِ الى الارض فبادر داود اليهِ واستلَّ سيفهُ وقطع بهِ راسهُ فلما رأى الفلسطينيون ان جبارهم وعميدهم قد مات انهزموا وتفرقوا في اقطار الفلا فتبعهم الاسرائيليون وقتلوا منهم عددًا كثيرًا ثم رجع داود من الحرب وبيدهِ راس جليات فاكتسب بذلك فخرًا ومدحًا من جميع الناس وزوجهُ شاول بابنتهِ وجعلهُ حامل سلاحهِ ثم حسدهُ وابتلى منهُ بالغيرة وصمم على قتلهِ فهرب داود من امام وجههِ ولحق باهل فلسطين واقام عندهم اياما ثم التجأ الى الجبال والكهوف وبقي على هذه الحال نحو ٢٤ سنة حتى قُتل شاول مع ابنهِ يوناثان في حروبهِ الاخيرة مع الفلسطينيين

وبعد موت شاول اختار شعب يهوذا داود المذكور ملكًا عليهم وكان ذلك سنة ١٠٥٥ ق م فساسهم سبع سنين وستة اشهر ثم انضم اليهِ جميع اسباط اسرائيل فتولى عليهم نحو ثلاثٍ وثلثين سنة وقاتل جميع الامم المجاورة لهُ وظفر

بهم واذلّهم وضرب عليهم الجزية واعتنى باصلاح المملكة فهذبها وشيدها حتى بلغت الى درجة سامية من العظمة والفخار والشوكة والاقتدار وجعل قصبة مملكتهِ مدينة اورشليم . وكان داود على جانب عظيم من الحكمة والتقوى والصلاح مستقيمًا مع الله فاحبهُ الله ووعدهُ انهُ يعطي الملك لنسلهِ من بعدهِ وان المسيح ياتي من ذريتهِ . وكان شاعرًا فصيحًا وقد خلف ذكرًا مؤبدًا بنشائدهِ الزبوريّة المطربة التي لايزال اكثر الناس يستعملونها الى يومنا هذا في التسبيحات الروحية ويشترك في الفاظها الرقيقة العذبة كل قلبٍ نقي غير انهُ كان وقع في زلةٍ فظيعة بقتلهِ اوريا الحثي لاجل التزوج بامرأتهِ فاورثهُ ذلك الحزن الشديد وتاب الى الله وقُبل

ثم قام بالملك من بعد داود في بني اسرائيل ابنهُ سليمان وكان ملكًا مهيبًا حكيمًا ذا شوكة وثروة وفراسة وهو الذى بنى الهيكل المشهور في مدينة اورشليم لعبادة الله عز وجلّ وكان قد مضى على اليهود نحو اربعماية وثمانين سنة منذ خروجهم من مصر ولم يكن لهم مسجدٌ فاعتنى ببنائهِ وانفق عليهِ اموالاً جزيلة وكانت اخشابهُ من شجر الارز والسرو الذي استجلبهُ من لبنان بواسطة حيرام ملك صور وزين الهيكل من داخلهِ بانواع النقوش والتماثيل الملبسة بالذهب بما لا يستطيع لسان القلم ان يصفهُ او يحصي قيمة نفقتهِ واستمر في بنائهِ نحو سبع سنين وكان الفراغ منهُ بعد الخليقة بثلاثة الاف سنة وقبل المسيح بالف سنة وحُسب هذا البناء من عجائب الدنيا

وكان سليمان شاعرًا مثل ابيهِ ولهُ مؤلفات في الفلسفة الادبيّة وقضى كل مدّة ملكهِ في راحة تامّة مع الملوك جيرانهِ وكان محبوبًا ومكرمًا من الجميع ولكنهُ سقط بالعبادة الوثنية واتخذ لنفسهِ نساء كثيرة ما بين حرة وسرية وتزوج بنت فرعون ملك مصر وبنى لها على ما قيل القصر الذي في بعلبك ومدينة تدمر في البرية ثم ندم وتاب ورجع الى الله



معنى الاشارات في هذه الصورة

ا قدس الاقداس

ه دار الكهنة

ب القدس

ج مذبح المحرقة

د مرحضة النحاس

و دار اسرائيل

ز باب نيكانور

ح دار النساء

ل رواق سليمان

ط الباب الجميل

ي دار الامم

ك الباب الشرقي

م الرواق السلطاني

ن الحائط الخارجي

ومما ذكر من امر فراستهِ انهُ بينما هو ذات يوم في مجلسهِ دخل عليهِ امرأَتان تتنازعان على طفلٍ صغيرٍ تدَّعي كل امراة منهما انهُ ولدها واذ كان الامر ملتبسًا امر سليمان باحضار سيف وان يُقطع الطفل الى قطعتين ويُعطى لكلٍّ منهما النصف لاجل فض هذا المشكل فلما رأَت ام الطفل الحقيقية بريق



ارز لبنان

السيف فوق راس ابنها تحركت عواطف قلبها بالشفقة والرافة وصرخت قائلةً

لا تفعل يا سيدي ضررًا بالولد بل اعطهِ الى هذه المراة الشريرة ودعهُ يحيا اما المراة الثانية فقالت بدون شفقة انني لا اريد الا حقي فليقطع الولد وانا آخذ نصفهُ فعلم حينئذٍ سليمان من تصرفها الام الحقيقية وامر باعطائها ابنها

واوصل سليمان بلاد اليهودية الى درجةٍ عليا من المجد فكانت ممتدة الى حدود مصر وقسم من البحر الاحمر جنوبًا وغربًا والى نهر الفرات شمالاً وشرقًا . وكانت اليهودية يومئذٍ منقسمة الى قسمين . الاول اليهودية التي استولى عليها الاسرائيليون في ايام يشوع وقسمها بينهم كما هو مذكور في سفرهِ والثاني اليهودية المفتتحة المتضمنة ممالك الشام وتدمر وبلاد الادوميين والعمونيين والموابيين وغير قبائل عربية للجنوب والشرق . ولاجل تسهيل ادارة الاحكام قسم سليمان هذه البلدان الى اثنتي عشرة ولاية واقام عليها اثني عشر واليًا من رجالهِ الامناء . وكان لهُ ايضًا سُفُن بحرية كانت تسافر مع سفن الصوريين الى شرقي افريقيا والبعض يقولون انهم وصلوا الى بلاد الاندلس

وتوفي سليمان لاربعين سنة من ملكهِ ودفن بجانب ابيهِ داود فهولاء هم الملوك الثلاثة الذين استولوا على كل اسباط اسرائيل

الباب الخامس

في انقسام مملكة اليهود والاسر البابلي

وبعد موت سليمان تولى ابنهُ رحبعام سنة ٩٧٥ ق م وحسب انباء الله السابق ما لبث في المملكة حتى انقسمت الى قسمين فانحاز الى يوربعام بن ناباط عشرة اسباط اسرائيل واقاموهُ عليهم ملكًا واتخذوا مدينة السامرة كرسيًا لملكهم

وبقي رحبعام بن سليمان ملكًا على سبطي يهوذا وبنيامين في مدينة اورشليم وما يليها . وكان السبب في ذلك اتباعهُ مشورة اصدقائهِ الاحداث ورفضهُ راي الشيوخ في مسالمة الشعب ومعاملتهم بالرقة واللين . وكانت اكثر ايامهِ حروبًا مع يربعام وبني اسرائيل . وفي ايامهِ زحف شيشق ملك مصر الى اورشليم ونهب الهيكل

اما عدد الملوك الذين تولوا على اسرائيل فكانوا تسعة عشر ملكًا وكان اكثرهم يعبدون الاصنام واستمر ملكهم مدة مئتين واربعة وخمسين سنة الى ان زحف على المملكة شلمناصر ملك اشور سنة ٧٢١ ق م وحاصر السامرة واسر الاسباط العشرة مع ملكهم ونقلهم الى بلادهِ فكانوا مستعبدين في جوف اسيا وهكذا انقرضت مملكة الاسباط العشرة وتلاشى امرهم ولم يسمع لهم خبر ولا ذكر بعد ذلك . ثم اتى ملك اشور بقومٍ من بلادهِ من قبيلة الكوفيين واسكنهم مدن السامرة عوضًا عن الاسرائيليين ومن هولاء نشأت طائفة السَمَرة

واما ملوك يهوذا فكان عددهم تسعة عشر ملكًا ما عدا عَثَلْيا ام أَخَزيا كما ترى بيان ذلك في الجدول الآتي وهم من ذرية داود وكان بعضهم من اهل التقوى والصلاح كحزقيا ويوشيًا الذي قتلهُ نخو ملك مصر . وكانت حروبهم متصلة مع مصر واشور ومملكة اسرائيل حتى التزم الملك احاز مرةً ان يستدعي تغلت فلاسر ملك اشور لمساعدتهِ على ملكي الشام واسرائيل المتحدين عليهِ فاتى وخرب دمشق ثم ضرب الجزية على مملكتي اسرائيل ويهوذا وبقي ذلك الى ان قام حزقيا فاعتق اليهودية من نير الاشوريين وتخلص من غزو سنحاريب على اورشليم كما ذكر في تاريخ اشور . وفي ايام الملك يهوياقيم احد ملوكهم الذي كان قد دفع الجزية الى فرعون ملك مصر زحف نبوخذنصَّر ملك بابل الى اورشليم سنة ٦٠٦ ق . م وسبى جانبًا من الشعب وهذا هو السبي الاول ثم بعد ذلك بثمان سنين زحف ثانيةً في ايام يهواكين بن يهوياقيم

المذكور واسرهُ مع رؤسائهِ وقسمٍ من الشعب ونهب الهيكل وكل ما فيهِ من التحف النفيسة والاواني الثمينة وهذا هو السبي الثاني ثم بعد ذلك بعشر سنين زحف نبوخذنصر ثالثةً في ايام الملك صدقيا كما مرَّ وحاصر اورشليم فافتتحها واسرهُ الى بابل بعد ان اذلَّهُ وقلع عينيهِ واحرق المدينة والهيكل بالنار وسبي كل شعب يهوذا ما عدا المساكين والفقراء وهذا هو السبي الثالث والاخير وهكذا انقرض مجد هذه المملكة سنة ٥٨٨ ق.م وكانت مدتها ٣٨٧ سنة بعد انفصال مملكة اسرائيل عنها

ولما استولى كورش ملك فارس على بابل اذن لليهود في اواخر حكمهِ ان يرجعوا الى بلادهم بعد ان اخذ عليهم عهودًا انهم لا يخونون بل يكونون تحت الطاعة والانقياد خاضعين للاوامر الفارسية فرجعوا وبنوا الهيكل ومارسوا طقوس عبادتهم وكانوا تحت سلطة ملوك الفرس الى زمن اسكندر الكبير سنة ٣٣٠ ق م وذكر يوسيفوس المؤرخ ان اسكندر الكبير لما تقدَّم بجيوشهِ نحو القدس ليفتحها انتقامًا لامدادهم اهل صور بالذخائر والعلوفات عند ما كان محاصرًا المدينة ظهر لهُ ملاك في الطريق وتهددهُ على ما كان قصدَهُ من خراب اورشليم فخاف اسكندر وعدل عمَّا كان صمَّم عليهِ وعند وصولهِ الى المدينة دخلها كزائر وسجد لاله اسرائيل في الهيكل واتحف الكهنة بهدايا فاخرة ثم تحول عنها قاصدًا داريوس ملك الفرس

ملوك يهوذا			ملوك اسرائيل		
اسم الملك	تاريخ حكمهِ ق م	مدة حكمهِ	اسم الملك	تاريخ حكمهِ ق م	مدة حكمهِ
رحبعام	٩٧٥	١٧	يربعام	٩٧٥	٢١ سنة
ابيام	٩٥٨	٣	ناداب	٩٥٤	٢
آسا	٩٥٥	٤١	بعشا	٩٥٣	٢٤
يهوشافاط	٩١٤	٢٥	ايله	٩٣٠	٢
يهورام	٨٩٤	٨	زمري	٩٢٩	١
عَثَليا ام أخَزْيا	٨٨٥	١	عمري (بنى مدينة السامرة	٩٢٩	١٢
أخَزْيا	٨٨٤	٦	اخاب	٩١٨	٢٢
يواش	٨٧٨	٤٠	اخزيا	٨٩٨	٢
امصيّا	٨٣٨	٢٩	يهورام	٨٩٦	١٢
عزريا او عزيّا	٨١٠	٥٢	ياهو بن نمشي	٨٨٤	٢٨
يوثام	٧٥٨	١٦	يهوآحاز	٨٥٦	١٧
آحاز	٧٤١	١٦	يواش	٨٤٠	١٦
حزقيا	٧٢٦	٢٩	يربعام الثاني	٨٢٥	٤١
منسي	٦٩٧	٥٥	فترة بدون ملك	٧٨٤	١٢
آمون	٦٤٢	٢	زكريا	٧٧٢	٦ اشهر
يوشيّا	٦٤٠	٣١	شلّوم	٧٧٢	١ شهر
يهوآحاز	٦٠٩	٣ اشهر	منحيم بن جاري	٧٧١	١٠ سنين
يهوياقيم	٦٠٩	١١ سنة	فقحيا	٧٦٠	٢
يهوياكين	٥٩٨	٣ اشهر	فقح	٧٥٨	٢٠
صدقيا	٥٩٨	١١ سنة	هوشع	٧٢٩	٩

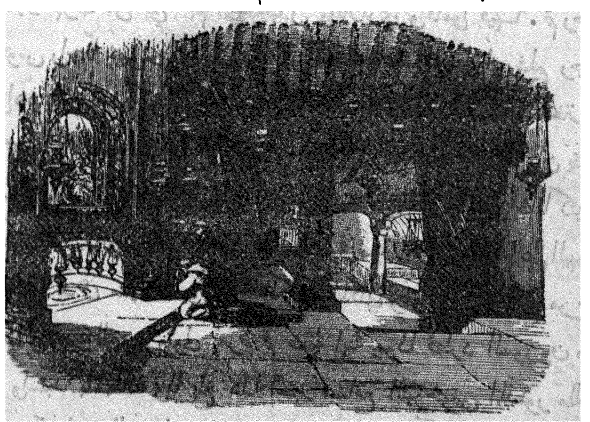
الباب السادس

في تغلب ملوك مصر وسورية على اليهودية واستيلاء الرومانيين عليها الى حين خراب اورشليم

وكان المصريون قد تغلبوا على اليهودية بعد موت اسكندر واستمرت شعوب اليهود تحت تسلطهم مدة طويلة ثم اتى بعدهم السوريون تحت راية انتيوخوس الرابع احد ملوك الدولة السلوقدية فافتتحوا البلاد واستخلصوها واسروا الاهالي واذلوا امة اليهود وجاروا عليها جورًا عنيفًا وقتلوا من الشعب خلقًا كثيرًا فهرب من بقي منهم الى الجبال والبراري واقاموا فيها . ثم رحل انتيوخوس راجعًا بجيوشهِ الى بلادهِ وكان قد اقام نائبًا لهُ على اورشليم رجلًا من قوادهِ يقال لهُ فيلكس وامرهُ ان يلزم اليهود ويجبرهم على اكل لحم الخنزير وان يسجدوا لاصنامهِ ويمتنعوا عن الختان وعن حفظ يوم السبت وان يَقتل كل من خالف امرهُ ففعل فيلكس كما امرهُ سيدهُ ويقال انهُ قتل خلقًا كثيرًا من اليهود ممن كانوا لا يمتثلون لهذه الاوامر . وفي سنة ١٦٦ ق م قام على اليهود قائدٌ جبارٌ يدعى متثيا بن يوحانان الكاهن المكابي وهو اول من قام من المكابيين وانتصر لليهود وتولى امرهم ثم خلفهُ ابنهُ يهوذا فطرد السوريين من البلاد واستبدَّ بالمملكة ولما بلغ هذا الخبر مسامع انتيوخوس المذكور ملك سورية شقَّ عليهِ ذلك واقسم انهُ لا بد من ان يمحو آثار اليهود عن وجه الارض ويطفئَ اخبارهم فتجهز من يومهِ في جيشٍ عظيم وسار قاصدًا البلاد اليهودية فبينما هو في اثناء الطريق وقع من مركبتهِ الى الارض فمات وارتدت عساكرهُ راجعةً الى بلادها . وكان القائد يهوذا بن متثيا المذكور قد توفي

قتيلاً في معركة حدثت بينهُ وبين نيكيروس احد قواد الرومانيين وبموتهِ استولت ذريتهُ على اليهودية وصاروا ملوكًا غير ان الفتن والحركات كانت لم تزل قائمة في اطراف البلاد

وكان الرومانيون قد ارسلوا جيشًا لافتتاح بلاد القدس تحت رياسة القائد بومبي فحاصرها وفتحها بنحو اربعين سنة ق م ثم سلم زمامها الى رجلٍ من بلاد آدوم يسمى انتيباتر وكان من عظماء اليهود واشرافهم ذا شجاعة وبأس وجعلهُ نائبًا للدولة الرومانية على المملكة اليهودية . وسنة ٣٧ ق م صدرت الاوامر من مجلس رومية بعزل انتيباتر المذكور عن ولاية احكام بلاد اليهودية واقام المجلس مكانهُ ابنهُ هيرودس الكبير. وهيرودس هذا هو الذي امر بقتل الاطفال في بيت لحم لكي يميت سيدنا يسوع المسيح لهُ المجد الذي جاء في ملء الزمان مولودًا من مريم العذراء في مغارة بيت لحم وكان قد أُنبئ بمجيئهِ ملكًا لليهود.



مغارة الميلاد في بيت لحم

وكان هيرودس هذا ملكًا مقبلاً مهيبًا مظفرًا ذا سطوة وشوكة وكان مع هذه الاوصاف خبيثًا عسوفًا متمردًا حتى انهُ قتل في مدة ولايتهِ من الخلق ما لا يحصيهِ الا الله سبحانهُ وتعالى وقد قتل ايضًا زوجتهُ وثلثة من اولادهِ وكان قد

اوصى ابنهُ بان يقتل بعد موتهِ جميع من في السجون لكي يكون في كل بيت عويل ونحيب بعدهُ لئلا تسر الناس وتبتهج بفقدهِ اما ابنهُ فلم يفعل ذلك وكانت مدة ملكهِ سبعًا وثلاثين سنة ولهُ من العمر سبعون سنة وخلفهُ ابنهُ ارخلاوس الذي سمى نفسهُ هيرودس ايضًا . وهكذا كانت ملوك اليهود خاضعة للدولة الرومانية واستمروا على مثل ذلك الى بعد صعود المسيح بنحو اربعين سنة ثم انهم عصوا وتمردوا وخرجوا عن الطاعة وامتنعوا من حمل الخراج المرتب عليهم فلما نمي خبرهم الى قيصر رومية شق عليهِ الامر واستدعى اليهِ في الحال القائد وسبسيانوس وكان من عظماء روسائهِ وامرهُ ان يسير بالعساكر والجنود الى بلاد اليهود فيستاصلهم ويخرب مدنهم ويهدم حصونهم وقلاعهم فامتثل وسبسيانوس امرهُ وسار اليهم مع ابنهِ تيطس بالجيوش الرومانية فالتقاهم اليهود وحدث بين الفريقين معارك ووقائع هائلة كان اكثر الانتصار بها للرومانيين . ثم سار وسبسيانوس بجنودهِ الى طبرية وجبل الجليل وبعث الى اليهود يدعوهم الى الصلح ويعدهم بالجميل ان اطاعوهُ فلم يجبهُ اليهود الى سوالهِ . وكان قد حدث بين اليهود في تلك الاثناء انشقاق وانقسام حتى آل الامر بينهم الى حروب اهلية اضعفت شوكتهم وعجلت على خرابهم ودمارهم . وفي ذلك الوقت ورد الخبر الى وسبسيانوس بوفاة نيرون قيصر فسار وسبسيانوس الى رومية ليأخذ الملك لنفسهِ وولّى ابنهُ تيطس مكانهُ لكي يقوم بحصار اورشليم

وعظمت الحروب والفتن بين اليهود واشتد حنق بعضهم على بعض فاغتنم تيطس تلك الفرص وهاجم اورشليم وحدث بينهُ وبين اليهود وقائع هائلة قُتِل فيها من الفريقين خلقٌ كثيرٌ وكان تيطس قد ارسل الى اليهود مرّاتٍ كثيرة يدعوهم الى التسليم شفقةً عليهم من الهلاك وهم يمتنعون وكثيرًا ما خاطبهم بنفسهِ مشافهةً ووعدهم بالاحسان والعفو والجميل فلم يجدِ ذلك نفعًا بل كانوا يزدادون عصاوةً ويجيبونهُ بالشتائم والكلام المهين فغضب اخيرًا منهم وعزم على اعدامهم فشدّد الحصار على اورشليم واحاط بها من كل الجهات

وقطع عنها الامداد فاشتد الجوع بين الاهالي ومات اكثر اليهود وكانوا ياكلون الجلود ولحوم الكلاب حتى اضطرت احدى نسائهم ان تاكل ابنها حيًّا . وكان تيطس قد زاد في القتال والحصار وباشر بنفسهِ الحرب ونصب آلات القتال واقام ابراجًا من حديد وشحنها بالمقاتلين وتقدم تجاه المدينة بقوة ونشاط وهدم اسوارها وافتتحها عنوةً بعد مقاومة عظيمة وهلك في اثناء هذا الحصار من اليهود حسب قول يوسيفوس المؤرخ نحو الف الف نفس واحترق الهيكل والمدينة بالنار وجرى دم القتلى في الاسواق كالسواقي وكان عدد المسبيين والاسارى سبعة وتسعين الفًا . وكان تيطس عند رحيلهِ من القدس يلقي منهم في كل منزلةٍ للسباع والوحوش الضارية فتمزقهم والباقون بيعوا عبيدًا في رومية

وكان قد بقي جانب من اليهود في اورشليم فاخذوا يرممون المدينة بعد رحيل الرومانيين واقاموا منها جانبًا عظيمًا فادركهم فيما بعد الامبراطور ادريان الروماني فهدم ما كانوا قد جددوهُ من اسوار المدينة وبيوتها وجعلها مساحة واحدة على الارض وفلحها وزرعها ملحًا وبهذه الحروب انتهى خراب اورشليم وانقرضت دولة اليهود اجمع وتفرّق شملهم وانتشروا في الاقطار ولم يقم لهم بعدها قائمٌ وكان ذلك اتمامًا لما انذر المسيح رسلهُ حيث قال لا يبقى من هذه المدينة حجرٌ على حجر

الباب السابع

في ذكر بعض انبياء اليهود ومجيء المسيح وتفرق اليهود في العالم

فلنرجع الان ونتكلم قليلاً عن بعض انبياء اليهود الذين كان الله يكلمهم ليرشدوا الشعب وينهوهم عن العبادة الاصنامية فمنهم النبي ايليا الذي اقام

ابن الارملة من الموت وكان نبيًّا عظيمًا وهو الذي كانت تاتيهِ الغربان بالقوت وهو الذي نطق بغضب الله الذي كان مزمعًا ان يحل على الملك اخاب الشرير وتنبأ بان الكلاب سوف تاكل جثة زوجتهِ ايزابل وهو الذي انزل نارًا من السماء وابتلعت رجلين من القواد مع عسكرهما وهو الذي ضرب نهر الاردن بردائهِ فشقهُ واجتاز على اليابسة وهكذا سرَّ بهِ الله حتى انهُ نقلهُ حيًّا الى السماء بمركبةٍ من نار

ومنهم اليشع النبي الشهير الذي من جملة عجائبهِ انهُ عند ما لعن الاولاد الذين استهزأوا بهِ ظهرت دبتان وافترستا منهم ٤٢ ولدًا وبعد موت هذا النبي باشهرٍ قليلة حدث انهُ وضع ميت في نفس المكان الذي كان قد دفن فيهِ فحالما مست جثة الميت عظام النبي نهض وعاش

ومنهم يونان النبي الذي ابتلعهُ الحوت وبقي في جوفهِ ثلاثة ايام ثم قذفهُ الى البر سالمًا ومنهم اشعيا وحزقيال وارميا الذين تنبأُوا بالمصائب التي كانت مزمعة ان تاتي على اسرائيل ويهوذا . ومنهم دانيال الذي اختصهُ الله بحكمة فائقة وكان قد أُخذ الى بابل اسيرًا في السبي الاول وبمساعدة الله فسَّر للملك نبوخذ نصر حلمًا فنال نعمةً في عينيهِ وسلطةً على كل ولاية بابل وهو الذي فسر ايضًا لبلشاصر الملك ليلة الوليمة الكلمات المبهمة التي كتبت على الحائط التي كانت تشير الى انقراض مملكة اشور وهو الذي طرح في جب الاسود بامر الملك داريوس المادي لتمسكهِ بديانة الله وعدم انكار ايمانهِ واذ لم يصبهُ ادنى ضرر اخرجهُ الملك من الجب وامر بطرح الذين كانوا قد وشوا عليهِ فمزقتهم الاسود وقد ارتقى الى اعلى درجة سامية من الكرامة والمجد في زمن داريوس المذكور والملك كورش

اما نبوات هذا النبي فهي من اغرب واوسع من كل ما سواها لانها تتضمن انباء باحوال العالم عمومًا وبحال كنيسة الله في زمن اليهود والمسيح الى نهاية الزمان واشهر نبواتهِ الوحي بمجيء المسيح وتعيين الوقت سبعين اسبوعًا اي ٤٩٠

يومًا باعتبار كل يوم سنةً فاذا اعتبرنا بداءة هذه المدة من تاريخ صدور الامر المذكور في نبوة عزرا ٧ : ٢٥ الذي كان بنوعٍ خصوصي لاجل اقامة الناموس والحكومة وتثبيتها لا من الاوامر الصادرة قبلاً من الملك كورش وداريوس لانها كانت لاجل بناء الهيكل فقط تكون المدة الى ميلاد المسيح ٤٥٧ سنة واذا اضفنا اليها ٣٣ سنة وهي المدة من ميلادهِ الى موتهِ فيبلغ مجموعها

٤٩٠ سنة وهذا العدد يساوي المدة المعينة في نبوة دانيال
وذلك من خروج الامر بتجديد اورشليم
الى الوقت الذي فيهِ تصنع كفارة
الاثم ويؤتى بالبر
الأبدي

الفصل الخامس

في تاريخ الماديين والفرس

الباب الاول

في بعض ملوكهم واحوال ميلاد كورش

انهُ اذ كان الماديون والفرس من نسل واحد ولغة وديانة واحدة وبين كلٍ منهما علاقة في الانساب وكانت بلادهما متجاورة استصوبنا ان نضم هاتين المملكتين في فصل واحد ونتكلم فيهما كمملكة واحدة فنقول

ان بلاد مادي المعروفة الان باذربيجان والعراق العجمي الواقعة جنوبًا بين الجبال المحيطة ببحر الخزر كانت قديمًا تحت حكم مملكة اشور واستمرت خاضعة لها الى سنة ٧٥٩ ق م عند ما نهض ارباسيس قائد جيوش سردنفول ملك اشور واتحد مع بيليزيس واهاجا تلك الثورة التي تقدمت عند ذكر مملكة اشور واقتسما البلاد

فبعد وفاة ارباسيس المذكور اقام الماديون عليهم ملكًا اسمهُ ديجوسيس وكان حكيمًا عاقلاً يقضي بالعدل والاستقامة بين الجميع ولما استقر لهُ الملك شرع في بناء مدينة عظيمة سماها اكباتانا قيل هي همذان وجعل لها سبعة اسوار متينة وحصينة بنوع ان كل سور من هذه الاسوار لا يعلو عن الثاني الا بمقدار شُرَفهِ فقط وكانت تختلف هذه الشُرَف في الالوان ما بين ابيض واسود وازرق واحمر وارجواني وكان السادس من فضة والسابع من ذهب وداخل السور السابع كانت سراية الملك ديجوسيس المذكور وقد صنع بها محلاً حصينًا

لحفظ خزائنهِ وكنوزهِ واما الشعب فكان يسكن بين الاسوار . وحكم د يجوسيس ٥٣ سنة من دون ان يقيم حربًا وكان مهيبًا عند الجميع لانهُ لم يكن يتنازل لمخالطة الشعب ومجالسة الكبار بل كان يتعاطى اشغالهُ على انفراد وكانت الدعاوي تعرض عليهِ بالورق فكان يقضيها ويرسلها باتًّا الحكم عليها . وكان لهُ جواسيس في كل اطراف المملكة يلاحظون اعمال الرعايا ويقررون لهُ عن احوالهم . وجلس بعدهُ على تخت الملك ابنهُ فراوَرت فاقام حروبًا عديدة واخضع لسلطنتهِ بلاد فارس وجملة ممالك من اسيا ثم اقام الحصار على نينوى ولكن مع ضعف شعوبها في ذاك الوقت لم يتيسر لهُ امتلاكها وقُتِل امام اسوارها مع جانب عظيم من جنودهِ وكانت مدة ملكهِ ١٢ سنة

ثم تولى بعدهُ ابنهُ كياكسار وكان محبًا للحرب اكثر من ابيهِ وهو اول من شرع في ترتيب نظام العساكر فقسمها الى فِرَق وصفوف كمشاة وخيالة ورماة القوس فان هذا الترتيب لم يكن قبل ذلك بل كانت تختلط فرق العساكر بعضها مع بعض عند الحرب

ومن اشهر انتصارات هذا الملك افتتاحهُ مدينة نينوى وقد اخذ بثار ابيهِ من اهلها فانتقم منهم واستعبدهم ثم جال بجنودهِ واستولى على شمالي ما بين النهرين وجعل لهُ مدخلاً الى اسيا الصغرى فاخضعها واذلها واضافها الى ملكهِ ثم تقدم الى ما وراء نهر هاليس وحارب الليديين وكان السبب في ذلك ان قسمًا من السكيثيين كانوا قد قصدوهُ ملتجئين اليهِ فقبلهم واحترمهم وعلى الخصوص لما رآهم يحسنون رمي السهام فامرهم ان يعلموا اولاد مادي لغتهم مع هذا الفن ووكل اليهم مائدتهُ الخاصة فكانوا يذهبون الى البرية في كل يوم ويصطادون لهُ من الطيور والغزلان ويصنعونها طعامًا لهُ فاتفق انهم خرجوا يومًا كعادتهم ورجعوا من الصيد ولم ياتوا بشيء واذ كان كياكسار سريع الغضب عاملهم بقساوة شديدة فغضبوا منهُ وارادوا ان ياخذوا بثارهم فجاءوا باحد الاولاد الذين وُكل اليهم تعليمهم وتربيتهم وقطّعوهُ وصنعوهُ طعامًا للملك كما

كانوا يصنعون بالصيد ووضعوهُ على مائدتهِ وذهبوا حالاً الى بلاد ليديا واستغاثوا بملكها فاغاثهم ولما اكل كياكسار ومن عندهُ من ذلك الطعام المذكور وعلم بحقيقة الحال غضب غضبًا شديدًا وارسل يومئذٍ سفيرًا الى ملك ليديا وكان اسمهُ آليات يطلب منهُ تسليم القوم فأبى وامتنع فحقد عليهِ كياكسار واضمر لهُ السوء وزحف اليهِ بجندهِ لينتقم منهُ ولما اقترب من تلك البلاد استقبلهُ ملك ليديا بجيوشهِ وجنودهِ وانتشبت الحرب بينهم مدة خمسة ايام متوالية ولم يغلب احدٌ . وفي اليوم السادس بينما كان القوم في اشد قتال انكسفت الشمس انكسافًا عظيمًا وتحوَّل نور النهار الى ظلمة دامسة حسبما كان اخبر عن ذلك طاليس الفيلسوف اليوناني الذي كان معدودًا من الحكماء السبعة وهو اول من اشتهر بين اليونان في علم الفلك والهندسة . ولما شاهد ملك مادي وملك ليديا تلك الحادثة المخيفة كفّا عن الحرب وعقدا صلحًا ولاجل تثبيت هذا الصلح وتاكيد عهد المحبة بين الطرفين زوَّج ملك ليديا ابنتهُ بالامير استياج ابن الملك كياكسار وجعل وزراء الدولتين جراحًا خفيفة في ايديهم وشربوا بالتبادل الدم الذي جرى منها علامة للارتباط والتحابّ حسب عادتهم في ذلك الزمان ثم رجع كياكسار الى بلادهِ ومات عقيب ذلك وكانت مدة حكمهِ نحو اربعين سنة وخلفهُ ابنهُ استياج المذكور انفًا سنة ٥٨٥ ق م

وكان قد ولد للملك استياج ابنة اسمها مندان فلما كبرت زوَّجها بكمبيز ملك فارس وكانت مملكة فارس يومئذٍ خاضعة للماديين . فحدث بعد ذلك بايام قليلة ان استياج راى حلمًا وهو ان الكرمة التي كانت في بستانهِ خرجت من قصر ابنتهِ المذكورة وامتدت غصونها حتى انها ظللت كل اقاليم اسيا فنهض من فراشهِ خائفًا مذعورًا وعند الصباح استدعى اليهِ السحرة وقص عليهم تلك الروٴيا فاجابوهُ ان ابنتهُ مندان ستلد ابنًا يحكم على جميع ممالك اسيا ويستولي على مملكة مادي ايضًا فراعهُ ذلك وتاثر من هذا الكلام واستدعى ابنتهُ من بلاد فارس وحجزها عندهُ قاصدًا اعدام الطفل الذي يولد منها ولم

يمض الا اشهرٌ قليلة حتى وضعت ولدًا ذكرًا فتحقق استياج كلام السحرة ودعا اليهِ رجلًا من خواص قوادهِ يقال لهُ ارباغوس وكان يعتمد عليهِ في جميع اموره وقال لهُ اريد منك الان ان تاخذ هذا الطفل الصغير الى بيتك وتقتلهُ وتستر قتلهُ ولاتخالفني في هذا الامر فتندم ثم سلمهُ اياهُ وكانت امهُ قد البستهُ ملابس فاخرة وثمينة فاخذهُ ارباغوس ورجع الى بيتهِ حزينًا كئيبًا واخبر زوجتهُ بما كان من امر استياج بخصوص الولد فقالت لهُ ماذا عولت انت ان تعمل قال قد أُجبرتُ على قتلهِ وانا اخاف ان قتلتهُ بيدي اكون قد سفكت دمًا بريًّا لاسيما انني من اهل الولد والامر الاعظم من ذلك هو ان الملك استياج قد تقدم في السن وليس لهُ ولد يرث سرير المملكة من بعدهِ الا ابنتهُ مندان ام هذا الطفل فلا شك انها ستقتلني انتقامًا على قتلي ولدها ولكي اكون مطمئنًا من هذا القبيل فليجرَ هذا الامر على غير يدي ثم انهُ استدعى اليهِ احد رعاة مواشي استياج وكان اسمهُ ميترارات واسم زوجتهِ سباكو التي معناها كلبة في اللغة المادية وقال لهُ قد امرني الملك ان اقول لك ان تاخذ هذا الطفل وتلقيهُ على اوعر الجبال ليهلك ويموت واعلم يقينًا انك اذا ابقيتهُ حيًّا سيميتك في الحال باشنع ميتة فاخذ ميترارات الولد ورجع الى بيتهِ واتفق ان زوجتهُ ولدت في ذلك اليوم ابنًا ميتًا وكانت في قلق واضطراب عظيم عند ما استدعى ارباغوس زوجها اليهِ اذ لم يكن لهُ عادة ان يستدعيهُ فلما رجع اليها واعلمها بواقعة الحال توسلت اليهِ ان لا يقتل الولد فقال لابد من قتلهِ لان ارباغوس سوف يرسل اناسًا ليكشفوا لهُ الخبر فيقتلني فقالت لهُ انا ادبر لك طريقة مناسبة تقيك من هذا الخطر قال وما هي قالت اني قد ولدت ابنًا ميتًا فخذهُ وضعهُ على بعض الجبال ونحن نربي ابن مندان ابنة الملك استياج كابننا وبهذه الواسطة لا يقدر احد ان يقول لك انك خالفت امر ساداتك ويكون لنا بذلك حظ وافر وشرفٌ رفيع فاستصوب الراعي راي زوجتهِ ودفع اليها الولد ووضع ابنهُ الميت في سرير ذلك الامير الصغير مع كل ما كان عليهِ من الثياب النفيسة واخذهُ

الى جبل عالٍ والقاهُ هناك ورجع فاخبر ارباغوس بانهُ قد تمم كل ما امرهُ بهِ فارسل ارباغوس من يعتمد عليهِ ليتحقق ذلك ولما علم بموتهِ امر بدفنهِ واما الامير الصغير فربتهُ سباكو زوجة الراعي ودعت اسمهُ كورش . فهذا هو الملك كورش المشهور الذي شاع ذكرهُ في تلك القرون وتغلب على ممالك كثيرة وافتتح مدنًا حصينة وهو كسرى الاول من ملوك الفرس

فنشأ كورش ولدًا نجيبًا وكان يلعب مع اولاد تلك القرية التي ربي فيها فلما بلغ سن العشر اقامهُ الاولاد رئيسًا عليهم فكان يحكم بينهم ويجري اوامرهُ عليهم ويقيم منهم حرّاسًا على بلاطهِ الوهميّ حسب عوائد الملوك ويختار منهم قوادًا ونظارًا ويقلدهم الوظائف والمصالح وينظم بعضهم في زمرة جنود وعساكر واعوان وكان احيانًا يامر على بعضهم بالضرب وبعضهم بالحبس ويقول قد حكمت بذلك وكان من جملة الاولاد غلامٌ من اهل اشراف مادي فاتفق انهُ رفض بعض اوامر كورش فامر الاولاد ان يقبضوا عليهِ واخذ يضربهُ بالعصا ضربًا مولمًا فذهب الغلام الى المدينة واخبر اباهُ بما فعل بهِ ابن الراعي فغضب ابوهُ جدًا واخذ ابنهُ واجتمع بالملك استياج وقص عليهِ تلك القصة واراهُ اثار الضرب على اكتاف ابنهِ فبعث الملك رسولاً ياتي لهُ بمترارات الراعي وابنهِ . فلما مثلا بين يديهِ قال الملك لكورش ناظرًا اليهِ بعين الاحتقار كيف تجاسرت ان ترفع يدك وتضرب من هو اعظم واشرف منك فاجابهُ كورش وقال يا مولاي اني لم افعل ذلك الا بالعدل والانصاف لانهُ كما لا يخفى على عظمتك ان اولاد القرية الذين كان بينهم هذا السيد الشريف اقاموني ملكًا عليهم لما كانوا يلعبون وفوضوا اليّ امرهم وكانوا كلهم يطيعون اوامري وانا انصف بينهم ولما كان هذا الغلام قد خالف شروط الترتيب والقوانين بعصيانهِ وعدم امتثالهِ لاوامري واحكامي قاصصتهُ على مخالفتهِ فاذا كان ذلك ذنبًا يستحق العقاب ايها الملك فها انا بين يديك من جملة العبيد فافعل بي ما تريد فلما سمع الملك هذا الكلام واحدق جيدًا بالولد اندهش وحار من

سُرعة جوابهِ وعذوبة كلامهِ وعرف انهُ ابن مندان ابنتهِ لانهُ كان اشبه الناس بها ولا سيما ان عمرهُ كان موافقًا لتلك الحادثة التي ذكرناها فلبث برهةً لم يتكلم ثم امر بادخال كورش الى البلاط واستدعى الراعي اليهِ وسالهُ على انفراد من اين اخذ الولد وممن استلمهُ فاجاب انهُ ابوهُ وان امهُ حية فتهددهُ بالكلام فاقرَّ الراعي بما كان واعاد عليهِ القصة من اولها الى آخرها ولما وقف استياج على الحقيقة لم يحاسب على الراعي ولكنهُ غضب على القائد ارباغوس فامر حراسهُ ان ياتوا بهِ حالاً فلما اتى قال لهُ اعلمني الحقيقة ماذا فعلت بالولد الذي دفعتهُ اليك لتميتهُ فاقر ارباغوس بما كان ولم يكتم عنهُ شيئًا خوفًا من العواقب فسكن الملك ارتعاشهُ وقال لهُ ان الولد باقٍ في قيد الحياة ثم قال يا ارباغوس ان صنيعك هذا قد سرني جدًّا لان ابنتي كانت قد عنفتني على ذلك فندمت على ما صدر مني واذ ذاك ساءني من الآن وصاعدًا بتربيتهِ وتهذيبهِ فارسل ابنك الآن الى داري ليلعب معهُ ويوانسهُ وانت تعال في هذه الليلة وتعشَّ معي فاني اريد ان اقدم تقدمة للآلهة شكرًا لهم لانهم رحموني وردُّوا عليَّ حفيدي بالسلامة

فشكر ارباغوس الملك على ملاطفتهِ لهُ وارسل ابنهُ في الحال الى البلاط وكان وحيدهُ ولهُ من العمر ثلث عشرة سنة . فلما راهُ الملك امر الخدام بذبحهِ وان يقطعوا لحمهُ ويطبخوهُ ويجعلوا منهُ الوانًا مختلفة من الطعام ويضعوها وقت العشاء امام ابيهِ ارباغوس وان يضعوا الراس والرجلين في سلة مغطاة ويفردوها في ناحية لوقت الطلب فامتثلوا امرهُ وذبحوا الغلام وباشروا في امر الوليمة وهيأُوا كل شيء فلما حان وقت العشاء اتى المدعوون ومعهم ارباغوس وعند جلوسهم على المائدة قدموا الى استياج والباقين الاطعمة المطبوخة من لحوم الضان والطيور والى ارباغوس لحم ابنهُ فاكل وهو لا يعلم ولما فرغوا من الطعام قال الملك كيف رايت هذا العشاء فاجابهُ انهُ سُرَّ بهِ احسن سرور فامر حينئذٍ الخدام ان ياتوا بتلك السلة ويضعوها امام ارباغوس فاحضروها

ووضعوها امامهُ فقال لهُ الملك ارفع غطاءها فرفع عنها الغطاء واذا بهِ يرى من داخلها بقايا ابنهِ فانكسر قلبهُ واقشعر جسمهُ وغاب عن الصواب ولكنهُ اظهر الجلد واخفى حزنهُ وغمهُ وقال ان كل ما صنعهُ الملك هو مقبول لديهِ ثم رجع الى بيتهِ حزينًا كئيبًا ودفن عظام ابنهِ

وكان استياج قد صفح عن قتل كورش وارسلهُ من ذلك اليوم الى اهلهِ في بلاد فارس وكان ابواهُ كمبيز ومندان قد ظنَّا انهُ مات فلما اشرف عليهما واخبرهما بواقعة الحال وكيف ربتهُ سباكو زوجة راعي البقر التي لم يزل يشكر فضلها ولا ينسى معروفها كل مدة حياتهِ فرحا بسلامتهِ . وكان كورش ينمو في القامة والقوة والجسارة حتى صار من انجب شبان عصرهِ وانبههم

الباب الثاني

في اصل الاعجام وتدمير كورش مملكة بابل ومغازيهِ المشهورة وموتهِ ٠

اصل شعوب الفرس من ذرية عيلام بن سام بن نوح وكانوا يدعون عيلاميين نسبةً الى عيلام المذكور ولكننا لا نعلم من امرهم شيئًا واضحًا الاَّ بعد مضيّ نحو الف وثمانماية سنة من الطوفان وذلك من وقت ظهور الملك كورش المذكور

وكان ارباغوس المقدَّم ذكرهُ يترقب الفرص لياخذ بثارهِ من استياج الذي قتل ولدهُ واطعمهُ من لحمهِ فاخذ يسعى في هلاكهِ ويدبر على انقراض مملكتهِ بواسطة تهييج وزراء الدولة عليهِ بالدسائس الخفية فراسل كورش سرًّا وحثهُ على النهوض لاخذ بلاد مادي ووعدهُ بالمساعدة والامداد واذ كان

يخاف من وقوع رسائلهِ بين ايدي المحافظين والحرّاس وانكشاف امرهِ كان ياتي بالارنب ويشق بطنهُ بدون ان يجز صوفهُ ويضع الكتاب في جوفهِ ثم يخيطهُ ويلقيهِ في شبكة ويعطيهِ لاحد خدَّامهِ الذي يثق بهِ حتى كل من يراهُ لايشك بانهُ من جماعة الصيادين ثم يامرهُ ان يذهب بهِ الى كورش على تلك الصورة

وكان كورش في تلك الايام قد عظم شانهُ وارتفع مكانهُ واحترمهُ جميع اهالي فارس نظرًا لنجابتهِ وعلوّ همتهِ فلما وقف على رسائل ارباغوس اخذ يستميل قلوب عظماء الاعجام اليهِ ويحثهم وينهض هممهم ليوافقوهُ على قتال الماديين واستخلاص مملكة الفرس من حكمهم فاجابوهُ الى ذلك لانهم كانوا يريدون الاستقلال والتخلص من جورهم وظلمهم وفي ايامٍ يسيرة انضمت اليهِ القبائل والطوائف واخذ يجمع الجيوش والعساكر حتى صار عندهُ جيشٌ عظيم من الفرسان والشجعان

ولما بلغ الملك استياج ذلك الخبر ارتاب وخاف عاقبة الامر فارسل بعض معتمديهِ الى كورش يستدعيهِ اليهِ على سبيل الزيارة فاجاب كورش وقال لذلك الرسول ارجع الى مولاك وقل لهُ يقول لك كورش انهُ سيزورك عن قريب بالابطال والفرسان واعيان الفرس فلما وقف استياج على هذا الخطاب تحذَّر من ذلك اليوم فجمع الجيوش والجنود وجعل ضباط المشاة والخيالة تحت قيادة ارباغوس

واما كورش فانهُ بعد ذلك الكلام الذي كان قد ارسلهُ الى الملك استياج بايامٍ يسيرة زحف اليهِ بجموعهِ وابطالهِ . فلما تقابل الجمعان وانتشبت الحرب بين الفريقين فالعساكر الذين لم يكن ارباغوس اعلمهم بمقاصدهِ حاربوا بشجاعة وبسالة بخلاف الاخرين فانهم تاخروا عن القتال وانضمَّ بعضهم الى صفوف الاعداء . وكان ذلك يومًا عظيمًا بين القوم اشتدَّ فيهِ القتال واتسع المجال وسفكت الدماء وكان قد داخل الفرس الحماسة فقاتلوا بقوة ونشاط

وانعطفوا على اعدائهم فكسروهم وهزموهم بعد ان قتلوا منهم عددًا كثيرًا واسروا جمًّا غفيرًا وكان من جملة الماسورين الملك استياج فبقي في اسر كورش الى ان مات وكانت مدة ملكهِ ٣٥ سنة

وبعد وفاة استياج تبوأ تخت ملك مادي ابنهُ كياكسار الثاني وهو داريوس المادي خال كورش فكان كورش ملكًا على فارس تحت يدهِ وقائد جيوش كل بلاد مادي وكان صاحب الامر والنهي مكرمًا ومهابًا عند الجميع ولم يكن لداريوس من الولاية والسلطنة الاَّ مجرد الاسم فقط وجميع الامور بيد كورش

وكانت مدة ولاية داريوس على بابل نحو سنتين وبعد وفاتهِ اختلس المملكة رجلٌ من اشراف بابل يدعى نابوناديوس وكان كورش ابن اخت داريوس يومئذٍ ملتهيًا في حروبهِ وافتتاحاتهِ ممالك اسيا فلما اتصل اليهِ ذلك الخبر حوَّل وجههُ نحو بابل لينتقم من ذلك المختلس واحاط بها بجيوشهِ مدة سنتين ولم يقدر عليها لتحصينها بأسوارٍ مرتفعةٍ وقوية حتى كان هدمها او افتتاحها من اصعب الامور وماذا تفعل الشجاعة او الأَدوات الحربية كالمنجنيق وغيرهِ في سور عرضهُ ثلثون قدمًا او خمسون على قول البعض فكان السبيل الوحيد للدخول الى المدينة هو تحويل نهر الفرات عن مجراهُ فانهُ كان يمر في وسط بابل ويقسمها الى شطرين . فاعتمد على هذا العمل سرًّا وامر بفتح تُرَع وخلجان كبيرة حول المدينة ولما تمت اختار وقتًا مناسبًا لاتمام مقاصدهِ فامر بفتح المنافذ التي بين النهر والتُرَع المذكورة آنفًا فتحولت كل مياه الفرات الى تلك الخلجان وصار النهر ارضًا يابسة فدخلت عساكر الفرس وكورش في مقدمتهم بعضهم من عند مدخل النهر والبعض من عند مخرجهِ منها وهجموا على اهل المدينة بغتةً وفتكوا بهم فتكًا عظيمًا فكانت ساعة مهولة لم يُعرَف فيها صوت العدو من صوت الصديق فاستولى كورش على المدينة وامتلكها واذ لم يكن لداريوس المذكور اولاد ورث كورش من خالهِ مملكتي مادي وبابل وضمها الى مملكة

فارس وصارت هذه الممالك من ذلك الوقت مملكة واحدة تحت تسلط كورش. وظن اكثر المؤرخين القدماء ان افتتاح كورش مدينة بابل كان في زمن الملك بلشاصر غير انهُ قد ظهر وتحقق من الاكتشافات الحديثة انهُ بعد موت بلشاصر المذكور تناوب كرسي المملكة ابنهُ لابورا سوارخاد وحكم مدة سنة واحدة فلو كان كورش قد افتتح بابل في ايام بلشاصر لما سمح لابنهِ ان يملك بعدهُ بل كان من باب اولى ان يقيم خالهُ داريوس ملكًا بعد افتتاح المدينة وهذه دلالة قوية تؤيد صحة ما اوردناهُ

وكان الملك كورش موفقًا منصورًا في جميع وقائعهِ فاخضع الفرثيين وجميع البلاد التي بين النهرين وارمينيا وسورية واسيا الصغرى وجانبًا عظيمًا من بلاد العرب وضرب الخراج على ملوكها وولاتها وكان قد عبر بجيشهِ الجرار نهرَي دجلة والفرات وجعل معسكرهُ في اقليمي خوزستان والعراق . ومن جملة انتصاراتهِ العظيمة استيلاؤهُ على مملكة ليديا واذلالهُ ملكها كريسوس الذي كان افتتح جملة ولايات في اسيا

ولكن اذ لم يكن للانسان دوام ولو مهما ساد وظفر انتهت حياة كورش في حربٍ اقامها على السكيثيين المعروفين الآن بالتتر القاطنين تجاه بحر الخزر فالتقتهُ الملكة طوميريس بجيوشها وابطالها وحدث بين الفريقين قتالٌ شديد قتل فيهِ ابن هذه الملكة وكانت الدائرة على الفرس فانهزموا اقبح هزيمة وأُسر منهم عددٌ كثيرٌ وكان من جملة الماسورين الملك كورش فقتلتهُ الملكة بولدها وكانت مدة ملكهِ ٣٠ سنة

الباب الثالث

في ولاية الملك كمبيز بن كورش وقد سمى نفسهُ بختنصر الثاني

ثم جلس بعد كورش على سرير المملكة ابنهُ كمبيز وكان عاتيًا جدًّا جافي

الطبع سفاكًا للدماء عديم الشفقة محبًّا للحروب وافتتاح الممالك مغرمًا بشرب الخمر ومما يحكى عنهُ انهُ طلب يومًا من احد ندمائهِ المسمى بركزاسبس على ان يخبرهُ بما تقول الناس عنهُ فقال لهُ انهم يمدحون احكامك وحسن اوصافك ويرون انهُ لا عيب فيك الَّا الانهماك بالخمر ولولا ذلك لفضلوك على جميع الناس ثم اخذ ينصحهُ ويبين لهُ الاضرار الناتجة من ادمان المسكرات فلما سمع كمبيز كلامهُ غضب وطلب ان يؤتى اليهِ بكمية وافرة من الخمر فشرب منها مقدارًا كثيرًا ثم امر باحضار ابن بركزاسبس وامرهُ ان يقف في آخر القاعة وقال لابيهِ اريد ان تعلم الآن ان كانت الخمر قد اضعفت بصري او غيبت فكري وارجفت يدي ثم طلب قوسًا ونشابًا ورمى الولد بسهم في فوادهِ فوقع قتيلاً

وقد ذكرنا هذه القصة المحزنة واثبتناها هنا اولاً لصحتها وثانيًا ليتخذ القاري والسامع الامثلة المفيدة من جهة تعاسة تلك العصور المظلمة وسعادة هذه الايام المتنورة التي يبذل فيها الملوك غاية العناية والهمة في نجاح امور شعوبهم ورعاياهم ومعاملتهم لهم كبنين وليس كعبيد وهذه المعاملات الحسنة ليست ناتجة الَّا من نور الديانة التي تامر بان نعامل الناس كما نريد نحن ان يعاملونا

وكانت افكار كمبيز ومقاصدهُ متجهة نحو افتتاح بلاد مصر في زمن فرعون اماسيس وقد نقل المؤرخون في شان ذلك اخبارًا مختلفة فمنها ان اماسيس المذكور كان قد تمرَّد على الدولة الفارسية وعصى عليها واستقل بالملكة بعد ان كان قد افتتحها الملك نبوخذنصر الاول واقام عليها عاملاً ويقال ان الذي حملهُ على ذلك رجلٌ يوناني اسمهُ فانيس كان قائد جيوش اماسيس وكان قد حدث بينهُ وبين مولاهُ نزاع ونفور فحقد عليهِ وانتهز هذه الفرصة وقصد الملك كمبيز واغراهُ بقتال اماسيس وافتتاح المملكة المصرية واشار عليهِ ان يخاطب ملك العرب ويطلب اليهِ المساعدة والامداد بجلب الماء الى العساكر في البرية التي كان مزمعًا ان يمرَّ بها فارسل كمبيز رسلاً الى ملك العرب يطلب اليهِ المعونة على قطع تلك الفلوات الشاسعة وعاهدهُ بقسمٍ انهُ

يكون لهُ صديقًا واميناً كل ايام حياتهِ فتعاهد الاثنان على ذلك وتحالفا على عدم الخيانة ونقض العهود وبعد ذلك جهز كمبيز الجيوش وقادها بنفسهِ وزحف قاصدًا الديار المصرية وارسل ملك العرب يومئذٍ كل الجمال الموجودة في مملكتهِ الى البرية محملةً زقاقًا مملوة ماء

وفي اثناء ذلك توفي فرعون اماسيس ملك مصر وتولى مكانهُ ابنهُ سمانيتوس فلما بلغهُ قدوم كمبيز اليهِ جهز جيوشًا لمقاومتهِ فالتقى جيش الفرس وجيش مصر عند مصب النيل الشرقي في مكان يدعى سين واشتبك القتال بين الفريقين واشتدت بينهم الحرب وكان يومًا هائلاً قتل فيهِ من الطرفين عددٌ كثيرٌ فانتصرت الفرس انتصارًا عظيمًا وانهزم الجيش المصري بخسارة جسيمة الى مدينة منفيس فتبعهم كمبيز بجيوش فارس الى هناك وحاصر المدينة وافتتحها عنوةً بعد وقائع وهجمات هائلة وقبض على سمانيتوس وقتلهُ وابنهُ معًا

وقال هيرودوتس في تاريخهِ اني رايت في الميدان الذي وقعت فيهِ الحرب الاولى عند مصب النيل الشرقي عظام الذين قتلوا في ذلك اليوم مكومة من كل جهة فكانت جماجم الفرس ليّنة بهذا المقدار حتى انها كانت تثقب بوقع حجر صغير واما جماجم المصريين فكانت صلبة لا تكسر ولا بضربة حجر كبير فسالت عن السبب فقيل لي ان المصريين يحلقون شعور رؤوسهم وهم صغار السن فتشتد الجمجمة وتصلب بواسطة حرارة الشمس واما الفرس فلم يعتادوا ذلك فبقيت جماجمهم ضعيفة لينة

واذ كان كمبيز يعلم ان المصريين يعظمون الكلاب والهرر ويوقرونها ويعتبرونها كالهة امر بجمع كل الكلاب والهرر التي في تلك النواحي ووضعها في مقدمة العسكر عند حصارهِ بعض المدن المصرية فتوقف المصريون عن اطلاق نبالهم على الفرس خوفًا من ان يصيبوا احدى تلك الحيوانات المقدسة فتموت ولبثوا في اماكنهم محتارين وكانت الفرس تتقدم عليهم رويدًا رويدًا والكلاب تنبح والهرار تموء حتى دخلوا المدينة وتملكوها بدون مقاومة

ولما اخضع كمبيز كل بلاد مصر قصد مدينة هايس التي فيها مدافن ملوك مصر فاخرج جثة الملك اماسيس من قبرها وهو الملك الذي كان متوليًا على مصر عند ما نهض لمحاربتهِ وبعد ان ضربها بالعصا وعاملها بكل نوعٍ من الاهانة والتعيير امر بطرحها في النار فاحترقت في الحال وكان ذلك مضادًا لعوائد الفرس والمصريين جميعًا . وكان قد نهب مدينة تيبس في بلاد والصعيد وهدم ابراجها وهياكلها واحرق نقوشها وختم ذلك بذبح الثور ابيس الذي هو بحسب اعتقاد المصريين الاله المعظم وفرق لحمهُ على قواد عسكرهِ فكان هذا العمل مما يعد عند المصريين من التعديات الكفرية ومن ذلك الوقت لم يكن افعال هذا الملك الّا ذميمة قبيحة حتى انهُ تزوج باختهِ وقتل اخاهُ سمرديس ثم قتل زوجتهُ المذكورة حيث كانت تندب اخاها الى غير ذلك من الامور الوحشية

وفي آخر ايامهِ في مصر حدثت فتنة عظيمة في بلاد فارس وهي ان النائب الذي كان قد اقامهُ كمبيز وكيلاً عنهُ على المملكة في غيابهِ طمع في اختلاس الملك وعمد ان ينقلهُ الى عائلتهِ فاقام اخاهُ ملكًا وكان من السحرة واشبه الناس بسمرديس اخي كمبيز الذي قتلهُ كما ذكرنا فبايعهُ الفرس وملكوهُ عليهم لثقتهم بانهُ ابن كورش اذ كان قد ادعى بذلك فلما بلغ كمبيز هذا الخبر خرج من مصر بعد ان صيرها ولاية فارسية ودخل بلاد سورية واشرع قاصدًا بلاد فارس فاتفق يومًا انهُ وهو يركب جوادهُ اندلق سيفهُ من غمدهِ فجرحهُ في جنبهِ جرحًا بليغًا والزمهُ فراشهُ فمات بعد ايامٍ قليلة بعد ان حكم مصر خمس سنين وكانت مدة ملكهِ سبع سنين ونصفًا

الباب الرابع

في ولاية الملك داريوس وهو دارا الاول احد ملوك الفرس وابنهُ زركسيس

وكان قد تولى على تخت فارس ذلك الساحر المذكور الذي ادَّعى انهُ سمرديس ابن كورش كما مر الَّا انهُ لم تطل مدتهُ حتى انكشف امرهُ وتحقق عند اكثر الاهالي ان تلك الدعوى كانت حيلة منهُ وان ولايتهُ لم تكن الَّا مجرد خداع وطغيان فاتفقوا على خلعهِ واجتمع ستة انفار من اكابر اعيانهم منهم داريوس بن هيستسب احد امراء تلك الولايات وهجموا على قصر الملك وقتلوا سمرديس الساحر المغتصب ولم يحكم الا ستة اشهر فقط ثم اختلف هولاء الاعيان الستة في من يتولى منهم زمان المملكة الفارسية فاتفق رايهم اخيرًا على ان يركبوا خيولهم عند الصباح ويقصدوا مكانًا معلومًا خارج المدينة وان الرجل الذي يصهل حصانهُ اولاً يكون هو الملك وبهذه الوسيلة لا يقع بينهم نزاع . وكان لداريوس سائس نبيه ماهر فلما بلغهُ ذلك الخبر لبث حتى اظلم الليل ثم نهض وركب حصان مولاهُ واخذ معهُ جانبًا من العشب والاطعمة التي كان الحصان يودُّ اكلها وقصد ذلك المكان المذكور والقاها هناك ثم جعل يجول نحوها بالحصان تارةً من خلف وتارةً من قدام واستمر على مثل مثل ذلك نحو نصف ساعة ثم نزل عن ظهر الحصان واطلقهُ على تلك الاطعمة فاكلها ثم ارتد راجعًا الى المدينة ولم يطعم الحصان شيئًا طول ذلك الليل . ولما كان الصباح ركب الامراء الستة خيولهم حسب الشروط الذي وقع عليهِ الاتفاق وقصدوا ذلك المكان المعهود الذي اكل فيهِ حصان داريوس تلك الاطعمة وعند وصولهم اليهِ رفع الحصان اذنيهِ وصهل فترجل حينئذٍ اصحاب داريوس الخمسة وخروا

ساجدين عندَ قدميهِ وهنأُوهُ بالمنصب الملكي واقاموهُ يومئذٍ ملكًا على سلطنة الفرس

وكان للملك كورش وابنهُ كمبيز قد حسنا هذه المملكة ووسعاها ونظما امورها في اقل من عشرين سنة فلما اتسعت اقاليمها وتكاثرت مقاطعاتها قسمها داريوس الى عشرين كورة وصرف همتهُ وعنايتهُ ليمهد لها اسباب الثروة والغنى بواسطة اتساع دوائر التجارة بين بلاد الفرس وباقي الممالك واقام داريوس حروبًا كثيرة افتتح في احداها مدينة بابل ثانيةً لان اهلها كانوا قد تمردوا وعصوا الفرس وكان افتتاحهُ لهذه المدينة بطريقة عجيبة احتيالية وهي ان احد قوَّاد جيوشهِ زوبير احذق اهل زمانهِ وانبههم قطع يومًا اذنهُ وهشم وجههُ بالجراحات وذهب الى بابل واستغاث باهلها من جور داريوس الذي كان يومئذٍ يحاصر المدينة فسالوهُ عن سبب ذلك فاخبرهم انهُ من جملة قواد الفرس وانهُ عند ما نصح داريوس ونهاهُ ان يرجع عن حرب بابل لانها حصينة جدًّا احتقرهُ واهانهُ بقطع اذنهِ وتهشيم وجههِ وقد كاد يقتلهُ فهرب ليلاً واقسم على نفسهِ انهُ لا بد لهُ ان يسعى في اهلاك الفرس . فترحب بهِ اهل بابل واقاموهُ قائدًا على فرقةٍ صغيرة . وكان زوبير قد اتفق مع داريوس ان يرسل لهُ في اول الامر طليعة مؤلفة من الف نفر من اوباش العجم وصعاليكها لتهجم على المدينة من احدى جهاتها وانهُ يخرج اليها ويمحوها كلها ثم يرسل لهُ في اليوم الثاني كتيبة اخرى تحتوي على الفي مقاتل فيهلكها ايضًا ثم يرسل اليهِ في اليوم الثالث فرقة اخرى مولفة من اربعة الاف فيلحقها برفقائها وبعد ذلك يهجم هو بنفسهِ على المدينة بجميع عساكرهِ وابطالهِ هجمة واحدة فيسلمهُ اياها . ففعل داريوس كل ما اشار بهِ زوبير وكان البابليون عند ما راوا زوبير قد فتك بطلائع الفرس في ثلاث وقائع متتابعة وقتل سبعة الاف نفر من الاعجام احبوهُ وائتمنوهُ واقاموهُ رئيسًا عامًّا على جيوشهم وسلموهُ زمام محافظة المدينة فلما كان اليوم الرابع هجمت جموع الفرس على المدينة واحاطوا بها

فخرج اليهم زوبير ولكنهُ عوض ان يقاتلهم ويصدهم فتح لهم الطريق للدخول فدخلوا وامتلكوها على اهون سبيل بعد ما حاصروها ستة عشر شهرًا

ومن حروب داريوس ايضًا حربهُ مع السكيثيين الذين قتلوا الملك كورش وبعد عدَّة وقائع هائلة ارتد راجعًا مهزومًا وقتل من عسكرهِ عدد كثير. ثم حارب بلاد الهند وافتتح منها جانبًا . وكان هذا الملك قاسي القلب سفاكًا للدماء ومما يحكى عن قساوتهِ انهُ بينما كان متجهزًا لقتال السكيثيين المذكورين الزم رجلاً عاجزًا ان يقدم اولادهُ الثلاثة للعسكرية واذ لم يكن للرجل اولاد غيرهم توسل اليهِ ان يبقي لهُ واحدًا منهم ليعينهُ على ضعفهِ وعجزهِ لانهُ كان فقيرًا جدًا فاجابهُ داريوس قائلاً ما دام الامر كذلك يجب علينا ان نبقي لك اولادك الثلاثة ليعولوك في ضعفك ثم امر واحد اتباعهِ بذبح اولاد ذلك الرجل المسكين وان ياتي بروُّوسهم الى والدهم

وكان داريوس قد ارسل جيشًا جرارًا تحت قيادة داتيس وارتافرنيس لمحاربة اليونان وبعد وقائع وحروب شديدة انهزما اقبح هزيمة وفقد من عسكرهما نحو مائتي الف ولما بلغهُ خبر هذه الكسرة اشتد غضبهُ واخذ يجد الجنود ويجيش الجيوش ليقيم حربًا على اليونانيين وعلى المصريين الذين كانوا قد خلعوا طاعتهُ واظهروا العصيان وبينما كان مهتمًا بهذا الامر مرض ومات سنة ٤٨٠ ق م

وبعد موت داريوس خلفهُ ابنهُ زركسيس وهو الملك الخامس من ملوك فارس ومادي تبوأ تخت الملك عوض اخيهِ الاكبر ارطبزان وعند جلوسهِ على كرسي السلطنة ارسل جيشًا الى الديار المصرية فاخضعها وعاقب ارباب الفتنة عقابًا اليمًا ولما انقادت مصر لحكمهِ جهز جيشًا عرمرمًا مؤلفًا من مليونين من الخيالة والمشاة وزحف بنفسهِ الى محاربة اليونان ليتم مقصد ابيهِ الذي كان قد عوَّل عليهِ واصحب معهُ بوارج كثيرة العدد واذ كان لا بد لهُ ان يجتاز بوغاز الدردنيل الفاصل بين اسيا واوروبا الذي يبلغ عرضهُ مسافة نصف ساعة تقريبًا امر بصف مراكبهِ على شكل جسر بين البرين وربط بعضها ببعض

لاجل مرور العساكر فهاجت الامواج وكسرتها فساء الملك زركسيس ذلك الامر وامر بضرب البحر لاجل عدم توقيرهِ اوامرهُ وبعد مشقاتٍ عظيمة وحروبٍ شديدة اخضع اكثر مدن اليونانيين ما عدا سبارتا واثينا فانهما مع كل ضعفهما وقلة عساكرهما قاومتاهُ اشد مقاومة لان شعبهما كان من اشجع الناس . ولما اقترب زركسيس من ليكوستوموس الذي ترجمتهُ فم الذئب وهو معبر ضيق بين الجبل والبحر وصمم ان يعبرهُ اعترضهُ ملك سبارتا المدعو ليونيداس بستة الاف مقاتل وحاربهُ وفتك بعسكرهِ فتكًا عظيمًا وقتل منهم نحو سبعين الف نفر واذ كان عسكر الفرس كثير العدد لا نهاية لهُ خافت جموع اليونان من عاقبة الامر فصرفهم ليونيداس الى اماكنهم وبقي هو مع ثلثماية نفر ماسكًا راس ذلك المضيق المسمى ثرموبيلي واخيرًا هلك هو ومن معهُ ولم يسلم من جيشهِ الأ رجل واحد فقط فذهب الى سبارتا واخبر اهلها بما جرى على اصحابهِ

اما انتصارات زركسيس فلم تطل في بلاد اليونان فان اكثر مراكبهِ انكسرت في سلاميس وعساكرهُ انهزمت في حصار مدينة بلاتيا فاضطر اخيرًا الى ان يرجع مع من بقي معهُ من الجيش الى بلاد فارس وعند وصولهِ قتلهُ ارطبانيس رئيس حراسهِ وكان ذلك في سنة ٤٧٠ ق م

وبعد وفاة زركسيس تولى ابنهُ ارتكزركسيس ثم تولى بعدهُ داريوس قدمانس ثم غيرهُ من الملوك مما لا يسعنا ذكرهم في هذا المختصر وبقيت ملوكهم تتوارث الملك الواحد بعد الاخر الى سنة ٣٣٠ ق م عند ما قام اسكندر المكدوني في حكم الملك داريوس الثاني فحاربهُ واستظهر عليهِ وتغلب على جميع البلاد والاقاليم الخاضعة للفرس كاسيا الصغرى وصور ومصر وانتهى الحال بداريوس انهُ في بعض حروبهِ مع اسكندر انهزمت الفرس وقتل منها خلقٌ كثيرٌ وكان هو من جملة المنهزمين فاقتفى اسكندر اثرهُ ليعلم خبرهُ فوجدهُ قتيلًا وكان قاتلهُ رجلًا من اكابر قوادهِ فحزن عليهِ اسكندر وتأسف على فقدهِ

واقام لهُ مسلاَّت شهيرة في جملة اماكن تذكارًا لهُ . وبعد وفاة اسكندر وقعت بلاد العجم في نصيب سلوقس احد قواد جيوش اسكندر وصارت بعدهُ في قبضة ذريتهِ الى ان نهض الفرثيون وطردوا اليونانيين من بلاد فارس ومادي وتولوا عليها نحو خمساية سنة

الباب الخامس

في اكاسرة العجم

وفي سنة ٢٢٠ مسيحية وثب رجل من الاعجام يقال لهُ اردشير فهيج الاهالي وحارب الفرثيين وطردهم واستقل بالمملكة وهو اول الطبقة الساسانية وراسها وهذه الطبقة هي الرابعة من ملوك الفرس المعروفين باكاسرة العجم واسم اردشير مركَّب من كلمتين فارسيتين احداهما إرْد بمعنى الغضب وثانيهما شير اسم للاسد فسمي الملك بهذا المركَّب ومعناهُ اسد الغضب

ثم تولى بعدهُ ابنهُ سابور وهو غير سابور ذي الاكتاف الذي هو تاسع الاكاسرة بعد اردشير واسمهُ بالفارسية شابور بالشين مركب من شامختصر شاه بمعنى سلطان او ملك وبور بمعنى ولد يعني ولد السلطان فعربتهُ العرب بلفظ سابور بالسين المهملة . كان ملكًا عظيمًا شديد البأس كثير المغازي والغارات ذا سطوة قاهرة حارب الديار الشامية واخضعها وحاصر مدينة انطاكية وكان بها يومئذٍ فاليريانوس احد قياصرة رومية فاقتحمها عليهِ واسرهُ وسار بهِ الى بلادهِ وبقي في اسرهِ الى ان فدى نفسهُ باموالٍ كثيرة . واما سابور ذو الاكتاف فهو بعد سابور هذا بنحو اربعين سنة وانما سمي ذا الاكتاف

لانهُ لما حارب عُرب الحجاز وظفر بهم كان كلما أسر اعرابيًا يثقب كتفهُ ويُدخل فيهِ حبلاً ليقودهُ فسمي ذا الاكتاف وصار لقبًا عليهِ وكان قد حارب الرومانيين من زمن مكسيمينوس الثاني الى زمن طيودوسيوس الاكبر ونجح في اكثر حروبهِ معهم . ومما يدل على انتظام مملكة العجم وقوتها وشوكتها في ايامهِ انها استمرت منذ ولادتهِ الى زمن وفاتهِ مدة اثنتين وسبعين سنة ولم يحصل فيها فتن ولا نزاع ولا حروب

وتولى بعدهُ جملة من الملوك الى سنة ٥٨٠ للمسيح تقريبًا ومن هولاء الاكاسرة كسرى انوشروان وهو من اشهرهم واعظم ملوكهم كان ملكًا عادلاً عاقلاً مهيبًا محسنًا ومن كثرة عدلهِ وشفقتهِ على رعاياهُ من الظلم والعدوان امر بوضع سلسلة نافذة من سرايتهِ الى الطريق وجعل فيها اجراسًا فكان كل رجلٍ مظلوم ياتي ويحرك السلسلة فتدق الاجراس فيعلم بهِ ويامر باحضارهِ اليهِ وينصفهُ ولذلك كثر العدل والامان في ايامهِ . وهو الذي صادم الرومانيين واقام عليهم حروبًا كثيرة واستولى على اكثر ولاياتهم في اسيا فهابتهُ الملوك وهادوهُ بالهدايا النفيسة وكان قد ورد عليهِ رسول قيصر امبراطور الروم بهدايا وتحف ثمينة فنظر الى ايوانهِ وحسن بنائهِ فاندهش وتعجب وكان قد رأى فيهِ اعوجاجًا فسأل عن سبب ذلك فقال لهُ بعض الوزراء ان عجوزًا كان لها منزل بجانب هذا الاعوجاج فرغبها الملك في الثمن فابت بيعهُ ولم يغصبها عليهِ وبقي الاعوجاج من ذلك على ما ترى . وكانت مدة حكم كسرى انوشروان نحو اربعين سنة وقيل اكثر

ثم تولى بعدهُ ابنهُ هرمز وكان عاقلاً عادلاً كابيهِ ينصف الحقير من الشريف ولا يحابي بالوجوه وكان قد صنع صندوقًا وجعل فيهِ شقًا ليلقي المتظلم قصتهُ فيهِ وكان يختم قفل الصندوق بخاتمهِ لئلا تصل اليهِ ايدي وزرائهِ وكان الحجاب ياخذون ذلك الصندوق في كل صباح ويلقونهُ على مفارق الطرق وينادون باعلى اصواتهم قائلين كل من لهُ دعوى او كلام برفعهُ الى الملك

فليكتبهُ على رقعةٍ ويلقيهِ في هذا الصندوق من هذا الشق . وفي السنة العاشرة من ملكهِ زحف اليهِ طيباريوس قيصر في ثمانين الف فارس فخاف هرمز من عواقب الامر واحضر اليهِ قائدًا لهُ بمملكة الري يقال لهُ بهرام وكان شجاعًا مقدامًا وبطلاً هامًا واعدَّهُ لقتال اعدائهِ فانتصر جند طيباريوس على جند فارس في جملة وقائع ثم تصالحوا . وكان بهرام المذكور قد اتخذ لهُ حزبًا واعوانًا من رجال المملكة حتى صار في صولة وسطوة عظيمة فخاف هرمز على ملكهِ من بهرام وحسب حسابهُ وجرى بينهما قتال وكان الجند من حزب بهرام وكان ابرويز بن هرمز يومئذٍ مطرودًا من ابيهِ مقيمًا باذربيجان فلما بلغهُ ضعف امر ابيهِ خاف من استيلاء بهرام على الملك فقصد اباهُ وامسكهُ وقلع عينيهِ ولبس التاج وجلس على سرير الملك وجرى بينهُ وبين بهرام عدة وقائع واخيرًا تغلب بهرام على اقطار المملكة ولبس التاج . واذ خاف ابرويز من ان بهرام يعيد والدهُ الاعمى ملكًا موقتًا الى ان يكون قد تمكن من الملك اتفق مع خواصهِ على قتل ابيهِ هرمز فخنقهُ وقصد ملك الروم موريكيوس مستنجدًا بهِ على بهرام ولما اجتمع بهِ واعلمهُ بواقعة الحال لامهُ قيصر على ما فعل بابيهِ اولاً وثانيًا ولكنهُ انف من ان يردهُ خائبًا فارسل لنجدتهِ جيشًا جرارًا ولم تزل الحرب بينهُ وبين بهرام ثلاث سنين متتابعة وانتهت بانتصار ابرويز على بهرام وعاد ملك الفرس الى ابرويز فانعم على عسكر الروم باموالٍ جزيلة ثم اعادهم الى بلادهم بعد اقامة اربع سنين . واستقرت لهُ بعد ذلك ولاية فارس ولكن الله قد انتقم منهُ على قتلهِ ابيهِ بتسليط ابنهِ شيرويه عليهِ فخلعهُ عن الاحكام وقتل جميع اخوتهِ بحضور ابيهِ ثم امر بهِ فالقي في جبٍّ عميق وعذبهُ بانواع العذابات الى ان مات

وفي سنة ٦٣٠ مسيحية تولى يزدجرد ملكا وهو آخر ملوك الفرس وفي ايامهِ افتتحت العرب بلاد العجم وقتل يزدجرد في الحرب واستولى المسلمون على البلاد العجمية مدة طويلة كما سياتي تفصيل ذلك في الكلام على دول العرب

الباب السادس

في الكلام على شاهات العجم

وفي سنة ١٢٥٨ م دخلت التتر الى بلاد العجم وطردت دولة العرب منها وتولت مكانها عدة قرون . ثم في سنة ١٥٠٠ قام عليها ملوك من اهل فارس وتلقبوا بالشاهات اي السلاطين وكان اول هولاء الملوك الشاه اسماعيل الاول وهو من نسل العرب فتغلب على البلاد واستولى عليها ٢٣ سنة . ومن اعظم هولاء الملوك الشاه عباس تبوأ سرير المملكة ١٥٨٩ فحارب الاتراك وظفر بهم مرارًا عديدة ومنع البرتوكاليين من الاستيلاء على جزيرة اورموز في خليج العجم

ومن افضل ملوك هذه العائلة الشاه حسين الذي هو آخرهم وكان مع ادارتهِ وحسن تصرفهِ قليل الحظ من رعاياه جلس على سرير الملك سنة ١٦٩٤ الا انهُ لم يطل زمانهُ حتى اضطر الى ان يتنازل عن كرسي الاحكام لخصمٍ لهُ يدعى محمودًا ولكنهُ قبل ان يخلع نفسهُ عن تخت المملكة نزل الى الاسواق حافيًا واخذ يطوف في شوارع اصبهان التي كانت يومئذٍ عاصمة البلاد وهو يصيح قائلاً لا تحزنوا ايها الناس على فراقي عنكم لان الشاه محمودًا هو اخبر مني وادرى في تدبير اموركم واصلاح شانكم لاسيما في ادارة الحروب وسياسة الاحكام . وكان اكثر سكان المدينة يمشون وراءهُ وهم يبكون وينتحبون على فراقهِ . ثم في سنة ١٧٣٥ قام كولي خان وتناوب كرسي المملكة وسمى نفسهُ نادرشاه وكان جبارًا عنيدًا ظالمًا غشومًا كثير الحروب والغارات وكان قد غزا الجهات الشمالية من بلاد الهند سنة ١٧٣٩ فتغلب عليها ونهبها وعاد منها بغنائم وافرة واموال متكاثرة وكان مبغضًا من اكثر رعاياهُ لكثرة ظلمهِ وجورهِ فوثب

عليهِ يومًا جماعةٌ من قومهِ وقتلوهُ وكانت مدة حكمهِ سبع عشرة سنة . واتفق في ايام كريم وكيل شاه انهُ حدث هياج واضطراب في المملكة واستمرت الحروب بين الاهالي نحو ١٥ سنة وذلك من سنة ١٧٧٩ الى سنة ١٧٩٤

ثم تولى زمام المملكة بعدهُ اغا محمد خان ثم فتح الله شاه ثم محمد شاه ثم ابنهُ نصر الدين شاه وهو الملك الحالي صعد على سرير السلطنة سنة ١٨٤٨ مسيحية وهو من افاضل ملوك العجم بوصف بحسن السياسة والتدبير والمحبة لرعاياهُ وقد انشأ عدة مدارس كلية لدرس العلوم والفنون واكتساب المعارف والاداب لنجاح الاهالي وفي سنة ١٨٦٣ اذن بادخال السلك البرقي اي التلغراف الى اقطار بلادهِ

اما عاصمة دولة ايران الحالية فتدعى طهران وهي كرسي المملكة وللملك قصرٌ عظيمٌ في مدينة اصبهان يقال لهُ قصر الاربعين عمودًا وكل عمودٍ منها قائم على اربعة سباع من نفيس المرمر وفيهِ من النقش البديع وانواع التحف والصور المزخرفة ما يدهش النظر ويذهل العقل

وهذه البلاد يحدها شمالاً بحر الخزر والممالك الروسية وبلاد التتر المستقلة وشرقًا افغانستان وبلوخستان وجنوبًا خليج العجم وخليج اومان وغربًا تركيا في اسيا وعدد اهلها نحو ١٤ مليونًا

وقد فاق اهل هذهِ المملكة على ما سواهم من الناس في نسج الحرير والصوف كالمخمل وشالات الكشمير والبسط والطنافس وفيها ابنية فاخرة وقصور عظيمة شاهقة ولكنها لا تقاس بتلك الابنية الهائلة التي كانت في ايام الملك زركسيس . وليس لاهل العجم في هذه الايام ميلٌ الى الحروب وسفك الدماء كما جرت لهم العادة في الايام السابقة وذلك لانعكافهم على المطالعات وانشغافهم بسرد القصص والاخبار المفيدة المكتوبة من عصور قديمة وهي في غاية الظرف والحسن ولهم ايضًا ولوع وذوق في نظم الشعر والنثر وقد اشتهر منهم في هذه البلاد جملة من الشعراء كالحافظ الشيرازي والسعدي والفردوسي وغيرهم

الفصل السادس

في مملكة الصين

الباب الاول

في وصف بلاد الصين ومدنها واهلها وعوائدها

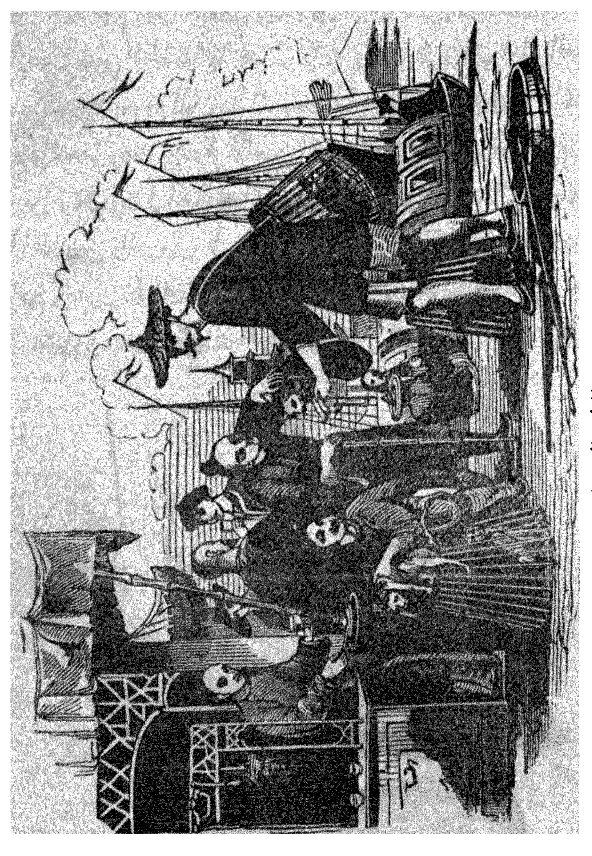
هذه المملكة يحدها شمالاً بلاد سبيريا اي روسيا في اسيا وشرقًا الاوقيانوس الباسيفيكي وجنوبًا بحر الصين والهند وغربًا افغانستان وبلاد التتر المستقلة . وهي بلاد واسعة جدًّا ذات املاك وافرة يتبعها بلاد كثيرة من بلاد المغول والمانشو وغيرها وعدد اهلها ٤٤٦ مليونًا منها ٤٣٠ في نفس سلطنة الصين و٣٦ في البلاد المجاورة مثل منشوريه وبلاد المغول وثيبت وغيرها التابعة السلطنة الصينية . وللصينيين شهرة عظيمة في بعض الصنائع كنسج الحرير والقطن والكتان ولاسيما حفر العاج وعمل الخزف المعروف بالصيني وغير ذلك من الانواع

اما مدن بلاد الصين فمنها نانكين وكانت سابقًا عاصمة البلاد واما في هذه الايام فقد انحطت عن عظمتها القديمة لانتقال تخت الملك منها وعدد اهلها الآن نحو خمس مئة الف نسمة ومن غريب ابنيتها البرج العظيم الذي انشاهُ بعض الملوك في مدة ١٩ سنة واتقنهُ غاية الاتقان وهو مبنيٌّ من الاجرّ ومحيط اسفلهِ مئة وعشرون قدمًا يعلوهُ تسع طبقات شاهقة ولهُ من داخلهِ

درج على شكل لولب يصعد فيهِ الى السطوح وخارج البرج ملبس بالخزف الصيني الملون . ثم مدينة باكين وهي قاعدة المملكة ودار اقامة السلاطين وعدد سكانها نحو مليونين وهي على شكلٍ مربع مستطيل يحيطها سورٌ ارتفاعهُ نحو مئة قدم وعرضهُ ثلثون قدمًا بحيث تدور فوقهُ الحراس وهم راكبون خيولهم وفي جوانب هذا السور اثنا عشر بابًا تعلوها ابراجٌ لاقامة الحراس والمحافظين . وتنقسم هذه المدينة الى قسمين جنوبي وشمالي اما القسم الجنوبي ففيهِ اكثر مساكن العامة واما الشمالي ففيهِ بلاط الملك وبساتينها وجنائنها التي هي في غاية البهجة وفي هذا القسم ايضًا كثيرٌ من البحيرات الصناعية والازهار البهية والاشجار المختلفة . ومن مدنها ايضًا مدينة سنغنغو وهي بعد باكين في الاتساع والحسن . وفي سنة ١٦٨٥ من الميلاد عثر بعض الاهاليّ بالقرب منها على لوحٍ من المرمر تحت الارض مكتوبٌ عليهِ بالخط الصيني كلمات سريانية فوقها صورة صليب فاجتهد العلماء في البحث عن معرفة هذه الكلمات فوجدوها مشتملة على اثنتين وستين علامة منقوشة بالحروف الصينية فتاملوها فاذا هي عبارةٌ عن رسالة تتضمن اصول دين النصرانية وعدة مسائل تتعلق بقوانين القسوس واسماء الملوك الذين كانوا سببًا في نشر هذه الديانة التي اظهرها في تلك الجهة دعاةٌ من قسوس النساطرة سنة ٦٣٠ للمسيح وكانوا قد قصدوا هذه المملكة من بلاد العجم والشام وكان لهولاء الدعاة في بلاد الصين عدّة كنائس . ثم مدينة كنتون وهي بالقرب من البحر يسكنها قناصل الدول الاجنبية وعدد اهلها نحو مليون نفس

واهل الصين بوجه الاجمال سود الشعور صفر الالوان صغار العيون واكثرهم يلبسون اقمصة طويلة اشبه شيئًا بالاتب ويتمنطقون باحزمة حريرية وينقلون سكاكين وخناجر في احزمتهم وهم على جانبٍ عظيم من الغش والخداع ولهم من العوائد والاصطلاحات الذميمة القبيحة ما تأنف منها السماع . منها انهُ اذا كان لاحد الوالدين عدة اولاد لا يقدر ان يقوم بمعاشهم يجوز لهُ ان يلقيهم

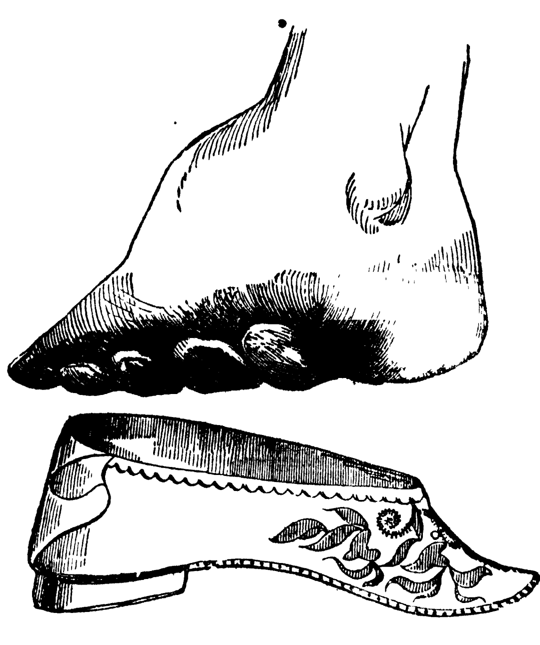
في النهر ليتخلص منهم ولا يعترضهُ احد . ومنها انهم ياكلون لحوم الفار والجرذان



بيع الفار والجرذان

ويبيعون الكلاب المائتة جهرًا في الاسواق . ومن عوائدهم ايضًا انهُ اذا اراد الرجل منهم ان يتزوج بصبية يرسل رسولاً من قبلهِ ليخاطب والديها بذلك فاذا قبلا يفحصون عن ساعة ولادتها وولادتهِ ليعرفوا في اي يومٍ وفي اية ساعة كانت ولادتها لمعرفة طالعها فاذا وجدوا ان كل شيء موافق يرسل اليها

الخطيب بعض جواهر نفيسة على سبيل الخطبة حتى اذا كان يوم العرس ينصبون خيمة قدام دار العروس ويبذرون ارضها بالقمح ويدعون الاصحاب والمعارف ويجلس اهلها بجانبها بحسب رتبهم ومقامهم ثم ينهض اهل العروس جميعًا ويذهبون بهم مع العروس الى بيت العريس ويرشونهم في اثناء الطريق بالقمح والشعير وعند وصولهم يجلسون العروس بجانب العريس فيقوم ذوو العريس ويقدمون لهم الشاي والعرق والحلويات وعند انصرافهم يقدمون الهدايا للعريس والعروس على سبيل النقوط .ومن عوائدهم انهم يحلقون شعور رؤوسهم ويبقون منهُ خصلة في اعلاها فيجدلونها ويرخونها على ظهورهم . ومنها انهم يستظرفون صغر ارجل النساء ولذلك يعملون قوالب من حديد ويضعون



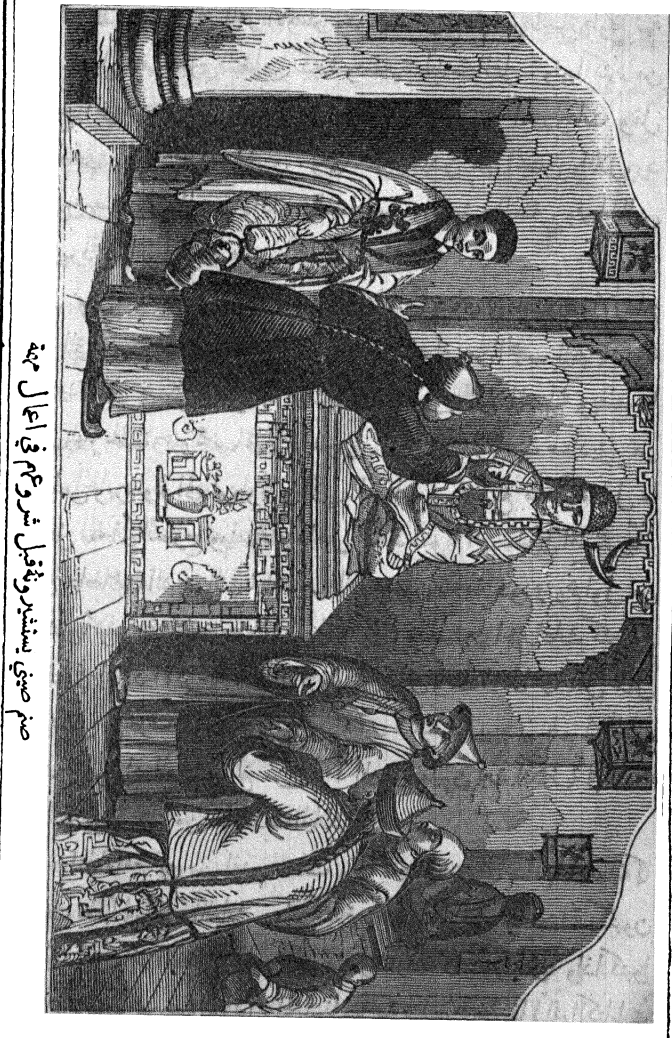
فيها ارجل البنات في صغرهنَّ حتى اذا كبرنَ تكون ارجلهنَّ صغيرة

وفي هذه المملكة كثير من الجبال الشامخة والانهر الكبيرة المشهورة كنهر تاكيان الذي يصب في البحر الاصفر وهو يعد من اعظم انهرها يبلغ طولهُ ثلثة الاف ميل وفيهِ تجري سفن كبيرة وصغيرة لخدمة النقل . وفيها كثير من الترع التي توصل المياه الى داخل البلاد لاجل سقي المزروعات ونقل الحاصلات من جهة الى اخرى . وفيها جملة معادن منها الجص واللازورد يلونون بهِ الصيني واليشب والبلور والمغناطيس والزيبق والفضة . وفيها الماس والزمرد والياقوت وغيرها من الحجارة الكريمة

ومن اشجارها الكافور وعود الند الذي يضاهي في الصورة والارتفاع شجر الزيتون ثم الشاي وهو من اشهر نباتها وافضلهِ ومن العجب انهم يقطفونهُ ثلاث مرات في كل سنة وكيفية ذلك إنهم يقطفون اولاً اغصانهُ ويضعونها بقرب نار خفيفة حتى تجف قليلاً ثم يلفون ورقهُ ويجعلونهُ في صناديق من رصاص ويرسلونهُ الى اوروبا وباقي الجهات . وقد بلغ موخرًا معدل ما يرسل منهُ الى الخارج وما ينقطع داخل البلاد سنويًّا الفَي مليون اقة تقريبًا . ومن حاصلات الصين الثمينة الحرير فانهم يعتنون بتربية دودهِ وهم اول من اكتشفوهُ ومن عندهم خرج الى باقي الاماكن . وللصينيين اختراعات كثيرة لم تعرف في البلاد الافرنجية الَّا بعد ازمنة طويلة من وقت اختراعها مثل عمل القرطاس والخزف والمطابع والبارود وغير ذلك مما يوجب لهم الافتخار والمدح . وايراد السلطنة يبلغ من ٦٠ الى ٧٠ مليون ليرة انكليزية في السنة واكثرهُ يوخذ عينًا من حاصلات البلاد

اما لغاتهم فهي من اقدم اللغات وقلما تغيرت عن حالتها الاصلية كما يحدث غالبًا في اكثر اللغات . واما كتابتهم فليس لهم حروف معتمدة يكتبون بها كما في سائر اللغات وانما لهم علامات واشارات اصطلحوا عليها واذا كتبوا ابتدأُوا بالسطر من فوق ونزلوا بهِ الى اسفل ناحية صدورهم خلافًا لباقي الكتابات واما دياناتهم فهي الوثنية واعظمها البوذية . ومن اصطلاحات كهنتهم في

الاحتفالات الدينية انهم يلبسون بدلات مختلفة ثم يوقدون الشموع ويعلقون



صنم صيني يستشيرونهُ قبل شروعهم في اعمال مهمة

في اعناقهم المسابح ويحملون بايديهم الاجراس ويطوفون في المساجد والهياكل

والبعض منهم يمتنعون عن الزواج ويسكنون في صوامع منفردة عن الناس وعندهم كثير من القصص والتواريخ التي لا يوثق بها ولا يليق بشان المؤرخ ذكرها واعتمادها . ومن عوائدهم ايضًا انهُ مباحٌ لهم ان يتخذوا لانفسهم ما شاءُوا من النساء بشرط ان لا يكون للرجل اكثر من زوجة شرعية واما البقية فيعتبرون بمنزلة خادمات

الباب الثاني

في تاريخ مملكة الصين

ان هذه المملكة من اقدم ممالك الارض واعظمها وقد اختلف المحققون وارباب التاريخ في من اسسها فزعم الاكثرون انهُ فوهي الذي يظنونهُ نوحًا . ومما يؤيد قدميتها كثرة ملوكها وقد عدَّ المؤرخون دولها الى هذا اليوم فكانت اثنتين وعشرين دولة حكمت في مدة اربعة الاف سنة . واما تاريخها فيمتد من سنة ٢٢٠٠ ق م وهو بالحقيقة من اسقم تواريخ الدنيا واظلمها لا يعتمد عليهِ نظرًا لما يتضمنهُ من الخرافات والحكايات الغريبة البعيدة عن التصديق حتى لو شرع احد ان يستوفيهُ على وجه التفصيل لاستلزم عدة مجلدات كبيرة مع انهُ ليس بين اخبار ملوكها القدماء شيء يستحق الذكر الا الى زمن دولة تشاو التي استولت على السلطنة من سنة ١١٠٠ ق م الى سنة ٢٤٩ ق م . ومن ملوكها الامبراطور تشاوس جلس على الكرسي قبل المسيح بنحو الف سنة وكان مغرمًا بالصيد والقنص وكان يصرف اكثر ايامهِ في الجولان بين الغياض والبساتين حتى انهُ كان اذا طارد غزالًا او ارنبًا يتبعهُ ولا يميل عنهُ حتى يصيدهُ . وكان كثيرًا ما يدوس الاراضي المزروعة مع حواشيهِ وخدمهِ وقت الصيد وهو

غير مبال ٍ بالاضرار الناتجة من ذلك حتى مقتهُ شعبهُ وازدروا بهِ واضمر وزراءُ دولتهِ التخلص من رياستهِ بقتلهِ فحرضوا بعض الاتباع على ذلك . وكان في تلك النواحي نهرٌ عظيم من عادة الملك ان يعبرهُ في طلب الصيد فاعدوا لهُ في بعض الايام قاربًا مكسورًا من قعرهِ ووضعوهُ لهُ على الشاطي فلما حضر الملك ورآهُ استحسنهُ ثم نزل بهِ هو واتباعهُ ولما صاروا في نصف النهر انفكت الواح القارب فسقط في الماء وغرق الملك ومن معهُ

وفي زمن تملك هذه الدولة ظهر كونفوشيوس العالم الشهير الذي كتب جملة تآليف في الدين والاداب والسياسة لم تزل موجودة الى هذا اليوم ويعتبرها الصينيون اعتبارًا عظيمًا كاساس ديانتهم وآدابهم . ولولاها لما علم عند المتاخرين شيء من تاريخ الصين القديم . وكانت ولادة هذا الشخص سنة ٥٥٠ ق م تقريبًا من عائلة معتبرة فانصب على العلوم من صغرهِ ولما بلغ سن الاربع والعشرين سنة انعكف على اصلاح عوائد بلادهِ فاخذ يجول بين ولايات السلطنة وينذر الناس بتعاليمهِ فالتصق بهِ كثيرون وذاع صيتهُ بين الجميع حتى دعاهُ ملك لو وسلمهُ وزارة مملكتهِ فاصلح شرائعها واصطلاحاتها وانمى فيها اسباب التجارة والزراعة ولكن بما ان الملك كان مغرمًا بالملاهي واللذات نفر اخيرًا من كونفوشيوس ولم يثبت في اتباع مشوراتهِ الحكيمة فاضطر هذا الفيلسوف ان يترك دار الملك ويرجع الى اعتزالهِ مواظبًا على الانذار والتعليم والتاليف . ومع كل احترام الناس لهُ كان لين الجانب وديعًا ومتواضعًا الى الدرجة القصوى غير محب المال . وكان كونفوشيوس قريبًا من عصر هيرودتوس ويحسبهما العلماء ابوي التاريخ ولكن الاكثرين يفضلون الاول على الثاني لانهُ ما عدا كتاباتهِ التاريخية ترك لبلادهِ تعاليم ادبيَّة اتت بفوائد كثيرة من وقت مماتهِ الى الآن

ومن ملوك دولة تسنّ التي خلفت الدولة السالف ذكرها من سنة ٢٤٩ الى سنة ٢٠٥ ق م الملك سيهوانكتي وعند جلوسهِ على تخت المملكة شرع في بناء

سور عظيم حول البلاد ليقيها من هجوم التتر ولم يزل السور الى الآن يبلغ ارتفاعهُ ٢٠ ذراعًا وعرضهُ تسع اذرع وهو يشغل مسافة الف واربعماية ميل وعند فراغهِ من هذا السور ازداد تعجبًا بنفسهِ وافتخر على مَن تقدمهُ من الملوك والسلاطين فاخذ يعامل الناس بالقساوة والجبروت . واذ كان بريد اطفاء خبر الاولين ومن سلفهُ من الملوك ويُظهر للمتاخرين انهُ اول سلاطين الصين لم يرَ سبيلاً الى ذلك الاَّ اعدام المورخين واتلاف قيود المملكة فامر اخذ الايام بدفن اربع مئة رجل من العلماء وهم في قيد الحياة ثم امر بحرق سائر الكتب والتواريخ التي في مكاتب المملكة . وبعد موت هذا الملك تولى ابنهُ مكانهُ وبموتهِ انقرضت دولتهم

ثم قامت دولة اخرى تعرف بدولة هان وذلك من سنة ٢٠١ ق م الى سنة ٢٢٤ للميلاد وفي كل مدة تملكهم لم يحصل للبلاد راحة من غزوات التتر المتكررة . ومن ملوك هذه الدولة الامبراطور فاني وقال البعض انهُ كوانك كان على غاية من الخفة والطيش يميل الى الملاهي والطرب منعكفًا على اللذات والسكر ولذلك كان يكره الموت ويود الحياة فاخذ يبحث ويفتش عما يدفع عنهُ كاس الموت ولكنهُ بعد ان صرف زمنًا طويلاً في الامتحانات الحالية كتركيب المعاجين المقوية واستخراج المشروبات المنعشة ادركتهُ المنية فخاب سعيهُ واخطاهُ الامل قبل اتمام العمل

ثم خلفهُ ملك آخر كان مغرمًا بمطالعة التواريخ والاخبار ولذلك اهمل مصالح المملكة وانعكف مواظبًا على الدرس والقراءة وكان وزيرهُ يبغضهُ ويتمنى هلاكهُ فاغتنم الفرصة وهيج عليهِ الشعب ليفتكوا بهِ فلما سمع الملك اصوات العصاة وهياجهم بادر في الحال وتقلد سلاحهُ وخرج من المكتبة ليقف على حقيقة الخبر فوجد اكثر الشعب قائمين عليهِ يريدون هلاكهُ فعلم ان سبب ذلك اشتغالهُ عن معاطاة الاحكام بالمطالعات الكثيرة ولما رأى نفسهُ عرضةً للهلاك وانهُ لم يبقَ امكان للمدافعة ارتد الى مكتبتهِ واضرم بها النار فاحترقت وكان عددها

نحو مئة واربعين الف مجلد ثم هجم عليهِ الشعب فقتلوهُ

وفي سنة ٦١٧ للمسيح جلس ملك آخر يدعى سيكوين وكان قد بنى لنفسهِ قصرًا عظيمًا من ابهج القصور المزخرفة واتقنهُ اتقانًا خارجًا عن حدّ العادة وطلى حيطانهُ بماء الذهب وفرشهُ بانواع الفرش النفيسة والامتعة الفاخرة الزاهية فلما مات دخل ابنهُ الى هذا القصر فدهش من فرط حسنهِ وجمالهِ وقال في نفسهِ ان هذا القصر مما يفسد عقول الملوك ويزيدهم تكبرًا ونخوةً فامر باحراقهِ

وجلس سنة ١٠٠٠ مسيحية على كرسي المملكة ملك شهير بالمعارف والاداب يدعى شوانكتسون وكان على جانب عظيم من الزهد والوداعة وكمال الاستقامة وكان ذا حكمة وفراسة مطبوعًا على مكارم الاخلاق حريصًا ساهرًا على جلب الراحة للبلاد والعباد فاحبهُ رعاياهُ ومالوا اليهِ لتصرفاتهِ وحسن سلوكهِ ومن جملة مزاياهُ الغريبة انهُ كان ينام على بساط الارض بلا مثال ولا دثارٍ ويربط في عنقهِ جرسًا حتى اذا تحول من جهة الى جهة وهو مستغرقٌ في نومهِ يستيقظ برنين الجرس معتبرًا ذلك الوقت وقتًا مناسبًا لقيامهِ من النوم .

وسنة ١٢١٠ للمسيح زحف جنكيز خان ملك التتر والمغول بجيشٍ عظيم على هذه المملكة وافتتحها بعد وقائع متعددة وهجماتٍ هائلة واستولى على جانب عظيم منها وقام بعدهُ ابن ابنهِ قوبلاي خان فاكمل استفتاح البلاد واسّس مدينة باكين وسمى نفسهُ خان الصين الكبير واستمرت البلاد في ايدي ذريتهِ الى سنة ١٢٦٨ حين استخلصها منهم العائلة المعروفة بدولة مينك . وكانت احكام التتر في كل مدة استيلائهم على الصين قاسية جدًا ومعاملة المغول بربرية لم تحملها الاهالي الاّ بكربٍ شديد وقيل انهُ في مدينة واحدة نهض مرةً ٤٠ الف نفس من اهاليها واماتوا انفسهم بايديهم بغية التخلص من جور ظالميهم . وفي مدة تسلط هذه الدولة دخل البورتوغاليون اولاً الى الصين وذلك سنة ١٥١٦ وفتحوا الباب لدخول باقي الدول الافرنجية ثم تبعهم الفلمنكيون سنة ١٦٢٤ ثم الانكليز في ذلك القرن عينهِ ثم المسكوب ثم الفرنساويون والاميركانيون

ولكنهم لم ياخذوا مركزًا ثابتًا في تلك البلاد نظرًا لبغض الاهالي مخالطة الاجانب . ومن سلاطين هذه الدولة الامبراطور شنكتا جلس على سرير الملك سنة ١٥٢٢ وفي ايامهِ ظهر معدنٌ من الحجارة الكريمة في تلك البلاد فقصدهُ الناس من جميع النواحي واخذوا يشتغلون بحفرهِ وتقطيعهِ وكان احد الناس قد جاء الى الملك ذات يوم ببعض فصوص ثمينة من ذلك المعدن فلما شاهدها التفت الى من حولهُ من الناس واراهم اياها ثم صاح عليهم باعلى صوتهِ قائلاً لهم أَ تظنون ايها الناس ان هذه الحجارة كريمة قالوا نعم انها كريمة ونفيسة قال اذا كان الامر كما تزعمون فلا بد ان يكون لها نتائج مفيدة فاخبروني اذًا ما هي فوائدها أَ تستطيع ان تشبع جائعًا او تكسو عريانًا ثم امر بتعطيل ذلك المعدن وردمهِ وان يشغل اولئك الناس في عملٍ آخر اهم وانفع . فدام تسلط هذه الدولة الى سنة ١٦٤٥ حين طردتها قبيلةٌ من التتر المانشو المعروفة بدولة تانسينك وهي الباقية الى ايامنا هذه . ومن ملوكها الامبراطور كنكهي من اعظم ولاة الصين سطوة وشوكة وفي ايامهِ دخلت الديانة النصرانية الى البلاد بواسطة مرسلين يسوعيين واذ كان يميل اليها اصدر امرًا ملكيًا سنة ١٦٩٢ يمنح بهِ معلميها جملة امتيازات . وقد قرب اليهِ احد هولاء الاباء وجعلهُ مستشارًا لهُ فكان نفوذهُ عظيمًا في البلاد . واجتهد اليسوعيون في تهذيب الناس وتعليمهم ونجحوا نجاحا عظيمًا في وقت وجيز والعالم مديون لهم لاجل معرفة احوال الصين الداخلية اذ كانت قبل ذلك مجهولةً وبعد توفي كنكهي سنة ١٧٢٢ خلفهُ ابنهُ يون شينك وكان اذاك صغير السن فتسلم زمام السلطنة اربعة وكلاء وفي مدة وكالتهم سنوا سنةً هي ان يمنع الخصيان المتولجين حراسة الحرم من الارتقاء والتوصل الى وظيفة من وظائف البلاد وكانوا قبل ذلك الوقت يرتقون الى اعلى المناصب ونقشوا تلك السنة على الواح من حديد وزن كل منها نحو اربع مئة اقة والى الان يتمسك بها كل ولاة الصين اذ بواسطتها حصل من ذلك الوقت السلام والراحة في كل السلطنة . ولما بلغ يون شينك المذكور

سن البلوغ واستلم زمام الاحكام لم يعامل اليسوعيين كمعاملة ابيهِ ولاسبابٍ غير معلومة مقتهم وابعدهم عنهُ ثم نفاهم من العاصمة اولاً الى كنتون ثم الى مكاو ففقدت كل نتائج اتعابهم . وفي ايامهِ حدث زلزلة عظيمة في بلاد الصين لم يسمع بمثلها منذ خليقة العالم فهدمت اكثر بيوت باكين ومات بها نحو مئة الف نسمة وشمل الخراب والموت باقي الحدود المجاورة

ثم خلف يون شينك الامبراطور كيان لونك وكان سلطانًا عظيمًا وحاذقًا حكيمًا يود الاجانب ويميل اليهم اكثر من سلفائهِ وبعد موتهِ جلس ابنهُ مكانهُ واذ كان غير اهلٍ للاحكام خلع نفسهُ عن كرسي السلطنة واقام ابنهُ تاوكوانك مكانهُ سنة ١٨٢٠ وكانت البلاد في ايامهِ بلا راحة من جرى الثورات الداخلية والاضطرابات الخارجية ولا سيما حرب الانكليز سنة ١٨٤٠ المعروفة بحرب الافيون . وكان السبب في ذلك ان الحكم الصيني منع ادخال هذا الصنف الى بلادهِ واصدر امرًا جازمًا سنة ١٨٣٢ بمنع الاتجار بهِ اما الافرنج فلم يكونوا يعتبرون هذا التنبيه بل استمروا يتعاطون هذه التجارة خفية ولما اشتهر امرهم عند الحكومة ارسلت في الحال معتمدين من باكين الى مدينة كنتون ووكلت اليهم استعمال ما يلزم لتبطيل تلك التجارة فالقوا القبض حالاً على رجلين من ابناء البلاد ممن وقعت عليهم الشبهة في تهريب الافيون وقتلوهما بحضور الافرنج ثم احاطوا بالمنازل الافرنجية وهجموا عليها دفعةً واحدة واخذوا منها ٢٠ الف صندوق من الصنف المذكور . فهذه الوسائط جعلت تجارة الافيون تنحصر في الفرَض البحرية حيث ترسي المراكب الحربية ولكن اذ كانت حكومة الصين متشبثة باتمام مقاصدها لم تغفل عن مراقبة اعمال تجار الافرنج واستمرت على مقاومتهم لمنع جلب الافيون الى الاقطار الصينية فوقع بينها وبين الافرنج لذلك معركتان في نهر كنتون اشهرهما بين بارجتين انكليزيتين وبين ٢٩ مركبًا صينيًّا تحت رياسة الادميرال كوان فكانت الدائرة على الصينيين فانسحبوا بعد ما حرق مركبٌ من بوارجهم وغرق منها عدة سفن فعظم ذلك

الامر على مملكة الصين واصدرت امرًا بابطال كل معاملة تجارية مع انكلترا وسعت في احراق البوارج الانكليزية وهي راسية في ميناها فالتزم حينئذٍ رئيسها ان يلتجئ الى قوة الاسلحة واشهر الحرب على الصينيين واحاط بمدينة كنتون بالمراكب والعساكر وضايقها فاضطر الامبراطور عند ذلك ان يصرف ذلك المشكل بتأدية ٦ ملايين من الريالات كتضمين على ما تكبدوهُ من الخسائر في اثناء الحرب وتنازل لهم عن جزيرة هون كونك وتعهد بارجاع المعاملات التجارية بين الامتين كما كانت سابقًا . ولكن اذ لم يفِ الامبراطور بهذه العهود عاجلًا اضطرت انكلترا ان تلزمهُ جبرًا على اجرائها فارسلت عليهِ البوارج ثانيةً تحت قيادة السار هنري بوتنجر سنة ١٨٤١ فضرب موانيها واستولى على اكثرها فخاف الامبراطور من عواقب الامر وعقد صلحًا مع دولة انكلترا في السنة التالية تحت شروط معلومة وهي ان الدولتين تكونان في صلحٍ وسلام مدى الدوام وان سلطنة الصين تؤدي للانكليز ٢١ مليون ريال في مدة اربع سنوات وان مواني كنتون وآموي وفوشو ونينكبو وشنغاي تكون مفتوحة للتجارة الانكليزية وينصب فيها قناصل . وان جزيرة هون كونك تعطى عطاء مؤبدًا الى جلالة الملكة فيكتوريا وخلفائها من بعدها وان المكاتبات بين الدولتين تكون على نسق المساواة

وسنة ١٨٥٠ توفي تاوكوانك المذكور وجلس مكانهُ ابنهُ هيان فونك فتوانى عن القيام بحق العهود المذكورة وحاول من جهة حق دخول الانكليز الى داخل مدينة كنتون فادى ذلك الى مناظرات عديدة بين الطرفين استمرت الى سنة ١٨٥٧ حينما وقعت حادثة السفينة الانكليزية المسماة ارو اذ هاجمها بعض ضباط الصين ومزقوا رايتها وقبضوا على جانب من رجالها ظلمًا وعدوانًا ورفض الامبراطور بعد ذلك اعطاء الترضية للانكليز عن هذا الفعل الذميم فالتزمت انكلترا ان تشهر حربًا على الصين مرة ثانية واذ كانت صوالح فرانسا التجارية وقتئذٍ ومحاماتها عن الاكليروس الكاثوليكي في تلك البلاد تستدعيان المداخلة اتحدت هاتان الدولتان وارسلتا قوة بحرية وبرية

تحت رياسة البارون كرو من قبل فرانسا واللورد الجين من قبل انكلترا وذلك سنة ١٨٥٨ وبعد دخولهم الى تيانتسين قهرًا وهدمهم قلع مدينة تاكو التي على فم نهر بيهو عقدوا مع حكومة الصين معاهدة تشتمل على ٥٦ بندًا منها ان يكون لسفراء فرانسا وانكلترا حق السكن في مدينة باكين وان لا يكون مانع لجولان رعاياهم في كل اقطار السلطنة وتخصص تسع مدن غير المدائن التي كانت تخصصت بالمعاهدة الاولى لتكون موانيها مفتوحة لتجارتهم وان لا يصير ادنى تعرض للديانة المسيحية ولا لبناء الكنائس او البيوت وغير ذلك من الشروط . فلما ثبتت الحكومة الانكليزية تلك المعاهدة وكان اخو اللورد الجين ذاهبًا بها الى باكين سنة ١٨٥٩ ليستبدلها بالنسخة الصينية وجد ان الحكومة حصنت قلاع مدينة تاكو واقامت ايضًا حواجز لمنع مرور المراكب من فم النهر. وبينما كانت المراكب الانكليزية تريد ان تغتصب الدخول الى النهر اطلق الصينيون عليها النار من القلاع وضروا بها ضررًا جسيمًا فعند ذلك وافاهم اللورد الجين والبارون كرو مرةً ثانية سنة ١٨٦٠ بمراكب كثيرة واغتصبوا الدخول في النهر المذكور بعد ما هدموا الحصون الحامية ودخلوا منتصرين الى مدينة باكين وحرقوا قصر الملك الصيفي وعقدوا شروط الصلح وحصل اللورد الجين على تثبيت المعاهدة المار ذكرها . اما الامبراطور هيان فونك فانهُ هرب الى مانشوريا وهناك توفي بعد سنة وهو في سن الثلاثين

ثم خلف هيان فونك الامبراطور الحالي تشي سيانك ومعناهُ المُسعد جلس في ٢٢ آب سنة ١٨٦٢ وهو في سن الثلاث عشرة وفي ايامهِ تمكنت المحبة والالفة بينهُ وبين الدول الافرنجية وجعلوا بينهم روابط ومعاهدات باقامة السفراء والنواب بين الطرفين ولذلك ترى الآن سفراء الممالك الاوروبة ووكلاءها منتشرين في اكثر المدن الصينية ولا سيما في المواني البحرية ولا بد ان الصينيين يرون قريبًا فوائد هذا التغيير لانفسهم ويجتنون بهذه الواسطة اثمار الارباح المادية والادبية الناتجة عن هذا الاختلاط

الفصل السابع

في تاريخ العرب

الباب الاول

في جغرافية بلاد العرب

هذه البلاد يحدها شمالاً فلسطين وسورية وشرقًا العراق والجزيرة وخليج العجم . وجنوبًا بحر الهند . وغربًا بوغاز باب المندب والبحر الاحمر وبوغاز السويس . واهلها اثنا عشر مليونًا . وهي خمسة اقسام اليمن والحجاز وتهامة ونجد واليمامة

اما بلاد اليمن فتنقسم الى خمسة اقسام وهي حضرموت وشحر ومهرة وعمان ونجران . ومن اشهر مدنها مدينة صنعاء وهي قصبة البلاد ودار الامامة وكانت كرسي ملوك اليمن في الازمنة السالفة وهي ذات بساتين واشجار كثيرة وبها اثمار لذيذة خصوصًا العنب وبقرب صنعاء معادن فحم الحجر . ومن مدن اليمن مدينة عدن ونجران وزبيد ومدينة مخا وهي فرضة مشهورة على شاطي البحر الاحمر ومحط تجارة اليمن وعدد اهلها ١٨٠٠٠ ومنها يجلب البن الذي تنسبهُ العامة الى مكة ويقولون لهُ الحجازي ثم مدينة مارب وغير ذلك من المدن

واما الحجاز فهو ما يلي البحر الاحمر من تهامة وسمي حجازًا لانهُ حاجزٌ بين نجد وتهامة . ومن مدنها مكة وجدة والمدينة وفيهِ الطائف الواقع في شرقي مكة وهو ابرد اقليم واجود مكان في الحجاز كثير الفواكه والبساتين وفيهِ عيون

وجداول كثيرة . وفي جبال الحجاز عدة ولايات صغيرة لا يعيش سكانها في الخيام كباقي عرب السهول بل لهم مدن وقرى مبنية بالحجارة وهم يدافعون عن انفسهم بحصون وقلاع صغيرة ومن هذه الولايات ولاية خيبر وهي على الشمال الشرقي من المدينة واهلها يهود مستقلون بانفسهم

واما تهامة فموقعها على شط البحر الاحمر بين اليمن جنوبًا والحجاز شمالاً

واما نجد فهي ما يتصل بالشام شمالاً والعراق شرقًا والحجاز غربًا واليمامة جنوبًا وهي ارض واسعة عظيمة كثيرة الجبال والمدن والقرى مشحونة بالاراضي الالتزامية حتى ان اكثر مدنها قد تكون التزام شيخ يحكمها ويتصرف باهلها كما يشاء وارضها مخصبة الى الغاية يخرج منها سائر الفواكه خصوصًا التمر وبها تربّى الخيول العظيمة ومن مدنها رياض وهي قصبة البلاد ذات سور وجنائن وبندر يجتمع اليها التجار من سائر الجهات للبيع والشراء وسكانها على اشد ما يكون من التعصب في المذهب الوهابي . ثم مدينة ايانا وهي التي نشا بها محمد بن عبد الوهاب الذي انشأ هذا المذهب

واما اليمامة فهي بين نجد واليمن وهي تتصل بالبحرين شرقًا وبالحجاز غربًا وتسمى العروض لاعتراضها اليمن ونجد

اما غلات بلاد العرب فمنها الحنطة والذرة والشعير والفوّة والبن والفلفل والقطن والسنا مكي والبلسم والعود والمر والبخور والمن والتمر وهذا الاخير هو اساس قوت اهل هذه البلاد . وفيها من الحيوانات الاسد والضبع والنمر والذئب والوعل والجواميس والغزلان والحمير والقردة والجمال والهجن والخيل وهي اجود خيول الارض موصوفة في الحسن والخفة . والمعادن في هذه البلاد قليلة جدًا وفي بعض الاماكن معادن حديد ونحاس ورصاص . والعقيق واللولو في خليج فارس . واما الفنون فمجهولة في بلاد العرب والصنائع مهملة وفن الموسيقى يكاد لا يُعرَف فلا يسمع هناك سوى اصوات الطبول والمزامير

الباب الثاني

في اصل العرب وصفاتهم وما يتعلق بهم

ان العرب هم اقدم الامم من بعد الطوفان واشدهم بأسًا واعزهم نفسًا وهم فرقتان بدو وحضر اما البدو فهم سكان البراري والقفار الذين يعيشون من البان الابل والغنم ولحومها وينتقلون من مكان الى مكان في طلب العشب والمياه واما اهل الحضر فهم سكان المدن والقرى . وكان لبعضهم عصور ودول وقبائل ولم يكن دابهم الاَّ شن الغارة والغزو على الممالك حتى انهم غاروا على فراعنة مصر قبل المسيح بنحو الفي سنة وانتصروا عليهم وتملكوا مصر الوسطى والسفلى وتولى منهم جملة ملوك في مدة ثلث مئة سنة وكانوا يدعون ايام دولتهم في مصر بالملوك الرعاة وهذا اقوى دليل وبرهان على قدميتهم وشدة باسهم في ذلك الزمان وقد استولت ملوكهم ايضًا على الشام والعراق واليمن ونجد والحجاز والبحرين واليمامة كما سياتي بيان ذلك في محلهِ . وجميعهم ينقسمون الى اربع طبقات متعاقبة

الطبقة الاولى العرب العاربة ويقال لها البائدة اي الهالكة وكانوا شعوبًا وقبائل كثيرة العدد كعاد وطسم وجديس وغيرها فانقرضوا جميعًا واندرسوا ولم يبقَ من نسلهم احدٌ على وجه الارض

ثم الطبقة الثانية وهم العرب المستعربة من ولد قحطان الذين منهم التبابعة ملوك اليمن ويقال ان قحطان المذكور هو اول من تكلم بالعربية من اهل هذه الطبقة تعلمها من العرب البائدة الذين كان معاصرًا لهم وكان ابنهُ يعرب بن قحطان من اعاظم ملوك عرب اليمن

ثم الطبقة الثالثة وهم العرب التابعة للعرب المستعربة من ولد عدنان الذي هو من ذرية اسمعيل بن ابرهيم الذي اختلط مع العرب المستعربة ونشأ بينهم وربي في احيائهم وتزوج منهم وتعلم لغتهم العربية بعد ان كان ابوهُ اعجميًّا ومن هذه الطبقة المناذرة ملوك الحيرة والعراق

ثم الطبقة الرابعة وهم العرب المستعجمة اي عرب هذا العصر الذين فسدت لغتهم على تمادي الايام والسنين بمخالطتهم الاجانب وانقراض ما كان لهم من الدولة والسطوة في الجاهلية والاسلام وبقي خلفهم الى الآن وهم طوائف عديدة وشعوب كثيرة يسكنون الخيام ويجولون في البراري المقفرة واشهرهم عرب صخر وعنزة

ومن صفات العرب الشهامة والنجدة وحفظ العهود والذمام والافتخار بشدة الباس وعلو الهمة كانتصارهم على الاعداء وكسب الغنائم ومن اطلع على اشعارهم استدلّ على احوالهم واخبارهم . ومن صفاتهم ايضًا المحافظة على شرف ناموسهم وعرضهم فكان عندهم الموت اسهل من العار والفضيحة ولفرط احترازهم ومحاماتهم عن شرف العرض توصل بعضهم على ما قيل الى عادة ذميمة ومكروهة جدًّا كدفن البنات بالحياة التي هي من اقبح العوائد وافظعها فمنهم من كان يفعل ذلك تجنبًا للعار ومنهم من القلة والفقر فكان الرجل منهم اذا وُلدت لهُ بنت واراد ان يبقيها في قيد الحياة السها جبة من صوف او شعر وجعلها ترعى لهُ الابل والغنم في البادية وان اراد قتلها تركها حتى اذا بلغت من العمر تسع سنين يقول لامها طيبيها وزينيها حتى اذهب بها الى زيارة اهلها فيذهب بها الى الصحراء حيث يكون قد حفر لها بيرًا وعند وصولهِ بها الى ذلك المكان يدفعها من خلفها ويلقيها في البير ثم يهيل عليها التراب ويذهب الى حال سبيلهِ

ومن صفات العرب ايضًا السخاء والكرم والضيافة للقريب والغريب . وكان منادي عامر بن الطُفَيل العامري ينادي في سوق عكاظ هل من

جائع فنطعمهُ أوْ خائف فنؤمنهُ او راحل فنحملهُ . وكان ايضًا عبد الله بن جدعان يذبح في دارهِ كل يوم جزورًا وينادي مناديهِ من اراد الشحم واللحم فعليهِ بابن جدعان فلا عجب اذًا مما يحكى عن حاتم الطائي وكعب بن مامة واوس بن حارثة ومعن بن زائدة من الاخبار والقصص في الكرم والجود

ومما يحكى عن فراستهم وحذاقتهم انهم كانوا يستدلون بآثار الاقدام والحوافر استدلالاً عجيبًا فيعرفون قدمي الشاب من الشيخ والرجل من المرأة والغريب من المتوطن وكان اذا هرب منهم هارب او دخل عليهم سارق اتبعوا آثار قدمهِ حتى ظفروا بهِ

وكانوا على انواعٍ مختلفة في المذاهب والاديان وكان لهم آلهة واصنام كثيرة فعبد بنو حمير الشمس وبنو كنانة القمر وبنو لخم وجذام المشتري وبنو طي سهيلاً وبنو اسد عطارد وبنو ثقيف اللات والعزّى

وكان للعرب قديمًا شهرة عظيمة في الفصاحة والبراعة ونظم الشعر وبهم تضرب الامثال الى يومنا هذا وكانوا يجتمعون في اوقات معلومة معينة يبيعون ويشترون ويتفاخرون ويتناشدون الاشعار التي تدل على ايامهم ووقائعهم التاريخية وعلى ما كان عندهم من العوائد والاصطلاحات فيجتمع كل سنة بسوق عكاظ ساداتهم وملوكهم وقوادهم وقبائلهم ويجلسون في مكانٍ معلوم ثم يقوم الشاعر من بينهم ويصعد الى محلٍ مرتفع وارباب المجلس جالسون في مراتبهم فينشدهم نفائس اشعارهِ ومتى فرغ من انشادهِ قام غيرهُ من الشعراء وانشد ما عندهُ وهكذا الى النهاية . وكان للنابغة الذبياني التقدم في هذا الاجتماع فكان ينصف بينهم ويفضل بعضهم على بعض . ومن اجود اشعارهم واشهرها المعلقات السبع التي اعتنوا بها وكتبوها وزركشوها بحروف الذهب على المنسوجات الحريرية وعلقوها على الكعبة في مدينة مكة وقد اعتنت علماء الاسلام بشرحها وذلك لما فيها من الفصاحة والبلاغة والصناعة الشعرية ومن تامل في قصيدة عنترة بن شدّاد العبسي التي يقول فيها

اذا بلغ الفطام لنا وليدٌ تخرّ له اعادينا سجودا
فمن يقصد بداهيةٍ الينا يرى منا جبابرةً اسودا
ويوم البذل نعطي ما ملكنا ونملا الارض احسانًا وجودا

عرف شجاعة العرب ونخوتهم وكرم اخلاقهم وعلو همتهم . ومن اطلع على قصيدة السموأل التي منها

تعيّرنا انّا قليلٌ عديدنا فقلت لها ان الكرام قليلُ
وما ضرنا انا قليلٌ وجارنا عزيزٌ وجار الاكثيرين ذليلُ
فنحن كماء المزن ما في نصابنا كهامٌ ولا فينا يعد بخيلُ
وننكر ان شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقولُ
وما خمدت نارٌ لنا دون طارقٍ ولا ذمّنا في النازلين نزيلُ
واسيافنا في كل شرقٍ ومغربٍ بها من قراع الدارعين فلولُ
معودةٌ ان لا تسلّ نصالها فتغمد حتى يستباح قتيلُ

استدل ايضًا على احوالهم اذ اكثر اشعارهم على هذا النسق

الباب الثالث

في ذكر العرب قبل الاسلام

وكانت مملكة العرب منقسمة الى دول متفرقة وملوك كثيرة العدد ومن اعظم دولها في ذلك الزمان التبابعة ملوك اليمن واول من ملك منهم قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفكشاد بن سام بن نوح وكان ملكهُ قبل المسيح بنحو الفي

سنة ثم ملك بعدهُ ابنهُ يعرب وفي السنة الاولى من ملكهِ غزا بلاد الحجاز فتغلب عليها واسر عدة من ملوكها وضرب عليهم الخراج ثم فوَّض ولاية البلاد الى اخيهِ جرهم ورجع الى بلادهِ ظافرًا منصورًا وكان يعرب مغرمًا بالبناء وهو اول من ابتدأ بعمارة المدن في اليمن وكانت مدة حكمهِ ٣٣ سنة ثم ملك بعدهُ ابنهُ يشجب ثم ابنهُ عبد شمس الملقب بسبا وكان ملكًا ظافرًا مقتدرًا كثير المغازي والحروب غزا غزواتٍ كثيرة وافتتح مدنًا حصينة وحمل السبايا الى بلاد اليمن وكانوا عددًا كثيرًا ولذلك قيل لهُ سبا وهو الذي اغار على بابل وفتحها وفيهِ يقول الشاعر

لقد ملك الآفاق من حيث شرقها الى الغرب منها عبد شمس بن يشجبِ
سعى بالجياد الاعوجية والقنا * الى بابل في مقنبٍ بعد مقنب

وكان ملكهُ خمسًا وثلثين سنة ثم ملك بعدهُ عدة ملوك لا يعلم لهم اخبار ولا وقائع ولذلك ضربنا عنهم صفحًا واكتفينا بذكر اشهرهم فمنهم الملك شمر يرعش وهو في الحقيقة من اعظم ملوك هذه الدولة جلس على سرير المملكة سنة ٨٠٠ ق م كان جبارًا مقتدرًا كثير الغارات والمغازي قصد بلاد الشرق في جيش مؤلف من نحو ثلث مئة الف مقاتل فدخل ارض العراق ثم ارتحل طالبًا بلاد الصين وجعل طريقهُ على بلاد فارس فتغلب عليها وافتتح المدن والحصون ودخل مدينة السغد فهدمها وخربها فقيل لها بالفارسية شمركند اي شمر اخربها ثم أُعيد بناؤُها فبقي عليها ذلك الاسم لكنهم تصرفوا فيهِ فقالوا سمرقند وهي من المدن المشهورة في تلك البلاد وقد وُجد في بعض قصورها المنهدمة عمودٌ مكتوب عليهِ بالحميرية هذا ما بناهُ شمر يرعش لسيدة الشمس

ولما استخلص شمر يرعش بلاد فارس سار طالبًا بلاد الصين فخاف ملكها من خبر قدومهِ وارتبك في امرهِ وكان لهُ وزير من اعقل الناس فقال لهُ انا افدي هذه المملكة بنفسي واكفيك شر هذا الملك وجنودهِ

فقال قد فوضت هذا الامر اليك فافعل ما تريد فجدع الوزير انفهُ وسار طالبًا الملك شمريرعش وكان بينهُ وبين المدينة مسافة ست مراحل ولما اشرف عليهِ تمثل بين يديهِ واعلمهُ بنفسهِ وشكا اليهِ ظلم الملك وقال قد فعل بي ما ترى على غير جناية تستحق ذلك وخفت ان يقتلني فخرجت اليك هاربًا وارجو ان يكون افتتاح هذه المملكة عن يدي فسر معي وانا ضمينٌ لك بذلك . فاغترَّ شمريرعش بكلامهِ وبما رآهُ من جدع انفهِ وانقاد لهُ فنهض بجيشهِ وسار معهُ الوزير فقادهم في تلك القفار على طريقة غير مستقيمة حتى دخل بهم في فلواتٍ معطشة مهلكة بعيدة عن الماء فاجهدهم العطش وهم يجدُّون في طلب الماء ولا يدركونهُ حتى هلكوا جميعًا وهلك شمر يرعش والوزير ايضًا وكانت مدة ملك شمر يرعش المذكور سبعًا وثلثين سنة . وقام بالملك بعدهُ ابنهُ ابو مالك وبموتهِ انتقل الملك من ذريتهِ الى ولد اخيهِ كهلان وتولى منهم جملة ملوك ثم رجع الملك الى ذرية شمر يرعش وكان آخر ملوكهم سيف بن ذي يزَن الذي استخلص المملكة من ايدي الحبشة بمساعدة الملك كسرى انوشروان بعد ان كانوا قد استولوا عليها نحو سبعين سنة وكان ذلك بعد المسيح بخمس مئة وستين سنة

ومن ملوك العرب ايضًا الغساسنة ملوك الشام اصلهم من اليمن ثم انتقلوا الى نواحي الشام ونزلوا على ماءٍ يقال لهُ غسان فاشتهروا بهِ حتى غلب اسمهُ عليهم فقيل لهم آل غسان ثم تغلبوا على الشام وتملكوها فكان اول ملوكهم جفنة بن عمرو واخرهم جبلة بن الايهم وهو الذي بنى مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقية وسماها باسمهِ وكان قد اسلم في زمن عمر بن الخطاب عند افتتاح الشام فسار الى مكة يريد الحج بمائتين وخمسين نفرًا من اصحابهِ فلما قرب من المدينة قلد اعناق خيلهِ بقلائد الفضة والذهب ووضع تاجهُ على راسهِ ولما بلغ عمر بن الخطاب قدومهُ التقاهُ بموكب عظيم ورفع مقامهُ حتى كان يوم الطواف فبينما جبلة يطوف بالبيت اذ وطي رجل من بني فزارة طرف ازارهِ فانحل عنهُ الازار فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزاري لطمة هشم بها انفهُ

فتعلق بهِ الرجل وانطلق الى عمر ودمهُ يسيل على وجههِ وشكا اليهِ حالهُ . فقال عمر لجبلة انت في خيرة اما ان يلطمك هذا الرجل كما لطمتهُ او تفتدي اللطمة منهُ بالمال فقال جبلة لعمر أَ فلا يُفضَّل عندكم ملكٌ على سوقة قال كلاَّ بل كلاهما في الحق سواء فغضب جبلة من ذلك وصبر الى الليل فاجتمع بغلمانهِ وخرج بهم حتى لحق بالشام ثم سار من هناك الى قيصر واقام عندهُ فتشعبت اولادهُ في تلك البلاد وتسموا بالارناوط

ومن ملوك العرب ملوك بني كندة الذين منهم امرء القيس الشاعر المشهور وهو صاحب المعلقة التي يقول في مطلعها

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ

وهي من افصح كلام العرب وابلغهِ يذكر فيها بعض قصصٍ واخبار تتعلق بوقائع حالهِ الخصوصية وقد اشتهرت بين الناس بهذا المقدار حتى ضُرب بها المثل دون غيرها فيقولون اشهر من قفا نبكِ وذلك لما فيها من التشبيهات المتنوعة والمعاني البديعة المخترعة .وكانت بنو أسد وهي قبيلة من كندة قد قتلت اباهُ في خبر مشهور فخرج الى قيصر ملك الروم يستعين بهِ ويستنجدهُ على قتال القوم فلم ينجدهُ ومات في اثناء الطريق عند رجوعهِ من القسطنطينية بقرب جبل يقال لهُ عسيب وكان ذلك سنة تسع وثلاثين وخمساية للمسيح

ومن ملوك العرب ايضًا ملوك العراق الذين اولهم مالك بن فهم واخرهم المنذر بن النعمان بن المنذر بن ماء السماء الذي حاربهُ خالد بن الوليد واخذ منهُ مدينة الحيرة وكانت المناذرة يومئذٍ عمَّالاً للاكاسرة على عرب العراق كما كانت ملوك غسان عمالاً للقياصرة على عرب الشام . ومن اشهر ملوكهم جذيمة الابرش صعد على سرير المملكة بعد المسيح بثلاثين سنة وكان مسكنهُ الحيرة وهي بلدة قديمة على ساحل البحر بقرب الكوفة وكانت منزلاً لملوك العراق في تلك الايام . وكان جذيمة المذكور ذا شوكة وباس وهو اول من اوقد الشمع ونصب المجانيق للحرب وجبى الاموال وكان بينهُ وبين عمرو بن الظرب ملك

الجزيرة عداوة عظيمة فاستظهر عليهِ جذيمة بعد حروبٍ طويلة وقتلهُ وملكت بعدهُ ابنتهُ الزباء واسمها نائلة وكانت تسكن على شاطئ الفرات وقد بنت لها هناك مدينة وقصرًا عظيمًا وكانت عاقلة اديبة فاجمعت على اخذ الثار من جذيمة بابيها فارسلت اليهِ مع احد قوادها تخطبهُ لنفسها وتقول لهُ انها امرأة لا يليق بها الملك وانها تريد ان تضيف ملكها الى ملكهِ فطمع في ذلك واستشار وزراءهُ في هذا الامر فوافقوهُ جميعهم الَّا وزيرهُ قصير بن سعد فانهُ قال لهُ ايها الملك لا تفعل ولا تغترّ بكلامها وما ارادت بذاك الَّا لتخدعك وتاخذ بثار ابيها منك فلم يلتفت جذيمة الى كلامهِ واستشار ابن اختهِ عمرو بن عدي فوافقهُ على ذلك فاستخلفهُ على المملكة وركب يومئذٍ في جماعةٍ من خواصهِ وسار اليها ومعهُ وزيرهُ قصير المذكور فلما اشرف عليها قبضت عليهِ وقتلتهُ وهرب قصير حتى اتى عمرًا ابن اخت جذيمة واخبرهُ بما كان وحرضهُ على اخذ الثار

ثم ان قصيرًا قطع انفهُ واذنيهِ ولحق بالملكة المذكورة ودخل عليها واخبرها ان عمرًا اتهمهُ بقتل خالهِ ففعل بهِ ذلك ولم يزل يخدعها بالكلام حتى اطمانت لهُ ثم طلب منها ان تاذن لهُ بالاقامة عندها فاذنت لهُ وقدمتهُ على جميع غلمانها وصارت ترسلهُ الى اليمن والحجاز بمال للتجارة فياتي الى عمرو فياخذ منهُ ضعف المال الذي معهُ ويشتري بهِ الخز والديباج والزبرجد والياقوت وياتي بهِ اليها الى ان تمكن منها وصار عندها بمنزلة عظيمة فسلمتهُ مفاتيح الخزائن وقالت لهُ خذ ما احببت منها فاخذ جانبًا عظيمًا من مالها واتى عمرًا وقال لهُ قد علمت ما عليَّ وبقي ما عليك قال وما هو قال الرجال بالصناديق فانتخب عمرو من فرسانهِ الف رجل والبسهم السلاح واتخذ معهُ الف صندوق وجعل يسير بهم ولم يزل كذلك حتى اقترب من قصر نائلة ومدينتها فامر جماعتهُ فتأهبوا بسلاحهم ودخلوا الى الصناديق وقفلوها من داخل ووضعت الخدام الصناديق على ظهور الجمال وربطوها بالحبال حتى لا يشك كل من يراها انها قافلة ثم سبقهم قصير الى المدينة وكان ذلك وقت

العصر ودخل عليها وحياها بالسلام وقال لها قد اتيتك ايتها الملكة بتجارة عظيمة واموال جسيمة بما لم ياتِ احدٌ قط بمثلهِ فصعدت الى سطوح القصر وجعلت تنظر الجمال وهي تدخل المدينة فانكرت مشيها وجعلت تقول

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلاً يحملنَ ام حديدا

ام صرفانًا باردًا شديدًا

فقال قصير في سرهِ بل الرجال جُثَّمًا قعودا

ثم امرت بالصناديق فأُدخلت قصرها وقت المساء وقالت اذا كان الغد نظرنا الى ما اتيتنا بهِ فلما تنصف الليل فتحت الرجال الصناديق وخرجت وفي ايديها السيوف فهجموا على القصر وقتلوا جميع من كان فيهِ من الغلمان والجواري وكان لنائلة سرداب في ناحية من قصرها قد اعدتهُ لخوفٍ يحل بها لتخرج من المدينة وكان قصير يعرفهُ ووصفهُ لعمرو فسار اليهِ فلما احست بالامر بادرت الى ذلك السرداب وكانت قد رات عمرًا وهو يطلبها فمصت سمًّا كان في خاتمها وماتت من وقتها وساعتها وغنم عمرو المدينة واضافها الى مملكتهِ وانتقل بموت خالهِ جذيمة المذكور ملْك العراق اليهِ والى ذريتهِ من بعدهِ

وللعرب حروبٌ مشهورة اعظمها حرب البسوس التي هاجت بين بني بكر وتغلب بسبب قتل كليب بن ربيعة سيد القبيلتين المذكورتين وكان من خبرها ان رجلاً من بني جرم يقال لهُ سعد قصد ديار بني تغلب ونزل على البسوس خالة جساس ابن عم كليب وكان للجرمي ناقة اسمها سراب فوجدها كليب ترعى ذات يوم في حماهُ فرماها بسهمٍ فجرحها وجاءت الناقة الى صاحبها مجروحة فصرخ بالويل فلما سمعتهُ البسوس صاحت واذلاهُ لانهُ نزيلها فانتصر جساس لخالتهِ وقصد كليبًا وهو منفردٌ في حماه فطعنهُ بالرمح فقتلهُ وهرب ولما شاع امر كليب في القبيلة نهض اخوهُ المهلهل وكان من جبابرة

العرب لينتقم من بني بكر فشمر للحرب واجتمعت اليهِ فرسان تغلب وجرى بين القبيلتين عدَّة وقائع يطول شرحها كان اكثر النصر فيها للمهلهل وما زالت الفتنة بينهما ثائرة حتى انتهى الحال بقتل جساس فعند ذلك كف المهلهل عن القتال ورحل الى اليمن ليطفي جمرة الحرب بعد ما كانت قد دامت على قول الاكثرين مدة اربعين سنة

ومن حروب العرب ايضًا حرب سباق الخيل بين بني عبس وفزارة بسبب السباق بين داحس فرس قيس بن زهير سيد بني عبس والغبراء فرس حذيفة بن بدر سيد بني فزارة واختلفوا بسبب هذا السباق فثارت الحرب بينهم واشتدت وطالت سنين كثيرة ثم اصطلحت عبس وفزارة وانفرد قيس عن بني عبس وساح في الارض حتى انتهى الى عمان فتنصر بها ومات

الباب الرابع

في ذكر دول العرب الاسلامية

وسنة ٦٢٢ للمسيح ظهر في مكة محمد بن عبد الله صاحب الشريعة الاسلامية فدعا العرب الى الاسلام وعبادة الخالق لانهم كانوا على ضلال يعبدون الاوثان ولا يعرفون الحلال من الحرام ويصرفون اوقاتهم بالحروب والغارات وارتكاب المعاصي فشقَّ عليهم ذلك الامر واستعظموهُ وجهروا عليهِ وحاربوهُ فنصرهُ الله عليهم فقهر جبابرتهم وفرسانهم وكسر اصنامهم واوثانهم ثم فتح الفتوحات الجليلة وتغلب على بلاد العرب

وتولى امر الاسلام بعد محمد ابو بكر الصديق سنة ٦٣٢ بعد الميلاد وكان من سادات بني هاشم واشرافها وفي اول خلافتهِ ارتد عدَّة قبائل من العرب

عن الاسلام وأظهروا الخلاف والعصيان فقاتلهم وانتصر عليهم وادخلهم تحت الطاعة والانقياد ولما تمهدت لهُ البلاد العربية شرع في المغازي والفتوحات فارسل الامير خالد بن الوليد المدعو سيف الله وابا عبيدة بن الجراح في جيشٍ عظيم لافتتاح المالك والبلدان وفي مدّة قصيرة افتتح خالد جانبًا من بلاد العجم وتغلب ابو عبيدة على اطراف سورية بعد ان كسر جيشًا عرمرمًا من جنود الرومانيين كان قد ارسلها الملك هرقل للمدافعة والمحاماة عن تلك البلاد واختلف المؤرخون في وفاة ابي بكر فمنهم من قال انهُ مات مسمومًا وقال آخرون انهُ اغتسل في يوم شديد البرد فحُمَّ خمسة عشر يومًا ولما حضرتهُ الوفاة عهد بالخلافة الى عُمر ثم توفي سنة ثلاث عشرة للهجرة الموافقة لسنة ٦٢٥ مسيحية وكانت مدة خلافتهِ سنتين وثلاثة اشهر

وتولى بعدهُ عُمَر بن الخطاب سنة ٦٢٤ وكان من احسن الناس سيرة وعدلاً موصوفًا بالزهد والاستقامة بويع بالخلافة يوم وفاة ابي بكر وقال في اول خطبتهِ يا ايها الناس ما فيكم احد اقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق لهُ ولا اضعف عندي من القوي حتى آخذ الحق منهُ وهو اول من سمي امير المومنين وكان اول شيء امر بهِ عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش وولي مكانهُ ابا عبيدة بن الجرّاح وكانت همتهُ متجهة الى الغزوات والحروب وفي ايام خلافتهِ فتحت بلاد العجم وانهزم كسرى يزجرد واحتمى بملك الاتراك ثم فتحت الشام وبعلبك وحلب وانطاكية والقدس وجميع مدن فلسطين وانتهى الامر اخيرًا انهُ افتتح الديار المصرية على يد عمرو بن العاص بعد قتال شديد. وكان بالاسكندرية مكتبة يونانية شهيرة مشتملة على عدد كثير من الكتب التاريخية وانواع العلوم والآداب القديمة فكتب عمرو بن العاص الى عُمَر بن الخطاب يذكر لهُ هذه المكتبة ويستشيرهُ فيها فاجابهُ عُمَر ان يفحصها اولاً فان وجد فيها ما يوافق نص القرآن فلا حاجة بها وان كانت تضادّهُ فاعدامها اولى فلما

وقف عمرو على هذا الخطاب احرقها بتمامها[1] واستمر عمر بن الخطاب في خلافتهِ الى آخر سنة ٦٤٤ وفيها طعنهُ رجل يقال لهُ ابو لؤلؤة وهو يصلي في المسجد بخنجر في خاصرتهِ وتحت سرتهِ وكانت مدة خلافتهِ عشر سنين وستة اشهر وثمانية ايام

وكان هذا الخليفة بمكان عظيم من العدالة شديد الحرص في حماية الدين وحقوق الخلافة فقال ذات يوم وهو يخطب على المنبر ايها الناس من راى منكم فيَّ اعوجاجًا فليقومهُ فقام رجل من وسط الجماعة وقال والله لو راينا فيك اعوجاجًا لقومناهُ بسيوفنا فقال الحمد لله الذي جعل في هذه الامة من يقاوم اعوجاج عمر بسيفهِ

وتولى بعده عثمان بن عفان وفي ايامهِ امتدت فتوحات الاسلام الى بلاد المغرب وكان قد وقع بين المسلمين اختلاف وانقسام من جهة عثمان ونفر اكثر الناس منهُ حتى كادت تضرم بينهم نيران الحروب وسبب ذلك انهُ كان قد ولى قومًا من اقاربهِ واهل بيتهِ على الملحقات والاقاليم الاسلامية من لا يصلحون للرياسة ولا لهم معرفة في امور السياسة . وكان قد عزل ابا موسى الاشعري احد اعيان الصحابة عن ولاية البصرة وولى عوضًا عنهُ خالهُ عبد الله بن عامر ثم عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانهُ عبد الله بن ابي السرح اخا عثمان من الرضاعة فهاج اعيان الشعب من جرى ذلك وحقدوا عليهِ ورفعوا راية الخروج عن طاعتهِ واجتمع بهِ الاشراف والسادات وطلبوا منهُ ان يعزل لهم كاتبهُ مروان وعبد الله المذكور عن ولاية الديار المصرية فاجابهم الى ذلك باتفاق الامام علي وعزل لهم عبد الله عن ولاية مصر وولى

[1] ان هذا الخبر ماخوذ عن مورخين افرنج وعرب منهم الشيخ احمد المقريزي الشهير اذ يقول في المجلد الاول من كتاب تاريخ الخطط والآثار صفحة ١٥٩ ان حريق مكتبة اسكندرية من عمرو بن العاص كان باشارة من عمر ابن الخطاب ولكن المتاخرين من المورخين انكروا وقوع هذه الحادثة وناقضوها ببراهين وادلة مستطيلة والله اعلم بالحقيقة

عليها محمد بن ابي بكر وكتب لهُ امرًا بالولاية فاخذ محمد الامر وتوجه يومئذٍ الى مصر في نفرٍ من قومهِ فبينما هم في الطريق اذا بعبد على هجين آتيًا من ورائهم وهو مجدٌ في مسيرهِ .فقالوا لهُ الى اين انت قاصد قال الى العامل بمصر قالوا هذا عامل مصر يعنون محمد بن ابي بكر قال بل العامل الآخر يعني عبد الله بن ابي السرح ففتشوهُ فوجدوا معهُ كتابًا بختم عثمان يقول لهُ انهُ اذا جاء محمد بن ابي بكر ومن معهُ وقالوا بانك معزولٌ واروك كتابي فلا تقبل واحتل في قتلهم وابطل كتابهم واستقر في مأموريتك فلما وقف محمد بن ابي بكر على هذا الكتاب اندهش وحار ورجع في الحال بمن معهُ الى المدينة وجمع اعيان الصحابة واوقفهم على ذلك الخطاب فازداد حنقهم على عثمان ودخلوا عليهِ وسالوهُ عنهُ فاعترف بالختم وخط كاتبهِ وحلف بالله انهُ لم يامر بذلك ولا عندهُ اطلاع هذا الامر فطلبوا منهُ ان يسلمهم كاتبهُ مروان لينتقموا منهُ فابى وامتنع ثم عظمت الفتنة وتحزَّب الناس واشهروا السلاح وهجم على دارهِ جمهورٌ من الشعب منهم محمد بن ابي بكر واحاطوا بها وصمموا على قتلهِ وبعد ان حاصروهُ ايامًا قليلة كسروا ابواب القصر ودخلوا عليهِ وقتلوهُ سنة ٣٥ من الهجرة وكانت مدة خلافتهِ اثنتي عشرة سنة الاَّ اثني عشر يومًا ومكث ثلاثة ايام ولم يدفن(١)

ثم جاس بعدهُ على سرير الخلافة علي بن ابي طالب سنة ٦٥٥ بويع بالخلافة يوم قتل عثمان ولما سالوهُ البيعة قال لاحاجة لي في امركم فاختاروا لكم رجلاً غيري ومهما اخترتموهُ رضيت بهِ واكون وزيرًا خيرًا من ان اكون اميرًا فابوا الاَّ مبايعتهُ ثم انهم بايعوهُ وجعلوهُ خليفةً عليهم . وكان الامام علي من الفرسان المشهورين والابطال المعدودين وهو ابن عم محمد وصهرهُ وزوج ابنتهِ فاطمة وكان قد وقع بسببهِ بين الاسلام اختلاف ومنازعات من جهة ترتيب الخلافة بعد محمد فاهل السنَّة يعتبرون ان هذا الترتيب الذي جرى لغاية خلافة الامام علي كان على حقهِ والشيعة يقولون ان علي بن ابي طالب كان الاحق

(١) عن ابي الفدا المطبوع في الاستانة جلد اول صفحة ١٧٩

بالتقدم في الخلافة وكل فرقةٍ تورد دلائل و براهين تؤيد مدّعاها

وكانت مدّة خلافة الامام علي كلها عبارة عن تكميل فتوحات ومغازي فازدادت احكامهُ وامتدت ولايتهُ بافتتاح مملكة العجم وجميع بلاد مصر والعرب. وكان كسرى يزدجرد قد نهض لاسترجاع بلادهِ ولكنهُ لم ينجح بمشروعهِ لان القبائل والشعوب التي كانت قد تعصبت لهُ خذلتهُ وتركتهُ وبينما كان عازماً على الهزيمة والفرار خانهُ خادمهُ وقتلهُ . وكانت خلافة علي خمس سنين الاَّ ثلاثة اشهر وسبب موتهِ انهُ وثب عليهِ جماعة من الخوارج فضربهُ احدهم بسيفٍ في جبهتهِ فمات كما سياتي بيان ذلك في ترجمة معاوية بن ابي سفيان راس الدولة الاموية وتولى بعدهُ ابنهُ الحسن بن علي بن ابي طالب فحكم نحو ستة شهور ثم جاءت دولة بني أُميّة .

الباب الخامس

في ذكر بني أُمَيَّة

كان هولاءِ القوم و بنو هاشم حيًّا واحدًا ينتمون لعبد مناف وهم من اشراف عرب قريش وسادانها الاَّ ان بني أُمية كانوا اكثر عددًا من بني هاشم واوفر رجالاً وكان لهم قبل الاسلام شرف وفخر فلما مات عثمان بن عفان وهو الخليفة الثالث من بني هاشم اختلف الناس على خلافة علي بن طالب لانهُ من آل هاشم ورجعوا الى امر العصبية الطبيعية التي لاتفارق الانسان الاان عساكر علي كانت في ذلك الوقت اكثر عددًا لتوطيد كرسي الخلافة فلم يكن سبيلٌ لبني امية او غيرها من طوائف العرب ان تغتصب الخلافة منهُ ولكن لسبب كثرة حروبهِ الخارجية مع الانشقاقات والتحزبات الداخلية ضعفت شوكة

بني هاشم فنهض معاوية بن ابي سفيان الاموي في طلب الرياسة والاخذ بثار عثمان بن عفان من علي بن ابي طالب مع ان عليًّا لم يكن لهُ شركة في قتلهِ ورفض حق علي للخلافة فوافقهُ على ذلك جماعة من الاشراف والاكابر من جملتهم عمرو بن العاص الذي كان يومئذٍ عاملاً في مصر وبايعوهُ بالخلافة وجرت بين علي ومعاوية وقائع هائلة يطول شرحها قتل فيها الوف كثيرة من القواد والفرسان واكابر الاعيان ثم تهادنا وافترقا وكان قد هاج غضب ايمة الاسلام وامرائها في مكة وغيرها من البلاد واشتد حنقهم بسبب هذه المشاحنة والفتنة العظيمة وذكروا اصحابهم واخوانهم المتتولين وقالوا لو قتلنا اكابر القواد لارحنا منهم العباد وانقذنا الامة الاسلامية من هذه البلية فانتدب لهذا العمل ثلاثة اشخاص وهم عبد الرحمن بن ملجم وعمرو بن بكير والبرك بن عبد الله فقال ابن ملجم انا اكفيكم عليًا وقال البرك انا اكفيكم معاوية وقال ابن بكير انا اكفيكم عمرو بن العاص وتواعدوا لسبع عشرة تمضي من شهر رمضان فقتل ابن ملجم عليًّا كما تقدم واما البرك فوثب على معاوية تلك الليلة وضربهُ بالسيف فاخطأهُ فامسكوهُ فقال لمعاوية اني ابشرك فلا تقتلني قال بماذا فقال رفيقي قتل عليًّا هذه الليلة فقال كيف ذلك فاخبرهُ بواقعة الحال فقتلهُ معاوية واما ابن بكير فجلس تلك الليلة يترقب عمرو بن العاص فلم يخرج من منزلهِ

وبعد موت علي قويت شوكة معاوية وانحطت منزلة الحسن بن علي فخلع الحسن نفسهُ من الخلافة خوفًا من العواقب واتفقت الجماعة على بيعة معاوية فبايعوهُ في منتصف سنة احدى واربعين من الهجرة

ولما استفام الامر لمعاوية وتمكن من سرير الخلافة جعل كرسي مملكتهِ بمدينة الشام وامتدت احكامهُ على مصر والحجاز وخرسان وسائر اقطار الاسلام . ثم نهض لمحاربة الرومانيين وافتتاح مدينة القسطنطينية ويقال انهُ غزاها خمسة اعوام متتابعة في جموع كالجراد المنتشر فكان يقصدها في زمن الصيف ويرجع عنها في فصل الشتاء ولم يتمكن منها . وكان احد ايوب بين الدعو

كلينيكيوس من مدينة هيليوبوليس قد اخترع حراريق نارية مركبة من النفط والقطران والكبريت وجاء بها الى القسطنطينية ومن عجيب خواصها انها كانت اذا اشتعلت لا تطفأُ واذا مست الخشب اشعلتهُ في الحال واعدمتهُ واذا القيت على عسكرٍ اهلكتهُ وفي المرة الاخيرة من هذه الغزوات خسر معاوية جميع مراكبهِ وجيوشهِ بواسطة هذه الحراريق واضطر ان يتحوَّل عن المدينة رغمًا وقهرًا بعد ان عقد صلحًا وتعهد لملك القسطنطينية ان يدفع لهُ خراجًا عن ثلاثين سنة . وكانت مدة خلافة معاوية المذكور نحو عشرين سنة

ومن افاضل ملوك هذه الدولة عبد الملك بن مروان جاس على سرير الخلافة سنة ٦٩٣ مسيحية وهو اول من ضرب السكة الاسلامية سنة ٧٦ هجرية وبالغ في تخليص الذهب والفضة من الغش فكانت الهبيرية والخالدية واليوسفية اجود نقود بني امية وكانت مدة حكمهِ ثلاث عشرة سنة

ثم تولى بعدهُ ابنهُ الوليد بن عبد الملك وهو الذي بنى الجامع الكبير بدمشق المشهور بالجامع الاموي وكان في جانب الجامع كنيسة للنصارى تعرف بكنيسة مار يوحنا فهدمها الوليد وادخلها في الجامع . وفي ايام هذا الخليفة امتدت فتوحات الاسلام الى داخل افريقية وتوغلت جيوشها في سهولها وصحاريها واتصلت غزواتها الى جبل الاطلس واخضعت قبائل المغاربة الكائنة على الشطوط البحرية واستولت على مدنها وقلاعها وادخلت اهلها في الديانة الاسلامية واخافت قلوب الناس بقوة سطوتها وغاراتها . ولما تمهدت لها تلك الديار علقت امالها بافتتاح بلاد الاندلس اي مملكة اسبانيا المجاورة لها وشرعت في الاستعداد للتغلب على سواحل اوروبا الكائنة تجاه شطوط افريقية فجندت الجنود وجهزت المراكب وقصدت تلك النواحي والاطراف ولكنها بعد حروبٍ كثيرة ارتدت راجعة الى الوراء بدون فائدة وما زالت تترقب الفرص من وقت الى وقت حتى حدث بعض اضطرابات داخلية في اسبانيا بين ملوكها واشرافها فتحت الباب لدخول الاسلام اليها كما سنبين ذلك في تاريخ تلك

الامة لان ذلك من متعلقاتها . اما هنا فنقول بانهُ في اوائل القرن الثامن اذ كان موسى بن نصير عاملاً على بلاد المغرب من طرف الوليد بن عبد الملك والملك رودريك واليًا على اسبانيا عبر قوم من اشراف الاسبانيين الى افريقية واتوا موسى وطلبوا منهُ ان يقيم حربًا على الاندلس ويتنقم من ملكها رودريك الذي كان اغتصب تاج الملك بدون حق . فاجابهم موسى الى طلبهم من بعد ما استأذن الوليد في ذلك وارسل طارق بن زياد وهو قائد من قواد العرب بجمهور من الابطال والفرسان لافتتاح تلك البلاد فسار بهم الى تلك الاطراف ورسا بسفنهِ تجاه جبل الفتح الذي تسمى باسمهِ اي جبل طارق الى يومنا هذا . وكان الكونت جوليان احد اشراف اسبانيا من جملة اخصام رودريك وذا سطوة وصولة فاتحد سرًّا مع المسلمين وسهل لهم مساعيهم فاستولى طارق على المدينة التي على حافة الجبل المذكور ثم احرق جميع سفنهِ بالنار ليقطع امل عسكرهِ من الرجوع قبل الغلبة والانتصار فاشتبك حينئذٍ القتال بينهُ وبين الاسبانيين وحدث بينهما عدَّة وقائع بسيطة الى ان دهمهُ ملك اسبانيا بتسعين الف مقاتل فالتحمت الحرب بينهم في مكان يقال لهُ سهل نهر كودالت وذلك يوم الاحد قبل غاية شهر رمضان بيومين سنة ٩٢ للهجرة وكان يومًا مهولاً انتشب فيهِ القتال عند طلوع الفجر وكانت لوائح الثبات والنشاط تلوح على اوجه الفريقين مع ان عدد الاسبانيين كان اربعة اضعاف عدد العرب وكانت عساكر الاسلام اكثرها من المغاربة فتجلدت وصبرت وقاتلت قتالاً فوق طاقتها فالجأَت عساكر الاسبانيين الى الهرب والفرار بعد ان قتل منها مقتلة عظيمة وغرق ملكها رودريك في النهر ولما بلغ موسى بن نصير خبر هذا الانتصار تجهز بجيش جرار وسار بنفسهِ الى تلك الديار وجال بجنودهِ تجاه مدينة طليطلة التي كانت يومئذٍ عاصمة المملكة فافتتحها وملكها وما زالت الاسلام تفتح المدن والحصون حتى انها في اقل من خمسين سنة استولت على جميع اقطار اسبانيا وصارت المملكة في قبضة ايديهم لا مشارك لهم فيها ولا

منازع ما عدا جبال استوريا التي التجا اليها الامير بيلاجيوس احد رجال العائلة الملكية مع جمهور عظيم من اتباعهِ فعصوا فيها واستقلوا بانفسهم . وكان حكم الاسلام ممتدًّا من البحر المتوسط الى جبال البرن الواقعة على شمالي البلاد. ومع كل ذلك لم يكتفِ المسلمون بهذه الانتصارات العظيمة بل تقدموا وقطعوا تلك الجبال المذكورة ودخلوا تخوم فرنسا قاصدين ان يتملكوها ويستولوا على باقي ممالك اوروبا فاستعد لقتالهم الملك كارلوس مارتل خوفًا من غائلتهم والتقاهم بعسكرٍ عديد بالقرب من مدينة طور وبعد وقائع هائلة من الجانبين ظفر ملك فرنسا بهم وشتت شملهم وقتل منهم على ما ذكر مورخو الافرنج نحو ثلاث مية الف نسمة وانهزم المسلمون ومن ذلك الوقت ضعفت شوكتهم في تلك البلاد ولم يعد يمكنهم ان يثيروا حربًا ثانيةً على تلك الجهات الشمالية . وكانت مدة خلافة الوليد بن عبد الملك تسع سنين وتولى بعدهُ اخوهُ سليمان ثم غيرهُ وكان آخر خلفاء هذه الدولة مروان بن محمد بن مروان فحكم نحو خمس سنين ومات قتيلاً سنة ١٣٢ هجرية الموافقة لسنة ٧٥٠ مسيحية وبموتهِ ظهرت الدولة العباسية فكان عدد خلفاء هذه الدولة اربعة عشر

الباب السادس

في ذكر الدولة العباسية

وكانت دولة الاسلام دولة واحدة في ايام الخلفاء الاربعة وبني امية من بعدهم لاجتماع عصبية العرب ثم ظهر من بعد ذلك امر الشيعة من سلالة العباس عم محمد فادعوا بان لهم حقًّا بالامامة ووافقهم على ذلك حزبٌ كبير من الناس في ايام مروان آخر خلفاء بني أُمية . فكان الامويون يضعون على

ثيابهم اشارةً بيضاء والعباسيون علامةً سوداء واما الفاطميون الذين ينتسبون الى علي وفاطمة فانهم كانوا قد تنازلوا عن حقوقهم في الرياسة والتملك والتصقوا بالامور الدينية وانعكفوا عليها واشتهروا بالتقوى والصلاح بين الناس وامتازوا عن الحزبين المذكورين بسمات خضراء ولما كثرت التحزبات والانقسامات واشتدت العداوة بين الحزب الاسود والحزب الابيض انتهى الامر بحدوث حرب بين مروان والعباس الملقب بالسفاح الذي هو اول ملوك الدولة العباسية فكانت الدائرة على بني أُمية فقتل مروان المذكور ولم يسلم من ذرية بني أُمية غير رجلٍ واحد يقال لهُ عبد الرحمن فهرب الى بلاد الاندلس فترحب بهِ الاهالي واحترموهُ وتبوَّأ هناك تخت قرطبة سنة ٧٥٦ وتولت ذريتهُ من بعدهِ ما ينوف على مئتين وخمسين سنة . ثم اغتصب الخلافة بعدهم بعض امراء المغرب وانحصرت ولايتهم في مقاطعة غرناطة وضعفت شوكتهم شيئًا فشيئًا الى ان انقرضت احكامهم من تلك البلاد سنة ١٤٨١ كما سياتي الكلام عليهم في تاريخ اسبانيا

وتبوَّأ السفاح سرير الخلافة سنة ٧٥٠ للمسيح وكان رجلاً شجاعًا مهيبًا عالي الهمة محبوبًا من جميع الناس وكان مسكنهُ بالحيرة واستمر بالملك الى ان توفي بعد اربعة اعوام من حكمهِ وتولى بعدهُ اخوهُ المنصور ابو جعفر وكان رجلاً كريم الاخلاق موصوفًا بالذكاء والفراسة وهو الذي بنى مدينة بغداد خوفًا من ثورة الاعداء عليهِ بالكوفة فشرع في بنائها وكتب الى بلاد الشام وطبرستان والكوفة والبصرة في طلب الصناع والفعلة واختار جماعة من اهل الامانة والمعرفة بالهندسة ممن يعتمد عليهم لمباشرة هذا العمل فخطها وامر بحفر اسسها فاقيمت المدينة وجعلها المنصور دار الخلافة وكانت اول مدينة عظيمة في مملكة الاسلام وكان عدد سكانها على ما قيل نحو مليونين . ومات المنصور سنة ٧٧٥ للمسيح بعد ان حكم مدة عشرين سنة وتولى بعدهُ ابنهُ المهدي بن المنصور عشر سنين ثم ابنهُ الهادي بن المهدي وكانت مدة حكمهِ سنة وثلاثة

اشهر ثم قام بالخلافة بعدهُ اخوهُ هرون الرشيد بن المهدي جلس على سرير الخلافة سنة ٧٨٦ للمسيح وكان هذا الخليفة من اشهر وافضل ملوك هذه الدولة عاقلاً مهيبًا عالي الهمة موصوفًا بالحلم وحسن التدبير راويًا للاخبار والتواريخ يحب الشعر والشعراء ويميل الى اهل العلم حتى قيل انهُ لم يجتمع على باب ملك او سلطان من الشعراء والعلماء والندماء ما اجتمع على بابهِ وكانت دولتهُ من اعظم الدول الاسلامية واكثرها وقائع واجلها رونقًا امتدت فيها التجارة واتسعت دوائر العلوم والاداب في جميع البلاد وكتبت الكتب التاريخية والادبية وترجمت المؤلفات الفلسفية والعلمية من اللغة اليونانية الى العربية وتنافس الكتاب في ترجمتها وكتابتها . وفي مدة حكمهِ كان على فرانسا الملك كارلوس الكبير المسمى شارلمان وكان بينهما مودة والفة وكان الرشيد كثيرًا ما يكاتبهُ ويهاديهِ ومن جملة ما اهداهُ شطرنجًا ثمينًا وساعة شمسية من مخترعات بلاد الشرق وانواعًا كثيرة من البزور التي لاتوجد في البلاد الافرنجية وارسل لهُ ايضًا مفاتيح كنيسة القيامة في القدس مع امرٍ لنوابهِ ان يعاملوا الزوَّار الذين ياتون لزيارة الاراضي المقدسة احسن معاملة

ومن مناقب هذا الخليفة انهُ كان انيسًا وديعًا الى الغاية غير محتجب عن اصحاب الدعاوي والحاجات محافظًا على جلب راحة رعاياهُ وكان يطوف في اكثر الليالي متخفيًا في اسواق بغداد وشوارعها ليتوقف على احوال الناس فاذا رأى احدًا منهم مظلومًا اعانهُ وانصفهُ قيل ان امراةً دخلت عليهِ يومًا وشكت لهُ عن الاضرار والخسائر التي لحقت بها بمرور جيوشهِ في اراضيها فاجابها الرشيد قائلاً لقد جاء في الحديث الشريف انهُ من عادة العسكر ان يضر بالاراضي عند مرورهِ بها للغزو والجهاد فيجب على اصحاب الاملاك ان تحتمل اضرارهُ وتقوم بخدمتهِ فقالت لهُ على الفور وقد قيل ايضًا ان الملوك التي تسمح بظلم رعيتها تجلب خرابًا على مملكتها فاستحسن الرشيد خطابها وامر الخازن ان يدفع لها من بيت المال اضعاف خسائرها . وكان الرشيد قد

استوزر يحيى بن خالد البرمكي عند جلوسهِ على تخت المملكة وكان يحيى قبل الخلافة كاتبهُ ونائبهُ فنهض باعباء الدولة اتم نهوض واظهر رونق الخلافة وكان كاتبًا بليغًا اديبًا لبيبًا موصوفًا بالجود والكرم وفيهِ يقول القائل

لا تراني مصافحًا كف يحيى   انني ان فعلت ضيعت مالي
لو يمسُّ البخيلُ راحة يحيى   لسخت نفسهُ ببذل النوالِ

وكان ولداهُ جعفر والفضل ابنا يحيى من كرماء الناس وكان الرشيد يميل الى جعفر اكثر من اخيهِ الفضل لسهولة اخلاقهِ وفصاحة لسانهِ فجعلهُ وزيرًا ثانيًا بعد ابيهِ يحيى وقدمهُ على جميع خواصهِ وعظمائهِ حتى انهُ كان يستشيرهُ في جميع امورهِ واحوالهِ ولا يفعل شيئًا الّا باطلاعهِ ورايهِ

قيل صنع الرشيد وليمةً عظيمة ذات يوم وزخرف مجالسهُ واحضر ابا العتاهية الشاعر وقال لهُ صف لنا ما نحن فيهِ من نعيم هذه الدنيا فقال الشاعر

عش ما بدا لك سالمًا   في ظل شاهقة القصورِ

فقال الرشيد احسنت ثم ماذا فقال

يسعى عليك بما اشتهيت   لدى الرواح ابو البكورِ

فقال حسنٌ ثم ماذا فقال

فاذا النفوس تقعقعت   في ظل حشرجةِ الصدورِ
فهناك تعلم موقنًا   ما كنت الّا في غرورِ

فبكى الرشيد فقال جعفر بن يحيى لابي العتاهية ارسل اليك الخليفة لتسرّهُ فاحزنتهُ فقال الرشيد دعهُ فانهُ رآنا في سرورٍ ونعيمٍ عظيم فكره ان يزيدنا منهُ

وكان الرشيد يحب جعفرًا حبًّا عظيمًا ومن فرط حبهِ لهُ زوجهُ باختهِ العباسة بشرط ان لا يقع بينهُ وبينها ما يقع بين الرجال والنساء وذكر المورخون ان هذه الزيجة كانت لرفع الحجاب بينها وبين جعفر في حضرة الرشيد على المائدة . ويقال ان جعفرًا قد خان هذا العهد وتزوج بها سرًّا وكان كثيرون من

حسادهِ ومبغضيهِ قد وشوهُ الى الخليفة وذكروهُ بالقبيح حتى مقتهُ ونفر منهُ ثم قتلهُ بعد ذلك وقبض على ابيهِ واخوتهِ واهلهِ وكانوا خمسين نفرًا فحبسهم وقتلهم واستوزر بعد جعفر الفضل بن الربيع ولكنهُ ندم اخيرًا على ما فعل

وكان الرشيد مع كل هذه الاوصاف والمناقب ذا شجاعة وباس لا يبالي بالمخاطر والاهوال ويقال انهُ انتصر في ثمان حروب حضرها بنفسهِ وقاتل فيها قتالاً حسنًا . وكان قد ارسل رافع بن الليث حكمدارًا على اعمال خراسان فبوصولهِ اليها خلع الطاعة واظهر العصيان ولم يكتفِ بذلك بل اغار على مدينة سمرقند وافتتحها وقتل عاملها وملكها فلما بلغ الرشيد هذا الخبر ساءهُ جدًّا وخرج الى قتالهِ وعند وصولهِ الى مدينة طوس من اعمال خراسان مرض مرضًا شديدًا ولما زاد عليهِ الحال التفت الى وزيرهِ الفضل وقال

احين دنا ما كنت اخشى دنوهُ رمتني عيون الناس من كل جانبِ
فاصبحت مرحومًا وكنت محسدًا فصبرًا على مكروه مرّ العواقبِ
سابكي على الحب الذي كان بيننا واندب ايام السرور الذواهبِ

ثم مات ودفن هناك وكانت وفاتهُ سنة ٨٠٩ للمسيح وتولى بعدهُ ابنهُ الامين ومما يحكى عنهُ انهُ كان ضعيف الراي منهمكًا باللذات والملاهي مدمنًا الخمر مشتغلاً بولائمهِ ومسراتهِ غير ملتفت الى امور الخلافة وكان قد وقع بينهُ وبين اخيهِ المامون فتنة وعداوة فتحزب مع المامون كثير من العساكر وقواد الجيوش وجرى بين الاخوين حروبٌ ووقائع يطول شرحها قتل فيها الامين وكانت مدة حكمهِ نحو اربع سنين وتولى بعدهُ اخوهُ المامون فكان رجلاً شجاعًا مهيبًا موصوفًا بالحذاقة والادب متخلقًا بجميل الاخلاق مشغوفًا بمطالعة التواريخ والسير وكان لهُ مشاركة في كثير من العلوم والفنون ولا سيما في علم الافلاك والنجوم وكان ديوانهُ مشحونًا بالعلماء والشعراء وارباب الانشاء ويقال انهُ عند جلوسهِ على سرير الخلافة جمع مكتبة عظيمة من الكتب اليونانية المفيدة وامر بترجمتها الى اللغة العربية من جملتها كتاب اقليدس في فن الهندسة لامتداد

المعارف بين الناس حتى فاق على ابيهِ وامتاز في انتشار الفوائد والآداب وكان مع هذه الاوصاف والصفات من ارباب الغزو والفتوحات فهو الذي غزا بلاد صقلية في اوروبا وتغلب عليها وافتتح جزيرة كريت وغيرها من مدائن الشرق التي كانت تحت تسلط الرومانيين واستمر بالخلافة نحو عشرين سنة الى ان توفي وقام بالخلافة بعدهُ المعتصم بالله فاستخدم في بابهِ نحو خمسين الف نفر من الاتراك التترية لمحافظة الثغور والحدود الاسلامية وكانوا يزدادون في العدد والقوة يوماً بعد يوم الى ان قويت شوكتهم وصار يخشى من باسهم وسطوتهم وصاروا على تمادي الايام اصحاب النهي والامر فكانوا يقتلون ويولّون من شاءُوا من الولاة والعمّال حتى لم يعد للخليفة في ايامهم من الحكم الاَّ مجرد الخطبة والاسم وجميع الامور في ايديهم كما كانت في ايدي المماليك في الديار المصرية واستمر الحال على مثل ذلك الى ايام المعتضد بالله سنة ٨٩٢ للمسيح حينما وقعت المفاسد والفتن في الدولة العباسية وضعفت شوكتها بعد ذلك العز والاقتدار وما زالت في انحطاط وسقوط حتى تضعضعت اركانها واختل عقد نظامها وفقدت اكثر املاكها ولم يبقَ لملوكها من الولايات والملحقات غير بغداد واطرافها وتغلب عمَّالها على اكثر اقطارها فخلعوا الطاعة واغتصبوا الاحكام بطريق التعدي والعدوان وصاروا دولاً متفرقة وولاةً متعددة فكانت خرسان وما وراء النهر لابن سامان وذريتهِ وبلاد البحرين للقرامطة واليمن لابن طباطبا واصبهان وفارس لبني بويه والاهواز وواسط لمعزّ الدولة وحلب لسيف الدولة وديار مصر لاحمد بن طولون وغيرهِ من الدول والملوك الذين تغلبوا عليها ايضاً واستقلوا باحكامها في ازمنة مختلفة كالاخشيديين والفاطميين والايوبيين والمماليك الجراكسة كما سياتي الكلام على دولهم وملوكهم مفصلاً في ذكر تاريخ مصر

وما زالت احوال الدولة العباسية في انقسام واختلال الى ان ظهرت الدولة السلجوقية وكانت مساكن اهلها فيما وراء نهر الفرات في مكان يبعد عن بخارا مسافة عشرين فرسخاً وكانوا شعوباً كثيرة وطوائف عديدة وهم قومٌ من

جنس الاتراك التترية وتلقبوا بالسلجوقية نسبةً الى جدهم سلجوق من بلاد تركستان ولما عظم شانهم واشتهر بين الناس حالهم قصدوا بلاد خراسان بجيش جرار سنة ١٠٣٧ مسيحية تحت راية طغرلبك حفيد سلجوق وهو اول سلاطينهم وجرت لهم مع ولاة خراسان حروب يطول شرحها فاخضعوا الدولة الغزنوية التي كانت قصبتها مدينة غزنة اي افغانستان ثم تغلبوا على خوارزم وطبرستان وغيرهما من ممالك الشرق وخلاصة الامر انهم استظهروا على كثير من البلاد ثم امتلكوا نيسابور احدى قواعد خراسان واتسع لهم الملك واقتسموا البلاد ثم ملكوا بغداد والعراق سنة ١٠٥٧ في زمن خلافة القائم بامر الله ولكنهم لم يتعرضوا لهُ بسوء وبعد هذه الفتوحات دعا طغرلبك نفسهُ امير الامراء وتزوَّج ابنة الخليفة المذكور وجعلهُ نائبًا لهُ في بغداد كباقي العمال والنواب ثم توفي طغرلبك سنة ١٠٦٣ وقام بالسلطنة من بعدهِ ابن اخيهِ الب ارسلان وهو اسم تركي معناهُ شجاع اسد فاخضع بلادًا كثيرة ثم قام بعدهُ ابنهُ ملك شاه ابن الب ارسلان ففتح الولايات والاقاليم واتسعت عليهِ المملكة وملك ما لم يملكهُ احدٌ من ملوك الاسلام فامتدت مملكتهُ من شطوط بلاد الصين الى نواحي القسطنطينية وخُطب لهُ على جميع منابر الاسلام . وكان للملك شاه المذكور ابن عم يدعى سليمان وهو الذي اسس ولاية قونية السلجوقية سنة ١٠٧٨ التي دعيت عاصمتها بعد ذلك بمدينة نيقية وكانت هذه الولاية تتضمن كل بلاد اسيا الصغرى تقريبًا مع كيلكيا وارمينيا وكانت يومئذٍ حلب والشام وانطاكية والموصل جميعها ولايات سلجوقية مستقلة . وفي ايام هذه الدولة جاءت طوائف الافرنج الصليبية الى الاراضي المقدسة وكانت اكثر حروبهم ووقائعهم مع هذه الدولة . وسنة ١١٧١ تغلبت الدولة الايوبية الكردية على الاقطار المصرية والشامية ثم بعد ذلك بعشرين سنة نهض احد خانات خراسان بجيوشٍ كثيرة واستخلص جميع الممالك السلجوقية فانقرضت واضمحلت وكانت مدة ايامها نحو ١٥٦ سنة وذلك من سنة ١٠٣٨ الى سنة ١١٩٤ وفي زمانها كانت الخلافة باقية في بغداد تتعاطى

الامور الدينية فقط ولم يكن لها ادنى سطوة في الامور السياسية

وعند نهاية احكام الدولة المذكورة ظهر جنكيزخان الشهير وهو من قبائل المغول فاخضع كل البلاد الاسلامية ومن ذريتهِ قام هولاكو ملك التتر وزحف بمايتي الف مقاتل الى العراق ففتح بلاد الري واصبهان وهمذان واستولى عليها ثم قصد مدينة بغداد سنة ١٢٥٨ فحاصرها وافتتحها وقتل المستعصم بن المستنصر وهو آخر الخلفاء العباسيين ببغداد وامر بنهب المدينة فخرج النساء والصبيان يستغيثون بهِ فداستهم العساكر وماتوا جميعًا وكانت مصيبة عظيمة على المسلمين لم يسمع بمثلها قط ويقال ان الذي أُحصي ذلك اليوم من القتلى الف الف وست مئة الف نسمة وان يكن هذا النقل من مبالغة المورخين الاقدمين فلا اقل من كونهِ يفيد ان الخسارة كانت جسيمة جدًّا ونهبت عساكر التتر من قصور الخلفاء وخزائنها اموالاً وذخائر لا تُعد ولا تحصى والقوا جميع كتب العلم في نهر دجلة وكانت عددًا عظيمًا وانتقل منصب الخلافة ببغداد من بني العباس الى ملوك التتر من ذلك اليوم وكان عدد من تولى من العباسيين بمدينة بغداد من يوم بويع للسفاح الى ان قتل المستعصم سبعة وثلاثين واستولى التتر بعد ذلك على سائر الممالك الاسلامية وبحكمهم انقرضت العائلة العربية الملكية واستمرت الحكومة بايديهم الى نحو سنة ١٣٥٠ مسيحية حين جاءت دولة الاتراك من آل عثمان فنزعت من ايديهم المملكة واستولت عليها شيئًا فشيئًا حتى اخضعت بلاد العراق واستولت على الشام والحجاز واليمن ومصر والمغرب واسيا الصغرى وبعض اطراف اوروبا كما سياتي بيان ذلك في محلهِ ان شاء الله تعالى وما زالت البلاد باقية تحت تصرفها وخاضعة لقوانينها واحكامها الى هذا اليوم

جدول الدول الاسلامية العربية واسماء ملوكها وتواريخ احكامها من ابتداء ظهور الاسلام

	اسم الخليفة	تاريخ التملك بعد المسيح	تاريخ التملك بعد الهجرة
الخلفاء الراشدون في مكة	ابو بكر الصديق	٦٣٢	١١
	عمر بن الخطاب	٦٣٤	١٣
	عثمان بن عفان	٦٤٤	٢٤
	علي بن ابي طالب	٦٥٥	٣٧
	الحسن بن علي بن ابي طالب	٦٦١	٤٣
بنو أمية قاعدة ملكهم الشام	معاوية بن ابي سفيان	٦٦١	٤٣
	يزيد بن معاوية بن ابي سفيان	٦٨٠	٦١
	معاوية بن يزيد	٦٨٣	٦٤
	مروان	٦٨٤	٦٥
	عبد الملك بن مروان	٦٨٥	٦٦
	الوليد بن يزيد	٧٠٥	٨٧
	سليمان بن عبد الملك	٧١٥	٩٧
	عمر بن عبد العزيز	٧١٧	٩٩
	يزيد بن عبد الملك	٧٢٠	١٠٢
	هشام بن عبد الملك	٧٢٤	١٠٦
	الوليد بن يزيد	٧٤٣	١٢٦
	يزيد بن الوليد	٧٤٤	١٢٧
	ابرهيم بن الوليد	٧٤٤	١٢٧
	مروان بن محمد بن مروان	٧٤٤	١٢٧

جدول الدول الاسلامية العربية واسماء ملوكها وتواريخ احكامها من ابتداء ظهور الاسلام

تاريخ التملك بعد الهجرة	تاريخ التملك بعد المسيح	اسم الخليفة	
١٣٢	٧٥٠	العباس الملقب بالسفاح	بنو العباس قاعدة ملكهم بغداد
١٣٧	٧٥٤	ابو جعفر المنصور	
١٥٩	٧٧٥	المهدي	
١٦٩	٧٨٥	الهادي بن المهدي	
١٧٠	٧٨٦	هرون الرشيد	
١٩٤	٨٠٩	الامين	
١٩٨	٨١٣	المامون	
٢١٨	٨٣٣	المعتصم با لله	
٢٢٨	٨٤٢	الواثق با لله	
٢٣٢	٨٤٧	المتوكل على الله	
٢٤٧	٨٦١	المستنصر با لله	
٢٤٨	٨٦٢	المستعين با لله	
٢٥٢	٨٦٦	المعتز با لله	
٢٥٦	٨٦٩	المهتدي با لله	
٢٥٧	٨٧٠	المعتمد با لله	
٢٧٩	٨٩٢	المعتضد با لله	
٢٩٠	٩٠٢	المكتفي با لله	
٢٩٦	٩٠٨	المقتدر با لله	
٣٢٠	٩٣٢	القاهر با لله	
٣٢٢	٩٣٤	الراضي با لله	

جدول الدول الاسلامية العربية واسماء ملوكها وتواريخ احكامها من ابتداء ظهور الاسلام

تاريخ التملك بعد الهجرة	تاريخ التملك بعد المسيح	اسم الخليفة	
٣٢٩	٩٤٠	المتقي بالله	تابع بني العباس
٣٣٣	٩٤٤	المستكفي بالله	
٣٣٥	٩٤٦	المطيع لله	
٣٦٤	٩٧٤	الطائع لله	
٣٨١	٩٩١	القادر بالله	
٤٢٣	١٠٣١	القائم بامر الله	
٤٦٨	١٠٧٥	المقتدي بالله	
٤٨٧	١٠٩٤	المستظهر بالله	
٥١٢	١١١٨	المسترشد بالله	
٥٣٠	١١٣٥	الراشد	
٥٣١	١١٣٦	المقتفي امر الله	
٥٥٥	١١٦٠	المستنجد بالله	
٥٦٦	١١٧٠	المستضيء بنور الله	
٥٧٦	١١٨٠	الناصر لدين الله	
٦٢٢	١٢٢٥	الظاهر بالله	
٦٢٣	١٢٢٦	المستنصر بالله	
٦٤١	١٢٤٣	المستعصم بالله	
الى	الى		
٦٥٧	١٢٥٨		

خلفاء قرطبة في الاندلس

هجرية	مسيحية	اسم الخليفة	
١٢٩	٧٥٦	عبد الرحمن	١
١٧١	٧٨٧	هشام	١
١٨٠	٧٩٦	الحكم	١
٢٠٧	٨٢٢	عبد الرحمن	٢
٢٣٨	٨٥٢	محمد	
٢٧٢	٨٨٥	المنذر	
٢٧٦	٨٨٩	عبد الله	
٣٠٠	٩١٢	عبد الرحمن	٣
٣٥٠	٩٦١	الحكم	٢
٣٦٦	٩٧٦	هشام	٢
٣٩٧	١٠٠٦	محمد المهدي	
٤٠٠	١٠٠٩	سليمان المستعين	
٤٠١	١٠١٠	محمد المهدي ثانيةً	
٤٠٣	١٠١٢	هشام من جديد	
٤٠٦	١٠١٥	حمود العلوي	
٤٠٨	١٠١٧	القاسم "	
٤٠٩	١٠١٨	يحيى "	
٤١٨	١٠٢٧	هشام	٣
الى	الى		
٤٣٣	١٠٢١		

خلفاء الفاطميين في مصر

هجرية	مسيحية	اسم الخليفة
٢٩٧	٩٠٩	عُبيد الله (١)
٣٢٥	٩٣٦	القائم ابو القاسم (١)
٣٣٤	٩٤٥	المنصور (١)
٣٤٢	٩٥٢	المعز لدين الله
٣٦٥	٩٧٥	العزيز بالله ابي النصر
٣٨٦	٩٩٦	الحاكم بامر الله
٤١٢	١٠٢١	الظاهر لاعزاز دين الله
٤٢٨	١٠٣٦	المستنصر بالله
٤٨٧	١٠٩٤	المستعلي بالله
٤٩٥	١١٠١	الآمر باحكام الله
٥٢٥	١١٣٠	الحافظ لدين الله
٥٤٤	١١٤٩	الظافر باعداء الله
٥٥٠	١١٥٥	الفائز بنصر الله
٥٥٥	١١٦٠	العاضد لدين الله
الى	الى	
٥٦٧	١١٧١	

(١) هولاء الثلثة استقلوا باحكام بلاد الغرب قبل افتتاح الديار المصرية

الفصل الثامن

في تاريخ سورية

الباب الاول

في جغرافية سورية وسكانها الاولين

هذه البلاد يحدها شمالاً اسيا الصغرى وشرقًا نهر الفرات وبلاد العرب وجنوبًا فلسطين وقسمٌ من بلاد العرب وغربًا بحر الروم

وانقسمت قديمًا الى قسمين سورية وفلسطين ولكن عند استيلاء الرومانيين عليها بمدة يسيرة قبل المسيح اطلقوا على القسمين اسم سورية ولما افتتحها المسلمون سنة ٦٣٢ للمسيح لقبوها ببر الشام. وكانت تدعى في سالف الازمنة باسماء مختلفة منها ارض كنعان نسبةً الى كنعان بكر حام بن نوح التي انقسمت البلاد بين اولادهِ الاحد عشر بعد التبلبل ثم دعيت بعد ذلك ارض اسرائيل نسبةً الى بني اسرائيل الذين امتلكوها واستقلوا بها وطردوا الكنعانيين منها . ثم قيل لها ايضًا الاراضي المقدسة لان الله عز وجل انتخبها واصطفاها لشعبهِ وخصها لعبادتهِ ولا سيما ان المسيح ظهر فيها بالجسد وفيها تم عمل الفداء فحقَّ لها ان تدعى بهذا الاسم وكان يقال لها ايضًا ارض الميعاد بالنظر الى وعد الله لابرهيم انهُ سيعطيهِ اياها ولنسلهِ من بعدهُ . ولا يخفى ان هذه الالقاب المذكورة لم تكن تُنسب وتطلق على جميع بلاد سورية بل اختصت بالجهات الجنوبية فقط واما الجهات الشمالية فكانت مسكنًا للفينيقيين

وفي ايام ابرهيم والآباء الاولين كانت فلسطين منقسمة بين قبائل وافخاذ

من طوائف الكنعانيين فكان القينيون والقنزيون والقدمونيون يسكنون الاراضي الشرقية من نهر الاردن وكان الحثيون والفرزيون واليبوسيون والاموريون يسكنون غربي النهر في الاماكن الجنوبية المرتفعة واما الكنعانيون الاصليون فكانت مواطنهم في اواسط البلاد وهي محدودة من شاطئ البحر الى نهر الاردن وكانت مساكن الجرجاشيين واقعة على شرقي بحيرة جنيسارت المعروفة الآن ببحيرة طبرية واما الحويون والجبليون فكانوا يسكنون تجاه الشمال بين ربوع لبنان الجنوبية

وفي ايام موسى عند ما قارب الاسرائيليون الدخول الى ارض كنعان لم يكن حدث تغيير يذكر بين القبائل القاطنة يومئذٍ في الجهات الغربية من نهر الاردن غير انهُ كان شرقي النهر ثلاثة منازل لم تكن معروفة قبلاً وهي ارض باشان الواقعة في الشمال شرقي بحيرة طبرية ثم ارض جلعاد في الوسط ثم ارض مواب في الجنوب شرقي بحر الميت اي بحر لوط . وبعد استيلاء الاسرائيليين على تلك البلاد اقتسموها فيما بينهم بالقرعة فكان سهم سبط يهوذا وبنيامين وشمعون ودان واقعًا في الاراضي الجنوبية التي سميت بعد ذلك باليهودية نسبةً الى مملكة يهوذا عقب انفصالها عن العشرة الاسباط وكان سهم افرايم ونصف سبط منسى ويساكر ممتدًّا في الاراضي المتوسطة المعروفة بالسامرة وسهم زبولون ونفتالي واشير في الاراضي الشمالية التي يقال لها الجليل واما راوبين وجاد ونصف سبط منسى الثاني فكانت منازلهم في عبر الاردن في ارض باشان وجلعاد التي عُرِفت فيما بعد باسم بيرية

اما الاراضي الواقعة على شطوط البحر فسكنها الفلسطينيون والفينيقيون والموابيون والعمونيون والمديانيون والادوميون والعماليقيون واما الفلسطينيون مع انهم كانوا قاطنين في سوريا في ايام الآباء القدماء فليسوا بكنعانيين بل نزلاء غرباء والمرجح ان اصلهم من مصر جاءوا الى هذه البلاد وقاتلوا الحويين فتغلبوا عليهم وطردوهم وسكنوا مكانهم وامتدت منازلهم من مدينة يافا الى غزة

وبقيت البلاد في ايديهم عدة قرون وكانوا اشداء الباس وانجهت قوتهم دائماً لمصادمة بني اسرائيل بعد دخولهم الى ارض كنعان وكثيراً ما حاربوهم . واما الفينيقيون فمع انهم من بني كنعان لم يحاربهم بنو اسرائيل وكانت ايامهم معهم في صلح وسلام واذ اشتهر هولاء القوم في الازمنة القديمة بالتجارة والغنى وشدة الباس وتقدموا في انواع الفنون والصنائع على غيرهم من الناس ولا سيما ان تاريخهم هو من التواريخ المهمة قد افردنا لهم فصلاً مخصوصاً لاجل زيادة المعرفة في اخبارهم وتفاصيل احوالهم . واما بنو مواب وبنو عمون فهم من ذرية ابنتي لوط ابن اخي ابرهيم سكنوا الاراضي المجاورة شرقي الاردن بعد ما طردوا اهلها منها وكانوا من القوم الجبابرة العتاة . واما المديانيون فهم من ذرية مديان بن ابرهيم الرابع من زوجتهِ الثانية قطورة وكانوا مجاورين الموابيين ومتحدين معهم في حروبهم ومغازيهم وقد انفرز منهم جماعة وسكنوا شرقي البحر الاحمر وعندهم اختبأ موسى عند ما هرب من مصر . واما الادوميون فهم من نسل آدوم او عيسو بن اسحق اخي يعقوب وكانت منازلهم في جبال سعير الممتدة على شرقي وادي عرَبة بين بحر لوط وخليج عيلان وعند سبي اليهود الى بابل اتى الادوميون وسكنوا في الجهات الجنوبية الشمالية من اليهودية ومن ذلك الوقت تسمت تلك الاماكن ادومية اي بلاد الادوميين . واما العمالقة فهم من نسل عماليق بن حام وكانت مواطنهم في الاودية التي في اسفل جبل سينا ثم انتقلوا منها وسكنوا في حدود فلسطين الجنوبية وكانوا من اشد الناس عداوة لبني اسرائيل ولهم معهم جملة وقائع وحروب وبمداولة الايام تمكن بنو اسرائيل منهم وبددوا شملهم واطفأوا خبرهم . فجميع هذه القبائل المقدم ذكرها انقرض اكثرها في زمن الاسرائيليين وبعضها اندرس بعد سبي اليهود الاخير

الباب الثاني

في الدولة السلوقدية ومن خلفها الى هذه الايام

وبعد توفي الاسكندر دخلت سورية تحت حكم سلوقس وهو اول ملوك الدولة السلوقدية واحد قواد جيوش الاسكندر الاربعة الذين اقتسموا بينهم كل البلاد التي اخضعها سيدهم ورئيسهم. فحكم سلوقس عقب وفاة الاسكندر على بلاد مادي وبابيلونيا ثم طرِد من تلك البلاد سنة ٣١٥ ق م بواسطة مقاومة انتيغونوس احد القواد الاربعة الذي كان سهمهُ في اسيا الصغرى فهرب الى مصر مستعصمًا ببطليموس فاعانهُ على محاربة انتيغونوس وانتصر عليهِ في موقعةٍ عظيمة جرت بينهما في غزة سنة ٣١٢ ثم رجع الى بابيلونيا فقبلتهُ الاهالي بفرحٍ وسرور ثم ضمَّ الى ولايتهِ ولاية اشور ومادي فصار ملكًا على الولايات الثلاث ولما قويت شوكتهُ اخضع بلاد فارس وكل اسيا العليا وسار من هناك الى الهند لاجل استخلاص البلاد التي كان قد تغلب عليها الاسكندر فالتقاهُ ملكها ساندروكوتوس بست مئة الف مقاتل وعددٍ كثير من الافيال ولكنهُ لم يقع بينهما حربٌ لان ملك الهند كان قد خاف سطوتهُ فعقد معهُ صلحًا تحت خمس مئة فيل اعطاهُ اياها حتى انسحب عنهُ وعند رجوعهِ الى بلادهِ جهَّز جيشًا عظيمًا وسار بنفسهِ الى قتال انتيغونوس المذكور سنة ٣٠١ ق م فانتصر عليهِ وقتلهُ واضاف مملكتهُ الى بلادهِ وكان من جملة ولاياتها سورية وفريجية وارمينية وما بين النهرين ومدينة انطاكية وهو الذي دعاها بهذا الاسم تذكارًا واعتبارًا لابيهِ الذي كان اسمهُ انطيوخوس وجعلها كرسي مملكتهِ

ويقال ان سلوقوس كان متزوجًا بابنة ديمتريوس بوليوكريت احد

ملوك اسيا الصغرى وكانت جميلة المنظر فاحبها انطيوخوس ابنهُ وتعلق بها تعلقًا شديدًا حتى مرض ولزم الفراش وكان الطبيب يتعجب من عدم تقدمهِ للصحة مع كل المعالجة التي كان يستعملها لهُ فلما وقف اخيرًا على حقيقة الخبر اعلم اباهُ سلوقس بواقعة الحال وان مرض ابنهِ ناتج من شدَّة غرامهِ بابنة ديمتريوس المذكورة فمن فرط محبتهِ بابنهِ تنازل لهُ عن زوجتهِ وزوجهُ بها

ومن ملوك الدولة السلوقدية انطيوخوس الثالث او الكبير الذي غزا الديار المصرية واسر ملكها واساء كثيرًا الى اليهود في اورشليم وجوارها لسبب تمنعهم عن ان يذبحوا للاصنام فقتل منهم عددًا كثيرًا . وقام اخيرًا بين اليهود رجلان من المكابيين وهما متاثياس ويهوذا فحاربا جيوش انطيوخوس وكسراهُ واستقلاَّ بانفسهما على مملكة اليهودية ولما اتصل الخبر بانطيوخوس استشاط غضبًا وبينما كان زاحفًا على اورشليم لينتقم من اليهود وقع عن مركبتهِ فمات

وهذه هي المدة التي فيها كانت سورية في ازهى وابهى رونق لانها بعد ذلك ضعفت شوكتها وانحطت منزلتها وصارت ملحقة بغيرها وكثيرًا ما تفرعت وانقسمت . واستمرت تحت احكام الدولة السلوقدية الى سنة ٦٤ ق م حين اتى الرومانيون واستولوا عليها الى نحو سنة ٦٣٨ للمسيح ثم افتتحها المسلمون ومن ثم صارت مركزًا لخلفاء الدولة الاموية التي جعلت تخت كرسيها في مدينة الشام ثم انتقلت من بعدهم الى الخلفاء من بني العباس واستمرت تحت قبضة احكامهم الى سنة ٨٣٢ حين دخلت تحت تسلط بني طولون الذين كانوا حكامًا في مصر من طرف الدولة العباسية واستقلوا فيها مدةً وبقيت تابعة لهم الى سنة ٩٠٥ حين انقلبت الدولة الطولونية عن تختها وقامت مكانها الدولة الفاطمية فصارت سورية من جملة ملحقاتها وتوابعها الى سنة ١٠٧٨ حين جاءت الدولة السلجوقية التركمانية وتغلبت على البلاد العربية الشامية الى سنة ١١٠٤ وفي مدة الدولة السلجوقية اتت طوائف الافرنج المعروفة بالصليبية وذلك سنة ١٠٩٨ وطردوا المسلمين من بعض جهات البلاد واستولوا على انطاكية والقدس وصور وطرابلس

اما الشام وحلب مع باقي البلاد الداخلية فاستمرت في ايدي المسلمين

وفي مدة اقامة الصليبيين في الديار الشامية كانت حروبهم مع المسلمين متصلة بدون انقطاع ولاانفصال تارةً توخذ منهم القدس والبلاد المجاورة لها وتارةً يسترجعونها كما سياتي بيان ذلك مفصلاً في الكلام على الحروب الصليبية الى ان طردوا اخيرًا سنة ١٢١٠ في زمن دولة المماليك فصارت سورية من ذلك الوقت تابعة لدولة مصر وبقيت خاضعة لاحكامها الى سنة ١٤٠٠ حينما افتتحها تيمورلنك المغولي الشهير ثم رجعت بعد ذلك الى سلطة دولة المماليك المصرية واستمرت في ايديهم الى سنة ١٥١٧ حين اتى السلطان سليم الاول من بني عثمان فاستخلصها منهم ونزع احكامهم ومن ذلك الوقت صارت سورية تابعة الدولة العثمانية ما خلا بعض مدّات وجيزة حين تظاهرت فيها العصاة تارةً في زمن الامير فخر الدين المعني سنة ١٦٣٥ وتارةً في زمن احمد باشا الجزار البشناقي المشهور في الظلم والعدوان الذي ذاقت الناس في مدة حكمهِ ٢٨ سنة عذابًا شديدًا

وسنة ١٧٩٩ اتى الفرنساويون من مصر لافتتاح الديار الشامية تحت قيادة الجنرال نابوليون بونابارت فاستولوا على غزة وعسقلون ويافا وغيرها ثم وصلوا الى عكا فحاصروها مدةً فقاومهم احمد باشا الجزار برًّا والاديرال سروليم سدني سميث الانكليزي بحرًا فانصرفوا عنها بعد ان كادوا يمتلكونها

ثم في سنة ١٨٣١ اتى ابرهيم باشا قائد الجيوش المصرية في زمن السلطان محمود وحاصر عكا التي كانت يومئذٍ مركز الولاية الشامية وافتتحها بعد ما حاصرها ثمانية اشهر وقبض على واليها عبد الله باشا وارسلهُ الى مصر وشرع في تحصينها وتحصين باقي المدن الشامية وما زالت تحت تصرف احكامهِ الى سنة ١٨٤٠ حين استرجعتها الدولة العلية بمساعدة انكلترا وغيرها من الدول الاجنبية ولم تزل الى الآن باقية تحت تسلطها

وفي سنة ١٨٦٠ اصطلت نار الفتنة في جبل لبنان بين النصارى

والدروز فامتد شرارها الى مدينة دمشق وهاج جَهَلَة المسلمين على المسيحيين القاطنين بينهم فقتلوا منهم على ما قيل ما ينوف على الالفين ونهبوا بيوتهم وسلبوا امتعتهم فكانت مذبحة هائلة وربما كانوا افنوهم عن اخرهم لولا توسُّط الامير عبد القادر الجزائري الذي ارسل رجالهُ الى كل شارع وزقاق وخلص كثيرين واتى بهم الى منزلهِ افواجًا افواجًا فكان ذلك داعيًا للثناء عليهِ من كل لسان على الارض . وكان الوالي يومئذٍ في الشام فلم يلتفت الى توقيف الهياج كانهُ راضٍ بما حدث فجازتهُ الدولة بالقتل عند قدوم فواد باشا للتحقيق وجرت المصابين بتعويض ما فقدوهُ واحسنت ببناء البيوت المهدومة وارجعت الراحة في وقت وجيز . واما فتنة الجبل فقد ذكرت عند ذكر لبنان

الباب الثالث

في شعوب سورية ومدنها الشهيرة مع ذكر الملكة زينب المعروفة عند اليونان واللاتين بزينوبيا وشيء من اخبار لبنان

اما شعوب سورية فهي ممتزجة من اجناسٍ كثيرة يعسر تاصيلها والمرجح انهم من نسلٍ مختلط اي عربي وتتري وتركي وفارسي واوروبي والاديان فيها كثيرة فانهُ ما عدا المذاهب النصرانية ومذهب الحكومة فيها جملة طوائف قلما توجد او تعرف في باقي ممالك العالم كالدروز والمتاولة والنصيرية والاسماعيلية والسَّمَرَة . وفيها ايضًا قبائل كثيرة من عرب البادية شرقي سورية وجنوبيها الذين الى الآن مع كونهم من تبعة الدولة العلية لا يزالون بعيدين عن الطاعة

والانقياد وكثيرًا ما يتظاهرون بالتمرد والعصيان وقلما يوجد بينهم أمنٌ وسلام وهم جموعٌ وقبائل كثيرة متفرقة لو صار الالتفات الى اخضاعهم وتهذيبهم لنشأ عن ذلك فوائد عظيمة للسلطنة لانهُ فضلاً عن تقدمهم بالمعرفة والتمدن ونجاح البلاد بالمكاسب والغنى تزداد المملكة قوةً وسطوةً اذ يمكنها عند الحاجة ان تقيم منهم نحو ثلاث مئة الف مقاتل برسم المحافظة والمحاماة

ومن مدن هذه البلاد مدينة انطاكية وهي من اشهر واعظم مدنها القديمة بناها سلوقوس سنة ٣٠٠ ق م وفيها ولد لوقا الانجيلي وبها تسمت النصارى مسيحيين اولاً ومن مدنها ايضًا دمشق وهي قديمة من عهد ابرهيم سكنها ملوك غسان وفي سنة ١٤ للهجرة افتتحها عمر بن الخطاب تحت قيادة خالد بن الوليد ونقل بنو امية تخت الخلافة اليها سنة ٦٣٤ مسيحية وقد تكرر ذكرها في التوراة في جملة اماكن تحت اسم ارام . وفي هذه المدينة كان اهتداء بولس العجيب الى الديانة المسيحية وفيها كانت تصنع قديمًا الاسلحة الفاخرة المشهورة كالسيوف والحراب والخناجر وغيرها واما الآن فقد فقدت منها هذه الصناعة لان تيمور لنك نقل الى بخارا جميع صناع هذه المهن والصنائع ولم يزل لها شهرة الى الآن في نسج بعض الاقمشة الحريرية وفي شغل الصدف الملبس على الخشب المعروف بعرق اللولو

ومنها تدمر والافرنج يسمونها بالميرا اي محل النخل . قيل بناها الملك سليمان بن داود وقد انكر بعضهم صحة هذا الخبر مستشهدًا بكلام المورخ يوسيفوس حيث يقول ان سليمان مد حدود مملكتهِ الى اماكن بعيدة واخذ تدمر وحصنها بالاسوار وسماها تدمر فلو لم تكن تدمر حينئذٍ مدينة كبيرة متجرية لما همَّ سليمان امتلاكها . ومع ان هذه المدينة قد اندرست وليس لها وجود الآن فان خربها وآثارها القديمة تدل على عظمتها السالفة . ومن ملوك تدمر اودينانوس زوج زنوبيا الشهيرة فانهُ في اول امرهِ كان مساعدًا لسابور ملك الفرس عند استفتاحهِ بلاد سورية سنة ٢٥٦ للميلاد ولكنهُ اتحد اخيرًا

مع الرومانيين وسعى في طردهِ من البلاد . فلما وقع الامبراطور فالريان في ايدي الفرس طلب اوديناتوس ان يعقد صلحًا مع سابور فلم يستجب طلبهُ ودعاهُ سابور خائنًا فاغتاظ اوديناتوس من ذلك وخرج على سابور وحاربهُ وقهرهُ على شطوط الفرات ثم استظهر ايضًا على بعض قواد الرومانيين الذين كانوا قد جاهروا بعصيان ضد السلطنة في ايام الامبراطور غلينوس ونكّس مشروعاتهم . فلاجل مكافاتهِ على تلك الصداقة لقبهُ غلينوس رئيس كل الولايات الشرقية ولكن لم يقبل اوديناتوس ذلك اللقب والزم الامبراطور ان يقر لهُ بالشراكة في السلطنة فجعلهُ شريكًا لهُ سنة ٢٦٤ وبعد ثلاث سنين توفي قتيلاً

وبعد موت اوديناتوس تبوأت تخت الملك زوجتهُ زنوبيا وانفردت بزمام الاحكام وجددت كثيرًا من القصور والابنية العظيمة حتى صارت مدينة تدمر في ايامها جنة من جنان الدنيا وامتدت حدود مملكتها من ساحل بلاد صور والشام الى نهر الفرات والعراق وكانت قوية الجنان نادرة الزمان تخطب على العساكر والابطال وتحضر معهم الى ساحة الحرب والقتال فقويت شوكتها واشتهرت صولتها ودعت نفسها ملكة الشرق ولما بلغ مسامع اورليان قيصر ان مملكة تدمر كادت تفوق مملكتهُ عظمةً وغنىً داخلهُ الحسد فاخذ يستعد لمحاربتها وحضر الى الشام بجيشٍ جرار وكانت هي ايضًا قد زحفت بجيوشها لقتالهِ فانتشبت بينهما نار الحرب بقرب انطاكية فانتصر عليها نصرة عظيمة ثم صدمها مرةً اخرى بالقرب من مدينة حمص فانثنت راجعة الى تدمر فتبعها الى هناك وضيّق عليها الحصار ومنع عنها الامداد وبعد عدّة وقائع افتتح المدينة عنوةً واسر زنوبيا واخذها الى رومية وعوّضها عن مملكتها قصرًا عظيمًا واقام لها نفقةً لتعيش بها مدة حياتها

وكان اورليان لما فتح تدمر سنة ٢٧٣ للميلاد قد ترك فيها عددًا قليلاً من العساكر برسم المحافظة فقتلهم الاهالي ولما اتصل باورليان هذا الخبر شق عليهِ

فعاد راجعاً الى تدمر وقتل اهلها ونهب المدينة ثم رممها بعد ذلك بمدة قصيرة ولكنها لم ترجع قط الى رونقها وبهائها الاول ومن ذلك الوقت اخذت في الانحطاط شيئاً فشيئاً حتى انهُ لم يبقَ في هذه الايام من تلك المدينة العظيمة سوى رسوم دارسة واطلال بالية وبعض اكواخ حقيرة مكان تلك الحصون الشاهقة والمراسح والقصور المبهجة المزخرفة والمزينة باجمل اعمال البشر

ومن مدن سورية ايضا مدينة بعلبك التي كانت تدعي هليوبوليس اي مدينة الشمس وكانت من اعظم الابنية القديمة ولاسيما هيكلها الكبير الذي بناهُ انطونيوس بيوس احد قياصرة رومية سنة ١٤٥ بعد المسيح وكان قد حوَّلهُ الملك قسطنطين الى كنيسة مسيحية وقد بقي رونقهُ وبهجتهُ زمناً طويلاً واما في هذه الايام فلم يبقَ الاَّ خرابهُ وبعض اعمدة عظيمة منتصبة لا يقدر على اقامة مثلها من الملوك الاَّ من كان صاحب ثروة وباس . ثم استولى على بعلبك ابو عبيدة بن الجراح احد قواد عمر بن الخطاب ثم افتتحها تيمورلنك سنة ١٤٠١ وفي سنة ١٧٥٩ حدث زلزلة عظيمة هدمت الجانب الاعظم منها . ومنها مدينة حلب الشهباء وهي قديمة العهد مبنية في برية خالية من الاشجار ياتي ماؤها من مكانٍ شمالي المدينة يبعد نحو ثلاث ساعات ويكثر في غياضها شجر الفستق ومن ابنيتها المشهورة قصرٌ قديم يقال لهُ سراية بني جنبلاط كان لاسلاف المشائخ بني جنبلاط الذين هم من اعيان مناصب جبل لبنان وقد هدمت الزلازل اماكن كثيرة من هذه المدينة وقتلت اناساً كثيرين ولاسيما الزلزلة التي حدثت سنة ١٨٢٢ فانهُ قد مات بها نحو عشرين الف نفس

ومنها بيروت احدى مدن فينيقية الذي ولد فيها سانخونياتون المورخ الشهير صاحب المؤلفات في ديانة الفينيقيين والمصريين والرسائل النافعة في الطبيعيات وغيرها وقد ترجم بعضها الى اللغة اليونانية في القرن الثاني بعد المسيح ولم يبقَ منها الاَّ بعض حواشي وقطع طبعت على حدتها سنة ١٨٢٦ وقد ظن البعض ان هذا المؤرخ كان معاصراً للملكة سميراميس وقال آخرون

انهُ كان في عهد موسى ومنهم من جعلهُ قبل المسيح بالف ومايتين سنة وقيل ست مئة فقط . ومما يُعرَف من امر بيروت انهُ وقت تملك الرومانيين البلاد الشرقية قصدها جماعة منهم وسكنوها في زمن الملك اوغسطس قيصر الذي اعطاها كل حقوق المدن الرومانية الاصلية وسماها جوليا فيلكس على اسم ابنتهِ وفي الجيل الثالث بعد المسيح اشتهر فيها مدرسة لعلم الفقه فكانت تأتي اليها التلاميذ من مصر وبلاد اليونان ولقِّبت يومئذٍ بمدينة العلماء . وقد تناول هذه المدينة كل من استولى على فينيقية من الاشوريين والفرس واليونان والرومان والمسلمين . وفيها بعض اثار تدل على قدميتها وقد دخلت في القرون المتاخرة تحت ايدي الامراء التنوخية والامراء بني معن والامراء بني شهاب ولهم فيها ابنية تعرف باسمائهم الى الآن .

واما جبل لبنان الممتد من شرقي طرابلس الى مرج ابن عامر فكانت سكانهُ قديمًا على حسب نص الكتاب المقدس من طوائف الحويين والجبليين ثم خصصهُ يشوع بن نون لسبط اشير من بني اسرائيل ولكنهُ لم يتيسر لهم ان يتملكوا منهُ الَّا جانبًا فقط وكانت بعض اقاليمهِ في مدة حكم اليهود تحت تسلط الفينيقيين الذين كانوا ياتون منهُ بخشب الارز والسرو وغير ذلك ويتاجرون فيها . وقد تناول هذا الجبل قديمًا امم كثيرة لم تزل اثارهم فيهِ الى هذا اليوم فانهُ وجد في بعض قرى جبل الشوف صنم مصريّ وصنم اشوريّ ونقود ضرب الدولة السلوقدية ونقود رومانية وعربية . ويوجد منقوشًا على صخور نهر الكلب بعض التماثيل والكتابات تدل على غلبة المصريين القدماء وولاية الاشوريين ويوجد ايضًا في دير القلعة وغير جهات رسوم واثار رومانية واعمدة وقنوات عظيمة دالة على الامم الذين استولوا عليهِ . وكان لاهالي هذا الجبل شوكة قوية في اوائل النصرانية حتى انهم كانوا ينجدون قياصرة الروم وسنة ٦٩٤ للمسيح ارسل الامبراطور يوستنيان اثنين من قوادهِ مع جيش عظيم لقصاص اللبنانيين لانهُ كان قد طلب امدادهم في حروبهِ ببلاد الغرب فلم ينجدوهُ

فحاربوا جيشهُ وكسروهُ وقتلوا قوادهُ فسموا مَرَدَةً وهم امراءِ المردة وكانت بداية ولايتهم تحت هذا اللقب من سنة ٦٠٠ للمسيح وسنة ٨٣٠ اقبل الامير تنوخ الملقب بالمنذر من اطراف بلاد العرب في قبيلة تنوخ وهي اسم لثلاث قبائل من نصارى العرب وتوطن بعشائرهِ في نواحي لبنان الخالية من السكان وبنوا فيها القرى وسكنوها وكان الامير تنوخ يحكم فيما بينهم وبنوهُ من بعدهِ الى سنة ١٦٣٣ حين انقرضت السلالة التنوخية . وسنة ١١٢٠ كان قد جاء الامير معن الايوبي مع عشيرتهِ الى الشوف ونزل في صحراءِ بعقلين واظهر مودةً عظيمة لآل تنوخ امراءِ العرب وانفرد بولايات الشوف واستمر اميرًا وحاكمًا مدَّة ٢٠ سنة الى ان مات وهو جد الامراءِ المعنية واليهِ ينتسبون واستمرت احكام الشوف في ايدي الامراءِ من بني معن الى ان انقطعت سلالتهم سنة ١٦٩٧ وكان آخر من تولى منهم الامير احمد . ثم تولى من بعدهِ الامراءِ آل شهاب وكانوا جميعهم ينقادون الى طاعة وزراءِ الدولة العلية المتنصبين على ايالة صيدا وكان الوزير يولي منهم من يشاءُ وهم يولون ويعزلون على القطائع والاقاليم من شاءُوا من المشائخ والامراءِ . والشهابيون هم من شرفاء العرب وينتسبون الى بني قريش كانوا قد حضروا قديمًا الى هذه الديار وسكنوا وادي التيم فتنصر بعض كبرائهم واخذوا مركزًا في لبنان

ومن افاضل حكام لبنان الذين انصفوا بالادارة والسياسة الامير بشير الشهابي كان رجلاً مهيبًا فطنًا تناول ولاية لبنان من ابن عمهِ الامير يوسف وهو في سن الثانية والعشرين وكان السبب في انتخابهِ حاكمًا سوءِ تصرف الامير يوسف المذكور وظلمهُ في البلاد على ما قيل واستمر الامير بشير في ولايتهِ الى سنة ١٨٤٠ حين استولت الدولة العلية على سورية فخرج من البلاد مع من يلوذ بهِ الى جزيرة مالطة وذلك لسبب عدم تسليمهِ عند ما دعوهُ الى التسليم ثم توجه الى القسطنطينية وتوفي هناك وتولى مكانهُ الامير بشير قاسم وكان المذكور لا يعتبر مناصب البلاد ولا يحسب حسابهم ويقال انهُ كان يسيء

الادب في مجالسهم ويتفوه بكلام تكرههُ اسماعهم فكرهوهُ واضمروا لهُ السوء فحاصروهُ في دير القمر وبقي تحت الحصار الى ان حضر السيد عبد الفتاح اغا حماده بامر المشير في بيروت واخرجهُ من دير القمر وحضر بهِ الى بيروت ومن هناك انقرضت احكام الامراء الشهابيين في جبل لبنان. واذ كانت الفتنة قد اتسعت بين الدروز والنصارى في تلك الايام قسمت الدولة العلية احكام البلاد الى شطرين فاقامت قائمقامًا نصرانيًا على النصارى في القسم الشمالي وقائمقامًا درزيًّا على الدروز في القسم الجنوبي

وسنة ١٨٦٠ تعاظمت الفتنة وكثر الفساد بين النصارى والدروز في لبنان حتى آل الامر لوقوع حرب اهلية بين الطرفين وكانت النتيجة ردية على النصارى بسبب اختلافهم وعدم انضمامهم وانقيادهم بعضهم مع بعض ففتكت بهم الدروز في مذبحتي حاصبيا وراشيّا الواقعتين في ٢٠ و ٢١ ايار من السنة المذكورة ثم في حصار زحلة ونكبة دير القمر التي قتل فيها نحو ٦٠٠ شخص ذبح اليد وهم محصورون في دار الحكومة حيث كانوا التجأوا لصيانة انفسهم فكثر الويل وعظم الشر وتقاطر الناس الى بيروت فارسل الباب العالي فواد باشا ليمهد الامور وينتقم من المذنبين وارسلت فرانسا باختيار الدولة العلية ورضاها عشرة الاف جندي للمحافظة ومنع التعدي عند الاقتضاء وكذلك باقي الدول الافرنجية منها من ارسل مراكب حربية ومنها من ارسل نوابًا لاصلاح الحال وتمهيد الامور وبعد اجراء ما يلزم اجراؤهُ من التحقيق ونفي كثيرين من مشائخ الدروز الى بلغراد وغير اماكن لاجل اشتراكهم في تلك الفتنة استحسنت الدولة باتفاق الدول على وضع نظامات جديدة لهذا الجبل وهي ان تحول احكامهُ الى ادارة محلية لايكون لولاة سورية دخلٌ بها تحت مناظرة مشير من الطائفة النصرانية من غير اهالي الجبل ليكون متصرفًا بهِ ويشاور راسًا الباب العالي فتوجهت المتصرفية لعهدة دولتلو داود باشا الارمني فاقام بماموريتهِ حق القيام واستمر بالولاية ست سنين وفي مدة احكامهِ حدثت الفتنة الكرَمية نسبةً الى

يوسف بك كرم الذي قيل انهُ رئيسها ومثيرها واستمرت نحو اثني عشر شهرًا ولكنهُ اضطر اخيرًا ان يخضع ويسلم نفسهُ بواسطة فرانسا وانتهى بهِ الحال بنفيهِ من البلاد . وبعد قيام داود باشا من لبنان حضر مكانهُ صاحب الدولة نصري فرانقو باشا سنة ١٨٦٩ فتولى زمام لبنان وقام باعباء الاحكام كما يجب وفي اوائل سنة ١٨٧٣ توفي وتنصب عوضًا عنهُ دولتلو رستم باشا وهو ايطاليّ الاصل مشهودٌ لهُ في حسن السياسة والاستقامة فحكم الجبل عشر سنين واستراح الاهلون في كل مدة حكمهِ ثم خلفهُ صاحب الدولة واصة باشا سنة ١٨٨٤ وهو المتصرف الحالي

الفصل التاسع

في تاريخ فينيقية

الباب الاول

في اصل الفينيقيين وعوائدهم واديانهم واكتشافاتهم

انهُ لا يعلم بالتحقيق اصل هذا الشعب غير انهُ من نحو اربعة الاف سنة اخذت سواحل بحر الروم تعمر بسكانٍ جاءوا اليها من بلاد الشرق ولكن

من اين جاءوا وكم كان عددهم ومن هم السكان الذين كانوا قبلهم لا نعرف من ذلك شيئًا ولا نعلم ايضًا حقيقة الاسم الذي عرفوا بهِ في الاصل ولكننا نعلم انهم اشتغلوا نحو الفي سنة في هذه السواحل وبنوا فيها المدن والحصون وفاقوا مَن سواهم في الفنون والصنائع وانفردوا بالشوكة والبأس وصاروا من اشهر القبائل وشاع ذكرهم في اقطار العالم

ولُقِّبوا بالكنعانيين نسبةً الى كنعان بن حام بن نوح كما يشير الى ذلك التاريخ الموسوي ثم لقبوا بالفينيقيين وهو اسم يوناني غلب عليهم فان لفظة فينيكيس التي نسبوا اليها انما هي اسمٌ النخل في اللغة اليونانية او بالحرى للتمر وهي تدل في الاصل على اللون لا الجوهر اي على لونٍ اسمر مائل الى الاحمرار كلون ثمر النخل في بعض احوالهِ وهي ايضًا اسمٌ لرداء ارجواني كان الفينيقيون يلبسونهُ. وكان النخل في تلك الايام كثيرًا جدًّا في فينيقية حتى صارت صورة هذه الاشجار رمزًا الى الاهالي والبلاد فكانوا يصورونها على نقودهم. ويقال ان تجارهم اختلطوا كثيرًا مع اليونان وحملوا الى بلادهم اثمار الفينيكيس اي النخل برسم التجارة فغلب عليهم هذا اللقب ثم على بلادهم الى ان اصبح اخيرًا يدل على لونهم المائل الى الحمرة. ويظن الاكثرون ان هذا اللون كان لون الفينيقيين الحقيقي وذلك مما يؤيد القول بانهم كانوا من اصل حار او افريقي. وكانوا من اعظم الشعوب تمدنًا ومن اشهر قدماء الامم وكان تجارهم من اغنى الناس حتى قيل انهم لغناهم كثرت عندهم الفضة واثقلتهم في اسفارهم فكانوا يضعونها في الزنابيل ويتخذونها لتعديل المراكب عوضًا عن الرصاص

وهم الذين اخترعوا بناء السفن واول من سافروا بحرًا وكانت تجارة العالم البحرية في ايديهم. وقد ارسلت ملوكهم جماهير عديدة الى اماكن بعيدة من الارض ليستوطنوها ويعمروها وبذلك انتقلت اثار صنائعهم وامتدت دائرة لغتهم ومعارفهم الى جميع الجهات. وقد اجمع راي الاكثرين على انهم هم الذين اعطوا اليونان والرومان احرف كتابتهم واقدم علومهم. ومن العجب انهم مع

قدميهم وكثرة فروعهم في جهات مختلفة من العالم قد تلاشوا وانقرضوا من زمانٍ طويل ولم يبقَ لنا من اثارهم الاَّ القليل

اما صنائعهم فكانت متنوعة وكانوا يصيغون كل انواع الحلى من الذهب والفضة وغير ذلك من انواع النقوش والزينة والمعادن والعاج وينسجون



عشتروت الهة السوريين والفينيقيين

اجناس الاقمشة فان الانسجة الفينيقية كانت ذات شهرة ورواج في كل العالم وقيل انهم اول من اخترعوا عمل الزجاج . اما عوائدهم فكانت ذميمة وقبيحة فكانوا يحبون الخفخفة والترفه ويحتقرون الغرباء . وقد تنبأ الانبياء على صور عاصمتهم بالتهديد الهائل والخراب وتم ذلك فيها فيما بعد عند ما كانت في ابهج

رونقها واعظم سطوتها واقتدارها . واما ديانتهم فكانت وحشية بربرية ايضًا كبعض عوائدهم فكانوا يعبدون الاصنام والمنحوتات ومن اعظم آلهتهم بعل ويدعى مولوك ايضًا اي اله الشمس . واشهر ما قدموا لهذا الاله الذبائح البشرية من الاولاد الصغار فكانوا يطرحونهم احياء على ذراعيهِ المحمايين بالنار.



مولوك اله بني عمون عند الفينيقيين

وكان ذلك الاله مصنوعًا من نحاسٍ ولهُ راس عجل مكلَّلٌ بتاجٍ ملكي وذراعاهُ ممدودتان كانهُ مستعدٌ لاحتضان من يقدم لهُ . فكانوا يضرمون تحتهُ نارًا مهلكة الى ان يحمى فيلقوا الولد التعيس الحظ على ذراعيهِ فلا يلبث ان يموت لشدة الحرارة فيا لها من قساوة بربرية

الباب الثاني

في ذكر مدائن فينيقية وتخومها وتجارتها وتقدمها ثم انحطاطها

ان التاريخ الموسوي يبين لنا ان صيدون اي صيدا كانت في تلك الايام

اقصى حدود فينيقية شمالاً وغزة اقصى حدودها جنوبًا وان عيالاً كثيرة من الاهالي الاصليين امتدت في داخلية البلاد الى نواحي فلسطين الجنوبية وسكنت في جبال اليهودية وفي السهول المجاورة بحيرة لوط والاردن ولم يزالوا ساكنين في تلك الجهات الى ان حاربهم بنو اسرائيل وطردوهم في زمان يشوع بن نون وتملكوا اراضيهم ولم يعد لهم ذكر بعد ذلك كقبائل ممتازة . واذ كان الفلسطينيون قد اخذوا من ايام ابرهيم وربما قبلهُ يزاحمون الفينيقيين المستوطنين في الجهات الجنوبية حتى ازاحوهم عن مواطنهم وابعدوهم بالتدريج نحو الشمال الى دور عند جبل الكرمل كان يلزمنا ان نجعل اول حدود فينيقية الجنوبي من جبل الكرمل واما من جهة الشمال فان موسى لم يذكر الاَّ صيدون ولكن ذلك لا يحدد تخمهم الشمالي لان صيدون كانت في تلك الايام عاصمة كل الامة . واما باقي قبائل الفينيقيين الذين كانوا مقيمين شمالي صيدون فربما كانوا ضعفاء لا يستحقون الذكر الخاص ومن ثم دخلوا تحت اسم صيدون العام

واما تخوم الفينيقيين الى جهة الشرق وان تكن غير معروفة تمامًا فليس لنا دليل على انها امتدت الى مسافة اكثر من عشرين الى ثلاثين ميلاً عن شاطي البحر . فبناء على ذلك تكون المملكة الفينيقية التي اشتهرت بهذا المقدار قديمًا قد انحصرت في رقعةٍ ضيقة من الارض ممتدة من سواحل البحر الى قاعدة الجبال من جهة الغرب

ففي هذه الرقعة الضيقة بنيت جميع تلك المدائن الشهيرة التي خاضت سفنها جميع البحار . اعني عكا واكزيب التي يقال لها اليوم الزيب وصور وصرفند وصيدون وبيروت وجبيل والبترون وعرقا وارواد وجبلة وزمرة وسين ومدنًا اخرى كثيرة قد فقدت اسماؤُها الاصلية وسميت باسماء يونانية ورومانية كطراباس واللاذقية وغيرها واعظم هذه المدائن واقواها واوسعها تجارة مدينة صور فانها كانت اقواها واغناها وهي وحدها التي نعلم بعض ابناء ملوكها كحيرام الذي كان بينهُ وبين الملك داود وولدهِ سليمان عهود ومواصلات .

ولم تكن فينيقية جميعها لملكٍ واحد بل كان لكل مدينةٍ منها ملك خصوصي والمرجح ان الجميع كانوا خاضعين لمجلسٍ واحد عمومي كما هو جارٍ الآن في الاتحاد الالماني على انهُ لم يكن لملوكها سلطة مطلقة نظرًا لسطوة اشرافها وكهنتها

والذي اوصل فينيقية الى هذه الدرجة من التقدم والشهرة اولاً وجودها على شاطئ البحر ووجود مواني متعددة فيها . ثانيًا اشتغال الامم المجاورة لها بحروب متصلة بحيث لم يكن لهم فرصة لمزاحمتها في تجارتها . ثالثًا لقلة خصب اراضيها التي لم تكن تكفي عدد سكانها فاضطروا ان يهتموا بامر معيشتهم في الاماكن الخارجة عن بلادهم وكان ذلك موضوعًا لابراز همتهم وواسطة لغناهم وساعدهم على ذلك احتياج البلاد المجاورة لهم الى ما كان عندهم من انواع اصناف التجارة نظرًا لتاخير تمدنهم وهكذا غنيت في مدة وجيزة واغنت مدنًا كثيرة حتى لم يبقَ في مجاورة بحر الروم فرضة او مملكة الاَّ وصل اليها اهل فينيقية وليس ذلك فقط بل امتدوا الى البحر المحيط ودخلوا جبل طارق ووصلوا الى بلاد الانكليز وسموها ارض القصدير بعد ان مروا بايطاليا وفرانسا واسبانيا فاتسعت بذلك تجارتهم وكثر غناهم ثم امتدوا ايضًا الى البحر الاحمر وتوسعوا مع اهل مصر والخليج العجمي واسيا الصغرى حتى الى الهند هذا اذا تذكر الامم المجاورة لهم التي انقادت طبعًا للتجارة معهم . فكانت فلسطين تمدهم بالحاصلات الزراعية مثل اصناف الحبوب والزيت والخمر . وبابل بانواع المنسوجات من القطن والحرير والصوف والكتان . وقرطاجنة بالذهب والفضة وانواع المعادن الثمينة . وبلاد روسيا واليونان بالنحاس وانواع المعادن الثقيلة . وكبدوكيا واسيا الصغرى بالخيول وانواع المواشي . والهند والعرب بانواع الجواهر واللآلي والعاج والعطريات والافاوية والانسجة الثمينة . والخلاصة انهُ لم يبقَ صنفٌ من الاصناف المعهودة بتلك الازمنة الاَّ وادخلوهُ بتجارتهم ولاسيما مدينة صور لانها كانت امًّا لتلك المدائن واعظمها سطوةً وغنى ومجدًا

فمن المعلوم انهُ بوجود وسائط كهذه للتقدم والغنى عظمت صور ونمت

وزهت وسميت ام البحور وكثرت سكانها وشعوبها بهذا المقدار حتى ضاقت بها البلاد فاضطر اكثرهم للخروج الى جهاتٍ مختلفة وسكنوها وفي مدة قصيرة ظهرت منهم ثلاث مدن وهي اوتيك وكاديشة وقرطاجنة . ومن ذلك الحين اخذت تجارة صور تتحول شيئًا فشيئًا الى مدينة قرطاجنة . وما زالت صور بحالة النجاح والنمو الى ان زحف اليها شلمناصر ملك اشور سنة ٧٣٤ ق م فحاصرها مدة خمس سنوات ولم يتملكها وما برحت في عظمتها وسطوتها الى زمن نبوخذنصر عند ما دهم فينيقية سنة ٥٧٢ ق م وفتح جميع مدنها في مدة قصيرة الّا مدينة صور فانها ثبتت نحو ثلاث عشرة سنة تحت الحصار ولكنها اخيرًا خضعت لعدوها . ثم بعد ذلك استولت الفرس عليها وعلى جميع جهات فينيقية وكان كثيرون من الاهالي يهاجرون من بلادهم ويقصدون قرطاجنة .وما زالت على هذا الحال الى سنة ٣٣٢ ق م حين جاء الاسكندر المكدوني وفتح فينيقية وحاصر صور حصارًا شديدًا مدة سبعة اشهر وخرب الجانب الاعظم منها وقتل وباع كثيرين من اهاليها . فمن ذلك الوقت ضعفت شوكتها ولم تعد تقدر على منازعة قرطاجنة من الجهة الواحدة والاسكندرية الناشئة حديثًا من الجهة الاخرى . فاخذ متجرها يتنازل ويتقهقر وينتقل رويدًا رويدًا الى هاتين المدينتين . وبعد موت الاسكندر اقتسم قوادهُ الاربعة مما لكهُ المتسعة فكانت فينيقية تابعة للولاية البطليموسية المصرية ولكنها من ذلك الزمان لم تعد تنمو وما زالت في انحطاطٍ وهبوط من وقتٍ الى آخر حتى وصلت الى الدرجة المعروفة بها الآن ولم يبقَ من اكثر تلك المدن العظيمة الشان كصور وصيدا وجبيل والبترون وغيرها سوى رسومٍ دارسة وابراجٍ داثرة واسوار متهدمة وقرًى حقيرة من بقايا تلك الامة الشهيرة التي تلاشت وانقرضت فسبحان من يغير ويقلب الاحوال ولا يعتري ملكهُ تغيير ولا زوال

الفصل العاشر

في الحروب الصليبية

الباب الاول

في منشأ الحروب الصليبية الى نهاية اعمال التجريدة الثانية

ان السبب في اثارة تلك الحروب رجلٌ اسمهُ بطرس الناسك كان متزوجًا وذا اولادٍ ولكن لاسباب لا يعلمها الاَّ الله ترك عائلتهُ وترهب وانفرد سائحًا متنسكًا وبعد مدة التصق ببعض الزوار كانوا ذاهبين لزيارة الاراضي المقدسة في فلسطين فزار مدينة القدس وهناك اخذتهُ الحمية على ان يسعى في استخلاص تلك الاماكن من ايادي المسلمين فبرجوعهِ الى ايطاليا اجتمع مع البابا اوربانوس الثاني وخاطبهُ في ذلك باسطًا امامهُ حالة المسيحيين الشقية في الشرق فوافقهُ البابا على افكارهِ وعزم في الحال على اتخاذ الوسائط المقتضية لاتمام هذا المشروع فامر بطرس ان يجول في اقطار البلاد مناديًا ومبشرًا للشعوب بانقاذ النصارى واستخلاص اورشليم من ايدي المسلمين

فاخذ بطرس يجول من مكان الى آخر منذرًا ومحركًا قلوب الناس للاشتراك في هذا العمل . فاجتاز من ايطاليا الى فرانسا والى اكثر جهات ممالك اوروبا زارعًا بين الجميع هذه الافكار ومهيجًا اياهم للنهوض والقيام وفي اثناء ذلك عقد البابا اوربانوس عدة مجامع في ايطاليا وفرانسا وطرح فيها هذه المسئلة امام جمهور الحاضرين منهضًا هممهم للمبادرة والاستعداد

في هذا المشروع .ولاجل ترغيبهم في ذلك وتنشيطهم اشهر انعامات خصوصية لكل من يشترك في هذا الامر . فكان الانعام الاول ابطال التاديبات القصاصية المفروضة بقوانين ثقيلة على الخطاة الذين بذهابهم الى بلاد فلسطين كانوا يعفون عن ثقل وصرامة قوانين التوبة التي كانوا ملتزمين بممارستها . الانعام الثاني ان المحاربين الصليبيين يعفون من دفع الفوائد . الانعام الثالث ان كل من يصدر منهُ اغتصابات غير عادلة نحو جنود الصليبيين يكون تحت الحرم الكبير الاناثيما . الانعام الرابع ان جميع الصليبيين وافراد عيالهم مع كل نوعٍ من ارزاقهم وامتعتهم يكونون تحت حماية الكنيسة الجامعة والرسولين بطرس وبولس . فنهض حينئذٍ احد الاساقفة وطلب من البابا انهُ يكون اول من يجاهد في هذا السبيل فسلمهُ البابا راية الصليب وتبعهُ جملة من روساء الدين ومن عامة الناس ورسموا جميعًا على صدورهم صورة الصليب بلون احمر وجعلوا هذه الاشارة على الاسلحة والالوية والرايات والبنود ومن ذلك الوقت سموا صليبيين وحروبهم دعيت الحروب الصليبية

قال بعض المورخين اللاتينيين انهُ في اثناء المناداة بهذه الحروب وتجهيز الناس للدخول فيها ظهرت عدَّة عجائب في السماء وعلى الارض منها تساقط بعض النجوم من السماء ظهر بانتقالها علامة حمراء دموية في جوانب الافق ومنها ظهور عمود ناري على شكل حربة ذات حدَّين بقرب الشمس . ومنها انهُ شوهد في الجو صور مدن وعساكر وخيول واسلحة وفرسان مرسومة بالصلبان ومنها انهُ كان يرى في مدة ستة ايام متوالية على اثواب المسيحيين صلبان من نور مطبوعة على ملابسهم بطريقة عجيبة بحيث لايمكن لاحد ان يمحوها بالماء ولا بالنار . فهذه المناظر التي كانت تتراءى لهم شددت عزائمهم وجعلتهم لا يتوقفون عن السفر وكانوا يستعدون من يوم الى يوم حتى بلغ عددهم ثلاث مئة الف مقاتل

فعند ذلك ارتحلوا في اثناء سنة ١٠٩٦ للميلاد طالبين القسطنطينية

وكانوا اجناساً عديدة وفرقاً كثيرة من الايطاليانيين والفرنساويين والنمساويين وغيرهم من سكان اوروبا . وكان بطرس الناسك المقدم ذكرهُ وهو متوشحٌ بثوبهِ الرهباني قائداً للفرقة الاولى فسار بهم عن طريق المانيا وهونكاريا وبلغاريا . فكانوا ينهبون ويخطفون من سكان المدن والسواحل وهم سائرون فوثب عليهم الاهالي وقتلوا منهم عدداً كثيراً وبعد ان قاسوا اهوالاً شديدة انتهوا الى القسطنطينية وكان ملكها يومئذٍ يدعى الكسيوس كومنينوس فاذن لهم ان يقيموا في المدينة الى ان يحضر رفقاؤهم

وقد اصاب الفرقة الثانية ما اصاب الفرقة الاولى في الطريق وقتل منها عددٌ وافرٌ بسبب تعدياتهم ولكنهم وصلوا اخيراً الى القسطنطينية وانضموا مع البقية فكان عدد من سلم معهم مئة الف مقاتل فنقلهم الملك الكسيوس المذكور في مراكبهِ الى سواحل اسيا ولما انتهوا اليها التقتهم عساكر الاسلام في نواحي نيقية واحاطوا بهم وقاتلوهم قتالاً شديداً فاستظهروا عليهم وتمكنوا منهم واستولوا على مضاربهم وذخائرهم ولم ينجُ منهم الّا القليل فهكذا كانت نهاية الواقعة الاولى

اما بطرس الناسك فكان قد رجع الى القسطنطينية قبل حدوث هذه المعركة متشكياً من عدم انتظام الصليبيين وعدم طاعتهم وانقيادهم الى روسائهم ولكن لما بلغهُ هذه الاخبار المحزنة اقسم بانهُ لا يرجع قط عن عزمهِ حتى يشاهد حرباً صليبية ثانية

فلما بلغ اهالي اوروبا ما حل باصحابهم من النكال حزنوا جدّاً وتحركت عزائمهم على اخذ الثار وازالة الذل والعار والاستيلاء على تلك الديار فتجهز منهم جيشٌ جرار تحت راية غودافروا دوك برابانت وبوليون . ورافقهُ اخواهُ اوستاس وبودوين وغيرهما من القواد المشاهير منهم روبرتس اخو فيلب ملك فرانسا وروبرتس دوك نورمنديا وغيرهما من الذوات . وساروا قاصدين القسطنطينية واستمروا في طريقهم الى ان وصلوا اليها بعد ان فقد

منهم جانب عظيم بسبب الامراض والجوع وفتك اهالي البلاد التي كانوا يمرون فيها . ومن هناك اجتازوا الى شطوط اسيا وعند وصولهم الى نيقية التقتهم جيوش الاسلام ووقع بينهم عدة معارك شديدة انتصرت فيها طوائف الافرنج فاستولوا على المدينة ثم تقدموا بجموعهم الى انطاكية فاخضعوها وتملكوها بعد هجمات ٍ هائلة ووقائع متعددة ولما دانت لهم ولاية تلك الاطراف ملأُوها بالجنود والفرسان وزحفوا بباقي ابطالهم الى القدس فحاصروها واستفتحوها سنة ١٠٩٩ للميلاد بعد حروب ٍ شديدة وصدمات رائعة وجعلوها دار ملكهم

وبعد استيلائهم على اورشليم بثمانية ايام نودي باسم غودافروا ملكًا على فتوحات فلسطين الا انهُ لم يمضِ عليهِ اكثر من خمسة عشر يومًا حتى وافاهُ سلطان مصر بعسكر جرار فالتقاهُ غودافروا عند عسقلان بجيوش الصليبية فكسرهُ وشتت شملهُ . ومن ثم اخذ الصليبيون في توسيع دائرة فتوحاتهم فحاصروا جميع المدن الكائنة على الشطوط البحرية وتغلبوا عليها كمدينة اللاذقية وطرابلس وصيدا وصور وعكا وحيفا ويافا وعسقلان وغيرها فكانت حدود افتتاحاتهم شمالاً الاسكندرونة وجنوبًا ديار مصر ولم يبقَ في يد الاسلام سوى حمص وحماه والشام وحلب مع بعض القرى الحقيرة

وسنة ١١٠٠ توفي غودافروا المذكور وخلفهُ اخوهُ بودوين الاول الذي كان واليًا على أُرفا فحكم ببسالةٍ ونشاط الى ان ادركتهُ الوفاة سنة ١١١٨ فخلفهُ ابن عمهِ بودوين الثاني الذي كان واليًا على ولاية أُرفا في زمن بودوين الاول واستمر حكمهُ الى سنة ١١٢١ ثم أُسر في حربٍ مع الاتراك وبقي اسيرًا عندهم جملة سنين الى ان انقذهُ امير أُرفا . ثم تولى بعدهُ الامير فولك انجو وهو صهرهُ زوج ابنتهِ فحكم ١٢ سنة ومات بعد سقطةٍ عن فرسهِ . ثم خلفهُ ابنهُ بودوين الثالث وامتدت ايام ولايتهِ عشرين سنة وفي مدة احكامهِ ضعفت شوكة الافرنج وقلت سطوتهم واستظهر المسلمون عليهم في حروبهم المتواترة واسترجعوا منهم أُرفا وبعض الاماكن الاخرى . فاستغاث بودوين المذكور باهالي اوروبا وطلب

منهم المساعدة والامداد فامدوهُ بنجدة عظيمة تحت قيادة كونراد الثالث ملك جرمانيا ولويس السابع ملك فرانسا سنة ١١٤٧ للمسيح وهذه هي التجريدة الثانية

وقبل قدوم ملك فرانسا بايام يسيرة وصل ملك جرمانيا الى فلسطين في حالة يرثى لها اذ كان قد تلف اكثر من نصف جيشهِ في الطريق بعضهم بالجوع والمرض وبعضهم بالسيف في المعارك التي اثارها عليهم الاعداء في اثناء الطريق فلما بلغ سواحل سورية وافتهُ مواكب الاسلام وفتكت بعساكرهِ فانسحب مع باقي جيشهِ وبينما كان راجعًا التقى بلويس السابع وجنودهِ الذين وصلوا في حالة احسن من حالتهِ فالتقتهم الاتراك في نواحي انطاكية وانتشبت بينهم نيران القتال مدة ايام وكانت الدائرة على الملك لويس وجندهِ فانقلب راجعًا ببقية قوادهِ وجيوشهِ ونزلوا في السفن وساروا الى القدس وانضموا الى العساكر اللاتينية مع بقايا العساكر الجرمانية تحت راية ملكها كونراد المذكور ثم زحفوا الى دمشق الشام بقصد الاستيلاء عليها املاً بانهم متى تمكنوا منها يفوزون بالانتصار التام فتنتهي ثورات اعدائهم المتتابعة وتهدم اركان سطوتهم . وكان الوالي عليها يومئذٍ وقائد جيوشها الامير ايوب مقدام الدولة الايوبية وجدّها فلما وصلوا اليها اقاموا عليها الحصار ونصبوا على ابراجها المجانيق والالات ونازلوها مدة طويلة بدون نتيجة ولا فائدة ولما يئسوا من استخلاصها انكفأوا عنها راجعين فهذه كانت اعمال التجريدة الثانية

الباب الثاني

ذكر الحوادث والوقائع التي جرت من بداية التجريدة الثالثة الى نهاية التجريدة التاسعة التي هي ختام الحروب الصليبية

فضعفت شوكة الصليبيين في فلسطين وتزعزعت دعائم مملكتهم بسبب

انكسار العساكر الافرنجية وتشتت شملهم ولكن مع كل ذلك لم يكفوا عن مواظبة الحروب والغارات وحفظ مراكزهم الى سنة ١١٧٤ حين توفي بودوين الرابع وبعد وفاته نهضت امهُ سبيلا وتزوجت برجلٍ ذميم الاخلاق قبيح السيرة الاَّ انهُ كان جميل الصورة وجعلته ملكًا على اورشليم فساء هذا الامر جدًّا في اعين الامراء ووزراء الدولة الصليبية فنفر اكثرهم وخلعوا الطاعة واظهروا الخلاف والعصيان وكان من جملتهم الكونت ريموند الذي لسبب عدم تحويل تاج الملك اليهِ دخلهُ الحسد فخان ابناء وطنهِ وكاتب الاعداء سرًّا منهضًا همتهم على الحروب وافتتاح البلاد على ما قيل

ففي اثناء هذه الحوادث والتقلبات الداخلية ظهر عدو آخر للصليبيين وهو صلاح الدين الايوبي سلطان مصر وكان شابًا شجاعًا وبطلاً مقدامًا وقد اسس في مصر مملكة جديدة بعد انقراض الدولة الفاطمية فلما كثرت تعديات الافرنج على قوافل المسلمين واهانتهم اياهم وتهددهم بافتتاح مكة والمدينة ومنعهم عن اعطائهم الترضية اللازمة هاجت حمية الاسلام واشتد حنقهم فنهض صلاح الدين من مصر بثمانين الف مقاتل قاصدًا فلسطين وجعل طريقهُ على مدينة طبرية فلما اشرف عليها احاط بها وحاصرها فوافاهُ ملك القدس بجيوشٍ كثيرة للمدافعة والمحاماة عنها لانها كانت من اهم مراكز البلاد وهناك التقى العسكران والتحم الجيشان فماجت الارض بالعساكر وكانت معركة دموية هائلة استمر القتال فيها بين الفريقين نحو يومين كاملين وكانت الدائرة على الصليبيين فانقلبوا راجعين على الاعقاب طالبين النجاة بعد ان فقد منهم نحو ثلاثين الف مقاتل ووقع الملك اسيرًا مع خواصهِ واكابر روسائهِ في ايدي المسلمين وعند نهاية الحرب قتل صلاح الدين ٢٣٠ رجلاً من اعيان الافرنج الماسورين وهكذا اصبحت البلاد بدون راس ومدبر في قبضة المنتصر

وبعد هذه الحادثة بنحو ثلاثة اشهر زحف صلاح الدين بجيوشهِ على مدينة القدس ونازلها ولم يكن فيها سوى الملكة وقليل من الجنود مع نحو ١٠٠ الف

رجل كانوا قد التجأُوا اليها بسبب الثورة المذكورة واذ لم تستطع الملكة الثبات اكثر من اسبوعين ولاسيما ان افكارها كانت مضطربة من جهة اسر زوجها اضطرت اخيرًا الى التسليم تحت شروط معلومة وقع عليها الاتفاق بين الفريقين وهي ان جميع طوائف الافرنج واللاتينيين يخرجون من المدينة ويرحلون بعيالهم واثقالهم وتكون لهم الحماية فيصلون آمنين الى سواحل سورية او مصر وان كلاًّ من الاهالي يعطي صلاح الدين مبلغًا معلومًا فديةً عن حياتهِ والذي لايقدر على ذلك يبقى كعبدٍ واسير . ولكن صلاح الدين اظهر من علو الهمة والكرم والشفقة والرحمة ما لا مزيد عليهِ لانهُ كان يرضى من الفقراء والمحتاجين بما تيسر عندهم حتى انهُ اطلق سبيل ٢٠٠٠ رجل بدون فدية . وعند مقابلتهِ الملكة اظهر من الرقة واللطف وكرم الاخلاق ما لا يوصف وكان يعزيها بكلامهِ وبدموعهِ معًا ويوزع الاحسان على ارامل وايتام القتلى وسمح للمتولجين على المستشفيات ان يبقوا في المدينة سنة اخرى لملاحظة المرضى والعاجزين والاعتناء بهم وكان حدوث ذلك سنة ١١٨٧ للميلاد

فخرج المنفيون من اورشليم وكانوا تائهين في اراضي سورية يلتمسون لانفسهم المعونة والمساعدة وكثيرًا ما كانوا يطردون من نفس اخوتهم المسيحيين بتوبيخات مرَّة . وقد توجه اناسٌ من هولاء المنكودي الحظ الى القطر المصري فحرَّكت احوالهم التعيسة قلوب المسلمين للشفقة عليهم وآخرون سافروا بحرًا الى اوروبا حاملين اخبار ما اصابهم من الدواهي والنكبات

وسنة ١١٩٠ اقامت التجريدة الثالثة تحت راية فيليب ملك فرانسا والامبراطور فريدريكوس ملك جرمانيا وريكاردوس الاول ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد وغيرهم من الامراء فنهضوا جميعًا وقصدوا بلاد فلسطين بمئتي سفينة مشحونة بالعساكر والمهمات وعند وصولهم الى صور وهي المدينة الوحيدة الباقية يومئذٍ في ايدي الصليبيين تقدموا منها الى مدينة عكا الحصينة وحاصروها غير مبالين بالاخطار المحدقة بهم . فاستمر القتال بين الفريقين نحو سنتين وخسر

الجمعان عددًا كثيرًا من عساكرها ولكن لما اشتد القتال والحصار على المسلمين وانقطع عنهم الامداد ونفذت ذخائرهم سلموا اخيرًا تحت هذه الشروط وهي انهم يعطون الافرنج ٢٠٠ الف ريال من الذهب ويسلمونهم الف وخمس مئة اسير من عامة الصليبيين ومئة اسير من الاشراف كانوا في سجنهم وان يردوا لهم خشبة الصليب التي أُخذت منهم في حرب طبرية . فتسلم الافرنج عكاء في ١٢ تموز سنة ١١٩١ بعد ان كان فقد منهم نحو ٣٠٠ الف رجل بين قتيل وجريح ومريض وغريق وكان عدد المحاصرين نحو ٦٠٠ الف مقاتل

ثم بعد افتتاح عكا عزم ريكاردوس ملك انكلترا على حصار عسقلان التي هي على مسافة مئة ميل من عكا فزحف اليها ولما اشرف عليها وافاهُ الملك صلاح الدين بثلاث مئة الف مقاتل وانعقدت بينهما حروبٌ هائلة لم يسمع بمثلها في الايام السابقة وكانت الدائرة على عساكر المسلمين فانهزم صلاح الدين بعد مقتلة شديدة فقد فيها من جيشهِ نحو اربعين الف نفر من شجعان العسكر وفاز الملك ريكاردوس بالنصر والظفر واستولى على عسقلان وباقي مدن اليهودية. اما صلاح الدين فالتجأ الى مدينة القدس وحصن قلاعها وابراجها وملأها بالعساكر والجنود وكان فصل الشتاء قد دخل وبسبب قساوة البرد توقفت الحروب بين الفريقين . وفي بداية فصل الربيع زحف ريكاردوس بجيشهِ على القدس التي كانت جل قصدهِ وغاية اربهِ فهاج الاهالي واعتراهم الخوف والرعب عند قدوم هذا الجبار فاقام الحصار على المدينة وضيق عليها من كل الجهات ولكنهُ لم يلبث طويلاً حتى انسحب عنها اذ وجد صعوبات كثيرة في افتتاحها وكانت عساكرهُ قد ضجرت من الحروب ومشقات الاسفار

وفي خلال ذلك زحف صلاح الدين في ستين الف مقاتل لاستخلاص مدينة يافا وعند ما اوشك ان يفتحها وافاهُ ريكاردوس فحاربهُ وهزمهُ . ثم ان ريكاردوس وصلاح الدين بعد هذه الحادثة اخذا بالمراسلات والمخابرات في شان الصلح وترك هذه الحروب المهلكة . وكان اول شيء طلبهُ ريكاردوس

تسليم القدس وفلسطين وترجيع خشبة الصليب فرفض صلاح الدين هذا الطلب ولم يسمح بتسليم فلسطين . ثم وقع الاتفاق على توقيف الحرب ثلاث سنين وانهُ في اثناء هذه الهدنة يسمح للمسيحيين ان يزوروا القدس في اي وقت ارادوا بدون دفع جزية وان يُهدَم قلعة عسقلان وان يافا وصور والبلاد الواقعة بينهما تبقى بيد الافرنج . فبعد اتمام هذه المعاهدة سافر ريكاردوس الى اوروبا وبعد ذلك بقليل توفي صلاح الدين وقام بالسلطنة مكانهُ اخوهُ سيف الدين . وسنة ١٢٠٢ جهز البابا سلاسنينوس الثالث تجريدة رابعة ولكنها انحصرت اعمالها في محاربة ملك الروم في القسطنطينية فتغلب عليهِ اللاتينيون وامتلكوا منهُ المدينة وبقيت تحت تصرف احكامهم مدة ٥٧ سنة

وسنة ١٢١٦ تجند في اوروبا تجريدة خامسة مولفة من مجر وجرمانيين فاجتازوا البحر وجاءوا الى مدينة عكا ونزلوا فيها . وكان حكام سورية يومئذٍ اولاد سيف الدين المذكور فقاوموهم اشد مقاومة ولم يدعوهم يتقدمون ثم وقع بين الافرنج انشقاقات واختلافات فرقتهم وسببت هلاكهم فرجع ملك المجر الى بلادهِ وتوقفت حركة الجنود الصليبية الى ان اتاها نجدة في السنة الثانية نحو ٣٠٠ سفينة مشحونة بالمهمات والرجال فشددت عزائمهم ومكنتهم في الانتصارات ولكن لاسبابٍ غير معلومة تركوا بلاد فلسطين وتوجهوا الى الديار المصرية فاستظهروا على بعض اقاليمها واستولوا على دمياط وحصنوا اسوارها وكانت الاهالي تخافهم وتهابهم حتى انهم طلبوا اليهم ان يعقدوا معهم صلحًا تحت شروط مرضية للصليبيين ولكنهم رفضوها ولم يجيبوا طلبهم . واستمروا منتشرين على شواطي النيل حتى اضعفهم الزمان وقلة الوسائط فاضطروا ان يتنازلوا للمصريين عن تملكاتهم في مصر ليسمحوا لهم بالرجوع الى فلسطين

وسنة ١٢٢٨ تجهزت التجريدة السادسة تحت قيادة فريدريكوس الثاني ملك المانيا الذي كان قد نذر على نفسهِ من مدة طويلة ان ينهض لمساعدة الصليبيين ونجدتهم ولكن بسبب ابطائهِ وتاخرهِ حرمهُ البابا غريغوريوس

التاسع فاغتاظ فريدريكوس من هذه المعاملة واستعد لمقاومة البابا المذكور فذهب اليهِ الى رومية واهانهُ واذلهُ ثم الزمهُ ان يخرج من رومية قهرًا . وكان في اثناء ذلك قد تولد بين المسلمين بلبلة وانقسامات مع امرائهم والمتقدمين فيهم فاضطر الملك الكامل ناصر الدين ابن سيف الدين والي مصر ان يعقد معاهدة مع الملك فريدريكوس المذكور فارسل يستدعيهِ اليهِ واعدًا اياهُ باعطاء اورشليم . فنهض فريدريكوس باربعين الف مقاتل الى عكا ومنها الى القدس بدون ان يعارضهُ معارض ولا ينازعهُ منازع . وبعد ذلك عقد بينهُ وبين المسلمين عهودًا وهي ان القدس ويافا وبيت لحم والناصرة وتوابعها تكون في ايدي المسيحيين وتحت تصرف احكامهم وان كلاًّ من الامتين المتحاربتين يسمح لها ان تمارس فروض مذهبها وسننهُ بكل حرية وبدون معارضة

اما عامة الصليبيين فلم يسرّوا باعمال فريدريكوس ولم يقبلوا شروطهُ ومعاهداتهِ السلمية لانهم كانوا يعتبرونهُ محرومًا ومرفوضًا من قبل الكرسي الروماني ولذلك رفضوا طاعتهُ . ولما دخل بطريرك اللاتينيين الى القدس لم يرتضِ ان يحضر احتفال تتويجهِ فحينئذٍ مدَّ فريدريكوس يدهُ واخذ التاج عن قبر المسيح ووضعهُ على راسهِ وبعد ذلك بمدة عاد راجعًا الى بلادهِ

ثم في سنة ١٢٣٩ تجند لمساعدة الصليبيين بسبب ثورات ومقاومات اعدائهم تجريدة سابعة مولفة من انكليز وفرنساويين تحت قيادة بعض الاشراف. فسبق الفرنساويون الى سورية وحاربوا جملة حروب كان الاستظهار فيها للمسلمين . وفي السنة الثانية حضرت العساكر الانكليزية وكان قائدها الامير كورنوالّ وعند ما وجد هذا الامير ان تملكات الصليبيين وحقوقهم الممنوحة بموجب عهود وشروط من المسلمين عن يد ملك جرمانيا قد نُقضت ورُفضت وان اخصامهم قد سلكوا معهم مسلك الجور والعدوان اسرع في قيام الحرب على المسلمين . واذ كان السلطان يومئذٍ مشتغلاً في محاربة اخيهِ في دمشق عقد صلحًا مع الامير المشار اليهِ وتنازل لهُ عن القدس وبيروت والناصرة وبيت لحم

وجبل تابور وقسم كبير من الاراضي المجاورة

هذا وبينما الصليبيون في ارغد عيش وسرور باسترجاع الاراضي المقدسة دهمتهم مصيبة اخرى لم تخطر قط على بال وهي ظهور جنكيزخان الذي اشتهر بين الاكراد في ذلك الزمان . فانهُ اقام الحرب على ساق وقدم بين طوائف العرب والتتر والعجم فازعج تلك البلاد واقلق بغاراتهِ العباد فتراكضت الشعوب والقبائل مهزومة من امام وجههِ ومن جملتهم شعوب خوارزم الذين احاطوا بسورية وتغلبوا عليها وفتكوا باهاليها ولم يرحموا شيخًا ولا امرأَة ونهبوا بيت المقدس وكادت غاراتهم تصل الى الديار المصرية . وبقي الخوارزميون في سورية ولم تقدر عساكر المسلمين والمسيحيين على ردهم الى سنة ١٢٤٧ حين قهرهم وكسرهم الملك المظفر سلطان مصر بقرب الشام وطردهم الى تخومهم ومواطنهم التي على شطوط بحر الخزر

واذ كان الصليبيون لا يزالون في ضنكٍ عظيم تحركت غيرة لويس التاسع ملك فرانسا عليهم فنهض اولاً لنجدتهم بعدة سفن مشحونة بالمهمات والادوات العسكرية الحربية مع خمسين الف مقاتل وقصد اولاً مصر سنة ١٢٤٩ للميلاد وهذه هي التجريدة الثامنة فوصل الى دمياط وامتلكها ومنها تقدم الى جهة القاهرة ولكن قبل بلوغ امالهِ انقرضت عساكرهُ بالمرض والجوع فوقع هو مع من بقي من جيوشهِ اسيرًا في ايدي الاعداء وبقي في اسرهم الى ان فدى نفسهُ وسار بباقي رجالهِ الى فلسطين ومن هناك توجه الى اوروبا . وبعد ذلك بنحو ١٥ سنة زحف الملك الظاهر بيبرس البندقداري احد سلاطين دولة المماليك التركية بمصر بجيشٍ جرار على بلاد فلسطين وكانت الافرنج قد ضعفت قوتها فاخضع مدينتي صفورة وازوث واوقع بالمسيحيين وقتل منهم واسر عددًا كثيرًا ثم قصد مدينة انطاكية فحاصرها وامتلكها وقتل منها نحو اربعين الف رجل واسر مئة الف نسمة وساقهم الى البلاد المصرية في حالة الذل والويل

ولما اتصلت هذه الاخبار المحزنة الى مسامع شعوب اوروبا ساءهم ذلك جدًّا فنهض ثانيةً لويس التاسع ملك فرانسا المقدم ذكرهُ وخرج من بلادهِ بجيشٍ عظيم وقصد لولاً شطوط افريقية لينتقم من التونسيين قبل مسيرهِ الى فلسطين لانهم كانوا قد اقلقوا وازعجوا امنية البحر بتواتر غزوات مراكبهم القرصانية وسلبوا اكثر الذخائر والمهمات التي كانت ترسل من اوروبا اسعافًا الى فلسطين حتى انهم كانوا يمدون المصريين بالخيل والرجال . فحاصر مدينة قرطاجنة وضيق عليها وهزم جيوشها وافتتحها ولكنهُ توفي في اثناء ذلك مع جانب من جيشهِ في وسط تلك الرمال المحرقة من جراء امراض وبائية اصابتهم وكان ذلك سنة ١٢٧٠ وهذه هي التجريدة التاسعة والاخيرة للصليبيين

فانحصرت اخيرًا فتوحات الصليبيين في مدينة عكا حصنهم الوحيد مع بعض المدن المجاورة ولكنهم لم يلبثوا الاَّ قليلاً حتى وافاهم الملك الناصر محمد بن قلاوون في جيشٍ من مماليك مصر يبلغ عددهُ نحو مئتي الف مقاتل وضايقهم في مرج ابن عامر ومن بعد عدة معارك اظهر فيها الصليبيون من البسالة والشجاعة ما لا مزيد عليها استظهرت عليهم اخصامهم بكثرة العدد واستولوا على مدينة عكا وقتلوا اكثرهم واسروا منهم جانبًا عظيمًا ثم استولوا على جميع اقطار سورية ومن ذلك الحين انمحت اخبار الصليبيين من بلاد فلسطين لانهم كانوا قد تلاشوا وانقرضوا وكان عدد من مات وقتل منهم في هذه الحروب من باب التقريب نحو ٢٠٠٠٠٠٠ فسبحان المبدي المعيد الدائم والفاعل ما يريد

الفصل الحادي عشر

في اسيا الصُغرى

اسيا الصغرى المعروفة الآن ببر الاناضول موقعها على اطراف بحر الروم الى جهة الشمال الشرقي. يحدها شمالاً البحر الاسود وغرباً بوغاز القسطنطينية وبحر مرمرا وشرقاً سورية وما بين النهرين وارمينية . ومعظم طولها من الشرق الى الغرب ستماية ميل وعرضها اربع مئة ميل يخرقها عدة سلاسل جبال منفصلة عن جبل الثور وجبل قوقاس. . وهي الآن قسمٌ من المملكة العثمانية واكثر سكانها من المسلمين واشهر مدنها ازمير وهي مولد هوميروس الشاعر اليوناني المشهور وقاعدة تجارة بلاد المشرق

وكانت تنقسم قديمًا الى اثنتي عشرة مملكة صغيرة وهي ميسيا وليديا وكاريا وليسيا وبيثينيا وبفلغونيا وبنتس وبمفيليا وبيسيديا وكيليكيا وفريجية وكبدوكية ومن اعظم هذه الاقسام مملكة ليديا اشتهرت قبل المسيح بنحو ٨٠٠ سنة واول ملوكها على ما قيل هواردیس قام سنة ٦٩٧ ق م واخر ملوكها كريسوس وكان اغنى ملوك عصرهِ وقد اشتهر في الغنى بهذا المقدار حتى ضُرب بهِ المثل الى الآن اذ يقال فلان غني ككريسوس وكان جلوس هذا الملك على سرير الملك سنة ٥٥٩ ق م وفي ايامهِ ضمَّ الى مملكتهِ جميع البلاد الواقعة غربًا من نهر هاليس الذي يقال لهُ الآن قزل ارمق وكان مجلسهُ مشهدًا للفلاسفة واهل العلم . قيل زارهُ مرةً صولون الفيلسوف الشهير فاراهُ كريسوس جميع خزائنهِ

وتحفهِ وقصورهِ من باب الكبرياء ليبهجهُ ويدهشهُ وقال لهُ من تظن اسعد الناس غيري . فاجابهُ صولون لا يُدعَى احدٌ سعيدًا الاَّ من دامت سعادتهُ الى آخر حياتهِ . وقد اصاب ذلك الفيلسوف فيما قالهُ لان كريسوس لم يتمتع بعد ذلك زمانًا طويلاً بغناهُ وسعادتهِ لان كورش ملك الفرس لما زحف لمحاربة الاشوريين اتحد كريسوس معهم على حرب كورش فانكسر وبات محصورًا في مدينة ساردِيس قصبة مملكتهِ فاتى كورش وحاصر المدينة وفتحها سنة ٥٤٨ ق م واسر كريسوس ولما مثل بين يديهِ امر بايقاد اتون من نار وان يطرحوا كريسوس فيهِ ولما دنوا بهِ من الاتون تذكر كريسوس ما قالهُ لهُ صولون فصرخ بصوتٍ عالٍ يا صولون يا صولون يا صولون . اما كورش فلما سمع صراخهُ استحضرهُ وسالهُ عن السبب فاخبرهُ بما كان . فاعجبت كورش حكمة صولون فعفا عنهُ وابقاهُ عندهُ معزًا مكرمًا . ومن ذلك الوقت صارت ليديا مع قسمٍ كبير من اسيا الصغرى تابعة لمملكة الفرس حتى اتى اسكندر الكبير فانتصر على ملوك الفرس واستولى على اكثر املاكهم في اسيا

وبعد وفاة اسكندر صار الجزء الاكبر من هذه البلاد تابعًا لمملكة سورية في زمان تملك الدولة السلوقدية وفي اثناء ذلك استقلت بنتس التي كانت من اعمال ليديا واخذت في التقدم والنمو جملة سنين . وفي عصر تملك ميتريدات السابع ملكها اليوناني اكتسبت شهرة عظيمة لانهُ كان على جانب عظيم من الحذق والدراية والباس . وكان من اشد الناس عداوة للرومانيين فحاربهم جملة سنين وانتصر عليهم في جملة وقائع ولكنهُ قُهر اخيرًا من الرومان سنة ٦٤ ق م وانضمت مملكتهُ مع باقي ولايات اسيا الصغرى الى املاك المملكة الرومانية وبقيت تابعة قياصرة رومية والقسطنطينية الى القرن الحادي عشر للميلاد حين استولت الدولة السلجوقية على الاقسام الجنوبية الشرقية من هذه البلاد . وعند انقراض هذه الدولة في اواخر القرن الثالث عشر جاء الاتراك العثمانيون من بلاد التتر الكائنة على نواحي بحر الخزر واستولوا على جانب عظيم منها

تحت راية السلطان عثمان الغازي ومن ابتدا سنة ١٤٨٦ا صارت كل هذه البلاد تابعة سلاطين آل عثمان . هذا ومع كل الثورات والحروب التي انتشبت في اسيا الصغرى ازدادت البلاد نموًّا وشعبًا واقيم فيها عدة مدن شهيرة منها افسس في ليديا التي لم تزل اثارها باقية الى الآن تشهد على عظمتها وهي على مسافة بعض ساعات من جنوب مدينة ازمير يقصدها كثير من الناس المشاهدة . وكان في هذه المدينة هيكل عظيم الشان حُسِب من عجائب الدنيا السبع نظرًا لغرابتهِ وعظم بنائهِ وكان مخصصًا لعبادة الآلهة ديانا اي ارطاميس اليونانيين وبقي هذا الهيكل في بهجتهِ ورونقهِ الى سنة ٣٥٦ ق م حين قام رجلٌ من افسس واضرم فيهِ النار فاحترق عن اخرهِ وكان قصدهُ بذلك ان يترك لنفسهِ ذكرًا مؤبدًا وقد ضُرِب بهِ المثل حيث يقال ان الرجل الذي لا يقدر على صنع قفص حتير حرق هيكلاً عظيمًا . وكانت هذه الحادثة يوم ولادة اسكندر المكدوني

ومن مدن اسيا الصغرى كولاسايس وطرسوس التي ولد فيها بولس الرسول وكانت في قديم الزمان مساوية في العلوم لمدينة اثينا ومفاخرة لمدينة اسكندرية وليست الآن الاَّ قرية صغيرة . ثم مدينة برغامس وثياتيرا التي يقال لها الآن اق حصار وسرديس قصبة مملكة ليديا . وفيلادلفيا ولاودكية المذكورة في الاسفار المقدسة وترواده وغيرها . اما برغامس التي يقال لها الان برغاما فكان فيها قديمًا مكتبة معتبرة تحتوي على ٢٠٠ الف مجلد نقلها الملك انطونيوس الروماني والملكة كليوبترا الى مصر . وفيها ايضًا ولد جالينوس الطبيب الشهير

الفصل الثاني عشر

في وصف بلاد الهند وتاريخها

هذه البلاد هي قسمٌ كبير من قارة اسيا وتشتمل على قبائل عديدة منتشرة في كل اقطارها ولكل قبيلةٍ ولاة وحكام مستقلة بذاتها اشبه بدول اوروبا وعدد سكانها ٢٠٠ مليون منهم ١٥٩ مليونًا تحت تسلط الانكليز و٤١ مليونًا في حالة الاستقلال

وقد اختلف المعلمون من جهة تسمية هذه البلاد هندًا فزعم البعض انها تسمت هكذا نسبةً الى نهر الهند والسند وهما كلمتان معناهما باللغة السنسكريتية الازرق نسبةً الى لون مياههِ وقال آخرون ان اسم هند متخذة من كلمة ايندو ومعناها قمر. وذهب بعضهم ان هذه التسمية مقتبسة من كلمة هندو بالفارسية ومعناها الاسود نسبةً الى سواد اهلها ولكن قلما يوثق في صحة هذا الاقتباس لانهُ يصعب التصديق بان امةً من الامم تتخذ لنفسها اسمًا ولقبًا اجنبيًّا والاجدر بها ان تطلق على ذاتها لقبًا ماخوذًا من نفس لغتها . والجغرافيون يقسمون الهند الى قسمين اي هندستان والهند الصينية اما الاول فهو اعظم واشهر وعليهِ يتعلق مدار الكلام واما الثاني فما كان مجاورًا بلاد الصين ويتضمن ثلاث ممالك صغيرة وهي بورما وسيام وكوشين مما لا يسعنا الكلام عنهُ

وفي هندستان انهر عظيمة وجبال مرتفعة ورياض واسعة وهي جيدة التربة كثيرة الحواصل والاشجار واكثر اشجارها نافعة مفيدة واثمارها لذيذة ولاسيما ما

يسمونهُ مانكو واناناس فانهُ على ما قيل لا يوجد الذ منها في العالم . ويوجد في هذه البلاد حيوانات كثيرة مختلفة الاجناس ولاسيما الفيل فهو عندهم كالجمل عند العرب . ومن وحوشها الضارية النمر ويكثر هذا الحيوان في نواحي بنكالا على شواطي نهر الكنك وهو من اشرس واجسر الكواسر حتى انهُ يهجم احيانًا على الفارس ويخطفهُ عن ظهر فرسهِ وكثيرًا ما يسطو على الاسد . ثم الكركدن وهو ذو قرن كبير شديد القوة يسطو على الاسد والنمر عند الحاجة

اما مدن هندستان فمن اشهرها مدينة كشمير وهي قصبة بلاد كشمير المشهورة بعمل الشالات . ثم مدينة لاهور قصبة بلاد لاهور الواقعة بين الهند وافغانستان والعجم . ومدينة سورات وهي اقدم مدن الهند . ومدينة احمد اباد ومدينة الله اباد ومدينة كلكته وهي قصبة بلاد الهند وكرسي الحكومة الانكليزية وعدد سكانها نحو ٣٥٠ الف نسمة ومدينة بومبي وهي فرضة حصينة تملكها الانكليز سنة ١٦٦٩ وعدد سكانها ١٧٠ الفًا وغيرها من المدائن

وللهنود اليد الطولى في بعض الصنائع والحسابات الدقيقة واليهم تنسب الارقام الهندية المستعملة في العربية . ولهم عوائد قبيحة وخرافات دينية كثيرة والديانة العامة بينهم هي عبادة الاوثان على المذهب البرهمي نسبة الى برهم الاله العظيم عندهم الذي منهُ جاء ثلاثة آلهة على زعمهم الاول برهما وهو الخالق والثاني فيشنو وهو الحافظ . والثالث سيفا وهو المهلك وتصنع اصنام هذه الآلهة غالبًا على هيئات هذه الصورة ولبرهما اربعة اوجه واربع اذرع باربع ايدٍ ففي يدهِ الاولى جزء من الفيدا وهو كتابهم المقدس وفي اليد الثانية ملعقة وفي الثالثة مسبحة وفي الرابعة اناء فيهِ ماء التطهير . ولفيشنو ايضًا اربع اذرع باربع أيدٍ في يدهِ الاولى بوق صدفي وفي الثانية الحلقة التي عند ادارتها تخرج منها نارٌ آكلة لا يمكن مقاومتها وفي الثالثة هراوة وفي الرابعة غصن حندقوق . ولسيفا ايضًا اربع اذرع باربع ايدٍ في الاولى صولجان وفي الثانية حبل يوثق بهِ المذنبين اما اليدان الاخريان ففارغتان ولهُ عينٌ ثالثة في جبهتهِ ولهُ حياتٌ

قد ابطل الحكم الانكليزي هذه العادة القبيحة ولم تعد تجري الاَّ خفية او في الاماكن التي ليست تحت حكم الانكليز

اما تاريخ الهند فهو من اسقم التواريخ مشحون بالخرافات والاقاويل البعيدة عن التصديق مما لا يهم القاري معرفتهُ . وكان قد غزا هذه البلاد سيزوستريس احد فراعنة مصر وتغلب على بعض اقاليمها واخذ منها غنائم وافرة . ثم غزتها بعدهُ الملكة سميراميس ثم قصدها داريوس هستاسب ملك فارس واستخلص منها جملة ولايات ثم اقتحمها اسكندر المكدوني بمئة وعشرين الف مقاتل واستولى على جانب عظيم منها . وكان قصد هذا الملك الجبار ان يتوغل بجيشهِ في اقطار هذه المملكة ويستخلص جميع ولاياتها وملحقاتها فلم يوافقهُ جندهُ على ذلك فالتزم ان يرتد راجعًا

وقد غزا هذه البلاد ايضًا المسلمون . اولاً سنة ٦٤ للميلاد ثم سنة ٧١١ في خلافة الوليد واستولوا على بعض ولايات السند . وكان القائد على جنودهم شاب يقال لهُ محمد قاسم وكان جميل الصورة قوي الجنان ولم يكن معهُ سوى ستة الاف فقط من الرجال المعتادين على خوض المعارك فكان يلتقي بهم صفوف الهنود ويشتت شملهم . وحيثما انتصر اعرض على الاهالي قبول الاسلام فمن اسلم سلم ومن امتنع وكان عمرهُ فوق السبع عشرة قُتل اما النساء والاولاد فكانوا يستعبدون

ومما يستحق الاستغراب انهُ في احدى وقائع محمد التقاهُ مرةً الهنود بالقرب من مدينة حيد اباد في خمسين الف مقاتل تحت قيادة رئيسهم الراجا ظاهر فاشتبك بينهم القتال ومع قلة عدد المسلمين استظهروا على الهنود وقتل الراجا وابنهُ ودخل المنهزمون الى المدينة وحاصروا فيها تحت رياسة ارملة ملكهم وبقوا محاصرين حتى فرغ زادهم وساءت احوالهم من شدة الحصار ولما يئسوا من السلامة اجتمعوا بنسائهم واولادهم فودعوهم ثم احرقوهم بالنار خوفًا من وقوعهم في ايدي الاعداء وبعد ذلك خرجوا من المدينة وهجموا على صفوف المسلمين

فالتقاهم محمد قاسم بابطالهِ وفرسانهِ ولم تكن الّا جولة حتى افناهم كلهم وقبض على ابنة ملكهم الراجا ظاهر وكانت من الحسان وارسلها هديةً الى امير المومنين فلما تمثلت بين يديهِ اعجبتهُ وطلب ان يتزوج بها فقالت لهُ اعلم ايها الامير اني لا استحق ان اكون لك زوجةً لان قائد جنودك الذي ارسلني اليك قد اساء معي الادب وفعل بي ما لا يليق فغضب الوليد من قبيح فعل محمد واصدر امرًا بان يوتى بهِ اليهِ ملفوفًا بجلد ثور ومخيطًا عليهِ فعند وصول الامر الى المعسكر قُبض على محمد قاسم وأُرسل الى الخليفة على الوجه المذكور وفي اثناء الطريق فارقتهُ الحياة وعند وصول الجثة الى بغداد استدعى الوليد الاميرة الهندية واراها ما حلَّ بمغتصبها ففرحت وابتهجت ثم اخبرت الخليفة بان جميع ما حدثتهُ بهِ في شان محمد قاسم لم يكن لهُ صحة ولكنها فعلت ذلك لتنتقم منهُ وتاخذ بثار ابيها ووطنها فتعجب الخليفة من امرها وازدادت رغبتهُ فيها وبعد موت القائد المذكور تجمعت طوائف الهنود وتعصبوا بعضهم مع البعض وحاربوا المسلمين واستخلصوا منهم جميع املاكهم وطردوهم من بلادهم

وسنة ٩٦٧ للميلاد غزت الاعجام بلاد الهند مرةً اخرى تحت راية سويكتاجي حاكم ولاية كندهار التي هي ولاية فارسية وعاصمتها غزنة فانتصر على ملك لاهور واستولى على جملة مدائن وضمها الى اراضي افغانستان وبعد موتهِ خلفها لابنهِ محمود الغزنوي سنة ٩٩٧ ولما تمكن من الولاية حدثتهُ نفسهُ بالاستقلالية والخروج عن طاعة الاعجام فعصاهم وحاربهم واستقل بولايتهِ وكان ملكًا عالي الهمة شديد الباس غيورًا على دين الاسلام غزا الهند اثنتي عشرة مرة وغنم منها غنائم كثيرة وقتل من اهلها عددًا عظيمًا وحمل ثروتها وسكانها الى غزنة حيث كان يباع الاسير بقيمة ريال . وبعد انتصاراتٍ عديدة توفي محمود المذكور سنة ١٠٣٠ وكانت مدة ملكهِ ٣٥ سنة ونقل خلفاؤُهُ كرسي السلطنة من غزنة الى لاهور وجعلوها عاصمة افغانستان . ثم خلف العائلة الغزنوية العائلة الغورية واشهر ملوكها محمود الغوري وفي ايامهِ ايضًا امتدت فتوحات الاسلام في الهند

ثم قصد الهند شعوب المغول واخصهم تيمورلنك وخلفاؤهُ . واشهر ملوكهم محمد بابير زحف على هندستان سنة ١٥٠٥ وبعد ما اخضع كندهار وكابول ودلهي واغرا اسّس سلطنة الهند المغولية وبقيت في ايدي ذريتهِ الى سنة ١٧٦٠ اما مدة ولاية المسلمين في تلك البلاد من زمن محمد الغزني الى انقراض دولة المغول فكانت ٧٥٠ سنة وعدد ولاتهم ٦٥

ومن اشهر ملوك المسلمين من العائلة المغولية الملك اورنزيب كان رجلاً انيسًا شجاعًا ذا دراية وسياسة وكان مع هذه الاوصاف دينًا ورعًا زاهدًا كثير الصلاة والصوم استولى على هذه المملكة من سنة ١٦٦٠ الى ١٧٠٧ وتغلب على كل اقاليمها وجعلها ولاية واحدة وبعد وفاتهِ استولى نسلهُ عليها مدة خمسين سنة وفي ايامهم غزا نادرشاه ملك الفرس تلك البلاد فاضر باهلها ضررًا جسيمًا وسلب اموالهم حتى قيل انهُ خرج منها بنحو عشرة ملايين من الليرات الانكليزية ما عدا الجواهر والامتعة الثمينة التي لم تكن اقل قيمة من المبلغ المذكور . وكان المستولي وقتئذٍ على الهند من ذرية اورنزيب محمد شاه فاستدعاهُ نادر شاه اليهِ بعد ان كان قد استولى على تلك الغنائم واجلسهُ على كرسي المملكة بحضور اشراف الهنود وعظمائهم . ثم التفت بعد ذلك الى الحاضرين وقال لهم اعلموا اني راحل عنكم الى بلادي فيجب عليكم ان تكونوا في طاعة ملككم ولا تخالفوا لهُ امرًا وليكن عندكم معلومًا اني قد صرت لكم من الآن وصاعدًا محبًّا وصديقًا فاعتمدوا على كلامي هذا وتحققوهُ وكان في اثناء خطابهِ لهم ابصر على راس محمد شاه جوهرة ثمينة من نفيس الماس (وهي المعروفة بالكوهينور التي هي الآن في قبضة ملكة انكلترا) فاعجبتهُ وطمع في اخذها فجعل يؤكد لهم مزيد صداقتهِ واستعدادهِ لمساعدتهم ولكي يجعلهم واثقين بكلامهِ اراد ان يثبت ذلك العهد بعلامة ظاهرة حسب عوائد الشرق فنزع عمامتهُ عن راسهِ ووضعها على راس محمد شاه بعد ان اخذ عن راس محمد شاه عمامتهُ ووضعها على راسهِ فكان ذلك التبادل نهاية سلبهِ

وكان اول من دخل من الافرنج الى بلاد الهند البورتوغاليين سنة ١٤٩٨ وهم الذين اكتشفوا راس الرجا الصالح ودعوهُ بهذا الاسم وفي اقل من خمسين سنة صار لهم املاك واسعة ومدائن كثيرة في بلاد الهند ثم امتدوا الى اطراف السند وصار لهم عدة مراكز تجارية في بنكال ولكنهم اذ لم يحسنوا السلوك مع الاهالي مقتوهم واشهروا لهم الاذية والضرر . ولما انضمت البورتوغال الى اسبانيا سنة ١٥٨٠ وكانت يومئذٍ اسبانيا مضطربة الاحوال من جهة املاكها الاميركانية اهملت الالتفات الى حفظ املاكها الهندية فكان ذلك من اقوى الاسباب لخسرانها اياها تدريجًا

ثم بعد البورتوغاليين دخل الفلمنكيون الى الهند في بداية القرن السابع عشر واستولوا على بعض شطوطها واستخلصوا من البورتوغاليين سيلان وكوشين ونيفا باتام وغيرها لكنهم التزموا اخيرًا ان يتنازلوا عن اغلب تملكاتهم الى الانكليز الذين دخلوا تلك البلاد من بعدهم

اما بداءة دخول الانكليز دخولاً حقيقيًا فكان سنة ١٦٠٠ حين تشكلت شراكة تجارية للمتاجرة في الهند الشرقية وكانت اول اقامتهم في سورات . وفي سنة ١٦٤٠ سمح لهم احد ولاة الهند بقطعة ارض تبلغ مساحتها خمسة اميال مربعة فابتنوا لهم فيها مركزًا ثم اشتروا من والٍ اخر بعض اراضٍ واقاموا فيها عدة مراكز وكانت هذه المراكز اشبه بخانات لوضع بضائعهم ومتاجرهم وذخائرهم الحربية لانهم كانوا دائمًا يتحفظون على انفسهم حذرًا من غزوات الاهالي والافرنج الاجانب . ولامرٍ يريدهُ الله حدث في اواسط القرن السابع عشر ان ابنة الشاه جهان في مدينة دهلي احترقت وهي بالقرب من النار فارسل الشاه يطلب طبيبًا من الانكليز فارسلوا لهُ جراحًا ماهرًا فعالجها حتى شفيت فسالهُ ابوها ان يطلب منهُ ما يريد ليكافيهُ على خدمتهِ فطلب اليهِ امرًا باعطاء الرخصة للشراكة ان توصل تجارتها الى كل اقطار السلطنة بدون ان تدفع عليها رسمًا ثانيًا خلاف المدفوع في سورات وان ياذن لها

ايضًا بانشاء مراكز جديدة . فصادف هذا الطلب مزيد القبول وصدرت الاوامر باجرائهِ من ذلك اليوم . وسنة ١٦٦٢ وهب الشاه جهان المذكور كارلوس الثاني ملك انكلترا جزيرة بومبي فتنازل عنها الى الشراكة تحت مبلغ معلوم فنقلوا اليها من سورات وجعلوها مركزهم الاكبر بعد ما اقاموا فيها حاكمًا انكليزيًّا

ومع ان الفرنساويين لم يدخلوا الهند الا بعد الانكليز بخمسين سنة فانهم في وقتٍ قريب استملكوا فيها املاكًا وكانت قوتهم وسطوتهم تفوقان قوة ونفوذ الانكليز في اول الامر اذ انهم قهروهم اكثر من مرةٍ واخذوا منهم بعض املاكهم وبقيت في ايديهم مدةً حتى استرجعوها فيما بعد . وكان للفرانساويين مزيد الاعتبار ونفوذ الكلمة بين الاهالي اكثر من غيرهم من الافرنج لانهم كانوا يتداخلون في امورهم الداخلية ويتواسطون فض مشاكلهم ويتحزبون في اغراضهم فكانت الاهالي تودهم وترغب في مصاحبتهم ولكن بعد ملاقاة الانكليز للهنود في حرب بلاسي واستظهارهم عليهم بثلاثة الاف مقاتل تحت قيادة الرئيس كلايف بينما كان عدد الهنود خمسين الفًا ارتفع شانهم بين الاهالي ووقعت هيبتهم في قلوب الجميع فكان نجمهم في صعود بينما كان سعد الفرنساويين في هبوط وسقوط ولاسيما بعد انتصارهم عليهم في ١٢ ك٢ سنة ١٧٦١ واسرهم حكمدارهم موسيو لالي واستيلائهم على بونديشيري عاصمة مدنهم التي ارجعوها لهم عقب وقوع الصلح . فمن ذلك الوقت تناقصت السطوة الفرانساوية في بلاد الهند واخذت شوكة الشراكة الانكليزية تقوى شيئًا فشيئًا حتى استولت على الجانب الاكبر من بلاد الهند وصارت ذات اهمية عظيمة . فما اضاعتهُ انكلترا في القرن الثامن عشر من املاكها الاميركانية استعاضتهُ في الوقت ذاتهِ من بلاد الهند ولكن بعد مشقات كثيرة ونفقات وافية لان الفتن الداخلية كانت بلا انقطاع وعصيان الاهالي كثيرًا ما زعزع اركان الشراكة

واستمرت حكومة الهند في ايدي الشراكة الى سنة ١٨٦٠ حين استلمت

زمامها الحكومة الانكليزية وهي الآن في يدها وتحت تصرف احكامها وايرادها السنوي يعادل ايراد انكلترا الذي يجاوز سبعين مليون ليرة انكليزية

الفصل الثالث عشر

في باقي ممالك اسيا

كان كلامنا في ما سبق على اشهر دول اسيا وممالكها واذ وجد ايضًا عدَّة ممالك في هذه القارة راينا ان نتعرض لذكرها بوجه الاختصار فنقول . من جملة هذه الممالك طوائف السكيثيين اقاموا في الجهة الشمالية من اسيا وكانوا شعوبًا متوحشين اتصفوا بالقوة وشدة الباس ولاسيما رمي النبال وقد توغلت جموعهم في جهة الجنوب وافتتحوا عدة ممالك في تلك الاطراف واستولوا عليها وقد اجتهد كثير من ملوك اوروبا واسيا ان يُدخلوا هولاء القوم تحت الطاعة والانقياد فاقاموا عليهم حروبًا كثيرة ولم ينجحوا . ومن هذه الامة تكونت مملكة الفرثيين التي امتدت سطوتها فيما بعد الى بلاد فارس وغيرها من الممالك واستمر حكمها نحو خمس مئة سنة وذلك من سنة ٢٥٠ ق م الى سنة ٢٥٠ بعد المسيح

وعلى توالي الايام سميت اراضي السكيثيين بلاد التتر وهم شعوب كثيرة متفرقة ولكنهم ليسوا احسن حالة مما كانوا عليهِ في الايام السابقة وهم ينقسمون الآن الى ثلاثة اقسام . القسم الاكبر منها في الاقسام الشمالية من اسيا وهو تحت تسلط المسكوب وطوائفهُ متعددة يجولون بين تلك البراري الشاسعة وليس

لنا من امرهم تاريخٌ يذكر والقسم الاوسط تحت حكم الصين واما القسم الاصغر فذو حرية واستقلال لا يتسلط عليهِ احد وهو المعروف ببلاد التتر المستقلة واهلهُ من قبائل مختلفة وكل قبيلةٍ منها يتسلط عليها امير جنسها واما دياناتهم فمنهم مسلمون وشيعة يضاهون العجم مذهبًا

وقد اشتهر من رجال هذه البلاد جملة اشخاص يستحقون الذكر منهم ترموجين الذي سمي جنكيزخان من قبيلة المغول كان ابوهُ حاكمًا على بعض قبائل تترية عند شاطي نهر سلنيكا يبلغ عددها ٣٠ او ٤٠ الف عائلة وبعد وفاة ابيهِ سنة ١١٦٤ اظهرت الرعايا العصيان فنهض جنكيز لمحاربتهم وهو يومئذٍ ابن ١٣ سنة واخذ يخضعهم شيئًا فشيئًا حتى تغلب عليهم جميعًا فعظم امرهُ واكتسب شهرة عظيمة ونودي باسمهِ خانًا على المغول والتتر وسمي جنكيز خان الذي تفسيرهُ خان الخانات ومن جملة حروبهِ انهُ غزا بلاد الصين الشمالية وافتتحها ثم زحف بسبع مئة الف مقاتل من المغول والتتر على بلاد الاسلامية فاخضعها وخرب مدنها وامتدت غزواتهُ من ولايات العجم الغربية الى شطوط نهر الفولكا واقصى سواحل بحر الخزر. وكان جنكيزخان المذكور اشد قساوةً ممن سبقهُ وخلفهُ من الملوك الظالمين ومما يحكى عنهُ انهُ امر مرةً بقتل مئة الف رجل من اسراهُ في يوم واحد وينسب اليهِ هلاك ١٤ مليونًا من الجنس البشري الذين قتلوا بحروبهِ وغاراتهِ المتتابعة. وقام بعد جنكيزخان اولادهُ الاربعة فحاربوا ممالك اسيا وافتتحوها تقريبًا واوصلوا فتوحاتهم الى قسمٍ كبير من اوروبا ولا سيما كولي خان حفيد جنكيزخان فانهُ كان قد اكمل افتتاح الصين وقرض منها فضلات العائلة الملكية الصينية ثم بنى مدينة باكين وجعلها عاصمة المملكة واخضع بنكال وتيبت وضرب على اهاليها الخراج. ومن ذرية جنكيزخان الملك هلاكو الذي قلب سلطة الخلافة الاسلامية وخرب مدينة بغداد ثم غيرهُ من الملوك الذين اخضعوا كثيرًا من البلاد الاوروبية بواسطة قواد جيوشهم ولكن لم يمضِ كثيرٌ حتى ان تلك القواد خلعت طاعة ملوكها واستقلت

في الولايات التي افتتحها ورفضت العبادة الاصنامية وعوائد المغول والصيين القبيحة واعتنقت الديانة الاسلامية

ومنهم ايضًا تيمورلنك اي تيمور الاعرج ولد في مدينة القش بالقرب من سمرقند من اعمال بخارا سنة ١٣٣٦ وكان نسبهُ متصلاً بجنكيزخان من النساء ولما اشتهر امرهُ اقام عمهُ واليًا على احكام القش وسار لافتتاح الممالك واخذ حينئذٍ يتقدم شيئًا فشيئًا حتى ساد واستولى على كثير من الاقطار . وسنة ١٣٧٠ سمَّى نفسهُ خانًا واخضع مدينة خوارزم وقشغر وجميع اطراف اسيا شرقي بحر الخزر ثم تغلب على بلاد ايران وما يليها ومنها تحول الى روسيا فنهب مدينة ازوف وهدمها ثم زحف بجيوشهِ الى الهند واجتاز السد وحارب الملك محمد الرابع تحت اسوار مدينة دلهي فهزمهُ وامتلك المدينة مع باقي الولايات التابعة لها ثم قصد بلاد سورية سنة ١٤٠٠ وافتتح حلب والشام وسائر المدن الشامية واستخلصها من يدي سلطان مصر ثم سار الى بغداد سنة ١٤٠١ فحاصرها وهدم ابراجها واوقع باهلها . ولما تمهدت لهُ ولاياتُ تلك البلاد نهض لمحاربة بني عثمان فحاربهم واستولى على امصارهم وقواعدهم واسر السلطان بيازيد في حربٍ دموية جرت بينهما في انقرة سنة ١٤٠٢ وسجنهُ في قفصٍ من حديد ومن هنا ك حول وجههُ الى الشرق قاصدًا بلاد الصين بمئتي الف مقاتل ولكنهُ مات على الطريق سنة ١٤٠٥ ومن اعمالهِ القبيحة انهُ امر باحراق مدن كثيرة منها الشام وبغداد ودلهي وفي هذه المدينة امر بخنق مئة الف من الاسرى وغير ذلك من الاعمال الفظيعة

ومن ممالك اسيا مملكة يابان على الجهة الشرقية من بلاد الصين هي مجموع جزائر في الاوقيانوس المحيط اعظمها جزيرة نيفون وعدد سكان هذه المملكة نحو ٢٦ مليونًا وهم في الاصل صينيون هاجروا بلادهم في الازمنة السالفة بسبب مغازي التتر وجور المغول واستوطنوا في هذه الجزائر ولذلك يشبهون اهل الصين في الهيئة والعوائد والدين . ومن اعظم مدنهم مدينة يدو وهي قاعدة

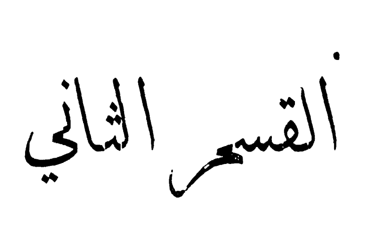
السلطنة وليس لبيوتها الا طبقة واحدة او طبقتان فقط بسبب الزلازل وميناؤها غير عميق لا يمكن للسفن ان ترسو الَّا على بعد خمسة فراسخ ويحيط ببلاط السلطان جدران من الحجر وخنادق وقناطر توضع وترفع عند الحاجة ومحيط ذلك البلاط خمسة فراسخ كل فرسخ مسير ساعة وبها ديوان طولهُ ست مئة قدم وعرضهُ ثلاث مئة ولها برج مربع سقفهُ من خشب الارز والكافور وهو مزين بثعابين مذهبة وتصاوير مزخرفة وفرشهُ محصر في حصر بيضاء مزينة بالفرش والمساند المشغولة بالذهب

واهل يابان بوجه الاجمال حسان المنظر وعندهم سهولة في حركاتهم وبنيتهم قوية ليسوا بالطوال ولا بالقصار ولونهم يضرب الى الاصفرار واحيانًا يميل الى السمرة ونساء اكابرهم لا يتعرضنَ للهواء والشمس من غير قناع. واوصاف الاهالي بوجه العموم تمتاز عن غيرها من الناس بعيونها فان شكل عين الواحد منهم يبعد عن الاستدارة فتكون العين مستطيلة صغيرة في الراس واجفان عيونهم مشقوقة شقًّا عميقًا واهدابهم اعلى من مكانها المعتاد عند غيرهم. واغلبهم عريض الراس قصير الرقبة غليظ الانف كانهُ مجدوع وشعورهم سوداء كثيفة برّاقة وهم يحلقون نصف شعر رؤوسهم والباقي يرفعونهُ الى وسط رؤوسهم على شكل العفرية (الشقطية) بخلاف الصينيين ويتّزرون في اسفارهم بمآزر ضخمة من ورق مدهون بالزيت. وتحيتهم عبارة عن انحنائهم عدة مرات كالركوع. ويحملون في ايديهم المراوح ويفتخرون بشدة تدقيقهم في النظافة. ومن عوائدهم انهم يحرقون اجسام الموتى من اعيانهم ويشهرون عيدًا يسمى عيد المصابيح كما يقع ذلك في بلاد الصين ولكنهم يضيفون اليهِ زيارة القبور في اوقاتٍ معلومة. والامر مجهول هل عرف الاقدمون شيئًا عن احوال هذه المملكة ام لا لان التواريخ لا تفيدنا عنها شيئًا وبقي وجودها مجهولاً للناس الى سنة ١٤٠٠ للمسيح حين اكتشفها الاوروبيون ولكن اذ لم يسمح للاجانب ان يدخلوها الَّا حديثًا كانت معرفتنا بها قليلة. والظاهر انهُ قد دخل هذه البلاد موخرًا بعض

التنوير لان ملكها شارع الآن في تحسين حالها واصلاحها وملتفت جدًّا الى ترقية اسباب المعارف والصنائع فيها وقد استجلب عدة معلمين ومهندسين من اميركا وفرنسا لفتح المدارس ونظم المعامل على اختلاف صنوفها وغير ذلك من الامور المتعلقة بنجاح البلاد

ومن ممالك اسيا ايضًا ارمينية وكانت في الازمنة القديمة مملكة عظيمة الشان يبتدي تاريخها من بعد الطوفان بزمنٍ يسير مؤسسها يافث بن نوح ومن اشهر ملوكها الملك هايكوس ثم ارمانياك ثم ارمايوس ثم آرام ثم الملك ابكاريوس المعروف بالابجر الذي كان في عصر المسيح واستمرت هذه المملكة في زهوها وعزها نحو الف سنة ثم تغلب عليها الماديون والفرس ثم اسكندر الكبير وبعد وفاتهِ تسلط عليها السريان الى ان تغلب عليها وزيرا الطيوخوس الكبير اللذان قاما على ملكها وخلعا طاعتهُ وعصياهُ وسنة ٢٢٣ ق م قسما المملكة بينهما الى قسمين فالقسم الواحد كان يدعى ارمينية الكبرى والآخر ارمينية الصغرى . وبعد ذلك بزمان تسلط عليها الرومانيون والعجم سنة ١٥٢٢ مسيحية ثم تسلط عليها آل عثمان ولم تزل خاضعة لهم الى الآن

ومن هذه الممالك تركيا في اسيا وسياتي ذكرها منفصلاً ان شاء الله تعالى عند ذكر دولة آل عثمان في اوروبا . وفي قارة اسيا ايضًا عدة ممالك غير هذه لم نتعرض لذكرها لعدم شهرتها كمملكة سيام وكوشن وبرمن وكابول وبلوخستان وغيرها من البلاد التي لا تهم معرفتها . وفي الاقسام الشمالية من اسيا تسكن طوائف من التتر التي بجولانها بين تلك البراري المتسعة في تلك القرون الماضية لم تترك لنا تاريخًا واضحًا واما الآن فهي تحت تسلط دولة المسكوب



القسم الثاني

في قارة افريقية

الفصل الاول

في جغرافية افريقية واهلها وهوائها

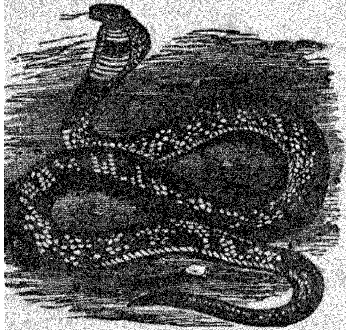
هذه القارة احد اقسام العالم الخمسة تبلغ مساحتها نحو ربع مساحة كل الارض يحدها شمالاً بحر الروم والاوقيانوس الاتلانتيكي وشرقًا برزخ السويس والبحر الاحمر والاوقيانوس الهندي وجنوبًا الاوقيانوس الجنوبي وغربًا الاوقيانوس الاتلانتيكي وكانت قبل فتح برزخ السويس ووصل البحر الاحمر ببحر الروم متصلة بقارة اسيا برًّا واما الآن فقد اصبحت جزيرة مكتنفة بالماء وهذا البرزخ اضحى خليجًا بعد ما كان قد شرع كثيرون في فتحهِ قبل المسيح بست مئة وعشر سنين ولم يتم هذا العمل العظيم حتى شرع فيهِ صاحب الحزم والهمة الخواجا فردينند دي ليسبس الفرنساوي بنفقة شراكة عمومية وذلك بعناية حضرة خديوي مصر وانتهى فتحهُ سنة ١٨٦٩ بحضور محفل عظيم من الملوك والامراء الاوربيين وهو يعد الآن من اهم واعظم الاعمال البشرية التي جرت

في الدنيا واصبح العالم الغربي متصلاً بالعالم الشرقي على اسهل واقرب طريق بعد تلك المسافة الشاقة والمدى الطويل

ولا يخفى ان في هذه القارة بلاداً كثيرة مجهولة الحال لا تُعرف على وجه الحقيقة وذلك لعدم امكان وصول ارباب الاكتشافات اليها نظراً لمخاطرها . وقد اجتهد كثيرون من السياح على معرفة اقاليمها واحوال اهاليها والوقوف على اراضيها المجهولة فقصدوها من بلاد بعيدة وتوغلوا في بطون اراضيها فمنهم من مات مريضاً ومنهم من مات قتيلاً ولذلك يُعتبر اغلب اهالي هذه القارة اقل تمدناً من سكان سائر القارات

ولكن سنة ١٨٦٦ ارسلت الحكومة الانكليزية الدكتور لفنستون السائح الافريقي الشهير لاجل اكتشاف باطن افريقية الى الجنوب من خط الاستواء ولاجل الوقوف على التجارة بالعبيد . ومن ذلك الوقت لم يظهر خبر عن السائح المذكور الى ان ذهب رجل اميركاني في طلبه اسمهُ ستانلي سنة ١٨٧٢ وبعد سفر طويل وجدهُ مريضاً في اوجيجي وكان قد فرغ زادهُ ومالهُ فبقي عندهُ مدة من الزمان وسافرا سوية في بحيرة تانكنيكا . ثم رجع ستانلي وبقي لفنستون يجول في تلك الاراضي الواقعة بين خط الاستواء وعشرين درجة من العرض الى الجنوب . وقد ظهر الى الآن من اسفارهِ ان البلاد التي في تلك النواحي مرتفعة عن البحر ارتفاعاً عظيماً ومشحونة بالبحيرات والانهر التي يستقصي نهر النيل اليها . وقد وجد التجارة بالعبيد هناك على شر حالة وبناء على ذلك ارسلت الحكومة الانكليزية حديثاً السير بارتل فرير الى سلطان زنجبار الذي يتعاطى شعبهُ هذه التجارة الفظيعة وبعد مناظرات طويلة عقدت معهُ عهداً على ابطالها كما انها سعت في ابطالها في بلاد مصر وغير اماكن من سواحل افريقية حتى يمكن القول ان الاتجار بالعبيد صار على وشك الزوال تماماً . وقد مات لفنستون بعد ذلك بسنين قليلة وكثر تردد ستانلي وغيرهُ الى باطن افريقية وعرف كثيراً من امورها بما ستاتي بفوائد جمّة للدين والدنيا

اما هواء هذه القارة فهو حارٌّ جدًّا نظرًا الى وضعها الطبيعي وهي قليلة الامطار والاشجار والجبال . واما صحاريها ورسومها فكثيرة جدًّا ويعسر المرور فيها وفي بعض الاماكن تهب ريح السموم وهي مضرّة جدًّا ولا سيما للحيوان والنبات . وفي اواسط افريقية كثير من الحيوانات البرية والوحوش الضارية كالاسد والنمر والفهد والضبع والفيل والكركدن اي وحيد القرن والزرافة . وفي اجامها انواعٌ من القرود والحيات العظيمة منها البواء وهو جنس كثير الضرر يبلغ طولهُ عشرين ذراعًا . وفي صحاريها كثير من النعام وانواع الايل والغزلان . وفي بحيراتها وانهرها التمساح وفرس البحر وفيها ايضًا اجناس عديدة من الطيور المختلفة



افعى من افاعي مصر السامة

اما عدد سكان هذه القارة فيبلغ تقريبًا مئة مليون نفس منهُ سودان وبرابرة واقباط وحبشة وغيرهم . وفي الصحراء الشمالية الكبيرة كثيرة من قبائل العرب الرُحَّل يجولون من مكان الى مكان بجمالهم وخيولهم في طلب الغزو والمرعى كما في بلاد العرب . والديانة العامة هي الاسلامية وبين السودان مذاهب مختلفة من العبادة الاصنامية . ومع ان اللغة العامة هي العربية توجد لغات كثيرة متنوعة في اواسط القارة

والمرجح ان اهل هذه القارة هم من نسل حام بن نوح الذي اتى وسكن ارض مصر بعد بناء برج بابل ومما يؤَيد ذلك قرب مصر الى بلاد شنعار ورغبة مصرايم ابنهُ ان يسكنها ويؤسس فيها مملكةً

وتنقسم هذه القارة الى عدة ممالك منها الديار المصرية التي اشتهرت قديمًا

اكثر من سواها من الممالك بالمعارف والفنون كما سياتي الكلام عليها في الفصل الآتي . ثم بلاد المغرب ويقال لها ايضًا بلاد البربر كتونس وطرابلس والجزائر ومراكش وغيرها ثم بلاد النوبة والحبشة والسودان في اواسط القارة وغيرها من الاقاليم مما لا يسعنا ذكرها في هذا المختصر

الفصل الثاني

في تاريخ مصر

الباب الاول

في جغرافية مصر

يحدُّ هذه البلاد شمالاً البحر المتوسط وشرقًا البحر الاحمر وخليج السويس وجنوبًا بلاد النوبة وغربًا الصحراء وبلاد برقة وهي على شكل وادٍ يكتنفهُ جبلان شرقي وغربي يتخللها نهر النيل من الجنوب الى الشمال ويصب في البحر المالح بقرب مدينتي دمياط ورشيد وهو نهر عظيم يصلح لركوب السفن يفيض مرةً في كل سنة في مدة معينة تقريبًا بين ١٥ حزيران واواسط ايلول فيبتدي النهر يزيد قليلاً قليلاً في مدة ثلاثة اشهر وفي ٥ اب تفتح الترع وتجري فيها المياه وتمتد الى داخل الاراضي البعيدة وتسقيها . ثم من تشرين الاول يبتدئ ينقص الى آخر ايار ولولاهُ لكانت ديار مصر في حالة تعيسة لقلة الامطار لانهُ لا يقع بها مطر الاَّ في الارياف والفرض البحرية ونادرًا في الجهة الجنوبية وقد وصف

هذا النهر بعض الشعراء فقال

كأنَّ النيل ذو فهمٍ ولبٍّ   لما يبدو لخير الناس منهُ
فيأتي حين حاجتهم اليهِ   ويمضي حين يستغنون عنهُ

وانقسمت مصر قديمًا الى ثلاثة اقسام كبرى . الاول مصر العليا اي الصعيد المتصل ببلاد النوبة التي قسمٌ كبيرٌ منها تابع احكام مصر وكانت قاعدتها مدينة ثيبة . ثم مصر الوسطى التي كانت عاصمتها مدينة منفيس الواقعة بقرب اهرام الجيزة تجاه مدينة القاهرة الحالية وقد اضحت الان خرابًا بعد ان كانت من اشهر مدائن العالم وكرسي الفراعنة في ذلك الزمان . ثم مصر السفلى المعروفة باسم ذلتا وسميت ذلتا لانها اذ كانت محصرة بين جدولين من النهر شرقًا وغربًا والبحر شمالاً صارت مثلثًا فاشبهت الحرف الرابع في اللغة اليونانية Δ وسميت باسمهِ . وكانت عاصمة هذا القسم مدينة هليوبوليس المحت وبنيت على اساساتها مدينة الاسكندرية ويتبعهُ ايضًا مدن اخرى شهيرة لا يسعنا تبيانها

اما تربة هذه البلاد فتعدّ من الدرجة الاولى في الخصب ومحاصيلها كثيرة اخصها القطن والحنطة والفول وقصب السكر وهي بالاجمال بلاد غنية جدًّا . اما عدد سكانها فيبلغ نحو ستة ملايين ويسكنها كثير من الاجانب والديانة الغالبة فيها الاسلامية ويثنيها القبطية . وعلى راي المورخين ان الاقباط هم المتنصرون من ذرية الامة المصرية القديمة واكثرهم يسكنون بلاد الصعيد ونوبية واغلبهم تجار وسماسرة وكتبة . واما لغتهم فقد تلاشت واندثرت في اواسط القرن السابع عشر ولم يبقَ من اثارها الاَّ بعض كتب فقط قلَّ من يفهمها وهم الان يتكلمون باللغة العربية ولهم بطريرك كرسيهُ مدينة جرجاء يدعى البطريرك الاسكندري والاورشليمي . وما زال القبط في هذه الايام على طريقة العهد القديم من جهة الختان

وفي هذه البلاد تأسست الرهبنة اولاً . فانهُ بسبب الاضطهاد الذي اثارهُ الامبراطور ديسيوس على المسيحيين في القرن الثالث فرَّ كثيرٌ منهم الى البراري

للتخلص من جور الحكام وكان من جملة النازحين رجل يقال له بولس من مدينة ثيبة انفرد بذاتهِ وانعكف على العبادة والاصوام فحُسب اول من ظهر فيهِ روح الرهبنة . ولكنهُ ظهر في اوائل القرن الرابع رجل آخر يدعى انطونيوس فبنى ديرًا وجمع فيهِ اناسًا ممن كانوا يميلون للاعتزال عن العالم ونظم لهم قوانين للسلوك بموجبها ولذلك سُمّي بابي الرهبان . ثم ان هذه الطريقة اخذت في الامتداد حتى اتصلت الى فلسطين وسورية بواسطة احد خلفاء انطونيوس وبالتدريج عمّت اكثر عالم النصرانية

الباب الثاني

في تاريخ مصر واهم الحوادث المتعلقة بفراعنتها من سنة ٢٢٠٠[١] ق م الى خروج الاسرائيليين

اما أخبار مصر القديمة وفراعنتها فمحاطة بظلمة كثيفة وقلَّما يوثق بها

(١) انهُ اذ لم يتفق علماء التاريخ حتى الآن من جهة بداءة التاريخ المصري يعسر علينا تعيين تاريخ ما لاعصرهِ الاولى غير اننا نقول انهُ اذا سلمنا بسلسلة تتابع الدول المصرية على ما جاء بهِ مانيثو المورخ المصري وبالكتابات الهيروغليفية المنقوشة على الآثار القديمة التي يظهر انها توافقهُ نضطرّ ان نرجع كثيرًا الى وراء التاريخ الدارج الذي يجعل مجيء المسيح ٢٣٤٨ سنة بعد الطوفان والمدة من الخليقة الى المسيح ٤٠٠٤ سنوات فلا يخفى ان التاريخ الجاري قائم على مجموع انسابٍ مختلفة ذكرت التوراة خاصةً في سفر التكوين مستخرج من اعمار البطاركة ولكنهُ امرٌ معلوم ايضًا ان كل درجات الانساب لم تكن ضرورية الذكر في جداول اليهود كما يتضح من سلسلة نسب المسيح في لوقا ص٣:٣٦ حيث يذكر قينان مع انهُ قد اهمل ذكرهُ في التكوين وكما يظهر ايضًا من ترتيب متى عهود نسب المسيح اذ يجعل المدة من ابرهيم اليهِ ثلث مرات ١٤ جيلاً . ثم اذا حسبنا المدة الفاصلة بين الطوفان وولادة ابرهيم من مواليد واعمار البطاركة العشرة

الاختلاف الواقع في عدد اسماء ملوكها وتواريخها . اما اسماء الملوك وعدد سني تسلطهم على رواية مانيثو المورخ المصري فلم تكن جميعها متتابعة بل كان ملوك كثيرون في عصر واحد منهم من كان مستقلاً باقليم ومنهم من كان منفرداً بمقاطعة اخرى ودُعوا جميعهم فراعنة جمع فرعون وهي كلمة مصرية اصلها فاراه ومعناها نور الشمس . وقد عد المورخون دولها قبل فتوح الاسلام فكانت نحو ثلاثين دولة فالدولة الاولى كانت قبل المسيح بنحو ٢٢٠٠ سنة واول ملوكها منا المسمى بالتوراة مصرايم فكان معتبرًا بين شعبهِ ومهيبًا عندهم حتى انهم قدموا لهُ العبادة كالهٍ وهو الذي بنى مدينة منفيس وحوَّل النيل عن مجراهُ الاصلي واصلح احوال الرعية بتحسين الزراعة ونظم القوانين والاحكام وكانت مدة حكمهِ نحو ٦٢ سنة . وتملك بعدهُ ابنهُ اثوثيس ويقال انهُ تولَّى على مصر العليا او الصعيد مدة ٣٠ سنة في ايام ابيهِ وحكم بعدهُ ٢٧ سنة وهو الذي شرع في تزيين مدينة منفيس وتحسينها وبنى فيها الهياكل والقصور المشيدة وفي ايامهِ كانت الدولة الثانية والثالثة متسلطتين على بعض اطراف المملكة . وذكر مانيثو انهُ في حكم فرعون فيخوس الملك الثاني من الدولة الثانية تعين الثور ابيس الهًا في منفيس وبعد موت فيخوس المذكور تولى بوسيريس الذي بنى مدينة ثيبة في بلاد الصعيد المدعوة الان لُقصر ابي الحجاج وجعلها تخت الملك وكانت من اعظم مدائن مصر في الزمان القديم

اما الدولة الرابعة فكان سرير ملكها في مدينة منفيس . ومن مشاهير

المتسلسلين من سام (تك ١١ : ١٠ الى ٢٦) نجدها حسب النسخة العبرانية لا تتجاوز ٣٥١ سنة حال كون النسختين السامرية والسبعينية تتفقان بجعل تلك المدة ٩٤٢ سنة . فبناء على ذلك لا يمكن الاعتماد على تلك السلاسل النسبية ولا اعتبارها جداول اصلية لتاريخ العالم العام لان النبي موسى لم يقصد فيها ضبط تاريخ عمومي للخليقة ولا ان يحدد زمن الطوفان بالنسبة الى الزمن الذي عاش هو فيهِ بل قصد ذكر ملخص نسب المخلص الموعود بهِ . ولكن مع كل ذلك قد استنسبنا ان نتبع في هذا الكتاب التاريخ الماخوذ عن الجداول الموسوية لنتفق مع من اخذنا عنهم اقوالنا

فراعنتها الملك شوري ومنقاري وسوفيس الاول ثم سوفيس الثاني وهو اخو سوفيس الاول ثم الملك شوفو واخوهُ نوشوفو وهما اللذان بنيا الهرم الاكبر في ارض الجيزة وملكا معاً كما يظهر من كتابة اسميهما المنقوشة على بعض حجارة الهرم المذكور وقد وجد فيهِ مدفنان لهما وهما غرفتان متقاربتان في جوانب ذلك الهرم واما الملك منقاري فقد وجد اسمهُ في الهرم الثالث وتابوتهُ الآن بين الآثار القديمة في مدينة لندن

واما فراعنة الدولة الخامسة فكانوا تسعة ملوك اشهرهم أُسركيف وشافري ونفراكريس اما الملك شافري فهو الذي بنى الهرم الثاني ولكن نُسب الى سوفيس الثاني غلطًا

ومن ملوك الدولة السادسة الملكة نيكتوريس وكانت من اجمل نساء عصرها حسنًا واشهرهنَّ فضلاً وكمالاً قيل كان لها اخ قتلهُ بعض رجال دولتها بغضًا وحسدًا فاحتالت عليهم الى ان جذبتهم الى قصر لها تحت الارض بقرب النيل بداعي وليمة اعدتها لهم فلما التهوا بالاكل والشرب امرت بان ينساب عليهم ماء النهر فغرقوا جميعًا

وفي ايام الدولة الثانية عشرة صارت مصر مملكة واحدة في دار ملكٍ واحدة وهي مدينة ثيبة التي كانت تختًا لاحدى الدول واول من استقل بالمملكة وتغلب على باقي ولاياتها اوسيرطاسن الثالث من ملوك الدولة الثانية عشرة والبعض يظنون انهُ سيزوستريس ولكن اليونان يطلقون اسم سيزوستريس على رمسيس الثاني احد ملوك الدولة التاسعة عشرة كما سياتي البيان . والى هذا الملك يُنسب تاسيس مدينة الكرنك في بلاد الصعيد وافتتاح بلاد الحبشة والعبيد . ثم خلفهُ عامونهي الثالث الذي اقام الابنية العظيمة في اقليم الفيوم ورسم عليها اسمهُ وكانت مدة ملكهِ اربعًا واربعين سنة

اما ملوك الدولة الثالثة عشرة والرابعة عشرة فلا يوجد لها اخبار صريحة حتى ان جميع مولفات المورخين قد خلت من ذكر اخبارها وتفاصيل احوالها .

واما الدولتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة فاصلهما من مدينة ثيبة التي كانت تحت حكمها وكان آخر ملوك الدولة السادسة عشرة يدعى طيماوس وفي ايامهِ كانت اغارة الملوك الرعاة على مملكة مصر وهي الدولة السابعة عشرة العربية المعاصرة للدولة السابعة عشرة المصرية الملكية

ان افتتاح الرعاة بلاد مصر هو حادثة كثيرة الاهمية في التاريخ المصري وقد وقع الاختلاف بين المورخين واهل التحقيق من جهة هولاء القوم فبعضهم يجعلهم من الامة العبرانية وبعضهم يقول انهم من اهل فينيقية ولكن هذه النصوص لا تطابق هيئة اشكالهم المرسومة على الاثار المصرية لانهم كانوا يصوّرن على الاعمدة والصخور كشعبٍ موسومة اجسادهم بالوشم الازرق ومتشحين بجلود غنم فهذه الاشارات تدل على امةٍ عربية لا على شعوب عبرانية او فينيقية ولا سيما ان دولتهم كانت تسمى هيك سوس في اللغة المصرية اي الملوك الرعاة لان لفظة هيك كانت تستعمل عند قدماء المصريين بمعنى الملك ومعنى سوس الرعاة فاذا زيد عليها واوٌ وقيل سوسو كانت بمعنى العرب . وخلاصة الكلام فيهم انهُ في زمن الملك طيماوس احد ملوك الدولة السادسة عشرة جاء الى مصر طوائف مختلفة تحت راية الوليد بن دومغ وهو الذي يسمى عند اليونان سلاطيس فحارب مصر السفلى والوسطى وتغلب عليها بعد هجمات كثيرة وحروب هائلة ولما استقر بالولاية احرق المعابد والهياكل وبنى القلاع والحصون وشحنها بالعساكر ومهمات الحرب خوفًا من هجوم المصريين وغيرهم من الطوائف الاجنبية على البلاد وجعل مدينة منفيس تخت المملكة وانتقل ملك مصر الى الملوك الرعاة ما عدا بلاد الصعيد فانها بقيت مستقلة تحت حكم العائلة الملكية المصرية في مدينة ثيبة التي هي دار الفراعنة . وفي ذلك الوقت كان في الديار المصرية مملكتان وهما مملكة الفراعنة ومملكة الملوك الرعاة المتغلبين في منفيس . وكان المصريون يكرهونهم وينفرون منهم لقساوتهم وكثرة جورهم واحتقارهم الديانة المصرية واستمرت احكام البلاد في ايديهم نحو ٢٦٠ سنة وقال بعضهم ٥١١ سنة ويصعب

تعيين وضبط تاريخ مدقق لتلك الاعصار الاولية لعدم اتفاق المورخين في ذلك ولعل الاول هو الاصح وما زالت البلاد تحت تسلطهم حتى استخلصها منهم فرعون اموسيس بعد وقائع وحروب متعددة

وتولى بعد اموسيس المذكور ابنهُ امنوفيس الاول نحو سنة ١٨٠٠ ق م وهو راس الدولة الثامنة عشرة فاعاد كرسي المملكة في منفيس واستقل باحكام مصر مع مضافاتها ولواحقهـا . وفي ايامهِ وجد كثيرٌ من صور الخيول منقوشة ومرسومة على الحجارة والصخور والمظنون ان هذه الحيوانات لم يكن لها وجودٌ قبل دخول الرعاة الى مصر ولكن هم الذين ادخلوها لانها لو كانت موجودة قديمًا لكان لا بد من نقشها مع باقي الحيوانات التي كانت الاهالي تعتني برسمها وقد كثر هذا النوع من الحيوان في تلك البلاد حتى صارت التجار تستجلبهُ من الديار المصرية الى الاقطار الشامية في ايام الملك سليمان بن داود . ومما يستحق ان يذكر انهُ وجد في هذه الايام تابوت والدة هذا الملك ومن داخلهِ قلادة وسلسلة من الذهب مع سيف وتاج عليهِ تمثالان من الذهب وهو الآن محفوظ في بيب الاثار القديمة ببولاق وبالجملة قد تحسنت مصر في ايام هذا الملك وسرَّت الناس باحكامهِ . ومن آثار هذا الملك الرواق الشهير الموجود في هيكل الكرنك الذي هو من ابدع الابنية القديمة ولم يزل الى الآن اسمهُ مرسومًا على القناطر القرميدية التي بنواحي ثيبة وصورتهُ في قاعة التصاوير الملكية بالصعيد وبجانبهِ ملكة حبشية ومن ذلك يستدل على ان المصريين كانوا يتزوجون بالسودان

ومن ملوك هذه الدولة فرعون طوطميس الثالث ملك سنة ١٧٥١ ق م وكان من عظام ملوك الدولة الثامنة عشرة لانهُ فتح مدنًا كثيرة اكثر من جميع سلفائهِ ومن جملة اثارهِ المسلَّة التي نُقلت الى الاسكندرية والمسلَّة التي هي الآن في القسطنطينية واخرى في رومية مكتوب عليها اسمهُ ولهُ ايضًا آثار اخر عظيمة منها الرواق الملكي الموجود في الكرنك وصورتهُ هنا لك ايضًا . وهو الذي بيع

يوسف الى مصر في ايامهِ على ما يُظن وفسَّر لهُ احلامهُ المذكورة في الاسفار الموسوية وتقدم في بابهِ تقدمًا عظيمًا حتى صار صاحب الحلّ والربط

وقد اختلف المورخون من جهة شخص فرعون يوسف من هو من الفراعنة فزعم البعض انهُ كان من الملوك الرعاة الذين تغلبوا على مصر واسمهُ الريان بن الوليد المعروف عند اليونان باسم ابي فاس وقال احد المتاخرين ان هذا الزعم لا يصح نظرًا لتقادم عهد تلك المدة والاصح ان دخول يوسف الى مصر كان بعد انقراض دولة الرعاة . ويؤيد ذلك كلام مانيثو المورخ اذ قال في كلامهِ على مدينة منف وعاش بها يوسف وتسلط على البلاد في زمن اقدر واعظم فراعنة المملكة الجديدة بعد نفي الرعاة وخروجهم من البلاد . ثم من قصة يوسف المذكورة في التوراة نرى ان مصر كانت في ذلك الوقت مملكة مستقلة بذاتها وان استعدادات فرعون واحتياطاتهِ في سني المجاعة يتضح منها ان رياستهُ كانت ممتدة على كل بلاد مصر كما يتضح من كلام يوسف لاخوتهِ بقولهِ لهم ان الله قد جعلني ابًا لفرعون وسيدًا لكل بيتهِ ومسلطًا على كل ارض مصر . والمعلوم من التواريخ ان دولة الرعاة عند ما استظهرت على الديار المصرية لم تتغلب على كل اقطار المملكة بل على اسافلها واريافها فلو فرضنا ان ذلك الملك كان من طائفة الرعاة كما توهمهُ اكثر المورخين لما قال ليوسف اني جعلتك مسلطًا على كل ارض مصر لان احكامهُ لم تكن ممتدة على كل ارض مصر بل كانت محدودة من شطوط بحر الروم الى اطراف بحر السويس ما عدا بلاد الصعيد التي هي اكبر اقسام مصر واعظمها . ومن كلام فرعون ليوسف حيث يقول ان علمت انهُ يوجد بين اخوتك احد يحسن المرعى فاجعلهم رعاةً ورؤساءَ على مواشيَّ يستدل على انهُ لم يكن بين عبيد فرعون من يحسن تربية المواشي ولذلك اختار الملك اخوة يوسف ليس فقط لمهارتهم بل ليعلّموا المصريين تلك الصناعة . فلو كان فرعون من ملوك العرب الرعاة لوجد في قومهِ من العرب او العمالقة من هم اخبر وادرى من اخوة يوسف

بسياسة المواشي فيتضح مما تقدم ان فرعون يوسف لم يكن من ملوك العرب او العمالقة بل كان من العائلة المصرية

ومن ملوك الدولة الثامنة عشرة امنوفيس الثالث الملقب عند اليونان بالمنون وهو من اشرف فراعنة هذه السلسلة ولهُ صيتٌ عظيم في الاقطار المغربية قيل انهُ لم يكن من جنس المصريين بل انهُ اغتصب المملكة وتسلط عليها بمداخلتهِ مع احد الفراعنة بالزيجة ومما يؤيد ذلك ان قبرهُ الذي في مدينة ثيبة منفردٌ عن قبور باقي الفراعنة . وكان قد ادعى لنفسهِ الالوهية وانشأ هيكلاً على ميسرة النيل تجاه ناحية ثيبة وقد تخرب الآن وانهدم ولم يبقَ من اثرهِ الَّا الصنم الكبير وهو عبارة عن صورة هذا الملك

وكان المصريون يعبدون هذا الصنم ويعتقدون انهُ كل ما اشرقت الشمس يسمع منهُ صوت . فكان الناس يتاثرون من ذلك ولا يعلمون السبب وظنَّ بعض الرومان واليونان ان مصدر هذه الاصوات كان من اثر الندى في الليل وانهُ عند شروق الشمس وارسال اشعتها اليهِ يُسمَع منهُ هذا الصوت من اثر الحرارة في الحجر غير ان الامتحان في هذه الايام كشف الحجاب وذلك ان السير كردنر ويلكنسون الانكليزي لما اتى للفرجة على هذا الصنم وجد في جوفهِ حجرًا



كاهن مصري

اذا ضرب بهِ سُمع لهُ طنين وتكتكة . فكان الكاهن يدخلهُ في وقت السحر بحيث لا يراهُ احد من الشعب ويقرع صدر الصنم بذلك الحجر وكان الكهنة يفعلون ذلك لاجل خداع امتهم بهذه الاحتيالات ويجعلونهم يصدقون بالوهية الصنم المذكور وبقيت اكاذيبهم مستترة اكثر من ثلاثة الاف سنة حتى جاء

ويلكنسون المذكور وكشف حجابها وخزعبلاتها المستترة

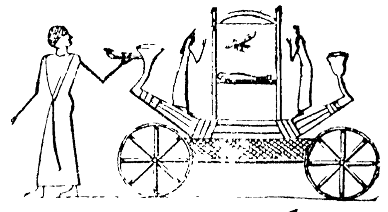
ومن اشهر فراعنة مصر الملك رمسيس الثاني المشهور عند اليونان باسم سيزوستريس وهو الملك الثالث من فراعنة الدولة التاسعة عشرة وكان ملكًا عظيمًا ظافرًا كثير المغازي والغارات قد ملأ مشارق الارض بصيت فتوحاتهِ وارهب مغاربها بهيبة باسهِ وسطواتهِ ولم يكن احد قبلهُ من ملوك مصر عبر البحر الاحمر فجهز عمارة عظيمة نحو اربع مئة سفينة حربية وتغلَّب على سواحل هذا البحر وعلى جزائر بحر الهند . وامتدَّ ملكهُ من نهر الكنك في اسيا الى نهر الدانيوب اي الطونه في اوروبا وكان كلما فتح قطرًا واستولى على مملكة من الممالك شيد فيها هياكل واثارًا تدلُّ على نصراتهِ وفتوحاتهِ وابقى فيها فرقةً من الجنود المصرية ليستوطنوا فيها وينشروا بها دياناتهم وعوائدهم لتكون علامةً ظاهرة لتخليد ذكرهِ على مر الايام ورسم على تلك الاثار كيفية عبورهِ الى هاتيك البلاد ونقش تاريخ استيلائهِ على ممالك الدول ولم يزل بعضها باقيًا الى الآن

وقد اقام سيزوستريس في مصر هياكل عديدة من اموال الغنائم التي سلبها من الامم حتى لايكاد يوجد في وادي النيل اثر من الابنية القديمة الاَّ وعليها اسمهُ ورسمهُ وشيد ما يلزم من الجسور والقناطر والترع والخلجان لمنفعة البلاد ورفع الاراضي المنخفضة التي يفسدها فيصان النيل بحيث لايكون للماء سلطة عليها وبالجملة قد وصلت مصر في ايامهِ الى اقصى درجات الرفعة والمجد وزهت ايضًا بالعلوم والفنون وهو الذي قسم المملكة الى ستٍّ وثلاثين ايالة واقام على كل ايالة نوابًا لاجل جمع الجزية وهو الذي رسم صورة الخارطة على ما قيل وصوَّر فيها صورة المدن التي افتتحها ليبين لاهل مصر عظم ملكهِ واتساعهِ . وكان فيهِ تيهٌ وتعاظم حتى انهُ كان اذا ركب في موكبٍ لزيارة المعابد او التنزه ياتي ببعض الملوك الذين كان قد اسرهم ويلبسهم ثيابهم الملكية ثم يربطهم كالخيل اربعة اربعة ليجروا المركبة . ولكن بعد رجوعهِ من ذلك

الموكب كان يكرمهم ويحسن اليهم . بئس الكرامة والاحسان بعد تلك المعاملة



مركبة مصرية بعجلتين



مركبة مصرية باربع عجلات

وذكر المورخون انهُ لما استولت دولة الفرس على مصر كان في رواق الصور الملكية بمدينة ثيبة بالصعيد صورة سيزوستريس فلما راها داريوس ملك الفرس اراد ان يضع صورتهُ في هذا الرواق فوق صورة سيزوستريس المذكور فغضب رئيس الكهنة المحافظ على تلك الصور من قصد الملك داريوس وقال لهُ بكل جسارة لا يجوز لاحد من الملوك ان يعلو على رمسيس الاكبر الاَّ من ساواهُ في المآثر والاعمال العظيمة فلم يغضب داريوس من كلامهِ بل اجابهُ قائلاً انهُ ان عاش عمر سيزوستريس ليجتهدنَّ ويفعل لمصر من المنافع ما فعلهُ هذا الملك العظيم حتى لا يكون دونهُ في الشهرة ورفعة المقام . وعاش سيزوستريس عمرًا طويلاً وكانت مدة حكمهِ على ما رواهُ مانيثو المؤرخ ٦٣

سنة وقال يوسيفوس ٦٦ سنة وكان قد عمي في آخر حياتهِ وقتل نفسهُ بيدهِ والسياح في ايامنا هذه يرون اسمهُ وتاريخ حروبهِ ونصراتهِ مصورة ومنقوشة على حيطان القصور والهياكل والاعمدة في النوبة والكرنك وثيبة

وتولى بعدهُ ابنهُ منفطا الثاني سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ولهذا الملك ابنية ومآثر كثيرة في الديار المصرية وكانت مدة حكمهِ تسع سنين وعلى راي بعض المدققين المتاخرين انهُ في ايام هذا الملك خرج بنو اسرائيل من مصر تحت رياسة موسى سنة ١٤٩١ ق م بعد معجزاتٍ كثيرة . ومما يدل على صحة كون هذا الملك هو نفس فرعون الخروج هو انهُ مات عن ابنة يقال لها طوسير وابنٍ قاصر يعرف بمنفطا الثالث فتولت البنت قبل اخيها لقصورهِ وتزوجت برجلٍ من الامراء يقال لهُ صفطا منفطا ومعناهُ عبد النار وكان زوجها يحكم عنها بالنيابة فجلوس هذه الملكة بعد موت ابيها على كرسي المملكة وزواجها برجلٍ ليس هو من بيت الملك مع كثرة العائلة الملكية من ذرية جدها سيزوستريس الذي كان قد خلف نحو عشرين ولدًا ذكرًا تدل دلالة قوية على وقوع حادثة عظيمة مهولة انقرضت بها ذكورهم وهي غرق فرعون وقومهِ . ومن العجب ان قدماء المصريين يكتمون حادثة غرق فرعون وينكرونها بالكلية خوفًا من الفضيحة والعار في القرون المستقبلة . ولا عجب من كتمان المصريين هذه الحادثة لاننا نجد في هذه الايام المتنورة من ينكرها ايضًا اذ ينسبون انفلاق البحر الى حادثة طبيعية وهي المد والجزر الدوريّان. وان قال قائل كيف يمكن ان يكون منفطا الثاني هو ذات فرعون الذي غرق في البحر الاحمر حال كون قبرهِ الان بين قبور الملوك الباقية بالصعيد في الجهة المعروفة بباب الملوك فنقول ان ذلك ليس ببرهان قاطع لتأييد الاعتراض لان وجود القبر لا يدل على وجود مقبور فيهِ فكثيرًا ما نرى مشاهد ومدافن في اماكن مختلفة على اسم انبياء واشخاص مشهورة ومدفنهم الحقيقي في غيرها من البلاد فانهُ يجوز ان يكون فرعون هذا قد بنى لنفسهِ مدفنًا في حياتهِ حسب

العادة التي كانت جارية بين ملوك ذلك العصر ولم يدفن فيهِ . وعلى فرض انكار هذه العادة فقد تقدم ان مورخي المصريين لم يذكروا شيئًا من هذه الحادثة بقصد اخفائها في العصور المستقبلة فلا يستعبد ان يكونوا قد بنوا لهُ قبرًا لاثبات دعواهم بهذا الانكار وتحميل من براهُ على تكذيب هذه الواقعة

الباب الثالث

في ولاية فرعون شيشق سنة ٩٩٠ ق م الى بداية حكم الدولة البطليموسية سنة ٣٢٣ ق م

ومن مشاهير فراعنة مصر الملك شيشق الاول وهو راس الدولة الثانية والعشرين واول ملوكها تملك نحو سنة ٩٩٠ ق م وكان سريرهُ بمدينة بسطة بالشرقية المعروفة الان بتل بسطة الذي هو بقرب الزقازيق وهو الذي هرب اليهِ يوربعام بن ناباط ملك اسرائيل مستغيثًا بهِ فنهض قاصدًا اورشلم بالف ومئتي مركبة وستين الف فارس وحارب رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وكان في جيشهِ قوم من السودان والحبشة فافتتح مدن يهوذا ونهب خزائن بيت المقدس وخزائن بيت الملك واخذ اتراس الذهب التي عملها سليمان ثم عاد الى مصر . وتاريخ هذا الفتوح لم يزل مصورًا على حيطان هيكل الكرنك العظيم ومكتوبًا عليهِ يهوذا ملكي اي مملكة يهوذا تحت قبضة يدي مع صور كثيرة من الاسرى الذين اسرهم في حربهِ ومغازيهِ وعلى صدورهم اسم جنسهم وبلادهم . وقد حكم هذا الملك ٢٢ سنة

وخلفهُ ابنهُ اوسرخان الاول وهو المعبر عنهُ في التوراة بالملك زارح الحبشي

حارب مملكة يهوذا بنحو مليون من النفوس وثلاث مئة مركبة حربية فسار ملك يهوذا لملاقاتهِ واصطفت جنود الفريقين في وادي صفد فالقى الله الرعب في قلوب المصريين فهربوا جميعًا والمراد بالحبشة في التوراة هم المصريون ومن معهم من الجنود الاجنبية الحبشية . وكانت مدة حكم هذا الملك خمس عشرة سنة . اما باقي ملوك هذه الدولة فقلما نعلم من انبائهم شيئًا . وقد وجد على بعض الاعمدة في مقبرة ابيس بالقرب من منفيس اسماء ملوكها وكيفية جلوسهم على الكرسي واحد بعد الآخر وهم

شيشق الاول	تكلاث الاول
اوسرخون الاول ابنهُ	اوسرخون الثالث
هرشاسب ابنهُ	شيشق الثالث
اوسرخون الثاني	تكلاث الثاني
شيشق الثاني	

ومن فراعنة مصر الملك سباقون وهو راس الدولة الخامسة والعشرين السودانية الحبشية التي كانت قد استولت على الديار المصرية سنة ٧١٤ ق م. ثم تولى بعدهُ اخوهُ سواخوس وهو المذكور في التوراة باسم سوا الذي استغاث بهِ هوشع ملك اسرائيل على شلمناصر ملك اشور . ثم ملك بعدهُ طهراق وكان ملكًا عظيمًا ظافرًا ذا شوكة وباس . وهو الذي زاد تحسين الهيكل الذي بنواحي جبل البركل في بلاد الحبشة ووسعهُ وزخرفهُ واضاف ايضًا قاعة عظيمة الى هيكل مدينة آبو في ثيبة حيث أخبار غلباتهِ على الاشوريين في ايام سنحاريب عند ما غزا الديار المصرية . وقد وجد في هذه الايام في آثار مدينة آبو تمثال هذا الملك منقوشًا عليهِ انهُ حكم الحبشة ومصر وجميع مدن افريقية وكانت مدة حكمهِ خمسًا وعشرين سنة وبهِ انتهت حكومة دولة الحبشة من بلاد مصر

ومن فراعنة مصر الملك بساماتيكوس الاول الذي يسميهِ هيرودوتوس

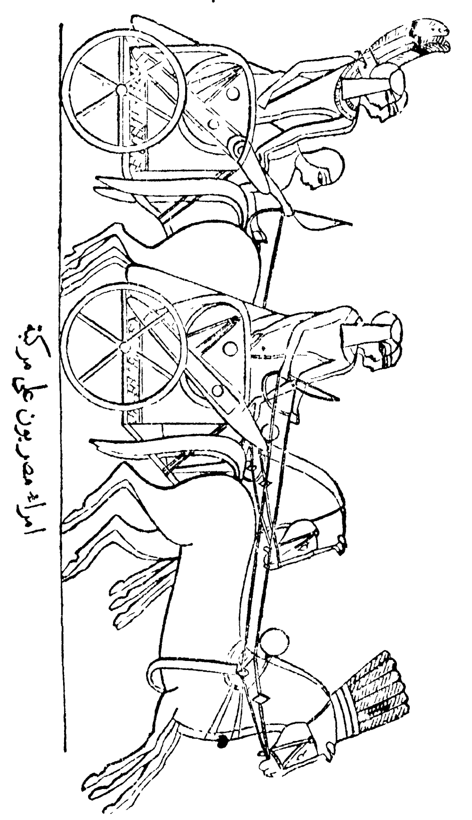
ابساميس وهو راس الدولة السادسة والعشرين كان ابتداء ملكهِ قبل المسيح بست مئة واربع وستين سنة وكانت مملكة مصر قد انقسمت قبل هذا الملك بين اثني عشر قائدًا من عظمائها فطرد القواد المذكورين واستقل بالمملكة وكان رجلاً حاذقًا محمود السيرة وتعتبر مدة ملكهِ مدة مهمة للغاية اذ في زمانهِ انتهى الابهام والالتباس التاريخي واشرقت شمس المعرفة الحقيقية في التاريخ المصري . وفي ايام هذا الملك شاع استعمال الكتابة بالاحرف الابجدية وانتسي بين الناس علم الكتابة المصورة وصارت مصر مملكة واحدة منتظمة قصبتها مدينة منفيس وفي ايامهِ بلغت بلاد مصر درجة سامية في التمدن والمعارف والغنى لانهُ اعتنى بتحسينها وتنظيمها وجدد معاهدات تجارية بينهُ وبين اليونان واهل صور وسهّل اسباب الاخذ والعطاء حتى صارت مصر مركزًا لتجارة الامم . وكان قد اتخذ من اليونان عسكرًا وجعل منهم قوادًا ورؤساء وقلدهم اسنى المناصب وخالف في ذلك عوائد من تقدمهُ من الفراعنة وبهذه الوسيلة ازدادت جنود مصر غيظًا وحنقًا عليهِ . وقيل انهُ لما حارب فلسطين جعل جنود اليونانيين في الميمنة وترك للمصريين الميسرة التي كانت علامة الذل والاهانة فغضب المصريون من جراء ذلك وحقد اكثرهم عليهِ وارتد منهم جماعة الى مصر . ولهذا الملك اثار كثيرة في الديار المصرية من الابنية المزخرفة والاعمدة الجميلة في ثيبة والكرنك وقد زيد الهياكل باحسن النقوش واجملها وكانت مدة ملكهِ نحو ٥٤ سنة

ثم تولى بعدهُ ابنهُ نخو سنة ٦١٠ ق م وكان كابيهِ لهُ عناية واهتمام بتحسين احوال الرعية وتوسيع دائرة التجارة وهو الذي شرع في ايصال نهر النيل بالبحر الاحمر بواسطة ترع طولها ٩٦ ميلاً ولكنهُ بعد ما اهلك مئة وعشرين الف نسمة من قومهِ في هذا العمل تركهُ غير كامل . وكان ملكًا مظفرًا افتتح ممالك كثيرة واستولى على اكثر مدائن اسيا وانتصر على ملك بابل وعند رجوعهِ عزل يهوياحاز بن يوشيا ملك اورشليم وولى مكانهُ اخاهُ الياقيم

وضرب على شعب يهوذا خراجًا يدفعونهُ لهُ في كل عام وهو مئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب واخذ يهوياحاز معهُ الى مصر اسيرًا وفي ايام الياقيم المذكور تولى نبوخذ نصر الاول ملكًا على بابل فجهز الجيوش والعساكر وزحف الى اورشليم وملكها واستردَّ ما كان اكتسبهُ نخو من بلادهِ وانقطع حكم فرعون على اورشليم وخسر كل ما كان افتتحهُ من الممالك والمدن في اسيا وكانت مدة ملكهِ على رواية هيرودوتس ست عشرة سنة وعلى رواية مانيثو ست سنوات والاول اصح واشهر

ثم قام بعدهُ ابنهُ بساماتيكوس الثاني سنة ٥٩٤ ق م ومات في السنة السادسة لملكهِ بعد رجوعهِ من فتوحاتهِ في الحبشة وخلفهُ ابنهُ ابريس المدعو ايضًا فرعون حفرع وهو المذكور في ارميا ٤٤: ٣٠ ومن اعمالهِ انهُ جهز جيشًا عظيمًا لمحاربة اسيا فحاصر صيدا وصور واخضع جميع بلاد فينيقية وفلسطين وفي ايامهِ حدث انقسام في المملكة وفتن وحروب كثيرة وفي اثناء ذلك زحف نبوخذ نصر ملك فارس في جيشٍ عظيم الى مصر ففتحها بعد حصار طويل وهدم هياكلها وابراجها ووقع فرعون حفرع في يدهِ فامر بشنقهِ . ثم رجع نبوخذ نصر الى بلادهِ واستخلف على مصر رجلًا من اعيان المصريين يقال له اماسيس فاقام بامرها اتمّ قيام ثم تمرد اخيرًا على الدولة الفارسية واستقل بالمملكة المصرية واخضع لحكمهِ جزيرة قبرس وكانت مدة ملكهِ ٤٤ سنة .وتولى بعدهُ ابنهُ بساماتيكوس الثالث وفي ايام هذا الملك زحف كمبيز بن كورش ملك فارس سنة ٥٢٥ قبل الميلاد بالجيوش والعساكر لافتتاح مصر بسبب عصيان اماسيس على المملكة الفارسية فتغلب عليها بعد حروبٍ كثيرة ووقائع مهولة وقبض على بساماتيكوس والزمهُ ان يشرب مقدارًا كثيرًا من دم الثيران ففعل ذلك بهِ كالسم ومات وخضعت لكمبيز بعد ذلك كل بلاد مصر وصارت مقاطعة فارسية وتوالت عليها نواب الفرس كما مرَّ في ترجمة كمبيز عند ذكر ملوك فارس

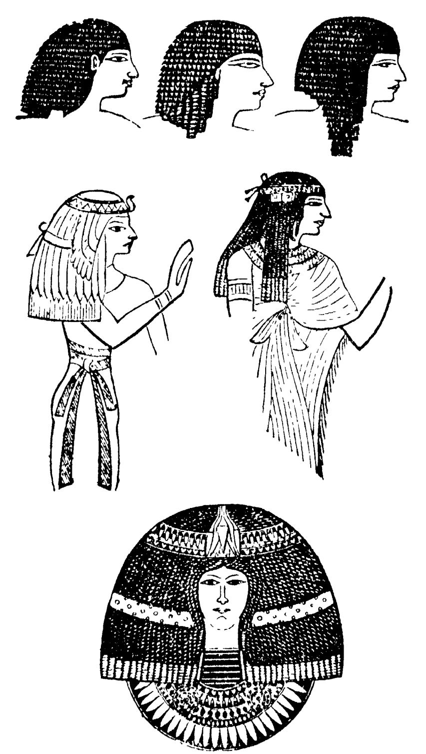
وسنة ٤١٢ ق م كره المصريون حكم الفرس عليهم ونفروا من عبوديتهم



امراء مصريون على مركبة

فعصوهم مرةً اخرى في السنة العاشرة من حكم داريوس نوثوس ملك فارس ونالوا حريتهم وكان الملك ارتزركسيس قد شرع في الاستعدادات اللازمة لاسترداد مصر فمات قبل ان يقيم حربًا . ثم قام بعده ابنهُ داريوس الثالث او دارا اخوش سنة ٣٥٨ ق م وفي السنة العشرين من حكمهِ جهز جيشًا عرمرمًا وسار قاصدًا الديار المصرية وعند وصولهِ اليها جرى بينهُ وبين المصريين

وذكر هيرودوتس انهم كانوا يحلقون شعر اجسادهم كل ثلاثة ايام ولم يسمح لهم ان يلبسوا الا ثوبًا من كتان وكانوا يغتسلون بماء بارد مرتين في النهار ومرتين في الليل . اما الاراضي فكانت كلها للملك والكهنة والمحاربين واما الحراثون فلم يكونوا الا كالأُجرى يشتغلون لغيرهم كالمستعبدين



مقانع شعر كانت كثيرة الاستعمال عند نساء المصريين القدماء

وكانت لغتهم من اعجب اللغات لانها لم تكن تكتب باحرف هجائية بل باشارات مستعارة من الاشباح الطبيعية وهي على نوعين الاول يشير الى اصوات يدلُّ عليها ببعض النقوش من التصاوير المختلفة . والثاني تحت هيئة اشباح

تدل على جملٍ مختصرة . وانحصر هذا النوع في روساء الكهنة فقط وبقي هذا القلم مجهولاً بين الناس حتى اهتدى الى معرفتهِ الحاذق الشهير المعلم شنبليون الفرنساوي سنة ١٨٢٢ مسيحية

الباب الخامس

في الدولة البطليموسية التي تغلبت على الديار المصرية بعد الفراعنة

انهُ بعد موت اسكندر الكبير تولى المملكة المصرية الدولة البليموسية ووقعت في نصيب سوطير بن لاغوس حين مقاسمة ممالك اسكندر سنة ٣٢٣ قبل الميلاد ويقال انهُ كان ابن فيلبس ابي اسكندر من بعض جواريهِ . وكان سوطير المذكور وهو بطليموس الاول يعرف اعتبار مصر ومقامها وكان حاذقًا عادلاً محبًّا للعلوم وهو الذي اتخذ الاسكندرية دارًا للملك وجمع فيها المكتبة المشهورة وانشأ بها مدرسة عظيمة وجدَّد مدنًا كثيرة وفتح الترع المردومة واعتنى باتساع التجارة واصلاح امور الزراعة والفلاحة وازدادت المملكة في ايامهِ غنىً وعلمًا وتمدنًا . وكان قد جهز جيشًا وارسل من قبلهِ قائدًا للتغلب على الديار الشامية فافتتحها واستولى عليها واستطال ذلك القائد على اليهود واسر منهم نحو مئة الف نفس وساقهم الى مصر وجار على من تخلف منهم بفلسطين جورًا عنيفًا

وتفرَّغ بطليموس في آخر ايامهِ لتنظيم المملكة فشرع في تتميم الهياكل والقصور والمباني العظيمة فمنها ضريح اسكندر الكبير الذي لا يعرف الآن

محل وجودهِ ومنارة الاسكندرية وغيرهما وكثرت في ايامهِ التجارات والمخالطات مع الامم الاجنبية وبهذا تمكنت دولتهُ وامتدت صولتهُ مع انهُ سكن الاسكندرية وجعلها كرسي مملكتهِ ابقى مدينة منفيس على حالها لانها دار السلطنة رسمًا ومقر سرير الاحتفالات الملكية لا يلبس الملك التاج الملكي الاَّ فيها فكانت بمنزلة مصر القاهرة الآن بالنسبة الى الاسكندرية وكان فيها الهيكل الكبير المشتمل على الشعائر الدينية . وعاش هذا الملك متمتعًا بالسلم والراحة الى ان بلغ الثمانين من عمرهِ ثم مات لتسع وثلاثين سنة من ملكهِ

ثم قام بعدهُ ابنهُ بطليموس الثاني الملقب فيلادلفوس اي محب اخيهِ تهكمًا لانهُ كان يبغض اخوتهُ وكان ملتفتًا لتوسيع دائرة العلوم والفنون وانواع الصنائع وقد اكثر من تحصيل الكتب وجمع منها عددًا كثيرًا اضافها الى المكتبة التي انشأَها ابوهُ وفي السنة العاشرة من ملكهِ اطلق اسرى اليهود من مصر ورد الاواني الذهبية الى بيت المقدس وحباهم بانية من الذهب مرصعة بانواع الجواهر الثمينة عليها صورة ارض مصر والنيل وامرهم بتعليقها في مسجد الهيكل . وكانت اللغة اليونانية في ايامهِ قد امتدت الى اقاصي ممالك الارض فامر بترجمة التوراة العبرانية الى اللغة اليونانية لمنفعة اليهود القاطنين بمصر الذين لم يفهموا اللغة العبرانية وكانوا كثيري العدد لان زهوة بلاد مصر جلبتهم الى هناك وسميت الترجمة المشار اليها الترجمة السبعينية لان مترجميها كانوا سبعين نفرًا وكان قد امر الكاهن مانيثو المصري بتاليف تاريخ مصر باللغة اليونانية فجمع هذا المولف تاريخهُ من الدفاتر الرسمية والاوراق القديمة المحفوظة في الهياكل والمعابد المصرية . وقد ورث هذا الملك من ابيهِ ممالك كثيرة غير الديار المصرية كمملكة القيروان وسواحل بر الشام وبلاد العرب وجزيرة قبرس وجزائر بحر الروم فاقتنع بها ولم يطمع في الحروب والفتوحات كباقي الملوك بل اقتصر على محافظة ممالكهِ وانعكف على اعمال ومقاصد جسيمة ذات منافع وفوائد كاستكشاف طرق البحار بالاسفار والوقوف على حقيقة

منبع النيل وارسل سفنًا ايضًا لاستكشاف سواحل الحبشة والبلاد السودانية

وخلف بطليموس الثاني ابنهُ بطليموس الثالث الملقب الكريم وكان ابتداء حكمهِ سنة ٢٤٦ ق م واتبع خطوات ابيهِ وجدهِ فسماهُ شعبهُ اورجيتيس اي المحسن الى شعبهِ وكان كثير الحروب والفتوحات وامتد حكمهُ الى نهر الفرات والجزيرة والعراق والى اقليمي خوزستان واذربيجان وهو الذي ارجع الالهة المصرية التي كان كمبيز قد اخذها من مصر وفي اثناء حروبهِ لانطيوخوس ملك سورية نذرت زوجتهُ برنيقي نذرًا وهو انهُ عند رجوع زوجها من غزوتهِ تقف شعر راسها للزهرة فلما رجع ظافرًا غانمًا وفت نذرها فجزت شعرها ووضعتهُ في هيكل الزهرة الاَّ انهُ لم يمض الاَّ زمانٌ يسيرٌ حتى فقد من الهيكل فخاف الحراس من جراء ذلك على نفوسهم من الملك واستعظموا هذا الامر. ولما بلغ الملك الخبر استشاط غضبًا وامر باحضار الحراس اليهِ عازمًا على قتلهم فدخل عليهِ بعض المنجمين وكان متقدمًا في بابهِ وقال لهُ قد بلغني فقد شعر الملكة من الهيكل واتيت اليك لاعلمك حقيقة هذا الامر وهو ان الزهرة قد نقلت شعر الملكة الى السماء ووضعتهُ بين النجوم فلما سمع الملك كلامهُ سرَّ بذلك وصفح عن ذنب الحراس. ومن ثم حسب شعر الملكة برنيقي من جملة صور النجوم. وكانت وفاة الملك المذكور سنة ٢٢٢ ق م

اما بطليموس الرابع وهو ابن الثالث المسمى فيلوباتر اي محب ابيهِ فحكم من سنة ٢٢٢ الى سنة ٢٠٥ ق م وكان قاسيًا دمويًّا محبًّا للبذخ محاطًا باتباعٍ وحواشٍ خداعين مماقين ومن جملة قبائحهِ انهُ اثار اضطهادًا شديدًا على اليهود في جميع مملكتهِ وقتل ارسينوي وهي اختهُ وزوجتهُ معًا ثم مات محتقرًا مرذولاً من جميع رعيتهِ. وخلفهُ ابنهُ بطليموس الخامس الملقب ابيفانيس ومعناهُ الماجد حكم من سنة ٢٠٥ الى سنة ١٨١ وسار سيرة ابيهِ في المظالم والعدوان وارتكب من المآثم والقبائح بما ليس للناس طاقة على احتمالهِ وقيل انهُ سئل يومًا من اين ندفع اجور العساكر فاجاب كيف تخاطبونني بهذا السوال اما تعلمون ان

اموال احبابنا هي اموالنا واستمر على فظائعهِ وقبائحهِ الى ان مات مسموماً . وهكذا ما زال هولاء الملوك يتولون الملك الواحد بعد الآخر حتى قامت الملكة كليوباترا الشهيرة بالجمال والقبائح

وكانت الملكة المذكورة قد تزوجت اخاها بطليموس ديونيسيوس في سن السبع عشرة سنة وهو في سن الثلاث عشرة وذلك سنة ٥٢ ق م . وكانت قد صممت ان تقبض على زمام السلطنة وتستقل بنفسها فلم يوافقها على ذلك الذين اقيموا اوصياء على زوجها فقاوموها وابعدوها فالتجأت الى اوغسطوس قيصر الروماني فتظاهر في القضية كمصلحٍ بينها وبين زوجها . وسنة ٤٧ ق م تزوجت اخاها الثاني ولم يكن قد اتى عليهِ احدى عشرة سنة من العمر فاقيم ملكاً على مصر بامر قيصر اربع سنين ثم مات مسموماً على ما قيل . واذ كان للرومانيين نوعٌ من السلطة الادبية على البلاد المصرية بحسب وصية اسكندر الثاني وهو الملك العاشر من الدولة البطليموسية بان تكون مصر ملحقة برومية بشرط ان تكون ملوكها منها . فبعد توفي اوغسطوس المذكور استدعى كليوبترا القائد انطونيوس احد الشركاء في الدولة الرومانية ان توافيهُ الى طرسوس حيث كان مزمعاً ان يذهب لمحاربة بروتوس الروماني . فاجابتهُ الى ذاك وسارت قاصدة تلك الاطراف حتى وصلت الى ايالة صلفقة ومن هناك ركبت نهر كراصو وهو نهر طرسوس واجتازت النهر في سفينة مذهبة ارجوانية القلاع والاستار وكانت الملكة مزينة بافخر ما عندها من الثياب الثمينة والجواهر النفيسة ومعطرة بانواع العطور الذكية فكانت امواج النهر تموج طرباً بالنسيم على نغمات العود والدفوف والقياثير وروائح العطر والبخور تعبق وتفوح منها الى سائر النواحي حتى امتلات شواطي النهر من رياها . ولما اجتمع انطونيوس بها تعجب من فرط حسنها وجمالها فادخلها الى محلهِ الملكي وكان قد هيأ لها من الوليمة الفاخرة ما يكل عن وصفهِ اللسان ومن ذلك الوقت اخذ حبها منهُ كل ماخذ حتى سلبت عقلهُ واخذت بمجامع قلبهِ بحيث

لم يعد لهُ صبرٌ على مفارقتها فاقامت معهُ اياماً وبعد ذلك جلبتهُ معها الى الاسكندرية وهناك تزوجتهُ . واذ كان لا يستطيع مفارقتها ولا يقدر ان يتخلص من اسر جمالها نسي وظيفتهُ والقيام بحقوق ماموريتهِ

وكان لانطونيوس زوجة اخرى يقال لها اوكافية وهي اخت القائد اوكتافيوس شريك انطونيوس في الرياسة الرومانية فلما تزوج كليوباترا حصل الشقاق والاختلاف بين القائدين . فاستعد اوكتافيوس لمقاومة انطونيوس والانتقام منهُ فقصد الديار المصرية بجنودٍ كثيرة فافتتحها بعد حروب هائلة يطول شرحها . ولما شعر انطونيوس بالغلبة طعن نفسهُ بخنجر فمات . واما كليوباترا فبعد ان افرغت جهدها في ان تسلب عقل اوكتافيوس وتاسرهُ بجمالها ولم تنجح صممت النية على قتل نفسها خوفاً من ان تبيت اسيرةً فيذهب بها الى رومية في حالة الذل والهوان فاماتت نفسها شر ميتة . وقد اختلف المورخون في طريقة قتلها فمنهم من زعم انها شربت سمًّا وقال اخرون انها كانت احضرت ثعباناً صغيراً ساماً اخفتهُ في وعاء لوقت الحاجة فلما كان ذلك اليوم جلست على سرير ملكها ووضعت تاجها على راسها وعليها ثيابها وزينتها وفرقت خدمها وجواريها ثم فتحت الوعاء الذي كان فيهِ الثعبان ووضعتهُ على ثدييها فلسعها فماتت من وقتها وساعتها وانقرض ملك اليونانيين بهلاكها وكان ذلك سنة ٣٠ ق م . وكانت مدة حكم الدولة البطليموسية نحو ٢٩٤ سنة

الباب السادس

في من تولى مصر من اوائل ظهور الاسلام الى الدولة الفاطمية

ولما انقرضت دولة اليونان استولى على مصر الرومان واقامت البلاد

تحت تصرف احكامهم نحو سبع مئة سنة فكانت تحسب ولاية من الولايات الرومانية حتي استفتحها عمر بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٠ للميلاد واقام بها عمر المذكور واليًا ٧ سنين ثم عزل في خلافة عثمان بن عفان وتولى بعدهُ عبد الله بن ابي السرح ثم غيرهُ من العمال الى ان انتهت الخلافة الاسلامية الى بني امية فكانوا يرسلون لها عمالاً من طرفهم مدة خلافتهم وكان جملة من تولى بالنيابة عنهم بمصر ستة وعشرين نفرًا في مدة مئة واحدى عشرة سنة . وكانوا يسمون عمال خراج مصر ويقيم الواحد منهم اشهرًا ثم يعزَل ويتولى غيرهُ . ثم جاءَت بعدهم الدولة العباسية واستمرت مصر تابعة لها الى سنة ٨٦٨ حينما قام فيها احمد بن طولون وتغلب عليها وصار سلطانًا وكانت مدة سلطنتهِ ست عشرة سنة وشهرين وخلفتهُ ذريتهُ من بعدهِ واستمر الحكم في ايديهم ٣٧ سنة وهي المعروفة بالدولة الطولونية . ثم عادت نيابة العباسية بمصر في خلافة المكتفي فتولى منهم احد عشر نفرًا . وجاءَت بعدهم الدولة الاخشيدية التي منها كافور الاخشيدي وكان حبشيًّا اسمر اللون تسلطن سنة ٩٦٥ فاقام سنتين واربعة اشهر وخلفهُ بالملك ابو الفوارس احمد بن علي بن الاخشيد فاقام سنة واحدة وبهِ انقرضت الدولة الاخشيدية ثم جاءَت بعدهم الدولة الفاطمية ونذكر شيئًا من اخبار ملوكها على وجه الاختصار

الباب السابع

في الدولة الفاطمية

عدد خلفاء هذه الدولة اربعة عشر كما مرَّ بيانهُ في جدول الخلفاء عند الكلام على دول العرب فمنهم ثلاثة ظهروا وماتوا في بلاد المغرب واحد عشر بمصر. واول هولاء هو المعزّ لدين الله بن المهدي عُبيد الله المغربي تولى

احكام الغرب بعد موت ابيهِ المنصور سنة ٩٥٣ للمسيح ثم استفتح الديار المصرية واستخلصها من الدولة الاخشيدية سنة ٩٦٧ بواسطة قائدهِ جوهر الصقلبي الذي بنى فيها مدينة القاهرة بامر المعزّ فدخلها المذكور سنة ٩٧١ ومن ذلك الوقت صارت بلاد مصر والغرب مملكة واحدة

وفي نسب هذه العائلة اقوالٌ كثيرة فمن الناس من رفع نسبهم الى فاطمة بنت الرسول ومنهم الى حسين بن محمد القدَّاح وكان القدَّاح رجلاً مجوسيًّا واخبارهُ معروفة ومعلومة عند اكثر المورخين . وكان المعز عادلاً منصفًا في الرعية غير انهُ كان شيعيًّا وامتد حكمهُ من حلب الى بلاد المغرب الى مكة كما امتدَّت احكام الخلفاء العباسية في ايامهِ من بغداد وسائر ممالك المشرق الى العراق واعمالها واستمر المعز بالخلافة نحو اربع سنين ثم توفي في سنة ٩٧٥ للمسيح

ومن هولاء الخلفاء الحاكم بامر الله وهو الخليفة الثالث من بني عبيد بمصر بويع بالخلافة بعد موت ابيهِ العزيز سنة ٩٩٦ وكان في اول امرهِ فاضلاً عادلاً مستقيم الاحوال ثم تغيرت اطوارهُ وزاد في الظلم والجور في حق الرعية وصار يامر باشياء تضحك منها الناس فمنها انهُ اجتاز يومًا بحمام الذهب فسمع فيها ضجيج النساء فامر ان يسد عليهنَّ باب الحمام فسدوهُ عليهنَّ حتى متنَ في الحمام كلهنَّ . ومنها انهُ امر ان لا يبيع احد زبيبًا ولا عنبًا ثم امر بحرق الكروم وقطعها فقُطع منها شيءٌ كثير ثم نهى الناس عن اكل الملوخية والقرع وعلَّل ذلك بان معاوية بن ابي سفيان كان يميل الى الملوخية وان عائشة بنت ابي بكر كانت تميل الى القرع . ثم انهُ امر بقتل الكلاب فقتل نحو ٣٠ الف كلب في يوم واحد . وكان قد امر النصارى بلبس الازرق واليهود بلبس الاصفر وكانوا قبل ذلك في زيٍّ واحد يلبسون المآزر العسلية ثم اسكن اليهود في حارة زويلة وتهددهم بالقتل ان لم يدخلوا في الاسلام فخافوا منهُ واسلم منهم عددٌ غفيرٌ ثم امرهم بالرجوع الى اديانهم فارتد منهم في يومٍ واحد سبعة الاف نفر ثم امر بهدم معابدهم ثم امر باعادتها لهم . ومن اعمالهِ القبيحة انهُ امر بقتل العلماء

والادباء ثم ادعى الالوهة وكُتب لهُ باسم الحاكم الرحمن الرحيم وكان الجهال اذا راوهُ يقولون لهُ يا واحد يا احد يا محيي يا مميت ثم ادعى علم الغيب فكان يقول ان فلانًا قال في بيتهِ كذا وكذا واكل كذا وكذا ودخل لهُ كذا وكذا وكان ذلك باتفاق اعتمدهُ مع العجائز اللواتي كنَّ يدخلنَ الى بيوت الامراء وغيرهم ويخبرنهُ بما جرى . وكان هو واسلافهُ يدعون الشرف ويقولون انهم من ذرية علي بن ابي طالب وفاطمة بنت النبي وكان الحاكم بامر الله يذكر ذلك كثيرًا على المنبر في كل جمعة . وكان قد امر الرعية انهُ عند ما يذكر الخطيب اسمهُ على المنبر تقوم الناس صفوفًا اعظامًا لذكرهِ واحترامًا لاسمهِ واصدر امرًا الى سائر نوابهِ في المملكة ان تفعل هكذا حتى في مكة ايضًا وكان اكثر الناس في مصر اذا راوهُ خرُّوا وسجدوا . فلما طال الامر على الناس وتزايد جورهُ في حق الرعية اخذت اختهُ سيدة الملك في تدبير الحيلة على قتلهِ وكانت من اذكى واعقل نساء عصرها وكان الحاكم كثيرًا ما يتهددها بالقتل فخرجت في بعض الليالي اتت الى دار الامير سيف الدين بن دواس فاختلت بهِ واعلمتهُ بنفسها وقالت لهُ انت تعلم ما يجرى من اخي في سفك الدماء وخراب البلاد وقد صمم على قتلك وقتلي بالقتال وما الحيلة في امرهِ فقالت الراي عندي ان ترسل لهُ غلمانًا يقتلونهُ عند خروجهِ الى جبل المقطم فانهُ كثيرًا ما ينفرد بنفسهِ هناك واذا قتل تكون انت المدبر لدولة ولدهِ ووزيرهِ فاتفقا على ذلك ومضت سيدة الملك الى قصرها وفي الغد خرج الحاكم على عادتهِ وانفرد بنفسهِ في الجبل المذكور فعمد ابن دواس الى عشرة من اعبيد السود واعطى كل واحد منهم خمس مئة دينار واعلمهم كيف يقتلونهُ فساروا من وقتهم واختفوا في تلك النواحي حتى ابصروهُ مقبلاً وحدهُ وليس معهُ احد فهجموا عليهِ وقتلوهُ وكانت مدة خلافتهِ خمسًا وعشرين سنة وشهرًا واحدًا ومن العجب ان في هذه الايام قومًا يعتقدون انهُ حيٌّ ويحلفون بغيبتهِ ويزعمون انه لا بد ان يظهر مرة ثانية ويدين العالم

وفي ايام المستنصر بالله وهو الخامس من خلفاء هذه الدولة حدثت المجاعة العظيمة التي لم يسمع بمثلها من قديم الزمان حتى اكل الناس بعضهم بعضًا فكان الكلب يباع بخمسة دنانير والقط بثلاثة دنانير واشتد الغلا وعظم البلا على الناس حتى صودف احيانًا ان الكلاب كانت تدخل الدور وتاكل الاطفال وهم في المهود وآباؤهم وامهاتهم ينظرون اليهم ولا يستطيعون النهوض لانقاذهم من شدة الجوع وكان الرجل احيانًا يسرق ابن جارهِ ويذبحهُ وياكلهُ ولا ينكر ذلك عليهِ . وكان في مصر حارة بها عشرون دارًا كل دار يساوي ثمنها نحو الف دينار قيل انها بيعت كلها بطبق خبز فدعيت من ذلك اليوم بحارة الطبق. وخرجت امراة ذات يوم الى السوق وبيدها عقد من الجوهر فقالت من ياخذ مني هذا العقد ويعطيني عوضهُ قمحًا فلم تجد من ياخذهُ منها ثم التفتت الى العقد وقالت اذا كنت لا تنفعني وقت الحاجة فلا حاجة لي فيك والقتهُ على الارض غضبًا وانصرفت . ويقال ان الوزير ركب بغلتهُ يومًا واتى الى دار الخلافة فلما نزل عنها اخذها غلمانهُ واكلوها . وكان الرجل يمشي من جامع طولون الى باب زويلة ولا يرى في وجههِ انسانًا الا نادرًا . واقام المستنصر في الخلافة الى ان مات وكانت مدة خلافتهِ ستين سنة واربعة اشهر ولا يعلم في الاسلام خليفة ولا سلطان تولى هذه المدة غيرهُ . واستمرت ملوكهم تتناوب الملك واحدًا بعد آخر حتى انقرضت دولتهم في زمن العاضد بالله سنة ١١٧١ للميلاد وهو آخر ملوكهم حين ظهرت الدولة الايوبية الكردية فتكون مدة الخلافة الفاطمية المصرية ٢٠٥ سنوات

الباب الثامن

في الدولة الايوبية

ان اصل هذه الطائفة من بلاد اذربيجان بنواحي الكرج وهم اكراد

كانوا في خدمة محمود بن زنكي صاحب الديار الشامية فارسلهم الى مصر في بعض اشغال له فاقاموا بها مدة وقويت شوكتهم هناك واحبهم الناس نظرًا لوداعتهم وحسن سلوكهم ولما استقامت امورهم وامتدت صولتهم قتلوا وزير العاضد بالله باتفاق الاهالي وتولى منصب الوزارة منهم اسد الدين شيركوه اخو ايوب ابن عم صلاح الدين فقام بالوزارة نحو شهرين ثم مات واستوزر بعدهُ صلاح الدين ولما تمكن بالوزارة قطع اسم العاضد من الخطبة بمصر واعمالها واستقل بولاية الاحكام سنة ١١٧١ فمات العاضد غمًّا وقهرًا ودانت بعد ذلك لصلاح الدين احكام الديار المصرية وانفرد بملكها ثم استولى على الديار الشامية وأخذ القدس من الافرنج . وكان رجلاً شديد الباس عالي الهمة مسعودًا في حروبهِ ومغازيهِ وهو الذي بنى قلعة الجبل واقام سور القاهرة وكان في ايام الخلفاء الفاطميين مبنيًا باللبن وازال جند مصر من العبيد والصقالبة والروم والارمن وشنانرة العرب وغيرهم من الطوائف التي كانت في الزمن القديم واستخدم عدة عساكر من الاكراد والترك وبالجملة لم ترَ مصر في ملوك الاسلامية قبلهُ مثلهُ في الشهرة والفتوحات وكانت مدة سلطنتهِ ثلاثًا وعشرين سنة . ومن سلاطين هذه الدولة الملك العادل سيف الدين اخو الملك صلاح الدين وكان في ايام اخيهِ صلاح الدين قد استولى على عدة ولايات وطالت ايامهُ في السعادة الى ان ملك الديار المصرية وهو الرابع من ملوك مصر من بني ايوب ومن الحوادث في ايامهِ انهُ جاء وباء عظيم بمصر سنة ١٢٠٠ وهلك خلق كثير من الاغنياء والفقراء وجاء عقيب ذلك غلاء شديد واشتد الجوع في البلاد ورحل كثير من الاهالي الى الشرق والغرب وكان الفقراء ياكلون لحوم الكلاب والحيوانات وينبشون القبور وياكلون جيف الاموات واتصل امرهم اخيرًا الى خطف الاطفال في الاسواق من امهاتهم فكانوا يذبحونهم ويشوونهم وياكلونهم جهارًا في الاسواق والشوارع ويقال ان امراة دخلت يومًا على الملك وهي خائفة مرتعشة فسالها عن حالها فقالت اعلم يا مولاي انني

قابلة وان قومًا استدعوني في هذا الصباح لاولّد امراةً فذهبت معهم ولما كان وقت الفطور قدموا لي صحنًا فيهِ طعام كثير اللحم غير انهُ لا يشبه اللحم المعهود فانكرتهُ ولم تقبل نفسي عليهِ ثم وجدت بنتًا صغيرة هناك فاختليت بها وسالتها عن ذلك اللحم فقالت البنت ان فلانة السمينة دخلت لتزورنا فذبحها ابي وها هي معلقة اربًا في هذه الخزانة فاقشعر جسمي من هذا الخبر وجئت في الحال الى تلك الخزانة وفتحها على حين غفلة فوجدتها ملوة من لحم تلك المراة التي ذكرتها لي البنت فاحتلت حتى خرجت من تلك الدار وجئت اليك لاعلمك بذلك وهذه قصتي فتعجب سيف الدين من كلامها وارسل معها من هجم على تلك الدار واخذ من فيها وهرب صاحب المنزل وبقي مختفيًا حتى اصلح امرهُ مع محافظ المدينة بدفع ثلاث مئة دينار فديةً عن نفسهِ

وكان كثيرون من الذين اعتادوا اكل لحم بني آدم يصيدون الناس باصناف الحيل والمخادعة فكانوا يستجلبونهم الى بيوتهم بانواع الملاعيب فيذبحونهم و ياكلونهم فوقع مرةً في اشراك هؤلاء القوم ثلاثة من مشاهير الاطباء احدهم خرج معهم ولم يرجع واما الثاني فان امراة اعطتهُ درهمين على ان يذهب معها الى مريض فصدق كلامها وسار معها فلما توغلت بهِ في الازقة ومضايق الطرق استفاق على نفسهِ وعلم بالحيلة فخاف وامتنع عنها وصاح عليها وشتمها فتركتهُ وهربت واما الثالث فان رجلاً استدعاهُ الى زيارة مريض واطمعهُ بالاجرة فذهب معهُ وما زال يسير بهِ من مكان الى مكان حتى ادخلهُ دارًا خربة فارتاب الطبيب منهُ وتوقف في وسط الدرج وكان الرجل قد سبق وطرق الباب فخرج اليهِ رفيقهُ وهو يقول لهُ هل مع هذه العاقة حصلت على صيدٍ ينفع فخاف الطبيب عند سماعهِ هذا الكلام وخفق قلبهُ وايقن بالهلاك وكان في حائط ذلك الدرج كوة تشرف على اسطبل فالقى نفسهُ منها فجاء في وسط الاسطبل فقام اليهِ صاحب الاسطبل وقال لهُ من انت ومن تكون فخاف خوفًا شديدًا وكتم امرهُ عنهُ خوفًا منهُ ايضًا فقال لهُ الرجل صاحب الاسطبل لا تخف قد

علمت حالك فاني تيقنت انّ اهل هذا المنزل يذبحون الناس بالاحتيال والخداع والحمد لله على سلامتك ثم اخرجهُ من ذلك المكان وسار معهُ حتى اوصلهُ الى السوق ولولا هذا الاتفاق لهلك وانقطع خبرهُ . وكانت مدة سلطنة الملك العادل سيف الدين تسع عشرة سنة

ثم تولى بعدهُ ابنهُ الملك الكامل محمد وكان جليلاً مهيبًا وهو صاحب الغزوات الكثيرة مع الطوائف الصليبية بثغر دماط وكان الافرنج لما استولوا على دمياط ونواحيها قد حصنوا اسوارها وشيدوا حصونها وابراجها خوفًا من هجوم المسلمين فارسل هذا الملك الكتب والرسائل الى سائر النواحي والاطراف يحث الاسلام وينهض غيرتهم الى الحضور لدفع الافرنج عن البلاد ونادى في القاهرة بالنفير العام فاجتمع اليهِ بمصر شعوب كثيرة من جميع الجهات ينوف عددهم على مئة وخمسين الف مقاتل فزحف بهذه الجموع ونزل تجاه المنصورة فالتقتهُ الافرنج وجرى بين الفريقين من القتال ما لا يسع هذا المختصر بيانهُ فانهزم الافرنج وارتدوا الى دمياط وحاصروا فيها وكانوا قد صمموا على الرحيل فارسل الملك الكامل يقول لملك الافرنج ارسل لنا رهائن منكم حتى نكف عن قتالكم بشرط ان ترحلوا من البلاد ونحن ايضًا نرسل لكم رهائن لتكونوا مطمئنين من غوائلنا عند التسليم فارسل لهُ ملك الافرنج عشرين سيدًا وارسل الملك الكامل ابنهُ صالح نجم الدين مع جماعةٍ من الامراء الى ملك الافرنج فعند ذلك سلمت الافرنج دمياط الى المسلمين واطلق كلٌّ من الفريقين ما عندهُ من الاسرى

واستمرت هذه الدولة الى سنة ١٢٥٠ مسيحية وعدد ملوكها تسعة انفار اولهم الملك صلاح الدين المذكور آنفًا واخرهم الملكة شجرة الدرّ زوجة الملك الصالح الايوبي وكانت هذه الملكة نادرة زمانها ذات عقل وحزم ومعرفة بسياسة الاحكام فتسلطنة لحسن سيرتها وجودة تدبيرها وكان وزيرها والقائم بتدبير احوالها الامير معزّ ايبك التركماني ولا يعلم في المسلمين امراة ارتقت الى سرير

الملك غيرها فاقامت بالسلطنة مدة ثلاثة اشهر ثم خلعت نفسها عن تخت المملكة وتزوّجت بالامير ايبك المذكور واقامتهُ ملكًا مكانها وهو اول ملوك الدولة الجركسية بالديار المصرية

الباب التاسع

في الدولة الجركسية احدى فروع الدولة التركية

كانت بداءة هذه الدولة من سنة ١٢٥٠ واستمرت الى سنة ١٥١٧ وعدة ملوكها سبعة واربعون اولهم الملك المعز ايبك المذكور واخرهم الملك الاشرف طومان باي وكانوا يلقبون بمماليك الدولة الايوبية الكردية ليمتازوا عن المماليك البحرية وكان الملك الصالح الايوبي قد اصطفاهم لخدمتهِ فكان لهم التقدم والامتياز في ايامهِ وهو ايضًا الذي انشا المماليك البحرية الذين تقلدوا زمام احكام مصر بامر الدولة العثمانية بعد هذه الدولة كما سياتي خبرهم واسكنهم بالقلعة التي كانت بالروضة على نهر النيل وكان عددهم نحو الف مملوك وكان لهم مسالح على شطوط النهر مشحونة بالعدد والسلاح ومهمات الحرب ولهذا كانوا يسمون بالمماليك البحرية

ومن اشهر ملوك الدولة الجركسية الملك الظاهر بيبرس تولى زمام الملك سنة ١٢٧٧ كان شجاعًا مقدامًا كثير المغازي والغارات متصفًا بالفراسة وحسن التدبير وفي ايامهِ كانت اكثر سواحل الديار الشامية في ايدي الصليبيين فسار اليهم وحاربهم واستخلص منهم مدنًا كثيرة بعد ان مكثت الحرب بينهم مدة طويلة واستمرت احكام القطر المصري تحت تصرف هذه الدولة الى زمن

السلطان سليم الاول بن بايزيد العثماني فاستخلصها منها سنة ١٥١٧ ومن ثمَّ صارت تحت حكم دولة آل عثمان فكانت ترسل اليها النواب والحكام الى سنة ١٧٦٥ في ايام السلطان مصطفى الثالث فانهُ قطع من مصر الحكومة الباشاوية وولاها للماليك البحرية المقدم ذكرهم بشرط ان يجمعوا الاموال السلطانية وما بقي منها بعد المصاريف الميرية يرسل نصفهُ في كل عام الى الاستانة والنصف الثاني برسم المماليك على سبيل الرواتب واقام بينهم نائبًا من وزرائهِ لاجراء اوامرهِ في تلك الاطراف . وكان بكوات المماليك يصرفون المال على انفسهم ويدعون انهم صرفوهُ على التصليحات والترميمات ويرسلون في كل سنة دفتر المصاريف للدولة مسددًا عن يد الوزير المذكور الذي لم يكن في مصر الَّا على سبيل الصورة . وكان حكمهم قاسيًا جافيًا من غير قاعدة يظلمون الرعية ولا يبالون بنجاح البلاد وكان كبيرهم المعتمد عليهِ يسكن مدينة القاهرة ويلقب بشيخ البلد . ثم انهم عصوا بعد ذلك وتمردوا وخرجوا على الدولة في زمن السلطان سليم الثالث واستمروا في العصيان والظلم والطغيان الى سنة ١٧٩٨ حين حضر نابوليون بونابارتي باربعين الفًا من الجيوش الفرنساوية الى مصر فحاربهم وقهرهم وفرَّقهم في اقطار الصعيد والحجاز واستمرت احكام البلاد في قبضة يدهِ مدة ثلاث سنوات الى ان استخلصتها الدولة العثمانية بمحالفة انكلترا سنة ١٨٠١ واقامت عليها واليًا حسب الايام السابقة وبقيت على تلك الحالة نحو ثلاث سنين حتى تولى عليها محمد علي باشا

الباب العاشر

في العائلة المحمدية العلوية وهي الخديويَّة المصريَّة

ان راس هذه العائلة هو محمد علي باشا واصلهُ من مدينة قواله من



محمد علي باشا خديوي مصر

بلاد الارناوط جاء الى مصر مع العساكر السلطانية الذين حضروا من بلاد الترك لمحاربة الفرنساويين فقاتل مع من قاتل واشتهر بالشجاعة في تلك الحروب حتى ارتقى في مدة قصيرة الى رتبة قائمقام ثم ساعدتهُ الاقدار الى ان تقلد زمام احكام الديار المصرية سنة ١٨٠٤ فضُرب عليهِ مال معلوم يدفعهُ في كل سنة الى الباب العالي . ولما تمكنت احكامهُ في تلك الاطراف سار السيرة المرضية وعدل في الرعية وبدا في العمار ونظام المملكة وجلب اليها الضباط الفرنساوية لاجل ترتيب التعليمات العسكرية وبنى السفن الحربية واصلح احوالها وسيَّر الأمن والامان في كل مكان ورفع فيها اعلام المعارف والعلوم وتفرَّغ الى تقدمها حتى اخرجها من ذلك الظلام وصارت تُعدّ اقليمًا من البلاد الافرنجية. وكان هذا الخديوي مع علو شانهِ ورفعة مقامهِ انيسًا وحليمًا حسن التدبير بصيرًا بعواقب الامور مقتصدًا في تدبير مصاريف حكومتهِ وكان لهُ هيبة عظيمة في قلوب الناس حتى لم يجسر احد ان يتحرك ادنى حركة بخلاف الحق والاستقامة ولذلك لم يكن احدٌ من جنودهِ يتجاسر ان يتعدى على احد فانتشر العدل والامان في ايامهِ ورأت الناس من احكامهِ ما لم تَرَهُ ولم تسمع بهِ . وكان قد افتتح الديار الشامية عن يد ابنهِ ابرهيم باشا الشجاع المشهور بسبب سوء تصرف عبد الله باشا والي عكا وكثرة جورهِ وظلمهِ للاهلين واستمرت احكامها في قبضة يدهِ من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٤٠ حين حضرت العساكر العثمانية والبوارج الانكليزية واستخلصتاها منهُ . ومن اعمالهِ العظيمة انهُ افتتح بلاد السودان وضمها الى بلاد مصر بعد ان اقام فيها الحكام والولاة وبهذه الواسطة انفتح باب التجارة للخاص والعام وزادت اسباب الثروة وانفتح باب لدخول التمدن والنور بين تلك القبائل . وصرف محمد علي باقي عمرهِ بالعز والجاه الى ان جاوز الثمانين من عمرهِ فاعتراهُ مرض سوداوي فتنازل عن معاطاة الاحكام ثم مات بعد سنة وكانت مدة حكمهِ نحو خمس واربعين سنة

وتولى مكانهُ بعد تنازلهِ ابنهُ ابرهيم باشا سنة ١٨٤٨ وكان عالي الهمة شديد

الباس مستكملاً جميع الصفات الحربية والسياسة . وفي ايام ابيهِ كان قائد الجيوش المصرية واليهِ يرجع تدبير امورها فسلك مسلك ابيهِ واحسن المعاملة بين الرعايا . وكانت مدة ولايتهِ الديار المصرية احد عشر شهرًا وتوفي بداء الاسهال في اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٤٨ وهو ابن ٦٣ سنة وتولى بعدهُ ابن اخيهِ عباس باشا فاقام بالولاية نحو خمس سنين وهو الذي شرع بانشاء التلغراف والطريق الحديدية من مصر الى الاسكندرية . ثم تولى بعدهُ عمهُ محمد سعيد باشا سنة ١٨٥٤ فكان جوادًا كريمًا وهو الذي انشأ طريق المنشية وغرس فيها الاشجار وجعلها من احسن المتنزهات . وكان قد شرع بوصل البحر الاحمر ببحر الروم بواسطة شراكة فرنساوية سنة ١٨٦٠ غير ان هذا العمل المهم لم ينجز الا في ايام خلفهِ سنة ١٨٦٩ وكانت مدة ولايتهِ نحو تسع سنين

اما انشاء ترعة السويس فقد حُسب من اعظم اعمال العصر ومن اكبر الفوائد للتجارة لانهُ قصّر المسافة من اوربا الى الهند نحو ٢٧٥٠ ميلاً وسهّل الاتصال بين الغرب والشرق حتى صار ممكنًا للانسان ان يدور حول الارض في مدة ٨٠ يومًا . اما طول تلك الترعة من السويس الى بورت سعيد فهو ٨٨ ميلاً وبلغت نفقتها نحو ١٠ ملايين ليرة انكليزية والآن اي في سنة ١٨٨٥ قد قر راي اصحاب الاسهم على توسيع تلك الترعة لاجل سرعة سير السفن فيها والمظنون انهُ سيصير الشروع في ذلك حالاً

ثم تولى بعدهُ ابن اخيهِ اسمعيل باشا ابن ابرهيم باشا جلس على سرير القاهرة في ١٨ ك٢ سنة ١٨٦٣ وعند انفرادهِ بالحكومة بذل جهدهُ في تحسين البلاد واصلاحها ومن جملة مشروعاتهِ الخيرية ايصال التلغراف والطرق الحديدية الى بلاد السودان وادخال مجاري المياه لمصر واقامة المنارات في البحر الاحمر لوقاية السفن من الاخطار واصلاح الطرق والترع وتاسيس معامل الورق والسكّر وهو الذي بنى مدينة الاسماعيلية وانشا بها البساتين والقصور الجميلة .

وفي ايامهِ صار فتح ترعة السويس المار ذكرها فاستدعى من الاقطار الافرنجية جميع الملوك والعظماء لمشاهدة نجاز هذا العمل واعدَّ لهم كل ما يلزم من مزيد الاحترام والاعتبار فحضر بعضهم الى دعوة حضرتهِ والذي لم يمكنهُ الحضور ارسل احد نوابهِ مكانهُ فاستقبلهم احسن استقبال وكان قد اعدَّ لهم وليمة عظيمة فانشرحت صدورهم بما شاهدوهُ من حسن ترتيبهِ ونظامهِ . ومن اعمالهِ المستحقة الذكر انهُ ارسل السار صموئيل باكر القائد الانكليزي الى اواسط افريقية في فرقتين من العساكر المصرية والوف من البغال والجمال لاكتشاف اراضيها الشاسعة ولكي يخضع كل القبائل المتوحشة لافتتاح طريق التجارة ولابطال الاتجار بالعبيد وهو الذي اقام مجالس مختلطة في القطر للقضاء والحكم في الدعاوي التي بين الاجانب والرعايا . ومن اعمالهِ ايضًا انهُ قرّر وراثة الحكم من بعدهِ في عائلتهِ الخصوصية اي لابنهِ البكر ثم لابن ابنهِ حسب الطريقة الاوربية خلافًا للطريقة التي كانت جارية وهي انتقال الارث للاكبر في العائلة ولكن كل تلك الاصلاحات والتحسينات لم توازِ الاضرار التي نتجت من سوء صنيعهِ باستقراض الاموال من الافرنج وتكثير الديون على الحكومة بارباحٍ باهظة حتى بلغ الفائض السنوي في وقتٍ ما على الاوراق المالية المصرية ٢٥ في المئة . اما المبلغ الذي اقترضهُ في مدة ١٣ سنة من حكمهِ فبلغ مع فائضهِ تسعين مليون ليرة انكليزية وفائضهُ السنوي اربعة ملايين وخمس مئة الف ليرة انكليزية وهو نحو نصف ايراد المملكة . واذ لم يَعُد في مقدرة الحكومة القيام بايفاء ما يطلب منها وخوفًا من ازدياد الشر لو بقي اسماعيل باشا مطلق التصرف على المالية المصرية اتفقت دول اوربا على نزع تلك السلطة من يدهِ واقامة معتمدين اوربيين لاجل مراقبة المالية وحصر الايراد والخرج فوقع الانتخاب على رجل انكليزي ورجل فرنساوي كنوّاب الامتين صاحبتي الدين الاكثر فاستلما زمام المالية وقاما باعباء ماموريتهما احسن قيام فساء ذلك اسماعيل باشا نظرًا لانحطاط سلطتهِ وهبوط قدرهِ وحاول الغاء ذلك الترتيب وتلك المراقبة الاجنبية فلم

ينتفع شيئًا لانهُ كان قد تقرر في عقول فرانسا وانكلترا وغيرهما ان اعادة السلطة اليهِ تؤدي الى خراب البلاد خرابًا كاملاً واذ راوهُ غير مبالٍ لمشوراتهم ومرغوباتهم ومصرًّا على مقاومتهم اتفقوا جميعًا على عزلهِ من منصبهِ فاسترخصوا الباب العالي في ذلك وخلعوهُ في بداية سنة ١٨٧٩ ونفوهُ من البلاد واقاموا ابنهُ توفيق باشا مكانهُ وهو الخديوي الحالي موصوفًا بالزهد وحسن الطوية محبًّا لشعبهِ وخير البلاد

الباب الحادي عشر

في الثورة العرابية ودخول الانكليز بلاد مصر وظهور الثورة السودانية وذلك مدة ثلاث سنين من اواسط سنة ١٨٨٢ الى اواسط سنة ١٨٨٥

لما كانت قلوب الاهالي امتلأَت بغضًا للافرنج بسبب نفوذهم وسيادتهم واستيلائهم على الوظائف الكبرى والمرتبات العليا اخذت الجرائد الوطنية تلهج بهذا الامر وتنهض همة الشعب للتخلص من الافرنج والاستقلال في البلاد فاغتنم فرصة ذلك احمد عرابي باشا ناظر الجهادية المصرية وهو مصري الاصل كان قد ارتقى الى تلك الرتبة العالية بواسطة اجتهادهِ وعلو همتهِ وتظاهر بالعصيان على الحكومة الخديوية بعد ان كان انحاز اليهِ القسم الاكبر من قواد العساكر بسبب انقطاع الحكومة عن صرف مرتباتهم اشهرًا عديدة فجاهر بالتمرد ورفض الطاعة وتبعهُ حزب كبير ليس فقط من موظفي الحكومة بل من الاهالي ايضًا فكان مقدامًا للثورة ورئيسها فهددتهُ دولتا انكلترا وفرانسا وامرتاهُ ان يكف عن غيهِ وغرورهِ فابى الاستماع وسدَّ آذانهُ عن مشورات نوابهما لا بل انهُ زاد

اصرارًا في عزمهِ واظهر استعدادهُ لمقاومتهما فارسلتا اسطولهما الى ميناء الاسكندرية وتهددتاهُ بالضرب فاخذ يحصّن القلاع ويتجهز للدفاع فهاج اوباش المسلمين ضد الافرنج في مدينة الاسكندرية في ١١ حزيران سنة ١٨٨٢ وقتلوا منهم اكثر من مئة شخص وشاع بين الجميع ان عرابي باشا هو الذي اثار تلك الفتنة ولكنهُ لم يثبت عليهِ ذلك بنوعٍ جلي فتعاظم الامر وكثر الخوف عند الاجانب اوربيين وسوريين سواء واخذوا يهجرون الديار المصرية ويذهبون الى اوطانهم فكان عدد الذين نزحوا نحو ٦٠ الفًا

ولما كان طمع عرابي باشا لا يزال مزينًا لهُ الحال في مداومة المقاومة وكانت سياسة انكلترا تستدعي توقيف الثورة واعادة السيادة الخديوية كما كانت ليس فقط حفظًا لطريق الهند الذي هو من اهم الامور عندها ولكن منعًا لدخول جنود الفرانساويين كما كان اشار سابقًا غامبتا احد رجال سياسة فرانسا فتصبح طريق الانكليز للشرق في قبضة يد دولة قوية كفرانسا اعتمدت الوزارة الانكليزية على توقيف الثورة بالقوة الجبرية ودعت فرانسا الى مشاركتها في ذلك فابت ولم تقبل . حينئذٍ اطلق الاسطول الانكليزي قنابلهُ على قلع الاسكندرية في اواسط شهر تموز من السنة نفسها وفي اقل من ١٢ ساعة هدمها كلها ولجأ عرابي وجماعتهُ الى الفرار بعد ان احرقوا قسمًا كبيرًا من المدينة حيث تسكن الافرنج والسوريون وتحصن مع جنودهِ في كفر الدوار . فانزل الانكليز قسمًا من الجنود استلموا زمام المدينة وما مضى ٣٠ يومًا حتى احتشد في الاسكندرية وفي السويس نحو ٣٠ الفًا من الجنود الانكليزية تحت قيادة السار كارنت ولسلي واذ راى المذكور ان مهاجمة الاعداء من جهة كفر الدوار كثيرة الخطر نقل القوات العسكرية الى الاسماعيلية حيث كانت جيوش الهند محتشدة وضرب عرابي وقواتهِ في تل الكبير حيث كان متحصنًا مع ثلاثين الفًا من الجنود فهزمهُ في ١٤ ايلول وبدد شمل عساكرهِ وسير الجيوش الى القاهرة فدخلوها في اليوم الثاني واستلموا القلعة وقبضوا على عرابي وجماعتهِ ونادوا بسيادة الخديوي وبعد

ان حاكموهم واثبتوا خيانتهم عفوا عن قتلهم ونفوهم الى جزيرة سيلان

وبينما كانت الثورة العرابية قائمةً في مصر نهض رجل من عرب جنوبي افريقية اسمهُ محمد احمد لقب نفسهُ بالمهدي وجمع حولهُ جيوشًا من الناس وتقدم بهم الى البلاد السودانية التي تحت تسلط خديوية مصر فضرب بعض الاماكن وتملكها ونهب اهاليها فارسلت الحكومة المصرية عسكرًا تعزيزًا لحامية تلك الاماكن تحت قيادة هيكس باشا الانكليزي فكسرهم المهدي ومزَّق صفوفهم بعد ان قتل منهم عددًا غفيرًا وكان من جملة القتلى القائد الانكليزي المشار اليهِ . ثم ان المهدي ارسل فرقة من جنودهِ الى السودان الشرقية فاستولوا على عدة مقاطعات مصرية حتى اقتربوا من سواكن التي هي على شواطي بحر الاحمر . فأُرسلت فرقة جنود من مصر لمقاومتهم تحت قياد باكر باشا الانكليزي ولما تقابل الفريقان في ساحة القتال ارتد المصريون الى الوراء منهزمين من غير قتال فقتل منهم في ذلك اليوم نحو ثلاثة الاف ولم ينجُ الاَّ القليلون مع قائدهم باكر باشا فعند ذلك تحمست الدولة البريطانية وقاية للمصالح المصرية وجاهرت بمقاومة الاعداء فارسلت فرقةً تحت رياسة الجنرال كراهام وضربت العرب ضربة هائلة وقتلت منهم اكثر من ٦٠٠٠ شخص ثم عادت العساكر الى القاهرة بعد ان اقاموا في سواكن حامية كافية لردع الهاجين

وكانت انكلترا قد اشارت على الحكومة المصرية ان تتخلى عن البلاد السودانية وتسلخها عن مصر تخفيفًا للمصاريف وللمسئولية وقررت على جعل تخومها وادي حلفا فاذعنت الى ذلك وقبلتهُ الاَّ انهُ لما كانت المراكز السودانية مملوءة من الحامية المصرية وهي في خطر من هجمات المهدي ولم يكن في استطاعة الحكومة ان ترسل جنودًا لانقاذ تلك النقط المتعددة بسبب ارتباكها السياسي والمالي وقع الاستحسان على ارسال غوردون باشا الانكليزي الذي كان حكمدارًا سابقًا على السودان على رجاء ان يصلح الاحوال اذا امكن ويسحب العساكر المصرية من تلك الانحاء فذهب الى الخرطوم وحاصرها نحوًا من سنة

ولكنهُ لم يستطع ان يكبح هياج الاعداء لا بالنفوذ ولا بالقوة فاعتمدت الدولة البريتانية على ارسال جنود انكليزية لانقاذهِ من مكان حجرهِ لانهُ اصبح غير قادر على التخلص فارسلت في خريف سنة ١٨٨٤ عشرة الاف جنديّ تحت رياسة الجنرال لورد ولسلي الذي افتتح الديار المصرية سنة ١٨٨٢ ولما وصلوا الى مقربة من الخرطوم فاجأتهم جنود المهدي والتحم بينهم قتال شديد ان كانت الدائرة فيها على السود فانهزموا بعد ان قتل منهم نحو خمسة الاف رجل . وبينما كان الانكليز منتصرين ومؤملين سرعة دخولهم الى الخرطوم وردت اخبار سقوط تلك المدينة ودخول الاعداء اليها وقتلهم الجنرال غوردون فحبطت امانيهم وخابت مساعيهم واشتد الخطب عليهم اذ لم يكن ممكنًا لهم استخلاص المدينة في الحال لقلة عددهم وتكاثر اعدائهم ضمن اسوار تلك المدينة المحصنة

وكان السبب في سقوط الخرطوم خيانة بعض القواد المصريين ممن كان يركن اليهم غوردون باشا كل الركون واخصهم رجل يقال لهُ فرَج باشا ولم نجد بدًّا من ذكر اسمهِ ليكون محفوظًا في التاريخ على توالي القرون وكأنَّ غوردون ينشد بلسان حالهِ

كل الامور اذا ضاقت لها فَرَجٌ لكن اموري اتاها الضيق من فَرَجِ

وكان غوردون باشا يعز هذا الرجل لما ظهر لهُ فيهِ من حسن الاستعداد فرقّاهُ من درجة الى درجة حتى اوصلهُ الى رتبة الباشاوية وكان يعتمد عليهِ ويظنهُ صادقًا مخلصًا بينما كان هو عدوًّا خائنًا يراسل الاعداء سرًّا ويدبّر على تسليمهم المدينة . ولما تحقق ان الانكليز صاروا على مقربة من الخرطوم وهم فائزون اظهر ما كان مكنونًا وابان ما كان مخفيًّ وفي ٢٦ من شهر كانون الثاني سنة ١٨٨٥ فتح ابواب المدينة للاعداء بينما كان غوردون باشا مستكنًّا في قصر الحكومة فدخلوها من غير مانع وعلت اصواتهم وضجاتهم في الشوارع وهجموا على المسيحيين والافرنج القاطنين هناك فقتلوهم ولما خرج غوردون باشا ليتحقق

سبب ذلك الهياج لاقوهُ باطلاق الرصاص فوقع قتيلاً وهكذا انتهت حياة هذا البطل الشهير

اما الانكليز فلم يعد ممكنًا لهم التقدم على الخرطوم لاستخلاصها نظرًا لقلتهم واذ كان فصل الربيع قد دخل ومياه النيل نقصت لم يبقَ سبيلٌ لتعزيز قوتهم الحربية واستحضار الجيوش من القاهرة على الخصوص لان المحاربة في تلك الديار الحارة في زمن الصيف لا يمكن اتمامها فصمموا حينئذٍ على توقيف الحرب وتاجيلها الى فصل الخريف القادم فرجعوا الى الوراء واخذوا لانفسهم مراكز في جوار دنقلة وطلبوا الامداد من حكومتهم وكان ذلك امرًا معيبًا

ولما كانت الخطة التي سلكها اللورد ولسلي قائد الجيوش الانكليزية في توجيه هذه الحملة عن طريق النيل عوضًا عن طريق سواكن الى بربر هي خطة غير مستقيمة تقرر عدم استوائها قبل معرفة النتيجة عادت الحكومة الانكليزية الى راي العموم الاول وبعثت التجريدة الجديدة عن طريق سواكن فعينت اثني عشر الف مقاتل لهذه الحملة تحت رياسة الجنرال كراهم ليسيروا الى بربر لاعانة زملائهم في الخريف وشرعت في وضع سكة حديد بين سواكن وبربر لا بد انها تاتي بفوائد كثيرة في المستقبل ولكن في هذه ايضًا لم يحصل المرغوب لانهُ بعد ان حلّت الجيوش في سواكن وضربوا الاعداء وابعدوهم عن جوار المدينة وشرعوا في وضع السكة الحديدية صدرت لهم اوامر الوزارة بتاركة القتال والعودة والتاهب لمحاربة الروسيين في جهة افغانستان والله اعلم بما سيكون

اما سياسة الوزارة الانكليزية في الديار المصرية فكانت خالية من الصواب وبمعزل عن الروية والسداد ولذلك اورثت الامة خسران المال والرجال وجلبت عليها العار والوبال وجعلت الناس ينسبون اليها المكر والدهاء والطمع في ضمّ البلاد الى باقي املاكها مع ان ذلك لم يكن من مقاصدها حسب ما صرّحت واوضحت فاذا كان ما قرّرتهُ هو ما تنويهِ حقيقةً فتكون

ارتكبت افظع الاغلاط ويكون ضربها الاسكندرية ودخولها القطر وتداخلها في ادارة الاحكام المحلية وضربها العرب من جهة سوآكن اول مرة ثم رجوعها عنها في الحال وارسالها غوردون باشا الى الخرطوم ثم ارسالها حملة النيل لاجل تخليصهِ وضرب سوآكن ثاني مرة والشروع في مد السكة الحديد الى بربر ثم العدول عن ذلك جهلاً صرفًا لا يرتكبهُ الجهلة من الناس

الفصل الثالث

في تاريخ قرطاجنة

الباب الاول

في وصف قرطاجنَّة وحروبها مع الرومان من سنة ٨٤٠ الى سنة ٢٦٤ ق م

وكانت قرطاجنَّة مدينة عظيمة من اشهر مدن افريقية القديمة والحديثة وكانت مبنية بقرب خليجٍ سمّي اخيرًا بخليج قرطاجنة نسبةً اليها المعروف الآن بخليج تونس. وكانت في تلك الاعصار تتحلَّى كعروسٍ على ما سواها من المدائن نظرًا لابنيتها الجميلة ومراسيها العظيمة ومناظرها المبهجة الزهية. وكان السبب في بنائها انهُ لما قتل بيكماليون ملك صور رئيس الكهنة اسرباس زوج شقيقتهِ ديدون طمعًا بمالهِ وذخائرهِ هربت ديدون المذكورة بعد قتل زوجها من ظلم اخيها وجورهِ مع عددٍ كثير من اكابر بيت ابيها واعيانهِ ومعها ذخائر واموال بعلها الى نواحي افريقية الواقعة تجاه سيسيليا وابتاعت من اهالي تلك النواحي ارضًا واسعة واسست مدينة بالقرب من تونس ودعت اسمها قرطاجنة

اي الجديدة وذلك بمساعدة البعض من اهالي تلك البلاد وغيرهم من الفينيقيين الذين كانوا هناك . ووضعت أُسس هذه المدينة على حسب قول بعض المورخين سنة ٨٧٨ قبل الميلاد وقال آخرون سنة ٨٤٠ وظن البعض انها بنيت في ايام يواش ملك يهوذا سنة ٨٤٦ وهو اصح الاقوال واشهرها . وكان جارباس احد ملوك تلك الاطراف قد خطب ديدون صاحبة قرطاجنة لنفسهِ وذلك بعد ما تغلب على مدينتها فابت وامتنعت لانها كانت قد آلت على نفسها انها لا تتزوج برجلٍ على بعلها المقتول في صور فلما راى عدم ميلها الى الزواج اراد ان يغتصبها قهرًا فاضطرها الحال الى ان حرقت نفسها بالنار وانتهت على هذه الصورة . فهذه بداءة واصل مملكة قرطاجنة التي صارت فيما بعد من الممالك العظيمة بل بالحري من اقوى واقدر ممالك تلك الازمنة واغناها وقد ارتقت الى اعلى درجة في العظمة والاقتدار حتى كادت تهدم بشوكتها وسطوتها اركان قواعد الدولة الرومانية كما سياتي بيان ذلك

اما مدينة قرطاجنة فكانت اولاً مدينة تجارية وقد ورث اهلها من ابائهم محبة التجارة فكانوا منعكفين ومثابرين على الاخذ والعطاء وما زالوا في ازدياد ونمو حتى وصلوا الى درجة ابائهم اهل مدينة صور في الغنى والجاه وفاقوهم باتساع دائرة الحكومة واشتهروا بين الممالك وتكوّنت منهم دولة عظيمة . وكانت حكومتهم في اول الامر حكومة ملكية ثم تحولت الى حكومة جمهورية تحت رياسة رجلين من اعضاء المجلس العالي كانا يفصلان المشاكل ويدبران امور الدولة ويجريان الاحكام التي لم يكن يؤذن باجرائها الاَّ بعد مصادقة المجلس الكبير الذي كان مؤلفًا من ثلاث مئة عضو وقيل من ست مئة . اما شعب قرطاجنة فكان مختلف الاجناس غير ان اصلهم من فينيقية ومما يؤيد ذلك ان لغتهم كانت اشبه باللغة الفينيقية والعبرانية واقرب اليهما حتى في الديانة ايضًا وكانوا موصوفين بالطمع وحب المكاسب . وقد انقطعت عنا اخبارهم وتفاصيل احوالهم نظرًا لاختلاف دياناتهم وشرائعهم عن اديان وعوائد اليونان

وغيرهم من الامم المجاورة فكانوا يكتمونها عنهم خوفًا من غائلتهم لانهم كانوا شعبًا غريبًا ووحيدًا في تلك الجهات ولم يبقَ لنا من تواريخهم الَّا بعض آثار نقوش وغيرها ومنها نعلم ان تجارتهم كانت على نوعٍ ما تجارة صورية وخلاصة الكلام فيهم انهم وسعوا تجارتهم جدًّا حتى فاقت تجارة الاسكندرية لكثرة المعادن التي اكتشفها اباؤهم في اسبانيا ووجود المحاصيل الكثيرة فيها وفي البلاد المجاورة لها . وما زال اهل قرطاجنة في نجاحٍ واقبال حتى امتدت سطوتهم الى اكثر شمالي افريقية كاقليم تونس وطرابلس الغرب وغيرها من ممالك البربر ثم افتتحوا جزائر باليار وجزأً كبيرًا من جنوبي اسبانيا وسردينيا وكورسيكا ومالطة ثم انتهى بهم الحال الى ان تغلبوا على سيسيليا وكان افتتاحهم لهذه الجزيرة سببًا لانتشاب الحروب الهائلة بينهم وبين الرومانيين كما سيأتي خبرهُ

الباب الثاني

في الحروب بين قرطاجنة ورومية من سنة ٢٦٤ ق م الى وقت خرابها الاول سنة ١٤٥ ق م ثم تجديدها ثانيةً وخرابها الاخير سنة ٦٩٢ بعد المسيح

وكان السبب في انتشاب الحروب بين مملكة قرطاجنة ودولة الرومانيين هو ان قومًا من سكان جنوبي ايطاليا كانوا قد التجأُوا الى الرومانيين واستغاثوا بهم على هيرو ملك سرقوسا في سيسيليا فانتدب اهل قرطاجنة لنجدة ملك سرقوسا وكان الرومانيون قد ارسلوا جيشًا عظيمًا لتلك الاطراف فانتصروا وتغلبوا على جيشي سرقوسا وقرطاجنة معًا . فداخل ملك سرقوسا خوف من اهل قرطاجنة ان تطمع في بلادهِ وتستولي عليها بعد ذلك فقطع مع الرومانيين

عهدًا املاً انهُ بمساعدتهم لهُ يطرد جيوش قرطاجنة من اطراف بلادهِ فاجابهُ الرومانيون الى ذلك ومن ثم شبت نيران الحرب بين المملكتين

ولم يكن الرومانيون قبل ذلك الوقت قد امتدوا الى خارج ايطاليا ولم تكن لهم قوة بحرية اصلاً . وكانت مملكة قرطاجنة يومئذٍ في زهوة عظيمة وقوة بحرية واذ كان الرومانيون لا يستطيعون مقاومة اهل قرطاجنة بدون قوة بحرية بنوا نحو مئة سفينة وحاربوا القوم وانتصروا عليهم وغنموا منهم ٥٠ مركبًا ثم زادوا عدد مراكبهم حتى بلغت ٢٠٠ سفينة وانتصروا على القرطاجنيين ثانيةً واستخلصوا منهم ٦٠ مركبًا واستولوا على جزيرة كورسيكا وسردينيا . ثم تقدموا الى نواحي افريقية ونزلوا على مدينة قرطاجنة تحت رياسة القنصل ريغولوس واقاموا عليها الحصار حتى كادوا يتملكونها لولا مساعدة اهل اسبارتة الذين قد امدُّوا اهل قرطاجنة بجيشٍ تحت راية القائد كسانتيب فانكسر الرومانيون واسر قائدهم ريغولوس فارسلهُ اهل قرطاجنة الى رومية لكي يعرض على دولتهِ شروط الصلح . فذهب وعند وصولهِ الى رومية اقنع الحكومة الرومانية بعدم قبول المصالحة وان طلب قرطاجنة هذا صادر عن عجز وضعف ثم عاد الى قرطاجنة كي لا يناقض قولهُ فقتلوهُ وهكذا انتهت الحرب الاولى التي دامت مدة ٢٣ سنة

وكانت مدة الصلح بين المملكتين المذكورتين نحو ٢٣ سنة وعند نهاية هذه المدة قام هنيبال بن هملكار رئيس جيش قرطاجنة في الحرب الاولى وحاصر احدى مدن اسبانيا التي كانت متحزبة مع الرومانيين مدة سبعة اشهر ولما اشتد حصارها احرقها اهلها بالنار خوفًا من وقوعها في ايدي الاعداء ثم تقدم هنيبال المذكور بجيوشهِ الى داخل البلاد وقطع جبال الالب حتى توصل الى شمالي ايطاليا وحارب الرومانيين في وسط بلادهم وانتصر عليهم في جملة وقائع وذبح منهم عددًا لا يحصى وقيل انهُ ارسل اربعة ربوع من خواتم ذهب نزعها عن اصابع القتلى . وبقي هنيبال نحو ١٣ سنة في ايطاليا ولكنهُ لم ينجح اخيرًا النجاح

التام نظرًا لعدم الامداد . وفي اثناء ذلك جهز الرومانيون جيشًا عرمرمًا تحت راية القائد المشهور المدعو شيبيو وكان يلقب بالافريكاني فزحف بجنوده واستخلص جميع املاك قرطاجنة في اسبانيا ثم ركب السفن وتقدم الى سواحل قرطاجنة فلما رأى اهلها الاخطار المحدقة بهم ارسلوا من فورهم يستدعون القائد هنيبال ان يرجع حالاً لنجدتهم فارتد راجعًا بعد مشقات ومتاعب لاتوصف وكان قد فقد جانبًا عظيمًا من جيشه في تلك الحروب الخارجية . فالتقى هذان البطلان في مرجٍ واسع من سهول افريقية وشبت بين العسكرين نيران القتال وكانت الدائرة على عساكر قرطاجنة فانهزمت اقبح هزيمة بعد ان قتل منها عددٌ عظيم . ثم انعقد الصلح بين الطرفين بشرط ان القرطاجنيين يسلمون جميع جزائر البحر المتوسط مع سيسيليا واسبانيا وجميع مراكبهم ما عدا عشرة منها الى الرومانيين وانهم لا يثيرون بعد ذلك حربًا الاَّ باذن رومية وهكذا كانت نهاية الحرب الثانية التي دامت مدة ١٧ سنة

فاستمر الحال بين قرطاجنة ورومية في صلح وسلام من سنة ٢١٠ الى سنة ١٤٩ ق م حين شبت الحرب الثالثة بينهما . وكان السبب في ذلك هو ان ملك نوميديا التي هي الآن جزء من بلاد الجزائر كان بينهُ وبين رومية محالفة وعهود فاختلس بعض الولايات التابعة لاحكام قرطاجنة فقام عليهِ القرطاجنيون وحاربوهُ فاستشاط الرومانيون غضبًا من جرى ذلك بزعمهم ان هذا العمل من باب التعدي من اهل قرطاجنة على شروطهم المعقودة وصمموا على محاربتهم وخراب المدينة عن آخرها فجندوا الجنود وارسلوها الى تلك الاطراف تحت قيادة القائد شيبيو المذكور آنفًا فحاصر المدينة وافتتحها بعد حرب اربع سنين ثم احرقها بالنار وكان ذلك سنة ١٤٥ ق م

وسنة ١٢٠ ق م جلب اليها غراكس الروماني شعوبًا غريبة فرمموها وسكنوها ثم جدَّد عمارها اوغسطس قيصر ولكن ليس في نفس مكانها الاول وهكذا بمدة يسيرة نمت قرطاجنة الجديدة نموًّا عظيمًا حتى صارت من اشهر

مدن افريقية الرومانية ومن ثم استولى عليها الفنداليون سنة ٤٣٩ للمسيح وسنة ٦٩٣ افتتحها العرب وهدموها عن آخرها وما زالت خرابًا الى يومنا هذا ولا يرى من بقاياها العظيمة غير رسومٍ دارسة وآثار بالية وخرابها الآن يبعد من مدينة تونس مسافة ثلاث ساعات الى الشمال الشرقي

الفصل الرابع

في بلاد الحبشة

هذه البلاد واقعة في الجهة الشرقية من قارة افريقية ومحدودة شمالاً ببلاد النوبية وشرقًا بالبحر الاحمر وغربًا ببلاد الشلوك وجنوبًا بسلسلتي جبال متشعبة من جبال القمر يخرج منها عدة انهر متفرعة من بحر النيل الازرق والابيض تمر فيها وتسقي اراضيها . وعدد اهلها نحو اربعة ملايين دُعيت قديمًا باسم ايثيوبيا واشتملت ايضًا على بلاد النوبية مع باقي الولايات والاقاليم الواقعة في داخل افريقية . واول من قصدها واستوطنها قومٌ من بلاد العرب لا يعرف احدٌ عنهم شيئًا خصوصيًّا لقدميتهم وتقادم عهدهم . وكان قسم كبير من هذه البلاد يدعى سبَأ ومنهُ اتت ملكة سبا على ما يُظن الى اورشليم لزيارة الملك سليمان الحكيم . ويقال ايضًا ان الملك الذي تناوب كرسي مملكة الحبشة من نحو ثلاثين سنة من هذا العهد هو من سلالة هذه الملكة المذكورة

وكانت اهالي هذه البلاد في الايام السالفة على دين اليهود ثم دخلت اليها الديانة المسيحية في اواسط القرن الرابع فتنصرت الملكة كنداكة مع جميع رعاياها ثم امتدت النصرانية الى بلاد النوبية في القرن السابع بواسطة القبط الذين التجأُوا الى هناك عند ما افتتح المسلمون ديار مصر . ولكن عند دخول الملك الظاهر بيبرس اليها في القرن الثالث عشر قويت فيها شوكة المسلمين وانتشرت

ديانتهم هناك . واما اهل الحبشة فلا يزالون متدينين بديانة مسيحية ممزوجة بعقائد وطقوس اخرى وبطريركهم يسمى من قبل بطريرك القبط في مصر

وكانت العادة الجارية في هذه البلاد ان ينفوا اكابر امرائهم الى جبل يسمى جشن وهذا الجبل في غاية الارتفاع وهو منتصب على هيئة متساوية من جميع الاطراف حتى انهُ لم يستطع الصعود عليهِ او النزول عنهُ الاَّ بواسطة السحب والتدلي بالحبال . وكان هولاء المنفيون يسكنون في اكواخٍ دنية على قمة هذا الجبل ولا يباح لهم بالنزول الا في وقت مماتهم وكان عموم الاهالي عند موت الملك ينتخبون احد هولاء الامراء ليخلفهُ على الكرسي وفي الجهات العربية شمالي بلاد النوبية جنس من العبيد يسمون الغلاَّ يشبهون القرود في صورة وجوههم وهم طوائف متوحشة ليس لهم مساكن يأوون اليها بل يصرفون حياتهم في صيد الافيال والنعام ويرقدون بين الاحراش كالبهائم وقد وصفهم بطليموس تحت اسم اليفنتوفاج وستروفيوثاج وهما كلمتان يونانيتان معناهما آكلو الافيال وآكلو النعام . فكانت الحبش في الازمنة القديمة تصيد هولاء القوم كما يصيد الناس الوحوش الضارية ولكن من جرى حروب الحبش مع القبائل المحيطة بهم ضعفت شوكتهم فكابدوا مشقات ومضرات كثيرة من جرى مهاجمات الغلاَّ وغاراتهم عليهم

وكانت هذه البلاد في الاجيال المتوسطة مقسومة الى عدة ولايات كل ولاية منها تحت سلطة شيخ او امير واستمرت على مثل ذلك الى ان صعد على سرير ملكها الملك ثيودورس الذي كان على جانب عظيم من الشجاعة والبطش فاخضعها جميعها لسلطتهِ المطلقة ولكنها عصتهُ اخيرًا لظلمهِ وشدة جورهِ على الاهالي لانهُ كان يحملهم احمالاً ثقيلة لا طاقة لهم على حملها . وكان الجهل قد اعمى بصيرتهُ وغير اطوارهُ حتى انهُ لم يعد يقدر العواقب وانتهى بهِ الحال الى انهُ قبض على جماعة من مرسلي الانكليز وغيرهم من سياح الافرنج والقاهم تحت الترسيم بدون ادنى جناية واستمروا في اسرهِ زمانًا طويلاً وقد خاطبتهُ الحكومة

الانكليزية مرارًا عديدة في اطلاق سبيل الأسرى المذكورين وهو يرفض ويمتنع حتى اضطرها الامر اخيرًا الى ارسال جيش لمحاربتهِ تحت قيادة اللورد نايير مؤلف من اثني عشر الف مقاتل منهم اربعة الاف من العساكر الانكليزية الاوربية وثمانية الاف من عساكرها الهندية فوافته هذه الجيوش سنة ١٨٦٨ الى مدينة مجدلا وهي كرسي مملكتهِ فقاتلوهُ بقرب هذه المدينة وكسروا جيشهُ وفرقوهُ وخاف الملك ان يمسي اسيرًا فاخرج غدارة من حزامهِ واطلق الرصاص في فمهِ فوقع قتيلاً وهكذا انتهت حياتهُ . وبعد ان دخل الانكليز مجدلا امر اللورد نايير بدفن الملك فدفن باحتفالٍ عظيم ثم اتى بابنهِ وكان عمرهُ نحو ثمان سنين فعاملهُ معاملة حسنة تليق بعيال الملوك واصحبهُ معهُ الى انكلترا وبهذه الواسطة تخلص القوم من اسر الحبش . ومن اراد ان يعرف اكثر عن تاريخ الحبش وعوائدهم فعليهِ بمطالعة تاريخ الحبش تاليف الخواجا ثيوفيلوس ولد مير الالماني المطبوع في مطبعة المعارف في بيروت

الفصل الخامس

في بلاد المغرب

الباب الاول

في جغرافية هذه البلاد واخبار شعوبها الاقدمين

هذه البلاد يحدها شمالاً الاوقيانوس الاتلانتيكي وبحر الروم وشرقًا بلاد مصر وجنوبًا الصحراء وغربًا الاوقيانوس الاتلانتيكي . وهي تنقسم الآن الى اربع

ولايات اصلية . الاولى مراكش وقاعدتها مدينة مراكش ومن اشهر مدن هذه الولاية بعد مراكش فاس ومكناس ومقدور وطنجة وتتران وسلا وتيفا لالت ومكناسة . الثانية الجزائر ومن اشهر مدنها قسطنطينة ومسفرة وبونة او عنابة . الثالثة تونس وقاعدتها مدينة تونس ومن مدنها الاصلية بيزرتة والقيروان وقابس وهي ثانية القيروان وبها منارٌ مشهور . الرابعة طرابلس وهي تنقسم ايضاً الى ثلاثة اقسام الاول طرابلس وقاعدتهُ مدينة طرابلس ثم منزان وقاعدتهُ مرزوق ثم بلاد برقة وقاعدتها درنة ومن مدنها المشهورة اوجيلة وسيوة . ولكل قسمٍ من هذه الولايات الاربع ولاة وحكام منفردون بسياسة احكامها . اما اصحاب مراكش فهم اعظم واشهر من باقي ارباب الولايات ولذلك يطلق عليهم لقب سلطان لاستقلالهم وامتيازهم على غيرهم واما ولاة طرابلس وتونس فيقال لهم باي وهو عندهم من اعظم الالقاب بعد اسم السلطان واما صاحب الجزائر فكان يقال لهُ داي عند الافرنج . وعدد سكان بلاد المغرب نحو ٢٠ مليون نسمة واكثرهم على دين الاسلام وبينهم كثير من اليهود وقليل من النصارى

ويخترق هذه البلاد من الشرق الى الغرب سلسلة جبال اطلس وتقسمها الى قسمين متميزين فالارض الواقعة في الجهة الشمالية معتدلة الهواء ولاسيما الاراضي المروية بالمياه فانها في غاية الخصب واما الارض الواقعة تجاه الجنوب المسماة بلاد الجريد فهي براري واسعة موحشة وليس بها الا سهول محرقة مشوية بالملح عرضةً لحرارة الشمس تفرّ بها الرياح والوحوش وعلى الخصوص الجراد الذي ياتيها ويغطي اراضيها واما جبل اطلس فهو مرتفع وفاصل بين فاس ومراكش وفي جوانبهِ غابات كثيرة مملوءة بالاشجار . وفي هذه البلاد جميع النباتات الموجودة في اوربا الجنوبية ولو كان اهلها يعتنون بها حق الاعتناء لزادت عن ذلك وفيها كثير من شجر النخل والزيتون والنارنج والموز والتين والتوت والبلوط والعنب وقصب الكسر وفيها انواع من الوحوش الضارية كالسباع

والضباع والافاعي المضرة والعقارب وغير ذلك من الاجناس وفيها كثير من الخيول الحسان والهجن المستظرفة ويقال ان بعض هذه الهجن يمكنهُ ان يقطع في يوم واحد ستة وثلاثين فرسخًا من الارض

ان معرفة الاقدمين كانت قليلة من جهة الاقاليم والاراضي الممتدة من مصر الى جنوب المحيط وبلاد البربر فكانوا يعبّرون عنها باسماء مختلفة ولم يكونوا يطلقون اسم افريقية الّا على بلاد مصر وما جاورها من الاقاليم لان معرفتهم كانت محصورة في الاراضي الشمالية المعروفة الآن بالبلاد المغربية ولذلك لم يطلقوا عليها اسم افريقية الاَّ في زمن الدولة القرطاجنية وأُطلق هذا الاسم اولاً على مملكة قرطاجنة فقط ثم اخذ يمتد يومًا بعد يوم حتى عمَّ جميع ممالك القارة وصار لقبًا لها

وقد اختلف المورخون والعلماء في اصل سكان هذه البلاد فزعم بعضهم ان اصل المغاربة من اسيا نزحوا من بلادهم في الازمنة القديمة وقصدوا بلاد افريقية وحلّوا في شماليها وابتنوا لهم فيها منازل ومساكن وقال آخرون هم من عرب اليمن وقيل من بني غسان وذهب بعضهم الى انهم اخلاط من بني كنعان وعماليق . وكان السبب في رحيلهم الى تلك البلاد غزوات بعض الملوك الذين افتتحوا بلادهم وثقلوا عليهم فانهزموا من امامهم وقصدوا الديار المصرية وعند وصولهم اليها منعتهم ملوكها عن النزول بجوارهم فرحلوا عنهم وانتشروا في ساحات البلاد المغربية فنزل بعضهم على السواحل البحرية ونزل البعض في الجهات الداخلية وسكنوا في تلك الاماكن واستوطنوها وشيدوا فيها القرى والمدن وتكونت منهم مع تمادي الزمان جملة قبائل وعشائر كصنهاجة ومغرا وزناتة وغيرهم من البطون والافخاذ . ومما يدل على ان اصلهم من بني كنعان وآل فينيقية بعض كتابات قديمة منقوشة على بعض الاثار القديمة باللغة الفينيقية منها هذه العبارة (نحن الذين انهزمنا من امام يشوع بن نون المغتصب) وهذا يقرب من العقل لانهُ عند رحيل بني اسرائيل من مصر وقدومهم الى

ارض كنعان وافتتاحهم تلك البلاد لا بد ان كثيرين من سكانها رحلوا منها واستوطنوا في تلك الجهات التي نحن بصددها وربما كان هناك بعض القبائل المتبربرة القديمة العهد. فاختلطوا بعضٌ ببعض وتكونت منهم مع تمادي الازمان جملة عشائر وقبائل

وسميت بلادهم قديمًا بلاد البربر قيل لها ذلك حسب زعم بعضهم لخشونة اصوات اهلها وبربرة لسانهم غير المفهومة ولكن ليس ذلك فقط بل الارجح لكونهم في مبدا امرهم كانوا في غاية التوحش والتبربر حتى انهم على ما قيل كانوا ياكلون لحوم الحيوانات نيئة ويقتاتون من عشب الارض كباقي الوحوش وكانوا يرقدون على بساط الارض اينما حلوا . ولكنهم مع تداول الايام اخذوا ينتقلون من حالتهم الوحشية الى حالةٍ احسن واصلح وهكذا بانضمامهم ضمن مدائن وقرى خرجوا شيئًا فشيئًا عن حالتهم المتبربرة وبالتدريج ارتبطوا مع باقي الشعوب بروابط اسرعت تمدنهم على نوعٍ ما وعما قليل شيدوا المدن العظيمة وابتنوا لهم سفنًا وصاروا اصحاب سطوة واقتدار واستمرت البلاد تحت تسلطهم عدة قرون وكانت مدينة قرطاجنة من اعظم واشهر مدائنهم ولشهرتها وسطوتها قد افرزنا لها فصلاً مختصًّا باخبارها ووقائعها

وما زالت البلاد في ايديهم وتحت تصرف احكامهم الى ان افتتحها الرومانيون بعد حروب ووقائع كثيرة قد ذكرنا اشهرها في اخبار قرطاجنة . وكان كلما تقدم الرومانيون في فتح البلاد ترحل القبائل من امامهم وتلتجي الى الجبال والاماكن الوعرة بحيث لا يقدر الرومانيون ان يتوصلوا اليهم وهي القبائل المعروفة الآن عند الافرنج بالنوميدية واما باقي السواحل كمراكش والجزائر وغيرها فكان يطلق عليها اسم موريتانيا وعلى سكانها اسم مور فخضعوا للرومانيين واختلطوا معهم واعتنقوا ديانتهم وسنة ١٧ للميلاد قام احد البرابرة المدعو تاكفراس واستمال قلوب الناس اليهِ وجعل يحرضهم على العصيان وتخليص البلاد من نير السلطة الرومانية فاجابهُ الى ذلك اكثر الاهالي

وحاربوا الرومانيين واستمرت الحروب بينهم نحو سبع سنين ولكنهم لم ينجحوا

وسنة ٤٣٧ للميلاد نشر بونيفاس الوالي الروماني علم العصيان ضد العاصمة وخرج عن طاعة دولتهِ وتعلقت امالهُ بالاستقلال على البلاد المغربية فارسل الى الفنداليين الذين كانوا يومئذٍ سكان الاندلس في اسبانيا يلتمس منهم المساعدة والامداد على بلوغ غايتهِ فاجابهُ ملكهم جنساريك الى ذلك وقصد افريقية بثمانين الف مقاتل وعند وصولهِ الى تلك السواحل اخذ يفتح المدن والاقاليم ويضيفها الى احكامهِ فلما راى بونيفاس ان القوم الذين كان يامل مساعدتهم قد صاروا لهُ من جملة الاعداء والاخصام ندم على ما فعل واضطر ان يدافع عن نفسهِ خوفًا من الغلبة ولكنهُ بعد جملة وقائع انكسر وتفرق جيشهُ وتبدد واستولى الفنداليون على تلك البلاد واستمرت تحت قبضة ايديهم الى زمن الامبراطور جوستنيان حينما ارسل جيشًا عرمرمًا سنة ٥٢٥ للميلاد تحت رياسة القائد بليساريوس وافتتحها ومن ذلك الوقت انقرضت الامة الفندالية ولم يعد لها ذكر

الباب الثاني

في دخول المسلمين الى بلاد الغرب وافتتاحهم مدنها واقاليمها وباقي ولاياتها

اما قوة الدولة الرومانية بعد انقسامها الى سلطنتين شرقية وغربية فاخذت تضعف شيئًا فشيئًا بعد تلك السطوة والهيبة العظيمة اذ لا يخفى ان كل مملكة انقسمت على ذاتها لا تثبت ولا تدوم . وكان العرب يومئذ في نجاحٍ عظيم فانهم بعد ما فتحوا سورية ومصر وجهوا افكارهم نحو هذه البلاد فقصدها عمرو بن

العاص والي مصر بجيش جرار سنة ٦٤٤ فقطع بلاد النوبية وفتح برقة وما جاورها من الاقاليم وكان قد حدث في غيابه ثورة في الاسكندرية الزمتهُ بالرجوع الى الديار المصرية لتمهيد القلاقل والفتن في تلك الاثناء توفي عمر بن الخطاب وتولى مسند الخلافة بعدهُ عثمان بن عفان فعزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانهُ عبد الله بن سعد فزحف هذا الوالي الى بلاد المغرب وحارب القائد غريغوار رئيس جيش الروم فكسرهُ ومزق شمل عسكرهِ وفتح تونس وطرابلس وكثيرًا من المدن والبلدان ثم تقدم نحو قرطاجنة وارسل الى اهلها يقول لهم انهُ مستعد ان يتحول عنهم ويترك لهم باقي البلاد التي فتحها بشرط ان يدفعوا لهُ مليونين ونصفًا من الدنانير فاجابوا طلبهُ ودفعوا لهُ المال وهكذا انثنى راجعًا الى مصر تاركًا جميع فتوحاتهِ

فلما بلغ هذا الخبر حكومة القسطنطينية استعظمت ذلك المبلغ الذي دفعهُ رعاياها في الغرب للمسلمين فحقدت على عمالها واتهمتهم بالخيانة وصممت على الانتقام منهم وسنة ٦٦٢ للميلاد ارسل الامبراطور قسطنطس الثاني الى والي المغرب يطلب منهُ مبلغًا على قدر المبلغ الذي دفعهُ الاهالي للمسلمين فلم يجبهُ الوالي الى هذا الطلب واتحد سرًّا مع معاوية بن ابي سفيان راس الدولة الاموية على فتح البلاد واستخلاصها من ايدي الرومانيين وانهُ يكون مساعدًا لهُ في الباطن فاغتنم معاوية هذه الفرصة وارسل جيشًا تحت قيادة معاوية بن خديجة وعبد الله بن الزبير لفتح بلاد المغرب فنجحا نجاحًا عظيمًا وكسرا الجيوش الرومانية . وسنة ٦٦٦ ارسل جيشًا اخر لنجدة الجيش الاول ثم ارسل في سنة ٦٧٠ نجدة اخرى تحت راية الامير عقبة بن نافع ففتح هذا الامير كل البلاد الشمالية من الشرق الى الغرب الاقصى وافتتح كل بلدة مسكونة في تلك الجهة ومهد باقي الاقطار وسنة ٦٧٥ بنى في حرشٍ غاصٍ بالوحوش الكاسرة مدينة القيروان فصارت من ذلك الوقت مقرًا ومركزًا لولاة الاسلام على البلاد المغربية واضحت دارًا للعلوم ومقصدًا للطلاب .

واخيرًا حصرهُ في تلمسان وقتلهُ

فاستولى على المملكة بعده اخوهُ خير الدين المشهور باسم بربروس واخذ بثار اخيهِ ثم رتب احوال المملكة ونظم امورها واذ كان يخاف من هجمات الاسبانيوليين وغاراتهم على بلادهِ استعان بالسلطان سليمان الثاني ودخل تحت ظل حمايتهِ فامدهُ بالجيوش العثمانية . ثم سلمهُ رياسة العمارة البحرية وجعلهُ قبطان باشي على مراكبهِ الحربية وكان بربروس قد اضمر ان يفتح جميع بلاد الغرب ويقدمها خدمةً للسلطان في مقابلة جميلهِ وعند ما شرع في هذا الامر اضطربت اشراف ايطاليا من سطوتهِ واتحدوا مع شرلكان امبراطور اسبانيا على حربهِ فحاربهُ شرلكان وقهرهُ وبدد جيشهُ وسلم زمام البلاد لملوكها الاصليين

وسنة ١٥٧٤ للميلاد جهز السلطان سليم الاول جيشًا عرمرمًا وارسلهُ مع عمارة بحرية تحت قيادة سنان باشا لافتتاح تونس وباقي بلاد المغرب فافتتحها من الاسبانيوليين ثانيةً بعد حروب ووقائع هائلة ومن ذلك اليوم صارت جميع البلاد ما عدا مملكة مراكش خاضعة للدولة العثمانية . وكانت الجزائر قد استقلت نوعًا سنة ١٥٨٥ واستمرت كذلك الى سنة ١٨٣٠ حين حاربتها دولة فرانسا بسبب تعدي اهلها على السفن الفرنساوية وعلى حقوق سفنها ورعاياها المقيمين فيها فافتتحت في اول الامر جانبًا منها وكان اعظم مقاوميها في هذه الحروب الشيخ محيي الدين الحسني الذي طلب منهُ اهالي الجزائر جملة مرار ان يملك عليهم وكان يابى الملك تزهدًا فعند ما ضايقهم الفرنساويون قصدوا اجبارهُ على ان يتسلطن عليهم اما هو فبقي مصرًّا على عدم قبولهِ فتهددوهُ بالقتل ان لم يقبل فما قبل بل اعطاهم ابنهُ عبد القادر واشار عليهم ان يجعلوهُ سلطانهم فبايعوا عبد القادر المذكور في الملك وهو من مشاهير هذا العصر في الشجاعة وعلو الهمة فقاوم الفرنساويين اشد مقاومة وكانت بينهُ وبينهم مواقع وحروب كلية لا يسعنا ضيق المقام التعرض لذكرها ثم سلم اخيرًا في ٢٣ كانون الاول سنة ١٨٤٧ للميلاد بعد ان حاربهم مدة ست عشرة سنة . ثم ارسلوهُ الى فرانسا وبقي هناك

الى سنة ١٨٥٢ حين اعتقهُ نابوليون الثالث من الاعتقال وعين لهُ مرتبًا سنويًّا يدفع اليهِ من خزينة الدولة فاتى وسكن دمشق ولم يزل قاطنًا بها الى ان توفاهُ الله

واما بلاد تونس فكانت كالديار المصرية على نوع من الاستقلال تحت مال معلوم تدفعهُ سنويًّا الى الدولة العثمانية الى ان كانت سنة ١٨٨١ ادخلتها فرانسا تحت حمايتها واشهرت سيادتها عليها عنوةً واقتدارًا غير انها ابقت سياستها في ايدي اهاليها وواليها الحالي يقال لهُ سيدي علي باشا اخا محمد صادق باشا الوالي السابق ويلقب بالباي وهو مشهور بحسن الادارة وعلو الهمة

وعدد اهالي هذه البلاد يبلغ ٢١٠٠٠٠٠ نسمة وعاصمتها مدينة تونس عدد سكانها ١٢٥ الفًا اكثرهم مسلمون وليس لهذه البلاد شهرة عظيمة في التجارة واكثر وارداتها الاقمشة الانكليزية وقد بلغت قيمتها سنة ١٨٨٣ نحو ٤٤ مليون قرشًا واما صادراتها فنحو ١٩ مليونًا تحصر في بعض اصناف من محصولاتها كزيت الزيتون والاسفنج والبلح والبقول والسمك المملح والصوف والطربوش

اما البلاد الوحيدة التي حفظت استقلاليتها من سنة ١٥٥٩ الى هذه الايام فهي مراكش وهي من اشهر واعظم الاقسام المقدم ذكرها واستقلالها استقلالٌ حقيقيٌّ دون غيرها من ممالك بلاد المغرب وسلطانها الحالي يقال لهُ السيد محمد بن عبد الرحمن وهو من افاضل الناس موصوف بالوداعة والمزايا الحميدة

واخيرًا حصرهُ في تلمسان وقتلهُ

فاستولى على المملكة بعده اخوهُ خير الدين المشهور باسم بربروس واخذ بثار اخيهِ ثم رتب احوال المملكة ونظم امورها واذ كان يخاف من هجمات الاسبانيوليين وغاراتهم على بلادهِ استعان بالسلطان سليمان الثاني ودخل تحت ظل حمايتهِ فامدهُ بالجيوش العثمانية . ثم سلمهُ رياسة العمارة البحرية وجعلهُ قبطان باشي على مراكبهِ الحربية وكان بربروس قد اضمر ان يفتح جميع بلاد الغرب ويقدمها خدمةً للسلطان في مقابلة جميلهِ وعند ما شرع في هذا الامر اضطربت اشراف ايطاليا من سطوتهِ واتحدوا مع شرلكان امبراطور اسبانيا على حربهِ فحاربهُ شرلكان وقهرهُ وبدد جيشهُ وسلم زمام البلاد لملوكها الاصليين

وسنة ١٥٧٤ للميلاد جهز السلطان سليم الاول جيشًا عرمرمًا وارسلهُ مع عمارة بحرية تحت قيادة سنان باشا لافتتاح تونس وباقي بلاد المغرب فافتتحها من الاسبانيوليين ثانيةً بعد حروب ووقائع هائلة ومن ذلك اليوم صارت جميع البلاد ما عدا مملكة مراكش خاضعة للدولة العثمانية . وكانت الجزائر قد استقلت نوعًا سنة ١٥٨٥ واستمرت كذلك الى سنة ١٨٣٠ حين حاربتها دولة فرانسا بسبب تعدي اهلها على السفن الفرنساوية وعلى حقوق سننها ورعاياها المقيمين فيها فافتتحت في اول الامر جانبًا منها وكان اعظم مقاوميها في هذه الحروب الشيخ محيي الدين الحسني الذي طلب منهُ اهالي الجزائر جملة مرار ان يملك عليهم وكان يابى الملك تزهدًا فعند ما ضايقهم الفرنساويون قصدوا اجبارهُ على ان يتسلطن عليهم اما هو فبقي مصرًّا على عدم قبولهِ فتهددوهُ بالقتل ان لم يقبل فما قبل بل اعطاهم ابنهُ عبد القادر واشار عليهم ان يجعلوهُ سلطانهم فبايعوا عبد القادر المذكور في الملك وهو من مشاهير هذا العصر في الشجاعة وعلو الهمة فقاوم الفرنساويين اشد مقاومة وكانت بينهُ وبينهم مواقع وحروب كلية لا يسعنا ضيق المقام التعرض لذكرها ثم سلم اخيرًا في ٢٣ كانون الاول سنة ١٨٤٧ للميلاد بعد ان حاربهم مدة ست عشرة سنة . ثم ارسلوهُ الى فرانسا وبقي هناك

الى سنة ١٨٥٢ حين اعتقهُ نابوليون الثالث من الاعتقال وعين لهُ مرتبًا سنويًّا يدفع اليهِ من خزينة الدولة فاتى وسكن دمشق ولم يزل قاطنًا بها الى ان توفاهُ الله

واما بلاد تونس فكانت كالديار المصرية على نوع من الاستقلال تحت مال معلوم تدفعهُ سنويًّا الى الدولة العثمانية الى ان كانت سنة ١٨٨١ ادخلتها فرانسا تحت حمايتها واشهرت سيادتها عليها عنوةً واقتدارًا غير انها ابقت سياستها في ايدي اهاليها وواليها الحالي يقال لهُ سيدي علي باشا اخا محمد صادق باشا الوالي السابق ويلقب بالباي وهو مشهور بحسن الادارة وعلو الهمة

وعدد اهالي هذه البلاد يبلغ ٢١٠٠٠٠٠ نسمة وعاصمتها مدينة تونس عدد سكانها ١٢٥ الفًا اكثرهم مسلمون وليس لهذه البلاد شهرة عظيمة في التجارة واكثر وارداتها الاقمشة الانكليزية وقد بلغت قيمتها سنة ١٨٨٢ نحو ٤٤ مليون قرشًا واما صادراتها فنحو ١٩ مليونًا تحصر في بعض اصناف من محصولاتها كزيت الزيتون والاسفنج والبلح والبقول والسمك المملح والصوف والطربوش

اما البلاد الوحيدة التي حفظت استقلاليتها من سنة ١٥٥٩ الى هذه الايام فهي مراكش وهي من اشهر واعظم الاقسام المقدم ذكرها واستقلالها استقلالٌ حقيقيٌّ دون غيرها من ممالك بلاد المغرب وسلطانها الحالي يقال لهُ السيد محمد بن عبد الرحمن وهو من افاضل الناس موصوف بالوداعة والمزايا الحميدة

الفصل السادس

في جزيرة مداكسكر

لا يخفى ان في قارة افريقية عدة جزائر متفرقة منها واقعة على شرقيها ومنها على غربيها اما الجزائر الواقعة على الجهة الشرقية فمنها جزائر كومورو وسكانها نحو ٣٠ الف نسمة اكثرهم من العرب والمسلمين. وجزيرة بوربون التابعة احكام فرانسا وعدد اهلها ٦٥ الف نفس وجزيرة موريتوس وملحقاتها التي هي تحت تسلط الانكليز وجزيرة سومطرا او غيرها . واما الجزائر الواقعة على غربي القارة فمنها جزيرة مدابرا وجزر الراس الاخضر وهذه جميعها تحت حكم البرتوغال . ثم جزيرة القديسة هيلانة التي بيد الانكليز وجزائر كناري او الخالدات المختصة باسبانيا وغيرها ولكن اذ كانت جزيرة مداكسكر اعظمها جميعها في الاتساع وعدد الاهالي راينا ان نذكر شيئًا عنها قبل الانتقال من هذه القارة

ان جزيرة مداكسكر واقعة في بحر الهند للجهة الجنوبية الشرقية من قارة افريقية وتحسب قسمًا لقربها اليها مع انهُ يفصلها عنها خليج موزامبيك الذي مضيق عرضهِ ٢٠٠ ميل . ومساحة هذه الجزيرة فسيحة فان طولها من الشمال الى الجنوب ٩٥٠ ميلاً ومعدل عرضها ٢٥٠ ميلاً على انهُ في بعض الاماكن يبلغ ٣٥٠ ميلاً فعلى ذلك تعادل مساحتها مساحة مملكة فرانسا تقريبًا

اما عدد سكانها على ما ذكرهُ الجغرافيون فخمسة ملايين وهم شعوب وقبائل مختلفة متفرقون بين جبالها وسهولها وديانتهم وثنية اذ لم يوجد بينهم من يهديهم ويرشدهم لمعرفة الخالق . واما الآن فقد دخلت الديانة المسيحية الى هذه الجزيرة دخولاً عجيبًا بواسطة مرسلين انكليز ولاتينيين وغيرهم واخذت تعاليم الانجيل

تنتشر بينهم وتمتد حتى ان عدد المسيحيين الان يبلغ نحو ٣٠٠ الف نفس من حملتهم الملكة الحالية ووزراؤها وذوو الرتب والمناصب . وهذا التغيير العجيب تم في مدة خمسين سنة فقط . والمامول انهُ في وقتٍ قريب تتلاشى الديانة الوثنية من هذه الجزيرة وتنتشر معرفة الخلاص بين جميع شعوبها

اما هواءُ هذه الجزيرة فعلى الاغلب حارٌ وفي بعض الاماكن تشتد الحرارة الى درجة غير محتملة بحيث تكون قتالة للاوربيين القادمين من بلادٍ باردة واما فصولها فتختلف عن باقي الفصول المالوفة للناس اذ لا يكون فيها سوى فصلين فقط وهما الشتاءُ والصيف

فصيفها يبتدئُ من شهر تشرين الثاني وينتهي في نيسان والشتاءُ من ايار الى نهاية تشرين الاول . واما تربتها فجيدة الى الدرجة القصوى وتاتي بنتائج عظيمة اخصها الارز وهو المعول عليهِ في ماكولات الاهالي ويرسل منهُ جانب الى الخارج برسم التجارة ولو كان لاهلها زيادة خبرة ومعرفة في امر الزراعة لكانت البلاد في نجاح اكثر مما هي عليهِ الان . ومن مستغربات اشجار هذه الجزيرة شجرة يقال لها شجرة السياح وهي اشبه بشجرة الموز ومن خواصها انهُ يوجد في اسفل كل غصن منها ورقة ملتفة على شكل الكيس تعبا فيها مياه المطر فيستعين بها المسافرون في اسفارهم . قال بعض السياح كنت مسافرًا ذات يوم في مداكسكر فوصلت الى غابة متسعة فيها كثيرٌ من هذه الاشجار واذ كنت عطشانًا اخذ احد غلماني رمحًا وطعن بهِ غصن شجرة منها فخرج ماءٌ عذب بارد مقدار ١٥٠ درهمًا فشربت وارويت ظماي وسرت شاكرًا

وفي هذه الجزيرة بعض المعادن كالنحاس والحديد والرصاص والقصدير والزئبق وغير ذلك ولكن لم يستخرج منها الى الان غير الحديد فقط . وبها انهر عديدة وجبال شامخة ارتفاع بعضها نحو ٩٠٠٠ ذراع . ومن اعظم مدنها مدينة انتاناناريفو وهي عاصمة المملكة ومقر كرسي الحكومة . وعدد سكانها نحو ٨٠ الف نسمة . ومدينة تاماتاف وهي اسكلة بحرية كثيرة التجارة واهلها نحو ٣٠٠٠ نفس

اما شعوب هذه الجزيرة فينقسمون الى قسمين كبيرين . الاول يقال لهم شعوب السقلوان وهم يشبهون العبيد في اللون والعوائد يسكنون غربي جبال الجزيرة . والثاني شعوب الماليكاز او المالياز ومنها قبيلة الهواز التي سادت على باقي قبائل الجزيرة سطوةً وشوكةً والتي منها العائلة الملكية الحاضرة . ولذلك يطلق على حكومة مداكسكر حكومة الماليكاز وعلى شعبها شعب الماليكاز . والمظنون ان هذا الجنس خرج في الاصل من شبه جزيرة ملقًا او ملايا في الهند الشرقية وانتشروا في عدة اماكن اخصها جزائر المحيط فان اغلب الاهالي منهم . ويمتاز هذا الجنس بشدة اسمرار البشرة وبطول الشعر وتدليهِ وسوادهِ وبفخامة الانف وتفرطحهِ وبكبر الاعين ولمعانها .

اما عوائد اهالي مداكسكر فقبيحة ويكفينا ان نقول انهم عبدة اصنام فليستنتج القارئ ما وراء ذلك من الصفات . ومن عوائدهم الوحشية عملية احتيالية يسمونها طنجينا اي عملية كشف السحر استعملوها في القضايا الواقع فيها الشبهة على بعض الناس من جهة كونهم يستعملون السحر او لهم مداخلة في فتنة سياسية او ميل نحو النصرانية . وكان اعتقاد العامة في صدق هذه العملية بهذا المقدار قويًا حتى ان الابرياء المتهومين في الشكايات المذكورة فضلاً عن كونهم يخضعون ويسلمون بصحة تلك العملية كانوا يطلبون ان تجرى عليهم برغبةٍ شديدة لتبرير انفسهم امام الشعب مع ان الاكثرين منهم كانوا يموتون من مخاطرها وتموت براءتهم معهم . اما كيفية تلك العملية فانهم كانوا ياتون بالشخص المتهم امام رئيس الطنجينا (ويقال لهُ اللاعن) فيضع في فمهِ ثلاث قطع من جلد دجاجة ليبلعها بدون مضغ ثم يطعمهُ قليلاً من الارز المفلفل وبعد ذلك ياتي بجوزةٍ من السم فينحت منها قليلاً في عصير موزة ويسقيها للمتهم ثم يضع يدهُ على راسهِ ويبتدئ بهذه الصلاة قائلاً اسمعي اسمعي اسمعي واصغي جيدًا يا ايتها الرايمانامانكو(١) انتِ بيضة مستديرة من عمل الله انتِ التي تنظرين وليس لكِ

(١) اي المنتشة او الفاحصة

اعين انتِ التي تسمعين وليس لكِ اذان انتِ التي تجيبين وليس لكِ فم اسمعي اذًا واصغي جيدًا يا ايتها الرايمانامانكو . ثم يطيل الكلام في تلك الصلاة التي لم نقف الاَّ على ما ذكرناهُ منها وغاية قصدهم بهذه الاستغاثة للنجينا ان تفحص احوال المتهم وتظهر ذنبهُ فان كان بريًا تجعلهُ يستفرغ ما ابتلعهُ من جلد الدجاجة صحيحًا كما كان ولكن اذا كانت المعدة قد هضمتها ولم يخرج القيء شيئًا منها يحسبون ذالك دليلاً واضحًا على ذنب المتهم فيبتدئون حينئذٍ بضربهِ ضربًا اليمًا حتى يموت ثم يدفنونهُ في حالة الذل والاهانة وفوق كل ذالك يضبطون جميع املاكهِ ويغرمون اقاربهُ . وكان عدد الذين يموتون بهذه الميتة الشنيعة ثلاثة الاف شخص كل سنة ولكن هذه العادة قد بطلت الآن بواسطة دخول الديانة المسيحية

اما تاريخ هذه الجزيرة فمجهول ولا يعلم كيف او اي متى سكنها الناس ومع انهُ كان للعرب والمغاربة صلة قديمة معها في التجارة لم يسمع عنها شيء الاَّ في الجيل الثالث عشر من ماركوبولو الفنيسياني الذي اشتهر في سياحتهِ الطويلة في اسيا وافريقية فانهُ يسميها ماغاستر مع انهُ لم يدخلها . واول من زار هذه البلاد لورنس الميدا حكمدار بورتوغار في الهند فانهُ مرَّ عليها وهو متوجه الى محل ماموريتهِ سنة ١٦٠٥ . وقد حاول البورتوغاليون مرارًا عديدة اخضاع هذه الجزيرة وامتلاكها فاستولوا على بعض سواحلها ولكنهم اخيرًا طُرِدوا منها

وكان الفرنساويون قد اجتهدوا ان يضموها الى املاكهم في افريقية واستعملوا جملة وسائط الى ذالك فلم تجدهم نفعًا لانهم حصلوا على مقاومات شديدة من الاهالي ومن الانكليز ايضًا الذين مع انهم جيران في اوربا لم يسروا بقربهم في افريقية واسيا . ففي سنة ١٦٤ قدم الى تلك الجزيرة جماعة من الفرنساويين واستوطنوا في بعض اطرافها . وسنة ١٧٧٤ ارسلت فرانسا الكونت بنياوسكي ليقيم هناك بعض مراكز حربية فذهب في جيشٍ عديد وعند وصولهِ الى تلك

الجهات اظهر العصاوة على الحكومة طمعًا بالاستقلال فبعثت دولة فرانسا لمحاربتهُ وقتلتهُ . وسنة ١٨١٥ تملك الفرنساويون بعض مراكز على الشواطي البحرية لكنهم التزموا اخيرًا ان يتركوها بسبب قيام الاهالي عليهم . وفي اثناء ذلك وقع الاتفاق بين دولتي انكلترا وفرانسا ان تعتزلا كلتاهما عن استملاك شيءٍ من اراضي الجزيرة وان يتركاها لاهلها

وسنة ١٨٥٥ استحصل رجلٌ فرنساوي يدعى لامبر رخصةً من الملكة رانافالونا الاولى لاقامة معمل للسكر شراكةً بينهُ وبينها . فبسبب هذه الشراكة صار لهُ وسيلة للتردد على العاصمة والتعرُّف بوزراء الحكومة . ثم اتصل بعد ذلك بمعرفة الامير راكوتو وليّ العهد فكان يشرح لهُ عن التجارة ووسائط الغنى الناتجين من اصلاح الزراعة وتحسين احوال البلاد فاتفقا ذات يوم سرًّا على اقامة شراكة لاجل هذه الغاية ووعد الامير راكوتو بانهُ عند جلوسهِ على سرير الملك يعطي لامبر اراضي كثيرة للزرع وحفر المعادن وغير ذلك من الامتيازات التي من شانها ان تجلب المكاسب وتصلح امور البلاد . فلما تولى الامير راكوتو زمام المملكة لُقّب راداما الثاني والتصق بهِ جملة من الاجانب واحاط بهِ اصحابهُ الاقدمون ممن كانت تحلو لهُ عشرتهم فانعكف على الملاهي واللذات واهمل عهودهُ مع لامبر فكان يطالبهُ ويلازمهُ ويشدد عليهِ في ذلك حتى التزم اخيرًا ان يجري ما وقع عليهِ الاتفاق فاصدر اوامرهُ باعطاء لامبر قسمًا كبيرًا من الاراضي واذن لهُ باستخراج المعادن وضرب النقود وعمل الطرقات والترع وغير ذلك من الامور التي اجراها على غير رضى وزرائهِ واركان دولتهِ

وفي السنة الثانية من حكمهِ حدثت ثورة في البلاد قتل بها هذا الملك وخلفتهُ الملكة رازوهرينا وعند جلوسها توقفت الحكومة عن اجراء اوامر الملك السابق واعلنت للفرنساويين بانها لا تقبل ولا تسلم بتلك الموافقة السرية التي جرت بغير معرفة روسائها فتشكى الفرنساويون من تلك المعاملة واقاموا الحجة على حكومة مداكسكر واوجبت فرانسا الكومودور دوپري ان يقصد

الجزيرة ويسعى في تحصيل مطاليب رعاياها فذهب اليها بثلاث قطع حربية واخذ يتهدد الحكومة ولكنهُ لم يستطع ان يجري بالفعل تلك التهديدات نظرًا لما يعهدهُ من الموافقة الواقعة بين فرانسا وانكلترا من جهة اعتزالهما عن المداخلة والاغتصاب . ولكن اذ كان لابد من صرف القضية على وجهٍ من الوجوه ارسلت حكومة مداكسكر سفراء الى فرانسا وانكلترا في اواخر سنة ١٨٦٣ وهناك انفضت هذه المسئلة بالزام الحكومة ان تدفع للفرنساويين مليون فرنك مقابلة لاسقاط دعواهم

ثم خلف هذه الملكة المذكورة الملكة رانا فالونا الثانية في اول نيسان سنة ١٨٦٨ وتتوجت في ٣ ايلول من السنة المذكورة وتزوجت بالصدر الاعظم في ١٩ شباط سنة ١٨٦٩ وتعمدت مع زوجها في ٢١ الشهر المذكور من قسيس وطني انجيلي يسمى اندريا ميبلو وفي تلك السنة امرت الحكومة باتلاف الاصنام وهياكلها من اقليم ايمرينا الذي هو اعظم اقليم في تلك البلاد ومقر اقامة الحكومة



القسم الثالث

في قارَّة اوروبا

الفصل الاول

في الكلام على هذه القارة ومايتعلق بها

ان قارة اوروبا اصغر القارات ومساحتها ربع مساحة اسيا تقريبًا وثلث مساحة افريقية ولكنها مع ذلك هي اعظمهنَّ واشهرهنَّ باعتبار الغنى والقوة والتمدن ولا سيما في المآثر وامتيازات الصنائع والعلوم وهي قسمٌ من نصف الكرة الشرقي يفصلها عن اسيا جبال اورال وعن افريقية بحر الروم او المتوسط لتوسطهِ بين القارتين وبوغاز جبل طارق الذي يفصل اوروبا عن افريقية بواحد وعشرين ميلاً وهي محدودة غربًا بالاوقيانوس الاتلانتيكي وشمالاً ببحر الثلج الشمالي

اما عدد سكانها فيبلغ ٣٠٠ مليون تقريبًا وتنقسم شعوبها الى اربعة اقسام اصلية الاول الشعوب الجرمانية وهم سكان جرمانيا وبريتانيا واسوج ونروج ودنيمارك وهولاندا وبلجيوم. الثاني الشعوب السكينية وهم اكثر سكان روسيا وبعض سكان النمسا. الثالث الشعوب التترية وهم الاتراك واهل شمالي روسيا.

الرابع الشعوب الذين هم من ذرية الرومانيين القدماء الذين اختلطوا بالقبائل الشمالية التي تغلبت على المملكة الرومانية القديمة وانتشرت في اقاليمها واستوطنتها وهم اهل ايطاليا وفرانسا واسبانيا وبرتوغال . وفيها ايضًا اجيال اخر كالروم والارمن واليهود ممن لا يمكن وضعهم في مصاف الرتب المذكورة لانهم اصليون غير متسلسلين من قبائل اجنبية ولغاتهم باقية الى الآن كما هي بلا تغيير

وتنقسم اوربا الى قسمين كبيرين شمالي وجنوبي اما الشمالي فهو شديد القساوة في البرد ويتضمن بلاد المسكوب واسوج ونروج والبلاد الجرمانية ودنيمارك وهولاندا وبلجيوم وسويسرا وفرانسا وبريتانيا واما القسم الجنوبي فهو معتدل الهواء يتضمن البرتوغال واسبانيا وايطاليا وبلاد اليونان وتركيا وسوف ياتي الكلام على كل دولةٍ منها بالتفصيل والدين الغالب في هذه القارة هو النصرانية

ولا يخفى ان اهل هذه القارة هم من نسل جومر بن يافث بن نوح الذي هاجر الى شواطي البحر الاسود وتوطن في تلك النواحي ومن هناك تفرّق نسلهُ غربًا كما تقدم القول في بداءة الكتاب عند ذكر تفرق بني نوح . والمظنون ان بلاد اليونان هي اول قسمٍ سكنهُ الناس في اوربا من نسل ياوان بن نوح اذ يوجد بعض دلائل تشير الى كثرة عددهم في زمن موسى عند اخراجهِ بني اسرائيل من مصر وهم من اقدم شعوب الدنيا واول شعب برع وتقدّم بالمعرفة والفنون ثم خلف اليونان في اتقان المهن والصنائع الرومان الذين تغني شهرتهم عن وصفهم ثم برابرة الشمال الذين منهم اكثر الممالك الاوربية الحالية

ومع ان قارة اوربا لم يدخلها الناس الاّ بعد تشعب اسيا وافريقية وكان ينبغي ان يكون اهلها متاخرين عن باقي القارات سواءٌ كان في الغنى والمعارف ام في الهيئة الاجتماعية فنراهم بعكس ذلك قد فاقوا وامتازوا عليهم في كل نوع

من انواع التقدم وليس ذلك الاَّ من اجتهادهم وفرط إنصبابهم على مطالعة الاخبار والسير لاكتساب التمدن والمعرفة بواسطة التمرن والاقدام على عظائم الامور في الاكتشافات والاختراعات المادية والعلمية التي من شانها ان ترقي الانسان ثروةً وفهمًا وترفعهُ الى حالة سامية . ولا يمكن التسليم بان وسائط الاوربيين التي اوصلتهم الى هذه الدرجة الرفيعة كانت اكثر من الوسائط الموجودة في قارتي اسيا وافريقية بل بعكس ذلك نجد عند المقابلة ان الوسائط في هاتين القارتين ولاسيما في اسيا هي اكثر جدًّا مما يوجد في تلك الرقعة الصغيرة فان اراضيها اوسع واخصب جدًّا وفيها انتشرت المعرفة والنور وعلى الخصوص معرفة الاله الخالق الذي هي اساس كل نور وفيها جال رجال الله منذرين وواعظين وفيها نشأت اعظم ممالك العالم كمملكة اشور ومصر وغيرهما ومنها انتشرت الصنائع والعلوم الى الديار الاوربية وغير ذلك مما كان يجب ان يجعلها افضل من اوربا في الغنى والمعرفة والتمدن وحسن الحال . واغرب من ذلك ان تقدم اوربا لم يبتدئ قليلاً الاَّ في القرن الثاني عشر والثالث عشر وقبل ذلك لا يشتمل تاريخها الاَّ على اخبار غزوات وانقسامات وحروب لم تأتها بادنى فائدة . والاوربيون انفسهم يقرون ان تجارتهم لم تنتعش واحوالهم الداخلية لم تتحسن نوعًا الاَّ بعد رجوع الصليبيين من الشرق حيث اكتسبوا عوائد وفنونًا آلت جدًّا لتقدم بلادهم ولاسيما في الزراعة والمتجر الذي قبل ذلك الوقت كان ميتًا فيما بينهم . واما تقدم اوربا الحقيقي فلم يبتدئ الاَّ في القرن الخامس عشر اذ منهُ ابتدأت الاكتشافات والاختراعات المفيدة والاصلاحات الجيدة كصناعة الطبع وصب الاحرف واختراع الابرة المغنطيسية التي سهلت اسفار البحر وبواسطتها اكتشف اماكن غير معروفة ثم اختراع البارود والاسلحة النارية ثم اكتشاف راس الرجا الصالح والسلوك فيهِ الى الهند ثم اكتشاف قارة اميركا وافتتاح بلدانها ثم اصلاح حالة حكومة الممالك بواسطة قرض حكومة الالتزامات الامر الذي جعل للدول

الكبيرة استقلالاً ونظامًا جيدًا . ثم الاصلاح الديني الذي قلب هيئة العالم وسياسته الى غير ذلك من الامور الكبيرة التي ثبتت سيادة الشعوب الاوربية فان كانت اوربا قد حصلت على هذا الفوز والتقدم في برهة ٤٠٠ سنة فقط فلا تيأس اسيا وافريقية من امل الوصول الى تلك الحالة اذا جدّتا في التشبه بها

الفصل الثاني

في تاريخ سلطنة آل عثمان

الباب الاول

في جغرافية هذه البلاد ووصفها الحالي

هذه المملكة قسمٌ واسعٌ جدًّا من سطح الكرة الارضية واملاكها ممتدة في ثلاثة اقسامٍ من الكرة قسمٌ في قارة اوربا وقسمٌ في اسيا والثالث في افريقية وكل قسمٍ من هذه الاقسام يحتوي على اراضٍ مخصبة واسعة واقاليم عامرة شاسعة وانهر وبحيرات وجبال شاهقة واودية وهضاب وبطاح واكثر اقاليمها جيدة الهواء كثيرة النباتات والمعادن والحيوانات المختلفة وعدد اهلها نحو ثلاثة واربعين مليونًا كما في الجدول الاتي .والديانة الغالبة فيها الاسلامية ولكنهُ يوجد فيها ايضا كثير من النصارى من تبعة الدولة.

عدد سكان السلطنة

عدد	عدد	
		في اوربا
	٤٤٩٠٠٠٠	في املاكها الخاصة
	٨١٥٩٤٦	روملي الشرقية وهي ايالة تحت حكم اداري محلي
	١١٥٨٤٤٠	بشناق وهرسك } الحال فيهم النمساويون
	١٦٨٠٠٠	سنجق يني باذار } الحال فيهم النمساويون
٨٦٣١٤٠٠	١٩٩٨٩٨٣	بلغاريا وهي امرية تدفع مالاً معلومًا
		في اسيا
	١٦١٣٣٩٠٠	املاكها الخاصة
١٦١٧٣٠٠٠	٤٠٠٨٩	ساموس وهي امرية تدفع الجزية للسلطنة
		في افريقية
	١٠١٠٠٠٠	ولاية طرابلس الغرب
١٨٥٨٧٠٠٠	١٧٥٧٧٠٠٠	مصر تحت سيادة الدولة بما فيهِ البلاد السودانية
٤٣٣٩١٠٠٠		

بيان ذلك	
٢١٦٣٣٠٠٠	عدد الاهالي في املاكها الخاصة
٢١٧٥٨٠٠٠	عدد الاهالي في الامريات التي تحت حمايتها
٤٣٣٩١٠٠٠	

اما القسم الاول فيحده شمالاً روسيا واستريا وجنوبًا بلاد اليونان وشرقًا البحر الاسود وبحر مرمرا وبوغاز الدردنيل وبوغاز القسطنطينية وغربًا البحر المتوسط واستريا وبلاد البندقية . وهذا القسم يقسم الى اربعة اقسام كبرى الاول القسطنطينية وما يتبعها من السناجق والاقضية الثاني الروملي الشرقية وهي تحت حكم اداري خصوصي الثالث اميرية بلغاريا وهي تحت حماية الدولة تدفع مالاً معلومًا سنويا لها والرابع بلاد الهرسك والبشناق مع سنجق يني بازار الذي دخلته العساكر النمساوية حسب قرار معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ وهي الآن تحت حكم الدولة النمساوية موقتًا واما سربيا اي بلاد السرب ورومانيا اي الفلاخ والبغدان فقد صارتا مملكتان مستقلتان كل واحدة منهما يملك عليها ملك مخصوص تحت قوانين ونظامات خاصة بها وتقررت استقلاليتهما في موتمر برلين الذي التأم سنة ١٨٧٨ وعدد سكان السرب بحسب عد سنة ١٨٨٢ الف الف وثمان مئة وعشرة الاف نفس وعاصمتها مدينة بلغراد واكثر اهاليها روم كاثوليك . واما عدد سكان رومانيا فخمسة ملايين وثلاث مئة وستة وسبعون الفًا منهم اربعة ملايين ونصف مليون روم ارثوذوكس تابعين الكنيسة الشرقية والباقون من اديان متنوعة اكثرهم اسرائيليون

واما القسم الثاني اي املاكها في اسيا فيحده شمالاً البحر الاسود وبحر مرمرا وجزء من بلاد كرجستان وجنوبًا بحر الروم وخليج العجم وبادية الشام وبلاد العرب وشرقًا بلاد العجم وغربًا بحر مرمرا وبحر الروم ايضًا وبوغاز الدردنيل والقسطنطينية . وقد يقسم ايضًا هذا القسم الى ستة اقسام كبرى . الاول اسيا الصغرى المعروف ايضًا ببر الاناضول . الثاني ارمينية . الثالث كردستان الرابع الجزيرة الواقعة بين نهري الفرات ودجلة . الخامس العراق العربي . السادس سورية وفلسطين ويقال لهما ايضًا بر الشام

واما القسم الثالث من املاكها في افريقية فهو ولايات مصر وطرابلس الغرب وقد مر ذكرها في محله واما تونس فقد صارت تابعة فرانسا . وكلّ من

هذه الاقسام المذكورة يتضمن ولايات ومدائن عديدة . وعاصمة هذه السلطنة مدينة القسطنطينية وتعرف الآن باسلامبول وهي من احسن مدن الدنيا موقعًا واجملها مركزًا مبنية على سبع تلال من اطراف اوربا وعدد سكانها نحو ٧٠٠ الف وكانت قديمًا تعرف باسم بيزنتية نسبةً الى بانيها الاول بيزنس ولما حل فيها الملك قسطنطين الكبير الذي تولى على سلطنة الرومانيين الشرقية جدد بناءها وانشأ فيها القصور الفاخرة وجعلها تخت امبراطوريتهِ فسُميت من ذلك اليوم باسمهِ . والثاني تنقسم باعتبار وضعها الى اربعة اقسام الاول المدينة الكبيرة القديمة . والثاني الغلطة . والثالث البوغاز . والرابع اسكودار . اما القسم الاول فهو اجمل وابهج الجميع لكثرة ما فيهِ من الابنية الجميع والقصور الفاخرة المزخرفة العظيمة والجوامع الكبيرة ذوات المنارات الشاهقة . وفي هذه المدينة نحو ٣٥٠ جامعًا اكثرها من الرخام واعظمها وابهجها جامع اجيا صوفيا الذي بناهُ الامبراطور يوستينيانوس كنيسة للنصارى طولهُ ٢٧٠ قدمًا وعرضهُ ٢٤٠ قدمًا وهو من احسن واظرف الابنية القديمة التي بقيت من اثار هذه المدينة

ثم ان الممالك العثمانية تنقسم الى ولايات يترأسها ولاة والولايات تنقسم الى سناجق يترأسها متصرفون والسناجق الى قضية يتولاها قائمقامون والاقضية الى نواحٍ يسوسها مديرون وكنا نود ان نذكر اسماء الولايات والسناجق بالتفصيل لكن راينا ان ذلك لا يوافق حالة المستقبل نظرًا للتغييرات التي قد يمكن للباب العالي ان يدخلها فيها بحسب ظروف الوقت واحوالهِ

اما حكم الدولة العثمانية فمن النوع الملكي المطلق غير ان الاحكام الآن تجري بواسطة المجالس لاجل نظام امور السلطنة وسياسة الرعايا واعضاء هذه المجالس من افراد الوزراء الموصوفين بالذكاء وحسن الرأي والتدبير . ومع ان اراضي هذه السلطنة واسعة ومخصبة وفيها وسائط الثروة لا يكترث اهاليها كما ينبغي في اتقان الزراعة ولا يلتفتون الى تقدم الصنائع والفنون والعلوم فيحتاجون الى جلب اغلب لوازمهم من البلاد الاجنبية ولذلك لا يتقدمون

في الثروة كما انهم يتقهقرون في التمدن غير ان ذلك التهامل قد ابتدأ الآن يزول وبدأ النور يسطو على الظلمة . اولاً بواسطة انتباه الاهالي وثانيًا بواسطة المشروعات الخيرية والمطابع والمدارس التي تأسست في هذه الايام في العاصمة وباقي انحاء السلطنة العثمانية لافادة الرعايا من جميع الطوائف . فهذه الوسائط من اقوى اسباب التهذيب والنجاح والمامول انهُ بهمة الدولة العلية وعنايتها سترتقي البلاد الى درجات سامية من التقدم والفلاح اذ تعادل البلاد الاوربية التي لم تصل الى ما وصلت اليهِ من الحالة الراهنة الآن الاَّ بعد ان حذت في السبيل الذي نوهنا عنهُ آنفًا

اما قوة هذه الدولة العسكرية فتعد من الطبقة الاولى ويمكنها ان تخرج الى ميدان القتال عند الحاجة ما يزيد عن ٦٠٠ الف جندي مع الف وخمس مئة مدفع ورجالها يعدون من الابطال الصناديد وقد اشتهروا في البسالة واقتحام المخاطر واحتمال مشقات الحرب ولكن عمارتها البحرية ضعيفة بالنسبة الى الدول الكبيرة نظيرها

هذا ولما كان الوقوف على اخبار هذه الدولة العظيمة الشان وسلاطينها العظام من الامور التي تستحق ان تخلد في بطون التاريخ مدى الازمان راينا ان نذكر شيئًا من نوادر اخبارهم وما لهم من الفتوحات المشهورة وذلك على وجه الاختصار فنقول وبالله التوفيق

الباب الثاني

في اصل تاسيس الدولة العثمانية وذلك من سنة ١٣٠٠ ب م الى وفاة السلطان مراد الثاني سنة ١٤٥١ ب م

ان اصل سلاطين آل عثمان من التركمان الرُّحل من طائفة التتر

الاغوزيَّة وينتهي نسبهم الى يافث بن نوح وكان مبدأُ ظهورهم انهم جاءوا من نواحي خوارزم سنة ١٢٢١ للميلاد ونزلوا بجبال طوروس والتصقوا بسلاطين قونية السلجوقيين الذين كانوا يومئذٍ مستولين على اسيا الصغرى وارمينيا وبلاد كرجستان فدخل بعض رؤسائهم في خدمة علاء الدين السلجوقي سلطان قونية ومن جملتهم سليمان شاه وكان اميرًا على نيرة وهي مدينة قريبة من بحر الخزر وبعد موتهِ نزل ولدهُ الامير ارطغل مدينة سرغونة ومعهُ من التركمان عدة عشائر وكان اميرًا عليها مدة اثنتين وخمسين سنة وكان خاضعًا لسلاطين قونية وبعد موتهِ خلفهُ عليها ولدهُ الامير عثمان سنة ١٢٩٦ للميلاد وهو الذي اقام دعائم الدولة العثمانية واسسها في بر الاناضول سنة ١٣٠٠ مسيحية على ما بقي من اثار الدولة السلجوقية التي اندرست سنة ١٢٩٤ للميلاد . وبعد اندراس تلك الدولة ودمار سلاطينها استقل من كان تحت تسلطها من الامراء واقتسموا الممالك فيما بينهم فكان نصيب الامير عثمان منها جزءًا من مملكة بورصة وبعض بلاد برّ الاناضول فتولى احكام البلاد المذكورة وقرر لها قواعد وتنظيمات . وفتح هذا السلطان فتوحات كثيرة واستولى على اقاليم شهيرة واقب بالغازي لشجاعتهِ وكثرة فتوحاتهِ ومغازيهِ . ولما استقام امرهُ وتمكن من السلطنة نقل كرسيهُ الى مدينة يني شهر واقام بها وكان مع شجاعتهِ كريمًا حتى كان لا يمسك شيئًا ولم يترك عند موتهِ من جميع الاموال والتحف النفيسة التي استحوز عليها في حروبهِ ومغازيهِ سوى بعض ملبوسات وامتعة لا تذكر من جملتها سبحة كان يحملها دائمًا يقال انها لم تزل موجودة في بيت التحف في القسطنطينية . وكانت مدة ولايتهِ سبعًا وعشرين سنة

وتولى بعدهُ ولدهُ اورخان سنة ١٣٢٦ فسلك مسلك ابيهِ في الحروب والغزوات ووسع نطاق الملك بفتوحاتٍ جديدة ففتح مدينة بورصة وانشأ فيها ابنية جميلة ونقل اليها كرسي ملكهِ . وكانت جيوش ابيهِ مؤلفة من فرسان التركمان ولم يكن لهم معرفة بالضبط والربط العسكري ولا انتظام حال في

القتال فاستصوب السلطان اورخان ترتيب عساكر جهادية لاجل تأييد سلطنتهِ والاستعانة بها عند الحاجة فاحدث وجاق الانكشارية . ثم وسع دائرة هذا الوجاق ابنهُ السلطان مراد الاول ثم اكمل نظامهُ وحسن ترتيبهُ السلطان مراد الثاني ابن السلطان محمد الاول وما زال الانكشارية في التقدم والازدياد حتى امتازوا عن جميع الوجاقات العسكرية بالشجاعة ونفوذ الكلمة فخافت السلاطين اخيرًا سطوتهم اذ اصبحوا ارباب الحل والربط في دولة آل عثمان يتصرفون كيفما شاءوا في الاحكام ويسلكون مسلك الرياسة والعنفوان ويعزلون من ارادوا من السلاطين والوزراء واستمروا على هذه الحال الى زمن السلطان محمود الثاني حينما قرضهم بالكلية ودمر وجاقهم واقام مكانهم العساكر النظامية كما ستقف عليهِ في محلهِ ان شاء الله تعالى

ولما نقل السلطان اورخان كرسي الملك الى مدينة بورصة اخذ في الاهتمام والاستعداد لافتتاح مدنٍ جديدة فجهَّز الجيوش وجنَّد الجنود وهاجم بلاد اليونان فافتتح اكثر بلدانها وعامل اهلها بالشفقة والرحمة حتى ان كثيرًا من النساء الروميات اللواتي فقدنَ اولادهنَّ ورجالهنَّ في تلك الحروب كنَّ يستغثنَ بهِ ويقعنَ على قدميهِ ويطلبنَ منهُ المساعدة فكان يلاطفهنَّ بالكلام وينعم عليهنَّ بما يسر خواطرهنَّ فمالت اليهِ قلوب الناس وما زال يتقدم ويمتد في فتوحاتهِ حتى اشرف على خليج القسطنطينية وبوغاز غليبولي

وكانت يومئذٍ الامبراطورية الرومية في حالة الانحطاط الكلي واركانها متزعزعة ولاسيما بسبب الحروب الداخلية التي حدثت فيها بين سنة ١٣٤١ و١٣٤٦ في زمن وكالة يوحنا كنتاكوزين الذي كان نائبًا للامبراطور يوحنا باليولوغوس مدة حداثتهِ فكان ذلك داعيًا لدخول الدولة العثمانية الى بلاد اوربا . وذلك ان النائب المذكور لما رأى نفسهُ مبغوضًا ومرفوضًا من طوائف الروم استعان عليهم بآل عثمان فامدوهُ وانتصروا لهُ عند دخولهم اوربا وبهذه الواسطة استولوا على جملة حصون وبلدان في تلك الجهات . ثم في سنة ١٣٥٩

ب م اجتاز الامير سليمان ابن السلطان اورخان بوغاز بشنق قلعة وفتح مدينة غليبولي التي هي مفتاح القسطنطينية ثم توفي في عنفوان شبابهِ سنة ١٣٦٠ فحزن عليهِ ابوهُ السلطان اورخان حزنًا عظيمًا ومن فرط حزنهِ استولت عليهِ الغموم والامراض ولم يمكث بعدهُ الاَّ زمنًا يسيرًا وتوفي تلك السنة نفسها

وبعد وفاة السلطان اورخان خلفهُ ولدهُ السلطان مراد الاول سنة ١٣٦٠ وكان من شجعان الرجال مجاهدًا في انتشار دين الاسلام وكان عند جلوسهِ على كرسي الملك انهُ فتح مدينة ادرنة ثم اقليمي السرب والبلغار سنة ١٣٦٥ . وفي نحو سنة ١٣٨١ مسيحية كان في بر الاناضول جملة امراء من الاتراك لم يزالوا باقين في حالة الاستقلال فحاربهم واخضعهم . وكان قد خطب لابنهِ بايزيد ابنة امير كرميان رغبةً في اكتساب محبة ولاة اسيا الصغرى والاتحاد معهم فزوجهُ بها وبهذه الواسطة استولى على مقاطعة كرميان وغيرها من الولايات ثم على مدينة كوتاهيا التي وهبها امير كرميان الى ابنتهِ عند زفافها . وسنة ١٣٨٦ اخضع لسلطتهِ معظم مقاطعتي مكدونيا وبلاد الارناوط . ثم في سنة ١٣٨٨ نهض اهل السرب والفلاخ واهل دلماطيا والمجر والبلغار وتحزبوا جميعًا عليهِ قاصدين بذلك تعطيل فتوحاتهِ وتوقيفهِ عن التقدم فحاربهم هذا السلطان وشتت شملهم وفرَّق جموعهم غير انهُ في اثناء جولانهِ في ساحة القتال وثب عليهِ عسكري بلغاري كان مستترًا بين القتلى وطعنهُ بخنجر في احشائهِ فقتلهُ

وخلفهُ ابنهُ السلطان بايزيد الاول سنة ١٣٨٨ وكان على جانب عظيم من الشجاعة وقد تعود مقاساة الخطوب ومشقات الحروب فتبع خطوات ابيهِ في الغزو والجهاد . وكان اول امر شرع فيهِ افتتاحهُ الممالك التركية الصغيرة التي كانت مستقلة في جهات الاناضول . ثم افتتح ايالات الروملي ومكدونيا والبلغار . وبعد هذه الانتصارات صمم على افتتاح مدينة القسطنطينية واخضاع الممالك الافرنجية فزحف بجيش عظيم الى نواحي اوربا واستولى على مدينة سالونيك ثم شن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيش الافرنج في وقعة عظيمة

حدثت في ٢٨ من شهر ايلول سنة ١٣٩٦ ثم حول وجههُ نحو القسطنطينية وشرع في حصارها . وكان امبراطورها يومئذٍ مانوئيل باليولوغوس فاضطرب وبعث الى من جاورهُ من الملوك يطلب اليهم المساعدة والامداد على حرب المسلمين وكان بايزيد قد خاف من اتحاد ملوك النصارى وتحزبهم عليهِ فعقد مع الروم صلحًا على عشر سنين بشرط ان يدفعوا لهُ كل سنة ثلاثين الف ريال وان يجعل في القسطنطينية قاضيًا من قضاة الاسلام وان يبني بها مسجدًا للمسلمين . غير انهُ لم يمكث الاَّ قليلاً حتى خرق شروط تلك الهدنة وعاد الى حصار القسطنطينية ثانيةً وضيق عليها حتى كاد يفتحها . ولكن لما بلغهُ قدوم تيمورلنك بعساكر التتر على مملكتهِ وافتتاحهِ كثيرًا من بلدانها اضطرب وعظم الامر عليهِ فالتزم ان يرفع الحصار عنها وقفل راجعًا بباقي جيشهِ ليدافع عن بلادهِ فالتقى بتيمورلنك في سهلٍ بقرب مدينة انقرة في ٢٠ من شهر تموز سنة ١٤٠٢ فاشتبك بينهما القتال من الصباح الى الغروب وكان يومًا هائلاً كثر فيهِ القتلى من الطرفين حتى صارت الارض كلون الارجوان من دماء الفرسان وكانت النصرة لتيمورلنك فهزم جيوش الاتراك وقبض على السلطان بايزيد وسجنهُ في قفصٍ من حديد وما زال في حبسهِ الى ان توفي في ٩ من شهر اذار سنة ١٤٠٣

وكان تيمورلنك قد صمَّم على افتتاح القسطنطينية والاستيلاء على الممالك الرومية ولكنهُ لما تعسر عليهِ عبور البوغاز نظرًا لعدم وجود السفن ترك تلك البلاد ورجع الى بلادهِ بعد ان افتتح الديار الشامية واكثر الممالك الشرقية . وبعد وفاة السلطان بايزيد وقع الخلاف والشقاق بين اولادهِ ودامت بينهم المنازعة نحو احدى عشرة سنة وكان ولدهُ الامير عيسى قد وضع يدهُ على جميع البلاد الواقعة بالقرب من انقرة وسينوب والبحر الاسود فوثب عليهِ اخوهُ الامير محمد فقتلهُ واستولى على تلك الاقاليم واما اخوهما سليمان الاول فاختارهُ آل عثمان ان يكون سلطانًا عليهم في اوربا فبايعوهُ بالخلافة مكان ابيهِ بايزيد

وكان فاتر الهمة ضعيف الراي منهمكًا بالملاهي واللذات وكان اخوهُ الامير موسى يترقب فرصة لكي يفتك بهِ فانقضَّ عليهِ ذات يوم وهو راقد في فراشهِ وطعنهُ بخنجر في صدرهِ فقتلهُ وكان ذلك سنة ١٤١٠ للميلاد ثم اقتسم السلطنة مع اخيهِ السلطان محمد الاول . وسنة ١٤١٣ وقع بينهُ وبين اخيهِ محمد المذكور خصام ونفور افضى بهما الى القتال فتحاربا وكانت الدائرة على الامير موسى فولى هاربًا فتبعهُ فارس من فرسان اخيهِ السلطان محمد وقبض عليهِ وقتلهُ وجاء براسهِ الى اخيهِ . وبعد ذلك انفرد السلطان محمد الاول بالسلطنة وصفت لهُ الايام واتت اليهِ رسل ملوك الافرنج والروم مقدمين لهُ التهاني بالنيابة عن ملوكهم فاحترمهم واكرمهم ثم شرع في تمهيد الامور وعقد الصلح مع الدول الاجنبية وقوى معهم روابط المحبة والاتحاد وردَّ الى الامبراطور مانوئيل جميع ما كان اخذهُ منهُ اسلافهُ من الحصون والولايات . وبالجملة كان سعيد الطالع عادلًا كريمًا شفوقًا على الرعية وهو اول من شرع في ترتيب العساكر البحرية وفتح مدينة ازمير ونقل كرسي السلطنة الى ادرنة (ادريانوبل) واعاد رونق السلطنة ووسَّع نطاقها ونظم امورها وجعلها على امتن اساس بعد ذلك الخراب الذي اصابها من وقائع تيمورلنك ملك التتر واستمر عزيزًا جليلًا الى ان ادركتهُ الوفاة

وقام بالملك بعدهُ ولدهُ السلطان مراد الثاني سنة ١٤٢١ فقام بتدبير السلطنة اتم قيام وكان محبًّا للغزو والفتوحات لكي يوسع سلطنتهُ واول امرٍ وجه فكرهُ اليهِ فتح القسطنطينية فقام بمئتي الف مقاتل وحاصرها حصارًا شديدًا فقاومهُ اهلها اشد مقاومة ولما يئس من فتحها رفع عنها الحصار وارتد راجعًا الى املاكهِ في اسيا لتسكين نيران الفتن التي اضرمها الروم في تلك النواحي وبعد موت الامبراطور مانوئيل أذن السلطان لخليفتهِ يوحنا باليولوغوس ان يستولي على القسطنطينية وفرض عليهِ جزية معلومة يدفعها لخزينتهِ في كل سنة وشرط عليهِ ان يتنازل لهُ عن جميع البلاد خلا القسطنطينية وضواحيها .

فبذاك استولى السلطان مراد على جميع القلاع والحصون الباقية تحت تصرف الروم على شواطي البحر الاسود وسواحل الروملي ومملكتي مكدونيا وثيساليا واستخلص ايضًا جميع المدن والبلاد التي داخل برزخ كورنثوس وما زال يتقدم في فتوحاتهِ حتى داخل بلاد المورة . فلما ذاع في اوربا خبر فتوحات الاتراك ارتعدت فرائص الممالك الافرنجية خوفًا من ضياع القسطنطينية وتقدمهم على باقي الممالك النصرانية فنهض البابا اوجينيوس وشرع في عقد تحالف بين الدول الافرنجية لاجل مقاومة المسلمين فتصدى لذلك لادسلاس ملك المجر وبولونيا وتقدم بعساكرهِ تحت قيادة رئيسهم يوحنا هونيادس الشهير وانضم اليهم جمهورٌ من المجاهدين الفرنساويين والجرمانيين وصدموا الاتراك في معركتين عظيمتين واستظهروا عليهم حتى اضطر السلطان مراد ان يعقد معهم صلحًا وينسحب . وكان ذلك في سنة ١٤٤٢ . فلما سكنت تلك الفتن والقلاقل تنازل هذا السلطان عن كرسي السلطنة الى ولدهِ محمد الثاني الملقب بالفاتح وانقطع في دارهِ منفردًا عن الناس وانعكف على العبادة فانتهز الملك لادسلاس تلك الفرصة لفسخ الهدنة المذكورة وتقدم ثانية لمحاربة الاتراك بعد ان حرَّض ملك القرمان على مقاتلتهم

ولما راى السلطان مراد هذه الاحوال خاف من عواقب الامور واضطرَّ ان يعود الى الملك ثانيةً فجهز جيشًا عرمرمًا وسار لمصادمة الافرنج فتلاقى الفريقان في ١٠ من شهر تشرين الثاني سنة ١٤٤٤ تجاه مدينة فارنا على سواحل البحر الاسود فشبت بينهما نيران القتال وثبتت جيوش النصارى امام صفوف المسلمين في تلك المعركة الهائلة وقاومت الجيوش العثمانية اشد مقاومة مع انهم كانوا اقل عددًا منهم بسبب انسحاب معاضديهم الفرنساويين والجرمانيين الذين كانوا قد رجعوا الى بلادهم بعد الانتصار الاول . ولكن حمية لادسلاس ملك بولونيا وشجاعتهُ الخالية من التبصر حملتهُ على اقتحام مواكب الاعداء فقتل في ساحة المعركة وبموتهِ انهزمت جنودهُ وتفرَّق شملهم فاخذ هونيادس قائدهم

يجمع شنيت العساكر ويحرضهم على الرجوع والثبات فلم ينجح لان الرعب كان قد استولى عليهم وكان عدد قتلاهم عشرة الاف نفس

ثم ان السلطان مراد الثاني بعد هذه النصرة تنازل عن الملك ثانيةً الى ابنهِ السلطان محمد الثاني وعاد الى انفرادهِ كالاول . واذ لم ترضَ الانكشارية(١) بذلك اضطر ان يعود الى السلطنة وعاد ايضًا الى ما كان عليهِ من حب الغزوات وقام بجيوشهِ ونقدم نحو بلاد الارناؤط . وكان رجل يدعى يوحنا كاتريو حاكمًا بالارث على قسمٍ صغير من تلك البلاد فلما راى قدوم السلطان بالعساكر الجرارة لمحاربتهِ خاف سوء العواقب وعقد معهُ صلحًا وعاهدهُ على دفع الجزية وانهُ ينقاد لجميع اوامرهِ بشرط ان يبقيهُ في ولايتهِ وان يكون من جملة عمالهِ فاجابهُ السلطان الى ذلك بعد ان اخذ اولادهُ الاربعة رهينة عندهُ فاختلط ثلاثة منهم بمماليك السلطان حتى صاروا لا يمتازون عنهم في العوائد والملابس. واما الرابع وهو اصغرهم المسمى جورج فارتقى في باب السلطان الى درجة سامية بسبب ذكائهِ وشجاعتهِ ثم اسلم بعد ذلك ولقب باسكندر بك وصرف معظم ايامهِ في الحروب في خدمة الدولة العثمانية ولكنهُ ندم اخيرًا على ما فرط منهُ في محاربة الطوائف المسيحية فارتد الى مذهبهِ الاصلي ومن ذلك الوقت صار من اكبر الاضداد والمقاومين للدولة العثمانية فهيج اهالي البلاد وحرضهم على محاربتها . وكان السلطان مراد قد ركب على قسطنطين امير المورة وباقي الاقاليم المجاورة تلك البلاد فاخضعهم ورتب عليهم الخراج وجرت على اثار ذلك حروب كثيرة بينهُ وبين الارناوط والمجر الى ان توفي بداء النقطة

---

(١) ان لفظة انكشارية مستعملة بحسب الدارج ولكن لا معنى لها والكلمة الاصلية هي يكجري ومعناها عسكر جديد

الباب الثالث

في قيام السلطان محمد الثاني وفتحهِ القسطنطينية وفيما جرى بعد ذلك من الحوادث من سنة ١٤٥١ الى وفاة السلطان سليم الاول سنة ١٥٢٠

وقام باعباء السلطنة بعد موت السلطان مراد الثاني ابنهُ السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح سنة ١٤٥١ ب م وكان هذا السلطان من اشهر سلاطين آل عثمان موصوفاً بالشجاعة وقوة الجنان وعلو الهمة وقد قال فيهِ بعض واصفيهِ

تاج الملوك محمدٌ من دوحت هام الملوك من العدا سطواتهُ
فخر السلاطين العظام وبابهُ شرف الانام رفيعةٌ درجاتهُ
بجلوسهِ طاب الزمان وقد صفت اوقاتهُ واسنسعدت ساعاتهُ

وكان ابوهُ السلطان مراد قد اوصاهُ قبل وفاتهِ ان يوجه معظم افكارهِ نحو افتتاح القسطنطينية فكانت امالهُ متعلقة بالحروب والغزوات وتوسيع دائرة السلطنة . وكان اول امرٍ وجه فكرهُ اليهِ افتتاح القسطنطينية والاستيلاء على الاقطار الرومية حسب وصية ابيهِ فاخذ يتجهز لحصارها . وكان يومئذٍ على القسطنطينية الامبراطور قسطنطين دراغاسيس ابن الامبراطور عمانوئيل فلما بلغهُ هذا الخبر انزعج وتاثر وارسل اليهِ يلاطفهُ بالكلام فطرد رسلهُ وجعل يبني حصوناً وابراجاً على جهات بوغاز القسطنطينية ثم بعث اليهِ سفارة ثانية يقول لهُ ان بناء هذه القلع والحصون ما وراءها الاَّ الخصام وجيوش الشر والحرب فان لم تحملك العهود والمواثيق على عقد الصلح بيننا فذاك اليك وقد فوضتُ امري الى الله تعالى فان هداك وعطف قلبك كان ذلك غاية المراد وان كان قد قضي لك بفتح القسطنطينية فلا مردَّ لقضاء احكامهِ والاَّ فلا ازال

ادافع عنها بكل طاقتي وجهدي الى اخر نسمة من حياتي .

فلم يلتفت السلطان محمد الى ذلك المقال بل استمر على ما كان عليهِ من الاستعداد واخذ الاهبة للحرب في تجهيز العساكر والاستعدادات بخلاف الامبراطور قسطنطين فانهُ كان يطلب المعونة والامداد من الدول الافرنجية ويعدهم كاسلافهِ بضم الكنيسة الرومية الشرقية الى الكنيسة الرومانية الغربية. فسرَّ البابا هذا الخبر لانهُ كان يتمناهُ وارسل لهُ نجدة من عساكر ملوك الافرنج فلم يجدِ ذلك نفعًا اذ لم يكن للروم اهتمام بهذه الحرب وذلك لكراهيتهم ضم الكنيستين معًا ومن جرى ذلك وقعت البغضة في قلوبهم لملكهم قسطنطين وتخلوا عنهُ وكانوا يزعمون ان الله سوف يخذلهم ويسمح بخراب المدينة وسقوط الامبراطورية ودمارها لسبب مشروعهِ في ضم الكنيستين الى كنيسة واحدة وان المدافعة والمحاماة في هذا الامر ليستا بمحمودتين وقد وافقهم على هذه الافكار احد وزراء الدولة العظام وهو الدوك نوتاراس فانهُ قال باعلى صوتهِ احب اليَّ ان ارى في القسطنطينية تاج السلطان محمد من ان ارى فيها اكليل البابا وهكذا زاد فتور همتهم وتخلى اكثرهم عن حماية المدينة حتى لم يبقَ بينهم من يدافع ويحامي عنها الاَّ نحو عشرة الاف رجل ما بين روم ولاتينيين انحصر فيهم رجاء العاصمة

هذا وبينما كانت هذه الامور تجري في القسطنطينية واذا بالسلطان محمد الفاتح اقبل عليهم بجيش جرار يبلغ ٢٦٠ الفًا في شهر نيسان من سنة ١٤٥٣ وكان مصحوبًا بعمارة بحرية مؤلفة من ٣٠٠ سفينة فنزل بجيشهِ حول المدينة وحصرها من كل الجهات وبعث الى الامبراطور قسطنطين يطلب اليهِ ان يسلمهُ المدينة تحت شروطٍ ثقيلة مذلة فابى وصمم على الجهاد الى النهاية . فشدد السلطان الحصار وعين اليوم ٢٩ من شهر ايار للهجوم على المدينة وفي عشية ذلك اليوم جمع الامبراطور قسطنطين اعيان الامراء والقواد ومن يلوذ بهِ من اكابر الروم الذين عليهم الاعتماد واخذ يحرضهم على القتال والثبات لعلهم

يفوزون وبعد خطاب مستطيل اخذوا بالبكاء والعويل وعانق بعضهم بعضًا بقصد الوداع ثم قصدوا الاسوار وتحصنوا فيها ولما كان ذالك اليوم المهول هجمت عساكر آل عثمان على الاسوار وكان قسطنطين قائمًا في وسط المعركة قائدًا للجيش يشجعهم ويقاتل كاحد الجنود فاستمر على ذلك مدة طويله ولما ايس من الظفر وايقن بالهلاك تجرد من اسلحتهِ الذهبية والقى نفسهُ بين صفوف الاعداء فقتلوهُ ولم يعرفوهُ وبموتهِ انتهى القتال. فدخلت جيوش الاتراك المدينة ونهبوها واسروا اهلها واحرقوا بعض ابنيتها ومكاتبها

ولما عزم السلطان محمد الفاتح على ان يجعل القسطنطينية مقر سلطنتهِ رخص لكل من اراد الرجوع اليها من الروم ان يبقى على دينهِ رغبةً في عمارها لكن لما كان ذالك غير كافٍ لترميمها وتحسينها امر بجمع نحو عشرة الاف عائلة من ولاياتٍ مختلفة ليأتوا اليها ويسكنوها وولى على الاروام بطريركًا واعطاهُ عصا البطركية وخاتمها حسبما جرت بهِ عادة القياصرة في الازمنة السالفة وقسم باقي المدينة من كنائس ومعابد بين النصارى والمسلمين وجعل لكلٍّ من الفريقين حدودًا لا يتعداها الاخر واستمر الحال على ذلك ستين سنة حتى قام السلطان سليم الاول فنسخها وابطلها

وكان السلطان محمد بعد استفتاح القسطنطينية بثلاث سنين قد وجَّه همتهُ الى افتتاح جزيرة رودس فتهدد اهلها وطلب منهم الخراج فاجابهُ رئيسهم يوحنا دولسنيك ان فرسان هذه الجزيرة لم يملكوها الاَّ بشجاعتهم واعانة الله تعالى لا بعناية احد من الملوك وها انا مستعد للمدافعة عنها الى النهاية الاَّ انهُ عرض للسلطان ما شغلهُ عن محاربتها وذلك ان البابا كالكستوس الثالث اخذ يحث ملوك الطوائف المسيحية ويحرضهم على محاربة الدولة العثمانية . فلما بلغ السلطان محمدًا هذا الخبر نهض بمئة وخمسين الف مقاتل وحاصر مدينة بلغراد سنة ١٤٥٦ وضيق عليها برًّا وبحرًا حتى كاد يفتحها. فاخذت احد رهبان القديس فرنسيس غيرة شديدة وصار يحث المسيحيين ويحرضهم على المدافعة

عن تلك المدينة فاستمال نحو اربعين الفًا من العساكر النمساوية وقادهم بنفسهِ الى يوحنا هونيادس قائد جيش المجر فاضرَّ بالسفن العثمانية بواسطة هذه النجدة وفقد اكثرها . واستمر السلطان محمد نحو اربعين يومًا وهو يكرر الهجمات على المدينة المذكورة بلا فائدة ثم ارتحل عنها بعد ان قُتِل من جيشهِ عددٌ عظيمٌ . واما هونيادس المذكور فجرح جرحًا بليغًا مات بهِ . وكان هذا السلطان بعد هذه الغزوة قد زحف على ولاية اثينا سنة ١٤٥٦ للميلاد ففتحها وسنة ١٤٥٨ فتح اقليم السرب الذي كان قد ردهُ السلطان مراد الثاني الى امراء هذا الاقليم سنة ١٤٤٤

وفي اثناء ذلك وقع الخصام والنزاع بين الملك توما والملك ديمتريوس باليولوغوس وهو اخو امبراطور الروم لجهة مملكة المورة التي كانت تحت حكمهما وكانا يدفعان الخراج عنها للسلطان فحارب توما شريكهُ ديمتريوس وهزمهُ فطلب ديمتريوس المساعدة من السلطان على خصمهِ توما وزوجهُ ابنتهُ ليستميلهُ اليهِ فلبى دعوتهُ وانجدهُ على توما المذكور فولى هاربًا من تلك البلاد اما السلطان فحملهُ الطمع بعد ذلك على استخلاص المملكة من ايدي ديمتريوس فنفاهُ الى بعض الاديرة واستولى على المورة ما عدا بعض حصونٍ كان توما قد سلمها قبل فرارهِ للبابا واهالي البندقية

وسنة ١٤٦١ استولت الدولة على طرابزوند وهي المملكة الوحيدة التي كانت باقية من اثار السلطنة الشرقية وفتحت ولاية سينوب واتي بصاحبها داود كوموين اسيرًا الى القسطنطينية فقتلهُ السلطان محمد حيث اتهمهُ بمراسلات خفية مع ملك العجم وكان ذا ثمانية اولاد فامر بقتلهم ايضًا . وسنة ١٤٦٢ تملك على اقليم بوسنيا وشن الغارة على ولايات الفلاخ والبغدان والصقالبة . وسنة ١٤٧٠ فتح جزيرة اغربوز من اعمال البندقية بعد ان اوقع باهلها وقتل اكثرهم . ثم استولى على بلاد الارناوط باسرها . وسنة ١٤٨٠ صمَّم على افتتاح جزيرة رودس فارسل لها عمارةً بحرية مشحونة بمئة الف مقاتل تحت قيادة ميشطس

باشا الذي هو من العائلة الباليولوغية الامبراطورية وكان قد اعتنق الديانة الاسلامية بعد فتح السلطان محمد الثاني مدينة القسطنطينية فحاصر الجزيرة المذكورة ثلاثة اشهر بدون نتيجة ثم ارتحل عنها . وكان هذا السلطان العظيم لا تكل همتهُ ولا تفتر عن الفتوحات وشن الغارات فجهز سنة ١٤٨١ جيشين عظيمين احدهما لمحاربة جزيرة قبرص تحت قيادة احد وزرائهِ وقاد الثاني بنفسهِ لقتال العجم وبينما هو في اثناء الطريق ادركتهُ الوفاة فمات بمدينة ازنكميد في تلك السنة بنفسها وكانت مدة ملكهِ احدى وثلاثين سنة

وقد أعقب ولدين بايزيد وجم فقام بالسلطنة بعدهُ البكر منهما وهو بايزيد الثاني سنة ١٤٨١ وكان شاعرًا اديبًا محبًّا ومواظبًا للدرس وكان قد اغار على الديار المصرية لاستخلاصها من ايدي المماليك الجركسية ولكنهُ بعد حرب شديدة وقعت بينهُ وبين قايتباي سلطان مصر عند جبل امان في قرمان قفل راجعًا الى بلاده بدون فائدة . ثم قصد بلاد اوروبا سنة ١٤٨٦ واستولى على جانب من بلاد البغدان وغيرها من اقاليم تلك الاطراف . وسنة ١٤٩٧ زحف على بلاد بولونيا فاوقع بها واستولى على جانبٍ عظيم منها . ولم تخلُ السلطنة في ايامهِ من المشاجرات والفتن الداخلية وذلك لانهُ كان لهُ خمسة اولاد خرج اثنان منهما عن طاعتهِ واقلقا راحتهُ وراحة البلاد فالتزم الى قتلهما . وكان ولي عهدهِ الامير احمد فاتر الهمة ضعيف الراي يحب الانفراد والوحدة فلذا كانت الانكشارية تكرههُ وتميل الى اخيهِ الامير سليم فعاهدوهُ بالملك ودعوهُ الى السلطنة فاجتاز بوغاز القسطنطينية سنة ١٥١١ مسيحية بعشرين الف مقاتل لاستخلاص المملكة من يد ابيهِ فحاربهُ ابوهُ وهزمهُ ولما خابت مساعيهِ قصد بلاد القرم فاقام بها برهة ثم قصد القسطنطينية ثانيًا بجموعٍ وافرة وجرى بينهُ وبين ابيهِ عدة وقائع ولما اشتد الحال على السلطان بايزيد خلع نفسهُ عن السلطنة وعهد بها اليهِ وطلب منهُ ان ياذن لهُ في الذهاب الى مدينة ادرنة ليقيم بها باقي ايامهِ

فلما قبض السلطان سليم الاول على زمام الملك سنة ١٥١٢ امر بقتل اخويهِ الباقيين وكان لاخيهِ احمد ولدان فالتجا احدهما الى بلاد العجم والاخر الى سلطان مصر فطلبهما عمهما من ملكي تلك البلاد فابيا تسليمهما فكان ذلك داعيًا لافتتاح باب الحرب فتجهز السلطان سليم الاول عند ذلك لحرب العجم وزحف اليهم سنة ١٥١٤ بجيشٍ جرار فالتقى الفريقان تحت اسوار مدينة طوروس فاقتتلا قتالاً شديدًا ودامت المعركة ساعات طويلة وكانت الدائرة فيها على الاعجام فولوا الادبار وركنوا الى الفرار بعد ان قُتل منهم عددٌ عظيمٌ وقتل من آل عثمان اربعون الفًا حتى عدوا ذلك اليوم الذي انتصروا فيهِ من الايام المشومة ثم ارتدوا على الاعقاب وكان السلطان سليم قد صمَّم على ان يشن الغارة على بلاد العجم ثانيًا فمنعهُ الانكشارية عن ذلك

وسنة ١٥١٦ اغار السلطان سليم على مماليك مصر بجيش عددهُ ١٥٠ الف مقاتل فخرج الغوري سلطان مصر لمحاربتهِ فالتقى بهِ في سهل مدينة حلب واشتبك بينهما القتال فانهزم الغوري واستولى السلطان سليم على حلب ودمشق سنة ١٥١٧ . ثم حدثت معركة ثانية بالقرب من مدينة غزة انهزمت فيها جيوش المماليك ثم تجمعوا على بعد ستة اميال من القاهرة تحت قيادة سلطانهم طومان باي الذي تولى بعد الغوري الذي مات باثناء معركة حلب فوافاهم السلطان سليم الى هناك وقاتلهم وفرَّق جموعهم وقبض على طومان باي المذكور وشنقهُ واستولى على الديار المصرية وبعد ما اصلح حالها اقام بها نائبًا ورجع الى القسطنطينية واخذ في تكثير المهمات والاستعداد لحروبٍ وغزواتٍ جديدة وفي اثناء ذلك ادركتهُ الوفاة وكانت مدة ملكهِ نحو ثمان سنين

الباب الرابع

في الكلام علي حكم سليمان الاول وفتحهِ جزيرة رودس وما حدث بعدذلك من سنة ١٥٢٠ الى وفاة محمد الثالث سنة ١٦٠٣

انهُ في نفس السنة التي مسح فيها شارلكان (وهو كارلوس الخامس) امبراطورًا جلس السلطان سليمان على كرسي السلطنة سنة ١٥٢٠ والافرنج يسمونهُ سليمان الثاني حاسبين سليمان ابن السلطان بايزيد الاول سليمان الاول. وبما ان هذا السلطان من اشهر سلاطين آل عثمان نظرًا لفتوحاتهِ وعلو همتهِ وطول مدة حكمهِ راينا ان نتوسع قليلاً في اخبارهِ فنقول انهُ كان سلطانًا رفيع القدر موصوفًا بالحكمة والحزم وقد انشأ قوانين جديدة بها ضبط سلطنتهُ واحسن سياستها وقسم ممالكهُ الى عدة ولايات واقام في كل ايالة فرقة من العساكر للمحافظة ورتَّب مع غاية الاتقان جميع ما يلزم لضبط العساكر ونظم ايضًا منوالاً جديدًا لدخل الدولة وخرجها واقام فيها جملة ابنية فاخرة فازدادت شوكة الدولة في ايامهِ وتحسنت احوالها جدًّا

ولم يكن السلطان سليمان دون الملكين العظيمين معاصريهِ في العظمة والبطش فانهُ كان بارعًا كشارلكان في السياسة والمعرفة ومعادلاً لفرنسيس الاول ملك فرانسا في القوة والشجاعة. ولما صفا لهُ الوقت وراق وكانت فرنسا واسبانيا والمانيا وايطاليا جميعًا مضطربة بالمنازعات من حيثية ولاية ميلان وظهور لوثيروس وغير ذلك من الخصومات والانشقاقات اغتنم السلطان سليمان فرصة هذه الامور وزحف بعسكر جرار سنة ١٥٢١ على بلاد المجر واقام الحصار على مدينة بلغراد وكانت من اعظم ثغورهم الحصينة فاستولى عليها ومع

ان هذه النصرة فتحت لهُ الباب للتقدم في اوروبا انثنى راجعًا وصمَّ على افتتاح جزيرة رودس فارسل اليها ٢٠٠ الف مقاتل مع عمارة بحرية مؤلفة من ٤٠٠ سفينة تحت قيادة صهرهِ وبيري باشا فاقاموا عليها الحصار ولم يكن فيها يومئذٍ من العساكر الاَّ ستة الاف وست مئة من الفرسان وجاق شفاليرية ماري يوحنا المدعوّين انصار بيت المقدس وكان قائدهم اذ ذاك يسمى شفاليردي ليل آدم وكان من شجعان ابناء زمانهِ موصوفًا بالذكاء والحزم فعظم عليهِ الامر وارسل من يومهِ يستعين بالامبراطور شرلكان وفرنسيس الاول السالف ذكرهما ويطلب اليهما المساعدة والامداد فلم يجيباهُ الى هذا الطلب بسبب المنازعة الواقعة بينهما. وكان البابا ادريان السادس قد حثهما على المدافعة والمحاماة عن تلك الجزيرة فلم يلتفتا الى كلامهِ. فاستمر الحصار عليها نحو ستة اشهر واظهر رئيسها ليل آدم المذكور في اثناء هذه المحاصرة من البسالة والثبات ما لا مزيد عليهِ حتى كلت همة الانكشارية وبيما كانوا قد عولوا على الانسحاب اتاهم السلطان سليمان بنفسهِ وشدد الحصار وانهض عزائم الجيش بالوعد والوعيد وضايق المحاصرين من كل جهة غير مبالٍ بخسران الرجال فاضطر اخيرًا رئيس تلك الجزيرة ان يسلم بعد ان امست الجزيرة خرابًا فتعجب السلطان سليمان من شجاعة هذا الرجل وثباتهِ فاحترمهُ ومدحهُ على شهامتهِ وسلاهُ على مصيبتهِ واجابهُ الى الشروط التي كان قد عرضها عليهِ وهي ان تبقى الكنائس على حالها وان يكون للنصارى الصيانة والحرية في دينهم وان لا يتكلفوا الى دفع شيء مدة خمس سنين ثم انسحب ليل آدم من الجزيرة وتبعهُ ٤٠٠٠ من اهل رودس فاعطاهم البابا مدينة ويتيربة فاقاموا فيها الى ان نقلهم الامبراطور شرلكان سنة ١٥٣٠ الى جزيرة مالطة فنسبوا اليها وصارت من ذلك العهد دار اقامتهم الى ان استخلصها منهم بونابارت وهو آتٍ الى مصر سنة ١٧٩٨

وبعد ما فرغ السلطان سليمان من هذه الحرب رجع الى القسطنطينية سنة ١٥٢٧ وجهز جيشًا يبلغ عددهُ ٢٠٠ الف مقاتل وزحف بهِ على بلاد المجر

فالتقاهُ ملكها لويس الثاني بثلاثين الف مقاتل فقط ولعدم معرفتهِ بادارة الحروب قلد بولس طوموري احد اساقفة بلادهِ قيادة الجيش وسار معهُ لمصادمة الاتراك فالتقيا بهم بازاء مدينة موهاكز واشتبك القتال بين الفريقين فكانت واقعة عظيمة قُتل فيها الملك لويس وهلك اكثر من عشرين الفًا من جنودهِ وانهزم الباقون واستولى السلطان سليمان على الحصون والقلاع الواقعة على الجهة الجنوبية من تلك المملكة ثم قفل راجعًا الى القسطنطينية محفوفًا بالظفر والغنائم. وبعد موت الملك لويس المذكور وقع النزاع بين قائد جيوشهِ المسمى يوحنا زابولي وبين الارشدوك فرديننىد ملك بوهيميا من جهة ولاية مملكة المجر فتحزَّب السلطان سليمان الى زابولي وانجدهُ على بلوغ مرامهِ وضرب عليهِ مالاً معلومًا يدفعهُ في كل سنة للدولة العثمانية واعانهُ على استخلاص عدة مدائن من فرديننىد

وسنة ١٥٢٩ خرج السلطان سليمان من القسطنطينية بمئة وعشرين الف مقاتل واربع مئة مدفع لحرب النمسا وعند وصولهِ الى مدينة فينا عاصمة المملكة نصب خيامهُ بالقرب منها واقام عليها الحصار ولم يكن عند النمساويين سوى عشرين الف مقاتل واثنين وسبعين مدفعًا فقاتلوا اشد قتال كمن كان في يأْسٍ . فخمدت قوة الانكشارية بعد هجماتٍ متعددة ولما راى السلطان ذلك تحوَّل عن المدينة . وسنة ١٥٣٢ خرج السلطان بمائتي الف مقاتل لمحاربة بلاد السرب فافتتح في طريقهِ اربع عشرة قلعة واستولى على اكثر حدود بلاد النمسا ثم رجع الى القسطنطينية. وسنة ١٥٣٣ عقد صلحًا بين ملوك اوروبا ثم وجه عساكرهُ لمحاربة العجم وافتتاح مدينة بغداد تحت قيادة ابرهيم باشا الصدر الاعظم فافتتح تبريز وبغداد. وسنة ١٥٣٤ اخرج السلطان بنفسهِ بالعساكر تابعًا اثر الصدر الاعظم حتى انتهى الى تبريز ومنها سار الى بغداد ثم انثنى راجعًا الى القسطنطينية وهناك وشوا لهُ على وزيرهِ ابرهيم باشا المذكور فامر بقتلهِ . وانعم على خير الدين باشا المشهور عند الافرنج باسم بربروس اي ذي

اللحية الحمراء برياسة العمارة البحرية وارسالهُ لافتتاح ولاية تونس فافتتحها بعد حصار شديد غير ان هذا الفتوح لم يطل امرهُ الاَّ زمانًا يسيرًا لان المنلاحسن صاحب تونس كان قد التجا الى الامبراطور شرلكان واستعان بهِ على استخلاص بلادهِ فاجابهُ الى ذلك وارسل جيشًا الى تونس وضربها واسترجعها لهُ ثم خرجت من يدهِ ايضًا وقد ذكر ذلك باكثر بيان في تاريخ الغرب فراجعهُ هناك . وسنة ١٥٢٨ دخلت العمارة البحرية تحت قيادة بربروس المذكور في الارخبيل الرومي واستولت على عدة جزائر لجمهورية البنادقة بعد ان شتتت عمارتهم .ثم في نحو الوقت ذاتهِ بعث السلطان سليمان فرقةً من الجنود الى شواطي بلاد العرب لمنع فتوحات البرتوغال فاستولت على اراضي عدن وبعض اليمن وفي اثناء ذلك حدث مصيبتان عظيمتان في القسطنطينية شغلتا بال السلطان جدًّا وهما مرض الطاعون وحريقة كلية احرقت نحو نصف القسطنطينية فتعطلت اشغالهُ الحربية لاهتمامهِ في جبر النكبات التي نتجت عنهما

ومع ما كان عليهِ السلطان سليمان من علو الهمة والاوصاف الحميدة فرط منهُ امرٌ مذموم في التاريخ وهو اغتصابهُ تاج مملكة المجر بطريقة غير مناسبة من ابن يوحنا زابولي . وبيان ذلك ان فردينند ملك بوهيميا كان قد صمَّم على استرجاع ولايتهِ من زابولي ملك المجر واستعد لمحاربتهِ فخاف زابولي من عواقب هذا الامر ووقع في حيرة اذ راى نفسهُ مضطرًّا الى الاستعانة بالسلطان سليمان فاتفق سرًّا مع خصمهِ فردينند على انهُ يكفيهِ شرهُ وان يستولي على المملكة بعد موتهِ وكان قصدهُ بذلك ان يريح نفسهُ من القلاقل والحروب المهلكة لانهُ كان شيخًا مسنًّا ولم يكن لهُ ولد فاجابهُ فردينند الى ذلك ولكن لما بلغ اعيان مملكة المجر هذا الخبر ساءهم جدًّا واجمعوا على منع وقوع مملكتهم تحت يد ملكٍ غريب وحملوا ملكهم زابولي على التزوج بالاميرة ايزابلة بنت ملك بولونيا فأعقب منها ولدًا وجعلهُ وليَّ عهدهِ ولم يلتفت الى الاتفاق الواقع بينهُ وبين

الملك فردينند ثم ماتت بعد ان اناط بكفالة ابنهِ ونيابة المملكة زوجتهُ واسقف فارادين . فغضب فردينند من هذه الحادثة وارسل يطلب من الملكة ايزابلة تسليم المملكة وعرض عليها اقليم ترانسلفانيا وهو الاردل لتمكث بهِ هي وابنها فرفضت هذا الطلب فازداد غيظهُ وارسل عسكرًا لحربها واستخلاص المملكة ولما رات ايزابلة انها غير قادرة على مقاومتهِ ارسلت رسولاً الى السلطان سليمان تلتمس منهُ المساعدة والامداد على عدوها فاجاب طلبتها وبعث جيشًا الى بلاد المجر ثم صار هو بنفسهِ في جيش اخر وعند وصولهِ الى هناك كانت الفرقة الاولى قد فتكت في الاعداء وانتصرت عليهم . فاغتر السلطان سليمان باستخلاص المملكة لنفسهِ واستسهل الامر اذ كانت بيد طفلٍ تحت وصاية امراة واسقف فدعا ذات يوم الملكة ايزابلة مع ابنها القاصر وسائر اشراف المملكة لوليمةٍ اعدَّها لهم في معسكرهِ وعند حضورهم اليهِ هجمت فرقة من جنودهِ على مدينة بودين تخت المملكة واستولوا عليها بدون معارض ثم قبض على الطفل وامهِ وافرز لهما اقليم الاردل وبعض المقاطعات واستولى هو على باقي بلاد المجر وولى وزيرًا من طرفهِ على تلك البلاد .

وسنة ١٥٤٢ عقد مع فردينند هدنة اجلها خمس سنوات بشرط ان هذا الامير يدفع لهُ جزية سنوية قدرها ثلاثون الف دوقة . وسنة ١٥٠٧ زحف هذا السلطان الى بلاد العجم واستولى على بلاد شروان وباقي بلاد كردستان بعد ان دامت الحرب سنتين . وسنة ١٥٦٥ ارسل عمارة بحرية لافتتاح جزيرة مالطة تحت قيادة مصطفى باشا وبعد حصارٍ شديد وهجمات متعددة ارتد هذا الوزير راجعًا من غير طائل بعد ان فقد من جيشهِ نحو عشرين الفًا . ومات السلطان سليمان في اثنا حروبهِ مع المجر سنة ١٥٦٦ ولهُ من العمر ٧٦ سنةً . وكانت مدة سلطنتهِ ٤٦ سنة فحزن عليهِ الناس حزنًا شديدًا ورثاهُ الشعراء بكل لسان فمن ذلك مرثية المفتي ابي السعود التي يقول في مطلعها

أَصوت صاعقة ام نفخة الصورِ فالارضُ قد مُلِئَت من نقر ناقورِ

ومنها

ام ذاك نعي سليمان الزمان ومن قضت اوامرهُ في كل مامورِ
ومن ومن ملأ الدنيا مهابتهُ وسخَّرت كلَّ جبارٍ وتيمورِ

وبالجملة نقول ان السلطان سليمان كان سلطانًا عظيمًا لم يقم بين سلاطين آل عثمان اعظم منهُ حتى ان جميع اهل الارض كانت ترتعد فرائصهم عند استماع اسمهِ ولكن مع ذلك قد وقع منهُ خطأ كانت نتائجهُ غير حسنة على الدولة العثمانية لانهُ منذ تاسيسها كان الامراء الذين هم من فخذ السلطان يقودون العساكر ويحكمون الاقاليم التي كانت اقطاعاتهم فامر السلطان سليمان بابطال هذه العادة فاتى ذلك الدولة فيما بعد بالضعف والخسران فان اولاد السلاطين اذ اخذوا ينشأون في ظل القصور والرفاهية بعيدين عن حركات الجيوش ودمدمة اصوات المدافع وقرقعة السلاح زالت عنهم عوائد اسلافهم الحربية وبعد ان كانت دولة آل عثمان مؤسسة على الفتوحات اخذت في الانحطاط والقهقرى

وقام باعباء السلطنة بعد السلطان سليمان ولدهُ السلطان سليم الثاني سنة ١٥٦٦ ولم يكن كابيهِ بل كان محبًّا للّذات والملاهي . وفي ايامهِ استخلصت بعض مدن بلاد اليمن وجزيرة قبرص وغيرها من الولايات . وكانت مشيخة البندقية قد اتحدت مع البابا وملك اسبانيا على حرب الدولة العثمانية وبعد عدة وقائع بحرية مهولة انتصرت العساكر الافرنجية انتصارًا عظيمًا فكانت عند الافرنج افراح عظيمة وصنعوا تذكارًا لتلك الغلبة عيدًا يعيدونهُ في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الاول ولما بلغ السلطان ذلك الخبر امر بتجهيز عمارة لمحاربة القوم وفي غضون ذلك ارسلت مشيخة البندقية تعتذر اليهِ وتطلب منهُ الصلح على وجهٍ آئل الى شرف السلطنة فاجابها الى ذلك واوقف الحرب ثم مات بعد ذلك وكانت مدة ملكهِ ثمان سنين . اما الفتوحات التي تمت في ايامهِ فكانت بتدبير كبير وزرائهِ الذي كان متخلقًا باخلاق السلطان سليمان

وبعد موت السلطان سليم دخل ولدهُ الامير مراد الثالث القسطنطينية وقام مكان ابيهِ سنة ١٥٧٤ وليس لهذا السلطان من المناقب التي تستحق الذكر كاسلافهِ وكانت مدة ولايتهِ ٢١ سنة ولم يجرَ فيها سوى بعض حروب مع العجم ويقال انهُ كان مغرماً بمطالعة التاريخ والشعر وكانت وفاتهُ سنة ١٥٩٥ .

وصعد بعد موتهِ على سرير السلطنة ولدهُ السلطان محمد الثالث وكان لهُ ١٩ اخًا فلما تبوأ السلطنة امر بقتلهم جميعاً وكان لابيهِ عشر نساء حبالى فامر باغراقهنَّ في البحر . وفي تلك الاثناء حدث في القسطنطينية مجاعة فامر بطرد الروم منها . وفي غضون ذلك خرج الامير ميخائيل صاحب الفلاخ عن طاعة الدولة العثمانية واجتمع معهُ ملك النمسا وبلاد الاردل فبعث السلطان محمد بجيشٍ تحت قيادة فرهاد باشا الصدر الاعظم فكسرهُ الافرنج كسرةً هائلة وفقد من جيشهِ خلقٌ كثيرٌ فقتل السلطان فرهاد باشا وولَّى مكانهُ سنان باشا وكان شيخًا مسنًّا وبعث بهِ لمحاربة المتحزبين فجاهد سنان باشا بما عندهُ فلم ينجح بل كسرهُ القوم كسرةً هائلة عند نهر الدانوب وقتلوا من جيشهِ خلقًا كثيرًا فارسل لهُ السلطان نجدة اخرى فصادفت ما صادفهُ الجيشان السابقان فعزل السلطان اذ ذاك سنان باشا ونفاهُ ثم بعد قليل امر برجوعهِ من النفي واعادهُ الى الصدارة فاشار على السلطان ان يخرج بنفسهِ للحرب فخرج السلطان من القسطنطينية سنة ١٥٩٦ بجيشٍ غفير قاصدًا بلاد المجر وحاصر مدينة ارلو ففتحها وكان ملك المجر قد بعث الى ملك النمسا وحكومة الاردل وصاحب الفلاخ والبغدان يطلب منهم المساعدة والامداد فانضموا اليهِ بجيوش كثيرة وبينما كان السلطان محمد قاصدًا بعسكرهِ قلعة ثانية دهمهُ المتحالفون بجيوشهم واحاطوا بهِ من كل جانب وشبت بينهم نيران الحرب ودامت النهار بطولهِ الى ان دخل الليل فانفصلوا واصبحوا اليوم الثاني متحاربين ايضًا فانتصر جيش الافرنج وهجموا على خيام السلطان ونهبوها بعد ان كان انتقل الى خيمة الوزير

ابن جفال في الجانب الاخر . ولما راى هذا الوزير ما حلّ بجيش المسلمين من الفشل نهض واخذ يشجع العساكر وهجم بهم وخرق صفوف الاعداء واعمل فيهم السيف فانكسرت جموع الافرنج كسرة هائلة وفقد منهم خلق كثير ثم عاد السلطان الى القسطنطينية . وسنة ١٦٠٢ ورد للسلطان من محافظ نخجوان كتاب مآلهُ ان شاه العجم نقض عهود الصلح واسر محافظ تبريز فجهز السلطان جيشاً كبيرًا وارسلهُ تحت قيادة نصوح باشا وفي اثناء ذلك توفي وسياتي خبر هذه التجريدة في الباب الآتي . وقد احب السلطان محمد الثالث العلوم والصنائع ورغب في ترقية اسبابها ورواج سوقها وكان عادلاً مستقيماً غير ان الدولة ضعفت في ايامهِ نظرًا لتمرد العساكر وعدم انقيادها

الباب الخامس

في الكلام على حكم السلطان احمد الاول وما وقع لهُ ولخلفائهِ من الحوادث من سنة ١٦٠٢ الى وفاة السلطان مصطفى الثاني سنة ١٧٠٣ ب٠م

انهُ بعد وفاة محمد الثالث تبوأ كرسي الخلافة ابنهُ السلطان احمد الاول ولم يكن لهُ من العمر سوى ١٥ سنة . ولم يتسلط قبل ذلك في مثل هذا السن احدٌ من سلفائهِ . وكان لهُ اخٌ يسمى مصطفى فلم يشا ان يقتلهُ كما جرت عادة بعض اسلافهِ . وبعد ارتقائهِ مسند الخلافة ببضعة اشهر توفي وزيرهُ الاول فلم يقم عوضاً عنهُ من الوزراء المقيمين بدار الخلافة بل بعث الى مراد باشا بكربليك المقيم بمصر وكان شيخاً مسنّاً ذا دراية وحذق وامانة خارقة العادة فحضر واستلم زمام منصبهِ الرفيع وبعد ان استقر السلطان على كرسي الخلافة اخذ في اتمام ما كان قد شرع فيهِ والدهُ من حرب الاعجام واصدر الاوامر في

التجهيزات اللازمة وارسل جيشًا عظيمًا تحت قيادة محمد باشا فانتصر على العجم في اول الامر ولكنهُ توانى اخيرًا وعاد من غير طائل فغضب السلطان عليهِ واراد قتالهُ ثم عفا عنهُ بواسطة ام الوزير . وكان قد ارسل تحت قيادة علي باشا جيشًا لمحاربة المجر فمات في اثناء الطريق فعين مكانهُ محمد باشا المذكور . وكان السبب في فتح هذه الحرب لاطائل تحتهُ . ثم سعى مراد باشا بين السلطان والمجر في الصلح على مدة عشرين سنة وتُرِكت الحرب بين الدولة والامبراطور رودولف سلطان المانيا تحت شرط ابطال دفع الغرامة التي كانت دولة النمسا تدفعها سنويًّا للدولة وانهُ من ذلك اليوم فصاعدًا تكون التحارير التي ترسل من السلطان الى الامبراطور المذكور حاوية على شعائر الوداد والاعتبار المتبادل ككتابة الاخ لاخيهِ وان يقام سفراء من الطرفين في عاصمة كلٍّ من الدولتين وجرت العادة على ذلك من ذلك اليوم ثم عقدت مثل هذه العهود مع دولة فرانسا وكان ذلك سنة ١٦٠٦ ب م

ثم سعى السلطان احمد في قطع دابر البغاة الذين عصوا على الدولة في ايام والدهِ وايامهِ ايضًا منهم حسين باشا الذي كان واليًا على الحبشة وقره سعيد وجان بولاد حاكم الاكراد والامير فخر الدين الذي كان حاكمًا على جبل لبنان وغيرهم من الخوارج فبعث بمراد باشا مع جيشٍ عظيم فبدد شملهم وقبض على بعضهم وقتلهم واسترجع منهم ما كانوا استملكوهُ من البلدان بطريق التعدي والطغيان . وفي بداءة سنة ١٦١١ امر السلطان مراد باشا ان يقود الجيوش لمحاربة الاعجام فامتثل امر سيدهِ كرهًا واخذ نصوح باشا اول معاون حرب معهُ وكان مراد باشا لا يؤمل بعظيم فائدة من هذه الحرب ولذلك سار مسيرًا بطيئًا فبعث نصوح باشا برسالة سرية الى السلطان احمد بها يقول لهُ ان مراد باشا نظرًا لشيخوخيتهِ لم يعد يصلح لركوب الاخطار ومشقات الحروب وبها لمح للسلطان انهُ هو يكون اصلح لمثل ذلك اما السلطان فاذ كان يحب مراد باشا لامانتهِ ونشاطهِ بعث اليهِ برسالة لطيفة العبارة وضمنها رسالة نصوح باشا وفوض

اليهِ ان يفعل بهِ ما يشاء ولما وقف مراد على الرسالة المشار اليها استحضر نصوح باشا واطلعهُ عليها وعلى رسالة مولاها فارتعدت فرائص نصوح باشا عند ذلك على ان مراد باشا عاملهُ معاملة الاب لولدهِ وقال لهُ انني قد طعنت في السن ولا عدت اصلح حسب زعمك لركوب الاخطار وها اني قد تنازلت لك عن منصبي السياسي والحربي معًا وولّاهُ قيادة الجيش وكتب الى السلطان بذلك وانسحب الى بلاد ديار بكر حيث قضى باقي ايامهِ ومات هناك بعد هذه الحادثة ببضعة اشهر ولهُ من العمر ٧٩ سنة . اما نصوح باشا فتقدم لمحاربة الاعجام واستظهر عليهم وقهرهم واستولى على تبريز فهرب الشاه عباس والتجا ببعض الجبال وارسل يطلب الصلح فاجابهُ نصوح باشا الى ذلك بعد ان اشرط عليهِ ان يصير ذكر اسم السلطان في خطبة جوامع بلاد العجم وان الدولة الفارسية تدفع مصاريف الحرب وتقوم بترجيع الخسارة التي احدثتها في بلاد السلطنة العثمانية . فعلى هذا الوجه تمت المصالحة وانسحبت العساكر الشاهانية من تلك البلاد غير انهُ في سنة ١٦١٦ نكث شاه العجم تلك العهود ولم يفِ بالشروط فنتجت الحرب ثانيةً بين الدولتين واستولت الجيوش العثمانية على بعض القلاع بعد حصار شديد ثم تاخرت من كثرة الثلوج والبرد وهلك منهم جانب عظيم وبالجملة كانت هذه التجريده مشومة على الدولة

واعتنى السلطان احمد كثيرًا بامر الحرمين واصلح مآثر كثيرة بمكة والمدينة وارسل هدية لقبر النبي فصّين من الماس قيمتهما على ما قيل ثمانين الف دينار فوضعا فوق الكوكب الدريّ وهو مسمار من الفضة تجاه وجه النبي في الجدار . وكان لا يفتر عن عمارة المساجد وفعل الخيرات ومن اثارهِ في القسطنطينية الجامع المعروف باسمهِ لهُ ست منارات حسنة الوضع . ولما حضرتهُ الوفاة وكان عمرهُ ٣٠ سنة جمع اليهِ كبار دولتهِ وشيوخها واوصى بالملك من بعدهِ لاخيهِ مصطفى لان ولدهُ عثمان كان قاصرًا فاقام القوم بحق الوصية وبايعوا اخاهُ المذكور فكان قاصر العقل فاتر الهمة لا يصلح لان يقود زمام دولة عظيمة

الشان كدولة آل عثمان اذ كان قد تربى في ظلال القصور بين الترفه والتنعم فلما راى اركان الدولة عدم اهليتهِ وكفاءتهِ تجمعوا عليهِ واقاموا مكانهُ ابن اخيهِ عثمان الثاني فكانت مدة خلافة مصطفى المذكور ثلاثة اشهر وبضعة ايام

فاستبشر الناس عندما تبوأ كرسي الملك السلطان عثمان المذكور ولم يكن لهُ من العمر اذ ذاك سوى ١٢ سنة لكنهُ كانت تلوح على وجههِ علامات الفراسة والشجاعة وحسن الطالع . وكان الصدر الاعظم محمد باشا قد خرج بجيش جرار لمحاربة العجم في خلافة عمهِ مصطفى فرجع بطلب من ارباب الدولة عندما قصدوا خلع مصطفى وتولية عثمان وبعد ان استقر الحال للسلطان عثمان قاد الوزير المشار اليهِ الجيش ثانيةً سنة ١٦١٩ لمحاربة العجم ونجح في هذه التجريدة كل النجاح واستخلص من الاعجام كل الاملاك التي كانوا قد اختلسوها .وكان السلطان عثمان يظن انهُ ما من امرٍ يكسب المرء والدول فخرًا سوى الحروب والمغازي . وقد فتحت لهُ التقادير نافذةً لاتمام مرامهِ وذلك ان صاحب بلاد الاردل احب ان يوسع نطاق املاكهِ بافتكاك بعض الاقاليم من النمسا فعرض على السلطان عثمان افكارهُ من هذا القبيل وحسَّن لهُ الامر واعدًا اياهُ بفتح بلاد اوستريا ودخولهِ منصورًا الى وسط فينا فاغتر السلطان وقصد محاربة بولونيا اولاً تمهيدًا لمآربهِ فاصدر الاوامر بتجهيز الجيوش والمهمات وقبل ان يخرج من القسطنطينية امر باحضار اخيهِ محمد اليهِ وخنقهِ امامهُ لانهُ كان يخشى من ان يختلس الملك مدة غيابهِ . وكان لما حضر الامير محمد بين يدي اخيهِ وعرف باطن الامر انهُ قال لهُ بالله عليك يا اخي لا تدخل في دمي ولا تجعلني خصمك يوم القيامة وانا اقنع منك برغيف في كل يوم وشربة ماء فما كان الجواب الاَّ الامر بخنقهِ فخُنق بين يديهِ ففار الدم من منخريهِ الى ان وصل الى عمامة السلطان ويقال ان اخر كلام قالهُ لاخيهِ سلط الله عليك من لا يرحمك ولا يخشاك فكان الامر كذلك

ثم خرج عثمان بثلاث مئة الف مقاتل واما البولونيون فلم يكن عندهم

سوى مئة الف يقودهم اولاد يسلاس ابن ملك بولونيا .فالتقى العسكران عند حدود المملكتين المتحاربتين وشبت بينهما نيران الحرب فقاتل البولونيون قتال الاسود وصدموا جيوش آل عثمان صدمات قوية فكسروهم كسرة مهولة ثم حدث بين الفريقين معركة اخرى فاز فيها البولونيون ايضاً فاضطر السلطان عثمان الى عقد صلح غير مرضٍ ثم قفل راجعاً الى القسطنطينية سنة ١٦٢١.وفي تلك السنة جلدا البحر الفاصل بين القسطنطينية واسكودار من شدة البرد وكان الناس يمرون من اسكودار الى القسطنطينية فوق الجليد

وكان قد شاع ان السلطان عثمان عزم على السفر الى الشام بنية الحج وكان ايضاً يرغب في تدمير وجاق الانكشارية لان تلك الزمرة كانت قد طغت وتجبرت واصبحت صاحبة الحل والعقد فهاجت العساكر ووقعت الفتنة من جراء ذلك واخرج المفتي فتوى ان السلاطين لا يتكلفون الحج وبعثوا الى السلطان بعض الشيوخ ليعلموهُ بالمركز العسر الذي بات فيهِ فلم يلتفت الى مقالهم بل طردهم متهدداً اياهم وقائلاً بغيظٍ شديد انني ساسحق هولاء المردة العتاة وادمر وجاقهم وذلك بعد ان اسحقكم انتم . فرجع هولاء واخبروا الانكشارية بما كان فهاجوا وماجوا وهجموا دفعةً واحدة على صرح السلطان حيث كان قد التجأ اليهِ الصدر الاعظم وباقي المشيرين وطلبوا بلجاجة ان يعطى لهم الصدر الاعظم وبعض المشيرين واذ لم يجب طلبهم اخذوا يطلقون المدافع على القصر الملكي ويزيدون هيجاناً فخرج الصدر الاعظم الى قدامهم املاً ان يبرد غيظهم ولكن لما راوهُ خطفوهُ واماتوهُ حالاً ثم طفقوا ينادون باسم مصطفى الاول الذي كانوا قد نزلوهُ وهجموا على بيت سجنهِ واخذوهُ ومضوا بهِ الى الجامع وبايعوهُ . ولما درى السلطان عثمان بذلك خرج من قصرهِ واتى الى مكان المبايعة فلما راهُ الانكشارية صرخوا باعلى صوتهم ليتزل عثمان عن الملك وليسجن مكان عمهِ فمضوا بهِ الى السجن وبعد ايام قليلة خنقهُ الصدر الاعظم الجديد فمات كما امات اخاهُ قبل ذلك باربع سنين . قال الشاعر

وما من يدٍ الَّا يد الله فوقها وما ظالمٌ الَّا سيبلى باظلمِ

ولما بلغ العجم قتل عثمان واعادة مصطفى للخلافة ثانيةً وضعوا ايديهم ثانيةً على اكثر البلاد والاملاك التي فتحها السلطان سليم كبغداد والبصرة وغيرهما وقام نواب الدولة في الاناضول وسوريا ومصر وجاهروا بالعصيان بحجة طلب ثار السلطان عثمان فلما راى ارباب الدولة والعساكر سوء عاقبة فعلهم الملوم ندموا على ما فعلوا وصمموا على خلع مصطفى ثانيةً ولما علم بذلك خلع نفسهُ بعد حكم سنة واربعة شهور فاعيد الى سجنهِ سنة ١٦٢٣

فبايعوا بالخلافة مكانهُ السلطان مراد الرابع ابن السلطان احمد الاول وكان عمرهُ اذ ذاك ١٥ سنة ومع ذلك كان ذا عقل ثاقب تلوح عليهِ علامات الشجاعة وقوة الجنان والقلب وحسن المستقبل وكانت الدولة يومئذٍ باحتياجٍ عظيم الى رجلٍ ذي اللياقة والكفاءة لادارة مهامها اذ باتت في خطر عظيم من سوء ادارة سلفيهِ وتمرد الانكشارية والعصيان في الداخل وفي الخارج وكانت الخزينة في عسر وضيق وكان ملك العجم قد انتهز فرصة هذه الارتباكات فعاد ووضع يدهُ على الاملاك التي كانت الدولة قد فتحتها من بلادهِ واخذ خانات التتر ايضًا في نواحي القرم وازوف يتعدّون على حدود الدولة ويوقعون فيها السلب والنهب وبالجملة نقول ان السلطان مراد عندما تبوأ مسند الخلافة كان في مركزٍ صعب جدًّا لاسيما وهو صغير السن فاخذ يسعى في سدّ الاختلال الواقع من كل الجهات فابتدا اولاً في استئصال دابر العصاة الذين كانوا سببًا لقتل اخيهِ عثمان وبردع تعديات التتر وعصيان وكلاء الدولة في اسيا واقام حربًا شديدة مهولة مع دولة العجم سنة ١٦٢٤ كانت عاقبتها مشومة فامر السلطان بقتل قائد جيش هذه التجريدة وفي اثناء سنة ١٦٢٥ عرضت دولة العجم الصلح على الدولة فارتضت بذلك ولو على وجهٍ غير مرضٍ لها لكي تتفرغ لسد باقي الاختلالات. وسنة ١٦٢٧ مات الشاه عباس ملك العجم وتولى مكانهُ ولدهُ الشاه مرزا وكان حديث السن غير اهلٍ لمنصب مهمّ كهذا. فاغتنم السلطان مراد

هذه الفرصة وبعث سنة ١٦١٨ بجيشٍ عظيم تحت قيادة الصدر الاعظم لحرب الاعجام واسترجاع الاملاك التي خسرتها الدولة فلم يجدهِ ذلك نفعًا وخابت مساعي الوزير وتاخرت الاعلام العثمانية وفقد من جيشها خلق كثير ولما كان الوزير الاعظم قد طعن في السن وتعب من مشقات الحرب ولم يعد له استطاعة على تحملها صرف قصارى جهدهِ في اقناع سيدهِ بعقد الصلح مع الاعجام فقبل السلطان بذلك وعقدت شروطهُ ومآلها التسليم بكل الفتوحات التي افتتحتها دولة العجم. وكان الامير فخر الدين المعني حاكم جبل لبنان قد اظهر التمرد والعصاوة على الدولة فارسل السلطان جيوشًا لمحاربتهِ فقاومها اشد مقاومة واذ وجد ان لا مناص له منها طلب الامان واتى بنفسهِ الى القسطنطينية يطلب العفو من السلطان فحصل عليهِ لانهُ كان رجلاً مهابًا وعلى جانب عظيم من الحذق والدراية واخذ السلطان ولدهُ ووضعهُ في المدرسة السلطانية في بورصة. ولكن بعد قليل انقاد السلطان الى وساوس ارباب ديوانهِ فامر بخنق الامير فخر الدين سنة ١٦٣٢. وسنة ١٦٢٤ زحف السلطان لمحاربة العجم وبعد معارك ومحاصرات افتتح مدينة روان وارسل وفدًا الى العاصمة ليجمل خبر انتصارهِ

ولما عاد الى القسطنطينية وجد ان اعلامهُ كانت قد نكست في اوربا وان خان التتر نهض بفرقةٍ من الكوزاك واستولى على مدينة ازوف بالقرب من البحر الاسود. ثم عاد الاعجام واستولوا من جديد على مدينة روان التي فتحها فارسل السلطان الصدر الاعظم محمد باشا لمحاربتهم واسترجاع المدينة سنة ١٦٢٦ واخفى غيظهُ لجهة خان التتر واذ لم ينجح محمد باشا استدعاهُ السلطان الى العاصمة وخنقهُ سنة ١٦٢٧ وسنة ١٦٢٨ ذهب بنفسهِ لمحاربة الاعجام بثلاث مئة الف مقاتل وحاصر مدينة بغداد ايامًا طويلة وافتتحها عنوةً بعد ان هلك نحو ٣٠ الفًا من جيش العجم ونحو ثلث جيشهِ وعاد الى القسطنطينية تاركًا كبير وزرائهِ للمخابرات بشان الصلح. وسنة ١٦٢٩ تقررت شروطهُ تحت ارجاع مدينة روان لدولة العجم وابقاء بغداد لدولة آل عثمان واقيم فيها وزيرٌ وقد اكثر

الناس من نظم الاشعار في فتحها فمن ذلك قول بعضهم

خليفة الله مرادٌ غزا قلعة بغداد فارداها
وعندما حاصرها جيشهُ اندكّ للاسفل اعلاها

هذا ما جرى في ايام هذا السلطان من الفتوحات والحروب واما ما وقع من الحوادث فمنها تعطيلهُ القهوات ومنعهُ شرب التبغ والافيون وقتلهُ اصحاب المفاسد من القواد والجيوش واصلاحهُ حال المالية حتى امست الدولة في ايامهِ في يسرٍ وانتظام لا مزيد عليهما هذا وبينما كانت الدولة في تقدمٍ ونموٍّ وزهوٍ كانت صحة السلطان مراد تتاخر يومًا فيومًا لافراطهِ بشرب الخمر ولم تطل ايامهُ حتى توفي في الاول من شهر اذار سنة ١٦٤٠ بعد ان ملك ١٧ سنة ولهُ من العمر ٣١ سنة

ولم يبقَ يومئذٍ من سلالة آل عثمان سوى الامير ابرهيم اخي السلطان مراد فخلفهُ سنة ١٦٤٠ ولهُ من العمر ٣٠ سنة على انهُ كان بونٌ عظيم بينهُ وبين اخيهِ مراد فكان ضعيف الراي والعزم قلما يلتفت الى سياسة المملكة وكان عندهُ من السراري على ما قيل الف وخمس مئة وكان يقسم بينهنَّ مداخيل الولايات وكان زمام الدولة ونصيبها في يدي امهِ ومصطفى باشا كبير الوزراء فاخذ يسعى هذا الوزير في اشهار سلطنة سيدهِ بفتوحات جديدة فارسل جيشًا لمحاربة خان التتر واسترجاع مدينة ازوف وبعد ان هلك خلقٌ كثير استولت الدولة على المدينة المذكورة ١٦٤٢ وبعد ذلك بثلاث سنين استولت ايضًا على بعض جزيرة كريت ولكن لما كانت اجراءات هذا السلطان غير مرضيَّة واعمالهُ مكروهة نفر منهُ اركان ديوانهِ ثم اجمع رايهم فخلعوهُ وفي ثالث يوم من خلعهِ خنقوهُ مع وزيرهِ محمد باشا

وكان قد اعقب ولدًا واحدًا ولم يكن لهُ اذ ذاك من العمر الاَّ سبع سنين غير كاملة فبويع مكان ابيهِ تحت اسم محمد الرابع . وكانت الدولة يومئذٍ في ارتباك عظيم مزعزعة الاركان وحسادها واعداؤُها كثيرين وكانت المالية من

جهةٍ في عسر وضيق ومن جهةٍ اخرى كانت العساكر غير منقادة لاولياء امورها واصبح وكلاء الدولة في الولايات غير مبالين في تنفيذ اوامرها فمن جرى هذه الاحوال نبغت الفتن وكثر الفساد وتقوَّى الضعفاء على الوزراء والاكابر فكان الوزير يتولى اياماً ثم يُعزل او ينفى او يُقتل وهكذا من سنة ١٦٤٨ الى ١٦٥٧ كانت ايام دولتهِ في تعكير . ومع ان السلطان محمد كان لم يزل صغير السن لم يفتر عن البحث هو وامهُ على رجلٍ فيهِ اللياقة والاهلية لان يتبوأ مسند الصدارة فعثر اخيرًا بما كان يتمناهُ باخذهِ كوپرلي محمد باشا وكان رجلاً مسنًّا حاذقًا ذا اختبار لان طول الايام كان قد علمهُ ما لم يعلمهُ غيرهُ وحالما استلم عنان ماموريتهِ شرع في سد الخلل الذي كان قد اوقع الدولة في الانحطاط وصرف قصارى جهدهِ في استئصال عروقهِ المضرَّة وفي برهة قصيرة نظم مهام السلطنة وضبط الاحكام على احسن نظام وعادت الى سطوتها ورونقها الاولين

واراد هذا الوزير ان يجعل حكم سيدهِ ذا شهرة واعتبار فاخرجهُ من عالم ظلال القصور الى عالم الشهرة وجهز جيشًا واشار على السلطان ان ياخذ قيادتهُ ويذهب بهِ الى دلماتيا لمحاربة اهل البندقية .فذهب السلطان الى مدينة ادرنة ليستلم قيادة الجيش سنة ١٦٥٨ واقام محمد باشا بمنصبهِ في العاصمة . وبعد وصول السلطان ببضعة شهور الى ادرنة حدثت ثورة عظيمة في نواحي حلب والموصل بدسيسة ابرهيم باشا واليها وذلك ان رجلاً ادعى انهُ ابن مراد الرابع وسمى نفسهُ بايزيد زاعمًا انهُ نجا من القتل عندما أُمر بقتلهِ وعضدهُ جمهور غفير فبعث محمد باشا بجيشٍ صغير لمحاربة ذلك المدعي زورًا ولاطفاء نار الثورة فانكسر الجيش ولم يثبت فاضطرَّ الى اعادة الجيش الذي ذهب بهِ السلطان الى ادرنة وارسال كل قوة الدولة لاخماد نار العصاة فانهزم المدعي المذكور وتمزق جمعهُ وتفرق ثم قُبض عليهِ في الاسكندرية مع ابرهيم باشا الذي كان السبب في ذلك وقُتلا وعادت الراحة الى الدولة وذلك سنة ١٦٦٠ . وكانت جمهورية البندقية والشجاع راكوتزكي صاحب تراسلفانيا من اشد اخصام الدولة

تلك بحرًا وهذا برًّا فاخذ محمد باشا يتاهب للخروج بالجيوش لمحاربة راكوتزكي المذكور فدهمتهُ الوفاة في مدينة ادرنة سنة ١٦٦١ وحزن السلطان جدًّا لفقدهِ فاقام مكانهُ ابنهُ احمد فاضل باشا وكان كابيهِ في الذكاء والحذق فسلك مسلكهُ في تحسين امور الدولة ونجاحها ونجحت العساكر العثمانية في مبدا الامر في ترانسلفانيا والمجر وما جاورها من البلدان ولكن اخيرًا انتصر عليهم القائد النمساوي العام مونتيكوكوليو سنة ١٦٦٤ فاجمعوا جميعًا على عقد الصلح وقبل الامبراطور ليوبولد ذلك بمزيد الفرح سنة ١٦٦٥

وكان السلطان محمد الرابع قد جعل دار اقامتهِ من سنة ١٦٥٨ مدينة ادرنة كما كان قد اشار عليهِ وزيرهُ السابق فتذمر اهل العاصمة من غيابهِ منها واظهروا عدم الرضا فاشار عليهِ وزيرهُ احمد بالرجوع اليها فعاد ولم يلبث الاَّ اياماً قلائل حتى عاد الى مكانهِ بحجة طلب الصيد والقنص لانهُ امسى يخشى غدر المفسدين كما غدروا قبلاً بسلفائهِ . وسنة ١٦٦٨ ذهب احمد باشا الصدر الاعظم الى كريت لانجاز امر الحرب هناك وافتتاح ما كان باقيًا في ايدي مشيخة البندقية فارسلت المشيخة المذكورة تستعين بدول الافرنج فانجدهم الفرنساويون والباب وسائر دول ايطاليا وفرسان مالطة فلم يأتِ كل ذلك بادنى فائدة بل فتح العثمانيون الجزيرة بعد حربٍ شديدة وبعد ان اقام الصدر الاعظم فيها المحافظين وبنى ما كان قد تهدم من حصونها وابراجها قفل راجعًا بباقي الجيش الى العاصمة سنة ١٦٧٠

وسنة ١٦٧٢ فتحت الحرب ثانيةً في المانيا وبولونيا ودامت الى سنة ١٦٧٥ وكانت تارةً لهم وطورًا عليهم وفي السنة نفسها توفي الوزير احمد فاضل ولهُ من العمر ٤٧ سنة بعد ان حكم ١٥ سنة الامر الذي لم يجرِ قبل ذلك العهد في الدولة العثمانية فحزن السلطان لفقدهِ لانهُ كان من افضل الوزراء الذين قاموا في دولة آل عثمان الى ذلك العصر ولو طالت بعد حيوة هذا الوزير لتحسن حال الدولة جدًّا فخلفهُ قره مصطفى باشا ولم يكن في السطوة دون سلفهِ على انهُ

كان بينهُ وبين ذاك بونٌ عظيم في الحذق والدراية فوقع بينهُ وبين كوزاك اوكرينيهٔ نفور افضى الى حمل السلاح فطلب هولاء الاعانة من دولة روسيا فلبَّت دعوتهم ووقعت الحرب سنة ١٦٧٨ ففاز الكوزاك والروسيون على آل عثمان ولما بلغ السلطان محمد ذلك خرج بنفسهِ الى ساحة القتال فلم ياتِ ذلك بالمرغوب ولما راى وزيرهُ تلك الحال خامرهُ الخوف والوجل وكان القيصر الروسي قد عرض عليهِ الصلح فقبل بهِ حالاً

وبعد هذه الخسارة اخذ الصدر الاعظم في استعدادات كلية لمحاربة امبراطور المانيا ولما كانت سنة ١٦٨٢ خرج السلطان مع مصطفى باشا من القسطنطينية الى ادرنة ليجتمعا هناك بالجيش ومن هناك قاد مصطفى باشا العساكر ونقدم دفعةً واحدة واقام الحصار على مدينة فينا قبل ان يمهد الطريق بفتح الحصون التي قبلها. ولما وصل هذا الخبر الى الامبراطور ليوبولد اضطرب كثيرًا وارسل من يومهِ يسال البابا ان يطلب الى سوبياسكي ملك بولونيا ان يتحد معهُ على عدوهم العام ولما راى البابا اينوسانت الحادي عشر الخطر الذي كان محدقًا باكثر الدول النصرانية من سطوة آل عثمان حمَّس سوبياسكي المذكور وغيرهُ من امراء المانيا ان ينضموا يدًا واحدة لدفع البلاء فاجاب الجميع استدعاء البابا واخذوا يجتمعون جميعًا للمدافعة . وكان الصدر الاعظم مصطفى باشا يشدد الحصار ويرمي المدينة بالقنابل والنار المهلكة وكان اهلها لا يعرفون النوم ولا الراحة فكانوا يصرفون النهار بالحرب والمدافعة وفي الليل يرمّمون ما قد تهدم من الاسوار فاستمر الحال على هذا المنوال الى اليوم الثاني عشر من شهر ايلول سنة ١٦٨٢ اذ اقبلت طلائع سوبياسكي وقد انضم اليهِ جماهير غفيرة من اقطار المانيا كبافاريا وسكسونيا وغيرها وهجموا دفعة واحدة على صفوف العساكر العثمانية واشتبك بينهم قتالٌ مهولٌ دام من الصباح الى المساء حتى تخضبت الارض بالدماء وتغطى كبد السماء من الدخان وقد فعل سوبياسكي وجموعهُ فعالاً تكلّ عنها صناديد الرجال وقاومت العساكر العثمانية

مقاومة الاسود ولكن اضطر اخيرًا مصطفى باشا ان يطلب الفرار وتشتت جيشهُ في تلك البراري والوهاد بعد ان هلك منهُ خلقٌ كثيرٌ. ولما عاد مصطفى باشا الى بلغراد اخذ الناس وقواد العساكر يتذمرون عليهِ ويطلبون قتلهُ اذ كان هو السبب في ذالك الانهزام فامر السلطان بقتلهِ واقيم مكانهُ قره ابرهيم باشا

وسنة ١٦٨٤ اشهرت مشيخة البندقية ودولة النمسا الحرب على الدولة ودامت الحرب بينهم الى سنة ١٦٨٦ وكان النصر فيها دائمًا للافرنج فتكدر ارباب الدولة جدًّا من ذالك. واذ كان السلطان محمد مغرمًا بالصيد صارفًا اكثر اوقاتهِ فيهِ غير ملتفت الى صالح الدولة وتدبير مهامها مقتهُ الشعب والعساكر واجمعوا على عزلهِ فاخرجوا فتوى وخلعوهُ عن الملك ووضعوهُ تحت الترسيم واقاموا مكانهُ اخاهُ السلطان سليمان الثاني سنة ١٦٨٧ فكان مبدا حكمهِ مشوشًا من داخل ومن خارج وكانت الاعلام العثمانية منكسة دائمًا في البندقية والنمسا ولما راى السلطان تلك الحال والاخطار المحدقة بالدولة بعث الى حكومتي النمسا والبندقية يطلب اليهما الصلح فلم تجيباهُ الى طلبهِ فاضطر الى دفع القوة بالقوة وعزم ان يقود الجيش بنفسهِ ولما وصل الى بلغراد خاف ان يتقدم اكثر من ذالك لجهلهِ فن الحرب فولج قائدًا خلافهُ سنة ١٦٨٩ فكسرهُ الافرنج وشتتوا جيشهُ

وتولى الصدارة يومئذٍ مصطفى باشا كيوبرلي المشهور وكان قد ورث من جدهِ وابيهِ اجراءاتهما الحربية والسياسية فاخذ قيادة الجيش وانتصر على النمسا سنة ١٦٩٠ وسنة ١٦٩١ واستخلص منها بلغراد وغير اماكن كانت قد ربحتها على الدولة قبل ذالك ومن جهةٍ اخرى كانت الاعلام العثمانية فائزة ايضًا في البندقية وفي اثناء ذالك توفي السلطان سليمان بعد ان حكم ثلاث سنين وتسعة اشهر

وخلفهُ اخوهُ السلطان احمد الثاني سنة ١٦٩١ وفي نفس هذه السنة صار مصطفى باشا بالجيش للحرب مع النمسا فقتل في المعركة وانهزم الجيش وتشتت

بعد ان هلك منهُ ٢٨ الفًا . وسنة ١٦٩٢ حدثت حريقة هائلة في القسطنطينية احرقت ربع المدينة . وسنة ١٦٩٤ ارسلت الدولة جيشًا لمحاربة النمسا فلما بلغ ذلك قائد جيش النمسا رفع الحصار عن مدينة بلغراد ورجع عنها على انهُ لم يُعقَد صلحٌ بينهما وبقي جيش الدولة محافظًا هناك وفي السنة التي بعدها مرض السلطان ومات وكانت مدة سلطنتهِ اربع سنين

وتخلف مكانهُ السلطان مصطفى الثاني بن السلطان محمد الرابع سنة ١٦٩٥ وكان محبًا للعلوم والمعارف وعلى جانبٍ عظيم من الرقة والحذق وكان اول امرٍ باشرهُ في نفس تلك السنة افتتاحهُ جزيرة ساقس من البندقية وبعد هذه الغلبة سار بجيشٍ قليل لمحاربة النمسا على انهُ لم يجنِ ادنى ثمرة في هذه الحملة بل عادت عليهِ بالخسارة وهكذا كان الحال ايضًا في السنة التي بعدها في محاربة المسكوب ففاز الروسيون واخذوا مدينة ازوف . وكانت دولة فرانسا مع باقي الدول المتحابة ساعية في غضون ذلك في تمهيد طريق الصلح فسعى سفير انكلترا وهولاندا لدى الباب العالي في ترقية اسبابهِ فلم تصادف مساعيهما قبولاً في اول الامر بل اصرَّ السلطان على الحرب والانتقام من دولة النمسا ولكنهُ بعد واقعة سنة ١٦٩٧ وعدم نجاح العساكر العثمانية على النمسا قبل بالصلح فانعقدت شروطهُ في مدينة كرلوويتز بين الدولتين عن يد معتمدي الدول الاجنبية وحصل فيها هدنة متاركة السلاح بينهما على مدة ٢٥ سنة . واما القيصر الروسي فلم يقبل الاَّ بهدنة سنتين فقط وتم ذلك في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٦٩٨ وبعد انعقاد الصلح المذكور هاجت العساكر والناس بسببهِ وقاموا على السلطان وخلعوهُ عن السلطنة وقتلوا المفتي الكبير وكانت مدة سلطنتهِ نحو ثمان سنين ومات في السنة التي بعدها سنة ١٧٠٢

الباب السادس

في ما جرى من الامور والحوادث منذ خلافة السلطان احمد الثالث سنة ١٧٠٣ الى سنة ١٨٨٤

انهُ عندما تبوأ السلطان احمد الثالث مسند الخلافة سنة ١٧٠٣ كان السلام منتشرًا في كل اطراف السلطنة الامر الذي ندر وقوعهُ منذ تاسيس الدولة العثمانية وكانت يومئذٍ الحرب قائمة على ساقٍ وقدم بين القيصر الروسي وكارلوس الثاني عشر ملك السويد واسترسلت الى سنة ١٧٠٩ حين انكسر اخيرًا كارلوس المذكور في معركة بلتوفا وفاز عليهِ بطرس الاكبر فانهزم ودخل حدود الدولة العلية ونزل في بندر. فامر السلطان وقتئذٍ ان يكرم غاية الاكرام وان تكون مصاريفهُ ومصاريف كل تبعتهِ من خزينة الدولة. اما كارلوس فاخذ يطلب من السلطان نجدةً لقتال القيصر الروسي فلم يجبهُ الى ذلك نظرًا للمعاهدة التي كانت بين الدولتين فمكث ست سنوات في بلاد الدولة مداومًا الالحاح عليها لمحاربة روسيا واذ كان لهُ في بلاط السلطان شهرة عظيمة وكانت ام السلطان تميل اليهِ وتلقبهُ بالاسد اعتمدت الدولة اخيرًا على اجابة طلبهِ واشهرت الحرب على روسيا سنة ١٧١١ وارسلت جيشًا عظيمًا تحت قيادة محمد باشا البلطجي فاشتبك القتال بين الطرفين عند نهر بروث وبعد كفاح شديد تقهقر جيش القيصر وامسى الامبراطور في خطرٍ مبين ولو لم تدارك الامر زوجتهُ كاترينا بحذقها ودرايتها لاصبح زوجها اسيرًا فعقدت الصلح مع الوزير الاعظم تحت شرط ترجيع بحر ازوف الى الدولة وهدم الحصون التي على سواحل هذا البحر وعدم مداخلة روسيا فيما يخص الكوزاك وان تتعهد الملك كارلوس بحرية الرجوع الى بلادهِ وبعد المصادقة على هذه العهود من الطرفين ارسل الوزير يعلم السلطان بالنتيجة فغضب وامر بعزلهِ

وسنة ١٧١٤ فتحت الحرب على البندقية وإذ كانت هذه المشيخة في ضعف من كثرة الحروب لم تستطع منازعة الدولة زماناً طويلاً فاستولت العساكر العثمانية دفعةً واحدةً على ولاية المورة سنة ١٧١٥. وكانت المشيخة المذكورة قد استغاثت بشارل السادس امبراطور الماليا فلبى دعوتها وبعث الى الدولة العلية يطلب منها ان ترسل معتمداً من طرفها الى حدود بلاد المجر لاجل المخابرة معهُ لجهة جمهورية البندقية وان ابت عن ذلك فانهُ مستعد ان يشهر الحرب عليها. فلم تجب الدولة هذا الطلب بل ارسلت على الفور الصدر الاعظم بمئة وخمسين الف مقاتل لمحاربة الماليا فوافاهم ثمانون الفاً من عساكر الالمان تحت قيادة الامير اوجين والتقى الجيشان عند كارلوفيتز حيث كان عقد بين الدولتين المتحاربتين معاهدة الصلح منذ ١ سنة والتحم القتال بين الفريقين فكانت الدائرة على عساكر آل عثمان وقتل الوزير الاعظم وكل القواد الاولين وفتح الالمان مدينة تيمسفار بعد حصار شهرين ودخلت الفلاخ تحت تسلطهم. وكانت الدولة قد ارسلت عمارتها بحراً لمحاربة البندقية وفتح جزيرة كورفو فخسرت ايضاً ولكن مع كل هذه الخسائر جددت الحرب سنة ١٧١٧ فكانت ايضاً تعيسة عليها اذ خسرت فيها مدينة بلغراد. ولما بلغت هذه الاخبار ديوان السلطان فتح المخابرات بشان الصلح سنة ١٧١٨ وكان يطمع في عقد الصلح مع كلٍّ من دولة الماليا وجمهورية البندقية على حدتهِ فاجاب الامير اوجين بان الامبراطور شارل لا يفتح المخابرات الاَّ تحت شرط عقد الصلحين سويةً تحت نظرهِ واردف هذا الطلب بان يعطى لهُ ما عدا مصاريف الحرب ومدينتي بلغراد وتيمسفار اقليما بوسنيا والسرب الواقعان في الجهة اليمنى من نهر الدانوب والفلاخ من حدود بغداد الى نهر دنيستر وان ترجع المورة الى البندقية فعظمت هذه المطاليب على السلطان احمد وفضَّل فقد التاج على التسليم بشروطٍ مجلبة للعار. فتداخلت اخيراً دولتا انكلترا وهولاندا في فض الخلاف وصار القرار على ان يبقى في يد كلٍّ من الدولتين الاملاك التي تكون في يدها عند امضاء

المعاهدة وان تبقى ايالة المورة للدولة

وسنة ١٧٢١ حدث حريقة مهولة في القسطنطينية احرقت نحو ربعها .
وسنة ١٧٢٦ توفي الشاه حسين ملك العجم مقتولاً وحدث ثورة عظيمة في بلاده فاغتنمتها الدولة ودخل جيشها بلاد العجم واستولت على بعض املاكها . وفي تلك الاثناء انتصر الشاه طهمسب على اعداء ابيهِ وغب جلوسهِ على سرير الملك ارسل يطلب من السلطان ترجيع الاملاك التي كان استولى عليها واذا لم يلتفت الى ذلك الطلب غار الاعجام على تبريز واستولوا عليها . فلما راى الناس والانكشارية عدم مبالاة السلطان بامور الدولة تمردوا واجتمع قومٌ من العصاة وقتلوا الوزير وخلعوا السلطان عن كرسيهِ وقام بعدهُ باعباء السلطنة السلطان محمود خان الاول ابن السلطان مصطفى الثاني سنة ١٧٣٠ فرفق في الرعايا واقتفى اثار اجدادهِ بالغزو والجهاد فحارب الاعجام في جملة مواضع ولكن بدون فائدة عظيمة وحارب ايضاً روسيا والمانيا عدة سنوات وبعد وقائع كثيرة اجرى معهما صلحًا مع هدنة اجلها ٢٧ سنة اما شروط الصلح مع المانيا فهي ان ترجع للدولة بلغراد مع اقليمي السرب والفلاخ وان يكون الحد الفاصل بين الدولتين نهر الدانوب واما الشروط مع روسيا فهي ان لا يكون لها مراكب حربية او تجارية في البحر الاسود وبحر ازوف بل تستخدم لتجارتها مراكب اجنبية وان تهدم قلعها في ازوف وان ترجع بعض البلاد التي استولت عليها في زمن الحرب. وهكذا انتهى الحال وزال الشقاق والاختلال وعظم السلام في السلطنة الى ان توفي السلطان محمود في ١٣ ك سنة ١٧٥٤

وتسلطن بعدهُ اخوهُ السلطان عثمان الثالث وكان يحب الانفراد لا يبالي في تدبير مهام الدولة واصلاح امور العباد ولم يكن لهذا السلطان شيء من المناقب الحسنة وكانت مدة حكمهِ ثلاث سنين ونصفًا ثم توفي سنة ١٧٥٧. وخلفهُ السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان احمد الثالث في السنة المذكورة وكان سلطانًا عظيمًا موصوفًا بالعدل والحلم فاخذ حالاً في تنظيم احوال

السلطنة وسلك احسن سلوك مع الرعايا وكان يعتمد على وزيره محمد راغب باشا الموصوف بحسن السياسة والتدبير وهو صاحب الجامع والمكتبة الوقفية الشهيرة المعروفة الان باسمهِ في مدينة القسطنطينية. ولكن لم تطل ايام هذا الشهم اذ توفي سنة ١٧٦٨ وبعد موتهِ شبت نيران الحرب بين الدولة وروسيا وخرج السلطان للحرب سنة ١٧٦٩ فكان طالعها مشوماً جدًّا عليهِ فخسر شوكزيم والبغدان وقسماً من الفلاخ ولم تكن السنة التالية اقل شوماً من التي قبلها اذ احترقت عمارة الدولة بالقرب من جزيرة ساقس وانهزم خان القرم عند نهر بروث وانكسر الصدر الاعظم ايضاً عند شواطي النهر المذكور وخسرت الدولة مدينة بندر وعدة جزائر في الارخبيل. وفي الوقت نفسهِ تحرك اليونان في المورة والارناوط ايضاً بدسيسة روسيا واخذوا يستعدون لخلع نير الطاعة للدولة. ونهض ايضاً علي بك من المماليك واخذ مصر واراد الاستقلال بها. وحكم ايضاً الشيخ ظاهر العمر على جانب من سوريا مستقلاً فامست الدولة في مركز صعب جدًّا ومع ذلك لم تفترهمة السلطان مصطفى واستمر يناضل قوة العدو وينازعهُ على الدانوب حتى عزم ان يقود الجيش بنفسهِ ولكنهُ شعر في تلك السنة بهبوط في قواهُ وكان يتزايد يوماً فيوماً حتى شعر بقرب حلول الاجل فاستدعى اليهِ اخاهُ عبد الحميد واوصاهُ بولدهِ سليم (الذي حكم فيما بعد تحت اسم سليم الثالث) ثم توفي في ٢١ك٢ سنة ١٧٧٤ ولهُ من العمر ٥٨ سنة

وجلس بعدهُ اخوهُ السلطان عبد الحميد سنة ١٧٧٤ وكان محمود السيرة سليم السريرة يحب الصلح والسلامة وكان لهُ اذ ذاك ٥٠ سنة من العمر قضى ٤٤ منها في عالم السجن فلم تكن فيهِ الاهلية لادارة مهامّ السلطنة لا سيما في تلك الحالة التي افضت اليها بعد كثرة الحروب والقلاقل من داخل ومن خارج وكان سلفهُ قد باشر التجهيزات لمحاربة الدولة الروسية فامر بانجازها وازديادها وبعث بالصدر الاعظم مع ٤٠٠ الف مقاتل فالتحم القتال بينهم وبين الجيوش الروسية فلم ينتصروا عليهم لقلة تدبيرهم وانحصروا في شومله ووقعوا في صعوبة كلية

ولم يعد لهم منها منفذ الاَّ بالصلح فعقدت شروطهُ سنة ١٧٧٤ واخصها استقلال التتر وفتح ابواب كل ابحر الدولة السفن الروسية ومع ذلك كلهِ لم تقنع دولة روسية بل كانت تتعدى من حينٍ الى حين على حدود الدولة حتى انها اغارت على القرم واستولت عليها وكان السلطان عبد الحميد يتحمل تلك التعديات بمرارة عظيمة زماناً طويلاً وهو غير قادر ان ياتيها بالعلاج الشافي ولما راى ان كل املاك دولتهِ ما وراء الدانوب وقعت في قبضة الاجانب شرع في استعدادات جديدة للحرب وبينما كان مهتماً على القيام وافتهُ المنية في ٧ نيسان سنة ١٧٨٩ تاركاً لابن اخيهِ السلطان سليم السلطنة في اسوإِ حالٍ

فلما تبوأ السلطان سليم الثالث مسند الخلافة همَّ حالاً لنشل الدولة من تلك الحالة السيئة التي افضت اليها من سوء ادارة سالفهِ وبعث بالعساكر المجهزة لمحاربة الجيوش الروسية والنمساوية فالتقى الفريقان في البغدان وصدموا بعضهم بعضاً مدة شهرين فكانت الدائرة على جيوش الدولة وغنم الاجانب غنائم كثيرة واستولوا على قلعة بلغراد وايالتي الفلاخ والسرب فتداخلت حينئذٍ روسيا وانكلترا بين ليوبولد امبراطور جرمانيا والدولة في شان الصلح وقرَّ القرار فيهِ بان يصير ارجاع بلغراد وكل الاراضي التي فتحتها النمسا خلا شوكزيم لحد نهاية الحرب مع روسيا وتعينت ساقية كزارما حدًّا فاصلاً بينهما وكان ذلك سنة ١٧٩١ . اما روسيا فكانت لا تزال مقيمة الحرب على قدم وساق وقد حاصرت قلعة اسمعيل وهي من اهم حصون الدولة العلية وامنعها وبعد حصارٍ شديد فتحتها فتداخلت ايضاً الانكليز وبروسيا وانهوا النزاع والحرب وحملوا روسيا ان ترجع للدولة كل الاماكن التي فتحتها خلا اوكزاكوف والاراضي الواقعة بين نهري بوغ ودنيستر حيث اقامت الملكة كاترينا الثانية مدينة اودسًا سنة ١٧٩٢ وبعد هذا الصلح حدث فرحٌ عظيم في القسطنطينية على ان الاخبار لم تكن سارَّة من جهة مصر وسوريا

ثم سعى السلطان سليم في ترقية اسباب تقدم بلادهِ وعمرانها وارسل يطلب

من فرانسا مهندسين ومعلمي صنائع وضباطًا الى غير ذلك فبعثت لهُ بجانب عظيم على ان علاقاتهِ الحبية معها تكدرت سنة ١٧٩٨ حين دخل الفرنساويون مصر عن غير علم الدولة واقاموا فيها الى سنة ١٨٠٠ فالتزمت حينئذٍ ان تشهر ضدها السلاح واخرجتها من اراضيها المصرية بمعاضدة انكلترا وفي اول اذار سنة ١٧٩٩ فتحت عمارتا الدولة وروسيا السبع الجزر التي كانت لجمهورية البندقية وكانت فرانسا يومئذٍ مستولية عليها منذ سنة ١٧٩٧ . وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي اتحد فيها هاتان الدولتان وفي ٢١ اذار من سنة ١٨٠٠ صار الاتفاق بين الدولتين المشار اليهما في صيرورة الجزر المذكورة حكومةً مستقلة خاضعة للسلطنة العثمانية تحت اسم جهورية السبع الجزر

وبعد رجوع بوناپارت من مصر عقد سنة ١٨٠٢ معاهدة صلح مع الدولة العلية ولما ارتقى الى منصب الامبراطورية بعث سفيرًا الى الدولة لكي تعرفهُ امبراطورًا فتاخرت من جرى تهديدات روسيا وانكلترا ولكن لما بلغها صدى انتصاراتهِ على النمسا وروسيا في اوسترليتز سنة ١٨٠٥ عرفتهُ اخيرًا سنة ١٨٠٦ وجددت مع فرانسا علاقات الوداد ووافقتها على محاربة روسيا فكان ذلك داعيًا لتعكيرها مع انكلترا التي كانت تسعى في ملاشاة شوكة نابوليون . ولكن لم تستطع انكلترا ان تمنع السلطان سليم عن محاربة المسكوب لان جيوش هذه الدولة كانوا قد تجاوزوا الحدود ودخلوا الفلاخ والبغدان خلافًا للعهود فاضطر السلطان ان يحافظ على بلادهِ ويدافع عن حقوقهِ فجهز الجيوش وارسلها تحت قيادة الصدر مصطفى باشا شلبي ومصطفى باشا البيرقدار الى الاقليمين المذكورين فضربوا الروسيين ومنعوا تقدمهم على الاراضي العثمانية

وكان السلطان سليم يرغب ان يلاشي وجاق الانكشارية ويقيم مكانهُ عسكرًا على الطريقة الافرنجية لانهم كانوا قد زعزعوا اركان السلطنة بعصيانهم وعدم انقيادهم وكان قد نظم في العام الماضي بعض الفرق من النظام الجديد فهاج الانكشارية من جراء ذلك واثاروا في المدينة شغبًا عظيمًا وغصبوا ان

اعتصبوا عصبةً واحدة طفقوا يتعدون على الاهالي ويقتلون من وقعت ايديهم عليهِ واخيرًا خلعوا السلطان سليم واقاموا مكانهُ السلطان مصطفى الرابع حفيد السلطان عبد الحميد في ٣٠ ايار سنة ١٨٠٧

فلما جلس السلطان مصطفى على كرسي الخلافة امر بالقبض على اخيهِ محمود وعلى السلطان سليم وحجزهما في مكانٍ واحد خوفًا من شرهما . وحدث في نفس السنة التي تولى بها ان نابوليون الاول فاز على الامبراطور الروسي وعقد معهُ معاهدة تيلسيت فبمداخلتهِ عقدت هدنة بين الدولة العلية وبين روسيا وانسحب العسكران كلٌّ الى بلادهِ . وعند رجوع الصدر الاعظم ومصطفى باشا البيرقدار الى القسطنطينية سعيا في ارجاع السلطان سليم الى كرسيهِ لانهما كانا من حزبهِ فاحسَّ بذلك السلطان مصطفى وبعث اناسًا خنقوا السلطان سليمًا واتوهُ بهِ مخنوقًا ثم ارسل من يفعل مثل ذلك باخيهِ محمود. فلما بلغ الخبر مصطفى باشا البيرقدار بعث من خلص محمودًا بعد ان اوشك ان يقع في ايدي مطاردبهِ واتى بهِ الى بيتهِ وهناهُ بسلامتهِ فشكرهُ محمود على جميل صنيعهِ وارسل في الحال جماعة قبضوا على اخيهِ مصطفى وهو في دارهِ وحجزهُ في المكان الذي كان هو فيهِ وتبوأ تخت الخلافة مكانهُ وذلك سنة ١٨٠٨ وهو السلطان محمود الثاني وجعل مصطفى باشا البيرقدار المذكور صدرًا اعظم

وكانت الدولة يومئذٍ في مركز صعب جدًّا لم تصل الى مثلهِ منذ تاسيسها فسلم ادارة مهامها الى وزيرهِ مصطفى باشا المشار اليهِ معتمدًا عليهِ كل الاعتماد فقام بتدبيرها اتم قيام واخذ يسعى في استئصال اهل البغي والشر ووضع قوانين ونظامات جديدة توافق روح العصر فابغضهُ الانكشارية وكثيرون من الناس واضمروا لهُ السوء الى ان هجموا ذات يوم عليهِ في بيتهِ واضرموا فيهِ النار فهلك ذلك الرجل المعتبر المحب الاصلاح . ثم هجموا على دار السلطان وارادوا ان يفعلوا ما فعلوا بالوزير وان ينزلوهُ عن السلطنة ويرجعوا السلطان مصطفى فلما راى ديوان الشورى ان بقاء السلطان مصطفى في قيد الحياة يكون سببًا للفتن

والقلاقل خنقوهُ عن غير رضى السلطان محمود وبادروا لاطفاء نار الفتنة التي اضرمها الانكشارية فضايقوهم ثم طلبوا لهم العفو من السلطان فعفا عنهم الى حين

وكانت يومئذٍ العساكر الروسية تتقدم الى جهة نهر الدانوب مسرعةً فبعث السلطان جيشًا عظيمًا لمصادمتهم فلم يقدر ان يوقف مسيرهم فطالبت فرانسا ان تتوسط امر الصلح بينهما فرفض السلطان محمود مداخلتها لانهُ تاثر جدًّا من الشروط السرية التي عقدها نابوليون مع اسكندر الروسي في تيلسيت التي من شانها اقتسام دُوَل اوروبا فيما بينهما من جملتها بلاد الدولة العلية واستمر في مقاومة الروسيين ومحاربتهم ولكن من غير فائدة واستولى الروسيون على مدينة شوملة وعلى عدة مراكز حسنة وضايقوا العساكر العثمانية اشد مضايقة وبينما كانت المصائب محيطة بالدولة من كل جهة اذا بطالعٍ سعيد بزغ في افقها وذلك ان نابوليون الاول كان قد اشهر الحرب على روسيا سنة ١٨١٢ وسار اليها بجيوشهِ الجرارة فالزم ذلك روسيا ان تسحب اكثر جيوشها من حدود الدولة وعقدت في ١٦ ايار سنة ١٨١٢ مع الباب العالي صلحًا موافقًا جدًّا للدولة العثمانية

فاغتنم السلطان فرصة هذا الصلح لتسكين الثورات في ولايتي بغداد وايدين وغيرها ولاتمام مشروعاتهِ الحسنة فصرف قصارى همتهِ في ذلك الشان مدة الثمان السنين التي دام فيها الصلح . وسنة ١٨٢١ تحرَّك اليونان في المورة وجاهروا بالعصيان على الدولة وكانوا يهجمون بمراكبهم على سواحل البحر فيقتلون ويسلبون ويرمون الفتن في جميع الاطراف فشق ذلك على الدولة وارسلت العساكر لردعهم وادخالهم في حيز الطاعة فشبت الحرب بينهما وقامت على ساقٍ وقدم وبعث الباب العالي الى محمد علي باشا والي ولاية مصر يامرهُ ان يرسل جيشًا لمحاربتهم فارسل ولدهُ ابرهيم باشا المشهور بخمسة وعشرين الف مقاتل مع عمارةٍ بحرية ولما وصل الى المورة انضم بجيشهِ الى جيش الدولة وزادت نيران

الحرب شبوبًا ولما أَيس الاروام من النجاة وزوال الاستقلالية استنجدوا بالدول الاوروبية فبادرت دولتا فرانسا وانكلترًا الى توسط امرهم لدى الدولة ولما لم يجب السلطان محمود سوالها ارسلتا عمارتيهما وانضمت اليهما العمارة الروسية وعند وصولها الى ميناء نافارين بعثوا جميعًا الى ابرهيم باشا يطلبون اليهِ ان يوقف الحرب فاجاب انهُ لا يقدر على ذلك الاَّ بامر من السلطان فعند ذلك دخلوا مينا نافارين واطلقوا النار على عمارتي الدولة ومحمد علي باشا فاحرقوهما وكان ذاك في ٦ تموز سنة ١٨٢٧ ولما بلغ ذلك الخبر السلطان محمودًا اضطر الى اجابة سوال الدول المتحدة وامضى الشروط التي عرضت عليه بخصوص ابطال الحرب واستقلال الاروام

وفي وسط هرج هذه الحروب اصدر السلطان محمود امرًا بتدمير وجاق الانكشارية فهجمت عليهم العساكر المستجدة والاهليون في العاصمة وباقي الولايات وابادوهم عن آخرهم وارتاح الناس من جورهم والدولة من اثقالهم . وفي تلك الاثناء غير السلطان محمود لبسهُ ونزع العمامة والجبة وتزيى بالزي العثماني الحالي وبالطربوش الصغير ولم يبالي باقوال المعترضين

وسنة ١٨٢٩ زحفت العساكر الروسية لمحاربة الدولة عند شواطي الدانوب وسار جيشٌ الى جهة اسيا فارسلت الدولة عسكرًا لمصادمتهم فتغلبت عليهِ الجنود الروسية وكسرتهُ في سيليستريا وشوملة واستولت عليهما ثم كسرتهُ ايضًا كسرةً اخرى عند كالينشوفا وقطعت مضيق البلكان واستولت على ادرنة واخذت تتهدد العاصمة وكانت جنود روسيا التي قصدت جهات اسيا قد استولت على القرص وبايزيد وطراق قلعة وارزروم ولما بلغت كل هذه المصائب السلطان محمودًا اضطرب جدًّا وهذه المرة الاولى التي فيها خامر قلبهُ الاضطراب والخوف على انهُ اظهر الثبات وقوة الجنان والقلب في وسط تلك الاخطار المحدقة بهِ وبدولتهِ فتداخلت ايضًا الدولة الانكليزية في انهاء تلك الشرور المهلكة وسلَّم السلطان محمود بكل الشروط التي طلبت منهُ وفي الثاني من شهر

ايلول سنة ١٨٢٩ حررت معاهدة الصلح في مدينة ادرنة ومآلها التسليم باستقلالية الاروام التامة والتنازل عن اقليم السرب لعائلة اوبرينوفيتش المستولية الى الآن وعن اقليمي الفلاخ والبغدان اللذين انضما سنة ١٨٦١ الى امرية واحدة تعرف بامرية رومانيا واستولى زمام احكامها البرنس شارل الاول من عائلة هوهنزولرن الالمانية سنة ١٨٦٦ بحق توريثها لمن يعقبهُ وهي تدفع مالاً معلومًا للدولة في كل سنة كبلاد مصر وعن بعض الجزائر الواقعة عند فم نهر الدانوب والشاطي الايمن منهُ . اراضٍ في اسيا مع غرامة حرب قدرها ١٠ ملايين فرنك. واما عقيب موتمر برلين سنة ١٨٧٨ فرومانيا وسربيا صارتا مملكتان مستقلتان كما سبقت الاشارة عند وصف جغرافية هذه البلاد

وربما استغرب القاري كيف ان الدولة التي سادت على اغلب ممالك العالم والقت الرعب في قلوب جميعهنَّ لم تستمر في نموها وتقدمها حتى التزم سلاطينها ان يرضخوا الى شروط نظير هذه والحال اذا نُظر الى هذا الامر بعين خالية من الغرض يحق الاستغراب من وجه آخر وهو كيف امكن هذه الدولة ان تحتمل كل تلك الصدمات الشديدة والمقاومات المريعة من اعدائها في اوربا واسيا وافريقية مع عدم فتور الخلل في داخليتها بسبب اصحاب البغي والفساد مع ما اوقعهُ وجاق الانكشارية من الخلل ولم تتزعزع اركانها بل استمرت في سلك الثبات العجيب ولم تستطع قوةٌ او سببٌ اخر ان يثنيها . فهذا اعظم برهان على عظمتها وقوتها

وسنة ١٨٢١ عندما كانت الدولة العلية خارجة من لجج تلك الحروب المهلكة جهز محمد علي باشا والي مصر ولدهُ ابرهيم باشا بثلاثين الف مقاتل لافتتاح الاقطار الشامية انتقامًا من عبدالله باشا والي عكا فسار اليها واستولى عليها واستمرت احكامها في يدهِ نحو تسع سنين وكانت مدة خلافة السلطان محمود ٣١ سنة وهو اعدل وارحم ممن سلفهُ من سلاطين آل عثمان

وجلس بعدهُ على سرير السلطنة ولدهُ السلطان عبد المجيد خان سنة ١٨٣٩

وكان عادلاً حليمًا مطبوعًا على مكارم الاخلاق . فاول امرٍ باشرهُ استخلاص الديار الشامية من ايدي الحكومة المصرية ثم اخذ بعد ذلك في اجراء ما كان قد شرع فيهِ جناب والدهِ من الترتيبات والتنظيمات على مقتضى الشرع والقوانين السياسية لرفع المظالم وراحة البلاد وردع اصحاب البغي والفساد واصدر امرًا شريفًا مبينًا بهِ اصول التنظيمات التي فاضت بها مراحمهُ الشاهانية لنحو الرعية وامر بنشرهِ في اقطار السلطنة العثمانية ليحيط الجميع بهِ علمًا وهو المعروف بالتنظيمات الخيرية. فانتعشت ارواح الرعايا بجلوس هذا السلطان واستبشروا بهِ

وفي مدة حكمهِ انشبت الحرب بين الدولة العلية والدولة المسكوبية وهي المعروفة بحرب القرم وسببها انهُ كان قد وقع اختلافٌ بين طائفتي الروم واللاتين في القدس من عدة سنين بسبب كنيسة القيامة وبعض الاماكن المقدسة فكانت كل طائفة منهما تدعي لنفسها حق الرياسة والتقدم على الاخرى باستلام مفاتيحها ثم اخذت هذه المسئلة تتعاظم بينهما وتمتد يومًا بعد يوم الى ان آل الامر الى النزاع والجدال في سنة ١٨٥١ فوقع الباب العالي في حيرة وارتباك من جهة تسكينها واخماد نارها لان روسيا كانت تحامي عن حقوق الروم وفرانسا تنتصر للّاتين فتداخل سفير انكلترا اللورد ستراتفورد دي ردكليف في صرف هذا المشكل ورسم ترتيبًا موافقًا لائتلاف الملتين المتخالفتين فقبلتهُ فرانسا واما روسيا فلم تقبلهُ لان مقصدها الوحيد لم يكن مقتصرًا على محاماة حقوق اكليروس الروم بل كان لها غايات اخرى طالما كانت تجتهد على نوالها وتترقب الفرص لاستحصالها وهي ابعاد الدولة العثمانية من قارة اوروبا والاستيلاء على اقاليمها وولاياتها فانتهز الامبراطور نقولا تلك المنازعة فرصةً مناسبةً لنوال بغيتهِ وبلوغ اربهِ فارسل الامير منشيكوف الى القسطنطينية سنة ١٨٥٣ لمقابلة السلطان عبد المجيد خان بعد ان كان بعث جيشًا يبلغ ١٤٤ الفًا الى نهر الدانيوب ليكون مستعدًّا لوقت اللزوم والحاجة. فلما وصل الامير منشيكوف الى القسطنطينية رفض مواجهة فواد باشا وزير الخارجية ودخل راسًا على الحضرة الشاهانية وصحبتهُ سفير روسيا

واعرض لهُ طلب الامبراطور نقولا في المسئلة المتعلقة بالاماكن المقدسة ثم قال لهُ ان الامبراطور يطلب ايضًا ان جميع الروم الذين من تبعة الدولة العلية يكونون تحت ظل حمايتهِ من الآن وصاعدًا استنادًا على احد بنود معاهدة سنة ١٧٧٤ المعقودة في كوجك قينرجي وان بطرك الروم القسطنطيني وباقي اساقفة الطائفة يكون انتخابهم وتغييرهم منوطًا بهِ وان الشكاوي والدعاوي التي تصدر عليهم من جهة تصرفاتهم وسلوكهم تعرض راسًا اليهِ لينظر فيها. فاستعظم السلطان هذه التطلبات ورفضها لانها مخلة بناموس السلطنة ومغايرة للاصول وقوانين الدول فانثنى الامير منشيكوف راجعًا من حيث اتى واعلم الامبراطور نقولا بواقعة الحال فاستشاط غضبًا واصدر امرًا الى العساكر التي ارسلها الى اطراف الدانوب ان تعبر نهر البروث وتستولي على تلك الاطراف فاجتازت النهر وشنَّت الغارة على امارات الفلاخ والبغدان واستولت عليها في اليوم الثالث من شهر حزيران. ولما تحقق الباب العالي قدوم ذلك الجيش الى اطراف بلادهِ علم ان مقاصد روسيا في تطلباتها لم تكن الاَّ وسيلة لاشهار الحرب فجهز جيشًا وارسلهُ الى تلك الحدود تحت قيادة عمر باشا المجري لردع الروسيين

ولما تاكدت الدول الاوروبية بغية روسيا ومقاصدها بادرت انكلترا وبروسيا والنمسا الى عقد جمعية للنظر في اجراء الوفق بين الدولتين وارسلت كل دولةٍ منها معتمدًا من طرفها الى مدينة فينا حيث وافاهم سفيرٌ من طرف روسيا واخر من طرف الدولة العلية وعقدوا هناك مجلسًا في ٢١ تموز سنة ١٨٥٣ لم ياتِ بالمرغوب. فلما لم يعد سبيل للصلح اشهر الباب العالي الحرب اشهارًا نهائيًا وصدم سليم باشا العساكر الروسية في اسيا وانتصر عليهم في عدة مواقع بينما كان عمر باشا يهاجمهم في اوروبا حيث كسرهم بالقرب من اولتانيتزا وفاز عليهم عند قلفاط واماكن اخرى. واما العمارة الروسية التي كانت في البحر الاسود تحت قيادة الاميرال ناشيموف فصدمت العمارة العثمانية عند سينوب في ٢٧ ت ٢ واستظهرت عليها بعد حربٍ شديدة فاتلفتها وكانت مولفة من سبع

فركانات و باخرتين وثلاثة مراكب حربية

اما انكلترا وفرانسا فاذ تيقنتا سوء نتائج هذه الحرب انتصرتا لمعونة السلطان واعلنتا الحرب على روسيا في ١١ ت ٢ سنة ٥٣ . ولما كانت اوائل سنة ١٨٥٤ ابتدأتا في نقل رجالهما ومهماتهما الى ساحة الحرب واشتبكتا في القتال واما باقي دول اوروبا فكانت محافظة على الحيادة

وكانت الدولة الانكليزية قد ارسلت عمارة حربية الى بحر بلتيك تحت قيادة الاميرال نابيار فاستولت على قلعة بومارسنود لخمس عشرة بقيت من شهر آب ثم على جزيرة الاند ولكنها لم تقدر على استخلاص القلعة نظرًا لحصانتها . واذ كانت سباستبول اعظم قوات روسيا التي يعوَّل عليها في البحر الاسود وجهت انكلترا وفرانسا قواهما لافتتاحها والاستيلاء عليها فارسلتا في ١٤ ايلول فرقًا من عساكرها يبلغ عددها ستين الفًا وكان اكثرهم فرنساويون فنزلوا في بوباتوريا وفيما كانوا يتقدمون الى سباستبول صادمتهم العساكر الروسية . وكان الفرنساويون تحت قيادة الماريشال سنت ارنو والانكليز تحت قيادة اللورد راكلان فاقتتل الفريقان اقتتالاً شديدًا الى ان دارت الدائرة على الروسيين فانكسروا عند نهر الماء . واما العساكر الروسية فكانت اذ ذاك تحاصر مدينة سيلستريا ولم تقدر على اخذها فخرجت العساكر العثمانية من المدينة واقتحمتهم فانتصرت عليهم وفرقتهم فذهبوا عن المدينة خائبين وانضموا الى الآخرين وقصدوا القرم لنجدة حصار قلعة سباستبول التي اليها وجهت روسيا كل قوتها من مهمات وعساكر وذخائر . واما جيش الانكليز ففعلت فوارسهم فعل الاسود الضواري اذ صادموا جيشًا عرمرمًا من الروسيين عدد بالالاف وفازوا بهم فوزةً خلدت لهم ذكرًا جميلاً بعد ما فقد منهم خلق كثير ثم ان الروسيين المحاصرين في انكرمان وعددهم ستون الفًا خرجوا من مكان حصارهم واقتحموا العساكر العثمانية والانكليزية والفرنساوية ودارت بينهم معركة شديدة الخسران على الفريقين انجلت بانهزام الروسيين ولزومهم حصن المدينة ولم يكن حينئذٍ في

طاقة الدول المتحدة استلام سباستبول مع انهم كانوا يزيدون قواتهم الحربية ويكثرون هجماتهم وقنابرهم ولم يقدروا على استخلاص تلك القلعة او ان يمنعوا المساعدات التي كانت تاتيها من داخل البلاد

ولقد قاست العساكر المتحدة ولا سيما الانكليز في شتاء سنة ١٨٥٤ وشتاء سنة ١٨٥٥ اهوالاً وشدائد يكلّ اللسان عن وصفها وتعدادها فان الامراض والاوجاع قد اخذت في العساكر كل ماخذ واهلكت كثيرين هذا فضلاً عن الجوع والتعرُّض لبرد تلك البلاد والابخرة المنتنة التي كانت تتصاعد من جثث القتلى والحيوانات

اما سردينيا فكانت يومئذٍ تحت حكم فيكتور عمانوئيل مطلقة الحرية وهي ايضًا هيأت جنودها للحرب وانضمت الى الجنود المتحدة فارسلت ٥٠٠٠ مقاتل بعدما تعهدت لها انكلترا بدفع مبلغ مليون ليرا على سبيل الاعانة واشتهرت رجالها في تلك المعامع بالشجاعة والثبات

وفي خلال ذلك توفي الامبراطور نقولا في ٢ اذار سنة ١٨٥٥ وجلس ولدهُ اسكندر الثاني مكانهُ وفي اليوم الثامن من شهر ايلول من السنة المذكورة حدثت واقعة هائلة بين المسكوب والعساكر المتحدة كانت الدائرة فيها على الروسيين واستولت جيوش فرانسا على قلعة ملاكوف ببسالةٍ لامزيد عليها واذ لم يعد للروسيين استطاعة على حفظ مراكزهم تركوا سباستبول في مساء ذلك النهار وعوَّلوا على الهزيمة والفرار ودخلت العساكر المتحدة الى القلعة وامتلكتها فانفتحت حينئذٍ مخابرات الصلح وعُقِدَت جمعية في باريز في ٢٥ شباط سنة ١٨٥٦ حضرها اثنان من طرف كل دولةٍ من الدول الست المتحابة وهي انكلترا وفرانسا وتركيا والنمسا وبروسيا وسردينيا وفي ٣٠ اذار امضيت شروط الصلح متضمنة ٣٤ بندًا مجلة لكل من الدول المشار اليها اخصها ان الدولة العلية يكون لها الامتيازات التي لباقي دول اوروبا من جهة القوانين والتنظيمات السياسية وانها تكون مستقلة في ممالكها كغيرها من الدول الافرنجية وان البحر

الاسود يكون بمعزل عن جولان مراكب حربية فيهِ من اي جنس كان ما عدا روسيا وتركيا فان لها حقًّا في ادخال عددٍ قليل من المراكب الصغيرة الحربية لاجل محافظة اساكلها وان لا يكون لتركيا ولا لروسيا ترسخانات بحرية حربية على شواطي البحر الاسود الى غير ذلك من الشروط وهكذا انسحبت العساكر الى مواطنها وانتهت الحرب التي لم يكن لافتتاحها داعٍ سوى المطامع والغايات

وفي نهاية مدة السلطان عبد المجيد خان حدثت الحرب اللبنانية في اوائل سنة ١٨٦٠ بين طائفتي النصارى والدروز كما مرَّ في اخبار سورية . وفي شهر حزيران سنة ١٨٦١ توفي السلطان عبد المجيد وخلفهُ اخوهُ السلطان عبد العزيز خان فقام باعباء السلطنة على احسن منوال وسلك سلوك ابيهِ في الاصلاح وترقية اسباب التقدم والنجاح وسعى في تاسيس المعامل والمدارس والمطابع وانشاء الطرق الحديدية في البلاد العثمانية فحصلت الرعايا في ايامهِ على مزيد الممنونية واصبحت السلطنة في امنٍ ورفاهية خالية من الارتباكات والقلاقل والحركات الى ان كانت سنة ١٨٦٧ فحدثت فتنة في جزيرة كريت استمرت نحو سنتين ولولا تعصب اليونان لاهل الجزيرة المذكورة وامدادهم اياهم بالذخائر والنقود لما استلزم الامر كل ذلك الوقت لاخضاعهم

ثم في سنة ١٨٧٥ ثارت نيران الفتن في اقاليم الدولة الغربية اي الهرسك والبشناق والجبل الاسود وبلغاريا وكان السبب في ذلك ظاهرًا ظلم الحكام العثمانيين وعدم معاملتهم المسيحيين بالرفق والانصاف ولكن باطن الامر على ما يظن كان بسبب دسايس روسيا ووعودها الاهلين بالمساعدة في تحصيل استقلاليتهم فالتزمت حينئذٍ الدولة ان ترسل عساكرها لاخضاع تلك البلدان الثائرة فلم تصب نجاحًا واخيرًا تظاهرت روسيا علنًا في مقاومتها واشهار الحرب عليها فجندت الجنود وزحفت بها على الاراضي العثمانية واصطلت نيران الحرب بين الفريقين نحوًا من سنتين واظهرت الجنود الاسلامية من شدة الجنان ما لم

يخطر على بال انسان خاصة في حصار بلافنا الذي كلَّف روسيا عددًا غفيرًا من الجنود ورؤساء الجنود ولكن لما كانت الكثرة تغلب الشجاعة لم يعد ممكنًا لعثمان باشا وجنوده ان يداوموا الدفاع وهم محصورون في بلافنا بدون مؤَن وذخائر فالتزموا ان يسلموا للروس ومن ذلك الوقت انحل عزم باقي الجيش العثماني واخذ الروس يتقدمون شيئًا فشيئًا الى ان وصلوا الى مقربة من القسطنطينية فحينئذٍ تظاهرت انكلترا لمقاومتهم وادخلت عمارتها الى مينا العاصمة وتوعدتهم بالضرب ان لم يكفوا عن التقدم فتوقفوا عن ذلك وانعقد الصلح بين روسيا وتركيا وأُحيل الى الدول الكبيرة النظر في تسوية الخلاف الواقع بين الدولتين المتحاربتين لجهة تحرير الاقاليم المار ذكرها فعقد موتمر في مدينة برلين سنة ١٨٧٨ حضرهُ نواب الدول المار ذكرها تقرر فيهِ سلخ الهرسك والشماق ونوي بازار موقتًا عن المملكة العثمانية ووضعهم تحت حكم دولة النمسا وان الجبل الاسود يكون مستقلاً وان روملي الشرقية تكون تحت حكومة ادارية محلية مستقلة يتولاها حاكمًا ينصبهُ الباب العالي وان القرص وباطوم في اسيا تكونان للروس الى غير ذلك من الشروط وهكذا انتهى النزاع بين الدولتين وصمت نوايا الامتين وعاد التحابب وانتهى التغاضب

وفي اثناء تلك الثورات والحروب نهض بعض وزراء الدولة وخلعوا السلطان عبد العزيز عن سرير ملكهِ وسعوا في قتلهِ في وسط قصرهِ واقاموا مكانهُ اخاهُ السلطان مراد فلم يستقم امرهُ في سدة الخلافة لانحراف صحتهِ وبعد نحو ستة اشهر قام مكانهُ اخوهُ السلطان عبد الحميد وذلك في ٣١ آب سنة ١٨٧٦ فاخذ في الحال ان يسعى في تحسين ما كان قد تلف وتنظيم ما كان قد فسد وبعد توقيع الصلح مع روسيا شرع في تحقيق مقتل السلطان عبد العزيز وجازى المذنبين بما استحقوا وهو الآن صارف قصارى جهدهِ في ترقية اسباب تقدم الاهالي ونجاحهم ساعيًا في تحسين مالية الدولة وتشييد اركانها

ولما كانت انكلترا تخشى دخول الروسيين الى اسيا الصغرى اي بر الاناضول

خوفًا من امتداد سطوتها في اسيا وتهددها الهند الشرقية عقدت مع الدولة العثمانية عهدًا اشترطت فيهِ مدافعة الروسيين معها عند الاقتضاء وردعهم عن الدخول الى الاناضول وفي مقابلة هذا التعهد تنازلت تركيا لانكلترا عن جزيرة قبرس في اواسط سنة ١٨٧٨ ليس على سبيل التمليك بل ليكون مقرًّا لجنودها وذخائرها الحربية وقت الحاجة. وبما ان الدولة العثمانية كانت تستغل من الجزيرة المذكورة ايرادًا سنويًّا يحاكي المئة وثلاثين الف ليرا انكليزية تعهدت انكلترا بدفع ذلك لخزينة الدولة كل سنة ما دامت مقيمة في الجزيرة

الفصل الثاني

في تاريخ اليونان

الباب الاول

في جغرافية هذه البلاد

انهُ كثيرًا ما تشتهر بلاد ونواحي العالم بفوائد كثيرة مادية وادبية ولئن كانت في عين الناظرين اليها ضيقة الاملاك وقليلة الاعتبار. فان بلاد اليونان التي نحن في صددها كانت بلادًا صغيرة قليلة المساحة ومع ذلك قد بلغت في الاعصار السالفة الى اعلى درجات المجد والفخر ادبيًّا وماديًّا. فاشتملت على القسم الجنوبي من بلاد آل عثمان في اوروبا وبلاد الروم والمورة مع عدة جزائر مجاورة

للاراضي المذكورة . اما حدودها فكانت الى الشمال ايليريا المعروفة الان بوسنيا اي البوشناق وميسيا العليا وهي الان بلاد السرب وشرقًا ثراقيا وهي الجزء الشرقي من الروملي والارخبيل الرومي وجنوبًا بحر الروم وغربًا خليج البندقية

وقد انقسمت هذه البلاد طبيعيًّا الى اربعة اقسام كبرى وكلٌّ من هذه الاقسام انقسم ايضًا الى اقسام صغار قائمة على حدتها. القسم الاول الشمالي وهو يشمل اقليمي ايبيروس وتساليا وهما الان من املاك الترك باوروبا . الثاني مكدونية وهو الجزء الشمالي من بلاد الارناوط والجزء الغربي من بلاد الروملي ومن مدنها فيلبي وتسالونيكي وقاعدتها بلاّ وهي وطن اسكندر بن فيلبس المكدوني الشهير وهذه ايضًا من املاك الترك في اوروبا. الثالث بلاد اليونان الاصلية وقيل لها هلاس المسماة الان بلاد الروم. الرابع بليوبيسوس المسماة بشبه جزيرة المورة وكان تابعًا لها خلاف هذه الاقسام جزائر الارخبيل الرومي التي كانت وقتئذٍ زاهية خضراء وليست قاحلة كالآن وجزائر البندقية وجزيرة كنديا اي كريت وكان لليونانيين منازل في اسيا الصغرى وسيسيليا وايطاليا واماكن اخر

اما الآن فتنحصر المملكة اليونانية بالقسم الثالث من الاقسام المارّ ذكرها ويحدها بلاد الترك شمالاً ومن باقي الجهات البحر المتوسط وعدد سكانها يبلغ نحو مليون ونصف وقصبتها مدينة اثينا التي لا تزال مشتملة على اثارٍ تشهد على عظمتها القديمة وبراعة اهلها وحذاقتهم لا سيما في فني النقش والتصوير واحسن جزرها جزيرة سيرا . اما هواؤها فجيد واراضيها مخصبة. واهلها موصوفون بالنباهة والذكاء والشجاعة ولكنهم لم يصلوا بعد الى اعلى درجات التمدن . وقد انقسم تاريخ هذه البلاد قديمًا الى قسمين احدهما يتضمن تاريخ الازمنة المجهولة اي من اول نشأتها الى حين هاجمها الفرس في زمن تملك داريوس بن هستاسب سنة ٤٩٠ ق م وسميت ايضًا الاعصر الخرافية والثاني منذ مهاجمة الفرس الى فقدانها عنان الملك وخضوعها للرومان

الباب الثاني

في اخبار الاعصر الخرافية واولاً في اصل نشأتها وشعوبها الاولين

ان بدء تاريخ اليونانيين كاكثر التواريخ القديمة مغشّى بظلمة كثيفة وممزوج بامور كثيرة خرافية وقلما يوثق بما قيل في كتب المورخين في هذا الشان . قيل ان اصل اليونانيين من نسل ياوان بن يافث بن نوح وهذا يقرب كثيرًا ما نصهُ هيرودوتوس لجهة اصل اليونانيين . وكانوا قديمًا متوحشين عديمي التمدن يرعون المواشي ويعملون الارض ويسكنون الكهوف والاكواخ ويكتسون بجلود الغنم ويقتاتون بالبقول والجذور وقيل انهُ لما علمهم فلاسغوس اكل البلوط قدموا لهُ اكرامًا الهيًا وجعلوهُ في مصاف الالهة

وفي تلك الاثناء وافى بلادهم قومٌ من فينيقية قيل لهم التيتانيون وكان ذلك بقرب عصر ابرهيم فاختلطوا بالاهالي الاصليين وعنهم اخذ اليونانيون جملة معارف فخرجوا عن حالتهم المتبربرة . ومن ثم تعلموا ايضًا عبادة الهة الفينيقيين كاوراس وساتورنوس وهو زُحل عند العرب وزفس او جوبيتير اي المشتري واصل هولاء الالهة بشرٌ قد اشتهروا في امرٍ ما من الامور . وعما قليل ادخل اليونانيون هولاء التيتانيين في مصاف الهتهم اذ كانوا يقدمون لمن اشتهر منهم اكرامًا عظيمًا بعد موتهِ وهذا اصل خرافات اليونانيين من جهة الالهة

اما التيتانيون فانشأُوا جملة مدائن صارت فيما بعد ممالك صغيرة . من اقدمها مدينة سيسيوم عند خليج ليبانتو كان وضع اساساتها في عصر حران جد ابرهيم الخليل اي نحو سنة ٢٠٨٩ ق م . ومدينة ارغوس ايضًا أُسست سنة ١٨٥٦ ق م وذلك في اواخر ايام ابرهيم وقد ذكر اسم ملك من ملوكها اسمهُ اوغيجس عاش سنة ١٧٩٦ قبل الميلاد وكان التيتانيون كثيري الغزوات

والحروب فتلاشوا وانقرضوا

وبعد انقراض هولاء التيتانيين رجع اليونانيون الى حالتهم القديمة وبقوا



صورة زفس نحت فيدياس الشهير

على ذالك نحو ٢٠٠ سنة الى ان وافى بلادهم رجل مصري يدعى ككروبس وبمعيتهِ قومٌ من بلادهِ وذلك سنة ١٥٥٦ فاستولوا على اراضي اتيكا وانشأُوا فيها

اثنتي عشرة مدينة فكان ذلك بداية مملكة اثينا. وتزوج ككروبس المذكور بابنة ملك تلك البلاد ثم خلفهُ في الملك بعد موتهِ وكان يومئذٍ سكان تلك المملكة لم يزالوا عائشين متفرقين بعضهم عن بعض فجمعهم في اثنتي عشرة قبيلة او جمهورًا وعلمهم زراعة الكرم والحنطة والزيتون وسن شرائع للزيجة وطقوسًا لاحتفالات الدفن لاسيما محكمة او ديوان اريوس باغوس الذي اشتهر فيما بعد اشتهارًا كليًا. قيل وبعد موت ككروبس خلفهُ في الملك على اثينا رجلٌ اسمهُ امفكتيون فحمل باقي الممالك الصغار الكائنة يومئذٍ ان يقيموا عهدًا فيما بينهم لاجل منفعتهم العمومية فاجابوهُ الى ذلك وكانت المدن التي دخلت في هذه المعاهدة ترسل نوابًا الى الديوان الذي كان ينعقد مرتين في كل عام في مدينة ثرموبوليس ودُعي ذلك الاجتماع بالمشورة الامفيكتيونية. ونحو سنة ١٥٥٩ اتى قسمًا من بلاد اليونان يدعى بيوتيا رجلٌ فينيقي يدعى كدموس وبنى قلعةً عظيمة سماها كادمه حيث بني بعد حين حولها مدينة ثيبة اليونانية وهو الذي ادخل معهُ حروف الهجاء وفن الكتابة. وكان اليونانيون اولاً يكتبون سطرًا من اليسار الى اليمين ثم سطرًا من اليمين الى اليسار وهلمَّ جرًّا فانتشرت هذه الفنون في بلاد اليونان ومنها الى سائر بلاد المغرب

وكان لليونانيين القدماء عقائد خرافية مضحكة كثيرة لا يسعنا ضيق المقام ايرادها الاَّ اننا نذكر شيئًا من ذلك. فمنها انهم عدُّوا عددًا كثيرًا من الالهة وقالوا انهم ذكورٌ واناثٌ يلدون ويولدون ونسبوا اليهم السلطان على الامور الارضية ووصفوهم بجميع الاوصاف والمزايا البشرية الاَّ قبول الموت والفناء. وكان اذا اشتهر احد من الناس بصفاتٍ حميدة او ذميمة او باعمالٍ غريبة من كل نوعٍ قدموا لهُ بعد موتهِ احترامًا دينيًا وسموهُ نصف اله وسموا بهذا الاسم ايضًا بعض فحول البشر الذين حسبوهم ولدوا من الهٍ وبشرٍ معًا. واقدم الالهة حسب زعم اليونانيين هو الذي تسمى عندهم سيروس اي الفلك. قيل كان لهُ ولدان احدهما اسمهُ ساتورنوس فتزوج بشقيقتهِ اوبيس وتسمت ايضًا

جدة لانها كانت ام اكثر الالهة والابن الثاني تيتان وهو البكر فاعطى الملك لاخيهِ ساتورنوس على شرط ان ياكل جميع اولادهِ الذكور لكي يرجع الملك بعد حين الى نسل تيتان ففعل كذلك حتى ولدت امراتهُ جوبيتير اي المشتري واختهُ يونون واخاهُ نبتون فاخفتهم ولم ياكلهم والدهم. ومن ثمَّ تغلب جوبيتير على ابيهِ واختلس الملك من يدهِ وطردهُ ثم قسم الملك بينهُ وبين اخويهِ فاخذ لنفسهِ القسم العلوي المعبر عنهُ عندهم بالسماء واعطى سلطان المياه والابحر الى اخيهِ نبتون وسلطة القسم السفلى اي جهنم لاخيهِ بلوتون ثم دعا نفسهُ ملك او اله الالهة والبشر. وما عدا هولاء كان لهم الهة للجبال والسهول والحدود والزراعة والاثمار للحرب وللصلح للرياح وللعواصف للصنائع وللعلوم والفنون للمحبة وللبغضة للزنا وللنكاح وللخمر وهلمَّ جرا. ولليونان خرافات كثيرة من هذا القبيل لو اردنا ذكرها جميعًا لطال بنا المجال

ومن جملة حوادث العصور الخرافية الاسرار الايليوسينية التي اخترعها ايركثيوس ملك اتكا اكرامًا للالاهة سيريس التي اقيمت مرةً واحدة في كل خمس سنين في مدينة ايلوسيس في شهري آب وايلول وكان لا يؤْذن بدخول احدٍ اليها الاَّ بعد صلوات وذبائح عديدة للالهة وتطهير الجسد والتعهد بحفظ الاسرار المزمع ان يتسلمها. ومنها ايضًا اختراع الملاعب الاولمبيكية التي اقيمت مرةً واحدةً في كل اربع سنوات في مدينة اولمبية في المورة اكرامًا لجوبيتير. والملاعب البيثكية التي اقيمت في مدينة نيما في المورة كل سنتين اكرامًا لهركول احد انصاف الالهة وذلك لقتلهِ سبعًا عظيمًا في الغياض بقرب المدينة المذكورة. ومنها ايضًا الملاعب البرزخية التي اقيمت في برزخ كورنثوس كل اربع سنين اكرامًا لنبتون اله البحار. واعظم كل هذه الملاعب هي الاولمبيكية التي كان يجري فيها نوع من المغالبة والمصارعة والمسابقة. وكان الغالب في هذه المجاهدات يكلل باكليل من اغصان الزيتون الاخضر ويكرم اكرامًا لامزيد عليهِ. وكان من اراد المجاهدة فيها يعدُّ نفسهُ لها بامتناعهِ عن الاطعمة الغليظة وانواع

المسكرات وعن كل ما يضعف الجسم والى هذا اشار الرسول بولس في الاصحاح التاسع عدد ٢٤و٢٧ من رسالتهِ الاولى الى اهل كورنثوس. وهم الذين ابتداوا بتقسيم الوقت الى اولمبيادات والاولمبياد هو مدة اربع سنوات وفي هذا العصر ايضا بني الهيكل المشهور لابولون في المورة

الباب الثالث

في حرب طروادة ورجوع الهيراكليدية وحروبهم

ان هذه الحرب على ما جاء من اخبار اليونانيين هي من اشهر حروبهم القديمة ومعظم حوادثها ماخوذة عن اشعار هوميروس الشاعر اليوناني المشهور ولا ريب ان كثيرًا منها حكايات لا يوثق بصحتها. واسباب هذه الحرب هي انهُ كان لبعض ملوك سبارطه التابعة لمملكة المورة ابنة بديعة الحسن والجمال اسمها هيلانة وكانت اشهر نساء عصرها حسنًا فزوجها ابوها بمنيلاس ملك لاكونيا وميسينيا فحدث بعد ذلك انهُ اتى سبارطه باريس (او اسكندر) بن بريام وهو ملك قسم عظيم من اسيا الصغرى قاعدتهُ مدينة طروادة الشهيرة وذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد فاكرمهُ منيلاس اكرامًا لا مزيد عليهِ وبعد ان اقام في بلاطهِ مدة من الزمان كافاهُ على جميل صنيعهِ وضيافتهِ بطغيان زوجتهِ هيلانة فاخذها وفرَّ هاربًا بها بعد ان اخذا مالاً جزيلاً واتى بها مدينة والدهِ طروادة. فلما علم منيلاس بذلك شقَّ عليهِ الامر جدًّا واخذهُ القلق والضجر فبعث الى ملوك اليونانيين واكابرهم يدعوهم ان يسعفوهُ في الانتقام من باريس فاجابوهُ الى ذلك وجهزوا جميعًا نجدة عظيمة لمحاربة طروادة تحت امرة اغاممنون اخي منيلاس وملك ميسان وكورنثوس وسيسيون وجهزوا عمارة يبلغ عددها ١١٨٦ سفينة وركب فيها نحو ١٠٠ الف مقاتل وكان الجميع تحت قيادة اغاممنون المارّ ذكرهُ واخيهِ منيلاس. ومن جملة الابطال الذين اشتهروا في هذه

الحرب اشيل وصاحبهُ باتروكْل وديوميد ملك ارغوس واجاكوس والحكيم منتور وبيلوس وعولس صاحب الحيل والتدابير وغيرهم. واما اهل طروادة فكانوا تحت قيادة هكتور الشجاع بن ابريام ملك طروادة وفي معاونتهِ اخيهِ باريس وسربيدون وايبياس الفاضل. فنجح اليونانيون المتحالفون اولاً نجاحاً عظيماً الاَّ انهُ وقع بعد حين بينهم شقاق فخسروا ما كانوا قد ربحوهُ ولكنهم اخيرًا فازوا بافتتاح طروادة بعد حصارٍ دام عشر سنين فنهبوا المدينة وخربوها واحرقوها وقتلوا بريام واولادهُ وسبوا عائلتهُ وكان ذلك نحو سنة ١١٨٤ ق م وهي تساوي عصر يفتاح احد قضاة بني اسرائيل وبعد ذلك بنحو ثمانين سنةً اتى بعض اليونانيين الى نواحي طروادة وشيدوا كولويةً وما بقي من مملكة بريام انضم الى مملكة ليديا

وبقرب هذا العصر اي نحو ٨٠ سنةً بعد فتح طروادة شبت بين اليونان حربٌ شديدة سميت حرب الهيراكليدية وسببها هو ان الهيراكليديين (من نسل هركول) الذين كانوا قد طردوا من بلادهم في المورة من رجلٍ اسمهُ اوريستي جدّ اغاممنون ومنيلاس رجعوا ومعهم احدى القبائل اليونانية التي انضمت لنجدتهم وحاربوا اليونانيين اخصامهم واستولوا على مسيني ولاكونيا التي قاعدتها سبارطه وطردوا الاخائيين الذين التجأُوا الى بعض المقاطعات التي بقي لقبهم عليها وهي اخائية. ومن ثم اقتسم الهيراكليديون البلاد التي فتحوها الى ثلاثة اقسام وهي ارغوليدة ومسيني ولاكونيا

وكان اهل لاكونيا يحسدون المسينيين نظرًا لحسن موقع بلادهم وجودة اراضيها وكانوا يترقبون وقوع سببٍ ما يتخذونهُ حجةً لمحاربتهم والاستيلاء على بلادهم الى ان وقع بعض الاسباب فيما بينهم فتشبت بينهم حروب شديدة دامت عشرين سنة وكثيرًا ما كاد المسينيون يهدمون اركان دولة السبارطيين الى ان فاز اخيرًا هولاء باهل مسيني وفتحوا بلادهم وطردوهم منها فالتجأُوا الى اركاديا ومنها اقلعوا تحت رياسة ابني رئيسهم اريستومون الى سيسيليا واستولوا على مدينة

زانكليا ودعوها مسيين ولم يزل الاسم عليها الى الآن ثم حارب السپارطيون مملكة اثينا فلم ينتصروا عليها ومن ثمَّ صار لسارطه واثينا التقدم على ممالك بلاد اليونان وسياتي الكلام على كلتيهما في ما ياتي

الباب الرابع

في جمهوريتي سپارطه واثينا

ان مدينة سبارطه كانت قاعدة لاكونيا التي هي قسمٌ من اقسام المورة وموقعها في الجهة الجنوبية الشرقية من شبه جزيرة المورة ويليها من جهة الشمال مملكتا ارغوس واركاديا ومن جهة الغرب مسيني ومن الشرق والجنوب البحر المتوسط . قيل ان بانيها الملك لكديمون وكان عائشًا في الجيل الخامس عشر ق م وبعد رجوع الهيراكيدية واستيلائهم على لاكونيا وارغوس ومسيني كما تقدم الكلام ملك على لاكونيا ابنا اريستوديم وكان اسم الاول اوريستين والثاني بروكليس وبعد وفاتهما بقيت مملكتهما مقسومةً الى قسمين واولاد كل منهما يحكمون عليها ودام الحال على هذا المنوال نحو ٩٠٠ سنة وكان بين ملوك القسمين انشقاقات ومخاصمات كثيرة في غضون تلك المدة

ونحو سنة ٨٠٤ ق م توفي بوليديكتوس احد ملوك القسمين المار ذكرها بلا عقب تاركًا زوجتهُ حبلى وكان لهُ اخٌ اسمهُ ليكورغس شهير بين اليونانيين فراودتهُ امرأة اخيهِ طالبةً ان يتزوج بها ويستبد بالملك من بعد اخيهِ وانها تهلك الجنين اذا قبل ان يفعل ذلك . اما ليكورغُس فكره ان يرتكب هكذا امرًا قبيحًا منكرًا وعندما وضعت امراة اخيهِ ذكرًا اهتم بتربيتهِ كل الاهتمام ودعاهُ ملك سپارطه الشرعي وكان يدبر مهام امور دولة ابن اخيهِ بالنيابة ولكن اذ حصل نفور بينهُ وبين امراة اخيهِ كره ان يبقى على تلك الحال فسافر ليكورغُس الى جزيرة كريت ومن ثمَّ الى اسيا الصغرى والى مصر لكي يدرس

علوم تلك البلاد وشرائعها وفي مدة غيابهِ حدثت في سبارطه مخاصمات وفتن كثيرة وجاهر كثيرون بالعصيان على الملك وشرائع المملكة . فبعث الشعب يطلبون من ليكورغُس بلجاجة ان يوافيهم عاجلاً ويتقلد زمام الملك ويقي بلادهُ من الدمار فاجابهم الى ذلك وعاد راجعًا الى بلادهِ واخذ حالاً باصلاح البلاد واخمد الثورات والفتن واول امرٍ فعلهُ هو انهُ غيَّر هيئة الحكومة من الملكية الى الجمهورية وعما قليل اقتدى بهِ كثيرٌ من ممالك اليونانيين بحيث اصبح الحكم الجمهوري غالبًا في اكثر البلاد

ولما كان ليكورغُس يرغب في ان يجعل تسويةً بين وجاهة الملوك والاكابر والعامة رتَّب لذلك ديوانًا مؤلفًا من ثمانية وعشرين شخصًا ينتخبهم الشعب من اكابر البلاد وجعل ملكي لاكونيا المتقدم ذكرهما رئيسي الديوان وكان الديوان المشار اليهِ يسنُّ الشرائع والقوانين ثم تعرض على جمعية العامة فان ثبتها الشعب بالمصادقة عليها ثبتت والاَّ أُلغيت . واذ اراد ليكورغُس ان تكون مباديهِ واجراءاتهُ مبنية على اساسات وطيدة اخذ يربط الشعب بعضهم ببعض جاعلاً اياهم كاعضاء عائلة واحدة ولذلك قسم املاك المملكة فيما بينهم بالمساواة لكيلا يكون بينهم فقيرٌ وغنيٌّ . وابطل المعاطاة بالذهب والفضة وجعل عوضهما قطعًا من حديد

ومن جملة الوسائط التي استعملت بين اهالي سبارطه انهم نظروا الى جميع الاطفال المولودين حديثًا فسلموا الكاملي البنية منهم الى مرضعاتٍ من طرف الجمهورية حتى متى جاء عليهم سبع سنين ادخلوهم الى المدارس وعوَّدوهم الشجاعة والتعب ومقاساة المشقات لكيلا يبالوا بعد حينٍ في امرٍ من الامور . وكان المعلمون يساوون بين سائر الاولاد في التعليم بلا تمييزٍ وكذا النساء ايضًا اكتسبنَ فضائل الرجال وافتخرنَ ببسالة اولادهنَّ وشجاعتهم واحببنَ ان يموتوا في خدمة وطنهنَّ . وقد روي عن امراة انها عند ذهاب ابنها الى الحرب ناولتهُ ترسهُ قائلةً عُد امَّا بهِ وامَّا عليهِ اي اغلب او مُت كريمًا في القتال . وهكذا بواسطة شرائع

وقوانين مثل هذه تشيدت اركان جمهورية سپارطه وقويت جدًّا وتعاظمت واوقعت الرعب في قلوب جميع ممالك اليونان التي امست تخاف سطوتها وبقيت سبارطه على هذا المنوال نحو ٥٠٠ سنة

اما اثينا فكانت قاعدة مملكة اتيكا قديمًا وكان حكمها اولاً من نوع الملكي حتى زمان احد ملوكها المسمى قودرُوس الذي كان معاصرًا لشاول ملك بني اسرائيل . وفي ايام هذا الملك رجع الهيراكليدية الى المورة كما تقدم وكانوا لما اتوا لمحاربة اثينا استشاروا في هيكل ابولون الفال فانبأهم انهم يفوزون بالغلبة على الاثينيين ان لم يقتل ملكهم قودروس في الحرب واذ كانوا يرضخون لهذه الاوهام احترسوا جدًّا من قتلهِ واما قودروس فلما علم ذلك تزيى بلباس العامة وانسلَّ بين صفوف الجنود الهيراكليدية وقتل في وسط المعمعة حبًّا بانقاذ وطنهِ . ولما علم الهيراكليدية ذلك ورأوا جثة ملك اثينا مجندلةً بين صفوفهم وكانوا معتقدين كل الاعتقاد لصحة الفال يئسوا من الغلبة وانقلبوا راجعين وذلك سنة ١٠٨٢

اما الاثينيون فبعد موت ملكهم الذي بذل نفسهُ حبًّا ببلادهِ لم يحبوا ان يولوا بعدهُ ملكًا عليهم فابطلوا الحكم الملكي واقاموا الحكم الجمهوري . فكانوا يولون روساء يسمونهم اراكنة او اراخنة واول من تولى هذا المنصب ابن قودروس وبنوهُ من بعدهِ واستمر في الحكم يد ذريتهِ نحو ٣١٢ سنة وكان الاراخنة في اول الامر يولَّون مدة حياتهم ثم بعد حين الى عشر سنين ثم بعدهُ الى سنة واحدة فقط وزيد عددهم شيئًا فشيئًا الى تسعةٍ وكانوا جميعًا يشتركون في جميع مهام امور الدولة وكانت وقتئذٍ الشرائع غير مستوفية النظام والترتيب فقام رئيس الاراكنة في ذلك الوقت وشرع في تنظيمها وتجديدها ووضع قوانين ثقيلة صارمة جدًّا فجعل الموت عقابًا لكل ذنبٍ مهما كان جرمهُ محتجًّا في ذلك بان ادنى ذنبٍ او تعدٍّ يستوجب الموت ونظرًا لصرامتها قيل انها كتبت بالدم ولكنها اهملت بعد حين لصعوبتها

ثم انهُ بقريب سنة ٥٩٤ ق م قام رئيساً للاراكنة صولون الحكيم المشهور وكان من ذرية قودروس فوضع نظاماتٍ جديدة وشرائع وقوانين عادلة مناسبة لروح ذلك العصر واحوال البلاد وجعل السلطة الاجرائية في جمعية من الشعب لا يدخلها الاَّ من كان قد اتى عليهِ ٣٠ سنة واقام ديواناً عدد اعضائهِ ٤٠٠ شخص تزايد فيما بعد الى ٥٠٠ عضوٍ وجدد ايضاً ديوان اريوس باغوس وقسم الشعب الى اربع رتب بحسب وجاهتهم وغناهم وانتخب ارباب الوظائف والاحكام من الثلث الرتب الاولى واما الرتبة الرابعة فاشتملت على عامة الشعب. ومن ثمَّ اهتم صولون ايضاً بتوسيع دائرة المتجر وترقية اسباب الصنائع والمعامل والفنون وتكثيرها والزم كل انسان ان يباشر عملاً ما من الاعمال لتحصيل ضروريات المعيشة وحرض الناس على العفة وطهارة السيرة والاقلاع عن استعمال الكلام المخل في الآداب او غير اللائق ومن خالف ذلك عوقب اشد العقاب . ثم ان صولون بعد ان مهَّد الامور واشهر شرائعهُ واجراها طلب السياحة خارج بلادهِ فسافر واتى منازل اليونان في اسيا الصغرى ثم ليديا التي كان ملكها كريسوس المشهور بالغنى

ولما عاد صولون الى بلادهِ وجد ان جميع ما كان نظمهُ ورتبهُ قد فقد نظامهُ ورأى عوضهُ فتناً قائمة لم يستطع ان يخمد نيرانها وذلك لان رجلاً يدعى بيسيستراتوس كان قد اختلس الحكم من الاراكنة فبذل صولون قصارى جهدهِ عبثاً لتخليص البلاد من يد المغتصب فلم ينجح . اما بيسيستراتوس فنجح باستمالة الشعب اليهِ وبمعاملتهِ اهل اثينا باللطف والاحسان فرتع الاثينيون في ايام حكمهِ بالسعادة والراحة ورغد العيش . وكان يحيط بالملك اشهر حكماء ذلك العصر وكان بلاطهُ كمدرسة للعلماء وهو اول من اعتنى بجمع اشعار هوميروس الشاعر المشهور وبعد موتهِ خلفهُ ابناهُ هيبارخوس وهيبياس سنة ٥٢٩ ق م . قيل ان هيبارخوس اهان احدى المخدرات الاثينيات فقام عليهِ اخوها مع رفيقٍ لهُ فقتلاهُ فقبض عليهما وقُتِلا . اما هيبياس فكان يُثقِّل على اهل اثينا

ويظلمهم كثيرًا فحنقوا عليهِ واستغاثوا باهالي سارطه ان ينجدوهم على طرد ملكهم فلما راى هيبياس ذالك فرَّ هارباً والتجا الى داريوس ملك الفرس يطلب اليهِ المساعدة لترجيعهِ الى ملكهِ وذلك سنة ٥١٠

وبعد فرار هيبياس قام اثنان من الروساء وهما كليستينوس وايساغوراس وتنازعا الحكم فقوي كليستينوس على ايساغوراس وطردهُ واستبد وحدهُ في امر ادارة الاحكام فجدَّد نظامات صولون نفسها واعاد الراحة في البلاد . اما سارطه فاذ رغبت في ان يكون لها التقدم والسطوة على كل البلاد اليونانية جهزت جيشًا وارسلتهُ تحت قيادة ملكها كليومينيس لتعارض ما احدثهُ كليستينوس من التغييرات ولكي تعيد ايساغوراس الى الولاية فلم تاتِ مساعيهم بالمقصود وانتصر الاثينيون على اهل سارطه ومن تحالف معهم وكسروهم وبددوا شملهم ولما بلغ ايضًا الولايات المتحدة مع حكومة اثينا ان كليومينيس ملك سارطه كان قد اتى بهيبياس من اسيا الصغرى لكي يوليهُ عنوةً على اثينا غضبوا من جراء ذلك جدًا واظهروا عدم رضاهم ومصادقتهم على هذا العمل فاضطر هيبياس ان يلتجي ثانيةً الى داريوس . وكان داريوس وقتئذٍ عازمًا على محاربة بلاد اليونان واستفتاحها فحسب ما جرى على هيبياس علةً مناسبة لفتح الحرب على اليونانيين فبعث يطلب الى الاثينيين ان يعيدوا هيبياس الى ملكهِ ولما لم يقبلوا جعل داريوس عدم قبولهم اياهُ سببًا لمهاجمتهِ بلادهم

الباب الخامس

في ما جرى بين اليونان والفرس من سنة ٥٠٠ تقريبًا الى حين تولي فيلبس على مملكة مكدونية سنة ٣٦٠ ق م

اننا قبل ان نشرع في الكلام عن الحروب التي شبت نيرانها بين الفرس واليونانيين نذكر ايضًا الاسباب التي مهدت لها السبيل وكانت مصدرًا لها ثم

حوادثها بالاختصار فنقول

قد علمنا مما تقدم ان بعض قبائل اليونانيين كانوا قد صنعوا منازل في اسيا الصغرى وسكنوها فصارت مقاطعات يونانية منها كاريا وايونيا وابوليا وكان كريسوس ملك ليديا قد استفتح هذه الاقسام وضمها الى مملكتهِ ولما انتصر كورش على كريسوس ملك ليديا وتغلب عليهِ انضمت جميع هذه الاقسام الى المملكة الفارسية . وفي عصر داريوس بن هستاسب صهر كورش نهض اهل ايونيا بقلبٍ واحد وقصدوا ان يخلعوا نير الطاعة للفرس وان يتخلصوا من عبوديتهم فبعثوا الى اثينا يطلبون الامداد والمعونة ومثلهُ الى جزائر الارخبيل الرومي فاجابوهم الى ذلك وارسلوا اليهم خمساً وعشرين سفينةً مع عدد من الجيوش وشرعوا اولاً بمحاربة الاساكل البحرية التي كانت خاضعةً للفرس وحاصروا برًّا مدينة سرديس قاعدة ولاية ليديا مقر الوالي المرسل من قبل ملك فارس واحرقوها فوافتهم عساكر الفرس وطردتهم فارتد اليونانيون مدبرين الى بلادهم اما داريوس فلما راى ما فعلهُ اليونانيون شقَّ عليهِ الامر جدًّا وعزم من ذلك الوقت على غزو بلادهم واستفتاحها . وكانت العادة في تلك الايام قبل اشهار الحرب ان يرسل الملك رسلاً الى البلاد المجاهرة بالعصيان في طلب الطاعة والخضوع فارسل داريوس وفدًا الى اثينا وسبارطه في طلب علامات الخضوع وهي ان يرسلوا ترابًا وماء فشتمهم اليونانيون ورموا بعضًا منهم في بئر وبعضًا في بالوعة قائلين لهم خذوا ما شئتم من كليهما . واذا تأمل الانسان بعظمة الدولة الفارسية وسطوتها في تلك الايام واتساع دائرة املاكها وضعف الدولة اليونانية وصغرها يتعجب كل العجب من تجاسر اليونان وجراءتهم

اما داريوس فلما بلغهُ ما حل برسلهِ في اثينا وسبارطه وما كان من تجاسر اليونانيين اغتاظ غيظًا لا مزيد عليهِ واعتمد على محاربتهم برًّا وبحرًا فارسل عمارة بحرية مؤلّفة من ثلاث مئة سفينة تحت قيادة مردونيوس صهرهِ فهاج عليها نوء فتكسرت في البحر قبال جبل اثوس واما الجيوش البرية فبعد ان اخضعوا

مكدونية وتقدموا لمحاربة سبارطه واثينا هاجمهم الابريجيون وكسروهم فارتدوا على الاعقاب

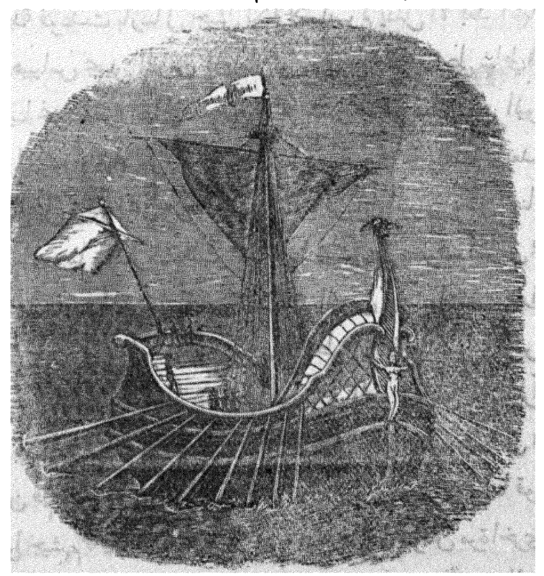
وسنة ٤٩٠ ق م ارسل ايضًا داريوس تجريدة جديدة تحت قيادة داتيس وارتفون مع عمارة بحرية مؤلفة من ست مئة سفينة فهجموا على جزائر الارخبيل وفتحوا عدةً منها ونهبوا مدينة اريثريا واسروا اهاليها وشيعوهم الى بلاد فارس ثم تقدموا الى شطوط اتيكا ونزل الجيش الى البر وعددهُ ١١٠٠٠٠ مقاتل وكان دليلهم هيبياس المتقدم ذكرهُ فارسلت في الحال اثينا الى سبارطه تطلب منها نجدة فوعدت بارسال جيش لكنهُ لاسبابٍ لم يصل الاَّ بعد انتهاء الحرب فتقدم هيبياس بجيش الفرس الى ماراتون وهي بلدة صغيرة على شاطي البحر تبعد عن اثينا نحو عشرة اميال فقط فوافاهم عشرة الاف مقاتل من اليونان تحت قيادة القائد ميلتيادس وكان رجلاً ذا دراية وشجاعة واقدام وبعد ان رتب جيشهُ القليل واقام الحواجز لتقيهُ من هجمات فرسان الفرس وكان جناحهُ الايمن مستندًا الى جبل عسر المسالك هجم اخيرا بجيشهِ على صفوف الفرس هجمةً هائلة صارخين جميعهم الموت او الحرية فلاقاهم الفرس ايضًا وانتشبت نيران القتال بين الفريقين في سهل ماراتون ولم يلبث طويلاً حتى انكسر الفرس وتشتت شملهم ايَّ تشتت واندفعوا جميعًا يتهافتون الى البحر والتجأوا الى المراكب طلبًا للنجاة بعد ان تركوا من القتلى نحو ٧٠٠٠ قتيل ومن جملتهم هيبياس اما خسارة اليونان فلم تكن سوى نحو ٢٠٠ رجل بين قتيل وجريح واما قواد الفرس فانزلوا جيشهم ثانيةً املاً بالاستيلاء على اثينا فدفعهم اليونان مرة اخرى وكسروهم اشر كسرة فيئسوا من النصرة وعادوا راجعين الى بلادهم بالخيبة والفشل

اما ميلتيادس فاكتسب بهذه النصرة شهرةً لا مزيد عليها. ثم جهزتهُ ايضًا اثينا بعمارة وجيش لكي يذهب لمحاربة الفرس في الجزائر التي كانوا قد استولوا عليها ويطردهم منها فمضى ونجح ايضًا نجاحًا كليًّا واستخلص جميع تلك الجزائر من الفرس الاَّ جزيرة باروس فلم يقدر على اخذها ولما عاد الى اثينا اتهمهُ اهلها بانهُ

قد ارتشى من الفرس فغرموهُ غرامةً عظيمة ثم مات بعد ذلك بقليل

وكان يومئذٍ في اثينا رجلان معتبران احدهما اريستيديس الصديق وهو افضل الاثينيين في ذاك العصر وكان وقتئذٍ في المنفى والثاني ثيميستوكليس ولما راى هذا الاخير الخطر المحدق ببلادهِ من جرى هجمات الفرس وكان موقنًا انهُ اذا استجدت حربٌ بين اثينا والفرس تكون على الاغلب بحرية اخذ يحرض قومهُ على تكثير سفنهم فامتثلوا مشورتهُ وانشأوا مقدار مئة سفينة

وفي تلك الاثناء توفي داريوس المتقدم ذكرهُ وخلفهُ ابنهُ زركسيس الاول



سفينة يونانية حربية قديمة

فعزم على الانتقام من اليونان وفقًا لمقاصد ابيهِ فاخذ في الاستعداد لذلك وصرف اربع سنين في الاستعدادات فجهز عمارة بحرية عدد سفنها ١٢٠٠ سفينة وجيشًا عرمرمًا ينوف عن المليون وتقدم لمحاربة اليونانيين فلم يصادف معارضًا الى ان

صار بالقرب من اثينا حينئذٍ عزم يونان اثينا وسبارطه مع بعض حلفائهم على مصادمة الفرس والثبات الى النهاية فتقدم ليونيداس ملك سبارطه بعددٍ قليل من الرجال منهم ثلث مئة رجلٍ من اهالي سبارطه والتقى الفريقان في مضيق ترموبيل وهو مضيق بين جبلين في ثساليا . وكان قبل نشوب الحرب ان زركسيس لما راى قلة عدد اليونان بعث الى ليونيداس يطلب اليهِ ان يسلم سلاحهُ مع انصارهِ الثلاثئل فاجاب ليونيداس تعال وخذ : ثم ابتدأ القتال ودام يومين وهلك من الفرس عددٌ كثير ولم يستطيعوا ان ينفذوا من ذلك المضيق وكان عددهم الهائل كالعدم اذ لم يقدروا ان يحاربوا جميعًا يدًا واحدة ولولا الخيانة لفاز اليونانيون الى النهاية لان رجلًا يونانيًا من ثساليا كان قد ارى الفرس طريقًا آخر بين الجبال فهجموا على ليونيداس ورجالهِ من ورائهِ ومن قدام وضايقوهم جدًا . ولما راى ليونيداس عظم الخطر المحدق بهِ وتيقن الهلاك صرف جميع من كان معهُ من الرجال الاَّ الثلاث مئة السبارطيين وسبع مئة اخرين احبوا ان يموتوا معهُ وثبت هولاء يدافعون ويحاربون حتى هلكوا جميعًا الاَّ رجلين . وفي نفس ذلك الوقت انتشبت نيران الحرب ايضًا في البحر بين المراكب اليونانية والفارسية ففاز اليونان في اول الامر بعض الفوز ولكن لما بلغهم موت ليونيداس تاخروا واتوا شطوط اثينا بقرب جزيرة سلمينه وتقدم عسكر الفرس ناهبًا البلاد ومفسدًا ومخربًا حتى دخل اثينا فهرب الاهالي الى السفن فدخلها الفرس ونهبوها واحرقوها

وفي هذا الوقت طلب ثيمستكليس ترجيع اريستيديس الصديق الذي كان قد نفي فاخذ الاثنان قيادة السفن البحرية مع رجلٍ آخر من سبارطه وحدث وقعة عظيمة بين سفنهم وسفن الفرس وكان عدد الاولى ٣٠٠ والثانية ١٢٠٠ فدارت الدائرة على الفرس وانكسرت مراكبهم . وكان زركسيس جالسًا على البر في مكان عالٍ مشرف على ساحة القتال فلما راى انكسار سفنهِ خاف جدًا وكان قد بلغهُ ان اليونان مزمعون ان يقطعوا عليهِ الطريق باحراقهم

الجسر فهرب للحال وقطع البوغاز وجاء الى سرديس تاركًا ٣٠٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة صهرهِ مردونيوس في ماراتون لكي يجدد الحرب في الربيع. فاجتمع جيشا اثينا وسبارطه وكان عددها ١١٠٠٠٠ مقاتل تحت امرة بوزانياس من اهل سبارطه واريستيديس الاثيني وهاجموا مردونيوس وصار بين الفريقين وقعة مهولة في سهل بيوتيا فانكسر الفرس انكسارًا عظيما وتشتت شملهم وقتل مردونيوس وغنم اليونان غنائم لا تحصى. وفي نفس هذا الوقت كانت الحرب قائمة بحرًا عند شطوط اسيا الصغرى وكانت الدائرة فيها ايضًا على الفرس . اما زركسيس الاول الذي كان لم يزل باقيًا في سرديس فلما بلغهُ خبر انكسارهِ برًّا وبحرًا انهزم راجعًا الى بلادهِ وبعد قليل قتلهُ احد اتباعهِ

واما اليونانيون فلم يرجعوا عن محاربة الفرس بعد انتصاراتهم المتقدم ذكرها وحرَّضوا اهل ايونيا على طرح نير الفرس وتخلصهم من عبوديتهم واعانوهم على ذالك واستخلصوا منهم جزيرة قبرس. ثم اتوا مدينة بيزانتيوم اي القسطنطينية الحالية ونهبوها ورجعوا الى بلادهم بمكاسب وغنائم وافرة ثم شرعوا في ترميم اثينا وحصنوها وزينوها بالابنية الفاخرة والمراسح الجميلة ووسعوا ميناءها حتى اضحت ابهى مدائن ذلك العصر واجملها

ومن ثمَّ اخذ اليونانيون يتفوّون ويسترجعون مدنهم في مكدونية شيئًا فشيئًا واما بوزانياس قائدهم العام فلما راى انهم يريدون ان ينكسوهُ ويضعوا في طريقهِ تصعبات اخذ يكاتب ملك الفرس سرًّا واعدًا اياهُ ان يسلمهُ جميع بلاد اليونان بشرط ان يزوجهُ ابنتهُ وان يكون نائبا مكانهُ على البلاد التي يسلمهُ اياها فاشتبه اليونانيون بهِ ودعوهُ الى مجلسهم فبرر نفسهُ اذ لم يكن لهم حجة ظاهرة يمسكونهُ بها ولكن اذ وقعت بيدهم بعد ذلك رسائلهُ الى زركسيس ارادوا ان يقبضوا عليهِ فهرب والتجأ الى هيكل بلاس فلم يستطيعوا ان يدخلوا اليهِ لياخذوهُ منهُ لانهُ حُسب عندهم حرامًا مسك من التجأ اليهِ فسدوا عليهِ الباب فمات جوعًا. وقيل ان امهُ هي اول من اخذت حجرًا فوضعتهُ على باب الهيكل وان الباقين

لما راوا ذلك فطنوا لسد باب الهيكل . ثم اقاموا الحجة على ثميستوكليس متهمين بالاشتراك في خيانة بوزانياس فنفوهُ ايضًا من البلاد فالتجأ الى اعظم عدوٍّ لهُ وهو زركسيس الثاني ملك الفرس الذي قبلهُ بكل فرح وترحب بهِ كل الترحاب وغمرهُ بنعمهِ فاقام ثميستوكليس في بلاد الفرس الى يوم وفاتهِ. قيل انهُ امات نفسهُ بالسم لئلا يجبر على اخذ السلاح ضد وطنهِ مكافاةً لما ابداهُ زركسيس من المعروف نحوهُ . وقام بعد نفي ثميستوكليس رئيسًا للاراخنة اريستيديس الصديق وبعد موت هذا تولى الرياسة سيمون بن ملتياديس وكان رجلاً واسعة وديعًا كريمًا محبًّا لجميع الناس فاتحًا بيتهُ وبساتينهُ الجميلة لمن اراد الدخول اليها وكانت اصحابهُ تتبعهُ حاملة نقودًا فكان يعطي المحتاجين من ابناء وطنهِ ممن صادفهم في طريقهِ . فاغضبت تصرفاتهُ هذه اهل بلادهِ زاعمين انها تاتي الشعب والبلاد بخسائر ادبية فنفوهُ وتولى مكانهُ بريكليس ثم دعوهُ بعد خمس سنين وولوهُ قيادة الجيش وكانت يومئذٍ المخاصمات والفتن الداخلية آخذة من اليونانيين كل مأخذ فلكي يلاشيها لم يجد لها علاجًا انفع من اشهار الحرب على الفرس ثانيةً فانتصر عليهم في عدة وقائع وافتتح الجانب الاعظم من جزيرة قبرس التي كانت تابعة لهم . ولما راى زركسيس ملك الفرس ان مملكتهُ قد ضعفت في الحروب الكثيرة المستطيلة اضطر ان يطلب الصلح فاجابهُ سيمون الى ذلك تحت الثلاثة الشروط الآتية وهي اولاً انهُ يرفع يدهُ عن جميع املاك اليونان في اسيا الصغرى وان تكون ممالك مستقلة بذاتها . ثانيًا ان يمنع سفنهُ من السير في بحرهم . وثالثًا ان عساكرهُ لا تتخطأ اكثر من ثلاثة اميال ضمن حدود المنازل اليونانية غير ان سيمون لم يتمتع بثمرة اعمالهِ العظيمة اذ انهُ توفي من جرى جرحٍ اصابهُ في حصار جزيرة قبرس سنة ٤٤٩ ق م. وبقي بريكليس رئيسًا في اثينا بعد موت سيمون مدة عشرين سنة واهتم كثيرًا بتحصين المدينة وتزيينها وفي عصرهِ بلغ اهلها الدرجة القصوى في اتقان الصنائع والفنون ومعامل البناء لا سيما النقش والتصوير وراجت فيها سوق المعارف والعلوم فكانت مدرسةً للعلماء

والعلوم ولذلك سميت ام العلوم والفلسفة. وفي اواخر ايام بريكليس وقع خلاف وشقاق بين اثينا وسپارطه كانت نتيجتها اخيرًا شبوب نيران الحرب الطويلة التي دامت مدة ثماني وعشرين سنة وسميت حروب الپليپونيسوس اي حروب المورة. وكان السبب في ذلك انهُ لما وقعت حرب بين ولاية كورنثوس وجزيرة كورفو. ان بريكليس حرض حكومة اثينا على مساعدة اهل كورفو فحُسب هذا الامر في سپارطه تعديًا ونكثًا للعهود التي كانت قد اقيمت بين ممالك اليونانيين. وكانت سپارطه تنظر الى اثينا ونجاحها بعين الحسد وتترقب الفرص لاذلالها وتكبيس شوكتها فطلبت اليها ان تنفي العائلة الالكميونيدية كانها تريد بذلك نفي بريكليس. فهذه الاسباب وغيرها مما لا يسعنا ضيق المقام لاستيفائها كان من شانها جميعًا اثارة الحرب المذكورة

ففي سنة ٤٣١ ق م شبت نيران تلك الحروب ودامت الى سنة ٤٠٤ بدون انقطاع . فكان من الجهة الواحدة سپارطه وكورنثوس وجميع ولايات المورة الى ارغوس واكثر الممالك الشمالية ومن الجهة الاخرى اثينا وثساليا وبعض جزائر الارخبيل الرومي وكان عدد جيش اثينا يبلغ نحو ٣٢٠٠٠ مقاتل وعدد جيش سپارطه ٦٠٠٠٠ مقاتل تحت امر ارخيداموس ملكهم . اما الاثينيون نفاقوهم جدًّا بالقوة البحرية فاشتعلت بينهم الحروب برًّا وبحرًا وهلك منهم عددٌ عظيم جدًّا في مدة الثماني والعشرين سنةً التي دامت الحروب فيها وكان الانتصار تارةً لاثينا واخرى لسپارطه ولكن في السنة الاخيرة من هذه الحروب قام في سپارطه رجلٌ شهير ذو حذقٍ ودرايةٍ عارفٌ فن الحرب وابوابهُ وهو ليساندروس فانتصر على جيش اثينا انتصارًا عظيمًا ومن ثمَّ تقدم وحاصر اثينا برًّا وبحرًا وما زال يشدّد عليها الحصار حتى طلبت التسليم فعقد شروط الصلح واصبحت اثينا بموجبها خاضعةً لحكومة سپارطه التي صارت بعد ذلك من اعظم الولايات اليونانية واقواها . فتكبر السپارطيون جدًّا وتعظموا وشرعوا في المظالم والعدوان وابطل ليساندروس من اثينا الحكم الجمهوري ونظامها القديم

واقام عوضها ثلاثين عضوًا او رئيسًا تحت امر حكومة سپارطه فشرع هؤلاء يظلمون ويعتسفون الاثينيين ويجورون عليهم كثيرًا وقتلوا منهم في مدة اقل من سنة عددًا عظيمًا وما زالوا يظلمون ويتعدون الى ان ضجر منهم الاثينيون وشرعوا يتآمرون في ايجاد طريقة لخلع نير هؤلاء المردة وكان يومئذٍ في اثينا رجلٌ ذو درايةٍ وحذق اسمهُ ثراسيبولوس فنهض مع اهل اثينا جميعًا وطردوا الثلاثين رئيسًا السپارطيين ورجّعوا الحكم الجمهوري وذلك بمساعدة بوزانياس ملك سپارطه نفسها لانهُ كان يكره ليساندروس ويخشى سطوتهُ واعادوا نظامات صولون

وفي هذا العصر عاش سقراط وهو اشهر فلاسفة اليونان واول من علَّم بوحدانية الله وبخلود النفس وكان رجلًا تقيًّا ورعًا فاشتكى عليهِ اهل اثينا زاعمين بانهُ يفسد عقول الناس بتعاليمهِ فحُكم عليه بالموت وذلك بشرب عصير الشوكران وقد ترك تعاليم مفيدة جدًّا الّا انهُ لم يكتب منها شيئًا في حياتهِ وانما كُتب بعد موتهِ عن يد تلميذهِ افلاطون

وكان اليونانيون المستوطنون في ولايات اسيا الصغرى اليونانية قد قاموا على زركسيس الثاني بن داريوس نوثوس ملك الفرس وطلبوا مساعدة سپارطه فارسلت جيشًا لنجدتهم تحت قيادة ملكهم اجيزيلاس فتجددت الحرب ثانيةً بين اليونان والفرس فتقدم اجيزيلاس الى اسيا الصغرى وفتح فريجية ومنها تقدم نحو بلاد فارس نفسها فخاف زركسيس جدًّا واخذ يحرّض اثينا وغيرها من بلاد اليونان ممن كان بينها وبين سپارطه عداوة ان يقوموا لمحاربة سپارطه فالتزم اجيزيلاس ان يعود الى بلادهِ للمحاماة عنها ولولا ذلك لهَدم اركان السطوة الفارسية وبعد ان دامت الحرب جملة سنين عقد اخيرًا الصلح المعروف بصلح انتلسيداس وهو ان يصير ارجاع اسيا الصغرى وجزيرة قبرس للفرس وان مدن هيلاس وجزائرها كافةً تكون مستقلة قائمة بذاتها ما عدا جزائر لمنوس وامبروس وسيروس فتنضم الى اثينا وان ملك الفرس وسپارطه يقيمان

الحرب على كل من لا يعمل بموجب شروط هذه المعاهدة . وكان ذلك سنة ٣٨٨ ق م

هذا ولما كانت الحرب قائمة على ساقٍ وقدمٍ بين اثينا وسبارطه تقوت ثيبة جدًّا وصارت ذات سطوة كلية وما زالت في نجاحٍ واقبال حتى اصبحت قاعدة للمدن والاراضي المجاورة لها. اما سبارطه التي كانت تحب ان تترأس على جميع الممالك اليونانية فلما رات نجاح ثيبة خافت من تزايد سطوتها وقوتها فارسلت جيشًا واخذتها فجأةً واقامت عليها ولاةً من قِبَلها فشرعوا يقتلون ويظلمون ويجورون على الاهالي كما جرى في اثينا فهرب كثيرون من الاهالي واتوا اثينا فاغتاظ الاثينيون من هذا الفعل البربريّ وتظاهروا بالميل الى ثيبة اما سبارطه فخجلت ايضًا من هذا الفعل القبيح وقاصّت القائد الذي فعل ذلك الاَّ انها لم تتنازل عن الاستيلاء على ثيبة ومحتاتها. فقام اخيرًا ايامينونداس وبيلوبيداس رجلان شهيران من اعمال ثيبة وقتلا ظالم بلادهما. فنشبت من ذلك حربٌ شديدة بين سبارطه وثيبة ودامت زمانًا ليس بقليل ففاز اهل ثيبة اولاً فوزًا عظيمًا في واقعة حدثت بقرب لوكترا احدى مدن اركاديا في المورة وتقدَّموا بانتصارٍ حتى ابواب سپارطه نفسها واحرقوا مدنًا كثيرة ونهبوا سبارطه ثم عادوا الى بلادهم فائزين غانمين . ثم تجددت الحرب ايضًا بعد مدةٍ وجيزة وكانت الغلبة لايبامينونداس ايضًا ولكنهُ قُتل في الحرب وقبل موتهِ بقليل بينما كان منتظرًا نتيجة الموقعة التي كانت سببًا لموتهِ لما اخبروهُ ان الفوز كان لهم صرخ قائلاً كفاني حياة ونزع السهم الذي كان ما زال في جسدهِ واسلم الروح فكانت بهِ بداية سطوة ومجد ثيبة ونهايتها بنهايتهِ فعقدت الصلح مع سبارطه لكي تبقى اقلها يكون على ما كانت عليهِ من الاستقلال لانها امست خائفة سپارطه بعد فقد قائدها ايبامينونداس. واما اجيزيلاس ملك سپارطه فمع ما كان عليهِ من الشيخوخة اذ كان ابن ٨٠ سنة لم يطب لهُ عيشٌ الاَّ بالحروب فاتى مصر لمحاربة الفرس فلقي الموت هناك وبموتهِ ارتاحت البلاد وعظم السلام على ان الآداب

اخذت من هذا الوقت تهاجر ربوع البلاد اليونانية وكسدت فيها سوق التقدم والفلاح واخذت تميل وتتقهقر ادبيًّا

وبقرب هذا الوقت حدث في مكدونيا قلاقل كثيرة وذلك ان استاناس ملكها تُوفي تاركًا ثلاثة بنين فشرع هولاء يتنازعون الملك فبعث المكدونيون وفدًا الى ثيبة يطلبون مساعدتها في نزع الخصام من بلادهم فارسلت ثيبة عسكرًا تحت امر بيلوبيداس لكي يصلح احوال تلك البلاد ولما اتى مكدونية ولَّى احدهم ملكًا عليها ومهَّد الاحوال وعاد ومعهُ فيلبس اخو الملك وهو ابو اسكندر الكبير وعددٌ من اعيان البلاد رهنًا ومن حين انتصار ثيبة على سبارطه المرة الاخيرة وعقد الصلح بينهما لم يحدث بين اليونانيين امرٌ مهمٌّ حتى زمان تملك فيلبس المذكور آنفًا على بلاد مكدونية

الباب السادس

في مملكة مكدونية وقيام فيلبس سنة ٣٦٠ ق م الى موت الاسكندر

ان تاريخ بداية هذه المملكة كاكثر تواريخ مبادي باقي الممالك والشعوب محاطٌ بظلمة كثيفة اما موسّسها واول ملوكها فرجلٌ اسمهُ كرانوس عاش في اوائل الجيل الثامن ق م والمظنون ان المكدونيين واليونانيين هم من اصل واحد على ان اليونان حسبوا المكدونيين نصف برابرة كباقي الامم ولم يكن لهم صوت في المشورة الامفيكتيونية وكانت السلطنة في يد اشراف البلاد على نوعٍ ما ولم يكن للملك شيء من الاستقلال والجنود كانوا طوعيين اذا شاءوا تبعوا الملك في غزواتهِ وحروبهِ لاسيما اذا علموا ان في ذلك لهم فخرًا او غنائم ليسلبوها . وكان ملوكها خاضعين للفرس زمانًا طويلاً غير انهم في زمن حروب البليبونيزيَّة اخذوا يتخلصون نوعًا من ثقل ذلك النير ومن وهدة بحر الظلام والجهالة

وقد علمنا في ما تقدم ان فيلبس الذي كان ابن الملك السادس عشر من ملوك مكدونية كان قد أُخذ الى ثيبة عندما اتى بيلوبيداس الى مكدونيا لينزع منها القلاقل والفساد وكان يومئذٍ عمرهُ نحو ١٠ سنين فاقام في ثيبة نحو اثنتي عشرة سنةً فتعلَّم اموراً كثيرةً مفيدةً ودرس عند ابامينونداس فنَّ الحرب وابوابهُ ولما بلغهُ خبر قتل اخيهِ المالك في مكدونيا هرب الى بلادهِ فوجدها مضطربة ثائرة وكان لاخي فيلبس ولدٌ صغير السنّ فأَخذ عمهُ فيلبس على نفسهِ ان يكون وصيًّا لهُ واعتنى بامر تربيتهِ وحكم باسمهِ ولكن عما قليل قام المكدونيون وطلبوا اليهِ ان يكون هو الملك الشرعي عليهم اذ لا يريدون ان صبيًّا يملك عليهم فاجاب طلبهم وتولَّى زمام المملكة وكان حينئذٍ عمرهُ نحو ٢٥ سنة . وقبل ان يتبوأَ تخت الملك خرج لمحاربة جيوش اعداء كثيرين كانوا يتهدَّدون عرش ملك ابن اخيهِ فانتصر عليهم جميعًا وبدد شملهم واخضع جملة اماكن فاحبهُ قومهُ كثيراً

ولما تمكَّن فيلبس في الملك اخذ يدبّر واسطة لاخضاع باقي الممالك اليونانية ويضمها الى مملكتهِ . وكانت سبارطه واثينا اقوى الممالك اليونانية قد ضعفتا من الحروب التي وقعت بينهما وبين الفرس . وثيبة ايضًا كانت قد وهنت من حروبها مع سبارطه وفقد قائدها الهمام ابامينونداس فاخذ زرع الشقــاق والفساد بين هاتيك الممالك وكان لهُ في جميعها اناس من اهلها واعيانها في خدمتهِ الذين ساعدوا كثيراً في اجراء واتمام مقاصدهِ هذا وكان قد وجد في نواحي مدينة فيلبي معادن من فضة وذهب فاستخرج منها اموالاً وكنوزاً وافرة ساعدتهُ كثيراً في اتمام مرغوبهِ اذ استطاع ان ينتصر بواسطتها حيث لم يقدر ينتصر بجيوش السلاح. وفي سنة ٣٥٦ ق م وهي السنة الرابعة من ملكهِ وضعت زوجتهُ الملكة اوليمبياس ولدًا ذكرًا فسماهُ اسكندر ولما نشأَ قليلاً سلَّمهُ الى الفيلسوف اريسطوطاليس الشهير لكي يعتني بتعليمهِ وتهذيبهِ فنشأ شابًا اديبًا شجاعًا كما سياتي الكلام عنهُ

وبقرب هذا الوقت حدث بين ممالك اليونان حربٌ شديدة سُمّيت

الحرب المقدسة مهّدت لفيلبس السبيل الذي طالما صبا اليهِ لنوال مرغوبهِ من اخضاع الممالك اليونانية لسطوتهِ . وكان السبب في ذلك ان قومًا من اهالي فوسيديا وضعوا ايديهم على حقلٍ من اوقاف هيكل ابولون فحُسب ذلك امرًا عظيمًا وحُكم عليهم من قبل المشورة الامفيكتيونية بغرامة مبلغ وافر كفَّارة عن ذنبهم وفوَّضت الجمعية المشار اليها اللوكريين واهل ثيبة ان يحصّلوا منهم تلك الغرامة فأبى اولئك ان يخضعوا لحكم المشورة وتمنعوا عن الدفع وجاهروا بالعصيان وحملوا السلاح واستعدوا للحرب فشبَّت نيران الحرب ودامت مدة عشر سنين بين فوسيديا وسبارطه واثينا من الجهة الواحدة وثيبة وتساليا ولوكريا من الجهة الاخرى فانتهز فيلبس هذه الفرصة ليكون لهُ نوع من المداخلة الرسمية بين تلك الممالك وطلب اليهم ان يكون وسيطًا ومصلحًا فيما بينهم فقبلوهُ وجعلوهُ عضوًا من اعضاء المشورة الامفيكتيونية ما عدا الاثينيين فان خطيبهم الشهير ديموستين حذَّرهم من فيلبس الذي كان احيل من ثعلب وحرَّضهم على عدم قبول مداخلتهِ في ما يتعلق ببلادهم واراهم ان مقاصدهُ انما هي لينتزع حريتهم ويخضعهم لسلطتهِ . فاغتنم فيلبس فرصة هذه الحرب وتقدم بجيوشهِ قاصدًا فتح مضيق ثرموبيل ليكون كعصًا يتوكأ عليهِ عند الحاجة . اما ديموستين فلما درى بذلك جهز فرقةً من العساكر ولاقى فيلبس عند المضيق المذكور . فلما رأى فيلبس جيش اثينا انثنى راجعًا تاركًا مقصدهُ الى فرصة انسب

وكان بعد ذلك ان قومًا من اهالي لوكريا وضعوا ايديهم على بعض اراضي هيكل ابولون فحكمت عليهم المشورة الامفيكتيونية كالحكم السابق فأبوا ان يخضعوا فتجددت الحرب المقدسة الثانية ودُعي فيلبس ان يكون قائدًا في هذه الحرب فكان يتظاهر بالتمنع في اول الامر لكي يخدعهم ويجعلهم يطمئنون من جهتهِ واخيرًا زحف بجيشهِ وابتدأ بفتح المدن المجاورة بيوتيا وفوسيديا . اما ثيبة فلما رات ذلك اندهشت واثينا اخذتها الحيرة فنهض ديموستين واراهم مقاصد فيلبس وحيلهُ التي طالما حذَّرهم منها واخذ يحرّضهم على النهوض لمقاومتهِ فجهزوا

جيشًا وخرجوا لملاقاتهِ بثلاثين الف مقاتل والتقى الفريقان بالقرب من احدى مدائن بيوتيا الشمالية واصطدم الجيشان في سهول شيرونه واصطلت نار القتال بينهما وبعد قتالٍ شديد دارت الدائرة على اليونانيين وانتصر فيلبس عليهم وذلك سنة ٣٣٨ ق م. فلما امست كل الممالك اليونانية خاضعةً لهُ عامل اليونانيين معاملةً حسنة جدًّا واطلق الاسرى بدون فديةٍ ولكي يُنسي اليونانيين مصيبة فقد استقلاليتهم اراد ان يحوّل افكارهم نحو محاربة الفرس عدوّهم القديم فعقدت جمعية في مدينة كورنثوس حضرها وكلاءُ من قبل سائر الدول اليونانية وقرَّ القرار فيها على توليج الملك فيلبس قيادة الجيش الاولى في الحرب التي كانوا عازمين فتحها على اسيا. فخرجت الاوامر في تحضير المهمات الحربية وشرعوا في الاستعدادات الكلية والجزئية وارسل فيلبس القائد بارمينون مع مقدمة الجيش الى اسيا الصغرى حيث كان مزمعًا ان يلاقيهُ ببقية الجيش على ان العناية لم تسمح لهُ بذلك اذ قتلهُ بوزانياس احد اتباعهِ سنة ٣٣٦

فخلفهُ ابنهُ اسكندر الملقَّب بالكبير وعند العرب بذي القرنين وكان عمرهُ يومئذٍ ٢٠ سنةً وكان على جانبٍ عظيم من الحذق والدراية والشجاعة والاقدام. ولما بلغهُ ذات يوم نجاح وانتصارات ابيهِ قال باسفٍ وغمٍّ ان ابي قد غلب تقريبًا على العالم بسيفهِ ولم يترك لي شيئًا اغلب عليهِ بسيفي

وكان بعد موت فيلبس ان الممالك اليونانية فرحت جدًّا املاً باسترجاع استقلاليتها وكان ديموستين الخطيب يحذّرهم من اسكندر كما كان يحذرهم من ابيهِ. وبعد ان تبوأ اسكندر تخت الملك جاهرت ثراقيا بالعصيان فاتاها وحاربها وانتصر عليها واخضعها لسطوتهِ ولما علم بمجاهرة الاثينيين وغيرهم بالعصيان تقدم اليهم بقوة عظيمة واتى اولاً ثيبة وفتحها وخربها وباع نحو ٣٠٠٠٠ من اهاليها ولما رات باقي البلاد اليونانية ما كان من بأسهِ وقوتهِ خافت جدًّا وخضعت لهُ. ومن ثمَّ عقد جمعية دولية في مدينة كورنثوس حضرها وكلاءُ من كل البلاد اليونانية واعلمهم انهُ عازم على محاربة الفرس كما كان عازمًا ابوهُ قبل وفاتهِ

الرسمية فاعتبرهم اسكندر كل الاعتبار ودخل الى هيكلهم وسجد ومنحهم تأمينات وتطمينات دامت لهم زمانًا طويلاً من بعدهِ

ثم تقدم الى مصر التي فتحت لهُ ابوابها بدون مقاومة وبعد ذلك اتى هيكل جوبيترامون الكائن في الصحراء فهلك كثيرون من جيوشهِ في تلك الرمال المحرقة فقدَّم ذبائح وطلب من الكهنة ان يلقبوهُ بابن جوبيتر بعد ان اعطاهم هدايا وافرة فتلقب بابن جوبيتر ومن ثمَّ عاد الى مصر ووضع اساسات الاسكندرية مسميًا اياها باسمهِ

وبعد ان نظم احوال البلاد تقدم ثانيةً نحو بلاد فارس لكي ينزل بها البلاء الاخير فبعث داريوس يعرض عليهِ عقد الصلح فيسلمهُ كل الاراضي الواقعة الى غربي نهر الفرات . فرفض اسكندر قبول ذلك قائلاً ان العالم لا يستطيع احتمال ربين كما انهُ لم يستطع احتمال شمسين فلما راى داريوس عناد اسكندر وتعظمهُ عزم على المدافعة الى النهاية فركب بنحو ٧٠٠ الف مقاتل وقال بعضهم اكثر وبعضهم اقل . فوافاهُ اسكندر بجيش مقدارهُ ٦٠٠٠٠ والتقى الفريقان بقرب اربيلا احدى مدن الفرس وتقاتلا قتالاً شديدًا ارتجت لهُ قواعد الجبال فلم يلبث طويلاً حتى انكسرت جيوش الفرس اذ كان قد وقع في قلوبهم الرعب من قتال اسكندر في المواقع السابقة فانهزم داريوس وولى هاربًا الى بكتريا وهي جزء من بلاد التتر المستقلة وقتل هناك فساد اسكندر على الممالك قاطبةً وتزوج بروكسانا ابنة داريوس

واذ كانت المطامع مالئة قلبهُ لم يكتفِ بكل هذه الفتوحات فتقدم الى بلاد الهند وفتح اكثرها واراد ان يتقدم بعد الى جهة المشرق على ان عساكرهُ لما رات ان لا حدّ لمطامعهِ ولا نهاية لاتعابهم ابوا ان يتقدموا اكثر من ذلك وطلبوا الرجوع الى اوطانهم فانثنى راجعًا ليس بدون اسفٍ وحزن واتى مدينة برسيبوليس وهي من اشهر مدن بلاد فارس واخربها واحرقها حنقًا فانهُ مع ما كان عليهِ من رفعة الشان والغلبة والمجد كان شديد الحنق سريع الغضب .

وكان قد اتى مدينة بابل قاصدًا ان يرممها ويجعلها قاعدة الممالك الشرقية فاقام ١٠٠٠٠ الاف فاعل يشتغلون فيها وقصد ان يمضي بعد ذلك الى قرطجنة ويفتحها ومنها الى اوروبا ليخضع اسبانيا وايطاليا ومن ثم يعود الى مكدونية ولكنهُ بعد ذلك بمدةٍ قصيرة مرض ومات في السنة الثالثة والثلاثين من عمرهِ والثالثة عشرة من حكمهِ وذلك سنة ٣٢٣ ق م

الباب السابع

في ما حدث بعد موت اسكندر الى هذه الايام اي من سنة ٣٢٣ ق م الى سنة ١٨٧٢ ب م

فمات اسكندر ولم يترك خليفةً من نسلهِ وكان عندما احسَّ بقرب حلول اجلهِ نزع خاتمهُ من اصبعهِ واعطاهُ الى برديكاس احد امرائهِ فسالهُ قوادهُ واكابر خواصهِ عمن يعين وليَّ عهدٍ بعده فقال الاكثر استحقاقًا . فتقلد برديكاس بعد موت اسكندر باتفاق رفقائهِ من القواد نيابة الملك الى حين ولادة الملكة روكسانا التي كانت حبلى عند وفاة زوجها اسكندر اما العساكر فلم يرتضوا بذلك واعلنوا انهم يريدون اقامة اريدي اخي اسكندر فكان لهُ من الملك الاسم فقط .ومن ثم قسم برديكاس ممالك سيدهِ على ٢٤ قائدًا من القواد الاولين وكان لهُ الرياسة على الجميع وفي تلك الاثناء وضعت روكسانا زوجة اسكندر ولدًا ذكرًا فسمي باسم ابيهِ . فاخذ برديكاس على نفسهِ امر تربيتهِ وان يكون وصيًا عليهِ ولكن لم يلبث طويلاً حتى حسدهُ رفقاؤهُ وعزموا على قتلهِ او اهلاكهِ وكان اعظم عامل في هذه الثورة انتيباتر ولكنهُ كان مضطرًّا ان يخمد اولاً نيران الفتن التي كانت اخذت في الاشتعال بين اليونانيين

ولا يخفى ان اسكندر قبل خروجهِ من بلادهِ كان قد خلف انتيباتر وكيلاً للملك في مكدونية فلما علم اليونانيون بموت اسكندر فرحوا جدًّا املاً باسترجاع استقلاليتهم وحريتهم. فجعل ديموستين يحرض الاثينيين للنهوض في طلب حريتهم

وانضم اليهم كثيرون من باقي البلاد اليونانية فقاموا جميعًا يدًا واحدة وحاربوا انتيباتر في لاميا من اعمال ثساليا فكسروهُ ولحقوهُ وحاصروهُ وكسر اليونان احد قواد اسكندر الذي جاء لنجدة انتيباتر وقتلوهُ ولكنهم انكسروا بعد ذلك في وقعة صارت بينهم وبين كراتيد قائد مكدوني عند كراتون فانهزموا وتشتت شملهم . فعاد اهل ثساليا للطاعة واضطرّ الاثينيون الى مثل ذلك واشتُرط عليهم بدفع مصاريف الحرب واقامة جوش مكدوني في مونيخيا من بلاد اليونان وبتسليم الخطيبين ديموستين وهيباريد اللذين كانا يحرضانهم على المجاهرة بالعصيان . فهرب الاثنان اما الاخير فلم ينجُ فقبض عليهِ وقتل . واما ديموستين فانهزم الى هيكل نبتون في جزيرة كالوريا ولكن لما راى انهُ لا يقدر ان يفلت من اعدائهِ ولئلا يقع في ايديهم فيميتوهُ مهانًا شرب سمًّا فمات . واما انتيباتر فبعد تمهيد هذه الامور عقد الصلح ايضًا مع اهل ايتوليا لكي يستطيع الذهاب حالاً لمحاربة برديكاس في اسيا فلاقاهُ برديكاس وانضم اليهِ ايضًا القائد كراتير المتقدم ذكرهُ فانتصر انتيباتر عليهما في وقعةٍ عظيمة قتل فيها كراتير ايضًا واما برديكاس فقتلهُ عسكرهُ بالقرب من مدينة منفيس في مصر حيث ذهب لمحاربة بطليموس الذي خلفهُ اسكندر واليًا هناك وكان ذلك سنة ٣٢٠ ق م

فاخذ انتيباتر نيابة الملك بعد موت برديكاس زمانًا يسيرًا والزم اوليمبياس ام اسكندر ان تهرب الى ابيروس لانهُ كان بينهما عداوةٌ قديمة من زمن فيلبس زوجها فاخذت معها كنتها روكسانا والملك الصغير وبعد ذلك بقليل مات انتيباتر وخلف مكانهُ صديقهُ بوليسبرثون عوضًا عن ابنهِ كاساندر فتحزب كثيرون ضد النائب الجديد وكان معظم السبب في ذلك كاساندر بن انتيباتر لانهُ احبَّ ان يكون نائبًا بعد ابيهِ واما بوليسبرثون فلكي يستميل الاثينيين ويتخذهم حزبًا لهُ جدّد لهم هيئة حكومتهم القديمة وانتشبت الحرب بينهُ وبين كاساندر . وبينما كانوا على هذه الاحوال كان انتيغونوس مشتغلاً في اسيا

بتعظيم سطوتهِ وتوسيع دائرة امتلاكاتهِ واخيرًا قبض على اومين الذي كان يعضد الحزب الملكي بواسطة جنودهِ الذين خانوهُ واماتهُ جوعًا فعظمت بذلك شوكتهُ وسطوتهُ . فلما راى ذلك بقية قواد اسكندر اضطربوا وخافوا من ازدياد سطوتهِ فنهضوا لمحاربتهِ فكسرهم جميعًا سنة ٣٠٧ ق م واخذ قبل الجميع لقب ملك . وما زالوا يتنازعون بعد ذلك الى سنة ٣٠١ ق م نصارت بينهم وبين انتيغونوس وابنهِ ديمتريوس وقعة مهولة في ايبسوس في فريجية فدارت بها الدوائر على انتيغونوس وولدهِ ديمتريوس وقتل انتيغونوس فيها فاقتسم اذ ذاك قواد اسكندر مملكتهُ الى اربع ممالك . الاولى مصر التي اخذها بطليموس سوتير مع بر العرب وجزء من بر الشام اي فلسطين . الثانية مكدونية وبلاد اليونان اخذها كاساندر . الثالثة تراقيا وبيسينيا وبعض اجزاء اسيا الصغرى اخذها لسيماخوس الرابعة بقية الممالك من البحر الاسود الى نهر لاندوس في الهند اخذها سلوقس وسميت مملكة سوريا وهي اعظم الجميع وقد تقدم الكلام عن كلٍّ منها في مكانهِ

وفي اثناء تلك المخاصمات والحروب اخذت عائلة اسكندر التعيسة الحظ في الاضمحلال حتى انقرضت اخيرًا وذلك انهُ لما كان كاساندر وبوليسبرثون يتحاربان انضمت اوليمبياس ام اسكندر الى الاول وفوضت اليهِ امر تربية اسكندر الصغير ابن روكسانا ولكن اذ كان كاساندر قد اخذ اليهِ اريدي اخا اسكندر وزوجتهُ ولم يلتفت الى روكسانا وابنها احتالت اوليمبياس على اسر اريدي وزوجتهِ فقتلتهما ولكن بعد زمان ليس بطويل وقعت اوليمباس اسيرةً في يد كاساندر مع كنتها وحفيدها اسكندر فقتلها كاساندر ووضع روكسانا وابنها في سجنٍ ضيق وبعد قليل قتلها بالاشتراك مع انتيغونوس وبطليموس . وكان قد بقي في قيد الحيوة ابنٌ لاسكندر من غير زوجتهِ الشرعية اسمهُ هركول وكان بوليسبرثون قد اخذ على ذاتهِ امر الاعتناء بهِ والمحاماة عنهُ فعرض كاساندر على بوليسبرثون ان يعطيهُ المورة اذا كان يميت هركول المذكور آنفًا فتمت هذه

المشارطة بينهما بقتلهِ وهكذا بعد موت اسكندر باحدى عشرة سنة لم يبقَ احد من عائلتهِ

اما هذه الامور الفظيعة كلها فلم تكن نهاية المنازعات والحروب فان ديمتريوس بن انتيغونوس بعد موت كاساندر صار ملك مكدونية وفتح حربًا على سلوقس فلقيهُ هذا وتغلب عليهِ واسرهُ فقام لسيماخوس واخذ مملكة ديمتريوس فوافاهُ سلوقوس وحاربهُ واخذ مملكتهُ وقتلهُ ومن ثمَّ قُتل هو ايضًا من سيرونوس بن بطليموس الذي كان قد التجأَ الى بلادهِ وصار سيرونوس هذا ملكًا على مكدونية. وكان بعد ذلك انهُ هاجم بلاد اليونان ومكدونيا قبائل غالية جاءوا من نواحي غالية وجرمانيا فقتل سيرونوس في المدافعة ضد هولاء القوم البرابرة. وبعد ان افسد الغاليون ونهبوا البلاد اليونانية الشمالية طُردوا اخيرًا فذهبوا واقاموا في ثراقيا ومنها الى اواسط اسيا الصغرى وصنعوا لانفسهم هناك منازل سميت باسمهم وهي غلطه او غلاطيه

فقام بعد سيرونوس انتيغونوس غوناتاس بن ديمتريوس الذي لم يبقَ لهُ بعد موت ابيهِ سوى بعض اقاليم في بلاد اليونان وتبوأ تخت مملكة مكدونية بموجب معاهدة تقررت بينهُ وبين انطيوخوس الاول ابن سلوقوس وفي ايام ملكهِ هاجم الغاليون بلادهُ ثانيةً فدفعهم بعزمٍ ونشاطٍ لامزيد عليهما. وفي اثناء ذلك رجع من ايطاليا بيروس ملك ابيروس الذي كان قد طردهُ ليسيماخوس فتغلب على انتيغونوس وطردهُ وقام مكانهُ بالملك سنة ٢٧٤ ق م. ولكن بعد ذلك بسنتين قُتل في حصار ارغوس فعاد انتيغونوس الى ملكهِ وبقي الملك في يدهِ ولنسلهِ من بعدهِ بدون انقطاع. ولما راى ملوك مكدونية ان الدهر قد صفا لهم ولم يعد لهم منازع ولا معارض وجهوا افكارهم نحو بلاد اليونان ايضًا واخذهم لمدينة كورنثوس القوية سنة ٢٥١ ق م كاد يوصلهم الى ما طالما صبوا اليهِ. ولكن عندما تقررت المعاهدة المعروفة بمعاهدة اخائية بمساعي وهمة الشاب ارانوس الذي نبغ في ذلك العصر عاد الى البلاد اليونانية بعض رونقها

وسطوتها زمانًا يسيرًا . وبعد ذلك اتى الرومان وضموا جميع البلاد اليونانية الى مملكتهم بعد حربٍ قصيرة فامست البلاد اليونانية جزءًا من المملكة الرومانية ودعيت من ذلك الوقت اخائية على اسم قسم من اقسامها وذلك سنة ١٤٥ ق م ولبثت في ايدي الرومان حتى نقل الامبراطور قسطنطين كرسيهُ الى القسطنطينية سنة ٣٢٤ ب م فصارت جزءًا من المملكة الشرقية الرومانية . ثم استفتحها الاتراك في اثناء القرن الخامس عشر ب م فصارت جزءًا من المملكة العثمانية ولبثت في ايديهم الى سنة ١٨٢١ ب م ثم نهضت في طلب الحرية في السنة المذكورة ووقعت الحروب بينهم وبين العثمانيين واستمرت بدون انقطاعٍ مدة ثماني سنين متوالية كما مر ذلك في خبر دولة آل عثمان فنجح اليونان بالحصول على بعض ما كانوا يتمنونهُ وذلك باستيلائهم على قسم من بلادهم القديمة بمساعدة بعض دول اوروبا فاستقلوا ودعوا اميرًا مسكوبيًّا ليملك عليهم فقتلهُ احدهم ثم ملكوا عليهم اوثون ابن ملك بافاريا فملك عليهم نحو ٣٠ سنة ثم طردوهُ سنة ١٨٦١ قائلين بانهُ لم يكن لهُ ولد ثم ملكوا عليهم جورج الاول ابن ملك الدنيمارك ولم يحدث امرٌ يذكر من بعد ان تبوأ تخت الملك ولا نعلم ماذا تكون آخرة هذا الملك الجديد . لانهُ منذ القديم لم يقم رجل معتبر في بلادهم الاَّ وقتلوهُ او نفوهُ كما فعلوا بثميستوكليس وسقراط واريستيديس الصديق وغيرهم الله اعلم

الباب الثامن

في ذكر بعض شعراء اليونان وفلاسفتهم وطوائفهم

ان اول شعراء اليونان واشهرهم هو هوميروس . قيل انهُ كان اعمى يطوف متسولاً وهو ينشد قصائدهُ وكان ينشدها قطعة فقطعة في اثناء تطوفهِ ثم جمعت وقد ذكرنا عمَّن اعتنى بجمعها . ومجموعها قصيدتان طويلتان انقسمتا الى عدة اقسام احداهما تعرف بالايلياد وموضوعها حوادث حروب طروادة والثانية

سميت اوديسى وموضوعها سفرات عولوس بعد استنتاج طروادة وهما من اجود الشعر وافصحهِ . وكان وطنهُ ازمير وعاش في اواسط القرن التاسع ق م

والثاني من شعراء اليونان هزيودوس وكان معاصرا لهوميروس نشأ في ضيعةٍ من ضيع بيوتيا ولم يصل لنا من شعرهِ الاَّ قصيدتان احداها سميت نسبة الالهة موضوعها ميثولوجية اليونانيين اي خرافاتهم واعتقاداتهم لجهة تواليد الهتهم وما جرى بينهم من الحوادث. والثانية سميت الاشغال اليومية وموضوعها الزراعة ومتعلقاتها ولهُ ايضًا قصيدة اخرى تعرف بترس هيراكليس وشعرهُ جيد ومقبول لكنهُ لم يضاهِ شعر هوميروس

اما حكماء اليونانيين وفلاسفتهم فاقدمهم واشهرهم ثاليس عاش سنة ٥٤٧ ق م وهو اول فلاسفة اليونان ومؤسس الطائفة الايونية نسبةً الى وطنهِ ايونيا ومن اشهر تعاليمهِ ان الماء هو اول الكائنات وعنهُ وجدت سائر الصور والموادّ وان الله اوجد كل شيء من الماء وهو رايٌ قديم ذهب اليهِ قدماء المصريين وعنهم اخذهُ ثاليس لانهُ تتلمذ في مصر وهو ما زال مقبولاً ومعولاً عليهِ عند كثيرين من علماء هذا العصر. الثاني صولون وقد سبق ذكرهُ فلا حاجة الى التكرار . ومنهم فيثاغوروس وهو مؤسس الطائفة المدعوة باسمهِ ومن عقائدها التناسخ وهو اول من علَّم عن استدارة الارض ووضع جدول الضرب للارقام الهندية. ومنهم سقراط وهو مؤسس الطائفة السقراطية نسبةً اليهِ ومن تعاليمها المعقولات ووحدانية الله . ومنهم انتيشينوس وديوجينس مؤسسا الطائفة الكيونية ومعناها الكلبية لانهم شُبّهوا بالكلاب اذ نحوا عنهم كل الامور ولم يقبلوا بشيء منها فرفضوا المعرفة والعلم كشيء لا نفع منهُ وابتعدوا عن معاشرة الناس ولذّات الدنيا ولاموا كل اجناس الناس ولذلك دُعوا بالكلبيين . ومنهم افلاطون منشئ الطائفة الاكديمية وسميت بهذا الاسم لانهُ كان يعلم تلاميذهُ في غياضٍ بقرب مدينة اثينا سميت بغياض الاكديموس . ومنهم ابيكوروس مؤسس الطائفة الابيكورية ومن تعاليمهِ انهُ يجب رفض كل شيء غير التمتع باللذات وافراح الدنيا ومنها ايضًا

الرواقية ومؤسسها زينون وكان يعلم تلاميذهُ في رواقٍ في مدينة اثينا ولذا سميت بهذا الاسم . وقد أُشير الى هاتين الطائفتين في اعمال ١٧ : ١٨ . ومنهم اريستوتاليس منشي الغرافتية وقد اشتهرت تعاليمهُ جدًّا واعتنقها وتشبث بها اهالي اوروبا زمانًا طويلاً وما زالوا يعولون على بعضها . ومن اطبائهم المشهورين بقراط الذي كتب عدة فصول مفيدة في الطب وظهر بعدهُ جالينوس وروفس وغيرهما فتوسعوا فيهِ اكثر فاكثر

الفصل الثالث

في تاريخ الرومانيين القدماء

الباب الاول

في تاسيس رومية واخبار ملوكها الاولين الى سنة ٥٠٩ ق م حين اقيمت الحكومة القنصلية

ان السلطنة الرومانية كانت في الازمنة القديمة من اشهر ممالك الارض واعظمها وتاريخها يمتد من اجيالٍ عديدة وهو مشحونٌ من الاخبار والحوادث الدموية وكثرة الشرور والظلم التي يمجُّها السمع ويكرهها الطبع ومع ان ذكرها غير مقبول تلجئنا الضرورة الى سردها واثباتها لكونها حوادث حقيقية ومن واجبات المورخ ان يذكرها كما توقعت في اوقاتها فنقول ان مدينة رومية

الشهيرة مبنية على نهر تيبر في ايطاليا على بعد ستة عشر ميلاً من البحر وسميت رومية نسبةً الى بانيها رومولوس وتاسست سنة ٧٥٣ ق م وكان رومولوس هذا رئيسًا على ثلثة الاف نفر من اللصوص وقطاع الطريق فاتوا وبنوا بعض اكواخ على تلة هناك اسمها البلاتين واقاموا حولها حائطًا لمنع مهاجمات الاعداء فكان ذلك بداية اشهر مدن العالم . قيل ان ذلك الحائط كان واطئًا حتى ان ريموس اخا رومولوس احتقرهُ لوطوءهِ وقال لاخيهِ يومًا اظن هذا السور سور مدينة فغضب اخوهُ من كلامهِ وطعنهُ بحربةٍ كانت في يدهِ فاماتهُ وكان ذلك الدم اول دم سفك وانتضحت بهِ اسوار هذه المدينة

ولما انتهى رومولوس واصحابهُ من بناء بيوتهم طلبوا لانفسهم نساء وكانت ايطاليا يومئذٍ مسكونة بعض قبائل متوحشة منهم قوم يقال لهم الصابيون كانوا قاطنين بجوار رومية فطلب رومولوس ان ياخذ من بناتهم نساء لرجالهِ فابوا ولم يجيبوهُ الى طلبهِ فحقد عليهم وصمم على هلاكهم فاعدَّ لهم يومًا وليمة عظيمة ودعاهم اليها فحضروا الى دعوتهِ مع بناتهم ونسائهم واتفق رومولوس مع اصحابهِ على علامة متى اظهرها لهم يهجمون على القوم فيفتكون بهم فلما التهى الصابيون في الفرح والملاعب واذّات المآكل والمشارب وقد اعجبهم براعة الرومانيين وخفّة حركاتهم في الرقص واللعب اظهر رومولوس تلك الاشارة الى اصحابهِ فسلّوا سيوفهم وهجموا على ضيوفهم وقتلوا اكثرهم وقبض كل من الرومانيين على امراةٍ واتخذها زوجةً لهُ . فلما بلغ طوائف الصابيين هذا الخبر القبيح استشاطوا غضبًا وانضم بعضهم الى بعض واستعدُّوا لمحاربة الرومانيين فالتقاهم رومولوس بجموعهِ وابطالهِ ولما التقى الجمعان وتقابل العسكران وكاد يقع بينهم القتال دخلت نساء الرومانيين الى ساحة الحرب وفرّقت بين الطرفين وكنَّ يصحنَ باعلى اصواتهنَّ قائلاتٍ ارجعوا ولا تضربوا بعضكم بعضًا فاية فرقة منكما انتصرت على الاخرى لا تجلب علينا سوى الحزن والاسف لاننا بنات الفرقة الواحدة ونساء الفرقة الثانية فاثر كلامهنَّ في قلوب الفريقين وراى الصابيون ان قلوب النساء قد

نطقت برجالهنَّ الرومانيين فتوقفوا عن الحرب وهكذا انتهى الامر على محبة وسلام وعقدوا معاهدةً فيما بينهم

وانتخب الشعب رومولوس ملكًا عليهم فساسهم احسن سياسة واقام لهم مجلسًا مؤلفًا من القضاة والنواب لتنظيم احوال بلادهم وفض مشاكلهم واستمر ملكًا الى ان مات وكانت مدة حكمهِ ٣٧ سنة واختلفوا في موتهِ فمنهم من زعم انهُ خطف بغتةً الى السماء وقال اخرون انهُ كان قد صمم على ان يجعل نفسهُ ملكًا مستقلاً فخلعهُ الشعب ومزقوهُ اربًا وهذا هو الاصح

وبعد موت رومولوس قام ملك ثانٍ على رومية يدعى نوما فمفيليوس وكان رجلاً حازمًا حكيمًا محبًا للسلام فسنَّ شرائع عديدة حسنة وعلم شعبهُ الزراعة وعدة صنائع نافعة وكانت مدة ملكهِ ٤٣ سنة وخلفهُ طُلس هستيليوس فكان محبا للحرب والمغازي وفي ايامهِ وقع النزاع وانتشب القتال بين الرومانيين والالبانيين الذين كانوا متجاورين ثم انتهى الحال بينهم بان كل فريق من العسكرين ينتخب ثلاثة ابطال من شجعان عسكرهِ ليبارز بعضهم بعضًا وان الذي ينتصر منهم على الاخر ينتسب اليهِ انتصار الجيش وكان في جيش الالبانيين ثلاثة اخوة اسم كل منهم كوريانيوس وكان ايضًا في جيش الرومانيين ثلاثة اسم كل منهم هوراتيوس فانتُخب هولاء الستة رجال ثلاثةٌ من كل فريق ليقوموا مقام الجيشين في القتال فركبوا خيولهم واعتقلوا سلاحهم ونزلوا الى ساحة الميدان وانتشب بينهم الضرب والطعان وكان كل فريق من الجيشين واقفًا تجاه الاخر منتظرًا النهاية فانتصر الكوريانيون في اول الامر على اخصامهم وقتلوا منهم اثنين فاستعظم اخوهما مصابهما وايقن بالتلف والعدم واذ لم يكن لهُ استطاعة على مصادمة اخصامهِ الثلاثة اطلق عنان جوادهِ وفرَّ من بينهم فجدُّوا في طلبهِ ليقتلوهُ وكانوا أُعيوا من هول المعركة مع خصميهم اللذين قتلوهما ولذلك قصَّرت خيولهم ولم يدرك هوراتيوس منهم الاَّ واحدًا بعد واحد وكان ذلك غاية مرامهِ لانهُ كان كفوًا لكل واحد بمفردهِ فلما اقترب منهُ الاول ارتد اليهِ وهجم عليهِ

وضربهُ بالسيف على عاتقهِ فالقاهُ قتيلاً ثم كرَّ على الثاني والثالث فالحقهما باخيهما فلما راى الالبانيون ما حلَّ باصحابهم من النكال خابت آمالهم فنكسوا اعلامهم والقوا سلاحهم الى الارض وسلموا نفوسهم الى اعدائهم فاستبشر الرومانيون بهذا الانتصار العظيم والتقوا هوراتيوس بالتبجيل والتعظيم لانهُ كان سببًا لانتصارهم وافتخارهم وكشف عارهم ورجعوا بهِ الى المدينة وهم يثنون عليهِ . ومما يستحق الذكر انهُ كان لهذا الشاب اخت مفرطة في الجمال كانت تحب رجلاً من الكورياتيين الثلاثة الذين قتلهم اخوها في ذلك اليوم فلما بلغها هذا الخبر مزَّقت ثيابها حزنًا واسفًا عليهِ وقصدت باب المدينة وهي تندب وتنوح فالتقت باخيها في تلك الساعة وهو راجع الى البلد فاخذت تلومهُ وتشتمهُ على قتلهِ حبيبها فغضب من اعمالها وقال لها يا عاهرة اما كان يجب عليكِ ان تندبي اخويكِ المقتولين عوضًا عن حبيبكِ وان تظهري حاسيات الفرح والسرور في انتصار شعبكِ وخلاص الأمة ثم انهُ استل سيفهُ وضربها بهِ فاماتها فحكمت عليهِ الشريعة بالموت جزاء على هذا العمل الفظيع ولكنهُ حصل على العفو بواسطة الانتصار الذي جرى على يديهِ ولكن مع ذلك كان عارهُ بقتلهِ اختهُ اعظم من الشرف والاعتبار الذي نالهُ بسبب انتصارهِ وسميت تلك الحرب حرب الهوراتيين والكورياتيين نسبةً الى اسماء الابطال المار ذكرهم

وبعد موت طُلُّس هستيليوس انتخب الرومانيون انكوس مرتيوس ملكًا عليهم ومن بعدهِ خلفهُ تركوين الاكبر وكان ابوهُ تاجرًا غنيًا ثم جلس بعدهُ على سرير الملك رجلٌ يقال لهُ سرفيوس فحكم ٤٤ سنة ثم قتلهُ زوج ابنتهِ المدعو تركوين الثاني وجلس مكانهُ فلما بلغ زوجتهُ ابنة الملك المقتول هذا الخبر وكان اسمها طليا فرحت فرحًا عظيمًا بانتصار زوجها على ابيها حبًا بالملك والرياسة وركبت من وقتها في مركبتها وقصدت دار الولاية لتلاقي زوجها الشرير وتهنئهُ بالملك وبينما كانت سائرة في احدى الشوارع التقت بجثة ابيها مطروحة هناك فلما راى سائق المركبة جثة الملك على تلك الحالة اضطرب وخاف وعول على

الرجوع الى الوراء فمنعتهُ وشتمتهُ وامرتهُ ان يتقدم واذ كان الشارع ضيقًا مرت المركبة على جثة الملك فداستها الخيل وتلطخت عجلاتها بدم الملك ولم تبالِ طليا بشيءٍ من ذلك ولما تمكن تركوين من الولاية سلك على سرير المملكة كما سلك اسلافهُ بالجور والظلم وارتكاب الفواحش فلقبهُ الشعب بتركوين المتكبر وكان الرومانيون يكرهونهُ جدًّا . ويقال ان امراةً دخلت عليهِ ذات يوم الى الديوان وفي يدها تسعة مجلدات من الكتب واعرضتها عليهِ للبيع وطلبت في ثمنها مبلغًا فاحشًا واذ كانت الكتب المذكورة مجهولة عندهُ استعظم ثمنها وامتنع عن مشتراها فرجعت المراة بالكتب الى دارها واحرقت منها ثلثة ثم قصدتهُ في اليوم الثاني واعرضت عليهِ الستة الباقية بنفس الثمن الاول فامتنع ايضًا فتركتهُ ورجعت اليهِ في اليوم الثالث ومعها ثلثة كتب فقط واعرضتها عليهِ بالثمن الاول فتاثر الملك وتعجب من هذا الامر وصمم على ان يشتري الكتب منها ليرى ما فيها واذا بالمراة القتهم بين يديهِ واختفت في الحال فانذهل الملك وجميع من حضر من الاكابر والاعيان ففتحوا الكتب وطالعوها فوجدوها رسائل واشارات تتضمن على حكم ونبوات مولفة من بعض النساء فاحترمها الرومانيون غاية الاحترام واعتبروها كآيات منزلة وحفظوها في خزائنهم وكانوا يتلونها بكل خشوع واعتبار كلما وقعوا في شدة او ضيق معتقدين بانها تنبيهم بما يحدث عليهم في الازمنة المستقبلة

وكان عاقبة امر تركوين المذكور انهُ طرد مع عائلتهِ من رومية بعد ان حكم نحو عشرين سنة وكان السبب في ذلك ابنهُ سكستوس فانهُ كان ذميمًا قبيحًا الى الغاية فمقتهُ الشعب حتى لم يعد يمكنهم ان يحتملوا قبائحهُ ومعاصيهُ فنفوهُ مع ابيهِ وكان طردهما من رومية سنة ٥٠٩ ق م واستلم زمام الحكومة بعد تركوين اثنان من القضاة وتلقب كل واحدٍ منهما بلقب قنصل اي منفذ الاحكام وكان الشعب ينتخبون هولاء القناصل في كل سنة واول من تعين لهذه الوظيفة بروتوس وكولاتينوس فكان بروتوس عادلاً مهيبًا محبًّا للوطن حتى انهُ حكم بالموت على

ابنيهِ الاثنين بسبب جنايةٍ ارتكباها ولم يشفق عليهما

الباب الثاني

في ذكر كوريولانوس واستيلاء الغاليين على رومية وحروب قرطاجنة الثلاث

وكان سكان رومية يومئذٍ منقسمين الى حزبين الاول من الاشراف والثاني من العامة وكان جميع ارباب المجلس العالي واكثر الاكابر والعُمَد من القسم الاول فكان انتخاب القناصل منوطًا لهم ولذلك قويت شوكتهم وعظمت سطوتهم وصاروا اصحاب الحل والربط فنشأ عن ذلك فتن ومشاجرات بين الطرفين حتى كادت تقع بينهما الحروب ولكنهما اتفقا اخيرًا بانهُ في كل سنة يُنتخَب خمسة اشخاص من وجوه العامة بوظيفة قضاة في المحاكم وبهذه الواسطة تحسنت احوال العامة وارتفع شانهم وانحطت سطوة الاشراف بهذا التدبير ثم اشتدت البغضة والعداوة بين الفريقين . وفي اثناء ذلك نهض رجلٌ من الاشراف يقال لهُ كوريولانوس وكان بطلاً صنديدًا وجبارًا عنيدًا فشرع في ابطال منصب القضاة وبذل في ذلك غاية اجتهادهِ فقاومهُ العامة وحاربوهُ ولما تمكنوا منهُ نفوهُ من البلاد فذهب الى مدينة انتيوم والتصق بشعب الفولسيين وكانت هذه الامة من اشد الطوائف عداوةً للرومانيين فاخذ يحرضهم وينشطهم على محاربة قومهِ ووعدهم بالغلبة والانتصار فانقادوا اليهِ واجابوهُ الى ذلك واعرضوا عليهِ فرسانهم وابطالهم فانتخب منهم جيشًا عظيمًا وقصد بهِ مدينة رومية ولما اقترب منها وبلغ الرومانيين خبرهُ خافوا واضطربوا وارسلوا اليهِ في الحال بعضًا من اعيان شيوخهم لاستعطاف خاطرهِ فلم يصغَ لكلامهم واستمرَّ في مسيرهِ ثمَّ ارسلوا اليهِ جماعةً من خواص كهنتهم وعند وصولهم اليهِ وقعوا على قدميهِ والتمسوا منهُ ان يتحوَّل عنهم ويغض النظر عن قبائحهم فلم يتمكنوا من تغيير

مقاصدهِ ولما اقترب من رومية نزل بعساكرهِ تجاه الاسوار والحصون واخذ يتفكر في ايجاد الطرائق المناسبة لمهاجمة المدينة فبينما هو كذالك اذ اتاهُ سفارةٌ ثالثة مؤلّفة من اشراف نساء الرومانيين وهنَّ لابسات ثياب الاحزان وكانت في مقدمتهنَّ امهُ فيتوريا وفرجيليا امراتهُ فاستغاثتا بهِ وتضرعتا اليهِ ان يكفَّ عن هذا العمل ولا يكون سبباً لخراب وطنهِ وهلاك قومهِ فلما شاهد تذللهما شفق عليهما والتفت الى امهِ وقال لها لقد انقذتِ يا اماه مدينة رومية بتوسلاتكِ ولكنكِ سوف تعدمين ولدكِ هذا عن قريب ثمَّ نهض في الحال وارتد راجعاً بالعساكر الى مدينة انتيوم قصبة مملكة الفولسيين فلما بلغ القوم رجوعهُ عن رومية حقدوا عليهِ وصمموا على قتلهِ وعند وصولهِ الى ابواب المدينة اماتوهُ .

ثم انهُ مع تمادي الزمان انتظم حال الدولة الرومانية وتعاظم امرها وقويت شوكتها في الداخل والخارج وازداد عدد اهاليها وبقيت في رونقها وزهوتها الى ان دهمها جيش الغاليين سكان فرانسا سنة ٣٨٩ ق م تحت قيادة الجنرال برِنّوس وحاصروا رومية ليفتحوها فدافعت عن نفسها مدة طويلة ثم افتتحوها بعد مهاجمات عديدة وعند دخول القائد المذكور الى المدينة التقى بجماعةٍ من الشيوخ جالسين في دار جميلة على كراسي من عاج وفي يد كلٍّ منهم عصاً من عاج تلوح على وجوههم سمات الهيبة والشجاعة فاندهش القائد وباقي العسكر من هذا المنظر ولاسيما من ثباتهم وعدم فرارهم فتقدم احد الجند وقبض على لحية احدهم وكان يقال لهُ بابيريوس فانتشاط الرجل غضباً من صنيعهِ هذا وضرب الجندي بعصاهُ فعند ذلك هجمت العساكر على بابيريوس وجماعتهِ وقتلوهم جميعاً ومن هناك انتشروا في المدينة واحرقوا اكثرها . وكانت رومية يومئذٍ مدينة عظيمة فيها ابنية فاخرة وقصور شاهقة اعظمها وامنعها قصر الكابيتول وهو اشبه بقلعة حصينة فلما افتتح الغاليون المدينة ودخلوها تجمَّع في هذا القصر المذكور اكابر شجعان الرومانيين وحاصروا فيهِ فهجم عليهم مواكب الاعداء كالجراد واحاطوا بذلك القصر فلم يتمكنوا منهُ واستمر الحال على مثل ذلك مدةً وفي بعض الليالي

بينما كان عسكر الغاليين قد اقترب من ابواب الحصن والحراس نيام استفاق رفٌ من الاوز في احد الهياكل القريبة من ذلك المكان فايقظ بصياحهِ الحراس فصدوا القوم عن التقدم واحترم الرومانيون هذا النوع من الطير وحرّموا على انفسهم اكلهُ من ذلك اليوم . ولم يمضِ على ذلك وقت طويل حتى قام كاملوس احد ابطال الرومانيين وانتصر على الغاليين وفتك بهم حتى قيل انهُ لم يرجع احدٌ منهم الى بلادهِ

وكان الرومانيون يصرفون اكثر اوقاتهم في محاربة الدول والممالك الاجنبية فبرعوا في فن الحرب وكانوا كثيرًا مايظفرون في حروبهم ومغازيهم حتى انهم اخضعوا اخيرًا جميع ولايات وممالك ايطاليا واستولوا عليها

وكانت قرطاجنة الدّ عدو لرومية وهي مدينة حصينة مبنية على شطوط افريقية الشمالية على مسافة اربعمائة ميل الى جنوبي رومية فاتصلت بينهما العداوة الى النزاع والقتال وجرى بين الفريقين ثلاث حروب عظيمة تُعرف بالحروب البونيكية فُقد فيها جيشٌ كثيرٌ من الطرفين وقد استوفيناها في تاريخ قرطاجنة فلا حاجة لتكرارها هنا وكان الرومانيون في حربهم الاخيرة مع اهل قرطاجنة قد فازوا بالنجاح والغلبة بواسطة قائدهم الشجاع المشهور المدعو سيبيو فانهُ فتك بجيش الاعداء فتكًا عظيمًا ودخل مدينة قرطاجنة سنة ١٤٦ ق م واحرقها بالنار ورجع الى رومية بالغنائم والاموال . وعند وصولهِ اليها البسوهُ اكاليل الغلبة والانتصار التي هي من اعظم جوائزهم وساروا بهِ الى الكابيتول بموكب عظيم حسب العوائد الجارية عندهم

وكانت العادة بين الرومانيين عند وصول القائد المنتصر الى رومية انهُ يقف قليلاً في ميدان كمبيوس مرتيوس وهي ساحة خارج المدينة وهناك يلبسونهُ ثوبًا ارجوانيًا منسوجًا بالذهب ويضعون على راسهِ نسرًا من ذهب ثم يدخلونهُ الى المركبة المعدَّة لهُ محاطة باصحابهِ واقاربهِ وهم في الملابس البيضاء ووراءهم القناصل وارباب المجلس في ملابسهم الرسمية وكان الجيش المنصور يمشي من ورائهم

لابسًا خوذًا مكللة بغصون الدفل وحاملو البيارق رافعون في ايديهم نسورًا من الفضة مطلية بالذهب عوضًا عن البيارق ثم ياتون بالثيران التي برسم الذبح فيطلون قرونها بالذهب ويضعون على رؤوسها اكاليل مختلفة الاشكال وبعد ذلك ياتون بالغنيمة الماخوذة من العدو مع تاج او اسلحة الملك او القائد المغلوب ويسيرون بها امامهم كما حصل عند دخول تيطس بالظفر الى رومية بعد غلبتهِ على اورشليم فانهُ حُملت امامهُ المنارة الذهبية وتابوت العهد وباقي الغنيمة التي اخذها من الهيكل. وفي اثناء الحروب التي أُقيمت على انطيوخوس ومتريداتس وغيرهما من الملوك المشرقيين كانوا يقودون في المواكب جمالاً وافيالاً ونمورًا واسودًا وغيرها من الوحوش الضارية واحيانًا كانوا ياتون بها الى المراسح حيث كانوا يتممون احتفالات الفرح بانواع شتى من الملاعب. ثم بعد الغنائم المذكورة كانت تمشي فرقة من الاسرى وبينهم الملوك والرجال المأسورون والنساء والاولاد جميعهم مقيدون بالسلاسل الثقيلة فكانوا احيانًا يزدرون بهم ويقتلونهم بلا رحمة واحيانًا يبقونهم باقي ايام حياتهم في حالة العبودية ويسلمونهم لبعض الرومانيين الفاقدين اصحابهم في الحرب لينتقموا منهم ويعذبونهم ثم من بعد هذه الفرقة كانت تدق آلات موسيقية بنغمات مرتفعة لتزيل تنهدات وصراخ اولئك المنكودي الحظ وامامهم جماعة من الرقاصين واصحاب المساخر ينطنطون ويهرولون وهكذا كانوا يتقدمون بالقائد المنتصر مارّين في جميع اسواق رومية الى ان يصلوا بهِ الى الكابيتول

الباب الثالث

في اخبار سِلاَّ وماريوس الى قتل يوليوس قيصر سنة ٤٤ ق م

وما زال الرومانيون يفتحون البلاد والممالك الى ان اصبحت اسبانيا باسرها ولاية رومانية ثم اثاروا حربًا على مملكة نوميديا في افريقية المعروفة الآن بجزائر

الغرب فافتتحوها واستاسروا ملكها جوكرثا واتوا بهِ الى رومية فاماتوهُ في السجن جوعًا وعطشًا

ثم في سنة ٩١ ق م حاربوا ولايات ايطاليا المجاورة لهم فاخضعوها . ثم اقاموا حربًا على متريدانس ملك بطس في اسيا الصغرى ولم ينتصروا عليهِ انتصارًا تامًا الاَّ بعد مرور اربعين سنة وفي اثناء تلك الحرب قام في رومية قائدان من اهل الشهرة وهما ماريوس وسلاَّ فكان ماريوس جنديًا شجاعًا ومع شجاعتهِ وبراعتهِ فصيحًا وذا تربية حسنة فتحزب لكلٍّ من هذين القائدين قومٌ من الاهالي وكانت قد وقعت بينهما الغيرة والبغضة حتى الجأَها الحال الى القتال فحدث من ذلك حربٌ اهلية . ومن غريب الاتفاق الذي حدث في اثناء هذه الحروب ان رجلاً من عسكر سلاَّ المذكور كان قد قتل جنديًا من جنود ماريوس وعندما نزع عن راسهِ الخوذة وجدهُ انهُ اخوهُ فحزن من هذه الصدفة حزنًا شديدًا ومن فرط غمهِ على فقد اخيهِ قتل نفسهُ بيدهِ اسفًا وحسرة . واستمر القتال بين الفريقين مدة طويلة وحدث بينهما عدة وقائع فكانت الدائرة اولاً على ماريوس وجموعهِ ولكنهُ انتصر فيما بعد على خصمهِ وهزمهُ واستولى على رومية ثم اخذ ينتقم من اخصامهِ ومقاوميهِ فحدث مذبحة عظيمة بين الاهالي قتل فيها عددٌ كثيرٌ من ارباب الوظائف والمجالس واشراف الناس جهارًا في الاسواق . واما ماريوس فلم يتخلص من العقاب الذي استحقهُ بارتكابهِ هذا العمل لان ضميرهُ كان يوبخهُ ليلاً ونهارًا توبيخًا شديدًا ولاجل التخلص من ذلك انصبَّ على شرب المسكرات فكان يتناول منها كمية وافرة ليسلّي نفسهُ ولم تكن الاَّ مدة قصيرة حتى أُصيب بحمى شديدة انتهت بها حياتهُ . ولما بلغ سلاَّ موتهُ قصد رومية بجشٍ عظيم فامتلكها ودعا نفسهُ الحاكم المطلق وقد سلك مسلك سالفهِ في قتل من كان متحزبًا عليهِ من الاهالي فحكم مدة قصيرة ثم خلع نفسهُ عن معاطاة الاحكام ففرح الجميع بذلك لانهُ كان مبغضًا ومكروهًا من اكثر الناس وبعد تنازلهِ ببرهة وجيزة مات

فلو احبَّ الرومانيون الحرية كالايام السابقة لما خضعوا لظلم وجور سلاَّ

وماريوس ولكنهم التهوا وتولعوا باللذات الناشئة عن الغنى الذي حصلوا عليهِ بواسطة فتوحاتهم وانتصاراتهم على ممالك الارض فالتهوا بالعرض عن الجوهر وصرفوا النظر عن صوالحهم الحقيقية فكانوا يخضعون لروسائهم وكبرائهم الذين قادوهم في تلك الانتصارات العظيمة ويقدمون لهم احترامًا زائدًا فوق الوصف

وبعد موت سلاَّ وماريوس ظهر في رومية قائدان عظيمان احدهما يدعى بومبي والآخر يوليوس وكان بومبي اكبر سنًّا واشهر لانهُ كان قد افتتح خمس عشرة مملكة واخذ ثمان مئة مدينة وتغلب على مثر يدانس اما يوليوس فلم يكن اقل همة وفروسية منهُ فانهُ هو ايضًا اثار حروبًا كثيرة على فرانسا وجرمانيا وبريتانيا ويقال انهُ انتصر في حروبهِ على ثلاثة ملايين من الناس وقتل نحو مليون منهم . ولما قويت شوكة هذين الاميرين وشاع بين الناس فخرهما وبطشهما كسا لفيهما سلاَّ وماريوس ضاقت عليهما البلاد بحيث ان كل الممالك الرومانية لم تعد تسعهما فداخلهما الحسد والطمع وظهرت بينهما العداوة وكان قد انقسم شعب رومية الى حزبين بحسب اغراض هذين القائدين فانفرد كل منهما بجزبهِ واقتتلا في فرسا ليا من اعمال تساليا وكان قسم كبير من جيش بومبي مولفًا من اشراف الرومانيين الاحداث فلم يستطيعوا الوقوف امام فرسان يوليوس فولوا منهزمين خوفًا من العدم والتلف وتمكن يوليوس من الانتصار على عدوهِ انتصارًا عظيمًا وهرب بومبي الى ارض مصر فقتل هناك واتي براسهِ الى يوليوس فحزن على موتهِ وناح عليهِ ولكنهُ لم يرد ان يراهُ . ولما بلغ ارباب المجلس الروماني انتصار يوليوس قدموا اصواتًا احتفالية لالهتهم ومنحوهُ السلطنة المطلقة ما دام حيًا ولقبوهُ بقيصر وحكموا على شخصهِ بالقداسة فصنعوا لهُ تمثالاً واقاموهُ بين تماثيل الالهة والابطال في الكابيتول بالقرب من تماثيل المشتري وكتبوا عليهِ هذا تمثال قيصر نصف الاله فانظر الى غباوة الرومانيين وجهلهم في ذلك الزمان والى الدرجة التي توصلوا اليها من الاستعباد والتوحش . ولما راى قيصر علو رتبتهِ ورفعة مكانهِ ومنزلتهِ في اعين الشعب لم يبقَ عليهِ مما كان يرغبهُ ويشتهيهِ الاَّ شيء واحد وهو

ان يسمي نفسهُ ملكًا فوجه افكارهُ وقواهُ لاستمالة رضا الشعب والعساكر واخذ ينفق مبالغ وافرة على الولائم والضيافات وانواع الافراح والمسرات التي كان يدعو اليها جمهور الناس لتمليقهم واستجلاب خواطرهم لنحوهِ فمن ذلك وليمة عظيمة دُعي اليها الجيش الروماني جميعهُ فكان ممدودًا في اسواق رومية اثنان وعشرون الف مائدة مملوة بالاطعمة اللذيذة والمشروبات الفاخرة ولم يمنع احدٌ من الجلوس والمناولة سواءٌ كان صعلوكًا ام حقيرًا . واذ كان الرومانيون قد فقدوا تلك الحاسيات الشريفة التي كانت عند اسلافهم ارتضوا ان يكونوا تحت نير عبودية قيصرهم بشرط ان يحصلوا على الاطعمة اللذيذة والمناظر المبهجة فسلموا لهُ بما اراد. ولا ينكر بان قيصر كان رجلاً جليلاً مهيبًا متصفًا بالصفات الحميدة والحذاقة ولذلك نسي الشعب بانهُ كان قد خدعهم بهذه التملقات واعدمهم حرية بلادهم فكانوا يسرون في مشاهدتهِ في المواسم والولائم العمومية جالسًا على عرشٍ من ذهب وعلى راسهِ اكليل مرصع بالجواهر النفيسة

ولكن مع كل ذلك لم يخلُ الامر من وجود بعض الاشخاص من الرومانيين الذين استمروا متمسكين بمحبة الحرية محبة مجرَّدة فكان بعضهم يبغض قيصر لظلمهِ وبعضهم حسدًا وغيرةً من تقدمهِ فاتفقوا على قتلهِ واسرعوا في استعمال الوسائط على هلاكهِ واعدامهِ وكان رئيسا هذه الفتنة رجلين احدهما يدعى بروتوس والثاني كاسيوس اما بروتوس فكان محبًّا لقيصر ومحبوبًا منهُ ولكنهُ راى ان واجباتهِ لنحو تحرير وطنهِ تلزمهُ ان يتظاهر بقتل صديقهِ قيصر واما كاسيوس فمع انهُ كان موافقًا بروتوس من جهة تحرير البلاد من نير العبودية كان لهُ اسبابٌ اخرى تحركهُ للقيام وهي انهُ كان يبغض قيصر ويتمنى هلاكهُ حسدًا على عظمتهِ . واشترك معهما في هذا العمل ستون رجلاً قد صمموا على اجراء مقاصدهم جهارًا في دار المجلس العالي خلافًا للاكثرين الذين كانوا قد اتفقوا على قتلهِ سرًّا عند انتصاف الليل . وكانت العلامة بينهم انهُ عند قدوم قيصر الى دار الولاية يعطيهِ احدهم رقعةً كانهُ طالب حاجة فحينئذٍ يجمعون عليهِ ويقتلونهُ . ولما كان

الصباح الذي عينوهُ لقتلهِ خرج قيصر من قصرهِ حسب عادتهِ محاطاً بجمهور غفير من اصدقائهِ المحتالين وعند نزولهِ الدرج خارج باب القصر تقدم اليهِ رجلٌ من المنجمين اسمهُ ارتمدوروس وناولهُ رقعة تتضمن خبر تلك الفتنة فتناولها منهُ وقد ظن انها عريضة فسلمها لاحد كتبتهِ ولم يقراها ولو قراها لامكنهُ ان يتخلص من الموت ثم مرَّ قيصر بموكبهِ الخاص في اسواق رومية والناس يقفون من حوانيتهم على الجانبين اجلالاً لهُ ويهتفون في مديحهِ ويدعون لهُ بطول العمر فخامرتهُ الكبرياء واستعظم بنفسهِ شاعراً بانهُ قد صار من اعظم العالم واستمر في مسيرهِ الى ان وصل الى دار المجلس العالي حيث كان مصفوفاً على تماثيل كثيرة من مشاهير رجال الرومانيين ومن جملتهم تمثال القائد بومبي الذي قد اتى براسهِ الى قيصر من مصر وعند ما اقترب من هذا التمثال تقدم اليهِ احد المشتركين في هذا الفساد يقال لهُ متلوس سمبر فقدم لهُ اعراضاً وجثا امامهُ اخذاً بطرف ردائهِ كانهُ يستغيث بهِ في قضاء حاجة لهُ فوقف الملك ليرى ما في تلك الورقة ولم يعلم انها حيلة وعلامة اتفقوا عليها لاتمام مقاصدهم الاّ انهُ لم ينتهِ منها حتى وافاهُ رجل اسرع من البرق وطعنهُ بخنجر في كتفهِ فالتفت قيصر اليهِ واختطف الخنجر من يدهِ وشتمهُ فعند ذلك هجم عليهِ الباقون فدافع عن نفسهِ بجسارة ونشاط لا مزيد عليهما ثم ظهر بروتوس من بين الجمهور وطعنهُ بخنجرهِ وقد ذكرنا ما كان بينهُ وبين قيصر من الصداقة والمودة فلما رآهُ قد رفع يدهُ عليهِ توقف عن المدافعة ونظر اليهِ بعين التوبيخ قائلاً وانت ايضاً يا بروتوس ثم ستر وجههُ بطرف ثوبهِ وسقط على الارض ميتاً امام تمثال بومبي فغمس اولئك العصاة اسلحتهم في دمهِ المسفوك وخاطب بروتوس سيسرون احد ارباب المجلس الذي كان خطيباً شهيراً ومحبّاً للوطن قائلاً لهُ تهلل وافرح يا ابا وطننا لان رومية قد تحرَّرت الآن. وكان وقوع هذه الحادثة سنة ٤٤ ق م

الباب الرابع

في حكم اوغسطوس قيصر وامتداد السلطنة في ايامهِ مع ذكر الوسائط التي سببت لها هذه الشهرة والقوة

وبعد موت يوليوس قيصر حدث خلل عظيم في احكام رومية فنهض اصدقاؤُهُ واعوانهُ لاخذ ثارهِ والانتقام من المذنبين فاضطر بروتوس وكاسيوس وغيرها من المشتركين في الفتنة المار ذكرها ان يهربوا من المدينة وكان ليوليوس قيصر المقتول ابن اخت اسمهُ اوكتافيوس كان صغيرًا لما مات ابوهُ فتبناهُ خالهُ قيصر واعتنى بتربيتهِ وارسلهُ الى بلاد اليونان للتعليم والتهذيب فلما قتل خالهُ المذكور في رومية كما تقدم كان عمرهُ ثماني عشرة سنة وعند ما بلغهُ هذا الخبر حضر الى رومية ليستولي على ميراث خالهِ فاعطاهُ مرقس انطونيوس احد روساء الجمهورية جزءا عظيمًا من الميراث وتزوج باختهِ اوكطاوة ثم اشركهُ معهُ في رياسة الجمهورية الرومانية واشركا اميرًا ثالثًا معهما يقال لهُ لبيدوس وكانوا مثل يوليوس قيصر يكرهون الحكومة الجمهورية ويميلون الى المذهب الملكي فاتفقوا على تشتيت شمل اعدائهم وشرعوا في توطيد سلطنتهم واخذوا يقتلون كل من كان مقاومًا لهم فكتبوا رقعة تتضمن ٣٠٠ اسم من اعضاء المجلس العالي والفين من اعيان الناس وسلموها لبعض من يعتمدون عليهم وغرُّوهم بالجوائز على قتلهم وكانوا يظهرون مزيد الفرح والسرور عندما يأتيهم احد براس مَنْ كان اسمهُ مكتوبًا في تلك القائمة فكان اكثرهم يقتلون اباءهم واعمامهم ومن يعز عليهم طمعًا ورغبةً في المال . اما بروتوس وكاسيوس فكانا قد قصدا بلاد اليونان والتجآ الى ملكها واستعانا بهِ على حرب رومية فامدَّهما بمئة الف مقاتل من شجعان قومهِ فانثنيا راجعين على الفور الى رومية بهذا الجيش العرمرم لتخليص

المملكة من ايدي المغتصبين. وكان قد بلغ خبرهما مرقس انطونيوس واوكتافيوس فخرجا لقتالهما بالجيوش الرومانية فالتقيا بهما في اطراف فيلبي ولما وقعت العين على العين اشتبك القتال بين الفريقين فكانت الدائرة على بروتوس وكاسيوس وانهزمت جموعهما وتبددت فالتزما ان يقتلا نفسيهما خوفًا من الاسر والانتقام وبموتهما راقت احوال المملكة للشركاء الثلاثة ثم اتفق اوكتافيوس وانطونيوس على طرد شريكهما الثالث فطرداهُ من شراكتهما وصفا لهما الوقت وراق ثم وقع بينهما الاختلاف والنزاع بسبب تزوج انطونيوس بكليوباترا ملكة مصر واستهزائهِ باخت اوكتافيوس التي كان متزوجًا بها فحاربا بعضهما بعضًا وانتهى الامر بانتصار اوكتافيوس على انطونيوس في بلاد مصر فقتل انطونيوس نفسهُ بيدهِ هناك فاصبح اوكتافيوس بدون مقاوم ولا منازع واستقل بنفسهِ على احكام رومية واتخذ لنفسهِ لقب امبراطور واشتهر باسم قيصر وتسمى ايضًا اوغسطوس ومعناهُ الموقَّر وهي القابٌ ثلاثة مترادفة على معنى واحد تطلق عند الرومانيين على كل ملكٍ من ملوكهم وكان المجلس العالي ايضًا اعطاهُ لقب باتر باتريا اي ابي وطنهِ وغير ذلك من الالقاب على سبيل التفخيم والتعظيم ومن ذلك الوقت تحوَّلت الجمهورية الرومانية الى دولة ملكية. وكان اوغسطوس من افراد الملوك عادلاً حليمًا يميل الى المعارف والآداب فرتَّب القوانين العادلة لراحة الاهالي وافتتح ممالك واقاليم كثيرة بشجاعة قوادهِ وامرائهِ لاسيما قائدهُ المسمى اغريبا فانهُ كان من افراد الابطال ثم استولى على مصر وغيرها وكان مع سطوتهِ وابهتهِ وديعًا انيسًا ومع انهُ لم يكن يومئذٍ في رومية الاَّ قليلٌ من اهل الصلاح ومحبي السلام تصرَّف هذا الملك باستعمال سطوتهِ على طريقة اصلح مما استعملها كثيرون غيرهُ لانهُ في كل مدة حكمهِ كانت رومية في غاية الهدو والسلام وفي ايامهِ عاش فيرجيل وهوراس واوفيد وغيرهم من مشاهير الشعراء وحازوا على انعامهِ وشملهم بانظارهِ ولذلك مدحوهُ في اشعارهم واطنبوا في وصفهِ وعاش اوغسطس قيصر المذكور عمرًا طويلاً ثم مات سنة ١٤ بعد الميلاد ولهُ من العمر ست وسبعون سنة بعد ان حكم

احدى واربعين سنة حكومة ملكية فضلاً عن مدة الرياسة الجمهورية. وكان العامل على اليهود بالقدس من قبلهِ هيرودس وفي مدة حكمهِ صار الاكتتاب العمومي المذكور في الانجيل الذي بسببهِ ذهب يوسف ومريم الى بيت لحم حيث وُلد المسيح

كانت السلطنة الرومانية في ايام اوغسطوس في اعظم واعلى درجة من زهو بهاوغناها وكانت متسلطة على جميع شعوب اوروبا ما عدا بعض القبائل في الجهات الشمالية الذين استمروا محافظين على استقلاليتهم . اما الممالك التي كانت تحت تصرف احكام الرومانيين في اوروبا فهي انكلترا وفرانسا واسبانيا والمانيا وجميع ولايات ايطاليا واليونان وتركيا في اوروبا وغيرها وكانوا ايضاً يحكمون على اكثر البلدان الواقعة بين اسيا الصغرى غرباً والهند شرقاً مع كل اسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وغيرها وقد امتدت قوتهم وقويت شوكتهم بهذا المقدار حتى انهم اخضعوا اكثر ممالك افريقية كمصر ومراكش والحبشة وغيرها وكان لهم في كل ولاية ومملكة من هذه الممالك المذكورة ولاة وحكام وعساكر رومانية تسوسها وتحفظها وبالحقيقة ان هذا الامر من العجب العجب لانهُ لم يتيسر لغيرهم من دول الارض ما تيسَّر لهم من الفتوحات والانتصارات وليس ذلك الاَّ بواسطة ادارة حكامهم وعلو همَّة امَّتهم . وفي ذلك العصر تحسَّنت صنائع البناء والنقش والتصوير وتوصَّلت الى درجة سامية من الكمال وامتدت في جميع اطراف السلطنة . وكانت المدن والبلدان مزينة بالهياكل المبهجة والقصور المرمرية المزخرفة المملوءة من التماثيل الجميلة والصور الثمينة فاقاموا في جميع البلدان التي افتتحها الرومانيون ابنية عامة كثيرة النفع كتحسين الطرق وقيام الجسور المتينة وبناء الاقنية لجلب الماء الى المدن والى يومنا هذا كثيرٌ من بقايا تلك المشروعات والعمليات العظيمة في اغلب البلدان التي وقعت تحت ايدي ذلك الشعب العظيم مع انها أُقيمت منذ الفي سنة تقريباً . واما مدينة رومية فكانت من اعظم مدن العالم وابهجها وكانت دائرتها في زمن اوغسطوس ٥٠ ميلاً وعدد سكانها اربعة ملايين وكانت محاطة باسوار عالية متينة البناء نظير

باقي المدن القديمة لان الضرورة يومئذٍ الزمتهم الى ذلك لاجل وقاية المدن وصيانتها من هجمات العدو. وكان لها ثلاثون بابًا وكانت من عجائب الزمان منظرًا وبهجةً حتى يكاد الواصف يعجز عن وصف زخارفها وحسن رونقها وزينتها لان القواد الذين افتتحوا الممالك الاجنبية بانتصاراتهم كانوا يأتون بجميع الامتعة والتحف النفيسة العجيبة التي يحوزون عليها في مغازيهم ويضعونها في قصور هذه المدينة وهياكلها زينةً لها فكان فيها تماثيل جاءُوا بها من بلاد اليونان واعمدة من مصر وامتعة مجنّسة عجيبة وغريبة من اسيا وغير ذلك من الفضة والذهب والحجارة الكريمة التي كانوا يجمعونها من اقطار المسكونة . وكان فيها قصور جميلة وهياكل مستظرفة اكثرها من المرمر المنقوش نقشًا جميلاً ومراسح ومحلاَّت مدهشة للمشاهد والملاهي العمومية وغير ذلك من الابنية الفاخرة التي تدهش الابصار وتحير بحسنها الافكار وبالاجمال كانت مشحونة بغنائم وظرائف الدنيا باسرها. اما الوسائط التي استعملها الرومانيون للحصول على هذه الشهرة والافتخار فهي الفتوحات والممالك التي استولوا عليها والغنائم الكثيرة التي اكتسبوها بواسطة قساوتهم البربرية في قتل اعدائهم وسلب اموالهم بدون ادنى رحمة ولا شفقة

ولا يُنكَر ان الرومانيين نظير اليونانيين والفرس والمصريين وغيرهم من الامم القديمة كانوا يتصورون تصورات من جهة الفضيلة فكانوا يعملون احيانًا اعمالاً حسنة تستحق المدح ولكنهم كانوا نظير الشعوب المذكورين فاقدي الاداب الحقيقية التي تستدعي معاملة الناس على نفس الاسلوب الذي نريدهم ان يعاملونا بهِ . وكانت رومية ايضًا نظير غيرها من الامم القديمة فاقدة تلك الديانة الحقيقية التي تعلم الناس ان كل قوة غير مبنيّة على مبادي العدالة والاستقامة لا بد من سقوطها وانقراضها فلذلك كانت فاقدة المجد الحقيقي لانها لم تحصل على تلك العظمة والشهرة الاَّ بواسطة سفك الدماء والنهب ولكن مع كل ذلك استمرت زمنًا طويلاً في عظمتها وبهجتها بعد اوغسطوس قيصر وزادت

تنعمات اغنيائها واشرافها وتوصلت في المعارف والفنون الى درجة سامية

الباب الخامس

في تعداد امبراطرة الرومانيين وبعض اخبارهم

وبعد موت اوغسطوس خلفهُ طيباريوس سنة ١٤ للميلاد وكان رجلاً جافيًا فاتكًا شرس الطبع قبيح المنظر اقرع الراس مولعًا بشرب المسكرات وكان فيهِ تيهٌ وتعاظم ولذلك كان يفتخر على مَن تقدمهُ من الملوك السالفين وكان كثيرًا ما يقول في خطبهِ انا مولى الرعايا وقائد القواد وملك الاهالي وسيدهم واستوزر مَن يلائم طبعهُ من الوزراء والامراء فاشاروا عليهِ بقتل عائلة اوغسطوس فقتل اكثرهم وحكم على كثيرين من الناس بالموت بدون حجة ظاهرة والقى جثثهم في الازقة والاسواق ليشاهدها الناس ومن جملة قبائحهِ انهُ امر يومًا بقتل امراة مسكينة لانها ناحت على قتل ابنها . وكان مع بطشهِ وفتكهِ في اضطراب وارتياب عظيم خوفًا على نفسهِ من القتل فكان ضميرهُ يوسوسهُ ويقلقهُ ومع اتصافهِ بهذه الخصال الذميمة كان خبيرًا بالسياسة والتدبير فكانت ايامهُ صلحًا وسلامًا مع باقي الممالك الاجنبية ولم يحصل في مملكتهِ ادنى اختلال في النظامات . وفي ايامهِ صلب السيد المسيح في اليهودية التي كانت وقتئذٍ ولاية رومانية . واليهِ تُنسب مدينة طبرية التي بنواحي القدس بناها هيرودس انتيباس بن هيرودس الكبير وكان عاملاً لهُ على اليهودية وسماها باسمهِ . ومرض هذا الامبراطور مرضًا شديدًا واذ كان مشرفًا على الصحة خنقهُ الحرس بفراشهِ فمات

ثم خلفهُ كليغولا وهو ثالث امبراطور من امبراطرة الرومانيين بعد اوغسطوس تولى سنة ٣٧ بعد وفاة عمهِ طيباريوس فاستبشر بهِ الرومانيون لانهُ كان في اول حكمهِ على جانب عظيم من الاستقامة والعدالة ثم لما مرض

وشُفي من مرضهِ استحالت استقامتهُ وعدالتهُ الى التعدي والظلم وارتكاب الكبائر وسفك الدماء . وكان يحب اهل الملاهي والسخرية واللعب ويستحضرهم الى ديوانهِ ويدعو لذلك ارباب المجلس ويظهر لهم الفرح والانشراح وكان كل من رفع صوتهُ من الوزراء والاعيان في هذا الاجتماع يأْمرُ بضربهِ . ومن غريب اعمالهِ انهُ كان قد اصطنع لهُ اصطبلاً من المرمر لفرسٍ كان يعزها وعمل لها حوضًا من العاج ورصّع سروجها باللولوءِ والجواهر وقيد اسمها في دفتر الكهنة بزعمهِ انها ستصير ذات يوم حاكمة على الرومانيين . وبالجملة فانهُ كان من اقبح الناس سيرةً وكان من فرط قساوتهِ وقبائحهِ انهُ اذا امر بقتل انسان لا يكتفي بقتلهِ الاَّ بحضور اهلهِ ليشاهدوا عذابهُ وموتهُ . وفي ايامهِ كانت الحروب غير منقطعة وعلى الخصوص في بارثيا وبرثيانيا. فلما كثر جورهُ وعم الناس شرهُ قتلهُ احد قوادهِ في قصرهِ واراح الاهالي من ظلمهِ

ثم خلفهُ كلوديوس سنة ٤١ وكان على غاية من الخفة والغفلة ومع ذلك كانت لهُ مشاركة في الادب والمعارف فقد أَلَّف تاريخ رومية وقرطاجنة وغير ذلك من الكتب التي فُقدت وضاعت . وكان تزوج بامراةٍ تسمَّى مسالينة فكانت تبغضهُ وتتمنى لهُ الموت طمعًا في زواج شاب من الامراء كانت تودهُ وتميل اليهِ فصممت يومًا على قتلهِ لتولي محبوبها زمام المملكة فلما انكشفت لهُ خيانتها قتلها وتزوج بامراة ارملة من نسل اوغسطوس اسمها اغريبنة وكانت اشر واخبث من الاولى وكان لها ولد من زوجها الاول يقال لهُ نيرون وكان لكلوديوس المذكور ولد من زوجةٍ اخرى ابريطانيكوس فكانت تغار منهُ وتطمع في تولية المملكة لابنها نيرون ليكون لها نفوذ الكلمة في الحكومة بجاههِ فقصدت قتل زوجها كلوديوس لتنال مرغوبها فسقتهُ كاسًا مسمومة لتميتهُ واذ كان قصدها ان تقيم ابنها نيرون خليفةً لابيهِ عوضًا عن ابن ضرَّتها المتقدم ذكرهُ اخفت عن الشعب موت كلوديوس واخذت تستميل اليها قلوب الاعيان والوزراء وقواد الجيوش حتى تمكنت منهم ووافقها الجميع على تولية ابنها نيرون وبايعوهُ وهو ابن خمس

منهُ الاَّ القساوة والجبروت لاسيما ما ظهر منهُ من كثرة القتل والنهب عند محاصرتهِ القدس واستيلائهِ عليها فلما حكم سلك سبيل العدل والانصاف وحمدت خصالهُ فاحبهُ الناس ولقبوهُ مسرة البشر ومن جملة مناقبهِ انهُ مضى عليهِ يوم لم يفعل فيهِ شيئًا من الخير لرعاياهُ فبينما هو يراجع نفسهُ بذلك في المساء هتف صارخًا آه يا اصحابي قد ضيعت يومًا . وفي ايامهِ هاج بركان جبل يزوف بقرب نابولي وخرب ثلاث مدن واحترق جانب عظيم من مدينة رومية ثم اعقبهُ وبأ مخيف مات بهِ كثيرون من الاهالي وفقد منهم في يوم واحد عشرة الاف نفس فكان تيطس ينفق على المصابين من خزائنهِ بكل سخاء ثم مرض تيطس بعد ذلك بالحمى فدخل الحمام فمات بهِ فجأةً بعد ان حكم سنتين وشهرين

ثم خلفهُ اخوهُ دومينيانوس سنة ٨١ وكان قبل تقلدهِ منصب القيصرية متصفًا بمكارم الاخلاق والسيرة الحسنة ولكن بعد جلوسهِ على كرسي السلطنة تبدلت محاسنهُ بالقبائح والرذائل فاشبه نيرون في ارتكاب الفواحش وقتل النفوس بدون جناية وكان اذا لم يجد من يقتلهُ سلَّى نفسهُ بقتل الذبان حتى لا يخلو دقيقة واحدة من الاذية والضرر قيل ان احد خدامهِ سُئل يومًا هل عند الملك احدٌ اجاب ولا ذبانة . وكان مع هذه الاوصاف الذميمة متعظمًا متكبرًا حتى انهُ لقب نفسهُ الهًا وسيدًا. وكان يكره اليهود ويبغضهم بغضًا شديدًا فقتل اكثرهم ثم اضطهد المسيحيين وامر بقتلهم كما فعل نيرون وحبس يوحنا الانجيلي . ومن غريب اعمالهِ انهُ كان قد استدعى ارباب المجلس يومًا الى وليمة اعدها لهم وعند حضورهم دخل بهم الى مخدعٍ مظلم كان قد وضع فيهِ عدة توابيت مكتوبٌ على كلٍّ منها اسم واحدٍ منهم وبعد ان تهددهم بالقتل امر باطلاقهم ويقال انهُ دعاهم اليهِ يومًا آخر وطلب منهم ان يتذاكروا بعضهم مع بعض عن الذّ الاطعمة وافضلها وان يعطوا قرارهم عن احسن الاواني المناسبة لطبخ جنس من اجناس السمك . وكانت اكثر اعمالهِ على هذا النمط فلما زاد

شرّهُ مقتهُ الشعب وحقدوا عليهِ فاغروا على قتلهِ اميرًا يدعى اسطفانوس فحضر اليهِ بوسيلة كتاب حضر بهِ اليهِ ثم ناولهُ الكتاب فبينما كان مشغولاً بقراءتهِ وثب عليهِ وقتلهُ

ثم خلفهُ نرفا سنة ٩٦ وهو في سن السبعين وكان جوادًا انيسًا ذا معرفة وسياسة ولكنهُ اذ كان مسنًّا صعب عليهِ ان يقوم باثقال السلطنة وحدهُ فاستدعى اليهِ تراجان حكمدار جرمانيا فتبناهُ واشركهُ في الملك معهُ وعينهُ خليفةً لهُ . وكان قد امر بردّ من كان منفيًّا من المسيحيين واباح لهم التمسك بدينهم ورجَّع يوحنا الانجيلي الى افسس

ثم خلفهُ تراجان المذكور وكان على جانب عظيم من الحكمة والفطنة وشدة الباس فخفف المكوس واهتم بجلب كل ما يقتضي لراحة الشعب فانشأ القناطر واصلح الطرق وجدَّد الموانى البحرية لتكثير التجارات والمعاملات وبنى في رومية ملعبًا لسباق الخيل وجدَّد مكتبة عظيمة واقام العمود الرخامي الابيض المسمى التراجيان ورسم عليهِ الحروب التي وقعت بين الرومانيين وباقي الدول الاجنبية وجميع انتصارات القياصرة في ذلك الزمان . وكان قد عبر نهري الفرات والدجلة بعساكرهِ واخضع ما بين النهرين وبلاد العرب وغيرها من الممالك الشرقية وصيرها ولايات رومانية فاشتهر ذكرهُ في سائر الاقطار حتى ان ملوك الهند بعثوا اليهِ سفراء ليهنئوهُ على انتصارهِ . وكان مضطهدًا للمسيحيين ومن فرط بغضهِ لهم امر بقتل سمعان بن اكلاوبا اسقف اورشليم وعند زيارتهِ انطاكية سنة ١٠٧ امر بطرح اغناطيوس اسقف تلك المدينة الى جب الاسود فمات شهيدًا

ثم جلس بعدهُ على سرير الملك ابن عمهِ ادريانوس سنة ١١٧ وكان سريع الغضب كثير التقلب لا يثبت على راي فكان تارةً حليمًا واخرى قاسيًا جافيًا وكان مبغضًا للمسيحيين واليهود فقتل منهم خلقًا كثيرًا وهو الذي رمم مدينة القدس وبناها بعد ان كانت قد هدمت في حصار تيطس. فرجع اليها اليهود

وزادوا في تحسينها وتحصينها وكان قد بلغهُ انهم بريدون ان يخرجوا عن طاعتهِ فارسل اليهم العساكر وقتل اكثرهم وخرب المدينة حتى صارت قاعًا صفصفًا وكان هذا الخراب لثلاث وخمسين سنة من خراب تيطس

ثم تولى بعد هٰذا القيصر تيطس انطونيوس سنة ١٣٨ وكان حليمًا عادلاً محبًا للسلام مطبوعًا على مكارم الاخلاق وفي ايامهِ حصلت المسيحيون على تمام الراحة لانهُ كان قد رفع عنهم تلك الاضطهادات السابقة واعطاهم حريتهم وكانت مدة حكمهِ ٢٣ سنة

ثم خلفهُ مرقس اوريليوس انطونينوس سنة ١٦١ وكان متمسكًا بمذهب زينون الحكيم احد الفلاسفة المتقشفين وكان منعكفًا على المطالعات والدروس واكتساب العلوم والفنون ولكن اذ كانت حالة المملكة يومئذٍ في قلقٍ واضطراب لم يعد يمكنهُ ان يلتفت اليها بل التزم ان ينهض الى محاربة الولايات التي كانت قد عصت عليهِ في الجهات الشمالية ويخضعها . وفي ايامهِ فاض نهر رومية فازعج الاقاليم المجاورة واضر بالاهالي ثم عقب ذالك زلزلة عظيمة ازعجت المسكونة وحدث وباءٌ عظيم هلك بهِ خلقٌ كثير

ثم خلفهُ ابنهُ كومودوس سنة ١٨٠ وكان قد شارك اباهُ في حرب البرابرة ولكنهُ بعد موت ابيهِ عقد معهم صلحًا وخالف في ذالك وصية والدهِ ليغتنم فرصة التنعم في ملاهي رومية ولذاتها وعند موتهِ قام مكانهُ بولاية الامر برتيناكس والي المدينة سنة ١٩٣ فضج الجند من جرى ذالك لانهم لم يكونوا يريدونهُ قيصرًا عليهم فقصدهُ نحو ثلاث مئة نفر منهم الى دارهِ وهجموا عليهِ وقتلوهُ . فلما خلا سرير السلطنة من ملك او ولي عهدٍ بعدهُ استصوب الشعب ان يضعوا المنصب الملكي في المزاد فينالهُ من يدفع فيهِ مالاً اكثر من غيرهِ فاجتمع الاكابر والاعيان وارباب الوظائف والاركان واخذ بعضهم يتزايد على البعض فاستقر البيع على يوليانوس وكان ذا ثروةٍ عظيمة فبايعوهُ بالملك وصادقوا على ولايتهِ بدون ارادة عامة الجند المتفرقة يومئذٍ في بريتانيا وسوريا وباقي الاقاليم الخارجية الذين

عند وقوفهم على هذا الخبر خلعوا الطاعة وبايع جنود كل إقليم ملكًا اختاروهُ من القواد حتى كادت المملكة تتمزق الى عدة قياصرة فاختارت العساكر المحافظة على سواحل ايطاليا سفيروس القائد قيصرًا على المملكة وكان موصوفًا بالشجاعة وحسن التدبير فقصد رومية بسرعةٍ مع جيشهِ ودخلها بموكب عظيم وتبوأ تخت المملكة بدون حرب ولا قتال . وكان المجلس العالي قد اصدر حكمًا بعزل يوليانوس المذكور وقتلهِ كمجرمٍ فقبض عليهِ الجند وقتلوهُ بعد ان حكم ٢٦ يومًا فقط وذكر بعضهم ان سبب قتلهِ كان عدم تقديمهِ العطايا التي كان قد وعد بها ارباب المجلس عند مبايعتهم اياهُ تخت المملكة . وفي غضون ذلك حدثت حربٌ اهلية بين شعوب الرومانيين استمرت نحو اربع سنين

وكان سفيروس يقارب يوليوس قيصر في الشجاعة والبسالة والادارة العسكرية فانتصر على مقاوميهِ وعاملهم بقساوةٍ لا مزيد عليها وقبض على الذين كانوا قد باعوا كرسي المملكة لسالفهِ واثار حربًا على الاسكوتسيين سنة ٢١١ ومات في مدينة يورك من اعمال انكلترا

ثم تولى بعدهُ ابنهُ كاراكالا وكان دمويًا شريرًا قتل اخاهُ وجرح امهُ في ذراعيها وفتك باكابر الناس وقتل منهم نحو عشرين الف نفس ثم اضطرب واخذهُ القلق والوسواس من جرى ذلك ولازمهُ الوهم والخوف حتى انهُ كان يرى كثيرًا احلامًا مزعجة فكان يلهي ذاتهُ عنها بالولائم والالعاب المختلفة وكانت نقودهُ مغشوشة فكانت دنانيرهُ الذهبية من نحاس مغشاة بالذهب ومسكوكاتهُ الفضية من رصاص مغشاة بالفضة وكان يخزن المعاملة الخالصة في خزائنهِ لوقت اللزوم والحاجة . وكان يتزيى بزي اسكندر المكدوني في اللبس والعوائد حتى انهُ اتخذ لنفسهِ ستة آلاف من العساكر المكدونية تقليدًا لعساكر اسكندر وعلّق ايضًا تمثال اسكندر على الهياكل والمعابد وسمى نفسهُ اسكندر لتكون هذه التماثيل رمزًا لهُ ثم شرع واستعد للغزو والفتوحات على منوال اسكندر ولكنهُ لم ينجح فلما راى جندهُ حالتهُ المهانة وانحطاط ناموس دولتهم بوجودهِ قتلوهُ وهو

يومئذٍ ببلاد سوريا بدسيسة مكرينوس الحاكم الذي خلفهُ في السلطنة زماناً يسيراً

ثم قام بعد مكرينوس المذكور بسيانوس هليوكوبالوس سنة ٢١٨ وكان غلاماً بديع الحسن والجمال وقيل لهُ بسيانوس يعني الشمس لحسنهِ وجمالهِ وكان في اكثر الاوقات يتزيى بزي النساء فيضع في عنقهِ قلادة من ذهب وفي يدهِ اساور من الذهب وكان ينشر في قصرهِ انواع الزهور والرياحين وينشر تحت رجليهِ الفضة والذهب فاستقبح الناس افعالهُ فقام عليهِ الاهالي وقتلوهُ وكانت مدة حكمهِ اربع سنوات

ثم خلفهُ ابن عمهِ اسكندر سفيروس سنة ٢٢٢ وكان ملكاً عادلاً حليماً انيساً وديعاً الى الغاية وكانت امهُ مسيحية يقال لها مامه فكان يستشيرها في جميع اموره ويعمل برايها فلهذا ابطل عبادة الاوثان واخرج الاصنام من رومية ودعا الناس الى الديانة المسيحية وكان كثيراً ما يجمع الاهالي ويعظهم بالخطابات المفيدة ويدارك بحسن ملاحظتهِ ما يقع من الخلل والفساد في اقطار المملكة وكان ينعم على اهل الفنون والصنائع بالجوائز السنية لترغيبهم وتنشيطهم ولم يكن يقبل في ديوانهِ احداً من ارباب الملاهي والالات من المغنين كباقي اسلافهِ وامر بدفع أُجور العسكر في اوقاتها وكان يزور المرضى من الجند في خيامهم . وتصدى سفيروس لحرب العجم فقصد تلك البلاد بجيشٍ عظيم وعند وصولهِ الى انطاكية عصت عليهِ فرقة من عسكرهِ وصممت على قتلهِ فقادها الى الطاعة بواسطة شجاعتهِ وثباتهِ ثم تقدم تجاه بلاد العجم وحارب ملكها اردشير وانتصر عليهِ ورجع الى رومية ظافراً منصوراً واستمر ملكاً الى ان قام عليهِ بعض العساكر وهو يومئذٍ في حرب القبائل المتبربرة وقتلوهُ مع امهِ بدسيسة مكسيمينوس . وكان السبب في ذلك ان سفيروس قبل وقوع هذه الحادثة باثنتين وثلاثين سنة وهو اذ ذاك قائد الجيوش الرومانية كان قد نزل بجيشهِ على مدينة تراس وهي مدينة مكسيمينوس المار ذكرهُ فامر المصارعين والبهلوانية وجميع ارباب الملاهي والحرف ان تلعب امامهُ ذات يوم وكان مكسيمينوس في ذلك المكان وكان

جبارًا عنيدًا شديد القوة شرس الاخلاق طويل القامة فتقدم هذا الى امام سفيروس وتمثل بين يديهِ وطلب منهُ ان ياذن لهُ بالدخول بين زمرة المصارعين ليريهُ شيئًا من براعتهِ فاذن لهُ بذلك فدخل بينهم واظهر من النشاط والقوة الشديدة ما ادهش بهِ العقول فاستحسن سفيروس عملهُ وانشرح من برازهِ وحسن حركاتهِ فقرَّبهُ اليهِ وادخلهُ نفرًا في سلك عسكرهِ ثم اخذ يقدمهُ ويرقيهِ في الوظائف والمناصب الى ان صيرهُ من آكابر القواد فلما اشتهر امرهُ وانتشر ذكرهُ جحد فضل مولاهُ واحسانهُ الذي كان سببًا لارتقائهِ وحدثتهُ نفسهُ على قتلهِ واعدامهِ طمعًا بمنصب القيصرية فاخذ يستميل اليهِ القلوب والخواطر ويحرض الجند على قتل سفيروس قيصرهم حتى قاموا عليهِ وقتلوهُ كما وصفنا وشرحنا وبايعوا هذا الغدار المذكور ونادوا باسمهِ قيصرًا . وقد ذكرنا ما كان فيهِ من القوة والبطش وشراسة الاخلاق فاحتقر الناس اشد الاحتقار وعاملهم بالجفا والاستكبار وكان قد زحف لقتال اهل جرمانيا بالجيوش الرومانية فساء ذلك في اعين الشعب وتمنوا لهُ الهلاك نظرًا لما شاهدوهُ من قبائحهِ وفظائعهِ فرفضوهُ وعزلوهُ في غيابهِ باتفاق المجلس العالي وسموا مكانهُ غودريان وابنهُ غودريان الاصغر معًا لداعي لياقتهما واهليتهما لهذا المنصب العالي وكان غودريان وقتئذٍ عاملاً على ايالة من اقاليم قرطاجنة في افريقية . وكان للرومانيين حكمدار في بلاد المغرب يسمى كابليانوس فلم يوافقهم على هذا العمل ونهض في الحال لمقاومة الرجلين المذكورين فقتلهما بعد معركة شديدة . فلما بلغ اعيان المجلس في رومية هذا الخبر انتخبوا رجلين من افرادهم واقاموهما على كرسي المملكة يقال لاحدهما مكسيموس والثاني بلبينوس وعندما تمت هذه الاخبار واتصلت الى مسامع مكسيمينوس القيصر المعزول وهو يومئذٍ يحارب بلاد جرمانيا استشاط غضبًا وغيظًا من اعمال المجلس وما اجراهُ في حقهِ فارتد راجعًا على الفور قاصدًا رومية وفي اثناء مسيره حوَّل وجههُ نحو ايطاليا لينتقم من اخصامهِ ومبغضيهِ . وكان المجلس قد اصدر امرًا إلى ولاة ونواب تلك الاقاليم التي لا بد من مرور

مكسيمينوس عليها برفع الذخائر والمؤونة وباقي اللوازم العسكرية من جميع المدن والقرى التي في تلك الاطراف حتى عند وصولهِ اليها لا يجد فيها ما يستعين بهِ على قطع الطريق وكان الامر كذالك فانهُ عند قدوم هذا الملك بالجيوش الجرارة الى تلك البلاد وجدها خالية من المأكولات ولوازم العسكر وكان قد نفذ زادهُ فساءت امورهُ وتضعضعت احوالهُ فهاج العسكر عليهِ لشدة ما قاسوا من الجوع ومن مشقات الحرب وقتلوهُ في مضربهِ . وبعد موتهِ سمى المجلس عوضًا عنهُ شابًا اسمهُ غودريان وهو من نسل غودريان المذكور سابقًا فبايعوهُ واجلسوهُ على كرسي المملكة . وكانت الفرس في ايامهِ قد غزت اكثر الولايات الرومانية التي في جوارها واستولت على اكثرها بطريق التعدي والعدوان فنهض هذا الملك لمحاربتهم وزحف اليهم بالعساكر فحاربهم وانتصر عليهم في اكثر المعارك واستخلص منهم تلك الولايات ثم مرض بعد ذلك ومات

الباب السادس

في اخبار باقي قياصرة رومية الى انقراض السلطنة

وفي سنة ٢٤٤ للميلاد تبوأ تخت السلطنة القيصرية رجل عربي الاصل يدعى فيلبس وكان حاذقًا نجيبًا وكان قبل ارتقائهِ الى هذا المنصب واليًا على المدينة فهاج عليهِ الجنود اخيرًا وعزلوهُ . واقاموا مكانهُ رجلًا يسمى ديسيوس وكان من اكابر قوادهم فتحارب الاثنان وكانت الدائرة على فيلبس المذكور فقُتل بعد ان حكم خمس سنين . وكانت مدة حكم ديسيوس المذكور عديمة الانتظام كثيرة الفتن والفساد وتولَّدت هذه الاختلالات والمفاسد في اكثر الولايات الرومانية حتى كادت الدولة تكون على خطر عظيم ونتج اكثر ذلك من سوء تصرف القياصرة واغتصابهم كرسي المملكة بدون اهلية ولا استحقاق وفي ايام هذا الملك سنة ٢٥١ تحرك الغوثيون من الاقاليم الشمالية وخرجوا من بلادهم واجتازوا نهر الطونة وحاربوا الولايات الرومانية واستولوا عليها ونهبوها واضرُّوا باهلها فالتزم

ديسيوس ان يسير اليهم لتخليص تلك البلاد من ايديهم فحاربهم نحو سنتين ثم قُتل في تلك الوقائع وخلفهُ قائد جيشهِ المسمى غالوس فعقد صلحًا مع اولئك البرابرة وارضاهم بالمال لكي يرجع الى حظوظهِ ولذاتهِ في رومية بدون ان يلتفت الى صالح وطنهِ . وفي اثناء ذلك زحف الفرس لاستخلاص سوريا من يد الرومانيين وتحرك اهل الشمال ثانيةً فكانت الحكومة في اضطراب وارتباك بين الشمال والشرق . وكان مع غالوس قائد يُدعى اميليانوس فتولج هذا حرب اهل الشمال وبعد انتصارهِ عليهم طمع في لبس تاج الملك فانتُخب نفسهُ قيصرًا بين جندهِ وتقدم نحو مدينة رومية ليحارب مولاهُ فاستعد غالوس لقتالهِ وخرج بالعساكر لاستقبالهِ ولكنهُ اذ كان مكروهًا من الجند وقواد العساكر قتلوهُ وسموا مكانهُ اميليانوس امبراطورًا

وكان في رومية رجل شيخ اسمهُ فاليريان قد تسمَّى قاضيًا من طرف المجلس الكبير في ايام ديسيوس وكان محبوبًا ومعزوزًا من جميع الناس فلما بلغهُ قتل غالوس نهض بجيشٍ عظيم لقتال اميليانوس طمعًا بالقيصرية فمالت اليهِ الجنود وسموهُ قيصرًا عوضًا عن اميليانوس المذكور . وكان سابور الاول ملك الفرس قد استولى يومئذٍ على انطاكية ثم قصد مدينة حمص ليستخلصها من ايدي الرومانيين فزحف اليهِ فاليريان للمدافعة عن تلك البلاد واقام مكانهُ ابنهُ غلينوس نائبًا في رومية وكان شابًا مهملاً عديم المعرفة في السياسة والامور الحربية. فعند وصول فاليريان الى سوريا اشتبكت الحرب بينهُ وبين سابور المذكور فانتصر سابور عليهِ بواسطة مكيدة دبرها لهُ فهزم جيشهُ واخذهُ اسيرًا وكان يهينهُ ويحتقرهُ ويستصحبهُ معهُ اينما حل ويلبسهُ احسن الثياب الفاخرة ويقصد بذلك الاستهزاء بهِ والتهكم عليهِ وكان اذا اراد ان يركب فرسهُ طرحهُ على بطنهِ وداسهُ برجلهِ واستمر فاليريان على هذه الحالة التعيسة عدة سنوات ثم مات في اسر الفرس وقام مكانهُ بالمملكة ابنهُ غلّينوس وفي ايامهِ كانت المملكة الرومانية في اسوإ حال مضطربة من خارج ومرتبكة من داخل بواسطة المغازي والثورات

حتى كادت تشرف على الخراب والدمار وقد انصبَّ عليها في وقت واحد جميع المصائب والنكبات كالقحط وفيض الانهر والاوبئة ومع هذه الدواهي كان الامبراطور غلينوس ملتهيًا بولائمهِ ودعواتهِ ومنكبًّا على مسراتهِ وشهواتهِ غير مبالٍ باغارة الاعداء ولا مكترث بخراب المملكة وكان يقول ما دام اقليم ايطاليا تحت امري وتصرف يدي فلا ابالي بضياع باقي الاقاليم الخارجية فغضب الجند من فعالهِ وقاموا عليهِ وقتلوهُ وانتخبوا مكانهُ كلوديوس الثاني سنة ٢٧٠ وكان معدودًا من فحول رؤساء الجيوش . وكان الغوثيون قد جمعوا جيشًا عرمرمًا ونزلوا على سواحل البحر الاسود واغاروا على المدن الرومانية في تلك الاطراف فسار هذا الملك لقتالهم وانتصر عليهم نصرة عظيمة ومات عقب ذلك بالطاعون

ثم خلفهُ اوريليان قيصر سنة ٢٧٠ وكان بطلاً صنديدًا وجبارًا عنيدًا وكانت بريتانيا وفرانسا واسبانيا في ايامهِ في حالة العصيان فزحف الى تلك الممالك وبدد شمل العصاة وادخلهم تحت الطاعة والانقياد . وكانت زنوبيا ملكة تدمر ارملة اوديناتوس احد القواد الذي كان محالفًا للرومانيين ومظاهرًا لهم على الفرس قد قويت شوكتها بعد موت زوجها ومدَّت يدها لاستخلاص ولايات الرومانيين التي في تلك الجوار فاستولت على اكثرها وساعدتها الاقدار الى انها تملكت الديار المصرية ولكنها لم تطل احكامها في مصر حتى طُرِدت منها فقصدها هذا القيصر الى سوريا وحاربها وانتصر عليها في موقعتي انطاكية وحمص وقبض عليها واخذها اسيرة الى رومية ودخل بها الى المدينة في موكب عظيم وهي مقيَّدة بزناجير ذهبية . ثم نهض اوريليان بعد ذلك لمحاربة الفرس في اسيا وعند وصولهِ الى القسطنطينية قامت عليهِ فتنة من جندهِ اثارها كاتب سرهِ فقُتل عقبها

وتولى بعدهُ سنة ٢٧٥ تاسيتوس احد ارباب مجلس رومية بعد فترة ثمانية اشهر بدون ملك وكان من ذرية تاسيتوس المورخ المشهور وكان شيخًا مسنًّا فاضلاً عاقلاً صافي النية ولكنها لم تطل ايامهُ فمات في كبدوكية بعد ستة اشهر من حكمهِ من جرى الاتعاب والهموم التي تراكمت عليهِ .

وخلفهُ اخوهُ فلوريانوس الذي لم يكن اهلاً لهذا المنصب ودعا نفسهُ امبراطورًا قبل قرار المجلس بتثبيتهِ قيصرًا وكان قائد جيوش الشرق المدعو بروتوس لا يميل لهذا القيصر فقاومهُ بمساعدة المجلس وتولى مكانهُ سنة ٢٧٧ ونودي باسمهِ ملكًا . وكانت طوائف البرابرة في اثناء الفترة التي كانت فيها الكرسي بدون ملك اغارت على فرانسا وما يليها من البلاد ونهبت مدائن كثيرة فانقضَّ عليهم بروتوس وبدد شملهم واستخلص منهم المدن والاموال ثم شرع في تحصين الحدود والثغور لاجل صيانة البلاد وكان لا يدع الجند في البطالة بل يستعملهم في الخدمة العمومية كعمارة القناطر والجسور واصلاح شغل الطرق وفتح الترع فغضب الجند من مداومة هذه الخدمة فقاموا عليهِ وقتلوهُ

ثم خلفهُ كاروس الوالي وكان قد اشرك معهُ في الاحكام ابنيهِ كارينوس ونوميريان واذ صمَّم على حرب الفرس اخذ معهُ ابنهُ نوميريان واقام ابنهُ كارينوس نائبًا في غيابهِ وعند وصولهِ الى ما بين النهرين مات هناك بصاعقةٍ على ما قيل سنة ٢٨٣ بعد ان اخضع عدة مدائن في تلك الجهات . فتفاءل الرومانيون من هذه الحادثة واوقفوا الحرب ثم مات ابنهُ نوميريان بعد ذلك قتيلاً عند رجوع الجيش من اسيا . واما كارينوس الذي كان قد تخلف على تخت السلطنة بالنيابة عن ابيهِ فارتكب من القبائح والشرور ما لم يرتكبهُ نيرون في زمانهِ وكان مع ذلك محبوبًا من الجميع ما عدا جنود الشرق فانها لم تخضع لهُ ونادت باسم ديوكليتيان الذي كان في اول امرهِ فلاحًا من اهل دلماتيا ثم ارتقى باجتهادهِ الى رتبة قائد جيش من جيوش الرومانيين فلذلك وقع الخصام والنزاع بين عساكر الولايات الشرقية والغربية ونهض الفريقان لمحاربة بعضهما البعض فالتقيا في ميسيا واقتتلا اشد قتال وبينما كانت دلائل الانتصار تلوح على صفوف عسكر كارينوس قتلهُ احد قومهِ وبموتهِ اصبحت الحكومة في يد ديوكليتيان وكان المذكور ذا همة ونشاط وكان حكمهُ ابتداء نظام جديد أُكمل في حكم قسطنطين الكبير .

واذ راى ديوكليتيان اتساع السلطنة وعدم امكان ادارة مهامها كما ينبغي من مركز واحد اشرك معهُ في الحكومة صديقًا مخلصًا لهُ يدعى مكسيميانوس وساواهُ بنفسهِ في نفوذ الكلمة وجعل اقامتهُ في ميلان وولاهُ زمام ايطاليا وافريقية ثم انتخب رجلين وهما قسطنطينوس مكوروس وغاليريوس وولاهما ادارة ولايتي الدانيوب والرين واما هو فجعل دار اقامتهِ في مدينة نيكوميدية في اسيا الصغرى ليكون قريبًا من الولايات الشرقية ولاسيما من الفرس ليروي غليلهُ وينتقم منهم من اجل مهاجماتهم المتتابعة على الاملاك الرومانية ومن اجل الاهانة القبيحة التي اجروها على القيصر فاليريان . واما المجلس الكبير فابقاهُ في رومية ولبعد المسافة بينها وبين المراكز المتقدم ذكرها كان المجلس عديم الحركة اسمًا بلا جسم

وكان هذان الامبراطوران يشتركان في تدبير المملكة معًا مع غاية الوفق والمحبة وكانا يمضيان وينهيان في الاشغال الكلية والجزئية من تلقاء انفسهما بدون سؤال فكان ديوكليتيان راس الدولة ومكسيميانوس عضدها . وفي ايام هذا الملك ذهب قسطنطينوس القائد واخضع بريتانيا التي كانت قد اظهرت العصاوة واستقلت بنفسها من عهد عشر سنين . وبينما كان غاليريوس مشتغلاً في حرب الغوثيين ومكسيميانوس منهمكًا في اطفاء نيران الثورات في افريقية كان ديوكليتيان موجهًا كل عزمهِ ومستعدًّا لمقاومة الفرس فانتهز فرصة الاضطراب الكائن وقتئذٍ في بلاد العجم بسبب تسمية الملك نارسيس وارسل تيريداتيس ملكًا على ارمينية التي كان سابور قد افتتحها وجعلها من ملحقات مملكتهِ ورفع مداخلة الرومانيين من حق تسمية ملوكها . وكان تيريداتيس المذكور من ذرية ملوك ارمينية وكان يومئذٍ مقيمًا في رومية تحت حماية الرومانيين منهزمًا من وجه الفرس فلما وصل الى ارمينية ترحب بهِ الاهالي ونادوا باسمهِ واستقرت لهُ الولاية مدةً . ولكن لما استقام حال بلاد فارس وسكنت الفتن والاضطرابات خاف تيريداتس من هجوم العجم عليهِ واستغاث بالرومانيين فعند ذلك زحف ديوكليتيان لحرب الفرس فانتصر عليهم في عدة مواقع ثم عقد معهم صلحًا بعد ان استولى على جملة

ولايات وجعل ارمينية من ملحقات رومية وبعد ذلك ارتد راجعًا الى رومية وفي السنة الحادية والعشرون من ملكهِ تنازل عن الكرسي الملكي سنة ٣٠٤ وسكن في دلماتيا وجعل صاحبهُ مكسيميانوس يتنحى ايضًا في نفس ذلك اليوم . ولكن مع كل الشهرة والعظمة التي اكتسبها ديوكلينيان جلب عارًا عظيمًا على اسمهِ بسبب الاضطهاد الفظيع الذي اثارهُ على المسيحيين في كل اقاليم سلطنتهِ اذ كان قصدهُ ان يمحو اثرهم ويطفي خبرهم من على وجه الارض ومن فريد اعمالهِ انهُ امر يومًا وهو في مدينة نيكوميدية بحرق ٦٠٠ نفس من المسيحيين كانوا مجتمعين يوم عيد الميلاد للعبادة فمات جميعهم

اما عدد الاضطهادات التي اثارها قياصرة الرومانيين على المسيحيين فهي عشرةٌ اولها سنة ٦٤ للميلاد في زمن نيرون . الثاني سنة ٩٥ في ايام دوميتيان . الثالث سنة ١٠٧ في ايام تراجان . الرابع سنة ١١٨ في ايام ادريان . الخامس سنة ٢١٢ في ايام كاراكلاَّ . السادس سنة ٢٣٥ في ايام مكسيمينوس . السابع سنة ٢٥٠ في ايام ديسيوس . الثامن سنة ٢٥٧ في ايام فاليريان . التاسع سنة ٢٧٤ في ايام اوريليان . والعاشر سنة ٣٠٣ في ايام ديوكلينيان المذكور . وبعد هذا الملك انتقلت الامبراطورية الى قسطنطينوس كلوروس الذي كان اقامهُ ديوكلينيان مع غاليريوس كما سبق الكلام وبقي امبراطورًا نحو ١٥ شهرًا حين وقع مريضًا في مدينة يورك من اعمال انكلترا ولما بلغ ذلك ابنهُ قسطنطين اسرع سرًا من نيكوميدية وقصدهُ الى هناك فوصل قبل وفاتهِ فسماهُ خليفةً لهُ وصادق لهُ على ذلك اهل بريتانيا ونودي باسمهِ فيها سنة ٣٠٦ ثم زحف على فرانسا وبعدما دبر امورها سار الى ايطاليا وكان المجلس الكبير غير راضٍ بقسطنطين فهيج الاهالي ضدهُ ونادوا باسم مكسنتيوس بن مكسيميانوس امبراطورًا في رومية فقهرهُ قسطنطين بعد حربٍ تُذكر وقتلهُ ثم انتصر على باقي المقاومين واخضع البلاد شيئًا فشيئًا حتى استبد بالسلطنة وحدهُ بدون منازع

وكان الملك قسطنطين عظيم الهامة صحيح البنية شديد الباس لا يبالي

بالمشقات والاخطار ولا يكل من الاتعاب والاسفار وكان مع ذلك مشهورًا بكمال الرافة والشفقة منفردًا بالاوصاف الحميدة والاراء الصائبة السديدة فلم يغفل عن صوالح الحكومة وعن استجلاب رضا الشعب وبالجملة كان من افراد الرجال وصناديد الابطال . وقد امتازت ايامهُ عن باقي ايام القياصرة بامرين عظيمين اولهما نقل كرسي السلطنة الى القسطنطينية والثاني اعتناقهُ في سنة ٣١٢ الديانة المسيحية وشدَّة تمسكهِ بها حتى لم يكن احد من الملوك اشد حمية منهُ عليها فجعلها ديانة الولاة والحكام وهدم هياكل الاصنام واذ لم يكن في ذلك الوقت اسقفٌ عامٌّ على جميع الكنائس فكان هو في واقع الامر صاحب القول عليهنَّ .وفي ايامهِ ظهر الاعتقاد الاريوسي الذي قاومهُ اثناسيوس رئيس اساقفة الاسكندرية فامر قسطنطين بالتئام مجمع اكليريكي في مدينة نيس في ايطاليا فتقرر بهِ هرطقة اريوس وكان ذلك اول مجمع مسكوني . وقيل ان سبب نقل قسطنطين سرير السلطنة الى القسطنطينية هو انهُ لما دخل الى مدينة رومية في اول امرهِ مؤيدًا منصورًا لم يلقَ من اهلها بشاشة وجه وترحيب وذلك لتمسكهِ بالديانة المسيحية فغضب من ذلك ولاسيما من انعكاف الاهالي على العبادة الاصنامية وصمَّم على ان يبني مدينة غير رومية يجعلها مقر الحكومة ودار السلطنة فاختار مدينة بيزانتيا لنزاهتها وحسن موقعها بين اوروبا واسيا ولكونها مشرفة على ثلاثة ابحر فرسمها وبنى اسوارها وقصورها وانَّها على احسن حال فرغب الاهالي فيها لكثرة منافعها وفوائدها وقصدها الناس من جميع الاقطار واشتهرت بالقسطنطينية نسبةً لقسطنطين . وكان قسطنطين هذا قد افرز من خزائنهِ مبالغ جسيمة من الاموال لاجل قيام الكنائس في مدينة اورشليم وفي الاراضي المقدسة فاتخذت امهُ هيلانة على ذاتها العناية بذلك فسافرت من القسطنطينية في بعض شهور سنة ٣٢٦ الى اورشليم وكان سفرها المذكور علةً لسعادة سكان تلك البلاد الذين كانوا يلتجئون اليها من اغنياء وفقراء وارامل وايتام ومديونين ومرضى ومحبوسين فانها كانت تعولهم وتنقذهم وتوزع عليهم الاموال الكثيرة وعند وصولها الى

القدس هدمت معبد الزهرة الذي كان الوثنيون قد شيدوهُ على جبل الجلجلة ثم اعتنت بكشف قبر المسيح ويقال انها وجدت بقايا من الصليب فجاءت بها الى القسطنطينية. وكانت هذه الامبراطورة قبل اعتناقها الديانة المسيحية متزوجة بقسطنطينوس كلوروس ابي قسطنطين الذي لم يكن وقتئذٍ سوى قائدٍ من القواد الرومانية. فلما صار قيصرًا طلقها بحسب عادة الرومانيين الوثنيين طمعًا بزواجهِ بثاودورة ابنة الامبراطور مكسيميانوس فلما ارتقى ابنها قسطنطين الى كرسي القيصرية بعد موت ابيهِ ارسل فاحضر امهُ هيلانة الى البلاط الملكي وشرفها بتسمية اوغسطا اي ملكة ثم عرفها بحقيقة الديانة المسيحية التي كان قد اعتنقها فتنصرت من يومها وانعكفت على العبادة وكانت غيورة على اقتناء الفضائل الانجيلية

وعند وفاة قسطنطين سنة ٣٣٧ انقسمت المملكة بين اولادهِ الثلاثة وهم قسطنطين الثاني وقسطنطيوس وقسطنس وكانوا قساة القلوب منعكفين على الملاهي والتنعمات التي من شانها ان تهدم اركان النجاح وتفسد الاذهان فكان اول شيء فعلوهُ انهم اصدروا امرًا بقتل سبعة اشخاص من اقربائهم خوفًا منهم على الاحكام ثم اخذوا يعدمون باقي اعضاء عائلتهم شيئًا فشيئًا حتى لم يبقَ منها سوى ولدين ضعيفين من ابناء عمهم ثم وقع بينهم الشقاق والخلاف وعادى كل واحدٍ منهم الآخر. وفي تلك الاثناء نهض سابور الثاني ملك الفرس لغزو الولايات الرومانية فوافاهُ قسطنطين احد الاخوة المذكورين الذي كان سهمهُ في القسم الشرقي من المملكة واشتبت بينهما حربٌ شديدة استظهرت فيها الفرس ثم انتهى الحال بوقوع الصلح بين الفريقين. وعند رجوع قسطنطين الى بلادهِ وقع بينهُ وبين اخيهِ قسطنس منازعة مات بسببها سنة ٣٤٠ وبقي قسطنس وحدهُ حاكمًا على الاقطار الغربية مدة عشر سنوات الى ان قتلهُ مغننطيوس قائد الجيوش الرومانية في غاليا طمعًا باختلاس منصبهِ. ولما بلغ قسطنطيوس قتل اخيهِ استشاط غضبًا ونهض في الحال بجيشٍ عديد للانتقام من مغننطيوس فانتصر

عليهِ بعد عدة وقائع هائلة قُتل فيها اربعة وخمسون الفًا من خاص عسكرهِ واذ راى مغننطيوس ما حل بهِ من الذل والنكال قتل نفسهُ

فهذه الثورات المتتابعة زعزعت اركان الدولة الرومانية وجعلتها في خطرٍ عظيم فكانت برابرة الشمال تهجم عليها من جهة المغرب واكاسرة الفرس تتهددها من جهة المشرق فتضيق قسطنطيوس من جرى ذلك ولم يعد يرى نفسهُ كفوًا للقيام بجميع مهام المملكة فاشرك معهُ ابن عمهِ يوليان وسماهُ قيصرًا على الولايات الغالية فسار يوليان الى قتال الافرنج وحلفائهم الذين كانوا قد غزوا البلاد فحاربهم وانتصر عليهم واشتهر اسمهُ بين الجنود ومالت اليهِ القلوب حتى انهُ اقيم امبراطورًا سنة ٣٦٠ . وكان قد صمم على قتال قسطنطيوس طمعًا ان يستقل بنفسهِ على اقطار المملكة فجند الجنود وسار بنفسهِ قاصدًا القسطنطينية وكان قسطنطيوس يومئذٍ مشتغلاً بحرب الفرس فمات قبل وصول يوليان اليهِ وبموتهِ انفرد يوليان باحكام المملكة وتلقب بالجاحد لانهُ جحد الديانة المسيحية واعاد الديانة الوثنية سنة ٣٦٢ ولما صفا لهُ الوقت وراق استعد لحرب الشرق فتقدم نحو اسيا فشتى في انطاكية ثم حوَّل وجههُ نحو القدس فاوقع بسوريا الوبال واخذ يجمع اليهود الى اورشليم وابتدأ بعمار هيكلهم لكي يبين بذلك فساد الكتب المقدسة ويكذّب نبوة المسيح بهذا الشان وذكر اميانوس احد مورخي الامم الذي عاش في تلك الايام انهم اذ كانوا يحفرون الاساس خرجت نارٌ من الارض وحرقت الفعلة وسمعوا رعودًا وشرارات نارية تخرج من الصخور فكفُّوا عن العمل. ثم قصد بلاد الشرق فاجتاز الفرات وحارب الفرس فانتصر اولاً ولكنهُ انكسر اخيرًا وبينما كان يحاول الفرار جرح جُرحًا بليغًا مات بهِ . وبموتهِ نودي باسم يوفيان امبراطورًا مكانهُ سنة ٣٦٣ فعقد صلحًا مع الفرس بعد ان اعطاهم اربع ولايات رومانية . وفي ايامهِ تشيدت النصرانية ثانيةً ولكنهُ توفي قبل رجوعهِ الى القسطنطينية

ثم خلفهُ فالنتنيان قائد الحرس سنة ٣٦٤ وكان فظًّا غليظًا فاشرك معهُ

في المملكة اخاهُ ڤالانس وخصهُ باحكام البلاد المشرقية وابقى لنفسهِ الممالك المغربية ثم سار بنفسهِ لقتال البرابرة في شمالي اوروبا فحاربهم وانتصر عليهم ولكن مع كل ذالك كانت المملكة تزداد سقوطاً يوماً بعد يوم لان الحروب الداخلية التي حدثت في مدة حكم اولاد قسطنطين الكبير اهلكت جانباً عظيماً من العساكر وتركت حدود المملكة عرضة لهاجمات الاعداء وغاراتهم . وكان هذا الملك يعاقب على الذنب باشد العقاب ولذلك كان قد حبس دبين مفترسين في قفص واجاعهما حتى اذا اراد قتل احد اطلقهما عليهِ

ثم مات هذا القيصر سنة ٣٧٥ بعد ما حكم ١٢ سنة تقريباً وترك المملكة الغربية لابنهِ غراطيان بينما كان ڤالانس متولياً على الشرقية وكان قد اشرط على غرطيان ان يشارك معهُ اخاهُ الاصغر فالنتينيان الثاني الذي كان وقتئذٍ قاصراً . وفي تلك الاثناء قام الهونيون (وهم قوم برابرة اشدَّاء من سكان اسيا الشمالية) على الغوثيين الذين كانت احكامهم ممتدة من بحر البلتيك الى حدود نهر الدانوب فخاف منهم الغوثيون والتجأوا الى ڤالانس المذكور وطلبوا منهُ ان يجيرهم ويأذن لهم ان يسكنوا في بلادهِ فاجابهم الى سؤالهم واقتبلهم في مملكتهِ وسمح لهم ان يتاجروا ويتعاطوا اسباب التجارة وكان عددهم نحو مليون نفس . وكان الرومانيون يجورون عليهم ويعاملونهم بكل قساوة حتى لم يعد لهم استطاعة على الاقامة بينهم فخلعوا طاعتهم وصمموا على استخلاص المملكة من ايديهم فاعتقلوا بسلاحهم وزحفوا بجموعهم على القسطنطينية وحاصروها فخرج الامبراطور ڤالانس لقتالهم بعساكر المدينة وانتشب القتال بين الفريقين فكانت الدائرة على الرومانيين فانهزمت جموعهم وجرح امبراطورهم ثم مات عقب ذلك . ولما اتصل هذا الخبر الى غراطيان امبراطور المملكة الغربية نهض لانقاذ المملكة الشرقية والانتقام من القوم ولكنهُ اذ راى ضعف حالهِ وانحطاط سطوة حكومتهِ اشرك معهُ رجلاً يسمى ثيودوسيوس وكان اسبانيولي الاصل موصوفاً بالحذاقة وحسن التدبير فولاَّهُ عوض ڤالانس فنجح ثيودوسيوس واصلح الاحوال في اثناء اربع سنين بحسن

سياستهِ وتدبيرهِ وعقد صلحًا مع الغوثيين بعد ان اخضعهم وفي غضون هذه الحركات قام في الغرب القائد الروماني المدعو مكسيموس وزحف بجيشٍ جرار على فرانسا وتسمى امبراطورًا وكان غراطيان وقتئذٍ في باريز ففر هاربًا الى مدينة ليون وهناك قتل بوشاية مكسيموس المذكور ثم نهض مكسيموس بعد ذلك لمحاربة ايطاليا طمعًا باشهار نفسهِ امبراطورًا على جميع الممالك الرومانية . وكان لغراطيان زوجة تدعى جوسنينا وولد يسمى فالنتينيان الثاني وابنة اسمها غلّا فهربت جوسنينا مع ولديها الى ثيودوسيوس واستجارت بهِ فالتقاها بالترحاب والتجبيل وتزوج بابنتها غلّا ثم استعد لحرب مكسيموس فنهض بجيش عديد وحاربهُ فظفر بهِ وقتلهُ واعاد الملك الى ڤالنتينيان بن غراطيان سنة ٣٨٨ غير انهُ لم تطل ايامهُ حتى مات وبموتهِ انفرد ثيودوسيوس بحكومة السلطنة الرومانية وحدهُ ومات سنة ٣٩٥ في مدينة ميلان

الباب السابع

في انقسام الدولة الرومانية الى سلطنتين وانقراض الغربية منهما

وكان لثيودوسيوس المذكور ولدان احدهما يسمى اركاديوس والآخر يسمى هونوريوس فقسم بينهما السلطنة في حياتهِ وجعلها امبراطوريتين مستقلتين احداها امبراطورية المشرق وكرسيها القسطنطينية والثانية امبراطورية المغرب وكرسيها رومية فتولى هونوريوس على المغرب واخوهُ اركاديوس على المشرق . وكان لهونوريوس وزيرٌ من افاضل الناس يقال لهُ ستيليكو من قوم الفندال فكان يودهُ ويستشيرهُ في جميع امورهِ نظرًا لادارتهِ وحسن سياستهِ . وكانت الممالك التابعة رومية وقتئذٍ ايطاليا وافريقية وفرانسا واسبانيا وبريتانيا وعدة ولايات في بافاريا والنمسا وغيرها ولكن مع كثرة هذه الولايات والمملكات التي

تدل على عظم السطوة الرومانية لم يعد الرومانيون قادرين على المدافعة عن انفسهم وحفظ بلادهم من غزوات البرابرة المتصلة لان انقسامهم وتحزبهم من الجهة الواحدة وانعكافهم على الملاهي واللذات من الجهة الاخرى استاصلت منهم تلك الحماسة والبسالة التي اشتهروا فيها قديمًا وجعلتهم يرتضون بحالتهم مهما كانت دنية ويسلمون انفسهم للقدر فكانت الاعداء تغزوهم وهم وقوف وان نهضوا لمقاومتهم خسروا وتقهقروا بحيث لم يبقَ ادنى ريب من جهة سرعة انقراض تلك السلطنة العظيمة لاسيما بعد انقسامها . وحدث في سنة ٤٠٢ ان قومًا من الغوث المقيمين في الغرب تحت رياسة قائد يقال لهُ الاريك دخلوا بلاد اليونان ونهبوا اكثر مدائنها وهدموها وكان لامبراطور الشرق وزيرٌ يدعى روفينوس موصوفٌ بالحذاقة وحسن التدبير فاقنعهم بحسن سياستهِ ان يخرجوا من بلادهِ ويقصدوا بلاد ايطاليا حيث الغنائم الكثيرة ووعدهم سرًّا بالمساعدة والامداد فبهذه الواسطة ابعدهم عن اراضي المملكة الشرقية والقى سخطهم على هونوريوس الذي بمساعي وادارة وزيرهِ ستيليكو امكنهُ ان يصادم غاراتهم وهجماتهم المتتابعة ويبعدهم عن بلادهِ موقتًا . ثم بعد هذه الحادثة بايامٍ يسيرة نقل هونوريوس سرير السلطنة من مدينة ميلان الى رافينا وفي غضون ذلك اغار على الرومانيين اقوام من قبائل جرمانيا المتحالفين وكانوا نحو مئتي الف رجل تحت رياسة ملكهم رودوغاست فالتقاهم ستيليكو الوزير بعساكر الرومانيين وبعد قتال شديد انتصر عليهم فقتل ملكهم وبدد جموعهم ثم قصد بلاد غاليا بعد هذه النصرة فاوقع باهلها وامتلكها من حدود الرين الى جبال البرن . ولما اشتهر امر هذا الوزير حسدهُ اكثر الناس فوشوا بهِ الى هونوريوس واتهموهُ بخيانة كاذبة فامر بقتلهِ بدون فحص ولا اثبات وبموتهِ تشددت عزائم ملك الاريك على قتال الرومانيين فزحف ثانيةً على رومية بجيشٍ جرار وتهدد اهلها بالهلاك والخراب فخاف الشعب من كثرة الاعداء المتجمعة عليهم واذ لم يمكنهم المدافعة تعهدوا للملك الاريك بدفع مبالغ وافرة اذا رفع عنهم تلك البلية فاجابهم الى ذلك وانسحب

عنهم ولكنهُ اذ راى منهم عدم الوفاء في ما انفقوا عليهِ عاد اليهم بعزمٍ اشد من الاول فحاربهم وافتتح المدينة عنوةً والقى فيها النهب والسلب بعد ان قتل الوفا من الاهالي واحرق جانبًا منها . ثم قصد جنوب ايطاليا حيث كان مزمعًا ان يركب البحر المتوسط ويجتاز الى افريقية ليفتتحها ولكنهُ مات في اثناء ذلك وخلفهُ اخوهُ ادولفوس . وكان قصد هذا الملك ان يجعل رومية سرير سلطنة الغوثيين ثم عدل عن هذا الفكر خوفًا من عدم امتزاج شعبهِ المتوحش مع شعب الرومانيين المتمدن فاختار السكن في مكان اخر يناسب حالة شعبهِ فترك ايطاليا وسار مع جندهِ واستوطن في اسبانيا بعد ان تسمى ملكًا على ايطاليا اربع سنوات وتزوج بلاسيدا اخت هونوريوس . اما الرومانيون فكانت سطوتهم وشوكتهم تضعف يومًا بعد يوم بحيث التزم هونوريوس ان يتنازل عن زمام احكام بريتانيا وعن اراضي جرمانيا العليا والسفلى ثم توفي عقب ذلك بعد ان حكم ٢٨ سنة وخلفهُ قسطنطيوس احد قواد الرومانيين المشهورين . وكان هذا القائد قد تزوج ببلاسيدا المذكورة عقب رجوعها من ايطاليا بعد وفاة زوجها في اسبانيا ولكنهُ لم يستقر بالخلافة الاَّ زمانًا يسيرًا حتى قام عليهِ البعض وقتلوهُ فخلفهُ ابنهُ فالنتينيان الثالث واذ كان عمرهُ ست سنوات كانت امهُ تحكم بالوكالة عنهُ وفي تلك الايام زحف جنساريك ملك الفندال في اسبانيا الى افريقية فغزاها واستخلص جميع الولايات الرومانية من يد بونيفاس الوالي الروماني . وفي اثناء ذلك خسرت رومية ايضًا تملكاتها الاسبانيولية والفرنساوية حتى لم يبقَ لها الاَّ بلاد ايطاليا التي انسلخت عنها بعد ذلك بقليل

وفي ايام هذا الملك سنة ٤٥٢ غزا ايطاليا اتيلا ملك قبائل الهون وبينما كان قاصدًا مدينة رومية ليفتحها توفي قبل وصولهِ اليها فلم يلحقها منهُ اذًى . ثم قتل فالنتينيان الثالث سنة ٤٥٥ وخلفهُ عشرة ملوك لم نذكرهم حبًّا بالاختصار وكان اخرهم رومولوس اوغستولوس وفي ايامهِ تجمعت قبائل الهرول القاطنة يومئذٍ على شطوط بحر البلتيك وزحفت تحت راية ملكها اودواكر فغزت بلاد

بافاريا والنمسا ثم تقدمت على رومية واستفتحتها ومات رومولوس المذكور عقب ذلك سنة ٤٧٦ وانقرضت بهِ الدولة الرومانية بعد قيامها ١٢٢٩ سنة . ومما يستحق العجب ان اول ملك اسس هذه المملكة كان رومولوس الاول واخر ملوكها هو رومولوس الثاني وهذا من غريب الاتفاق ٠

الباب الثامن

في عوائد الرومانيين القدماء وبعض اصطلاحاتهم

ان الرومانيين كانوا ينقسمون الى قسمين اي الاشراف والعوام ثم بعد ذلك أُضيف الى هذين القسمين قسم ثالث يُعرف بحزب الاسياد وهو في درجة وسطى بين الاشراف والعوام وحدث بينهم من جرى ذلك منازعات ومخاصمات كثيرة . واما روساء الدين فكانوا يُنتخبون من اعيان الاهالي وكانت وظائف روساء الكهنة ذات اهمية سياسية عظيمة لانهم كانوا مولجين بتقديم الذبائح البشرية للآلهة ويعتنون بالطقوس الدينية ولكثرة الخرافات الكثيرة وقتئذٍ اقاموا جمعية من الناس المنجمين والمبصّرين لاجل تفسير الاحلام والالهامات والمناظر الغريبة والانباء عن امور مستقبلة وكانوا يستندون في تفليكاتهم على هيئة السماء وهيئة امعاء الحيوانات والطيور وغير ذلك وكان الرومانيون يعتقدون بها كل الاعتقاد . وكان اولئك المنجمون في رومية يفسرون للشعب ارادة الآلهة من جهة اشهار الحرب او عقد الصلح حتى لم يكن احد يجسر على مناقضتهم ومن فرط اعتقاد الناس بهم لم يباشر احدٌ عملاً مهمًّا قبل ان يستشيرهم و ياخذ رايهم فلذلك كانت وظيفة المنجم ذات اهمية عظيمة حتى كان كثيرون من خواص ارباب المجلس العالي يجتهدون في الحصول عليها . وكان كاتو وسيسرون المعدودان من افراد رجال رومية في العالم وذكاوة العقل من جملة اولئك المنجمين ولكنهما لم يكونا يعتقدان في تلك الحيل والخرافات الكاذبة ويقال ان

كانو المذكور قال يوماً لاحد اصحابهِ كيف يمكن ان ينظر منجمٌ الى وجه منجم اخر ولا يضحك

اما ديانة الرومانيين فهي مستعارة من الديانة اليونانية وكانت عبادة جوبيتراي المشتري وغيرهِ من الآلهة متضمنة فيها . وكانوا يعتقدون بالهٍ خصوصي لكلٍ من فضائل الناس ورزاياهم وقواهم الجسدية والعقلية ولكل شيء مادي او جوهري من العالم المنظور وغير المنظور وكان لهم ايضاً الهة خصوصية لكل وادٍ وجبل وساقية وكثيرًا ما كانوا يؤلّهون علماءهم وابطالهم العظام وبالاختصار ان جميع انواع العبادات الوثنية كان جائزاً استعمالها في رومية . اما اليهود والمسيحيون الذين لم يكن بينهما فرقٌ عند الرومانيين فكابدوا مشقات كثيرة بسبب الاضطهادات البربرية التي اثارها عليهم اولئك القوم واستمرت الحال على مثل ذلك مدة طويلة حتى انتصرت اخيرًا العقائد النصرانية على تلك الخرافات الباطلة وصارت ديانة السلطنة . وكان للرومانيين هياكل كثيرة جميلة البناء مزخرفة بالمنحوتات المستظرفة ومملوءة من التقدمات التي كان الشعب ياتي بها وكان عدد اكبرها واشهرها ما ينوف عن الاربع مئة وكان الكهنة يخدمون في تلك الهياكل ويقدمون ذبائح من الثيران والغنم وغيرها من الحيوانات . وكان لهم هياكل اخرى برسم الآلهة التي من الطبقة الثانية وهي اقل ظرفاً من الاولى ودعوها البيوت المقدسة وكان في بيت كل عائلة غنية معبدٌ مختصٌ بها لاجل عبادة الهتها الخصوصية

اما الزواج فكان عندهم من الامور الضرورية وعاقبوا من امتنع باشد القصاصات الصارمة وفي بعض الاجيال فرض قضاتهم وقتاً مخصوصاً لزواج الشبان فيلتزم من بلغ السن المعين ان يتزوج في برهةٍ محدودة وجعلوا ذلك فريضة شرعية . وكان اوغسطوس ايضاً يشدّد القصاصات على الذين يتوقفون عن الزيجة ويمنح كثيري النسل عطايا كثيرة . وكانوا يخطبون البنات مدة طويلة قبل عقد الزواج الذي يجرونهُ باحتفال عظيم بحضور الكهنة والمنجمين

ويحررون شروط الزيجة بمحضر جمهور من الشهود وكان القرينان يثبّتان تلك الشروط بقشّةٍ يكسرانها امام الحاضرين وبعد ذلك يهدي العريس عروسهُ خاتمًا تلبسهُ في الوُسطى من يدها اليسرى لاعتقادهم انهُ يوجد عرقٌ يمتدُّ من تلك الاصبع الى القلب ثم يختمون احتفالهم بضيافةٍ يقيمها ابو العروس . وعند تمشيط العروس وقت الزفاف كانوا يفرقون شعرها بسنان رمح اشارةً بانها



هيئة ملابس الراس عند نساء الرومانيين القدماء

ستكون عن قريب قرينة مقاتل ثم يتوجونها باكليل من زهور ويضعون على راسها منديلاً يليق بها وعند نهاية لبسها يرافقها الى بيت العريس ثلاثة صبيان ممن كان والدوهم احياء ويُحمل امامها خمسة مشاعل ومردن ومغزل . وعند وصولها الى البيت تربط جوانب الباب بحبال من صوف مغمسة في شحم مذوّب لاجل منع قوة السحر وبعد ذلك يحملونها ويدخلون بها الى الغرفة اذ لم يكن يسمح لها ان تدوس العتبة برجليها ثم يتقدم العريس ويهديها مفاتيح البيت

مع اناءين فيهما ماء ونار. ثم يصنع ضيافة عظيمة لجميع اهل العرس مصحوبة بالات الطرب والرقص وكان المدعوون ينشدون مدائح للعريسين

وكانت العادة عند الرومانيين ان يحرقوا موتاهم كما كانت تفعل اليونان في الازمنة القديمة غير ان هذه العادة القبيحة لم يكونوا يستعملونها الاَّ في ايام المشيخة الاخيرة وبعد ذلك أُدرِجت في اقطار المملكة واستمرت الى حين دخول الديانة المسيحية وكانوا يفركون جثث الاموات بانواع الطيب ويلبسونهم الثياب الفاخرة ويلقونهم على فراش مغطًّى بالزهور ويزينون ابواب البيت باغصان السرو. واذ كانوا يعتقدون ان شارون الموكل بارواح الاموات لا يحمل روح الميت ويعبر بها نهر الموت ما لم ياخذ الرسم المعيَّن كانوا يضعون قطعة صغيرة من النقود في فم الميت رسم شارون المذكور. وكانوا يوقدون المشاعل ويحملونها امام الجنازة واقرباء الميت واصدقاؤهُ يحملون جسدهُ على نعش مكشوف مغطًّى باثمن الاقمشة وموكب الجنازة يسير تحت ادارة شُرَط الرومانيين. فاذا كان الميت جنديًّا يضعون عليهِ علامات رتبتهِ وترافقهُ الجند منكسي الاسلحة امامهُ حسب العادة الجارية الآن وكانوا يحملون امام النعش تماثيل الميت وتماثيل سلفائهِ وبعد ذلك ياتي الموسيقيون والندابون والرقَّاصون والمهرّجون ويمشون امام الميت ثم يسير وراء النعش اهل الميت وبناتهُ في الملابس المحزنة يلطمن ويندبنهُ مكشوفات الرؤُوس ومحلولات الشعور ثم القضاة والاشراف بدون ثياب رسمية ثم عبيد الميت الذين كان قد حررهم في مدة حياتهِ لابسين طرابيش الحرية. اما جنازة العظماء والاعيان من ذوي الرتب فامتازت عن غيرها في الاحتفال والمدائح التي تتناشدها اصحاب الميت فوق جثتهِ في الكابيتول وكان ذلك كثير الاستعمال في اواخر مدة المشيخة وعند نهاية هذه الاحتفالات كانوا يرشون القبر وينثرونهُ بالزهور ويودعون الميت وداعًا اخيرًا وبعد ذلك يرش الكهنة جميع الناس الحاضرين بالماء ويصرفونهم الى بيوتهم. ولكن لما أُدخلت عادة حرق اجساد الموتى كانوا يطرحون الجسد على حزمة من حطب

على شبه مذبح ثم يدور الجمهور حولهُ بكل هدو على صوت الات الموسيقى ثم يتقدم احد الاقرباء بمشعل ويضرم النار في ذلك الحطب ثم يلقون الاطياب في اللهيب ويطفئون الوقيد المشتعل بالخمر ثم يجمعون الرماد في آنية ثمينة ويلقونها في قبر العائلة . واذا كان الميت من طغمة الجنود فيضعون سلاحهُ والغنائم التي يكون قد سلبها من العدو على الحزمة المقدم ذكرها لتحرق مع البقية

واذ كان الاعتقاد العام عند الاقدمين بان ارواح الاموات يسرها سفك الدم كانوا يذبحون على قبر الميت تلك الحيوانات التي كان يميل اليها في مدة حياتهِ. واما في الازمنة القديمة المتوحشة فكانت تلك الذبائح بشرية فكانوا يأتون بالعبيد والاسرى ويذبحونهم على قبور ساداتهم واحياناً كان ياتي بعض الاصحاب ويقدمون انفسهم للذبح حبًّا بالمفقودين وجرت بعض حوادث نظير هذه بين الرومانيين الاقدمين لكنهم مع تمادي الايام ابطلوا تلك العادة القبيحة عند ما ابتدأوا يتمدنون

اما صنائع الرومانيين القدماء فانحصرت في حراثة الارض وبعض مهن بسيطة متعلقة بها وكانوا يعتبرون امهر الحراثين كافضل الناس. وكان الحراثون يميلون الى الخرافات فكانوا يمتنعون عن الاشغال كافةً في خامس يوم من الهلّة . وفي السابع والعاشر منهُ كانوا يزرعون الدوالي ويضعون النير على صغار البقر لاجل التطبيع . وفي العاشر منهُ يباشرون في السفر. وكانوا يأتون بجمجمة حمارٍ ويعلقونها على حدود الحقول لاعتقادهم بان ذلك مما يحسّن تربتها ويمنع عنها المحل. وفي زمان المشيخة الاولى لم يكن في بساتين الرومانيين سوى قليل من انواع البقول واشجار الفاكهة واما التفاح والكرز وغيرهما من الاثمار اللذيذة والزهور الجميلة فقد استجلبوها من بلاد العجم واسيا الصغرى بعد مدة طويلة . وكانت العادة عندهم ان يظللوا مساطب جنائنهم ومماشيها باغصان الدوالي ويعلقون فيها التماثيل ويحيطونها بسياجاتٍ مرتفعة من الشوك والعليق. والمرجح ان الرمانيين اكتسبوا معرفة زرع الكروم واستخراج الخمر من اليونانيين فكانوا

وقت استخراجهِ يبتهجون ويفرحون ويصبُّون الخمر الجديد على الارض اكرامًا للمشتري والزهرة ؛

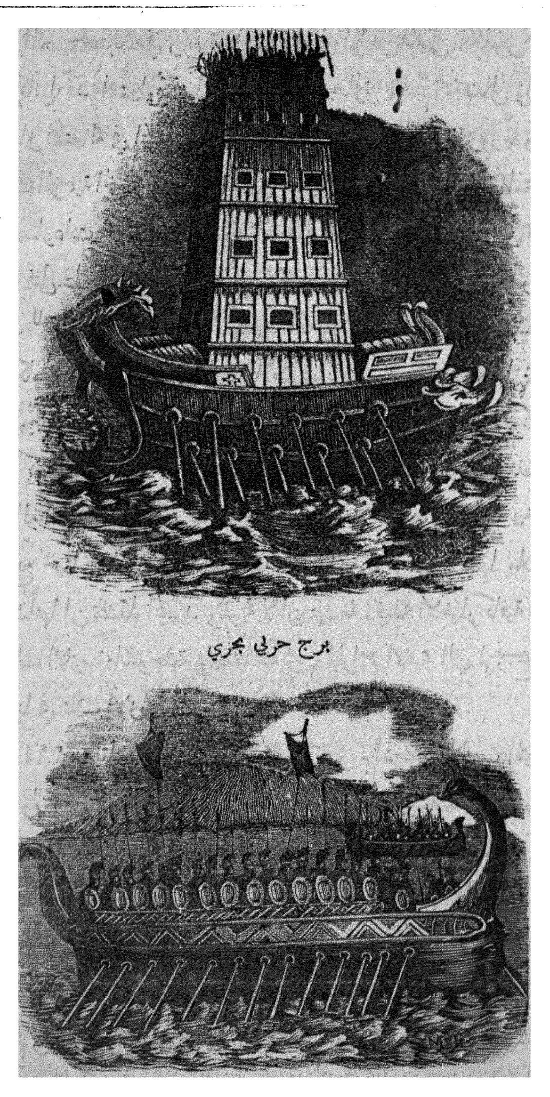
وكان للرومانيين اليد الطولى في الابنية والنقش على الحجر والمرمر وفي اقامة الجنائن المستظرفة . ومن اشهر ابنيتهم في تلك الاعصار قصر الفيلسوف بيليني صاحب الثروة العظيمة فكانت لهُ املاك عديدة منها القصر المذكور الذي لم نضرب صفحًا عن ذكرهِ لشهرتهِ في بطون التواريخ

ولما كانت حروب الرومانيين تكاد تكون متواصلة الاَّ قليلاً كانت امورهم العسكرية وما يتعلق بمهامها الحربية تشغل انتباه اشهر رجالهم وتوجه التفات الجمهور الى الاستعدادات والاختراعات التي من شانها ان ترفع شانهم وتلقي هيبتهم في قلوب اعدائهم . وحكمت الشريعة وقتئذٍ على كل رجل من احرارهم ان يخدم في العسكرية رغمًا عنهُ في اي وقتٍ كان من سن السبع عشرة الى سن الست والاربعين . وكانت القوات الرومانية مقسومة الى فرق ومواكب فاشتملت كل فرقة على ثلاثة الاف من العساكر المشاة وثلاث مئة من الخيالة ثم زادوا عددها بعد ذلك فجعلوها سبعة الاف وكان بيرق الفرقة نسرًا من فضة يحملهُ ضابط من ذوي الرتب على رمح . اما الخيالة فكانوا يحملون علامات من شريط منقوش عليها باحرف ذهبية الاحرف الاولى من اسم الامبراطور وعدد الفرقة . ولم يكن عندهم من آلات الموسيقى العسكرية سوى النفير . وكان بعض العساكر يتسلحون بحرباتٍ خفيفة والبعض بحربات ثقيلة ويتقلدون الاتراس والبلطات على اليمين ويتدرعون بدروعٍ من نحاس او فولاذ وتحت الدرع ثوب احمر واصل الى الركبة وعلى رؤُوسهم خوذ من نحاس بشراريب من شعر الخيل . واما القواد فكانوا يلبسون قمصانًا مدرَّعة بحشفاتٍ من النحاس او الفولاذ مصفحة احيانًا بالذهب وتحتها اثوابٌ ضيقة واصلة الى اواسط الساقين . وكانوا يركبون الخيل بدون ركابات وكانت سروجهم قطع قماشٍ ملفوفة بحسب

رغبة الراكب وكان تدبير العساكر ونظامها متقنًا غاية الانقان وقوانينهم في غاية ما يكون من الصرامة

اما مراكب الرومانيين البحرية فكانت على شبه مراكب قرطاجنة غايظة وضعيفة البناء عالية المؤخر والجوانب ومع انها كبيرة لم تكن تصلح لمصادمة الانواء والارياح العاصفة وكان لها صفّان او ثلاثة صفوف من المقاذيف بحسب عدد طبقاتها اما مقدمها فكان مدرعا بالحديد على هيئة راس حيوانٍ وعلى ظهرها الاعلى برجٌ غير ثابت تستخدمهُ العساكر كمتراسٍ لاطلاق الاسلحة وفيهِ جسرٌ يستعملونهُ وقت العبور والهجوم على مراكب العدو. وقبل اكتشاف آلة الحك التي بواسطتها استؤمن السفر في اواسط الابحر كان سير المراكب منحصرًا في الشطوط. وحُسِب المركب كبيرًا اذا كان محمولهُ نحو ثلاثة الاف كيلة. وكان تجار الولايات البحرية التي على شطوط البحر المتوسط يجلبون الى رومية جميع انواع محاصيل الشرق غير ان تلك التجارة انحصرت فيما بعد باهل رومية بعد ان فتح اوغسطوس الديار المصرية وصارت حينئذٍ مدينة الاسكندرية مركزًا لتلك التجارة

وكان للرومانيين مراسح كثيرة قد شيدوها لاجل الفرجة على الوحوش الضارية وعلى مصارعة الابطال وانواع الملاعيب بالسيف. وكانوا يحفظون الوحوش البرية في اوجرة حول الفسحة الوسطى من المراسح ويصونون تلك الفسحة تصوينًا متينًا ويحيطونها بقناةٍ من الماء لاجل صيانة المتفرجين وعند اجتماعهم في هذا المرسح كانوا يطلقون الوحوش بعضها على بعض فكانت تضر ببعضها ويُقتل كثيرٌ منها. ويقال انهُ قُتِل منها احد عشر الفًا في مشاهد الاشهر الاربعة التي اقيمت فيها الافراح لاجل انتصار الرومانيين على اهل داسيا وقتل ايضًا في حادثةٍ اخرى نظيرها خمس مئة اسد في برهة وجيزة. وكثيرون ايضًا من المسيحيين الاولين ماتوا شهداء بواسطة طرحهم للوحوش في تلك المراسح. ومن ملاعيب الرومانيين التي افتخروا بها المصارعة بالسيف اي لعب الحكم وهذا



برج حربي بحري

سفينة حربية رومانية

النوع من اللعب حدث في رومية على ما قيل في اواخر الجيل الخامس من تأسيسها وكانوا قد استعملوهُ في اول الامر امام جنازةٍ بقصد الاحتفال والتعظيم ومن ثمَّ صار استعمالهُ في الجنازات العمومية وبعد ذلك حسبوهُ ضروريًّا وواجبًا للاحتفالات الرسمية التي اقيمت في ايام المواسم والاعياد: اما الاسلحة التي استعملوها في تلك المصارعات فكانت مضرة وقاتلة وكثيرًا ما وقع عددٌ وافر من اولئك المصارعين قتلى على الارض لاجل تفرُّج الاخرين . وفي اول الامر خصصوا تلك المصارعات للمجرمين او للاسرى ثم للعبيد فكانوا يتصارعون باسلحة مختلفة تارة بالاسلحة الكاملة واخرى بحربةٍ ذات ثلاث شوكات وشبكة بواسطتها يجتهد احد الخصمين ان يعرقل خصمهُ ويشبكهُ بها وهكذا يتمكن من قتلهِ . وكان الامبراطور كومودوس يشترك احيانًا كثيرة في تلك المصارعات متحفظًا على نفسهِ باعتقالهِ الاسلحة الكثيرة . واستمرَّت هذه العادة دارجة ومستعملة بينهم الى الجيل الرابع حينما ابطلها الملك قسطنطين الكبير واقام عوضًا عنها ملاعيب اخرى من شأنها ان تنشط الجسد وتقوّيهُ لا ان تهدمهُ . فهذه الاخبار كافية لتظهر لنا حالة تلك الازمنة المتوحشة وتجعلنا شاكرين المراحم الالهية التي لم تسمح بان يكون نصيبنا في تلك الازمنة التعيسة

وسنة ٤٩١ من تاسيس رومية اي سنة ٢٦٣ ق م ادخلت اللعب التياترية الى رومية ولم تكن في البداءة الاَّ الرقص على انغام الناي ولم تعتبر الروايات عندهم الاَّ بعد ذلك بمئة سنة وقيل ان اول مرسح بني لهذه المناظر كان يسع ٤٠ الف نسمة من المتفرجين . واما الصنائع اللطيفة او الرياضية فلم تُعرَف عند الرومانيين الاَّ بعد الجيل السادس من تأسيس رومية اذ اكتسبها جنودها من الامم الذين فتحوا بلادهم وادخلوها الى رومية . ثم بعد ذلك ابتدأ الاغنياء ان يتقنوا دورهم ويزينوها بالتصاوير وانواع النقوش . وكان في مساكن الاشراف مخادع جميلة فيها مكاتب مُباحة لمن يرغب الاطلاع عليها من الادباء والعلماء وكانت الكتب نادرة الوجود لسبب كلفتها وصعوبة نسخها فكتبت على الرقوق

وبعضها على الورق المصنوع من اوراق النبات المصري المعروف باسم بابيروس فكانوا يَصِلون اطراف الاوراق بعضها مع بعض ويلفونها درجًا ويحفظونها ضمن لفافة من الجلد او الحرير. واما ملابس الرومانيين الاعتيادية فكانت قميصًا واسعًا من صوف لا كمّان له وثوبًا آخر ابيض ضيق يلبسونهُ تحت القميص وقت الخروج من البيت الى السوق وعند رجوعهم الى بيوتهم ينزعون القميص. وكان رجالهم غالبًا مكشوفي الرؤوس يلبسون في ارجلهم تارةً احذية مكشوفة مربوطة بالرجل بواسطة شرائط وتارةً جزمة قصيرة

الفصل الثالث

في اخبار ايطاليا

الباب الاول

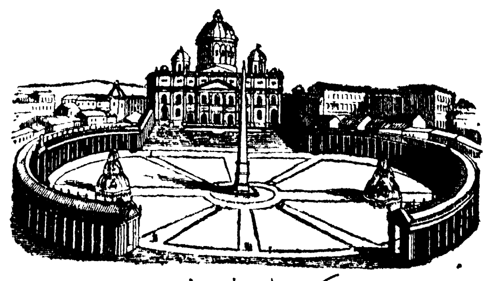
في جغرافية هذه البلاد

هذه المملكة موقعها في جنوبي اوروبا وممتدة الى داخل البحر المتوسط وهي على شكل جزيرة واشبه بفردة جزمة في وضعها وتكوينها وعدد سكانها الآن نحو سبعة وعشرين مليونًا اكثرهم على المذهب البابوي . وحكمها من نوع الملكي المقيد. اما هواؤُها فهو في غاية الاعتدال والنقاوة حتى ان صيتها لا يكاد يختلف

عن فصل الربيع . اما ارضها فمخصبة جدًّا وفيها كثير من الفاكهة المتنوعة كالتين والعنب والبردقان والخمر الجيد وكل نوعٍ من المحاصيل كالارز والقطن وسائر انواع الحبوب وفيها ايضًا دود القز وانواع البرفير والمرمر والرخام. ولاهلها صنائع عديدة يعتنون باتقانها وتحسينها كالتصوير والنقش والابنية المزخرفة والات الطرب وغيرها من انواع كراخين الاقمشة والفخار والفرفوري. واكثر اهلها يحبون الملاهي والمسرّات كالغناء والرقص وجانب عظيم منهم في حالة الكسل والشقاوة والفقر يميلون طبعًا الى تصديق الخرافات والقصص التي لا طائل تحتها

وفي هذه البلاد عدة بحيرات وانهر وجبال. منها البركان المسمى فاسوفيوس الذي بقرب مدينة نابولي وهو جبل شهير وقديم العهد ينقذف منهُ احيانًا دخان ولهيب نار ممتزجة بمواد ذائبة . وفي جزيرة سيسيليا وهي صقلية بركانٌ آخر يدعى اتنا نظير ذاك ويوجد بقربهِ كروم مخصبة من العنب والتين والبردقان والزيتون وبساتين وجنائن عديدة ذات زهور جميلة . وعند هذا الجبل مدينة عظيمة البنيان يقال لها كاتانيا

ومن اعظم مدن ايطاليا مدينة رومية وهي مدينة كبيرة ذات ابنية جميلة وقصور فاخرة عظيمة . وبها كنيسة مار بطرس وهي من ابهج واعظم الهياكل في

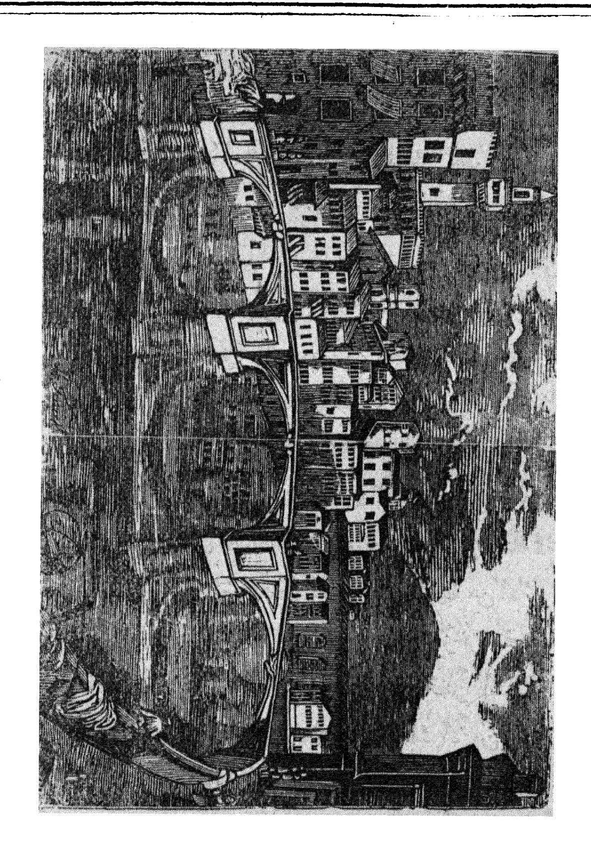


كنيسة مار بطرس في رومية

العالم وبقربها قصر الفاتيكان الشهير المختص لسكن الباباوات . وفي هذه المدينة

كثيرٌ من الصور والتماثيل القديمة التي تفوق على غيرها من تصاوير ومنقوشات باقي الناس في الصنعة وحسن الرسم الدّالة على براعة وحذاقة سكانها الاقدمين ولا سيما خرائبها المتفرقة التي تذهل العقول وتدهش النواظر ببهجتها وجمالها وعظم ارتفاعها. وقد افرزنا فصْلاً مخصوصًا لذكر اخبار هذه المدينة وبعض حوادثها. ثم مدينة نابولي وهي جميلة المنظر وبها ابنية فاخرة. ومدينة فنيس وهي من اشهر مدائن تلك البلاد واجملها. ومدينة تورين عاصمة سردينيا. ومدينة فلورنسا البهجة. ومدينة جينوا واقليم تسكانا الذي هو من اجمل اقاليم ايطاليا واظرفها وغيرها من المدن المشهورة التي لا يسعنا الوقت ان نتعرض لها لان ذلك مما يخرجنا عن موضوع روح الكتاب المقصود بهِ التلميح لا الاسهاب

وخلاصة الكلام ان مملكة ايطاليا بوجه الاجمال جميلة وظريفة جيدة الهواء يقصدها ذوو الامراض من باقي جهات اوروبا واميركا في فصل الشتاء لاعتدال اقاليمها. ويقصدها السياح من جميع الاقطار للفرجة على ما فيها من الاثار القديمة والابنية الفاخرة ولكن مع كل منتزهاتها وحسن هوائها وزخرفة قصور مدنها وخرائب رومية المدهشة لا يرغب السائح ان يتوطن فيها نظرًا لشراسة اخلاق الجانب الاكبر من شعبها والجهل المستولي عليهِ وليس ذلك الاَّ من سوء تصرُّف الولاة والحكام الاقدمين وعدم التفاتهم الى تنوير الشعب. وفي هذه الايام بعد انضمام ممالكها الصغيرة وولاياتها الى مملكة مستقلة اخذ ملكها الحالي فيكتور عمانوئيل في اصلاح شأْنها وتحسين حالة شعبها بواسطة وضع الشرائع والنظامات الحسنة وتاسيس المدارس الكلية واعطاء الحرية اللائقة حتى انهُ في زمنٍ قريب يمكن للايطاليانيين ان يضاهوا باقي اصحاب الرتبة الاولى في التمدن والمعارف



منظر المدينة فلورنسا

الباب الثاني

في تاريخ ايطاليا ويتضمن بعض اخبار البندقية

ان هذه المملكة كانت تسمى قديمًا ساتورنيا ثم غلب عليها اسم ايطاليا نسبةً الى ايطالوس احد ملوكها القدماء الذين وفدوا اليها من اركاديا (وهي قسمٌ من المورة) في الجيل الرابع عشر قبل المسيح . وكان يسكنها وقتئذٍ امم وقبائل

مختلفة الاجناس والالقاب يعسر تاصيلها لتقادم عهدها اذ لم تفدنا التواريخ شيئًا عنهم الى ظهور روملوس مؤسس السلطنة الرومانية التي ضمّت اليها كل بلاد ايطاليا واوروبا واكثر ولايات الشرق الامر الذي الجأنا الى فتح باب مخصوص لاخبار الرومانيين والاختصار في هذا الفصل

وبقيت ايطاليا في ايدي الرومانيين الى ان انقرضت دولتهم سنة ٤٧٦ للميلاد واستولى على البلاد اودواكر ملك الهرول فنزع عنها اسم الدولة الرومانية ودعاها مملكة ايطاليا . ثم افتتحها ثيودوريك ملك الاستروغوث وبقيت تحت تسلط خلفائهِ الى سنة ٥٥٣ حينما استخلصتها من ايديهم السلطنة الشرقية عن يد القائد بليساريوس اوّلاً ثم بواسطة نارسيس القائد الثاني الذي اقيم واليًا عليها في مقاطعة رافينا . وسنة ٥٩٨ اتى ايطاليا قومٌ يقال لهم اللونغوبارد الذين سموا فيما بعد لومبارد واستولوا على اقسامها الجنوبية فانقسمت حينئذٍ الى قسمين قسمٌ سمي ايطاليا اللومباردية وقسمٌ ايطاليا الرومية . فاستمرّت ايطاليا الرومية تحت تسلط ولاة الروم المتنصبين من طرف قياصرة السلطنة الشرقية الى سنة ٧٥٢ للمسيح عبارة عن مئتي سنة وكان عدد ولاتها في المدة المذكورة تسعة عشر واليًا اولهم نارسيس المذكور واخرهم اوتيخيوس وكان كلٌّ من هولاء الولاة يُلقَّب باسم اكسارخوس

وسنة ٧٢٦ حدث هياج في ايطاليا بسبب اختلافات دينية بين الكنيسة الغربية والكنيسة الشرقية انتهت باستقلال امارة رومية ودخولها في سلك الجمهورية تحت رياسة البابا . وسنة ٧٥٢ امتدّ اللومبارديون الى جهة جنوبي ايطاليا فاستخلصوا من الروم جانبًا من املاكهم ودعوها مقاطعة بنفانتو . وبعد ذلك هاجم ايطاليا الفرنساويون في ايام ملكهم بيبين ثم في ايام ابنهِ شارلمان الذي اسس سلطنة غربية مكان السلطنة الرومانية التي انقرضت وتتوّج امبراطورًا عليها سنة ٨٠٠ للميلاد فكانت اغلب ايطاليا من جملة ما لك سلطنتهِ . ولكن بموت كارلوس السمين انتقلت سلطنة الغرب من العائلة الكارلوفنجية

واختلس ايطاليا اكابر امرائها فخصّص كل واحدٍ منهم لنفسهِ ولاية من ولاياتها وكان اشهرها نابولي وتوسكانا وبارما وجنوا ولومبارديا وسردينيا ورومية وفنيس اي البندقية التي هي من اشهر مدائن تلك البلاد واجلها

ومع قلة العلاقات التي كانت بين الدول المختلفة وقلة وسائط الاتصالية كان للايطاليانيين ولاسيما اللومبارديين شهرةٌ ورغبة في التجارة واتقان الفنون وخاصةً بعد مخالطتهم لاهالي المشرق وقت الحروب الصليبية ومع ان الغرض من تلك الحروب والمغازي انما هو مجرد افتتاح البلاد عن هوسٍ خارج عن الصواب قد عادت بالنفع على التجارة وتولع الايطاليانيون في اتقانها بحيث انهُ في القرنين الثاني عشر والثالث عشر كادت تجارات اوروبا ان تكون في ايديهم وكانوا يُحسبون روساء المتجر والصنائع ولم تنحط منزلتهم الى وقت معاهدة المدائن الانسياتيكية للتجارة

واذ كانت فنيس من امهات مدائن ايطاليا التي اكتسبت شهرة عظيمة في الاحقاب القديمة راينا ان نذكر عنها شيئًا قبل استيفاء الكلام عن تاريخ ايطاليا فنقول انهُ في سنة ٤٥٢ للميلاد غزا ايطاليا قومٌ من برابرة شمالي اوروبا وكان بقرب هذه المدينة طوائف من السكان فلما دهمتهم هذه البلية فرَّ بعضهم من وجه مطارديهم وقصدوا سواحل البحر واتخذوها لهم مسكنًا وكانوا يعيشون بالتجارة وصيد السمك واستخراج الملح . وكان هناك عدة جزر صغيرة متقاربة بعضها لبعض فاخذ القوم يقيمون فيها الابنية ويستوطنونها وكانت تتوارد اليها الناس من اكثر الجهات وتنضم الى ذلك القوم حتى في مدة قصيرة اكتست تلك الصخور القرعاء بالابنية والقصور الفاخرة واصبحت كمدينة واحدة متصلة بعضها ببعض بالجسور والقناطر المستظرفة . وعلى توالي الايام اشتهر اهلها في التجارة والقوة البحرية اشتهارًا عظيمًا .وكانت هذه الجزر في اول الامر منفرزة ومستقلة عن بعضها ولكنها في سنة ٦٩٧ اتحدت معًا واقامت عليها رئيسًا عامًّا ليسوسها ويدبر امورها ومن ذلك اليوم صارت تحسب مشيخة تابعة السلطنة الشرقية وبقيت

تابعة لها الى الجيل العاشر حين استقلت استقلالاً تامًّا . وسنة ٩٩٧ لما كان بطرس اورسيولو الثاني رئيسًا عليها قويت شوكتها بهذا المقدار حتى انها اخضعت كل الاساكل البحرية في دلماتيا وايستيريا وصارت تُعدّ اقوى واغنى دولة في اوروبا لاسيا في عمارتها البحرية . وما زالت شوكة الفينيسيين تزداد وتقوى يومًا بعد يوم حتى انهم في الجيل الحادي عشر جهزوا عمارة عظيمة مولفة من مئتي سفينة وارسلوها لمساعدة المشتبكين في الحروب الصليبية الاولى . ثم ساعدوا الصليبيين بعد ذالك على فتح مدينة القسطنطينية سنة ١٢٠٤ وحازوا منها على غنائم وافرة وتحف متكاثرة من نفائس الجواهر والمعادن وانواع الصور والتماثيل المشغولة وجاءوا بها الى بلادهم ولكن بعد ذالك بقليل اخذ طالعهم في سقوط وهبوط اذ حاربتهم مشيخة جنوا واستظهرت عليهم في جملة وقائع . وفي الجيل الخامس عشر حارب فينيسيا السلطان محمد الثاني واستخلص منها عدة جزائر في الارخبيل وبعض ولايات في المورة ولكن لما كانت شوكة اهل البندقية لا تزال عظيمة في اوروبا وصيتهم منتشرًا في كل اطرافها خافهم مجاوروهم وحسدهم ملوك الافرنج على ثروتهم ونجاحهم فاخذ البابا يوليوس الثاني يهيج الدول عليهم وبعد ان استمال اليهِ بعض الملوك اعتصب معهم على اذلال تلك الجمهورية فكان امبراطور المانيا وملك فرانسا وملك اراغون والبابا يوليوس المذكور روساء تلك العصبة المعروفة بعصبة كمبري فاغاروا على البندقية واستخلص البابا جميع المدن التي كانت للبنادقة في الاراضي البابوية واسترجع فرديناند ملك نابولي المدن التي استولت عليها المشيخة المذكورة على سواحل كلابر. فلما راى اهل البندقية انهم محصورون من كل جهة وليس لهم نصير التزموا ان يسلموا بما انت بهِ التقادير وانحصروا داخل اسوار مملكتهم وسنة ١٥٧١ استخلص منها السلطان سليم الثاني جزيرة قبرس وسنة ١٦٦٩ استخلص منها السلطان محمد الرابع جزيرة كريت فهذه المصائب مع غيرها اضعفتها واضرّت بتجارتها جدًّا ولكنها استمرت في استقلاليتها الى الجيل الثامن عشر حينما خضعت لفرانسا . وسنة

١٧٩٨ استولت عليها دولة النمسا وبقيت تحت تصرُّف احكامها الى ان الحقت بمملكة ايطاليا سنة ١٨٦٦ كما سياتي شرح ذلك في محلهِ

اما احوال ايطاليا فاستمرت على الحالة المذكورة آنفًا نحو سبعين سنة وكانت المنازعات فيها متصلة دائمة من اهل الطمع وارباب الفساد فكان المجر يغزون اراضيها الشمالية بينما كانت اقاليمها الجنوبية عرضةً لمغازي الاسلام الذين افتتحوا سيسيليا واستولوا عليها زمانًا يسيرًا الى ان اخرجهم منها امراء نورمنديا واقاموا مكانهم

وبينما كانت الاحوال مضطربة في ايطاليا استدعى البابا يوحنا الثاني عشر اوثون الكبير ملك جرمانيا اليهِ لينقذهُ من جور احد ملوك ايطاليا الذي كان قد تعدَّى عليهِ فسار اليهِ وحارب خصمهُ وافرج عنهُ تلك الشدَّة وتتوَّج ملكًا على كل ايطاليا ثم امبراطورًا على كل السلطنة الغربية وكان ذلك سنة ٩٦٢ للمسيح فاستمرت ايطاليا خاضعة لملوك جرمانيا الى سنة ١٢٦٨ ثم اخذت بعد ذلك تستقل امرياتها الواحدة بعد الاخرى . وصارت كل امريةٍ منها قائمة بذاتها تحت حكم ملك او جمهورية او امرية ودام حال ايطاليا على هذا المنوال الى سنة ١٥٠٤ حين وقع النزاع بين فرانسا واسبانيا في شان هذه البلاد فكانت كل دولة منها تودُّ ان تضع يدها عليها وتستخلصها لنفسها . وبعد ان بذلت فرانسا غاية جهدها في امتلاكها لم تنل بغيتها وفازت اسبانيا باستيلائها على مملكة الصقليتين سنة ١٥٠٥ ثم استولت على امرية ميلان سنة ١٥٤٠ اذ حصرت ايطاليا شمالاً وجنوبًا وتصرَّفت بباقي ولاياتها كما ارادت ولم يبقَ مستقلاً الاَّ البندقية . وفي القرن السابع عشر اخذت قوَّة اسبانيا في ايطاليا ان تضعف وتنقص حتى كادت تزول بالكلية واغتصبت منها اوستريا سنة ١٧٠٦ امرية ميلان ومملكة الصقليتين فبقيتا تحت حكمها مدةً ثم تنازلت عن الصقليتين وعن امرية بارما الى فرعين من عائلة البوربون الاسبانيوليين بشرط ان لا تضمَّ الى مملكة اسبانيا

ولكن لم يمضِ زمنٌ طويلٌ حتى تبدّلت احوال ايطاليا بسبب حروب المشيخة الفرنساوية ووقائع نابوليون الاول الذي بعد ان ضمّ بيمونتي وسافوي الى فرانسا احدث انفصال امرية ميلان عن النمسا وجعلها دولة جمهورية واستعاضت النمسا بدلاً عنها بالبندقية وملحقاتها . ولكن بعد حرب اوسترليتس سنة ١٨٠٥ الزم نابوليون دولة النمسا ان تتنازل عن البندقيّة وضمها الى امرية ميلان وسماها مملكة ايطاليا واقام فيها البرنس اوجان ابن زوجتهِ الاولى نائبًا عنهُ بالملك . ثم افرز نابولي وجعلها مملكةً قائمة بذاتها واقام عليها صهرهُ الجنرال يواكيم مورات . اما توسكانا ورومية وجنوا وغيرها فاضيفت الى اعمال فرانسا . فعلى هذا الوجه كانت كل ايطاليا تابعة فرانسا ما عدا سردينيا وجزيرة سيسيليا . ولكن بعد حوادث سنة ١٨١٤ رجعت رومية وملحقاتها للبابا ورجعت نابولي سنة ١٨١٦ الى فردينند ملكها الاول واستولت دولة النمسا على ميلان والبندقية وسُمّيتا مملكة اللومبارديا والبندقية وهكذا باقي الاقاليم رجعت لاربابها . وفي سنة ١٨٥٩ انتصرت فرانسا لسردينيا لمحاربتها النمسا واستخلصتا منها اللومبارديا واضيفت الى احكام فيكتور عمانوئيل الثاني ملك سردينيا . وفي سنة ١٨٦٠ انعقد اربع جمعيات من عمد اهل ايطاليا بمدينة فلورنسا وبولونيا وبارما ومودينا وبعد مداولات كثيرة استقر الراي على خلع ملوكهم لتقصيرهم وعدم اهليتهم وضم ممالكهم لمملكة سردينيا تحت ولاية الملك فيكتور عمانوئيل المشار اليهِ فاستحسن الاهالي آراءهم ووافقوا عليها وقبل ملك سردينيا هذا الانضمام واخذت الممالك تنضم اليهِ الواحدة بعد الاخرى من ذلك اليوم وكان اول من انضم اليهِ نابولي وصقلية واومبريا التابعة مملكة رومية وغيرها وفي سنة ١٨٦١ نودي بهِ ملكًا على ايطاليا . وفي سنة ١٨٦٦ انضمّت اليهِ اعمال البندقيّة من بعد المعركة الهائلة التي وقعت بين النمسا وبروسيا عندما تحزّبت بروسيا لايطاليا . ثم في سنة ١٨٧١ وضع يدهُ على مدينة رومية وجعلها مقرّ كرسي المملكة . وبعد موت فيكتور عمانوئيل قام مكانهُ ابنهُ هومبر وذلك في ٩ك ٢ سنة ١٨٧٨ وجعل مكان

اقامتهِ في مدينة فيورنسا

فهذا هو بالاختصار تاريخ ايطاليا التي كانت ميدانًا وسيعًا للمشاجرات والحروب بعد انقراض السلطنة الرومانية ومما تقدم يظهر ان هذه البلاد لم تصر قط دولة مستقلة كانكلترا او فرانسا او غيرها تحت ولاية ملك عام او مشيخة عامَّة بل كانت على الدوام متجزّئة بين امراء كثيرين ومنقسمة الى ممالك صغيرة منها مستقلة ومنها تابعة بحيث يعسر وصف كلٍّ منها على حدتهِ واستيفاء الشرح عنها واما انضمامها الآن فهو مما لم يحصل عليهِ الايطاليانيون قبل هذا التاريخ وهذا الاتحاد يتضمن فوائد جمّة تأُول لنجاح الامَّة ووضعها في مصاف ذوي الرتب الاولى

الفصل الرابع

في اخبار رومية وبعض احبارها

انهُ لامر معلوم ان روساء الديانة الاولين كانوا جميعًا متساوين في ما يختص بامر الدين والسلطة الكنائسية غير انهُ امتاز اساقفة المدن الكبيرة على ما سواها نظرًا لوجودهم في مراكز الحكومات واحتياج الغير اليهم لاجل المساعدات . فكانت رومية والقسطنطينية والاسكندرية وانطاكية والقدس مراكز السلطة الكنائسية وتُعتبر اساقفتها على نوعٍ ما كروساء الدين . ولكن اذ كانت رومية كرسي الامبراطورية الرومانية وتخت الدنيا بتمامها كان لاساقفتها شرف وامتياز

على غيرهم فحظوا من الاحترام والاكرام باوفرها ولم يكن لهم امتيازٌ اخر غير ذلك.
وفي اثناء الجيل الرابع فاقت عظمة رومية والقسطنطينية على باقي المدن المذكورة وانحصرت فيها سطوة اساقفتها ومن ثمَّ اخذت كل منها تدَّعي السيادة والرياسة على اختها فوقع النزاع والخصام بين الكنيستين اعني الشرقية والغربيَّة واستمر البغض والحسد بينهما الى اوائل الجيل الثامن في ايام ليو الثالث امبراطور الشرق الذي قاوم مسئلة عبادة الصور والتماثيل بينما تشبَّثت رومية في استعمالها فانفجرت حينئذٍ العداوة الظاهرة بين الكنيستين وحصل الانقسام الذي لم يعد يجد سبيلاً للانضمام

وفي اواسط الجيل الثامن لما لم يجد غريغوريوس الثاني اسقف رومية طريقًا لابطال تشبُّث الكنيسة الشرقية في رفض عبادة الايقونات حوَّل قواهُ الى تهييج الشعب الروماني للانتقام الى هذه المسئلة الدينية فعصت رومية ورافينا على قوادها وولاتها المتولجين ادارة الاحكام من قبل سلطنة القسطنطينية وتقلَّد كل سكان ايطاليا السلاح واثاروا هيجانًا عظيمًا في كل اقطار البلاد وكسروا جميع تماثيل قياصرة الرومانيين الموجودة في رومية وقتلوا الوالي الكبير المقيم في رافينا وكل مقاومي مشروع عبادة الصور واستقلت امارة رومية وصارت دولة جمهورية تحت رياسة البابا . ولكن مع ذلك لم يكفَّ ولاة الروم عن مقاومة البابااوات ومضادتهم فكانت الاحوال في اضطراب عظيم فانتهز فرصة هذه الثورات لويتبراند ملك لومبارديا واستولى على رافينا واخضع جميع المدن التابعة لها ثم استرجعها منهُ عاجلاً سلاطين الروم واذ لم يستطيعوا ان يحفظوا البلاد كالايام السابقة نهض استولفوس ملك لومبارديا وافتتح رافينا من ايدي ولاة الروم وتهدد رومية بالخراب فنهض البابا استفانوس الثالث وذهب الى فرانسا مستغيثًا بملوكها فانجدوهُ واستخلصوا من اللومبارديين ولاية رافينا واهدوها للحبر الروماني ليستولي على محاصيلها وايراداتها وينفقها في منافع الكنيسة ويكون هو رئيسًا مدنيًا خاضعًا لاحكام فرانسا . وصادق على ذلك الملك شارلمان

وزادهُ اراضي اخرى كان قد استملكها من مغازيهِ على لومبارديا فصارت تملكات الحبر الروماني عظيمة وغناهُ وافرًا جدًّا وازدادت ثروتهُ يومًا بعد يوم لتوارد الهدايا اليهِ من كل جهة ومكان وقدَّم لهُ كثيرون من الامراء والاعيان قرًى ومقاطعات برمتها حتى انهُ في وقت قريب اجتمع في شخص البابوات سطوة الدين والدنيا وصاروا ملوكًا ارضيين ورؤساء دين معًا بحيث ان عظمتهم كانت مساوية لسطوتهم بلا حدٍّ وهكذا مع تمادي الايام صار للبابوات اهمية عظيمة وحق كبير في تولية ملوك الارض وعزلهم حسب مشيئتهم

اما كلمة بابا فكانت قديمًا تُطلق على جميع الاساقفة بدون استثناء ولم تخصص بالحبر الروماني الَّا في سنة ١٠٧٣ في زمن غريغوريوس السابع الذي شيَّد اركان سلطة البابوات السياسية فكانت سطوتهم يومئذٍ في اعلى طبقة سائدة على كل ملوك الارض اذ كان لغيرهم من الملوك تاجٌ واحد واما هم فكان لبعضهم ثلاثة تيجان احدها فوق الاخرى دلالة على السلطة المثلثة المجتمعة فيهم وهي رياسة الكنيسة العموميَّة واسقفية رومية والولاية المدنية على الاراضي الرومانية . وبلغ اعتبار هولاء الاحبار الى هذا المقدار حتى انهم احيانًا عندما كانوا يعلون ظهور الخيل يمسك لهم الركاب كثيرون من الملوك والسلاطين . وكانوا احيانًا يصدرون حرمًا على امَّةٍ باسرها ويامرون بمحاربتها وكان اذا انكر احد سلطة البابا يُحرَق وهو حيٌّ . وسنة ١٠٧٧ الزم البابا غريغوريوس هنري الرابع امبراطور المانيا ان يقف حافيًا ثلاثة ايام في فصل الشتاء امام باب قصرهِ ليطلب منهُ الغفران وقد استوفينا هذا الخبر في ترجمة هنري الرابع كما سياتي . وسنة ١١٧١ رفس بابا اخر برجلهِ تاج ملك اخر من ملوك جرمانيا حينما كان الملك جاثيًا امامهُ وبالاجمال نقول ان جهالة تلك الاعصار طمست بصائر الشعوب حتى لم يعودوا يروا في رؤساء الدين خطأً فكانوا يذعنون لكل احكامهم واجراءاتهم ويخضعون لكل ما يستقر عليهِ رايهم كانهُ منزلٌ لا عيب فيهِ. والى هذا المقدار اتصلت سيادة البابوات وشوكتهم حتى لم يبقَ في اوروبا مملكة

الا واضطربت من افعالهم ولا ملك الاَّ وتعكر من مطامعهم ولا كرسي الاَّ وارتجَّ من شوكتهم

وفي الجيل الحادي عشر وقع النزاع والخصام بين الباباوات وبين باقي ممالك اوروبا وعلى الخصوص مع المانيا في شان السيامات الاكليريكية التي نشأ عنها حروبٌ كثيرة . لانهُ كما لا يخفى ان الاكليروس في تلك الازمنة كانوا عندما يرتسمون على مقاطعة او ابرشية ملزومين ان يحلفوا لملكهم يمين الامانة والطاعة وبعد ذلك يلقبهُ الملك بلقبهِ الكنائسي ويقلّدهُ وظيفتهُ سواءٌ كان بطريركًا ام اسقفًا ام غير ذلك من الوظائف ويأذن لهُ ان يتصرف بالتملكات المختصة بابرشيتهِ لكونها مربوطة بالتزامات اميرية ثم يعطيهِ عكازًا وسيفًا دلالة على السلطة الزمنية ثم صليبًا وخاتمًا اشارةً على السلطة الروحية وبدون هذا التصريف من قبل الملك لم يمكن الاكليروس الدخول في وظيفتهم

فلم يقبل الباباوات بهذا الامر واخصهم غريغوريوس السابع فانهُ نهض سنة ١٠٧٣ لمقاومة ذلك وطلب رفع مداخلة الملوك في هذا الامر واراد تخصيص هذه الحقوق وحصرها بالباباوات فنشأ عن ذلك مخاصمات قوية ومحاربات شديدة اخصها بين جرمانيا وايطاليا في ايام ملكها هنري الرابع ثم ابنهِ هنري الخامس الذي غزا ايطاليا مرتين واسر البابا اوربانوس الثاني ثم اطلقهُ .واستمرَّ ذلك الحال الى سنة ١١٢٢ حين عُقد صلحٌ بين الطرفين في ايام البابا كاليكتوس الثاني وفُضَّ هذا المشكل على وجهٍ مرضٍ للفريقين وهو ان يكون للملك حق التصرُّف المدني وللبابا التصرُّف الكنائسي . وفي اول الجيل التالي هاجت تلك الخصومات ثانيةً واضطرمت نيرانها وامتزجت بين منازعات اخرى كانت قائمة وقتئذٍ بين قسمين كبيرين في المانيا وايطاليا يقال لهما الغوالف والجبيلين ولكنها انطفأت اخيرًا سنة ١٢٦٨ عند موت كوتراد ملك جرمانيا

ولكن مع كل سطوة الباباوات يومئذٍ وتوطيد سلطتهم على الاراضي الرومانية

كثيرًا ما كانت مدينة رومية تعصيهم وتقاومهم عندما يتذكر اهلها مجدها القديم ويقابلونهُ على حالتها الدنيَّة فكثيرًا ما خلعوا الطاعة ورفعوا علم العصيان ضد رياسة البابوات وكثيرًا ما خُلع الحبر الاعظم عن كرسيهِ ونُفي من رومية حتى التزم في وقتٍ ما ان ينقل البابوات كرسي الحبرية الى افينيون من اعمال فرانسا حيث اقاموا فيها نحو سبعين سنة هربًا وخوفًا من هيجان ومقاومة الشعب . واذ لم يوجد في رومية قوة كافية لتوقيف اسباب الفتن والحركات كثيرًا ما كان يظهر بعض البلغاء من ذوي النباهة والاقدام على عظائم الامور وبواسطة مناداتهم واعمالهم يستميلون قلوب الاهالي الى الاتحاد معهم بطلب الحرية والاستقلال فينشأ عن ذلك تحزُّبات وخصومات تأُول للخلل وسلب الراحة. غير ان تلك المشروعات لم تنجح حق النجاح لان سلطة البابوات كانت كفوءًا لاخمادها واطفاء نيرانها بواسطة القاء القبض على المسببين وقتلهم اما حرقًا بالنار او بحد السيف . ومن اشهر هولاء القوم ارنولددي بريسكي ونيكولا دي ريانزي الذي حكم مدينة رومية مدةً في الجيل الرابع عشر

وكان لاحبار رومية شوكة عظيمة وهيبة قوية ليس فقط بين الناس ولكن بين الدول ايضًا حتى ان الملوك كانت تؤَدي لهم مزيد الاحترام والطاعة وحسب سعيدًا مَن كان ميل الحبر الاعظم نحوهُ . واذ كان للاحبار دخلٌ في الامور المدنية واغراضٌ في الامور السياسية كان ذلك موجبًا لتعرُّضهم الى نتائج تلك المداخلات في اشهار الاسلحة عليهم وعلى اراضيهم وهتك حرمة دين النصرانية . فانهُ امرٌ غني عن البيان انهُ بسبب تحزب البابوات لبعض الملوك او الامراء او لاغراض اخرى دنيوية كثيرًا ما اوجبوا حروبًا في بلاد ايطاليا وانشقاقًا بين الشعب وكثيرًا ما قامت عليهم الملوك وحاربتهم ونهبت رومية وباقي اراضيهم لاسيما سنة ١٥٢٧ في زمن البابا اكليمنضس السابع حين هاجمتهُ جيوش الامبراطور شارلكان تحت قيادة الدوك دي بوربون وفتكت بجيوشهِ واملاكهِ واسرتهُ بعدما نهبوا المدينة واحدثوا فيها وفي الاهالي ما يقصر عنهُ

الشرح وما لا يتصورهُ عقل

وكان البابا اينوسنتيوس في ايام فيليب اوغسطوس ملك فرانسا وابنهِ لويس الثامن في الجيل الثالث عشر قد اصدر امرًا باضطهاد وابادة الولدنسيين والالبيجنسيين وهما فرقتان من مذاهب النصرانية في جنوبي فرانسا. وكان السبب في ذلك ان تابعي هاتين الفرقتين كانوا ينذرون الشعب بالامور الدينية ويجولون من مكان الى مكان حاملين الكتاب المقدس ومبشرين بهِ فالتصق بهم كثيرون من الناس واقتدوا بتعاليمهم من جملتهم بطرس فالدو رجلٌ من قرية فو في فرانسا وتاجرٌ عظيم في مدينة ليون فحركتهُ الغيرة والمحبة الى خلاص الانفس فباع كل املاكهِ ووزعها على الفقراء ثم انهُ ترجم التوراة الى لغة الفودوا وجال كارزًا من مكان الى مكان فتبعهُ كثيرٌ من الناس وتلقَّبوا بالولدنسيين نسبةً الى بطرس فالدو المذكور مقدامهم الشهير ويُعرفون ايضًا باسم فودوا نسبةً الى فو مدينتهِ. ومع ان ظهور فالدو المذكور كان في الجيل الثاني عشر زعم بعض المورخين ان هاتين الشيعتين نبغتا في عهد الرسل ويستندون في اثبات قدميتهما على شهادة معانديهما رئيسي اساقفة طوربن وصانكوريز اذ يقولان ان الولدنسيين هم اقدم القبائل واكثرهم تقوى. واما الولدنسيون فيوكدون ان كنيستهم اسسها الرسل واستمرت من ذلك الوقت متمسكة بتعاليم الرسل البسيطة بدون ادنى تغير. فلما راى الحبر الاعظم نجاح هولاء القوم وانهُ بواسطة تعاليمهم وادعاء عامتهم في حق التبشير تنسلب حقوق الكنيسة الرومانية ويقع الخلل في نظامها شرع في استعمال الوسائط للاشاتهم واثار عليهم اضطهادات شديدة وعدَّهم من المجرمين بالهرطقة واهاج عليهم ملوك فرانسا وباقي الشعب كما تقدم فكانوا يعذبونهم بسائر انواع التعذيبات التي لا تخطر على بال بشر فكان منهم مَن يُحرق حيًّا ومنهم مَن يمزقون اعضاءهُ بالسيوف الى غير ذلك من العذابات الاليمة ودامت عليهم الاضطهادات مدةً طويلة. وكان عدد من قُتل منهم في اثناء هذه الاضطهادات على ما قيل نحو مليون نفس ومع كل ذلك لم يزل

موجودًا منهم الى يومنا هذا نحو عشرين الف نسمة في بلاد ايطاليا

وفي القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر حصل شقاق عظيم في امر اللذين اورث الكنيسة عارًا كبيرًا وذلك ان اثنين او ثلاثة من الباباوات كانوا يجولون في وقتٍ واحد في اوروبا كل واحد منهم يستميل خاطر ملوكها اليهِ المعاضدة في مقاومة الاخر فكان ذلك سببًا لاحتقارهم وانحطاط شانهم والازدراء بمناصبهم السامية فنفرت منهم القلوب وانكر الناس على روساء الدين تلك الاعمال ولا سيما وقت ظهور اسكندر السادس ثم يوليوس الثاني فانهُ ظهر منهما ما كسا الكنيسة عارًا واحتقارًا على مدى الاجيال بواسطة عدم استقامتهما وفساد اعمالها مما لا نريد التعرُّض لذكرهِ

اما انتخاب الباباوات قديمًا فكان يجري بمعرفة الاكليروس والشعب . ولكن اذ كان يحدث من جرى ذلك اختلافات ومنازعات شديدة اوجد البابا غريغوريوس العاشر طريقة مناسبة لرفع اسباب تلك المخاصمات وهي انهُ عند انتخابهم حبرًا كانت تجتمع الكردينالية في مكان معلوم ويُقفل عليهم الباب من خارج فياخذون في المداولة واعطاء القرار في تسمية خليفة للكرسي وكانوا ملزومين ان يتمموا انتخابهم في مدة ثمانية ايام فان لم يتم لهم ذلك في المدة المعيَّنة كانوا يمنعون عنهم المأكولات ولا يقدمون لهم سوى الخبز وقليل من الخمر فقط في كل الوقت الذي كانوا يصرفونهُ علاوةً على الثمانية ايام . ومن شروط ذلك الاجتماع ان البابا الذي سوف يقع عليهِ الاختيار يقتضي ضرورةً ان يكون من زمرة المجتمعين لا من غيرهم . وعندما كان يقرُّ الراي على احد كانوا يحملونهُ على الاكتاف ويأخذونهُ في الحال الى كنيسة مار بطرس وينادون باسمهِ غب اجراء الاحتفالات اللازمة ويقلدونهُ بمفتاحين احدهما من ذهب والآخر من فضة رمزًا الى مفاتيح السماء الموعود بها الى مار بطرس

وللباباوات رسلٌ عند الدول الاجنبية على نوعين احدهما يدعى قاصدًا وهو الذي ينوب عنهُ في الامور الدينية والاخر يدعى نونوس وهو الذي يقوم

مقامهُ في الامور السياسية . واغلب متوظفي حكومة الباباوات هم من طغمة اهل الدين ما عدا العساكر الذين يبلغ عددهم اثني عشر الفًا فانهم من عامة الناس

وسنة ١٥١٧ ظهر مرتينوس لوثيروس من اعمال جرمانيا مناديًا باصلاح الكنيسة فاهتزت ممالك اوروبا باسرها من تعاليمهِ ومؤَلفاتهِ وقد ذكرناهُ واوردنا شيئًا من اخبارهِ في تاريخ جرمانيا فلا حاجة الى ذكرها هنا . ومن ذلك الوقت ابتدأَت السلطة الباباوية الزمنية في السقوط والهبوط يومًا بعد يوم حتى ان بعض الممالك في اوروبا رفضت كل صلةٍ معهم سواءٌ كانت سياسيَّةً ام دينية بعد ان وقع بينهم مخاصمات ومحاربات شديدة . ولم يزل امرهم في انحطاط وسقوط الى سنة ١٨٧١ حين دخل الايطاليانيون الى رومية وجعلوها عاصمة المملكة وذلك عقب انفضاض المجمع المسكوني الذي صادق ونادى بعصمة البابا بيوس التاسع . ولكن مع انهُ فقد السلطة الزمنية لم يزل راسًا للكنيسة الرومانية . اما البابا المتولي الآن فهو ليون الثالث عشر جلس على كرسي الرياسة في ٢٠ شباط سنة ١٨٧٨

الفصل الخامس

في اخبار الدولة الرومانية الشرقية بعد انفصالها عن السلطنة الغربية وذلك من سنة ٣٩٥ الى سنة ١٤٥٣ عبارة عن ١٠٥٨ سنة

قد ذكرنا في ما مضى كيفية انقسام الدولة الرومانية الى مملكتين غربية

وشرقية بعد ان شرحنا اخبار الدولة الاولى وحوادث ملوكها الى زمن انقراضها ونذكر الآن اخبار السلطنة الثانية وما يتعلق بها من اهم الحوادث والاخبار على وجه الاختصار فنقول انهُ بعد وفاة ثيودوسيوس الاول جلس ابنهُ اركاديوس سنة ٣٩٥ على كرسي السلطنة الشرقية . وكان من جملة ممالكها وملحقاتها الخارجية مصر وسوريا وآسيا الصغرى ثم ثراكيا وهي قسم كبير من بلاد الروملي ثم داسيا اي مولدافيا وفلاخيا وما يليها من النواحي . وكان هذا الملك ضعيف الراي عديم التدبير لم يحدث في ايامهِ ما يستحق الذكر فكانت البلاد في راحة وسلام . ومات اركاديوس بعد ثلاث عشرة سنة من حكمهِ وخلفهُ ابنهُ ثيودوسيوس الثاني سنة ٤٠٨ وكان عمرهُ يومئذٍ تسع سنين وكان كابيهِ في ضعف العقل وقلة الادراك فلهذا كانت مدة ايامهِ تحت طاعة وزرائهِ واختهِ بوليكريا فكانت متسلطة عليهِ وقائمة بتدبير المملكة . وحدث في زمانهِ ان قبائل الهونيين اي المجر اغاروا على القسطنطينية فحاصروها وضيقوا على الاهالي بعد ان استولوا على سبعين مدينة ونهبوها فالتزم ثيودوسيوس ان يعقد صلحًا مع قائدهم تحت شروط مهينة للسلطنة

وبعد موت ثيودوسيوس المذكور خلفتهُ اختهُ بوليكريا فكانت ذات حكمة وفراسة موصوفة بالعقل والاداب وهي اول انثى جلست على سرير السلطنة الرومانية . وكان السبب في انتخابها انحطاط مقام الدولة الرومانية والاهانة التي لحقت بها في ايام اخيها وابيها فاقتضى الحال رفع شان الدولة وتقوية شوكتها فاختار اكابر المملكة هذه الاميرة لتكون ملكة عليهم وذلك لما يعهدونهُ من حكمتها وحسن تدبيرها فبايعوها بالملك . ولكن لما كان حكم النساء عند الروم على خلاف العادة خافت من ان يخلعوها بعد ذلك عن الكرسي فتزوجت برجلٍ متقدم في السنّ من اكابر المجلس يدعى مارسيان وفوضت اليهِ امور المملكة فكانت احكامها منفردة ومتحدة مع زوجها ثلاث سنين ثم انفرد زوجها بالملك الى سنة ٤٥٧ وبموت الملكة المذكورة انقرضت عائلة ثيودوسيوس الاول . وبعد

موت زوجها مارسيان تبوأ ليو الاول سرير المملكة بانتخاب قواد الرومانيين وهو اول امبراطور توّجهُ بطركٌ . ثم خلفهُ ابنهُ ليو الثاني سنة ٤٧٤ وكان اولاً رئيس الحافظين في ولايةٍ من ولايات الاناضول . ثم تولى بعده زينو ثم انسطاسيوس وكان هذا الرجل قد نشأ بمدينة من مدن ايطاليا وهو من عائلة خاملة الذكر فارتقى بمهارتهِ الى ان صار من جملة ضباط القصر الملكي فساعدتهُ المقادير الى ان تزوج بالقيصرة اريانة ام القيصر زينو فسعت في ترقيتهِ الى المسند القيصري وامرت المجلس الروماني بانتخابهِ قيصراً وكان في اول حكمهِ مكرماً معظماً من جميع الرعايا ثم سلك مسلك الظلم والعدوان فصار ممقوتاً ومبغوضاً من الجميع . وكان دنيًا بهذا المقدار حتى انهُ كان يعرض بيع المناصب والرتب لمن يشتري . ثم خلفهُ جوستينوس واصل مولدهِ في بلاد الروملي وكان اولاً يرعى المواشي ثم انتظم في سلك العسكرية وارتقى الى اعلى الرتب في ايام ليو الاول ثم استولى على سرير المملكة بالحيلة والخداع بعد انسطاسيوس وسلك في احكامهِ سبيل العدل والانصاف

وبعد جوستينوس قام جوستينيانوس سنة ٥٢٧ للميلاد فزهت السلطنة في ايامهِ وعظمت سطوتها بسبب انتصاراتهِ الكثيرة فاستخلص بلاد افريقية من ايدي الفندال بواسطة بليساريوس القائد الشهير الذي اخضع قرطاجنة ايضاً واسر ملكها جليم واتى بهِ الى القسطنطينية فقتل هناك في وسط محفلٍ عظيم . ومن ذلك الوقت صارت افريقية تابعة سلطنة القسطنطينية . ثم زحف بليساريوس على ايطاليا واخضعها مع سيسيليا وقهر فيتيجس ملك الاستروغوت واتى بهِ اسيراً الى القسطنطينية مقيداً بالزناجير . فهذه الانتصارات والافتتاحات حركت حمية قباذ بن فيروز ملك فارس على حرب الروم وتجهز بجيشٍ عظيم لقتالهم . ولما بلغ خبرهُ جوستينيانوس ارسل اليهِ قائدهُ بليساريوس بالجيوش الكثيرة فجرى بينهما عدة وقائع تارةً انتصر فيها الفرس واخرى الروم فاستمر الحال على ذلك مدة مستطيلة واذ لم يتمكن الواحد من الآخر تمكناً كافياً اوقفا

الحرب ويهادنا مدة خمسين سنة . وكانت قبائل الغوث في ايطاليا قد اظهرت العصاوة يومئذٍ على المملكة الشرقية واستقلت في تلك البلاد فارسل اليها الملك جوستنيانوس القائد بليساريوس ثانيةً ليقاتلها ويخضعها . وعند وصولهِ الى ايطاليا وشى بهِ بعض حسادهِ ومبغضيهِ الى الملك وتكلم في حقهِ بما لا يليق فاستدعاهُ الى القسطنطينية وارسل مكانهُ نارسيس القائد فاستخلص البلاد من ايدي الغوث وادخلهم تحت الطاعة والانقياد ومن ذلك العهد صارت حكومة ايطاليا منوطة بايدي الولاة الروم فكانوا يحكمون عليها ويسوسونها من طرف سلطنة القسطنطينية . وفي تلك البرهة نهض قوم من البلغاريين واتحدوا مع قبائل بلاد السرب وتقدموا بجموعهم الى مكدونية وثراكيا فهاجوها ونهبوها وامتدوا في غزوهم وغاراتهم الى ان اقتربوا من القسطنطينية فخرج لقتالهم القائد بليساريوس المذكور فاوقع بهم وشتت شملهم وكانت هذه الحروب آخر انتصاراتهِ اذ رفضهُ بعد ذلك الملك واكابر الوزراء بسبب وقوع بعض مفاسد وفتن اتهموهُ بها فصار مكروهًا ومبغضًا من الجميع وصرف باقي عمرهِ في الذل والهوان

ولكن مع كل سطوة المملكة وشهرة عظمتها ومجدها من خارج كانت احوالها الداخلية غير مرضية بسبب المصائب التي دهمتها لاسيما بوقوع الزلازل الكثيرة التي حدثت في اقطار المملكة واضرَّت باكثر المدائن وعلى الخصوص مدينة انطاكية فانهُ كان قد هُدِم اكثرها وقتل فيها نحو ٢٥٠ الف نسمة . ثم عقب ذلك وبأٌ عامٌّ دام وقتًا طويلاً . وكان يموت بهذا الطاعون في القسطنطينية يوميًّا نحو خمسة الاف نسمة على ما قيل ثم اتصل العدد الى عشرة الاف في كل يوم واستمر ذلك على مدة ثلاثة اشهر حتى قل عدد الجنس البشري في ايام الملك جوستنيانوس وانقرضت مدائن كثيرة في الشرق من سكانها

واشتهر هذا الملك في اشتغالهِ بمساعدة تريبونيان الفقيه على استخلاص السنن والشرائع الرومانية الكثيرة المجموعة منذ اجيالٍ عديدة وفي سنّ قوانين

وشرائع مدنية تعرف بالقانون الجوستنياني فكان ذلك من اعظم اعمال ذلك العصر وهو الان قاعدة واساس الاحكام المدنية الحاضرة

ثم قام بعد جوستنيانوس ابن اخيهِ جوستينوس الثاني وكان في اول امرهِ حميد السيرة موصوفًا بالعدل والاستقامة ثم ظلم وجار في الرعية واشتغل بالولائم والملاهي عن الاحكام وترك تدبير المملكة بيد زوجتهِ صوفية التي احبت شابًا يسمى طيباريوس متصفًا بالذكاء والاراء السديدة فكانت تستشيرهُ في جميع امورها ولا تعمل الاَّ برايهِ فطلبت من زوجها وحملتهُ ان يتبناهُ وان يوصي لهُ بالقيصرية بعدهُ قاصدةً ان تتزوج بهِ فاجابها الى سوالها وتبناهُ وعهد اليهِ بالمملكة وجعلهُ مستشارًا وشريكًا معهُ في السلطنة . وفي ايام جوستينوس المذكور هاجم شمالي ايطاليا قوم من اللونغوبارد فتملكوها واستقلوا بها بعد ان طردوا منها حكام السلطنة ودعوها ايطاليا اللومباردية . وكان ملك التتر الهبَّارة قد ارسل الى جوستينوس سفراء لعقد معاهدة حبية بين الدولتين فرفض هذا الطلب واظهر التعاظم والكبرياء ثم انفق بعد ذلك مع ملك التركمان وتحالف معهُ على حرب كسرى انوشروان ملك فارس بسبب منازعتهما على بلاد ارمينيا . فقامت الحرب بين جوستينوس وانوشروان واستمر القتال بين الدولتين الى موت الملكين فانقطعت الحرب بموتهما مدةً وكانت مدة حكم جوستينوس ثلاث عشرة سنة

وقام بعدهُ بالملك طيباريوس السالف ذكرهُ . وعند جلوسهِ على كرسي السلطنة اقام حربًا مع هرمز بن انوشروان وارسل لقتالهِ قائدًا من خاص قوادهِ يدعى موريس بثمانين الف فارس فحارب العجم وانتصر عليهم في عدة مواقع . فكافأ الملك هذا القائد بالمواهب الجزيلة وزوجهُ بابنتهِ وعهد اليهِ بالملك . وبعد موت طيباريوس تبوأ تخت السلطنة موريس المقدم ذكرهُ وفي ايامهِ حدثت ثورة في بلاد الفرس الزمت هرمز بن انوشروان ان يفر من البلاد وياتي اليهِ مستغيثًا بهِ فترحب بهِ واكرمهُ وامدهُ بالجيوش واعادهُ الى كرسي العجم

تحت اسم ابرويز خسرو الثاني . ثم حوّل هذا الملك التفاتهُ الى حرب التتر الهبّارة الذين كانوا قد اتوا من اسيا واتحدوا مع اللومبارديين وسكنوا بانونينا التي هي بلاد المجر فارسل لقتالهم قائدًا من قوادهِ واصحبهُ بجيشٍ عديد فانتصر عليهم في خمس وقائع . وكان ملك التتر قد اسر من عسكر الروم في تلك الحروب اثني عشر الف فارس فاعرض على موريس افتداء الاسرى المذكورين وجعل على كل واحد دينارًا . واذ كان موريس موصوفًا بالبخل الذي لا مزيد عليهِ لم يقبل بذلك ثم راجعهُ ملك التتر وطلب منهُ نصف دينار فداء كل راس فرفض سوالهُ وابى ان يعطيهُ شيئًا فاغتاظ ملك التتر من فرط بخلهِ وذبح جميع اسرى الروم فلما اشتهر هذا الامر نفرت طباع الناس من ملكهم وابغضوهُ وحقد عليهِ جميع الجند واظهروا عليهِ العصيان واقاموا مكانهُ رجلًا من رعاع الجند يدعى فوكاس فبايعوهُ بالسلطنة سنة ٦٠٢

وكان موريس وقتئذٍ بالقسطنطينية فلما بلغهُ هذا الخبر فر هاربًا مع عائلتهِ الى خلكيدون فارسل فوكاس في اثرهِ فقبضوا عليهِ وجاءُوا بهِ اليهِ مقيدًا مع اولادهِ وكانوا خمسة فامر بضرب اعناق الاولاد بحضر ابيهم . وبينما كانوا يقتلونهم كان ابوهم ينادي ويقول عادلٌ انت يا الله وعادلة هي احكامك ولما انتهوا من قتلهم امر فوكاس بقتل موريس ابيهم فقتل . ومن اعمال هذا الملك الفظيعة انهُ عند جلوسهِ على تخت السلطنة اصدر امرًا الى عاملهِ بمصر يامرهُ برفض جنس المصريين من الوظائف الميرية فحدث من جرى ذلك اضطراب وفتنة في الاسكندرية وكان اكثر اهل هذه الفتنة طائفة اليهود بالاسكندرية فحكم عليهم هذا الملك ان يتنصروا فتنصروا واعتمدوا رغمًا عنهم

اما خسرو الثاني ملك الفرس الذي هو ابرويز بن هرمز فعند سماعهِ بقتل موريس الذي انقذهُ واعادهُ الى ملك ابيهِ اظهر الحزن والاسف وانتهز الفرصة لفتح باب الحرب مع الروم متخذًا ذلك حجةً وسببًا للانتقام من فوكاس فنهض واستخلص من ولايات الروم الشرقية عدة حصون وقلاع واتصلت

غاراتهُ الى بلاد سوريا وكان فوكاس قد سيَّر جيشًا جرارًا لقتالهِ فانكسر ونفرَّق

وكانت امة الروم قد نفرت من تصرف فوكاس واعمالهِ القبيحة وندمت وزراء السلطنة وباقي الامراء على مبايعتهِ وصمموا على خلعهِ فكتب احدهم رسالة من طرف اكابرهم الى هيراكليوس والي افريقية وهو المعروف عند مؤرخي العرب باسم هرقل ان يحضر لتخليص القسطنطينية من ايدي فوكاس . فلما وقف هيراكليوس على هذه الرسالة جهز عمارة عظيمة وشحنها بالمهمات والعساكر وارسل ابنهُ طليعةً امامهُ ثم سار بنفسهِ الى القسطنطينية وعند وصولهِ اليها قبض الشعب على فوكاس واتوا بهِ الى هيراكليوس وضربوا عنقهُ وعنق اخوتهِ ومن يلوذ بهِ وبايعوا هيراكليوس في سنة ٦١٠ للمسيح وعمرهُ ٣٥ سنة

وقد ذكرنا ان ابرويز خسرو ملك فارس كان قد تغلب على اكثر ولايات الروم الشرقية في زمن فوكاس . فاستمر بافتتاح البلاد في ايام هيراكليوس ايضًا حتى استولى على انطاكية والقدس والاسكندرية ثم اتصلت مغازيهِ الى ديار مصر وبلاد المغرب وصالح مصرًا على ان تدفع لهُ مالاً معلومًا كما كانت تدفع لقياصرة الروم . ثم انهُ بعد هذه الانتصارات قصد بلاد الاناضول واستولى على بروسه الواقعة على بوغاز القسطنطينية واستعان هناك بقبائل التتر الهبارة وتعاهد معهم على ان يغيروا على بلاد الروملي فغاروا على تلك الجهات ونهبوا المدائن والقرى واستمروا في غزوهم حتى اقتربوا من اسوار القسطنطينية وانتشروا في تلك الاماكن. فكانت السلطنة الرومية يومئذٍ في ضيق شديد محاطة بعساكر الاعداء من جميع الجهات حتى لم يبقَ من مملكتها اذ ذاك الاّ مدينة القسطنطينية وبعض اقاليم على سواحل البحر. فلما اشتد الحال على هيراكليوس وأيس من النصرة لقلة عدد العساكر وعدم وجود النقود الكافية لتعيين الجيوش صمَّم ان يسافر الى تونس وينقل سرير ملكهِ اليها لانها كانت من جملة ولاياتهِ الغربية . فصدَّهُ عن ذلك بطرك القسطنطينية وفتح خزائن الكنيسة وامدَّهُ بما يلزم من الاموال

لتعيين الجنود والابطال فصالح التتر المذكورين ورفع عنهُ اثقالهم تحت مبلغٍ معلومٍ من المال ثم انهُ عين جيشًا عرمرمًا وزحف بنفسهِ لقتال الفرس وعند وصولهِ الى كيليكية نصب خيامهُ في ايسوس حيث انتصرْ اسكندر على داريوس فوافتهُ جنود الفرس الى هناك فانتصر عليهم بعد قتالٍ شديد ثم رجع الى القسطنطينية ظافرًا منصورًا . وكانت عساكر الفرس بعد هذه الهزيمة لا تزال تشن الغارة عند وقوع الفرص على ممتلكات الروم المشرقية وتثير الفتن وتلقي الفساد في اطراف تلك البلاد فنهض هيراكليوس ثانيةً لصدهم وردعهم فعبر البحر الاسود وقطع جبال ارمينية وكان قد اتحد مع التركمان على قتال الفرس فامدُّوهُ بجانب من الجند ثم قصد بلاد العجم وعند وصولهِ الى نينوى وقع بينهُ وبينهم قتالٌ مهولٌ انتصر فيهِ جندهُ على الفرس انتصارًا عظيمًا . واتفق بعد ذلك بايامٍ قليلة ان شيرويه وثب على ابيهِ ابرويز خسرو ملك فارس فقتلهُ وجلس مكانهُ وعقد صلحًا مع هيراكليوس بعد ان ردَّ لهُ جميع الولايات التي كان قد افتتحها ابوهُ من الروم فانسحب هيراكليوس بعد ذلك عن حربهِ وارتد راجعًا الى بلادهِ بالعز والنصر

ولكن لم تكن اواخر ايام هيراكليوس كاواسطها فانهُ بعد رجوعهِ الى القسطنطينية اهمل ادارة الاحكام وانهمك في مجادلات دينية من جهة لاهوت المسيح . وفي اثناء ذلك افتتحت المسلمون في ايام خلافة ابي بكر مدينة القدس ودمشق الشام واستولت على جانب كبير من سوريا . وكانت مدة حكمهِ احدى وثلاثين سنة . وكان نائبهُ على مصر المقوقس الذي حاربهُ عمرو بن العاص في ايام خلافة عمر بن الخطاب فافتتح منهُ البلاد

ومنذ موت هيراكليوس الى قيام جوستنيان الثاني سنة ٦٨٥ لم يحدث شيء يستحق الذكر سوى مهاجمة المسلمين القسطنطينية مرارًا عديدة ورجوعهم عنها بالفشل والخيبة . وكان جوستنيان المذكور عنيدًا قاسيًا عديم الشفقة مضطربًا في جميع احوالهِ فمقتهُ الشعب وقواد الجنود فخلعوهُ عن الكرسي وخلفهُ

ليونتيوس ثم طيباريوس الى سنة ٧٠٥ . وكان طيباريوس نظير جوسنيان السالف الذكر فخلعهُ الشعب عن الكرسي فسار الى بلغاريا وهناك جمع عسكرًا ثم رجع كارًّا الى القسطنطينية لاسترجاع تاج الملك فدخلها واغتصب الكرسي قهرًا وبقي ملكًا مدة ست سنوات ثم قام عليهِ الشعب وقتلهُ

وسنة ٧١٦ تبوأ سرير السلطنة ليو الثالث وكان اصلهُ من ايسوريا وهي مقاطعة صغيرة في اسيا الصغرى وهو من نسب حقير الاَّ انهُ كان حاذقًا نجيبًا سريع الادراك للامور البعيدة فارتقى بهذه الواسطة الى رتبةٍ سامية في العسكرية ثم تسمى بعد ذلك قيصرًا واستبد بالسلطنة الى سنة ٧٤١ وفي ايامهِ انفتح باب الجدال بين الكنيستين الشرقية والغربية من جهة عبادة الصور ووقع بينهما الاختلاف والنزاع في شان هذه المسئلة حتى انتهى بهما الامر الى الانقسام وفي ايامهِ ايضًا خسرت الروم جميع تملكاتها في ايطاليا

وكان بعد موت ليو الرابع ان زوجتهُ ايرينا تبوأت كرسي السلطنة بالنيابة عن ولدها قسطنطين السادس الذي كان يومئذٍ صغير السن فلما بلغ ابنها اشدهُ نزع الملك من يدها وقبض على زمام السلطنة فحسدتهُ واضمرت لهُ الشر طمعًا بالملك ثم احتالت عليهِ فاعدمتهُ بصرهُ واستبدت باحكام السلطنة نحو خمس سنين وهي التي اعادت عبادة الصور الى الكنيسة الشرقية . وسنة ٨٠١ ارسلت كتابًا الى شارلمان ملك فرانسا تعرض عليهِ ان يتزوج بها ويضم السلطنتين الى سلطنة واحدة كما كانتا سابقًا فقام عليها قهرمانها نيسيفوروس واستخلص منها كرسي السلطنة وجلس مكانها بعدما نفاها الى جزيرة ليسبوس حيث قضت هناك سنةً كاملة في احتياج وضيق شديد وبقي نيسيفوروس المذكور ملكًا الى ان قتلهُ كرومنوس ملك البلغار سنة ٨١١ . وفي ايامهِ غزا المسلمون اسيا الصغرى وقهروا الروم في املاكهم الشرقية وضربوا عليهم الاموال . ثم خلف نيسيفوروس ميخائيل الاول سنة ٨١١ وكان قد حارب كرومنوس ملك البلغار لياخذ بثار سالفهِ نيسيفوروس فانكسر وانهزمت جيوشهُ والتزم ان يهرب ويلتجي الى بعض

الادبرة . ثم خلفهُ ليو الخامس سنة ٨١٣ وهو ارمني الاصل وكان بطلاً هماماً ذا صولة وهيبة وعند جلوسهِ على كرسي السلطنة جهز العساكر والجنود وسار بنفسهِ لحرب البلغاريين فانتصر عليهم وقهرهم وقتل منهم عدداً كثيراً . ثم خلفهُ ميخائيل الثاني سنة ٨٣٠ . ثم ثيوفيلوس قليل الحظ سنة ٨٢٩ . ثم ميخائيل الثالث سنة ٨٤٢ وهو اخر ملك تولى من ذرية هيراكليوس وكان طفلاً صغيراً فكانت امهُ ثيودورا تحكم عنهُ بالنيابة وكان لها اخ يدعى برداس كان قد اقيم وصياً على الولد في حياة ابيهِ فاخذهُ الطمع في تاج الملك ووجه افكارهُ الى الحصول عليهِ فطفق يستعمل الوسائط اللازمة لنوال المرغوب واذ نجح في مقاصدهِ طرد ثيودورا من القصر الملكي غير مبالٍ بالمعروف الذي كان قد نالهُ من يدها وتصرف بالملك مدة ٢٤ سنة . وكان برداس المذكور محبًّا للعلوم والفنون وهو الذي اقام فوتيوس الشهير بطريركاً على القسطنطينية سنة ٨٥٨ . ولكن لما بلغ ميخائيل سن الكمال نفر من برداس لاختلاسهِ الملك فعمل على قتلهِ بواسطة تابعهِ باسيل واستبد بالاحكام الى سنة ٨٦٧ وكانت الحروب يومئذٍ متصلة بينهُ وبين المسلمين في خلافة المتوكل بالله واخيراً مات قتلاً من يد باسيل

ثم قام بعد ميخائيل الثالث باسيل المعروف بالمكدوني سنة ٨٧٦ وهو اول سلاطين الدولة المكدونية وكان اصل هذا الامبراطور من عائلةٍ فقيرة وسائساً عند سالفهِ ميخائيل الثالث ماهراً جدًّا في تربية الخيل . فاحبهُ ميخائيل ومال اليهِ لقتلهِ برداس واشركهُ معهُ بالاحكام واذ كان هذا الامبراطور موصوفاً بالفراسة والذكاء ومحبًّا لانتشار المعارف لم يحتمل اطوار ميخائيل الفظة وقساوتهُ الشنيعة فعمل على قتلهِ واستبد بالاحكام الى سنة ٨٨٦ واعاد للسلطنة جانباً من عزها وشرفها الاولين باستخلاصهِ كريت والصقليتين ثم باصلاح نظامات وشرائع البلاد وتحصينها وتقويتها بحيث صارت تستطيع ان تفتح حروباً وتقاوم مهاجمات العرب وقبائل اوروبا . ولهذا الامبراطور تاليفٌ يعرف بفن الاحكام كتبهُ لابنهِ ليو طبع في باريز سنة ١٥٨٤ وترجم للغة الفرنساوية سنة ١٥٩٠ ولهُ ايضاً مجموعٌ

للشرائع في ٦٠ مجلدًا تعرف بالباسيلية ابتدا فيها باسيل واكملها ابنهُ وهي مطبوعة ايضًا في باريز حديثًا . واستمرت الاحكام في ايدي سلاطين العائلة المكدونية الى سنة ١٠٥٦ للميلاد ومن اشهر سلاطينها واعظمهم نيسيفوروس فوكاس ويوحنا زميسيس فكانت البلاد في ايامها نامية وزاهية وكان يوحنا زميسيس قد حارب المسكوب عند غارتهم على القسطنطينية فانتصر عليهم وقهرهم . ثم زحف الى سوريا فاستخلص اولاً جزيرة قبرس ثم مدينة انطاكية من ايدي المسلمين وبعد ان ارجف بغاراتهِ قلوب اهل تلك البلاد زحف بالعساكر وقطع نهر الفرات وافتتح مدائن وحصونًا كثيرة في تلك الجهات . ولكن بعد موت هذا السلطان الشهير تبوأ سرير الملك عدة ملوك خاملي الذكر ضربنا عنهم صفحًا وكان اخرهم ميخائيل السادس فكانت المملكة في ايامهِ في حالة السقوط والضعف

ولما راى الروم ضعف ملوكهم وسقوط دولتهم بايعوا اسحق كومنينوس بالسلطنة سنة ١٠٥٦ وكان المذكور من عائلة معتبرة من عيال الرومانيين فاستبد بالاحكام نحو سنتين ثم تنازل بسبب مرضٍ اعتراهُ . ومن خلفائهِ أليكسيوس كومنينوس جلس سنة ١٠٨١ وكانت البلاد في ايامهِ في اضطراب وخطر عظيم من مهاجمات الاتراك واستخلاصهم الولايات الشرقية ومن تهددات النورمنديين وتقدمهم على القسطنطينية تحت رياسة روبرت غيسكار بعدما كانوا استولوا على جميع تملكات الروم في ايطاليا . فنهض اليكسيوس بالجيوش للمدافعة والمحاماة عن بلادهِ من سطوة الاعداء فالتقى بالنورمنديين الذين كانوا يومئذٍ محاصرين مدينة دورانسو فقاتلهم وانهزم من امامهم بعد وقائع هائلة . ثم تجددت تلك الحروب ثانيةً بين الفريقين بحرًا تجاه جزيرة كورفو فكانت الدائرة على اليكسيوس . واتفق في ذلك الوقت موت روبرت غيسكار فانسحب النورمانديون عن الحرب بموت ملكهم وارتدوا راجعين الى بلادهم وكان ذاك سببًا لنجاة السلطنة الرومية وخلاصها من ايدي المغتصبين .

وكان لالايكسيوس الذي نحن في صدده ابنة يقال لها حنة كومينا ذات عقل وادب وذكاء مفرط وكانت من احسن نساء عصرها وانجبهنَّ واعظم من اشتهر من جنس النساء في فن التاريخ . واشتهر الكسيوس هذا في صحف التاريخ بخيانتهِ للصليبيين ومقاومتهِ لهم سرًّا فكان يدعوهم في اول الامر من اوروبا ويعدهم بالمساعدة على اعدائهم ليضعف بواسطتهم قوة الاتراك السلجوقيين الذين كانوا يتهددونهُ بالحروب والغارات ثم عند انتصاراتهم يعمل على ضررهم. وكان جلّ قصدهِ بهذه التدابير السياسية تهييج ممالك اوروبا وتشغيل افكار شعوبها بتجهيز الرجال وجمع الاموال لمحاربة سوريا وفلسطين ليوقي سلطنتهُ من مغازي طوائف الافرنج التي كانت طالما تشتاق الى فتح تلك البلاد طمعًا باكتساب غناها . وقد جاءهُ الامر طبق مرادهِ فانهُ بسبب حروب الاتراك مع الصليبيين انتهز الفرصة فاستخلص عدة مدائن وجزائر كان المسلمون قد استفتحوها منهُ وجعل البلاد ان تكون في امنٍ وسلام ليس فقط في ايامهِ بل ومن بعدهِ ايضًا زمنًا طويلاً

ومن ملوك هذه الدولة اسحق انجيليوس حكم من سنة ١١٨٥ الى سنة ١١٩٥ وفي ايامهِ استقلت بلاد البلغار بعد حروبٍ مهولة وأُخذت جزيرة قبرس وبيعت كريت الى فنيس ثم اظهر العصيان عليهِ اخوهُ اليكسيوس انجيلوس فانزلهُ عن الكرسي وسجنهُ بعدما قلع عينيهِ وجلس مكانهُ . فهرب ابن اسحق المذكور وكان اسمهُ اليكسيوس ايضًا الى مدينة رومية واستغاث بالبابا اينوسنت الثالث في اعادة ملك ابيهِ اليهِ . وكان وقتئذٍ مجتمعًا في مدينة فنيس جمهورٌ غفير من عظماء اوروبا واشرافها بقصد ارسال تجريدة صليبية رابعة الى فلسطين فارسل البابا اليهم اليكسيوس واصحبهُ بتوصية قوية الحّ عليهم فيها ان ينقذوهُ من تعدي عمهِ وظلمهِ . فاجابوهُ الى ذلك وارسلوا معهُ جماعة من الحجاج القاصدين زيارة الاراضي المقدسة مع عشرين الفًا من الفنيسيين الى القسطنطينية وعند وصولهم الى المدينة حاصروها بعد ان احرقوا عمارة الروم المحافظة عليها . ولما

اشتد الحال على اليكسيوس انجيلوس هرب سرًّا خوفًا من القتل فعند ذلك حلّت الاهالي ملكها الاول اسحق من الاعتقال ونادت باسم ابنهِ أليكسيوس وفتحت ابواب المدينة الى اللاتينيين فدخلوها على سبيل الضيافة . وكان لما وعد البابا اليكسيوس بالمساعدة على هذه الكيفية اخذ منهُ وعدًا بانهُ عند نهاية الامر ونوال المرغوب يجعل السلطنة الشرقية ان تكون خاضعة لاحكام الباباوات وقوانينهم وانهُ يكون مساعدًا في جميع الحروب الصليبية وان يعطي منقذيهِ تضمينًا كافيًا مقابلةً لاتعابهم . فاستعظم الروم هذه الشروط ورفضوها ولا سيما انهم نفروا من خدش استقلالية كنيستهم . فاجتمع جمهور اعيانهم وطلبوا من المجلس العالي ان يعزل لهم اليكسيوس بن اسحق المذكور وينتخب لهم امبراطورًا آخر يكون اكثر لياقةً لذلك المنصب السامي . فلبّى المجلس مرغوبهم واجابهم الى مطلوبهم واقام لهم اليكسيوس دوكاس الملقب مازوفلوس ملكًا وعند جلوسهِ على سرير السلطنة قبض على اليكسيوس بن اسحق وقتلهُ واما ابوهُ فمات بعد ذلك في شيخوخة محزنة

واذ لم يفِ مازوفلوس بوعد سالفهِ اليكسيوس الذي تعهد بهِ للبابا نهض اللاتينيون وحاصروا المدينة وتملكوها ونهبوها وهدموا قصورها وابنيتها المستظرفة واقاموا عليها قائدهم بودوين امبراطورًا وبقي ملكًا الى ان مات قتيلاً في وقعةٍ حدثت بينهُ وبين اهالي ثراكيا . واستمر حكم اللاتين على السلطنة الشرقية من سنة ١٢٠٦ الى ١٢٦١ وكانت حروب الروم في اثناء هذه المدة متصلة دائمة مع اللاتين طمعًا باستخلاص العاصمة من ايديهم . وفي غضون ذلك اسست امة الروم مملكتين روميتين احداها في نيقية سنة ١٢٢٣ وملكها ثيودور لاسكاريس والثانية في طرابزون وملكها اليكسيوس كومنتيوس فكانتا في نموّ عظيم يومًا بعد يوم بينما كانت سلطة اللاتينيين في القسطنطينية في هبوط وسقوط . وفي سنة ١٢٦٠ اذ كان ميخائيل باليولوغوس ملكًا على نيقية نهض مع صاحبهِ يوحنا لاسكاريس وهاجما القسطنطينية في زمن سلطانها بودوين الثاني فاستخلصاها من ايدي

اللاتين واعادا اليها تخت السلطنة كما كانت في سالف الازمنة وجلس على سريرها ميخائيل باليولوغوس السالف الذكر وكان يوحنا لاسكاريس الذي اعانهُ واشترك معهُ على استخلاصها وتحريرها منتظرًا الخلافة بعدهُ . فعاملهُ باليولوغوس بقساوة وحشية اذ قلع عينيهِ ونفاهُ من اقطار السلطنة . فحرمهُ البطريرك ارسانيوس على هذا الفعل القبيح واستمر باليولوغوس ملكًا الى ان توفي سنة ١٢٨٠ فقام مكانهُ ابنهُ اندرونيكوس وفي ايامهِ اغار على السلطنة طوائف من الاسبانيوليين فلم يتمكنوا منها وكانت البلاد يومئذٍ في قلق واضطراب بسبب ثورات داخلية

وسنة ١٣٥٥ تبوأ سرير السلطنة يوحنا باليولوغوس وكانت مدة حكمهِ نحو ٣٦ سنة وكان ملكًا ظالمًا قاسي القلب قبيح السيرة ومن جملة قبائحهِ انهُ قلع اعين ابنهِ الاكبر اندرونيكوس وحفيدهِ يوحنا وسجنهما وسمَّى مانويل ابنهُ الثاني وريثًا لهُ . فهاج الشعب من هذا الصنيع الشنيع واجتمع اعيانهم فاخرجوا الاعميين من السجن واعادوهما رغمًا الى كرسي المملكة . فالتزم باليولوغوس ان يهرب مع ابنهِ مانويل وبسبب ذلك وقع تحزبات وانقسامات بين الاهالي الجأتهم الى ان يشهروا السلاح بعضهم على البعض واخيرًا اتفقوا على ان يقسموا السلطنة الى قسمين فخصصوا مدينة القسطنطينية لباليولوغوس وابنهِ مانويل وضموا باقي البلاد الى حدود القسطنطينية للاميرين الضريرين

وفي سنة ١٣٩٥ اغار على القسطنطينية السلطان بايزيد من آل عثمان وتهدد ملكها بالخراب فعقد معهُ صلحًا تحت مالٍ معلوم يدفعهُ لهُ فانسحب عنهُ ثم هاجها ثانيةً سنة ١٣٩٩ تحت حجة الاخذ بثار يوحنا الاعمى فحاصرها وضيَّق عليها فالتزم مانويل ان يهرب الى فرانسا بطلب الامداد والنجدة فلم ينجدهُ احد . واتفق في اثناء ذلك ظهور تيمورلنك واغارتهُ على الولايات العثمانية فاضطر السلطان بايزيد ان يرحل عن القسطنطينية خوفًا من سطوة تيمور على بلادهِ

فكرَّ راجعًا وحاربهُ بقرب مدينة انقرة فانهزمت جيوشهُ وقتل هو في تلك الموقعة. وقام مكانهُ محمد الاول فاستولى على بلاد البشناق والفلاخ ثم جلس بعدهُ السلطان مراد صاحب الوقائع المشهورة مع الدول الافرنجية ولاسيما في موقعة فارنا. ثم صعد بعدهُ على سرير الملك السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح وكان من الشجعان الموصوفين ولم يكن دابهُ الاَّ الغزو والجهاد وافتتاح البلاد وكان قد صمم النية على استخلاص القسطنطينية والاستيلاء على السلطنة الشرقية فجهز العساكر والجنود وعقد الرايات والبنود وزحف اليها بثلاث مئة الف مقاتل. في زمن ملكها قسطنطين الذي هو اخر سلاطينها فحاصرها برًّا وبحرًا الى ان افتتحها قوةً وقهرًا في اليوم التاسع والعشرين من شهر ايار سنة ١٤٥٣ وصارت من ذلك اليوم كرسي سلطنة دولة آل عثمان. وقد مرَّ استيفاء الكلام على حصارها وافتتاحها في تاريخ الدولة العثمانية ومن ذلك الوقت انقرضت السلطنة الشرقية وهكذا بالتدريج فقدت جميع تملكاتها وولاياتها فان اثينا سقطت سنة ١٤٥٦ ثم مولدافيا وبلاد السرب ثم المورة وطرابزون والبانيا ثم بلاد القرم وغيرها من المدائن الاوروبية التي قد مرَّ ذكرها في الكلام عن تاريخ آل عثمان فسبحان
من يغيّر ولا
يتغيَّر

الفصل السادس

في مملكة اسبانيا

الباب الاول

في جغرافية هذه البلاد

ان مملكة اسبانيا هي شبه جزيرة وتحسب من الممالك الشهيرة نظرًا لوضعها وقدميتها ومحاصيلها . اما هواؤها فجيدٌ لا يتسلط فيها البرد الشديد كباقي البلاد الشمالية . وفيها كثيرٌ من الجبال المصخرة المرتفعة واودية مستظرفة مبهجة الى الغاية . اما حدودها فللشمال الشرقي فرانسا يفصلها سلسلة جبال البيرانيز اي جبال البرنس وللشمال الغربي الاوقيانوس الاتلانتيكي وخليج بيسكي وغربًا البورتوغال وجنوبًا البحر المتوسط وبوغاز جبل طارق الفاصل بينها وبين افريقية وشرقًا البحر المتوسط ايضًا . ومن جملة ما ينبت في هذه البلاد القمح وغيرهُ من الحبوب والنباتات والبقول وانواعٌ من الاثمار والفواكه كالرمان والتين والليمون واللوز خصوصًا العنب الذي يستخرجون منهُ الخمر الجيدة . ويوجد فيها من احسن اجناس الخيل ولا سيما الغنم المسماة مروية وهي ذات اصواف عظيمة رفيعة يصنعون منها الشالات النفيسة والاقمشة الثمينة . وبها ايضًا عسل النحل والحرير والقرمز وغير ذلك

اما سكانها فيبلغ عددهم سبعة عشر مليونًا عدا سكان املاكها الخارجية . واكثر اهلها في حالة الغباوة ويمتازون بصلابة الراي . والفقر بينهم كثيرٌ من

جرى حروبهم الداخلية التي تكاد تكون متواصلة ولكن مع ذلك توجد فيهم الاناسة واللطف وهم يحبون الملاهي والمسرات

وعاصمة هذه المملكة مدينة مادريد وهي من المدن الظريفة تحتوي على ٢٧٥ الفًا من السكان يحيطها سور كبير وازقتها عريضة ونظيفة وفيها من الابنية والمعامل والمدارس والمكاتب ما يكفي لان يجعلها بين صفوف مدائن الرتبة الاولى وكانت في زمن تملك الرومانيين قرية حقيرة ولما افتتحها المغاربة سنة ١١٠٩ اقاموا فيها الحصون والابراج واطلقوا عليها اسم مادريد . وسنة ١٤٠٠ اعتنى بتحسينها وتكبيرها الملك هنري الثالث ولكنها لم تصر عاصمة المملكة الاَّ سنة ١٥٦٣ في ايام فيليب الثاني

ولهذه المملكة تملكات خارجية يبلغ عدد اهلها نحو ستة ملايين ونصف منها جزيرة كوبا الشهيرة وجزيرة بورتوريكو في اميركا وهي التي اكتشفها كريستوفوس كولمبوس سنة ١٤٩٢ ومن ذلك الوقت صارت من تملكات الاسبانيوليين ولكنها دخلت في ايدي الانكليز مدة قصيرة ثم ارجعتها لاصحابها والمرجَّح بانها لاتبقى تابعة اسبانيا زمنًا طويلاً وسيصيبها ما اصاب باقي تملكاتها في اميركا . ومنها ارخبيل الفيلبين بين جزائر الاوقيانوس

وفي هذه المملكة قصور وكنائس وابنية فاخرة من اعجب ما يوجد في العالم اقامها العرب في زمن تملكهم تلك البلاد . اما الديانة الغالبة فهي اللاتينية

الباب الثاني

في تاريخ اسبانيا منذ منشإها الى ظهور فردينند وايزابلاَّ في الجيل الخامس عشر للميلاد

ان اول من دخل اسبانيا الفينيقيون بقصد التجارة لكثرة معادنها وغلاَّتها فكانوا يبيعون لاهلها محصولات بلادهم ويجلبون منهم الذهب والفضة . ولكثرة

ترددهم اليها بنوا عند مضيق جبل طارق عمودين كبيرين وهما المعروفان بعمودي هركول فكانا علامة حدٍّ لاسفارهم اذ لم يتجرَّأوا وقتئذٍ على الدخول الى المحيط الشاسع. ثم بعد الفينيقيين دخل اليونان الى اسبانيا وبنوا فيها عدة مدائن. ثم دخل بعدهم القرطاجنيون وتملكوها ولكنهم لم يلبثوا زمانًا طويلاً حتى استخلصها الرومانيون من ايديهم سنة ١٣٤ ق م وبقيت في حكمهم الى سنة ٤٠٦ للميلاد حين اتى قومٌ من برابرة شمالي اوروبا يدعون سوافيين وهم قبائل مختلفة من شعوب جرمانيا كالسكيثيين والفنداليين الذين باسمهم تسمت البلاد انداوسيا اي الاندلس واستولوا عليها. فسكن بعض هذه القبائل فيها مدة قصيرة ثم رحلوا عنها وبعضهم اقاموا فيها اكثر من مئة سنة. وفي اثناء ذلك اتى قومٌ من نواحي الدنيمارك واسوج ونروج سنة ٤٧١ للميلاد يدعون بالغوثيين فدخلوا الى اسبانيا وتغلبوا عليها واستولوا على قسمٍ من فرانسا ايضًا. وكان اليونانيون يترددون كثيرًا على اسبانيا حتى صار لهم جملة مراكز على الشواطي البحرية في زمن الملك جوستنيانوس فنهض الغوثيون لمقاومتهم سنة ٦٢١ وابعدوهم عن تلك الجهات واستقلوا في البلاد بدون معارض ولا منازع وكانت مدة اقامتهم فيها نحو ٣٠٠ سنة. وكان آخر ملوكهم رودريك الذي في ايامهِ هاجمت المسلمون البلاد واستملكوها كما تقدم القول في اخبار العرب ما عدا اراضي استوريا التي على الشاطي الشمالي. واذ كان لكل امرٍ سبب لا باس من ذكر الاسباب التي هيأت الطريق لدخول المسلمين الى اسبانيا فنقول ان رئيس قبيلة الغوث المسمى اورك كان قد نظم لاسبانيا قوانين جديدة وتنظيمات مفيدة ارتقى بسببها الى درجة سامية عند الاهالي فاقاموهُ عليها ملكًا. ثم تنصر الغوثيون في ايام الملك ريكارد الاول واختلطوا بالامة اللاتينية والامة الاسبانيولية الاصلية فصاروا جميعًا امة واحدة اسبانيولية. وكان الغوثيون يقيمون ملوكهم بالانتخاب فكان ذلك مصدرًا للنزاع والتحزبات والحروب الاهلية. فاتفق في اواخر الجيل السابع ان ملكًا من هولاء القوم يقال لهُ فيتيزا وقع بينهُ وبين دوك كردوفا

نزاع فاستطال على الدوك المذكور وقلع عينيهِ فنهض ابن الدوك للانتقام من الملك والاخذ بثار ابيهِ وكان اسمهُ رودريك والعرب يسمونهُ لزريق وقاتل الملك فينيتزا وانتصر عليهِ واغتصب منهُ تاج المملكة سنة ٧١٠ للميلاد . حينئذٍ ذهب اولاد الملك المخلوع مع باقي اقاربهم الى بلاد المغرب والتجأُوا الى موسى بن نصير العامل من طرف الوليد بن عبد الملك وطلبوا منهُ ان يقيم حربًا على الاندلس وينتقم من ملكها رودريك فكتب موسى الى الوليد يستاذنهُ بذلك فاذن لهُ . فارسل موسى جيشًا جرارًا تحت قيادة طارق بن زياد فافتتح البلاد شيئًا بعد شيءٍ . وكان الاسبانيوليون يفرون من امامهم منهزمين حتى انحصروا اخيرًا في اراضي استوريا الوعرة الكائنة على الشاطي الشمالي واستوطنوا بها لكونها صعبة المرتقى لا يمكن الوصول اليها وكانت قلوبهم مع ذلك مملوءة خوفًا ورعبًا من سطوة اعدائهم المسلمين . فهذه العيشة المتعبة مع ما تبعها من الاحتياجات والصعوبات صلَّدت قلوبهم وجعلتهم قومًا ذوي اقدام وبطش لا يبالون بالاهوال والمصائب ولا يرهبون حادثات الدهر

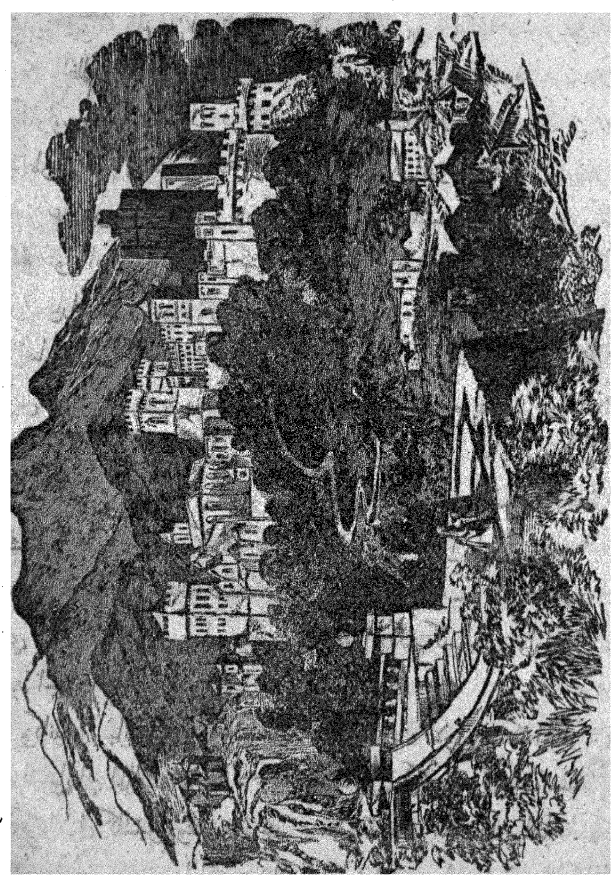
اما المسلمون تحت حكم الخلفاء الامويين فكانوا متمتعين بالراحة والسكينة لا قلاقل بينهم تزعجهم فنشأت بينهم العلوم والمعارف وازهرت واتت باثمارٍ لم ياتِ بها غيرهم من اقوام تلك الاعشار فانهم اتقنوا فن الزراعة وعلم البحر والتجارة وغير ذلك بينما كان سكان باقي اوروبا غائصين في لجة بحر الجهالة والغباوة لا يعرفون شيئًا من الفنون والعلوم . وقد ترجم افرس بن رشد الكردوفي كتاب ارسطاطاليس فقُرِئَ الكتاب في مدارس كردوفا وفي افريقية بين المراكشيين وانصبّوا على درسهِ وعدُّوهُ قسمًا من العلوم الرياضية لما فيهِ من الحِكَم والبراعة . وزها في مدارس المسلمين ايضًا علم الجبر والحساب وانصبَّت الطلبة على العلم من كل نادٍ وتنافست بهِ . اما الافرنج فلم يكن منهم من يعرف ما هي الحروف الهجائية حتى ولا اشرافهم ايضًا . ولما راى المسلمون حالهم في عزٍّ وامن انهمكوا في التنعم واللذات وانعكفوا على ممارسة الفنون فاكسبهم ذلك الرخاوة ونحافة الجسم

واضعف جانبًا من قواهم العسكرية وحميتهم الحربية ثم انتشبت بينهم خصومات وقلاقل فعند ذلك اغتنم الاستوريون الفرصة واسحبوا من شمالي البلاد خلقًا كثيرًا واندفعوا على املاك المسلمين وامتلكوها مدينة بعد مدينة ومقاطعة بعد اخرى الى ان استولوا على القسم الاكبر منها. وسنة ١٢٨٢ هاجم المسلمين قوم الكاستيليين بجيش جرار تحت قيادة الفونسو السادس وفريدريكو دي بيفار الملقب بسيد كامبيادور وكان بطلاً شجاعًا فوصلوا الى مدينة طوليدو اي طليطلة التي على نهر تاغوس وامتلكوها بعد حصار ثلاث سنوات. فلما راى المسلمون ما حلّ بهم استنجدوا اخوتهم المراكشيين فبادروا لمساعدتهم وقاوموا الاسبانيوليين اشد مقاومة فكسروهم كسرة هائلة في الزلقة. وكان قائدًا على قوم المراكشيين رجلٌ اسمهُ يوسف واذ راى ان النصرة جاءت على يدهِ اخذهُ الطمع في الجلوس على تخت الخلافة الاندلسية فنجح في مساعيهِ وارتقى الى تلك الرتبة الرفيعة فكان راس دولة المراودين

ومن ذلك الوقت لم تنقطع الحروب بين الاسبانيوليين والمغاربة وكان النصر مترددًا بين الفريقين الى ان انتصر الاسبانيوليون اخيرًا سنة ١٤٥٠ على اعدائهم فاقاموهم من البلاد التي انتشروا فيها وحصروهم في مملكة غرناطة التي كان المسلمون قد اسسوها منذ سنة ١٢٨٢. وكانت هذه المملكة كثيرة المدن والسكان واهلها من ذوي الغنى والمقدرة. وعاصمتها تدعى غرناطة ايضًا وكانت مزينة بالابنية الجميلة المزخرفة التي تذهل الناظرين. ومن محاسن ابنيتها الحمراء وهو قصرٌ فاق زهاءً وبهجةً على جميع قصور العالم ولم تزل آثارهُ الى الآن

ومع ان الاسبانيوليين استولوا على اقسامٍ كبرى في البلاد كانت املاكهم غير منضمة بعضها الى بعض بل منقسمة الى عدة ممالك صغيرة مستقلة وكانت الحروب بينهم متواصلة والخصومات دائمة غير عالمين ان هذا الانشقاق يكون وبالاً وتهلكةً لهم ولكنهُ وقع اخيرًا الامتزاج والالفة بين تلك الممالك واتحد اهلها

بعضهم مع بعض وكان اشهرهنَّ واعظمهنَّ مملكة كاستيل المشتملة على استوريا فضمها الملك فردينند سنة ١٢٣٠ مع ولاية ليون وصيرهما مملكة واحدة ثم اغتصب



الحمراء في اسبانيا

من المراكشيين مدينتي كردوفا واشبيلية. وكذلك جمس الاول الاراغوني احد ملوك ذلك العصر تغلب على بعض الجزائر وعلى مملكتي فالنسيا وموريكا. كما ان الفونسو الحادي عشر من كاستيل استظهر على الجزائر سنة ١٢٠٩ فبذلك

صارت المملكة الاسبانيولية ذات شوكة وعظمة

وبعد موت الفونسو هذا خلفهُ ابنهُ بطرس الاول وكان ملكًا ظالمًا بهذا المقدار حتى انهُ قام على امرأتهِ الملكة بلانش البوربونية وقتلها ثم جار على اخيهِ هنري بالظلم والعدوان حتى الزمهُ ان يعاديهُ ويقصد ضررهُ . فذهب هنري الى كارلوس الخامس ملك فرانسا واستجار بهِ فاجارهُ لانهُ كان يريد ان ينتقم من بطرس لقتلهِ بلانش وانجدهُ بجيشٍ من العساكر الفرنساوية فحاربوا بطرس وخلعوهُ عن سرير ملكهِ . ففرَّ هاربًا واستجار بادورد الملقب بالامير الاسود وكان يومئذٍ متوليًا امارة الانكليز في آكيتين من اعمال فرانسا . فاجارهُ مراعاةً لقوانين الشرف واراد ان يخلص لهُ من اعدائهِ فخرج في قومٍ من جندهِ الى اسبانيا وبطش بالفرنساويين والكاستيليين وكسرهم كسرة مهولة واخذ قائدهم اسيرًا وارجع بطرس الاول الى سرير ملكهِ . ولكنهُ بحال رجوعهِ رجع بطرس الى ما كان عليهِ من السيئات والمظالم فاهالهُ الامير الاسود ولم يشأ ان يساعدهُ بعد . وكان شارل الخامس قد افتدى قائد جيشهِ الذي اسرهُ الامير الاسود فارجعهُ اذ ذاك لنجدة هنري فحارب كلاهما بطرس الاول واستظهرا عليهِ في وقعةٍ عظيمة وبعد ان قبضا عليهِ وقتلاهُ صعد هنري على تخت المملكة سنة ١٣٦٩ تحت اسم هنري الثاني وظهر من نسلهِ عدة ملوك حكموا مملكتي كاستيل واراغون الى اواسط الجيل الخامس عشر

وكانت اسبانيا وقتئذٍ منقسمة الى قسمين كبيرين الاول مملكة المغاربة في غرناطة والثاني الممالك الاربع المسيحية التي كان لكلٍّ منهنَّ ملكٌ مستقلٌّ . فالمملكة الاولى كاستيل وتمتد من بحر بيسكي الى البحر المتوسط . الثانية مملكة اراغون وتتضمن على نفس اراغون وباقي الولايات التي بينها وبين البحر المتوسط. الثالثة مملكة البورتوغال او بوزنتانيا القديمة وكانت قبل ذلك العصر بيد المسلمين زمانًا الى ان اتاها الفونسو واستظهر على اهلها في واقعةٍ كبيرة واخذ مدينة ليسبون واستولى على اربع ولاياتٍ منها فصارت مملكة اسبانيولية سنة ١١٣٩ .

والمملكة الرابعة كانت مقاطعة بيريني النافارية

الباب الثالث

في اخبار الملك فردينند والملكة ايزابلّة والتفتيش الديني الذي حصل في ايامها وخروج المسلمين من اسبانيا وحوادث اخرى الى سنة ١٨٧٤

ولما استوى حال اسبانيا واعتصبت ممالكها بعضها مع بعض حصلت البلاد في غنى ونجاح لاسيما بواسطة نظاماتها المستحسنة التي اوجدت فيها الراحة والسلم فكانت في تقدم بينما كانت شوكة المسلمين في انحطاط . ومما زاد اسبانيا سطوةً انضمام اقسامها الى مملكتين قويتين وهما مملكة كستيلة ومملكة اراغون اللتان انحصرتا فيما بعد في عائلة واحدة بتزوج فردينند ملك اراغون بايزابلّة ملكة كستيلة سنة ١٤٦٩ . فلما اقترن هذان الشخصان اتفقا على ضمّ الممالك الاسبانيولية الى واحدة وطرد المغاربة من غرناطة وغير ذلك من الامور مما سياتي ذكرهُ

وكانت ايزابلّة هذه على جانب عظيم من الحذاقة في الآداب والمعارف رقيقة الطبع انيسة لطيفة مستقيمة الراي ذات اقدام في الامور وكان لها من العمر يومئذٍ ثماني عشرة سنة وهي ذات جمال باهر يذهل الناظر وقد طلبها كثيرون من ذوي الغنى والرفعة فأبت الى ان خطبها فردينند ملك اراغون وتزوجها وبذلك صارت مملكتا اراغون وكاستيل مملكة واحدة من اقوى ممالك الدنيا واعظمها . الاّ ان ايزابلة كانت متولية زمام مملكتها كاستيل لانها كانت قد اشترطت على زوجها فردينند بان يبقي حكم المملكة المذكورة بيدها . فافرغت هذه الملكة الجليلة كل جهدها في ترقية اسباب نجاح مملكتها ولاجل تنكيس

سطوة الاشراف وكبريائهم قوّت واحيت جمعية الاخوية المقدسة المعروفة بسانتا هرمندا التي تشكلت منذ القرن الثالث عشر لاجل الغاية المذكورة وسلمت اعضاءها زمام ضبط البلاد . فكانوا يحكمون ويعدلون بين الشعب ويقاصون المذنبين ويعاقبون سالبي الراحة العمومية بدون نظر الى رتبهم ومقاماتهم . فتقوّى العدل في اقرب وقت واطمأنّ الاهالي وعادت تلك الجمعية بالضرر على الاشراف . فتشكوا منها للملك والملكة وطلبوا محوها فلم تستجب اتعابهم بل بالعكس لما راى فردينند المنافع الصادرة عن الجمعية المذكورة سعى في تقويتها وبذل جهده في حمايتها وامّل نوال المرغوب بواسطتها في اضعاف احكام البارونات وحقوقهم الالتزامية . وكانت الملكة ايزابلة تعلو بنفسها متن جوادها وتجول من مكان الى اخر تتفقد احوال الرعايا وتنصف بينهم حسب مقتضى الشريعة ولم تاخذ بالوجوه او تبال بذي رفعةٍ او نعمةٍ بل تجري القانون على ايٍّ تعدّاه وبذلك رتع الاهالي بالامن والهدو وشُيّد حكمها وتقوّى. غيران تلك الطهارة والاستقامة التي اتصفت بها ذاتها الجليلة قد افسدها بعض المفسدين فملأوا قلبها وسواسًا وخرافةً وجعلوها تعد وعدًا صادقًا بانها تستاصل كل هرطقة في مملكتها . وقد ذكرنا في الكلام عن باباوات رومية ما اجراهُ انيوسنت الثالث من الاضطهاد على الولدنسيين والالبجنسيين وكيف نظم مجلسًا لفحص الهراطقة وابادتهم . فاذ كانت ايزابلة مرتبطة بالعهد السالف ذكرهُ تمكّن اصحاب الغايات من اقناعها على غير رضى قلبي منها ان تصادق على وجوب اجراء التفتيش الديني في اسبانيا كما كان جاريًا في فرانسا فصادقت عليهِ واُقيم التجسس في المملكة وبلغ حالهُ الى اعلى درجة من الفحش ما لم يصل اليهِ في اماكن اخرى . واول مدينة اقيم فيها التجسس المذكور مدينة اشبيلية في ١٧ ايلول سنة ١٤٨٠ وسماهُ احد الناس بالخدمة المقدسة فارسل لها البابا سكستوس السادس غفرانًا مجانيًا على حسن تصرفات اهلها وكان ذالك بطلب بعض الرهبان الدومينيكيين وموافقة الملك ايضًا

وكان اليهود خلقًا كثيرًا في اسبانيا ذوي املاك وثروة وكان غناهم ظاهرًا لعموم الناس فهاج عند ذلك حسد الحساد من الاشراف وطمع الملك فيهم ومالوا باجمعهم عليهم وصمّموا على خرابهم واهلاكهم فاقاموا عليهم حججًا وشهودًا بانهم في اعيادهم الاحتفالية يذبحون اولادًا مسيحيين وقد حَلَفَ خمسة وعشرون من الاشراف بانهم راوا اليهود في عيد الفصح يصلبون ولدًا مسيحيًّا . فصدّق الشعب كل ما قيل على اليهود واضطهدوهم حتى الموت في جميع اطراف اوروبا . وكان الاسرائيليون في معظم زهائهم في اسبانيا على جانب عظيم من الذكاء والاداب والمعارف يشاركون المسلمين في الانعكاف عليها . وبعد انقلاب المغاربة في اسبانيا بقي اليهود مع الاسبانيوليين وهم يتقدمون رويدًا رويدًا الى ان صاروا اغنى قومٍ في المملكة وكان الاشراف يستدينون منهم الاموال ولذلك لم يجدوا طريقًا لوفاء ديونهم الَّا بتدمير اليهود وابادتهم وتحويل كل املاكهم لمنفعة الكنيسة والشعب

وفي اثناء ذلك اصدر المتجسسون امرًا يقولون فيهِ انهُ من المقتضي القبض والشكاية على تابعي الهرطقة وعلى الذين يُظَنُّ بهم الهرطقة . فتواردت الشكايات من كل فجٍّ عميق . وكان اوجيد احد رؤساء المتجسسين وقومهُ القتلة قد جعلوا اقامتهم في قلعة سبانا خارج المدينة لكي يتمكنوا من اجراء افعالهم الردية من قتل الانفس والانتقام من عباد الله الابرياء فكانوا كلما راوا احدًا من اليهود يوم السبت لابسًا ثيابًا احسن حالاً من ثياب باقي ايام الاسبوع ياخذون ذلك الرجل ويبلصونهُ وينتقمون منهُ ظلمًا وعدوانًا . وفي برهة الاربعة الايام الاوَل من اقامتهم في القلعة احرقوا بالنار ستة رجال ولغاية شهر تشرين الثاني بلغ عدد المحروقين ثلث مئة رجل . ولم يكتفِ هولاء القوم بالانتقام من الاحياء فقط بل نبشوا الاموات من قبورهم واحرقوا رممهم على رؤوس الاشهاد ولم يهابوا الاله ولا الانسان وكان اضطهادهم في الغالب متجهًا نحو الاغنياء سواء كانوا احياء ام امواتًا فكانوا يضبطون املاكهم ومتروكاتهم

وفي غضون ذلك ضرب الله مدينة اشبيلية بوباءٍ اهلك من اهلها ١٥٠٠٠ نفس فلم يعتبر المتجسسون ذلك بل انتقلوا الى مكان اخر واستمرّوا على ما كانوا عليهِ من الاذية حتى انهم في مدة سنة واحدة اهلكوا الفي نفس حرقًا . واذ كان هذا المشروع يُعد من المشروعات المقدسة اقام الحبر الروماني الخوري توركيمادا معلم ذمة الملكة ايزابلة رئيسًا عامًا في كاستيل واراغون على ذلك التفتيش الديني واعطاهُ سلطانًا بان يرتب مجلسًا جديدًا هناك . فبادر حالاً الى ذلك الامر واقام مجلسًا كبيرًا مؤلفًا من عمد الناس والاشراف وكان عدد جمعياتهِ الفرعية ثلثين جمعية منتشرة في اطراف المملكتين

واول امر اجراهُ المجلس المذكور انهُ اشهر اعلانًا في الكنائس ايام الاحاد مضمونهُ ان كل من يعرف او يشتبه بشخص انهُ تابع الهرطقة يلتزم ان يقرر عنهُ في الحال وان لا يحل الكهنة كل من تهامل بهذا الامر . فالتزم الانسان ان يقرر عمّن يعرفهُ بهذه الحالة ولو كان اباهُ او امهُ او احد اقاربهِ حتى ان الشكايات كانت تُقبل وتُسمع ولو زورًا . فكان الكاتب يسجل اسماء الشهود مع شهاداتهم وبعد ذلك يامر المجلس بالقبض على المشتكى عليهِ فياخذونهُ قبل الفحص ويسجنونهُ في سرداب مظلم تحت الارض حيث وُضع رُقباء من قبل المجلس قد تعاهدوا على انفسهم بقسمٍ ان لا يدعوا احدًا من المسجونين يراهم او يشعر بهم ليتجسسوا حركاتهم واقوالهم ويخبروا المجلس عنها . وبعد ابقاء المسجون زمانًا في ذلك السرداب يؤتى بهِ للمحاكمة امام المجلس فان ابى ان يقر بكونهِ مذنبًا يوضع حالاً تحت العذاب الاليم اما بالةٍ معدّة لذلك واما بالنار وذلك في مكان منعزل بلا حنوّ ولا شفقة واذا اقرّ من شدة العذاب بان افكارهُ هرطقية يكفون عن تعذيبهِ في الحال مشترطين عليهِ ان يُعيد هذا الاقرار مرةً اخرى في اليوم التالي اذا بقي حيًّا . فاذا ابى ان يفعل ذلك يعرضون حالاً جسدهُ المتوجع الى عذابٍ اشد من الاول فلا يكون امامهُ سوى الموت المرّ او عيشة الذل والفاقة والمسكنة مملوءًا جسدهُ من القروح فيضعف نسلهُ ويكون مهتوك العرض

بين الناس

ثم ان المتجسسين الحّوا على فردينند وايزابلة ان يصدرا امرًا بنفي كل اليهود الذين لا يقبلون المعمودية فاجاباهم الى ذالك واصدرا امرًا بهذا الخصوص سنة ١٤٩٢ فالتزم هولاء المنكودو الحظ ان ينزحوا عن بلادهم واوطانهم ويتفرقوا في اقطار المسكونة تائهين من مكان الى مكان لا بيت لهم ولا مأوى مهانين ومحتقرين من الجميع هذا فضلاً عن الموت الذي ابتلع الوفًا كثيرة منهم بسبب الجوع وضخامة المعيشة وضيقها بعدما كانوا بارغد عيشٍ ونعمةٍ .

وفي اثناء ذلك اقام المراكشيون حربًا في شمالي البلاد واستولوا على قلعة الزهراء بعد ان فتكوا بالاسبانيوليين محافظيها فتحوّلت حينئذٍ افكار فردينند وايزابلة الى مداركة هذا الامر ومصادمة الاعداء فجرّدا جنودهما وشنّا عليهم الغارة. وكان قد وقع الانقسام والاختلاف بين المراكشيين فحل بهم حينئذٍ الوبال والويل . وكان سيدهم المولى ابو الحسن قد خاصم امرأتهُ الشرعية السلطانة زريدة وجار عليها جورًا عنيفًا فجمعت ذات يوم بعض القلائد والحلى الثمينة وهربت بها من القصر هي واولادها . فلما راى الشعب حالها وما افترى به زوجها عليها اغتاظوا جدًّا وبادروا حالاً الى خلع ابي الحسن عن كرسي الملك واقاموا مكانهُ ابنهُ ابا عبد الله من زوجتهِ زريدة المذكورة واما ابو الحسن فانهُ قصد مَلَقًا فقبلوهُ هناك بترحابٍ واحتفال وهكذا انقسمت المملكة على ذاتها

ونجح الاسبانيوليون في هذه الحرب اذ كانوا تحت قيادة بطلين عظيمين اي فردينند وايزابلة . فان فردينند كان في مقدّمة الجيش يقودهم بحسن تدبيرهِ وجودة رايهِ ويشجعهم على الثبات والهجوم قائلاً لهم انهُ اذا رآهم في ضيق او شدّة لا يتخلّى عنهم بل يفديهم بنفسهِ ومالهِ . اما ايزابلة فتولجت مصاريف الحرب وخدمة المعسكر وتدبير المرضى والمجروحين كالام الحنونة فكانت تجول في الحرب من مكان الى اخر وعندما كانت قلوب العساكر تسقط وتهبط فكانت

تشجعهم وتطيب قلوبهم بالفاظها العذبة فتقلع منها الخوف والرعب وتمكن فيها الفراسة والحماسة فيهجمون على اعدائهم هجمة الاسود الكواسر فينتصرون ويظفرون فكانت بالحقيقة هي روح تلك الحرب وعلّة قوتها . وبعد عدة وقائع انهزم المغاربة ودارت الدائرة على جموعهم فاستولى الاسبانيوليون على مملكة غراناطة وطردوا جميع المسلمين من تلك الاطراف بعد حروبٍ تذكر وكان ذلك سنة ١٤٩٢ للمسيح وهي ذات السنة التي فيها اكتشف كولمبوس الشهير قارة اميركا باسعاف وامداد الملكة ايزابلة هذه . وقد حصر بعض المورخين عدد الوقائع التي جرت بين الاسبانيوليين والمسلمين منذ دخولهم الى وقت خروجهم فبلغت ثلاثة الاف وسبع مئة

وسنة ١٥١٦ توفي فرديناند المذكور وخلفهُ ابنهُ كارلوس الخامس المعروف بشارلكان وبعد جلوسهِ ببضع سنين توفي جدهُ مكسيميليان سلطان النمسا والفلمنك فانتخبهُ الشعب امبراطورًا على كل بلاد جرمانيا كما سياتي تبيان ذلك في محلهِ . وكانت اسبانيا وقتئذٍ من الدول الاوروبية الاولية . ومن مشاهير ملوكها فيليب الثاني ابن شارلكان تبوأ سرير الملك سنة ١٥٥٦ وسنة ١٥٨٠ لبس تاج مملكة البورتوغال التي بقيت تابعة لاحكام اسبانيا الى سنة ١٦٤٠ وكان ملكًا عظيم الشان ذا هيبة وسطوة

وكان ابوهُ قد تنازل لهُ عن مملكة نابولي والصقليتين سنة ١٥٥٤ قبل جلوسهِ على الكرسي فاتسع بذلك ملكهُ وعظم امرهُ ثم تزوج بمريم ملكة انكلترا ولكن من غير ان يكون لهُ سلطة على الانكليز . وفي السنة التالية من ملكهِ تنازل لهُ ابوهُ ايضًا عن مملكة هولاندا فازداد قوةً وسطوةً . وكانت افكارهُ متجهة الى اخضاع فرانسا والاستيلاء عليها فحاربها وكسر جيشها في عدة وقائع ولكنهُ لم ينجح في مقاصدهِ فعقد مع ملكها هنري الرابع صلحًا سنة ١٥٩٨ وهي السنة التي توفي فيها . وكان هذا الملك غيورًا في مذهبهِ الكاثوليكي عدوًّا الدّ لمذهب البروتستانت الذي كان آخذًا في الامتداد والانتشار في ممالك اوروبا . واذ

قصد ان يقيم مفتشين في ولاياتهِ الفلمنكية لإزالة الهرطقات حصل على مقاومات شديدة من طرف الاهالي فخلعوا طاعتهُ واشهروا عليهِ علم العصيان وبعد حروبٍ مهلكة خسر بعض تلك الولايات سنة ١٥٧٩

وجلس بعد فيليب المذكور على سرير الملك ابنهُ فيليب الثالث سنة ١٥٩٨ وكان ضعيف الراي فاتر الهمة عديم الدُربة في سلوك طرائق الرياسة والسياسة. وبعد جلوسهِ ببضع سنين طرد جميع المغاربة الذين كانوا قد استوطنوا في اسبانيا واختاروا الاقامة فيها على الرحيل وكانوا نحو ٢٠٠ الف نسمة واكثرهم من اهل الصنائع والعلوم . ومما يحكى عنهُ انهُ كان ذات يوم جالسًا في قاعة المجلس الشوري بالقرب من وجاق كبير مشتعل بالنار لتدفئة المكان وكانت النار مضطرمة بهذا المقدار حتى انها احدثت حرارة زائدة الحدّ فمن شدة كبريائهِ لم يتنازل الى ان يقوم ويسحب كرسيهُ بل امر ان تُطفأ النار . واذ كان الخادم المتولّج امر الوجاق غائبًا لم تجسر باقي الخدم ان تجري تلك المأمورية فلبثت النار مضطرمة واشتدت حرارتها في القاعة حتى اضرّت بالملك ومات بسببها

ثم قام بعدهُ بالمملكة ابنهُ فيليب الرابع سنة ١٦٢١ فحكم ٤٥ سنة وكانت اكثر ايامهِ تعيسة على اسبانيا فانها خسرت بلاد الفلمنك سنة ١٦٣٠ وبلاد البورتوغال سنة ١٦٤٠ وتنازلت عن جملة مقاطعات الى فرانسا سنة ١٦٥٩ فاخذت المملكة من ذلك الحين في انحطاطٍ وسقوط . وبعد وفاة هذا الملك جلس ابنهُ كارلوس الثاني مكانهُ فتوفي سنة ١٧٠٠ بدون وريث وخلفهُ اميرٌ فرنساوي اسمهُ فيليب دوك انجو وهو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرانسا كان كارلوس قد اوصى لهُ بالملك من بعدهِ ليس فقط لاهليتهِ ولكن لكونهِ من اقاربهِ فدُعي فيليب الخامس وهو راس عائلة البوربون الاسانيولية . فنهض حينئذٍ الارشيدوك شارل النمساوي وادّعى بحقهِ لتاج مملكة اسبانيا فنشأ عن ذلك نزاعٌ عظيمٌ اعقبتهُ فتنٌ وحروبٌ ليس فقط بين النمسا واسبانيا ولكن بين

باقي دول اوروبا لان لويس الرابع عشر ملك فرانسا احتشد لحفيدهِ فيليب المذكور وانتصرت انكلترا وبروسيا وهولاندا للنمسا فاصطلت نيران الحرب بين الفريقين وهي الحروب المعروفة بحروب الوراثة الاسبانيولية وكانت الدائرة فيها على فرانسا واسبانيا فخُلع فيليب عن كرسي ملكهِ مدة ثم اعيد اليها وبقي ملكًا الى ان مات

وقد تظاهرت اسبانيا ضد انكلترا مرارًا عديدة ولا سيما وقت الثورة الاميركانية فانها اتحدت مع فرانسا في مقاومتها ومحاربتها ولكنهُ اخيرًا عقد بينهما صلحٌ سنة ١٧٨٣ فنقضتهُ بعد ذلك بنحو ١٠ سنوات حين اشتركت ثانيةً مع فرانسا وقت اشتباكها مع انكلترا

وسنة ١٨٠٨ حينما كان نابوليون الاول في سموّ مجدهِ وسطوتهِ الزم فردينند السابع ملك اسبانيا ان يتنازل عن تخت المملكة واقام مكانهُ اخاهُ يوسف بونابارتي بقوة السيف. فلم يقبل [illegible]لك عموم الشعب الاسبانيولي. فخلعوا طاعتهُ وانزلوهُ عن الكرسي ولذلك انتشبت حروب مريعة بين الطرفين. واذ كانت انكلترا وقتئذٍ تترقب الفرصة لكي تضعف قوّة فرانسا وتلاشي سطوة نابوليون احتشدت للاسبانيولين وارسلت فرقًا من العساكر الى اسبانيا وبورتوغال تحت قيادة الدوك ولينتون الشجاع الشهير وساعدتهم على ابعاد الفرنساويين وترجيع فردينند الى كرسيهِ سنة ١٨١٤. ثم مات فردينند المذكور سنة ١٨٣٣ وخلفتهُ ابنتهُ ايزابلة الثانية واذ كان للملكة المذكورة عمٌّ اسمهُ دون كارلوس كانت امالهُ متجهة الى نوال تاج الملك اخذ في استعمال الوسائط التي توصلهُ الى ذلك المقصود فتحزّب لهُ عددٌ غفيرٌ من الاهالي وبسبب ذلك هاجت الفتن والحروب بينهُ وبينها دامت الى سنة ١٨٦٠ ثم راقت الاحوال واستقر لها الامر ولكن مع ذلك الهدو لم تستقر احوال اسبانيا على ما ينبغي لان نيران الفتن والحركات كانت لم تزل متقدة في صدور اهل الفساد ولم تخمد من رؤُوس اصحاب المقاصد والغايات. ولما التهب شرارها واضطرمت نارها التزمت ايزابلة

ان يهرب من اسبانيا في ٣٠ ايلول سنة ١٨٦٨ وتذهب الى فرانسا . فاستلم زمام المملكة الماريشال سيرانو والجنرال بريم الاول نائب ملك والثاني رئيس مجلس الوزراء . اما النزاع فلبث قائمًا داخل البلاد فكان البعض يطالبون المشيخة والبعض يطلبون ملكًا الى ان قرَّ قرارهم اخيرًا على انتخاب الابن الثاني لفيكتور عمانوئل ملك ايطاليا . ففي سنة ١٨٧٠ نودي بهِ ملكًا تحت اسم اماديو الاول وكان دخولهُ الى اسبانيا في ذات النهار الذي قتل بهِ الجنرال بريم من احد اخصامهِ .

ولكن مع كل ذلك لم تسترح داخلية اسبانيا من الفتن والفساد لان الحزب الجمهوري لم يفتر عن اجراء ما يوجب الاختلال في المملكة . واذ كانت هذه الحركات والمفاسد متصلة بين الاهالي ولم تفعل فيها المعاملات السلمية والتهديدات الحربية وكان الملك اماديو الاول من الذين يكرهون الحركات ويحبون الهدو والسكون تنازل عن تاج ملكهِ في شهر شباط سنة ١٨٧٣ ونزح من العاصمة تاركًا البلاد لاهلها وهو في غنى عن هذا التعب والعنا وقام مكانهُ ألفنس الثاني عشر في اخر سنة ١٨٧٤ وهو الملك الحالي

الفصل السابع

في وصف مملكة البورتوغال وتاريخها

ان مملكة البورتوغال تمتد في القسم الغربي من اسبانيا ويحدها شمالاً وشرقًا مملكة اسبانيا وجنوبًا وغربًا المحيط الاتلانتيكي وعدد سكانها اربعة ملايين. ويتبع هذه المملكة عدة جزائر يبلغ عدد اهلها نحو ٢٦٠ الفًا هذا ما عدا املاكها

ومستعمراتها الاجنبية فان لها في افريقية جزائر الراس الاخضر وجزائر سان توماز وموساميد وموزنبيك وغيرها . وفي اسيا غوا وسالسيت وباردز وغير ذلك من البلاد في الهند ثم ماكان في الصين وجزيرة تيمور بين جزائر البحر . وعدد سكان هذه الاملاك الخارجية يبلغ ثلاثة ملايين وثمان مئة وثمانين الفًا فيكون مجموع اهل البورتوغال ثمانية ملايين ونيفًا . وكانت مملكة البرازيل ايضًا تابعة البورتوغال قبل سنة ١٨٢٢ واذ صارت دولة مستقلة سنتكلم عنها عند ذكر دول قارة اميركا

اما هواء هذه البلاد فمعتدلٌ وتربتها مخصبة وهي كثيرة المعادن ولكن قلَّما يعتني الاهالي باستخراجها وفيها يربى من الحيوانات الخيل والمواشي ودود القز . ومن اعظم حواصلها ملح البحر وهو من اروج تجارتها التي تحمل الى خارج البلاد لاسيما الى انكلترا . ومن طيب اثمارها التين والبردقان والنارنج والعنب الجيد . ومن مصطنعاتها الفخار والصيني والصباغ والنسج والاسلحة واصطناع البلور والجوخ . ومن اعظم مدنها مدينة ليسبون والعرب يسمونها اشبونة وهي قصبة المملكة مبنية على مصب نهر تاغوس الذي هو من اكبر انهرها . وفيها ابنية فاخرة وقصور جميلة مستظرفة وكنائس عديدة وسكانها ٢٥٠ الفًا ولها مكتبة فيها ٨٠ الف مجلد . ثم مدينة بورتو وهي من اعظم مدن البورتوغال بعد ليسبون كثيرة التجارة غزيرة المياه ولها ميناء حسنٌ ونبيذها جيد الى الغاية وعدد سكانها ٨٠ الفًا واسم البورتوغال ماخوذ الصدر منها . اما الديانة العامة في هذه البلاد فهي الديانة اللاتينية والاديرة فيها كثيرة يبلغ عددها ٤٩٨ منها ٣٦٠ للرهبان و١٣٨ للراهبات . ولنتقدم الآن لذكر بعض اخبار هذه المملكة من جهة تاريخها فنقول

ان بلاد البورتوغال كانت تدعى في الزمن السابق عند الرومانيين لوسيتانيا . وقد استولوا عليها عند افتتاحهم اسبانيا واستمرت في ايديهم ٥٧٠ سنة الى حين دخول الفندال والسواب وغيرهم من شعوب برابرة الشمال الذين

حكموها الى سنة ٧١٢ حين استخلصها منهم العرب وضموها الى مملكتهم بالاندلس فصارت ملحقة بها . ولما قويت شوكة الاسبانيوليين في الاندلس واخذوا في استرجاع بلادهم وطرد العرب منها استخلص هنري البورغوني من عائلة فرانسا الملكية بلاد البورتوغال بعد ان كسر جيوش المسلمين وسُمي عليها اميرًا تحت حماية الفونس السادس ملك كاستيل في اسبانيا وخلفها لابنهِ الفونس الاول الذي بعد محاربة المغاربة واستظهارهِ عليهم سنة ١١٣٩ نودي باسمهِ ملكًا فاستقلت بورتوغال عن اسبانيا من ذلك الوقت .

ثم اخذت بورتوغال في التقدم والنجاح وتوسيع دائرة املاكها بواسطة استخلاصها الاراضي من العرب الذين في جوارها . وبواسطة اسفارها البحرية وتعرُّضها للاهوال والمخاطر في المحيط الشاسع اصبحت في سطوة وغنى لا مزيد عليها لاسيما في الجيل الخامس عشر وقت اكتشافها طريق الهند واستيلائها على جملة مدائن واراضي في افريقية واسيا فكانت تعد بين ممالك الارض من الدول البحرية الاولية . ولا يسعنا ان نذكر بالتفصيل ما استولى عليهِ البورتوغاليون من الاملاك في القارتين المذكورتين خصوصًا في قارة اسيا بالهند والصين وجزائر اليابان لكننا نقول انهم حازوا على اراضي واملاك كثيرة وبسببها حصلوا على غنى ومجد وشهرة عظيمة . ولم يكتفوا بذلك بل مدوا ايديهم ايضًا الى قارة اميركا في بداءة القرن السادس عشر واستولوا على بلاد البرازيل التي مكثت في ايديهم الى سنة ١٨٢٢

غير ان التوفيق لم يخدمهم زمانًا طويلاً فانهُ في سنة ١٥٨٠ نهض فيليب الثاني ملك اسبانيا وهو ابن عم شارلكان واغتصب تاج دولة البورتوغال واضاف البلاد الى مملكتهِ فكان ذلك سببًا لتاخير الدولتين في المستقبل . لان الاسبانيوليين نظرًا لاملاكهم الاميركانية من الجهة الواحدة ونظرًا لانشغالهم في الحروب والمسائل السياسية من الجهة الاخرى اهملوا الالتفات اللازم الى فتوحات البورتوغاليين في اسيا وافريقيا فانتهز الفلمنكيون تلك الفرصة واغاروا

على املاك البورتوغاليين في اسيا فطردوهم من اليابان واستخلصوا جزائر مولوك وكادوا يستولون على برازيل ايضًا . وسنة ١٦٤٠ قام اهل البورتوغال على الاسبانيوليين وخرجوا عن طاعتهم وملكوا عليهم يوحنا الرابع احد دوكات ابراغنسا الذين هم من ذرية ملوكهم القدماء والذين ما زال الملك في عقبهم الى الآن . وبعد استقلاليتهم اتحدوا مع فرانسا واتخذوها معينة ومساعدة لهم . ولكنهم في ايام بطرس الثاني تركوا فرانسا واستندوا على الانكليز واعتمدوا عليهم وعقدوا فيما بينهم عهدًا سنة ١٧٠٣ فصارت انكلترا من ذلك اليوم صاحبة الكلام وبيدها زمام الحل والربط في البورتوغال . وكانت الصنائع والزراعة والمتجر وسياسة المملكة في يدها بحيث لم يكن للبورتوغاليين في المملكة سوى مجرد الاسم فقط

ولما كان نابوليون الاول في سمو سعدهِ واقبالهِ صمم على افتتاح بلاد البورتوغال فارسل لها جيشًا تحت قيادة الجنرال جونو سنة ١٨٠٧ فتغلب عليها وامتلكها وسمي عليها واليًا تحت لقب دوك داربانتيس . فتظاهرت حينئذٍ انكلترا لمساعدة البورتوغال وارسلت جيشًا تحت قيادة الدوك ولينتون فحارب الفرساويين وازاحهم منها بعد ما ارسل العائلة الملكية الى برازيل لتقيم هناك وتستريح من غوائل الحروب واهوالها فمكثوا هناك الى سنة ١٨٢١ وحكم البلاد في مدة غيابهم نوابٌ تحت مناظرة انكلترا

وسنة ١٨٢٠ حدث في مدينة بورتو شغبٌ وهياج من الشعب وكان قصدهم ان يجعلوا الحكومة البورتوغالية حكومة مقيدة بشرائع البلاد ونظامات المجلس . فقبل الملك يوحنا السادس بهذه الشروط ورجع الى اوروبا سنة ١٨٢١ واستبدَّ بالملك الى سنة ١٨٢٦ . ولكن بعد خروجهِ من برازيل بسنة واحدة نهض البرازيليون بطلب الاستقلالية فانفصلوا عن بورتوغال واستقلوا بانفسهم وانتخبوا لانفسهم امبراطورًا يقال لهُ دون پدرو بن يوحنا السادس المذكور وثبتت استقلالية برازيل عندما دعي دون پدرو ليرث اباهُ في تاج مملكة

بورتوغال فلم يذهب بل تنازل عنهُ الى ابنتهِ دوناماريا ولبث امبراطورًا في برازيل

وعند جلوس دوناماريا على سرير المملكة نهض لمقاومتها عمها دون ميكل طمعًا باستخلاص المملكة لنفسهِ فتحزب معهُ جمهورٌ غفير من الشعب واستمرت الفتن والقلاقل في اقطار المملكة نحو سنة حتى التزم اخيرًا ان يأتي ابوها من برازيل ويحارب اخاهُ ويوطد كرسي ابنتهِ . وكانت هذه الملكة عاقلة اديبة موصوفة بالفهم وحسن السيرة فاستبدت بالاحكام الى سنة ١٨٥٤ ثم توفيت وتركت اولادًا قاصرين منهم بطرس وليّ عهدها . واذ كان يومئذٍ قاصرًا اجمع راي الوزراء على اقامة زوجها الامير فرديننند وكيلاً موقتًا الى ان يكون ابنها بلغ سن الرشد فاقاموهُ من ذلك اليوم وكيلاً ووصيًّا ومكث بالوكالة الى ان استوفى ابنهُ بطرس الاكبر سن اللياقة فتنازل لهُ عن الاحكام واستبد بطرس بالمملكة تحت اسم بطرس الخامس ولكنهُ لم يلبث ملكًا اكثر من ستة اشهر حتى ادركتهُ المنية . فقام بعدهُ اخوهُ دون لويس وهو الملك الحالي فتسلم زمام المملكة في اواخر سنة ١٨٦١ وهو فتى حديث السن غير انهُ يُعد من افراد هذا العصر في المعارف وحسن الاخلاق

الفصل الثامن

في تاريخ فرانسا

الباب الاول

في وصف فرانسا الحالي

ان هذه البلاد يحدها شمالاً بحر المانش وبوغاز كالس الفاصل بينها وبين انكلترا ثم البلجيك والمانيا . وشرقًا المانيا ايضًا وبلاد السويس وايطاليا . وجنوبًا البحر المتوسط وجبال البيرينه الفاصلة بينها وبين اسبانيا . وغربًا الاوقيانوس الاتلانتيكي

اما الآن فليس لفرانسا من الحدود ما كان لها عندما كانت تدعى غاليا قديمًا لانها بعد سقوط الدولة البونابارتية اولاً سنة ١٨١٥ للميلاد وسقوطها ثانيةً سنة ١٨٧١ قد خسرت حدودها الطبيعية في الجهة الشرقية والجهة الشمالية والفاصل بينها الآن وبين الجهتين المذكورتين هو خطٌّ صناعي اقامتهُ ايدي السياسة . اما عدد سكانها قبل الحرب الاخيرة فكان نحو ثمانية وثلاثين مليونًا اما الآن فهو نحو ستة وثلاثين مليونًا ونصف . هذا بعد طرح سكان الالزاس وخمس اللورين الذي انضم الى المانيا بعد الحرب وهو نحو مليون ونصف واكثرهم على المذهب الكاثوليكي والحرية مطلقة لجميع المذاهب

وعلى شطوط فرانسا عدة جزائر راجعة اليها وهي جزيرة كورسيكا وجزائر يارس في الجهة الجنوبية من البحر المتوسط وجزائر ري واوليرون واويسان

وليل ديو وبلييل في الجهة الغربية من البحر المحيط . ومن املاكها عدة مستعمرات في جهات مختلفة في غير قارة اوروبا . ففي افريقية بلاد الجزائر في الجهة الشمالية وولاية السينيكال وجزيرة غوري في الناحية الغربية وجزائر لاريونيون وسنت ماري ومايوت وبوربون في الجهة الجنوبية الشرقية منها وعدد اهلها جميعًا نحو ثلاثة ملايين و٢٥٠ الفًا وهم مسلمون وكاثوليك وبروتستانت ويهود . ومن املاكها في اسيا ميناء بونديشيري وكاريكال وماهي ويناون وساندبرناغور في الهند وسايغون في الكوشين صين وعدد اهلها جميعها نحو ٢٥٠ الفًا . ولها في اميركا عدة جزائر اشهرها جزيرة كواديلوب ومارتينيك وسان بيير وميلكون وقسم من ولاية الغيان الفرنساوية في الناحية الشمالية الشرقية من اميركا الجنوبية . وفي المحيط جزيرة خاكيدونيا الجديدة وجزائر مركيز وغيرها وعدد سكان جميعها نحو ٥٢٠ الفًا . وكان لفرانسا سابقًا في اميركا كانادا واويزيانة وسان دومينيك وسانت لوسي وتاباكو واماكن كثيرة في اسيا اعظمها مركز سورات وقد خسرت كل ذلك خصوصًا في زمان الدولة البونابارتية الاولى

ان فرانسا هي اجمل ارضٍ سياسية وتجارية نظرًا لحسن موقعها الطبيعي وهي غنيةٌ بالمعادن والمحصولات . وفيها كثير من الفحم الحجري العظيم النفع والحديد والرصاص والنحاس والقطران الارضي اما الفضة والذهب فقليلان فيها . وبها انواع الرخام والمرمر وحجر الطبع وغيرها من الحجارة وبها انواع الجص والتراب الكبريتي والزاجي ونحوها وكثير من الينابيع المعدنية المختلفة . واكثر اراضيها مخصبة جيدة تعطي اكثر انواع الحبوب والثمار . والكرم فيها في غاية النجاح يستخرجون منهُ كل انواع الخمر المشهورة . وبها دود القز بكثرة وانواع الطير والحيوانات المستخدمة . وصنائعها في غاية النجاح والانقان واهاليها متميزون عمن سواهم بانقان عمل الجوخ وجميع اقمشة الحرير والصوف والكتان والقطن والجلود والبلور والصيني والفخار المطلي وعمل الحلى واكثر الآلات المفيدة ونحو ذلك . اما

دائرة المتجر فيها ففي غاية ما يمكن من الاتساع والنمو داخل البلاد وخارجها. وفيها كثير من المدن الكبيرة المعتبرة كليون ومرسيليا وبوردو وتور واورليان وغيرها وعاصمتها باريس وهي من احمل مدن الدنيا واعظمها بعد لندن. وفيها كثيرٌ من القصور المزخرفة باظرف اعمال البشر والمراسح المعتبرة الكثيرة ويمر في وسطها نهر السين فيقسمها شطرين وهو اعظم انهرها بعد نهر اللوار. وفي فرانسا كثير من الانهر والجداول والوديان والجبال مما لا يسعنا ضيق المقام تعدادها وحكمها الآن من النوع الجمهوري

الباب الثاني

في اصل فرانسا وشعوبها القدماء واديانهم وعوائدهم وتغلب الرومانيين ثم الافرنك عليهم وتاسيس الدولة الاولى الملكية المعروفة بالميروفنجية سنة ٤٨١ ب.م ثم سقوطها وانقراضها سنة ٧٥٢

ان فرانسا كانت تُدعى قديمًا غاليا او غاله ويمتد تاريخها الى القرن السادس عشر ق م وهو في اعصره الاولى كباقي تواريخ مبادي المالك القديمة لا يعلم عنهُ الاَّ القليل. اما شعوبها فهم من قبائل مختلفة دخلت البلاد في اوقاتٍ غير معلومة واستوطنت فيها. واخص تلك الشعوب قوم الكلتيين جاءوا من الشرق من نواحي بكثر يان مع الامم التي هاجرت الى البلاد اليونان وايطاليا وتقدموا في شمالي غاليا حتى اشرفوا على المحيط ونزل بعضهم وقطعوا البحر وعمروا جزائر بريطانيا الانكليزية. وقد وفى غاليا قبائل أُخرى قاطنة في جنوب البلاد وهم الإيبيرْ او الباسْكْ الذين يظن فيهم انهم اتوا من شمالي

افريقية واسبانيا ولم يزل البعض من الفاسكون او الباسك القاطنين في جنوبي فرانسا عند جبال البيريني يتكلمون بلغتهم . ثم اتاها ايضًا الفينيقيون بحرًا ودخل بعضهم اواسط غاليا واختلطوا بالامم التي وافت قبلهم . ثم أتى اليونان ونزلوا في الشطوط البحرية الجنوبية في القرن السادس ق م ويقال انهم اول من وضعوا اساسات مدينة مرسيليا

اما عوائد الغاليين القدماء وملابسهم واطعمتهم فكانت خشنة كسائر الامم القديمة وكانوا على جانب عظيم من الحماسة والحدّة والشجاعة والكرم والسخاء والقيام بحق الضيافة . فكانوا يكرمون جدًّا من نزل بجوارهم غاضين النظر عن اصلهِ وفصلهِ وينتصرون لكل من استغاث والتجأ بهم. وكانوا طوال القامة اجشّاء الصوت قليلي التكلم سريعي الغضب قريبي الرضا يطلبون بعضهم بعضًا الى المبارزة الشخصية عند الغضب . وكانت اسلحتهم البلطات والحراب وكانوا يتسربلون بالدروع وعلى رؤوسهم الخُوَذ واتراسهم كبيرة جدًّا تسترهم من الراس الى القدم . وكان لنسائهم الحرية في اختيارهنَّ ازواجًا لهنَّ وكنَّ يأتينَ رجالهنَّ بالمهر . فكان الاب اذا اراد زواج ابنةٍ لهُ دعا جمهورًا من الشبان الى منزلهِ فتخرج الابنة وبيدها كاسٌ ملآنة خمرًا فمَن ناولتهُ الكاس كان عريسًا لها وكان للرجل التسلط المطلق على المراة وعلى اولادهِ ولهُ حق التصرُّف في حياتهم جميعًا . وكانوا عند موت رب العائلة يحرقون معهُ كل ما كان عزيزًا لديهِ حتى ومن الحيوانات . ويطرحون معهُ ايضًا بعض المكاتيب ظنًّا منهم ان الميت المحروق يستطيع اخذها معهُ الى اقاربهم المتوفين . اما اديانهم فاشبهت اديان اهل الشرق كالهنود مثلاً ولا بد ان هذه العادة المار ذكرها في حرق جثث امواتهم ماخوذة عن هؤلاء الهنود . وكان لهم عقائد بعضها حسنة وبعضها سيئة ومذهبهم يُعرَف بالدرويديسم نسبةً الى كهنتهم الدرويد . وكان لهولاء بعض تعاليم حسنة فكانوا يعلمون بالثواب والعقاب بعد الموت ويحرضون رعيتهم جدًّا في شان تربية الاولاد حسنًا وعمل الخير ويقولون ان مَن اقرض

صاحبهُ مالاً في هذه الحيوة ياخذهُ في الحيوة الآتية ومن قتل نفسهُ لاجل صديقٍ لهُ يلاقيهِ في العالم الآخر وان الاباء في عيالهم هم بمنزلة ارباب وملوك . وعلموا احيانًا بتناسخ الارواح واشياء من هذا القبيل واقاموا احتفالات عبادتهم بين احراش السنديان مقدمين احيانًا الذبائح البشرية لزعمهم ان الالهة لا تسرُّ الا بالدم . وكان هولاء الكهنة اصحاب الحل والعقد ذوي سطوة عظيمة على الشعب وبعدهم الاعيان ثم العامة وبقي هذا المذهب الى بعد دخول الديانة المسيحية الى فرانسا وكان اوغسطوس قيصر بعد يوليوس قيصر قد اصدر امرًا بملاشاتهِ ومع ذلك بقي زمنًا طويلاً يُمارَس في بعض انحاء المملكة

وكان الغاليون اي الفرنساويون القدماء على جانب عظيم من البسالة والشجاعة ومحبة الاستقلال والحرية لا يرضخون لما ياتيهم ويأتي بلادهم بالذل والعبودية . وكانوا يحبون الحروب والغزو فخاف سطوتهم وباسهم اكثر الامم المجاورة لهم حتى الدولة الرومانية التي وطدت اركان سطوتها في اغلب اجزاء العالم المعروف يومئذٍ وكادوا يهدمون اركان دولتها . وقد هاجموا ايطاليا مرارًا من سنة ١٤٠٠ الى سنة ٥٨٧ ق م وفتحوا مدينة رومية عاصمتها سنة ٣٩٠ ثم قطعوا جبال الالب ونهر الدانوب وافسدوا البلاد ونهبوها ودخلوا اراضي اليونان ايضًا واعملوا فيها السيف والنهب ثم امتدوا ودخلوا اسيا وصنع بعضهم فيها منازل ومستعمرات .وقد أُسِمت تلك الاراضي باسمهم غلاطية نسبةً الى غاله. ولم تتمكن الدولة الرومانية من قهر الغاليين الذين كثيرًاما كادوا يهدمون اركانها الاَّ بعد ان صرفت اعوامًا كثيرة في اجراء استعدادات كلية ولم تتمكن من التغلب عليهم واخضاعهم لسطوتها الاَّ من سنة ٥٨ الى سنة ٥٠ ق م بعد حروبٍ هائلة عن يد اعظم واشهر قوادها يوليوس قيصر . وكانت الدلة الرومانية تنظر بعين الاهتمام الى اخضاع هولاء القوم فبعدما فتح يوليوس قيصر عليهم حروبًا دموية طويلة منحتهُ الدولة الرومانية انعامات وهبات وافرة ورفعت قدرهُ وشانهُ ولكن مع ذلك لم تستطع ان تقبض على زمام التملك على هذه الامة زمانًا

طويلاً جدًّا . فبقيت تحت تسلطها الى اواسط القرن الخامس للميلاد حين هاجمت غاليا قبيلة من قبائل المشرق كانت قد هاجرت اسيا في زمن غير معلوم تمامًا ونزلت في شمالي فرانسا في بلاد بلجيوم وفي تخوم المانيه الغربية يقال لها قبيلة الافرنك فدخلتها وانطعت الى اسبانيا واوقعت فيها السلب والنهب مدة من الزمان ثم عبرت البحر ودخلت افريقية وتضعضعت فيها . وسنة ٣٥٨ في سلطنة يوليانوس قيصر هاجم الافرنك غاليا مرةً ثانيةً ونزلوا عند شطوط نهر الموز فنازعهم يوليانوس قيصر زمانًا طويلاً ولم يقدر على اخضاعهم فتركهم اخيرًا يستوطنون عند شطوط النهر المذكور

وكانت الامة الافرنكية مقسومة الى عدة قبائل كلٌّ منها خاضعة لامير خصوصي وكان جميع هولاء الامراء خاضعين لاميرٍ واحد قيل اسمهُ فاراموند وابتدأ حكم هذا الامير سنة ٤٢٠ للميلاد وبقي الى ٤٣٠ ثم خلفهُ ابنهُ كلوديون ودامت ولايتهُ الى سنة ٤٤٨ وهو اول من اخذ في توسيع دائرة سلطة الافرنك. ثم توفي وخلفهُ ميروفي احد اقاربهِ سنة ٤٤٨ . وسنة ٤٥١ اتحدت القبائل الافرنكية مع الغاليين سكان فرانسا القدماء وانضموا جميعًا الى الرومانيين لمحاربة الهونيين الذين كانوا قد هاجموا غاليا واوقعوا فيها السلب والتخريب وحاربوهم وطردوهم بعد معارك شديدة فتحولوا الى جرمانيا . وبعد هذه الحادثة وطَّد الافرنك اركان حكومتهم في غاليا الشمالية تحت قيادة كبير امرائهم ميروفي المذكور وهو اول امير دعاذاتهُ ملكًا وتوفي سنة ٤٥٦ وتولى مكانهُ ابنهُ شيلدبريك الاول الى سنة ٤٨١ ثم خلفهُ ابنهُ كلوفيس وقد دُعي جميع الملوك الذين خلفوا ميروفي من عائلتهِ الملوك الميروفنجيين نسبةً اليهِ وهذه العائلة هي العائلة الاولى التي تبوأت تخت مملكة فرانسا على ان المؤرخين لا يؤرخون ابتداء مملكة الافرنك الاَّ منذ تبوأ تختها كلوفيس الاول بن شيلديريك بن ميروفي وذلك من سنة ٤٨١ الميلاد لانهُ اول من تغلَّب على جميع قبائل الافرنك التي هو منها واخضعها لسطوتهِ وفتح الجانب الاعظم من غاليا

ولما تولى كلوفيس المذكور سنة ٤٨١ كانت الرومان والالامان والفيزيغوث والبورغنديين وغيرهم يتنازعون في غاليا فانتصر الافرنك عليهم جميعاً . ففي سنة ٤٨٦ كسر كلوفيس جيش الرومانيين في سواسون وطردهم من جميع الاقطار التي كانوا لا يزالون فيها . وسنة ٤٩٦ حارب الالمان وانتصر عليهم في موقعة تولبياك ودفعهم الى ما وراء نهر الرين واخضع بعضهم . واذ كانت الديانة المسيحية قد انتشرت قبل ذلك بزمان طويل في تلك التخوم تنصَّر الملك كلوفيس عقب المعركة التي ربحها على الالمان وكان السبب في تنصرهِ زوجتهُ كلوتيلد فتعمَّد في مدينة رَيمس مع عائلتهِ وجنودهِ واعيان دولتهِ وكان هو الملك المسيحي الوحيد في ذلك العصر بينما انحاز غيرهُ من الملوك الى ارتقة اريوس وبناء على ذلك حاز ملوك فرانسا التقدم الديني على ما سواهم من الملوك الكاثوليكيين

وسنة ٥٠٠ للميلاد حارب كلوفيس جماعة البورغنديين واخضعهم فحملوا اليهِ الخراج . وفي سنة ٥٠٧ حارب الفيزيغوث وانتصر عليهم وطردهم وحاصرهم في اقليم سبتيمانيا وهو قسم كبير من جنوب فرانسا واخرج ما عداهُ من ايديهم . وبعد ذلك اذ اختلط الافرنك بالاهالي الاصليين تغلب اسم الافرنك على كل سكان بلاد غاليا فسُميت بلادهم فرانكا ثم بعد ذلك ببعض سنين بُدِلت الكاف بالسين فصار اسمها فرانسا وفي الاصل لم يكن اسمهم افرنك بل انما ذلك لقبٌ غلب عليهم (من فرانكس اي شجعان)

ثم توفي كلوفيس سنة ٥١١ بعد ان حكم ٣٠ سنة وهو من اشهر ملوك هذه الدولة ولهُ اربعة اولاد وهم شيلديبرت وكلوتير وكلودمير وتياري . فاقتسموا الملك بينهم ونتج من ذلك اربع ممالك متفرقة فاخذ شيلديبرت الأُولى وكانت مدينة باريس تختاً لها والثانية قاعدتها سواسون والثالثة قاعدتها اورليان والرابعة متس . وفي سنة ٥٢٤ انضموا جميعاً وكسروا شوكة البورغونديين ومحوا رسوم ملكهم بالتمام واخضعوا بلادهم كباقي البلاد . وبقيت فرانسا منقسمة الى ان مات ثلثة منهم فضمها كلوتير الاول سنة ٥٥٨ مملكةً واحدة تحت حكمهِ لكنها

انقسمت بعده ثانيةً وذلك سنة ٥٦١ وصارت اربع ممالك مستقلة كالاول . وكانت باريس ايضًا تختًا للاولى وسواسون للثانية ومتس للثالثة وبورغنديا للرابعة . وفي سنة ٥٦٧ توفي كاريبرت ملك باريس فصارت ثلثًا واستمرت هكذا منقسمة الى سنة ٦١٣ . وقد اعقب هذا الانقسام حروب اهلية طويلة نتج عنها انضمامٌ زمانًا يسيرًا في عهد كلوتير الثاني وبقيت منضمة الى عهد ابنهِ راغوبرت الاول سنة ٦٣٨

وبعد وفاتهِ انقسمت مرةً ثالثةً الى اربع ممالك وهي اوسترازي ونوستري وبورغونيا واكيتانيا وكانت الاثنتان الاوليان ممتازتين عن الاثنتين الاخريين بالسطوة والنفوذ مدةً من الزمان . ثم اجتمعت ايضًا مملكةً واحدة من سنة ٦٧٠ الى سنة ٦٧٣ في حكم شيلدبريك الثاني ثم في سنة ٦٨٧ تفوقت اوسترازي وارتفع شانها على نوستري وتقدم امراؤُها وفازوا بباقي الولايات فادخلوا بورغونيا تحت طاعتهم ثم اكيتانيا وهو القسم الرابع من مملكة فرانسا الذي استخلصهُ شارل مارتل من عرب الاندلس سنة ٧٣٢ في زمن خلافة عبد الرحمن بعد حربٍ مهلكة قيل انهُ قُتل فيها نحو ٣٠٠ الف رجل من جيوش العرب وربما كان ذلك مبالغةً

وسنة ٧٥٢ للميلاد انقرضت الدولة الفرنساوية الاولى وهي الدولة الميروفنجية وسبب انقراضها طياشة ملكها شيلدبريك الثالث وقلة درايتهِ اذ كان لهُ وزيرٌ يقال لهُ پاپين على جانب عظيم من الحذق والدراية والاقدام وكان من اشراف رجال فرانسا وعظمائهم فكان قابضًا على زمام الامور ولم يكن لشيلدبريك المذكور من الملك الاَّ مجرَّد الاسم كما كان قد آل امر سلفائهِ ايضًا منذ سنة ٦٨٧ فانهم كانوا ملوكًا بالاسم فقط فقبض پاپين على الملك شيلدبريك وحجز عليهِ في احد الاديرة واستولى زمام الملك بدون مانع ثم توفي شيلدبريك بعد قليل وبموتهِ كانت نهاية الدولة الاولى التي ملكت فرانسا مدة ٢٠٤ سنين وعدد الملوك الذين خرجوا منها ٣٤ ملكًا

فهذه هي الدولة الاولى التي وطّدت اركان المملكة الفرنساوية وسنّت لها نظامات موافقة لروح ذلك العصر اذ كانت قبل ذلك شوكة الملك ضعيفة جدًّا فكان النفوذ لجمعية الملة العمومية التي اجتمعت كل سنة في وقت معيّن وكان لها الحق في انتخاب الملوك وفي اعطائهم الامدادات والاعانات اللازمة وكانت هي التي تشرع القوانين والشرائع وتحكم في فصل جميع الدعاوي بدون معارض . وكانت الخدمة العسكرية بالاختيار لا بالاغتصاب . وكانت القيمة التي يغنمها الجيش تُوزَّع عليهِ بالحصص حتى ان الملك نفسهُ كان لا ياخذ منها الاَّ ما يخصهُ بالقرعة . ويؤيد ذلك ما حدث بعد معركة سواسون التي اشرنا اليها في ما تقدم فان جنود الملك كلوفيس الاول صاحب النصرة في تلك المعركة كانوا قد نهبوا كنيسة سواسون واخذوا منها امتعتها ومن جملتها اناء ذهب كبير ثمين فبعث اسقف الكنيسة الى كلوفيس رسلاً يترجونهُ ان يرجع الاناء المذكور على الاقل فقال لهم ان وقع هذا الاناء في نصيبهِ يرجعهُ الى الكنيسة فلما جُمعت الغنائم ووُضعت في وسط الجنود طلب كلوفيس ان يعطوهُ قبل القسمة الاناء المذكور زيادةً على حصتهِ فاظهر جميع العساكر انهم يريدون اجابة طلب الملك الاَّ انهُ خرج من بينهم عسكري جسور تقدم كالوحش ورفع بلطتهُ وضرب بها الاناء بشدة وقال للملك باعلى صوتهِ مالك شيء مطلقًا سوى ما يخصك بالقرعة ولا نقرُّ لك بامتياز خصوصي وكانوا احيانًا يهينونهُ اذا لم يمتثل الى طلبهم فاشبهوا من هذا القبيل الانكشارية في الدولة العثمانية

وسنة ٨١٣ اشرك معهُ في الملك ابنهُ لويس الملقب بالحليم وما زال في عزٍّ ونجاح الى ان توفي سنة ٨١٤ فتولى مكانهُ ولدهُ لويس المذكور . غير ان هذه السلطنة لم تتجاوز سنة ٨٤٣ حتى انقسمت الى ثلاث ممالك مستقلة وهي فرانسا والمانيا وايطاليا وصار تاج السلطنة يتداولهُ بعض الذرية في ايطاليا مرةً واقاربهم من امراء العائلة الكارلوفنجية اخرى حتى انتقل الى طائفة من الاعيان ليسوا من تلك العائلة ثم انتهى الامر بابقائهِ بيد الالمان وانقراض هذه العائلة سنة ٩٨٧

اما سبب ضعف هذه العائلة وتلاشيها فهو انهُ لما كان الملك لويس المذكور ابن شارلمان فاتر الهمة وضعيفًا غير قادر ان يقوم بحق سياسة كل الممالك التي فتحها والدهُ قسم قبل وفاتهِ سلطنتهُ المتسعة بين اولادهِ الثلاثة سنة ٨٤٣ كما ذُكر. فملك ابنهُ الاكبر على بلاد جرمانيا والثاني على فرانسا والثالث على ايطاليا . الاّ انهُ لم يعيّن حدودًا مناسبة لفصل فرانسا عن المانيا ولكنهُ اعطى ولدهُ البكر لوتير الذي تبوأ كرسي سلطنة المانيا بلادًا في الجهة الشمالية اليسارية من نهر الرين مع انها كانت من اراضي فرانسا بحسب التخوم القديمة والفواصل الطبيعية. ولما كان هولاء الملوك الثلاثة المذكورون غير اهلٍ للقيام بحق ادارة ممالكهم المقسومة كما قام بحقها جدهم شارلمان شرعوا في استعمال وسائط غير مناسبة واجراءآت مضرة ردية ظانين انها توطد اركان سطوتهم وقواعد ممالكهم وسنوا شرائع وقوانين اتت بلادهم بعدهم بنوائب عديدة ودواهي كثيرة لاسيما حين صارت سطوة اشرافهم تتزايد وتتعاظم

اما تلك الترتيبات والاجراءآت المضرة التي اقاموها فهي اعطاء الذين يحسنون خدمتهم القابًا عالية ورتبًا سامية وامتيازات لهم ولنسلهم من بعدهم وهي التزامات وراثية اي ان يحكموا على مقاطعات من ممالكهم ويورثوها لذريتهم وان يتصرفوا فيها تصرُّف المالك بالملك وذلك ليستندوا عليهم عندما تمس الحاجة. فاتى ذلك باضرار ونكبات كثيرة على ممالكهم لان هؤلاء الحكام مع تمادي الايام

تقوّوا كثيرًا حتى صاروا اصحاب شوكة وسطوة فخلعوا طاعة مواليهم وجاهروهم بالعصيان واستقلوا باقطاعاتهم بعد ثورات ومنازعات وحروب كثيرة . ثم شرعوا يحاربون بعضهم بعضًا ويخربون في البلاد كيفما شاءُوا فاستبدُّوا وامسكوا اخيرًا عنان سلطة مطلقة في ما يتعلق بسياسة الرعايا واقام بعضهم الحروب على نفس الملك فاتى ذلك الدولة والامة بالضعف والتقهقر مدة سنين كثيرة . وما زالت عصبية اعيانهم تتعاظم وتغتنم فرصة التسلط على السلطة الملكية حتى انهُ في سنة ٨٨٧ قام احد اولئك الاعيان الملتزمين يقال لهُ اودون وهو جد العائلة الثالثة المعروفة بالكابيتيانية وسلب المُلك من يد العائلة الثانية التي نحن في صددها الى سنة ٨٩٨ . ومن ذلك الوقت اخذ يتناولهُ تارةً الكارلوفنجيون وطورًا خلفاء اودون المذكور الى سنة ٩٨٧ حين كان لويس الخامس الملقب بالكسلان ملكًا من العائلة الكارلوفنجية فنهض حينئذٍ كبير وزرائهِ وفعل بهِ ما فعلهُ سالفهُ الاول باخر ملوك الدولة الاولى . وقيل ان امراتهُ بلانش دسَّت لهُ سمًّا بالاتفاق مع وزيرهِ المذكور هوككابيت فمات في السنة العشرين من عمرهِ والاولى من ملكهِ وبهِ تلاشت الدولة الثانية وقام عوضًا عنهُ هوك كابيت راس الدولة الثالثة

الباب الثالث

في قيام الدولة الثالثة المعروفة بالكابيتيانية وسقوطها من سنة ٩٨٧ الى سنة ١٧٨١

ان هوك كابيت المتقدم ذكرهُ الذي اغتصب الملك من يد آخر ملوك العائلة الكارلوفنجية كان من اعظم اشراف فرانسا واشدهم باسًا واكثرهم واوسعهم املاكًا فقبض على عنان الملك وتبوأَ تخت فرانسا سنة ٩٨٧ واستبدَّ في الملك

الى سنة ٩٩٦ وكان نسلهُ كثيرًا وخرج من عائلتهِ رجالٌ كثيرون ذوو حذقٍ ودراية واقدام وتملكوا فرانسا زمانًا طويلاً اطول من الزمان الذي ملكت فيهِ العائلتان السابقتان . وقد تفرعت هذه العائلة الى جملة فروع وهي امراء كابيت نسبةً الى خلفاء هوك كابيت المذكور الذين استمروا يتناولون الملك الى سنة ١٣٢٨ . وامراء فالوَا الاولون والثانويون اولهم فيليب السادس واخرهم هنري الثالث من سنة ١٣٢٨ الى ١٥٨٩ . وامراء اورليان وهم فرعٌ من امراء فالوا . وامراء بوربون اولهم هنري الرابع واخرهم كارلوس العاشر من سنة ١٥٨٩ الى سنة ١٧٩٢ ومن سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٣٠ . ثم فرع اورليان من السنة المذكورة الى سنة ١٨٤٨ . وقد دامت دولتهم باتصالٍ مدة ٨٦٤ سنة منذ سنة ٩٨٧ للميلاد الى سنة ١٧٩٢ حين قُتل لويس السادس عشر عند حدوث الثورة الفرنساوية العظيمة التي احدثت انقلابات كلية في الهيئة والسياسة والعوائد . وهذا هو الذي حمل الامة الفرنساوية على اعتبار تاريخ الثورة المذكورة حدًّا تنتهي اليهِ تواريخ القرون المتأخرة

وعندما جلس على كرسي ملك فرانسا هوك كابيت مؤسس الدولة الثالثة كانت البلاد لم تزل على ما هي عليهِ في زمن الدولة الثانية . فان الجمعيات التي اسلفنا عنها كانت لم تزل مستمرة على عظم شوكتها وتنفيذ اوامرها فكانت هي تنتخب من العائلة الملكية الامير الذي يتبوأ كرسي المملكة ولا يولى ملك الا برضاها ولم تقدر الملوك ان ترتب قانونًا جديدًا من غير رضا ارباب تلك الجمعيات . اما هوك كابيت فانهُ عند جلوسهِ على كرسي المملكة احدث في سياستها تغييرات عظيمة اثرت في شوكة الجمعيات العمومية المتقدمة وفي احكامها فاخذت من ذلك الوقت تتزايد القوة الملكية في فرانسا شيئًا بعد شيءٍ حتى الى ايام الملك كارلوس السابع في الجيل الخامس عشر حين كسر شوكة الاشراف وابطل التراتيب والحقوق الالتزامية في القوانين العسكرية وانشأ فرقة من عساكر المشاة وجعل عليهم ضباطًا لاجل تعليمهم وقيادتهم فصاروا يخضعون لهُ ويعتبرونهُ كوليٍّ

نعمتهم . ثم ان الحروب الصليبية التي كان للفرنساويين دخلٌ عظيم فيها ولئن هلك فيها نفوس عديدة وصُرف لاجلها اموال جزيلة اورثت البلاد نتائج حسنة جدًّا سواءٌ كان من جهة المشروعات والتراتيب العسكرية ام من جهة اتقان التجارة والزراعة ونحو ذلك .

ومن ملوك هذه العائلة فيليب الثاني الملقب اوغسطوس جلس سنة ١١٨٠ . وسنة ١١٨٩ اتحد مع ريكاردوس ملك انكلترا الملقب بقلب الاسد وقام الاثنان بجيش جرار وجاءوا سوريا لنجدة الصليبيين وهي الحرب الصليبية الثالثة . ولما وصلا الى سيسيليا اي جزيرة صقلية وقع بينهما شقاق ومنافرة افضت الى افتراقهما . على ان فيليب اوغسطوس اتى سوريا ولهُ يوم مجيد في اخذ عكا ثم قفل راجعًا سنة ١١٩١ الى فرانسا واخذ يهيج الاحزاب ضد ريكاردوس المذكور انفًا . ولما عاد هذا الاخير الى مملكتهِ بعد عقدهِ الهدنة مع صلاح الدين الايوبي انتشبت الحروب بينهُ وبين فيليب الذي لم ينل فيها فوزًا يستحق الذكر في مدة تملك ريكاردوس ولكنهُ من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٠٥ استخلص من ايدي انكلترا عمالات نورمنديا وانجو بواتو . وقد رغب هذا الملك في ترقية اسباب المعارف والتجارة ولهُ عدة مناقب حسنة ثم توفي سنة ١٢٢٣

وقد خلفهُ الملك لويس الثامن ولم يحدث في ايامهِ امر مهم وكانت مدة حكمهِ ٣ سنين فقط فخلفهُ لويس التاسع المعروف بالقديس لويس سنة ١٢٢٦ وهو من مشاهير هذه العائلة فهد مصالح المملكة وساسها احسن سياسة وجعل للتاج ما يستحقهُ من الاعتبار والسلطان واقام دعائم الملك على امتن اساس . وكان نقيًّا ورعًا محبًّا للاداب والمعارف . وسنة ١٢٤٤ اعتراهُ مرض شديد اوشك ان يموت فيهِ فنذر انهُ اذا شُفي ياتي الى محاربة المسلمين في فلسطين . فقام سنة ١٢٤٨ واتى مصرًا وفتح دمياط سنة ١٢٤٩ ثم تقدم الى داخلية البلاد وصارت بينهُ وبين جيش المسلمين معركة في المنصورة سنة ١٢٥٠ انتصر فيها ولكن بسبب المجاعة والمرض الذي اصاب جيشهُ بعد ذلك التزم ان يقفل الى

الوراء فوقع اسيرًا مع اثنين من اخوتهِ في قبضة العدو فافتدى نفسهُ مع اخويهِ بمقدار من الذهب يبلغ نحو سبعة ملايين فرنك وباخلاء دمياط وتحولهِ عن القطر المصري فخرج من مصر ولجأ الى فلسطين واقام فيها مدة اربع سنين وفي اثناء اقامتهِ فتح قيصرية وصور وهذه كانت نتيجة جميع اعمالهِ في هذه التجريدة. واذ كانت امهُ تطلب اليهِ ان يرجع الى مملكتهِ منذ مدة طويلة عاد الى فرانسا واخذ في اصلاح احوال داخليتها. وسنة ١٢١٠ نهض مرة اخرى لنجدة الاراضي المقدسة في فلسطين لكنهُ اتى اولاً تونس بقصد الانتقام من التونسيين الذين كثيرًا ما كانوا يتعدون على السفن الفرنساوية وغيرها ويسلبونها وامسى البحر عسر السلوك بسببهم. فنجح اولاً بعض النجاح على ان الدهر لم يسالمهُ الى النهاية اذ اصاب جيشهُ مرض الطاعون واضرّ بهِ جدًّا ثم اصيب هو ايضًا بهِ فادركتهُ المنية في تونس

وقد ازدادت فرانسا نموًّا ايضًا في مدة فيليب الثالث خليفة القديس لويس من سنة ١٢٧٠ الى سنة ١٢٨٤ اذ اضاف المذكور مقاطعة لانغدوك الى التاج وبتداخلهِ في جميع المنازعات الحاصلة يومئذٍ في املاك اسبانيا المسيحية امتد نفوذ كلمتهِ الى ايطاليا لا سيما في نابولي. وقد خلفهُ ولدهُ فيليب الرابع سنة ١٢٨٤ فشرع في استرجاع الاملاك التي كانت قد أُعطيت الى لوتير امبراطور المانيا واثار عدة حروب في نفس فرانسا على بعض الامراء الفرنساويين اصحاب المقاطعات ومع ادورد الاول ملك انكلترا ونجح في اكثرها ووسع نطاق المملكة ونجح في مقاطعتهِ ضد سلطة البابا الزمنية وكسر شوكة خدمة الدين وسلطة الاشراف وجعل بينهم وبين السيادة حاجزًا وهو مجلس المشورة فكانت تُنظر فيهِ قضايا المملكة والشعب. ووقع بين فيليب الرابع وبين البابا بونيفاس الثامن مخاصمات ومنازعات كثيرة فاخرج البابا المذكور ضدهُ ثلاثة مناشير ودعاهُ ضالاً واراتيكيًّا ثم حرمهُ. فاغتاظ فيليب جدًّا وارسل جيشًا الى ايطاليا فقبضوا على البابا واهانوهُ اهانةً عظيمةً واذ لم يكتفِ اصحاب فيليب بتنكيس البابا

بونيفاس بما حصل عليهِ من الاذلال اهانوهُ اهانةً لم يُسمع قط بمثلها وهي انهم اركبوهُ بغلاً بالمقلوب من غير سرجٍ ولجام ووجههُ مدارٌ الى نحو مؤخر البغل وطافوا مستهزئين بهِ فهذه الاهانة بالحبر الروماني مع فقد امواله الكثيرة التي وضع فيليب ملك فرانسا وقوادهُ ايديهم عليها أثّرت بهِ تاثيرًا عظيمًا اعدمتهُ الحيوة

وبعد توفي فيليب الرابع خلفهُ فيليب الخامس الملقب بالطويل بعد وفاة اخيهِ لويس العاشر الذي لم يملك الاَّ سنتين . فرجعت فرانسا القهقرى من ذلك اليوم . لانهُ بعد موت فيليب الرابع الذي اقام دعائم الملك اخذ اولادهُ وحفدتهُ في الميل الى الاعيان بدون تبصر في عواقب الامر والنتائج المضرة التي تترتب عليهِ . فجاء ذلك الاشراف طبق المراد واغتنموا تلك الفرصة لارجاع سلطتهم ثانية باعانة اولئك الملوك الذين كانوا يجهلون مصالح الملك كما ينبغي . وقد حصل مثل هذه الاعانة للاشراف من الفرع الثاني الملكي الملقب بالفوا الذي اشرنا اليهِ في صدر الكلام عن هذه الدولة وذلك اقتداءً بخلفاء فيليب الرابع . فبسبب هذا التصرّف الملوم اشرفت فرانسا على السقوط والاضمحلال بعد ذلك الفوز والنجاح وفُتح الباب للدول المجاورة لها على مهاجمتها واستخلاص املاك كثيرة منها فاغتنم الانكليز فرصة اختلال احوالها وضعفها وشرعوا في الحروب المعروفة بحروب المئة سنة وقهروهم في عدة اماكن بعد ان استولوا على جانب كبير من بلادهم . وكان مبدأ هذه الحروب سنة ١٣٣٧ وامتدت الى سنة ١٤٥٣ تشب نيرانها من وقت الى وقت واشهر الوقائع التي انتصر فيها الانكليز على الفرنساويين معركة كريسي سنة ١٣٤٦ وواقعة بواتي سنة ١٣٥٦ حين أُخذ ملكهم يوحنا الثاني اسير حرب وتوفي مرهونًا في بلاد الانكليز . وبينما كانت فرانسا آخذة في النهوض في زمن حكم كارلوس الخامس الملقب بالعاقل من سنة ١٣٦٤ الى سنة ١٣٨٠ عادت القهقرى في ايام كارلوس السادس اذ كان قاصرًا بعدُ لا يستطيع ادارة مهامّ الدولة ثم لاختلال عقلهِ فيما بعد بمرض

المونومانيا . واذ ذاك كادت فرانسا تشرف على الاضمحلال بالكلية خاصةً بسبب نزاع وشقاق امراء العائلة الملكية اصحاب الثروة والنفوذ وتداخلهم في سياسة الممالك طمعًا في الاستيلاء على التاج ورغبةً في السلطة ونفوذ الكلمة لاسيما مع ما آل اليهِ امر العائلة الثانية من اشراف وامراء بورغونيا الذين كانت سطوتهم تضاهي سطوة الملك لا بل واكثر من ذلك خاصةً في امارة كارلوس المجازف . ومما زاد فرانسا ضعفًا ووهنًا على ضعفها المشاجرات والمنازعات العديدة التي أُهرقت فيها دماء كثيرة بين شيعتي ارمينياك و بورغندا . اما الحروب مع انكلترا فكانت بلا فتور وسنة ١٤١٥ انتصر الانكليز في واقعة ازنكور وتغلبوا على اكثر الايالات البحرية الفرنساوية وتوغلوا في اواسط البلاد واستولوا زمام احكامها ونودي باسم ملكهم هنري الخامس ملكًا عليها وتتوج بعدهُ ابنهُ هنري السادس فكانت فرانسا مملكة انكليزية محضة جملة سنوات . وبينما كانت غارقة في لجج اوقيانوس القلق والاضطراب والبلايا محيطة بها من كل ناحية ولا ترى لها منفذًا للتخلص من ذلك الارتباك اذا بطالعٍ سعيد بزغ في افقها سنة ١٤٢٩ وذلك بظهور الابنة جان دارك وهي ابنة احد الفلاحين متظاهرة بالتقوى والورع . فزعمت ان الله ارسل اليها ملاكًا يامرها ان تخلص فرانسا من بلاياها وانهُ تراءى لها الملاك ومريم العذراء عدَّة مرات وامراها ان تذهب الى الملك وتطلعهُ عما كان . فترددت حسب زعمها في اول الامر ثم كاشفت والدها عما كان وطلبت اليهِ ان يسمح لها بالذهاب الى الملك فلم يجب طلبها ولكنها ذهبت اخيرًا خفيةً عنهُ واتت الملك كارلوس السابع وكان وقتئذٍ في شينيون واطلعتهُ على الخبر فتعجب من شجاعتها غاية التعجُّب ولم يكن لها من العمر حينئذٍ الاَّ ١٨ سنة . وبعد مفاوضات طويلة انقاد اخيرًا الملك وارباب ديوانهِ الى طلبها وكان الانكليز يومئذٍ محاصرين مدينة اورليان وكادوا يفتحونها فجهَّز الملك لجان دارك المذكورة جيشًا صغيرًا فقادتهُ بشجاعةٍ تقصر دونها شجاعة الرجال وهممهم ولم يمضِ الاَّ بضعة ايام حتى انكسر جيش الانكليز وتقهقر بعد ان فقد منهُ خلق

كثير وما برحت نطاردهم وتدفعهم حتى اوصلتهم الى مدينة رَمس ثم كسرتهم هناك ايضًا مرةً اخرى بعد ان كبدتهم خسائر عظيمة ثم تحوّلت بالجيش نحو باريس لطرد الانكليز منها وفعلت امورًا ادهشت الانكليز حتى ظنوها ساحرة. وبينما كانت تحاصر مدينة كومبيان هجمت امام الجيش على الاسوار فكبا بها فرسها ووقعت اسيرةً في ايدي الانكليز فاخذوها ومن غيظهم منها حكموا عليها بالموت بدعوى انها ساحرة واماتوها حرقًا بالنار فكان ذلك فعلاً ملومًا ومنظرًا محزنًا جدًّا تقشعرّ منهُ الاجسام. وسنة ١٤٤٤ عُقد صلحٌ مع الانكليز بعد ان خسروا معظم فتوحاتهم في فرانسا واقتصروا على بعض الاقاليم البحرية. ثم في سنة ١٤٥٢ تجددت الحرب مع الانكليز ثانيةً ودامت الى سنة ١٤٥٣ فطُرد الانكليز بالكلية من اراضي فرانسا وكانت هذه الحرب نهاية الحروب المسماة بحروب المئة سنة

وبعد ان أُنقذت فرانسا من ايدي الانكليز شرع كارلوس السابع في تقويم أَودها واصلاح شانها وازال ما لحق حكومتها من الخلل وجدد بها وجاقًا من العساكر المستمرة فكان بذلك قدوة لمَن اتى بعدهُ من الملوك حيث سلكوا على منوالهِ ولم يحتاجوا الى طلب العساكر من الامراء الملتزمين كما في الماضي وكسر من شوكة الاعيان جانبًا عظيمًا وحصل بينهُ وبينهم حروب كانت لهُ النصرة عليهم. ثم توفي سنة ١٤٦١ وخلفهُ ولدهُ لويس الحادي عشر فحذا حذو سالفهِ وتغلب على عصبة الاعيان واضاف الى حكم التاج احدى عشرة ايالة كانت كل واحدة منها مستقلة بالتصرُّف ولئن كانت ولايات حكامها بيد الملك في الظاهر. وكان هذا الملك شديد الاستقامة عالي الهمة محبًّا للعلوم والمعارف وانشأ جملة اماكن لانتشارها وكان محاميًا للآداب مكرمًا العلماء واهل الطباعة والفنون وكان قد اخترع هذا الفن في مايانس يوحنا غوتمبرغ سنة ١٤٥٠ ثم نقل الى باريس سنة ١٤٧٠ في عهد هذا الملك فاتسعت بهذه الواسطة دائرة العلوم وتقدمت باقرب وقتٍ. وكان علم الطب يومئذٍ قليل التقدم ممزوجًا بالضلالات

والاعمال السحرية ولم يكن لهُ مدرسة مخصوصة فجدد لهُ هذا الملك مدرسة خصوصية سنة ١٤٧٣ . وكان لهذا الملك مزيد الالتفات الى التجارة فاحضر من بلاد اليونان ومن بلاد ايطاليا كثيرين من ارباب الحِرَف والصنائع وجدد المعامل لعمل الاقمشة المزركشة بالذهب والفضة واقمشة الحرير . ومن عظيم مشروعاتهِ ترتيبهُ البريد وكانت البُرُد في مبدإِ الامر معدة لمصالح الملك والبابا خاصةً ثم انسعت دائرتها سنة ١٤٨١ حتى صارت تستعمل في مصالح الاهالي ومراسلاتهم . وبالجملة احدث اصلاحات كثيرة نافعة ووسع نطاق المملكة بدون ايقاع حروب ولم يحدث في ايامهِ سوى واقعتين ومع ذلك اكتسب بسياستهِ من الفتوحات مما لا يكتسبهُ غيرهُ من الملوك بالاسلحة ثم مات سنة ١٤٨٣ وترك جميع ثغور المملكة محصنة مستوفية سائر اللوازم

وخلفهُ ابنهُ كارلوس الثامن ولم يكن لهُ ما كان لابيهِ من الاوصاف والمحامد . وكان والدهُ قد ترك جيشًا يبلغ ستين الفًا على احسن حالة واكمل نظام فشرع في حروب ايطاليا من سنة ١٤٩٤ وامتدت الى سنة ١٤٩٨ وفتح امرية ميلان ثم خرجت من يدهِ ولم يجنِ من هذه الحرب سوى المشقات وفقدان العسكر . ثم توفي سنة ١٤٩٨ في رَيعان شبابهِ ولم يترك عقبًا فخلفهُ لويس الثاني عشر وهو اقرب اقاربهِ اليهِ فتمادى في الحروب في ايطاليا حتى افنى فيها مالهُ ورجالهُ وفتح سنة ١٥٠٠ امرية ميلان ثانيةً وسنة ١٥٠١ استولى على بلاد لومبارديا وبالجملة نقول ان ايام هذا الملك صُرِفت اكثرها في الحروب ومات اخيرًا سنة ١٥١٥ بعد ان خسر اقليم ميلان الذي كان قد فتحهُ

وقام باعباء المملكة بعدهُ فرنسيس الاول وكان قد اظهر منذ صباهُ ما يدلُّ على حسن مستقبلهِ . وكان سالفهُ قد وجههُ في حياتهِ بعض ماموريات نجح فيها حق النجاح فلما استلزم زمام الاحكام شرع في انجاز مقاصد سلفهِ من جهة استرجاع ميلان وبعد ان جدد المعاهدات القديمة التي كانت بين فرانسا ودولتي انكلترا والبندقية زحف الى ايطاليا بجيشٍ لم يسبق لفرانسا الى ذاك

الوقت انها بعثت بمثلهِ الى ما وراء جبال الالب . وكانت الخزينة عند موت سلفهِ قد امست في عسرٍ الاَّ ان ذلك لم يثنهِ عن عزمهِ فسار حتى جاوز جبال الب وانتصر سنة ١٥١٥ على سويسرة في واقعة ماربنيان واستولى على بعض المدن الحصينة منها مدينة نوار وتخلى اهل سويسرة عن اقليم ميلان وانعقدت شروط الصلح وصارت حكومة جنيفا تحت حمايتهِ ثم انكسرت جيوشهُ في بيكوك سنة ١٥٢٢ في محاربة الامبراطور شارلكان فخسر اكثر فتوحاتهِ . وسنة ١٥٢٥ عزم على استرجاع ما فقدهُ من الاملاك في ايطاليا فانتصر في مبدإِ الامر ثم انكسر في واقعة بافيا وانجرح ووقع اسيرًا في قبضة العدو فاخذ اسيرًا الى اسبانيا وبقي في اسر الامبراطور شارلكان اكثر من ١٢ شهرًا. ثم عقدت مشارطة مآلها تخلية كل الاقاليم التي فتحها فرنسيس في ايطاليا ودفع مبلغ من النقود نظير فديتهِ وهكذا تخلص فرنسيس من اسرهِ بعد ان قاسى كثيرًا . وسنة ١٥٢٩ عزم هذا الملك على ارجاع اقليم ميلان وارسل جيشًا لفتحهِ فانكسر كسرةً عظيمة وتجددت ثانيةً شروط الصلح وكان الوسيط في عقدها البابا اكليمنضس . وهكذا مع حذق فرنسيس ودرايتهِ وشجاعتهِ لم يتيسر لهُ مدة ملكهِ ان ينال ما كان يصبو اليهِ وبالجهد استطاع ان يدفع عنهُ قوة الامبراطور شارلكان وسطوتهُ

ومن ثم عظم السلام بالمعاهدة التي عقدها فرنسيس مع هنري الثامن ملك انكلترا . وكان من شروط هذه المعاهدة ان ولي عهد فرانسا يتزوج بالاميرة مارية الانكليزية . وقد رغب هذا الملك في ترقية اسباب المعارف والفنون فراج سوقها بعد ان كان كاسدًا حتى صار يلقب ابا العلوم والمعارف فكان رايهُ ان ليس لتعظيم العلماء حدٌّ ينتهي اليهِ وانهُ ما دام العلم معظمًا في مملكةٍ دام عزها وفلاحها واذا اهين فيها سقطت . واذ كان قد نشأ من صغرهِ على حب العلم وممارستهِ كان يحب مجالسة العلماء فكانوا يصاحبونهُ في كل مكان ولا يفارقونهُ في اسفارهِ ولا في متنزهاتهِ وكان يقلدهم المناصب الرفيعة ويجزل لهم العطاء .

وقد اعتنى جدًّا بالفنون والصناعات وانشأ عدة ابنية عظيمة فاخرة كقصر فونتنبلو وقصر سان جرمين وغير ذلك من الابنية المعتبرة الجميلة الى ان تُوفي اخيرًا سنة ١٥٤٧

ثم خلفهُ هنري الثاني . وسنة ١٥٥٢ اضاف المذكور الى حكم التاج ثلاث عمالات كان كل منها مرؤوسًا باسقفٍ وكان هولاء الاساقفة يقيمون الحروب على ما جاورهم لتوسيع نطاق عمالاتهم واخضاع جيرانهم وكانوا يعتقلون الرماح والسيوف وكانوا في كل مكانٍ في حربٍ مع الاهالي لان الشعب طلب الحرية وهم طلبوا الطاعة العمياء

وفي ايام الملك كارلوس التاسع الذي حكم سنة ١٥٦٠ حدثت مذبحة البروتستانت المعروفة بمذبحة ماري برثولماوس سميت بذلك لانها حدثت يوم عيد ماري برثولماوس في ٢٤ آب سنة ١٥٧٢ . وكان ذلك بامر الملك ووشاية امهِ ماري دي مديسيس . فاقام الكاثوليكيون المتعصبون بحق تنفيذ هذا الامر البربري حق القيام في اكثر انحاء المملكة وكان ذلك النهار يومًا مهولاً على البروتستانت يفوق ويلهُ ويل يوم ذبح الاطفال في بيت لحم ونواحيها بامر هيرودس . فقتل في ذلك النهار عددٌ غفير قيل عشرة الاف في مدينة باريس وستون الفًا في باقي مدن فرانسا والخلاصة انهُ كان يومًا جهنميًا وكانت فرانسا كانها قبرٌ مفتوح معدٌ لابتلاع البشر . ويوكدون ان الملك نفسهُ كان واقفًا في احدى نوافذ صرحهِ في اللوفر يشاهد تلك المناظر المريعة متهللاً وانهُ قتل عدة انفس بغدارتهِ التي كان يطلقها على اولئك المساكين . ولما بلغ البابا هذا الخبر سرَّ جدًّا وامر بقيام تشكرات وابتهالات لله في جميع الكنائس الكاثوليكية من اجل هذا العمل . واستمر ذلك التعصُّب ضد البروتستانت جملة سنوات وكانوا يُلقبون هوكينوت . ولحوادث تلك الاضطهادات كتبٌ مطولة وشروحٌ مستوفية

وفي اثناء حكم الملك هنري الثالث آخر امراء عائلة فالوا كانت فرانسا

مقسومة الى ثلاثة اقسام . القسم الاول البروتستانت ورئيسهم امير كوندي وهنري نافر الذي تبوأ سرير الملك فيما بعد تحت اسم هنري الرابع. القسم الثاني البوليتيك او الكاثوليكي المعتدل وانضم هذا الى القسم الاول ورئيسهُ الدوك دالانسون اخو الملك هنري الثالث . القسم الثالث الكاثوليك المتعصبون او الحمر ورئيسهم الدوك دي كيز . فوقع بين الطرفين وقائع يطول شرحها وكان الفوز فيها للقسمين الاولين . فعقد هنري الثالث صلحًا مع هنري الرابع يُعرَف بصلح لوش او بوليو . فهاج حزب الكاثوليك المتعصبين واقاموا الاتحاد المعروف بالاتحاد المقدس وكانت الغاية فيهِ تخليص الديانة بمحو ذكر الكلفينيين اي البروتستانت وابادتهم عن آخرهم . وتقرر في ذلك الاتحاد انهُ من واجبات كل ابناء الوطن ان ينضموا اليهِ والاَّ فيعتبروا ويعاملوا كاعداء وان يقبضوا على الملك هنري الثالث ويضعوهُ في دير ويقيموا مكانهُ الدوك دِي كيز ملكًا على فرانسا . اما هنري الثالث فلما كان مرتابًا من جهة غاية ذلك الاتحاد المدعو بالاتحاد المقدس وكان ايضًا يخشى سطوة الدوك دي كيز والاخطار تتهددهُ فرَّ هاربًا من باريس وأتى بلوا وارسل يدعو اليهِ الدوك دي كيز ولما حضر قتلهُ . فهاج جميع كاثوليكي فرانسا ضدهُ من جرا هذا العمل فاضطرَّ ان ينضمَّ الى هنري الرابع وحاصر باريس واذ اوشك ان يتغلب عليها قتلهُ رجل يدعى كلامان في اليوم الاول من شهر آب سنة ١٥٨٩ م فمات في اليوم الثاني وبهِ انقرض آل فالوا ونودي باسم هنري الرابع ملكًا على فرانسا من قسم عظيم من الجنود

وبتملك هنري الرابع ابتدأ فرعٌ اخر من العائلة الملكية وهو فرع من البوربون . وكانت ولادة هذا الملك في ١٢ ك ١ سنة ١٥٥٣ في مدينة بو حيث لهُ قصر باقٍ الى هذا اليوم على ما كان عليهِ من القدمية . وهو من سلالة الكونت روبرت دي كلارمون الابن السادس للملك لويس التاسع . وكان رجلًا حاذقًا مدركًا بروتستانتي المعتقد في بداية الامر ولكنهُ اتبع المذهب

الكاثوليكي فيما بعد لنوال مآربهِ لانهُ بعد وفاة سالفهِ هنري الثالث تركهُ قسمٌ كبير من الجنود الكاثوليكية فاضطر ان يرفع الحصار عن باريس . ومع كل اجتهادهِ وشدة باسهِ وانتصارهِ مرتين على مقاوميهِ في اراك وايڤري لم يستطع ان يدخل العاصمة الى سنة ١٥٩٣ حين ترك مذهبهُ القديم البروتستانتي واعتنق المذهب الكاثوليكي ولولاً ذلك لاستمرت القلاقل والحروب والمنازعات زماناً طويلاً ولم يتمكن من اخضاع القوم وسنة ١٥٩٨ ابرز امرًا يعرف بامر نانت نسبةً الى المدينة التي أُعطي فيها اجاز بهِ للبروتستانت ان يتمتعوا بممارسة رسوم مذهبهم بكل حريَّة بدون مانع ولا معارض الامر الذي الغاهُ حفيدهُ لويس الرابع عشر. وفي تلك السنة نفسها عقد صلحًا مع ملك اسبانيا ومن ثمَّ اكبَّ على اصلاح داخلية البلاد واخماد الفتن وعصب الجراح التي اتت بها الثورات والحروب الدينية الاهلية وتوفي اخيرًا قتيلاً في ١٤ من شهر ايار سنة ١٦١٠ وخلفهُ ابنهُ لويس الثالث عشر الملقب بالعادل

وكان عمر لويس ٩ سنين عند وفاة ابيهِ فكانت نيابة الملك في يد امهِ ماري دي مديسيس الى ان بلغ السنة الرابعة عشرة من عمرهِ فقبض على عنان الملك . وكان ضعيف العزيمة فاتر الهمة وكان الكردينال ريشليو الشهير هو الذي يدبر امر المملكة ومهامها واما الملك فكان لهُ الاسم فقط . وفي ايام دولتهِ كثرت الحروب من داخل ومن خارج ولكنهُ فاز وانتصر فيها . فحارب اسبانيا والنمسا وايطاليا في الخارج ومن داخل كانت الحروب الدينية فتغلب على البروتستانت وفتح مدينة روشيل التي كان البروتستانت محاصرين فيها من عظم جور الكاثوليكيين عليهم وذلك بعد حصار شديد ولكنهُ لم يلغِ الامر الذي كان والدهُ اجاز بهِ للبروتستانت ان يتمتعوا بحقوقهم الدينية ومات سنة ١٦٤٣ وكان قد سبقهُ الى القبر وزيرهُ الكردينال ريشليو ببضعة اشهر وهذا الوزير المذكور هو الذي اسس الملك المطلق ومهد طرقهُ للويس الرابع عشر بعد ان كسر شوكة البروتستانت ومحا اثر تصرفات الاشراف وهو الذي رفع شان

فرانسا الى ذرى المجد والفخر في الحروب المسماة بحروب الثلاثين سنة وذلك من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨ ونقل اليها الرجحان الذي كان قبل ذلك لدولة النمسا

وبعد وفاة هذا الملك خلفهُ ابنهُ لويس الرابع عشر الملقب بالكبير ولم يكن لهُ اذ ذاك من العمر سوى خمس سنين فكان تحت وصاية ووكالة امهِ حانة دوتريش والكردينال مازارين الوزير الاول الذي خلف الكردينال ريشليو وكانت الحروب يومئذٍ لم تزل متعاقبة فعقد سنة ١٦٤٨ صلح وستفاليا ثم سنة ١٦٥٩ عقد صلح البيريني فصارت فرانسا بشروط هذين الصلحين اعظم ممالك اوروبا سطوةً ونفوذًا وقد تعصبت عليها اكثر دول اوروبا ودافعت حق الدفاع وازدادت قوتها وسطوتها في صلح نيم سنة ١٦٧٨ ثم اخذت اخيرًا بالقهقرى من طول الحروب مع اسبانيا المسماة بحروب وراثة اسبانيا . وقد رغب جدًّا لويس الرابع عشر في ترقية اسباب التجارة والفنون والعلوم وخفض رسوم الاموال الاميرية وفعل امورًا كثيرة مستحقة الاعتبار فزهت البلاد ونمت وكادت تخسف رونق اعظم دول اوروبا ولكن عندما الغى اوامر جدهِ المارّ ذكرها من جهة البروتستانت اخذت عيال كثيرة بروتستانتية من اهل الشهرة والمعارف والفنون تهجر اوطانها عندما باتت مسلوبة الحرية من ممارسة رسوم ديانتها . ومن ثم حدثت الحروب الكثيرة التي اشرنا عنها وجلبت هذه الامور على الدولة الضعف والتاخر الادبيّ والماديّ فاضحت فرانسا فاقدة اكثر فتوحاتها في الشرق والشمال والجنوب وانحصرت ضمن دائرة حدودها الاولى وهكذا فقدت في اواخر ايام هذا الملك العظيم الشان عزها وبهاءها ورونقها بالنسبة الى اوائلها وبالاجمال نقول ان عصرهُ كان من ابهج وازهى الاعصار السالفة وقد ظهر فيه عدة مشاهير من ارباب الحرب والعلم ككوندي وتورين ودوكازن وكوبير ولوفوا وراسين وموليار ولافونتين وبوالوا وبوسوي وفنيلون مؤلف تليماك ولوبرون وغيرهم . وهو الذي انشأ دار الانفاليد وقصر فرساليا

الذي انفق عليهِ اموالاً جزيلة وكانت وفاة هذا الملك في الاول من شهر ايلول سنة ١٧١٥ للميلاد في السنة السابعة والسبعين من عمرهِ والثانية والسبعين من ملكهِ

وخلفهُ حفيد ابنهِ لويس الخامس عشر وكان ايضاً فاتر الهمة ضعيف العزيمة محاطًا بجمهور من النساء اللاتي يخجل الانسان ان يصف سجاياهنَّ الذميمة فبات عنان الملك يلقتب في اكفّ اميالهنّ واغراضهنّ . وحدثت في ايامهِ حروب كثيرة اكثرها في فائدة دولة النمسا وذلك من سنة ١٧٥٦ الى سنة ١٧٦٣ وقد حازت فرانسا في ايامهِ اللورين وجزيرة كورسيكا على انها ضيعت مستعمراتها في الخارج ودام حكمهُ من سنة ١٧١٥ الى سنة ١٧٧٤ الميلاد ثم توفي بمرض الجدري

وتبوأ بعدهُ تخت الملك حفيدهُ لويس السادس عشر سنة ١٧٧٤ وقد اطنب المؤرخون في مديحهِ وقالوا انهُ كان تقيًا ورعًا محبًا للشعب وراغبًا في تقدمهِ ونجاحهِ غير انهُ كان ضعيف العزيمة لا يحق الاركان في نفسهِ وفي ايام دولتهِ حدثت الثورة العظيمة في فرانسا وهذه الثورة هي ابتداء تاريخ فرانسا الحديث وسقوط الدولة الثالثة الفرنساوية

الباب الرابع

في الثورة الفرنساوية واسبابها وقيام الجمهورية الى الامبراطورية الاولى من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٠٤

ان الشيء بالشيء يذكر . وقبل ان نشرع في الكلام عن حوادث الثورة التي حدثت سنة ١٧٨٩ راينا انهُ من اللازم ان نذكر شيئًا عن الحوادث التي مهّدت لها السبيل والتي كانت مصدرًا لها فنقول . قد علمنا فيما تقدم ان فرانسا ابتدأت بالتأخر السياسي والمادي والادبي منذ اواخر مدة ملك لويس

الرابع عشر وفي زمن تملك ابن حفيدهِ لويس الخامس عشر لان هذا الاخير لم يكن يهتمُّ الاَّ بالقيام بحق شهواتهِ واميالهِ الفاسدة فاحاط بهِ نساءٌ كثيرات اقمنَ في بلاطهِ في فرساليا مستوليات على قلبهِ فامسى عنان الدولة في ايديهنَّ وبات زمام ادارة المهام وسياسة العباد في اكف اغراضهنَّ واميالهنَّ وكنَّ مهتمات في ما يأتينهُ ويأتي اهلهنَّ واعوانهنَّ بالمجد والسطوة وكسب الاموال وتنفيذ المآرب قاطعات النظر عن صوالح البلاد والرعايا . وفي اواخر ملك لويس الخامس عشر بانت سياسة البلاد الداخلية في ارتباك عظيم وفي ايامهِ طُرد الرهبان اليسوعيون من فرانسا كما طردوا من الممالك الاوروبية الاخرى . فكان ذلك مصدرًا لاضطرابات ومقالات كثيرة لان الرهبنة المذكورة كانت ذات شهرةٍ وسطوةٍ عظيمة . فهذه السياسة واعمال اخرى كثيرة نظيرها لا يسعنا ضيق المقام لاستيفائها اضعفت قوة الدولة واوقعت المالية في عسر لا مزيد عليهِ وقطعت العلاقات التي ربطت فرانسا باسبانيا ونابولي ونكست شرفها واذلتها في اعين دولتي انكلترا وروسيا وهكذا امست الامة فاقدة الامل في ما يرفع عنها ذلك الجور والظلم وبات الجميع ينتظرون زمان الشروع في اصلاح ما قد طرأ من الفساد. ولو لم يمت لويس الخامس عشر وطالت حياتهُ ولو مدة يسيرةً لابتدات الثورة في ايامهِ ولكن ما اخر حدوثها مدة خمس عشرة سنة هو تبوُّؤ حفيدهِ تخت الملك لانهُ كان محبًّا للشعب جدًّا وكان يحاول اصلاح الاحوال بتشييد اركان الدولة بالاشتراك مع مجلس نواب الامة الذي كان قد الغاهُ سالفهُ

وكانت حينئذٍ الامة الفرنساوية مقسومة الى ثلاثة اقسام وهي الامراء وخدَمة الدين والعامة وكانت اعنَّة السياسة وزمام ادارة مهام الامور قد اضحت في ذلك الوقت في ايدي الامراء وخدَمة الدين . اما الشعب فلم تكن لهُ يدٌ فيها ولا كان لهم حق في المراتب ولا في ادارة امرٍ ما من الامور العمومية فصرف هذا الملك التعيس الحظ قصارى جهدهِ وهمتهِ بمساعدة وزرائهِ لاصلاح احوال

الامة والدولة فلم ياتِ كل ذلك بادنى نتيجة حسنة . ولما كان روح الثورة قد انتشر بين الشعب واخذت الجرائد تجاوز حدود الاعتدال في الكلام ضد الملك وحكومتهِ رأى لويس السادس عشر ان لا فائدة من الاصرار على الملكية اذ لا عضد لهُ ولا معين فعزم على الخروج من فرانسا وخرج من قصرهِ في التوليري في ٢٠ حزيران سنة ١٧٩١ ومعهُ الملكة واختهُ وابنهُ وبنتهُ وركبوا جميعهم مركبةً كانت معدةً لهم وساروا سرًّا متنكرين ولكنهُ انكشف امرهم اذ عرفوهم في مدينة فارين فقبضوا على الملك واهانوهُ واعلموا الحكومة في باريس بذلك فارسلت امرًا بترجيع الملك الى باريس للمحاكمة . فقلَّ ذلك اعتبارهُ عند الشعب والجمعية الوطنية وجعل مضادي الحكومة الملكية يشددون طلب قيام الجمهورية

ولما رأَت ملوك دول اوروبا ما هو جارٍ في فرانسا خافوا ان يباتوا هم ايضًا هدفًا لامور كهذه وعلى الخصوص بعدما رأَوا ما حدث عندما أُلقي القبض على الملك اتفق امبراطور المانيا وملك بروسيا بموجب معاهدة سنة ١٧٩١ مآلها ان الدول تعتبر ما هو جارٍ على لويس السادس عشر ملك فرانسا كانهُ جارٍ عليها جميعًا . فاغتاظت الامة الفرنساوية من ذلك واجمع رايها مع ملكها ووزرائهِ على اشهار الحرب على المانيا وبروسيا وكان ذلك في العشرين من نيسان سنة ١٧٩٢ وصادقت الجمعية على ذلك فانتشبت نيران تلك الحروب الشديدة التي دامت مدة ثلاث وعشرين سنة ونالت بها فرانسا الفخر اكاليل المجد كما سياتي ذكرهُ في مكانهِ فمال الجميع وقتئذٍ الى الملك ولكن الى مدةٍ قصيرة ثم حدث بعد ذلك امور كثيرة لا يسعنا استيفاؤُها لضيق المقام وهاج الشعب هيجانًا عظيمًا وهجم على بلاط الملك وطلب اليهِ المصادقة على نظامات جديدة كانت قد قررتها الجمعية المدعوة بالحكومة الاجرائيَّة فابى وبعد ان حدثت امور يطول شرحها قبضوا على الملك وعلى عائلتهِ وسجنوهُ في دار التامبل وبقي مسجونًا مدة اربعة اشهر وكان ممَّن حبس معهُ زوجتهُ ماري انطوانت شقيقة امبراطور المانيا

والنمسا ثم ابنهُ وابنتهُ وشقيقتهُ الاميرة اليصابات وخادمٌ . وفي اثناء سجنهِ اقيمت الحجة عليهِ بانهُ قد خان الوطن وحنقوا عليهِ كل الحنق لاسيما عندما راوا انتصارات جيوش الاعداء الالمانية والبروسيَّة وتهددها العاصمة . وفي ٢١ ايلول سنة ١٧٩٢ اقاموا جمعية الكونڤانسيون ناسيونال اي جمعية اتفاق الامة وقررت هذه الجمعية باتفاق اعضائها الغاء الملكية وقبضت على زمام السلطة الاجرائية والنظاميَّة وكانت الجنود الفرنساوية قد اظهرت ما لامزيد عليهِ من الشجاعة والبسالة. وسرعة الحركة في محاربة الدول المتحدة فسرَّت الحكومة الجمهورية الفرنساوية بهذا النجاح واعلنت وجوب الغاء المظالم الناتجة عن وجود الملوك في كل اوروبا ونشرت اعلانًا مآلهُ انها مستعدة ان تساعد الامة التي ترغب في خلع ملكها طلبًا للحرية واعلنت ايضًا انها ستلغي السلطة الملكية من كل البلاد التي تدخلها جنودها وتقيم عوضًا عنها سلطة الامة وتلقي الحجز على املاك خَدَمة الدين والامراء قيامًا بحق مصاريف الحرب وكان كل ذلك في ١٥ كانون الاول سنة ١٧٩٢

وبعد انقضاء اربعة اشهر من تاريخ سجن لويس السادس عشر واقامة الحجة عليهِ كما تقدم حكم عليهِ بالموت فطلب الملك فرصة ثلاثة ايام ليستعد فيها للموت فرفض مجلس النواب ان يمنحهُ اكثر من ٢٤ ساعة وفي صباح ٢١ من كانون الثاني سنة ١٧٩٣ جاءوا بالملك الى محل القتل مُوثَق اليدين وكانت تلوح على وجههِ علامات الشجاعة وعدم الاضطراب . فخلع ثيابهُ ولما وصل الى اعلى المكان المعدّ لقتلهِ بعد عن الجلادين وتقدم قليلاً الى جهة الساحة حيث كان مجتمعًا جمعٌ غفير وجيش جرّار . وقال مخاطبًا الشعب بصوت مرتفع . ايها الفرنساويون انني اموت بريًا مما اتهمني بهِ هذا الشعب واسامح من رغب في قتلي واسأل الله ان لا يحمل فرانسا مسئولية سفك دمي. وكان يرغب ان يطيل الكلام غير ان الاوامر صدرت بضرب الطبول والالات الموسيقية العسكريَّة حتى لم يقدر احدٌ بعدُ ان يسمع صوت الملك فساقوهُ الى الذبح وضُرب عنقهُ

وحدث بعد قتل الملك في فرانسا شغبٌ عظيم وكان القتال مشتدًّا خارج المملكة وداخلها وكانت البلاد في ذلك الوقت كانها قبرٌ مفتوحٌ معدٌّ لابتلاع القتلى . ووقعت فرانسا في الحروب المستطيلة التي انت بها بعد قتل ملكها . اذ تحالفت جميع الدول على محاربتها وابادة شعبها واقتسام مملكتهم . وكان في مقدمة هذه الدول النمسا وبروسيا . وزد على ذلك الحرب الاهلية التي اثارها اهل الجيوم وولاية ڤاندي بسبب سياسة جمعية الكونفانسيون الملومة الخالية من الحقانية وفي ٨ شباط سنة ١٧٩٣ اشهر مجلس الكونفانسيون الحرب على انكلترا وهولاندا وجميع دول اوروبا ما عدا اسوج والدانيمرك وفينيسيا والدولة العثمانية . فانتشبت نيران الحرب في كل فرانسا وكان ابتداؤها في بلاد الجيوم في ٢٠ شباط سنة ١٧٩٣ ومن ذلك الحين كانت الحروب متصلة بين فرانسا واكثر دول اوروبا ودامت الى سقوط الامبراطوريَّة الاولى سنة ١٨١٥

وحدثت بعد ذلك امور كثيرة فظيعة تقشعرُّ منها الابدان . منها انهم بعدما حكموا على الملك بالقتل اقاموا ايضًا الحجة على الملكة واتهموها بانها كانت مشتركة في كل اعمال زوجها وحكموا عليها بالموت ايضًا فاركبوها مركبة لنقل البضائع واتوا بها الى حيث كانوا قد قتلوا زوجها من مدة قريبة وبعد ان صعدت على المذبحة خرَّت على ركبتيها وصرخت صوتًا مرتفعًا قائلةً يا الهي اسالك ان تسامح قاتليَّ . ثم نهضت فساقوها الى المذبحة وقتلوها وذلك في ١٧ تشرين الثاني سنة ١٧٩٣ ودفنوها في القبر الذي كانوا قد دفنوا فيهِ زوجها منذ تسعة اشهر واخذوا ولدها وليَّ العهد وسلموهُ لرجلٍ اسكاف وفوَّضوا اليهِ امر تربيتهِ . وكان رجل يُسمى روبسبير مشهور بالظلم والعدوان قد تولى ادارة تلك العدة القاسية البربرية فاستدعى الاميرة اليصابات شقيقة الملك لويس السادس عشر التي كانت لم تزل مسجونة في دار التامپل واقام محاكمتها في ٩ ايار سنة ١٧٩٤ في مجلس الجنايات حيث أُصدر عليها الحكم بالموت فقتلوها ظلمًا وعدوانًا في نفس ذلك النهار

ثم ان روبسبير المذكور لكي يميل بالشعب اليهِ كان قد امر قبل ذلك بنهب الكنائس والاديرة وباضطهاد خدَمة الدين بوجه الاجمال واباح قتلهم فاقام القوم بحق تنفيذ هذا الامر البربري حق القيام . ثم امر بتقرير نسق جديد لحساب الاشهر والسنين وكان قصدهُ ابطال جميع الاصطلاحات السابقة وقرّر اول التاريخ منذ قيام الجمهورية في ٢٢ ايلول سنة ١٧٩٢ وغيّر اسماء الاشهر والايام مبتدئًا من شهر ايلول وقسم الاسابيع الى عشرة ايام وغيّر اسماء الايام فسمّى يوم الاحد الاول والاثنين الثاني والثلاثا الثالث وهلمّ جرًّا الى العاشر . وكان كل شهر ثلاثين يومًا واضاف لآخر السنة ستة ايام وبعد ان اصبح وحدهُ قابضًا على زمام الامور شرع في نشر ما كان يجبّ ان ينشرهُ من تعاليم ڤولتير وروسّو الكافرين اللذين كانا قد هيّجا حب الثورة في قلوب الفرنساويين وعجّلا وقوعها بواسطة كتاباتهم ففي ١٠ ايار سنة ١٧٩٤ امر روبسبير بعد ان اتفق مع اعوانهِ الاردياء نظيرهِ الذين كانوا يدّعون انهم ينوبون عن الامة بابطال الديانة المسيحية وجميع الأديان واعلن انهُ من الواجب ان يقرّ الانسان بوجود الخالق وخلود النفس فقط وامر ايضًا بقتل خدَمة الدين وجميع اللذين ينتصرون ويتحزبون لهم . ففاز هولاء الاردياء الاشرار مدة ولكن بعد ذلك بمدة ليست طويلة حدثت ثورة في باريس وسقط روبسبير ورفقاؤهُ من رجال الحكومة واقيمت الدعوى على روبسبير نفسهِ وعلى اعوانهِ فحكم عليهم بالموت فنالوا جزاء اعمالهم الشنيعة البربرية وماتوا موت الانذال . فانهُ عندما صعد ذلك الذي خضّب ارض فرانسا بدماء اولادها هو واعوانهُ على المذبحة اظهروا من الخوف والجبن ما يعيب الرجال فكانوا يبكون كالاطفال حتى ان بعضهم ماتوا من مجرد النظر الى قتل رفقائهم وكان ذلك في ٢٧ و٢٨ تموز سنة ١٧٩٤

وكانت جيوش الحكومة قد انتصرت وطردت جيوش الاعداء من فرانسا واسترجعت مدينة طولون من الانكليز بالقوة وذلك تحت ادارة شاب لم يتعوّد بعدُ خوض المعارك ولم يحضرْ في ساحات القتال قبل حضورهِ في هذا الحصار

وهو البطل المشهور نابوليون بونابارت وبعد ذلك امرت بجمع الاسلحة من الاهالي ورجعت الراحة الاهلية مدة يسيرة اذ حدث بعد ذلك قلاقل كثيرة. وفي ٢٧ تشرين الاول سنة ١٧٩٥ اقاموا حكومة جديدة تُعرف بحكومة الدبركتوار مؤلفة من خمسة اشخاص مدبرين للحكومة الاجرائية ولذلك دُعيت حكومتهم حكومة الدبركتوار اي الحكومة المدبرية ودامت هذه الحكومة من ٢٧ تشرين اول سنة ١٧٩٥ الى ١١ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ للميلاد وحدثت في زمانها حروب كلية نالت بها فرانسا الفخر اكاليل المجد والسطوة والقوة. فحاربت المانيا والنمسا اولاً ثم حاربت دول ايطاليا المختلفة تحت قيادة القائد بونابارت الشهير فانتصر انتصارات كلية وفتح كل ايطاليا ووضع عليها ضرائب واقام فيها حكومات واضعاً لها نظامات وقوانين جمهورية. وكانت وقتئذٍ ايطاليا مقسومة الى ممالك صغيرة ودوقيات مستقلة اكثرها خاضعٌ للنمسا وبعد ان انتصر في معارك عديدة وقعت بينهُ وبين جيوش النمسا في ايطاليا ومهّد الامور وعقد معاهدات مع دول ايطاليا ودوقياتها تقدم لمحاربة النمسا في اراضيها وهناك ايضاً فاز فوزاً عظيماً وفتح اكثر مدنها غير ان الجيوش الفرنساوية الاخرى التي كانت تحت قيادة غيرهِ من اشهر قواد فرانسا لم تأتِ بنتيجة حسنة عندما كانت تحارب المانيا والنمسا من الجهة الشرقية وارتدت الى فرانسا بعد وقائع كلية بدون ادنى نتيجة. ومن ثمَّ طلبت دولة النمسا الصلح فعقد بونابارت معها صلحاً اتى فرانسا بالفخر والشرف والفوائد السياسية والمادية وعاد راجعاً بعد ذلك الى باريس فتلقّاهُ الشعب والحكومة بمزيد الاعتبار واثنى الجميع عليهِ مزيد الثناء والشكر وكان ذلك سنة ١٧٩٧. وبعد ان اقام مدة في باريس عرضت عليهِ حكومة الدبركتوار ان ياخذ قيادة العمارة البحرية التي كانت قد تعينت لغزو الاساكل الانكليزية ولكنها استصوبت اخيراً الراي الذي كان قدمهُ بونابارت بفتح البلاد المصريةِ وبلاد سوريا لكي تكونا مفتاح بلاد الهند وكان جل قصد الحكومة ان تبعدهُ عن فرانسا لانها امست خائفة سطوتهُ.

فجهزت لهُ اربعة وثلاثين الف جندي مع عدد عظيم من السفن البحرية الحربية واخرى لنقل المهمات . فركب بونابارت هو وجنده تلك السفن واقلعوا قاصدين الاسكندرية . وفي اثناء السفر فتح جزيرة مالطة من فرسان انصاريت المقدس وقد مرّ ذكرهم في تاريخ آل عثمان . فترك بونابارت فيها ثلاثة الاف عسكري وتقدم الى الاسكندرية مع بقية الجيش واكثر السُفن فاخذ الاسكندرية والاساكل البحرية ثم تقدم بجنودهِ الى داخلية البلاد قاصدًا القاهرة فاستولى عليها بعد معركتين انتشبت نيرانها بينهُ وبين مراد بك قائد جيش المماليك . الاولى عند الرحمانية بالقرب من دمنهور . والثانية امام اهرام الجيزة . وفي غضون ذلك وردت اليهِ الاخبار لجهة انتصار عمارة الانكليز على عمارتهِ الفرنساوية في ابي قير واحتراق الجانب الاعظم من بوارجهِ واسر الجانب الاخر فتكدر واضطرب لانهُ امسى منفصلاً عن فرانسا ومع كل ذلك ما زال الامل يخامر قلبهُ بالتغلب على جميع الموانع والصعوبات وبعد ان مهد الامور في القطر المصريّ تقدم بفرقةٍ من الجنود لفتح بلاد سوريا فاخذ العريش وغزة ويافا وتقدم واقام الحصار على عكا مفتاح هذه البلاد وضايقها جدًّا واوشك ان يفتحها لولا مساعدة الانكليز الجزار والي سوريا ووقع مرض الطاعون بين صفوف عسكرهِ فانثنى راجعًا عنها تاركًا فتوحاتهِ في المدن التي ذكرناها آنفًا وعاد الى مصر ومنها سافر راجعًا الى باريس بعد معركة ابي قير الهائلة التي هلك فيها ١٢ الف جندي من عسكر آل عثمان والانكليز تاركًا قيادة الجيش الاولى الى القائد المشهور كليبر الذي لم يكن دون بونابارت بالشجاعة والحذق والدراية وقد قتلهُ فيما بعدُ رجلٌ احمق بدسيسة من قبل المماليك ومُسْلِمي مصر . فقاسى بونابارت اخطارًا عظيمة في اثناء سفرهِ الى ان وصل الى فرانسا اذ اوشك ان يبيت اسيرًا في قبضة الانكليز وذلك في اواخر سنة ١٧٩٩ للميلاد . وكانت دولة النمسا ودول ايطاليا تتوقف عن اجراء بعض شروط المعاهدة التي قررها بونابارت قبل ذهابهِ الى مصر وكانت انكلترا تهيج دول اوروبا على فرانسا فباتت تلك

المعاهدة متعلقة بين الموت والحياة واخذت فرانسا والنمسا ودول ايطاليا نستعد جميعًا للحرب وفي اثناء ذلك بعثت فرانسا شرذمة صغيرة تحت قيادة القائد هومبرت وعمارة بحرية الى ايرلاندا من املاك انكلترا ليضرم نار الهيجان بين الاهالي ويحملهم على العصيان املاً بتخويف انكلترا لعلها تقلع عن تهييج النمسا وباقي دول اوروبا على فرانسا ثم اخذت تجهز جيشًا اخر لنجدة القائد هومبرت في ايرلاندا فتاخر ذلك فحارب هذا القائد بالنفر القليل الذي كان معهُ مدة ليست بقليلة واضطر اخيرًا ان يسلم. وبعد ذلك اتت بعض البوارج الانكليزية ببعض الجنود وانزلتها في ميناء اوستند الفرنساوية لجهة الاوقيانوس فدفعهم الفرنساويون واهلكوا منهم عددًا غفيرًا

هذا وكانت حكومة نابولي قد اشهرت الحرب على فرانسا ووجهت قيادة جيشها الى القائد النمساوي ماك فحاربهُ القائد الفرنساوي في ايطاليا وكسرهُ واستولى على مدينة نابولي نفسها والزم الملك واهل بيتهِ واعيان دولتهِ ان يلتجئوا الى البوارج الانكليزية التي كانت تحت قيادة الاميرال نيلسون في جزيرة صقلية وقرر القائد الفرنساوي الجمهورية في تلك البلاد ولما كانت القلاقل والاضطرابات آخذةً بالازدياد ودول اوروبا مُصمِّمة على كبح عنفوان الفرنساويين اخذت فرانسا تستعد كل الاستعداد وتجند الجنود واخيرًا لما رات انهُ لا بد من فتح الحرب بعثت في ١٢ اذار سنة ١٧٩٩ الى القائد جوردان صورة اعلان اشهار الحرب ليبعث بهِ الى دولة النمسا وامرتهُ حكومة الدبركتوار ان يهاجم جيش النمسا الذي كان تحت قيادة الارشيدوق شارل وبعثت ايضًا بمثل هذه الاوامر الى القواد الذين كانوا في ايطاليا وهكذا شبت الحرب وقامت على قدمٍ وساق فنجحت الجيوش الفرنساوية في اول الامر كل النجاح وكان نجاحها في ايطاليا مستديمًا غير ان جيش الرين الذي كان تحت قيادة جوردان انكسر اخيرًا وتقهقر الى الحدود ولولا بعض الموانع التي حالت بين الارشيدوق النمساوي وبينهُ لانزل بهِ الويل والهوان . فعاد القائد جوردان الى باريس

تاركًا قيادة جيشهِ الى احد اركان حربهِ ليعرض على الحكومة سوء حالة الجيش واحتياجهُ الى الزاد والمهمات وفي غضون ذلك كان رجوع بونابارت من مصر

ولما اتى بونابارت باريس وجد حكومة الديركتوار في اسوأ حال فاقدة سطوتها واعتبارها اذ ليس لها رئيس فيهِ الاهلية واللياقة لان يدبر مهام امورها كما ينبغي فاخذ بمساعي اخيهِ لوسيين وبعض اعوانهِ ممن كانوا يميلون اليهِ بقلب الحكومة المديرية واقامة حكومة جديدة فنجحت مساعيهِ وابطل حكومة الديركتوار واقام الحكومة المعروفة بحكومة الكونسولات وهي مؤلفة من ثلاثة اشخاص يدعون قناصل وتبوأ هو رياستها فسُمي قنصلاً اولاً الى عشر سنين وكان ذلك في اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ ثم سمي قنصلاً مدة حياتهِ سنة ١٨٠٢ وسنة ١٨٠٠ بعد ان تبوأ المسند الاول في الحكومة الجديدة استلم قيادة جيش ايطاليا وتقدم لمحاربة ايطاليا والنمسا اذ نكثتا بالعهود التي كان عقدها معها قبل سفرهِ الى مصر فحاربها وانتصر عليها بينما كان القائد مورو قائد جيش الرين منتصرًا في الجهة الشرقية. فطلبت النمسا الصلح فعقد معها معاهدة تعرف بمعاهدة لونفيل وذلك في ١٤ تموز سنة ١٨٠٠ وسنة ١٨٠٢ عقد معاهدة أميين مع الانكليز غير ان هذه المعاهدة لم تتمّ من الطرفين وتجدد بعد ذلك العدوان والتنافر

هذا وبعد ان انهى بونابارت اعمالهُ العظيمة في الخارج انكبَّ على اصلاح داخلية بلادهِ وضمد جراحاتها التي اتت بها الثورة والحروب الكثيرة الداخلية والخارجية وسوء ادارة مهام امور الدولة التي كان يسوسها قوم غير اهل للقيام بحق ادارة اعمال عظيمة وكثيرة الاهمية لاسيما في تلك الظروف الصعبة التي بانت فيها فرانسا فكُللت مساعيهِ بالنجاح العظيم. وهكذا بعد ان كان سماهُ المجلس القضائي (السينا) سنة ١٨٠٢ قنصلاً طول حياتهِ على الجمهورية رقاهُ الى الامبراطورية سنة ١٨٠٤ وهكذا انتهت الحكومة الجمهورية الأُولى في فرانسا التي دامت اثنتي عشرة سنة

الباب الخامس

في قيام الامبراطورية الفرنساوية الاولى وسقوطها وارجاع الملكية وسقوطها ايضًا الى قيام الجمهورية الثانية والامبراطورية الثالثة وذلك من سنة ١٨٠٤ الى سنة ١٨٤٨ ·

انهُ لما كان هذا الفصل ذا اهمية كلية في تاريخ فرانسا وكان معظمهُ متعلقًا بالامبراطور نابوليون الاول ولم نتصدَّ في ما تقدم لتقرير حياة هذا الرجل العظيم رأينا قبل ان نستوفي الكلام من جهتهِ ان نقرر اولاً ولو بالايجاز خبر حياة هذا الرجل الذي لم يقم في الارض كثيرون نظيرهُ فنقول

ان نابوليون وُلد في ١٥ آب سنة ١٧٦٩ للميلاد في مدينة اجاكسيو عاصمة جزيرة كورسيكا التي كانت قبل ذلك تابعة لولاية جينوا الايطاليانية قبل ان فتحتها فرانسا وضمتها الى بلادها. وكان والدهُ شارل بونابارت من المشهورين في الجزيرة المذكورة وكان لهُ ثمانية اولاد فخمسة منهم ذكور وهم يوسف ونابوليون ولوسيين ولويس وجيروم. وثلاثة منهم اناث وهنَّ ليزا وباولينا وكارولينا. وكانت ولادة نابوليون بعد ان استولت فرانسا على تلك الجزيرة بنحو شهرين وكان ينمو في القامة ويتقدم في الآداب تحت ادارة امهِ التي كانت على جانب عظيم من التهذيب والتقوى والدراية لان اباهُ شارل بونابارت توفي حديث السن فاعتنى بامر عائلتهِ اخوهُ لوسيين الذي كان رئيس شمامسة وكان يخصص بالاعتناء نابوليون اذ راى فيهِ ما يدل على حسن استعداداتهِ. ولما كان هذا الشماس على مضجع الموت اجتمع حولهُ اولاد اخيهِ كلهم فقال مخاطبًا كبيرهم وهو يوسف انك انت اكبر اخوتك سنًّا غير ان نابوليون هو اكبركم درايةً ومعرفةً

ولا يفتقر في المستقبل الى اعتناء احدٍ فانهُ قادرٌ ان يعتني بذاتهِ

ولما بلغ نابوليون سنّ العشر سنوات أُدخل الى مدرسة حربية في مدينة بريين فاقام فيها اربع سنين وانصبَّ كل الانصباب على المطالعة واقتبال العلوم ولا سيما العلوم الرياضية وهام بمطالعة التاريخ جدًّا . وكان حادَّ الطباع قليل الكلام والحركة قليل اللعب وكثير التفكر وكان شديد الميل لمطالعة فن الهندسة ولا سيما ما كان يتعلق منها بهندسة الحصون والقلع ولما بلغ سنّ الاربع عشرة سنة انتقل من مدرسة بريين الى مدرسة باريس فبرع جدًّا وفاق على جميع التلامذة رفقائهِ. وفي اول ايلول من سنة ١٧٨٥ نال الدبلوما وهي شهادة المدرسة ورتبة وكيل قائمقام في سالك الجندية وبعد مدة قصيرة ارسلوهُ الى فرقةٍ من الجيوش مقيمة في مدينة ڤالانس فرقوهُ الى رتبة قائمقام وبعد ذلك بسنتين اتى باريس ولما ابتدأَت الثورة سنة ١٧٨٩ كان بونابارت في مدينة فالانس ومع ان كثيرين من المأمورين والضباط كانوا يخرجون من الخدمة العسكرية ثبت بونابارت في خدمتهِ وقبل بالثورة وبالتغييرات التي اتت بها ثم رقتهُ جمعية الكونڤاسيون الى رتبة فريق بعد حصار طولون وفتحها من الانكليز وهكذا ما زال نجم سعدهِ يطلع في برج السعود الى ان اضحى في قبضة يدهِ عنان اعظم شعوب العالم وادارة مهام امورهم وذلك عند ما اقامهُ المجلس القضائي ١٨٠٤ امبراطورًا على فرانسا وبعد ذلك بسنة سُمي وتُوّج ملكًا على ايطاليا في مدينة ميلان الايطاليانية

الّا ان الدولة الانكليزية منذ سنة ١٨٠٣ لم تكن تنظر الى ترقي نابوليون واجراءاتهِ بعين القبول فجددت التنافر مع فرانسا وكانت تترقب الفرص لاذلالها ولم ترضَ ان تعقد معهُ صلحًا ولا ان تعرفهُ رئيس الامة الفرنساوية فغضب من ذلك واخذ يجري استعدادات وتجهيزات كلية لقطع خليج المانش وغزو المملكة الانكليزية وبينما هو منهمكًا في ذلك اتحدت دولة النمسا مع دولة روسيا على محاربتهِ فالتزم ان يترك استعداداتهِ البحرية ويحوّل وجههُ نحو تلك الصاعقة

الجديدة فتغلب على النمسا وروسيا ودخل فينا عاصمة النمسا وسحق الاوستروروس في معركة اوسترليتز الشهيرة وبينما كان صدى انتصارات نابوليون مالئًا اواسط اوروبا سنة ١٨٠٥ كانت الاخبار مكدرة لجهة العمارة البحرية الفرنساوية التي ابادها الاميرال نيلسون الانكليزي في ترافلكار حيث قتل فيها ايضًا . فبعد انتصار نابوليون في اوسترليتز عقد مع النمسا الصلح المعروف بصلح بريسبورج الذي بموجبهِ ضمَّ الى مملكة ايطاليا املاك فينسيا المعطاة للنمسا سنة ١٧٩٨ وسنة ١٨٠١ وجعل دوقيني ورتمبرج وبافاريا في سلك الممالك واعطى دوكية بادن الكبرى الى صهرهِ مورات وسلخ مملكة نابولي من فرديننـد الرابع ملك سيسيليا المزدوجة فاعطاهُ سيسيليا فقط وهي جزيرة صقلية . واعطى اخاهُ يوسف مملكة نابولي واقام اخاهُ لويس نابوليون ملكًا على هولاندا . وانشأ الاتحاد المعروف باتحاد الرين فبطلت امبراطورية المانيا وبات الاتحاد المذكور تحت حماية نابوليون وذلك سنة ١٨٠٦

اما انكلترا وبروسيا وروسيا فكانت تنظر الى هذه الامور بعين النفور والخوف من اخلال ميزانية اوروبا . فاتفقت بروسيا وروسيا على مقاومة نابوليون واشهرتا الحرب على فرانسا. فقام نابوليون سنة ١٨٠٦ وحارب بروسيا اولاً وقهرها قهرًا عظيمًا ودخل برلين عاصمتها واخذ منها ضرائب وبعض اقسام من مملكتها ثم حارب اسكندر الاول الروسي وانتصر عليهِ ايضًا ببعض معارك عظيمة وعقد معهُ ومع ملك بروسيا صلح تيلسيت سنة ١٨٠٧ واقام اخاهُ جيروم بونابارت ملكًا على فاستفاليا من اعمال المانيا وجعل سكسونيا في سلك الممالك وفصل املاك بروسيا في پولونيا وجعلها دوكية تُعرَف بدوكية فارسوفي الكبرى واضافها الى مملكة سكسونية . ومن جملة الشروط التي تقررت في معاهدة هذا الصلح بعض شروط سرية منها معاهدة دفاع ومهاجمة واقتسام ممالك اوروبا بين القيصر الروسي والامبراطور الفرنساوي خلا المملكة العثمانية والمملكة البريطانية . وان كل دول اوروبا تقفل مينها على السفن الانكليزية ولا تدخل

بلادها وفي تلك السنة نفسها عقدت مشارطة بين فرانسا واسبانيا مآلها اقتسام دولة البورتوغال بينهما ودخلتها الجيوش الفرنساوية واستولت على عاصمتها ليسبون وهربت العائلة الملكية الى بوجينير وفي برازيل ومن ذلك اليوم امتدّت الحرب هناك بين فرانسا وانكلترا الى سقوط الدولة البونابارتية . وسنة ١٨٠٨ تمّ كتاب التشريع الفرنساوي المعروف بكود نابوليون لانهُ هو الذي شرع فيهِ وتم تحت مناظرتهِ وفي السنة نفسها دخل مورات صهر نابوليون اسبانيا بثمانين الف جندي فوقع من ذلك فيها الشقاق والقلاقل حتى اضطرت العائلة الملكية ان تلتجي الى بايون . ومن ثمّ اقام كارلوس الرابع ملك اسبانيا نابوليون قاضياً بينهُ وبين ولدهِ لفصل الخلاف الواقع بينهما فكانت النتيجة اخيرًا استعفاء كارلوس واولادهِ وتنازلهم عن الملك لنابوليون . فاقام نابوليون اخاهُ يوسف نابوليون ملكًا على اسبانيا . وتولَّى تخت مملكة نابولي عوضًا عن اخيهِ يوسف صهرهُ مورات . الاَّ ان ذلك لم ياتِ بنتيجة حسنة لا للملك الجديد ولا للامبراطورية . لان الاسبانيوليين لم يكونوا يرضخون لما يأتيهم بالذل والعبودية ومن ذلك الحين الى سقوط الامبراطورية لم تفتر الحروب بين اسبانيا وفرانسا لاسيما ان انكلترا لم تكن تفتر عن معاضدة اسبانيا طورًا باخذ السلاح ظاهرًا وتارةً ببذل الذهب الوضاح فهلك في الحروب الاسبانيولية من سنة ١٨٠٨ الى سنة ١٨١٢ ما ينوف عن ٤٠٠٠٠٠ نفس من فرنساويين والمان وايطاليان وبولونيين

ولما كانت فرانسا قد ضعفت بسبب فقدان عدد عظيم من نخبة جيوشها نهضت دولة النمسا ناكثةً بالعهود سنة ١٨٠٩ لمحاربتها فلاقاها نابوليون وكسر جيوشها في جملة معارك هائلة وحاصر فينا ورماها بالقنابر والكرات المحشوة واستولى عليها وبعد ان فاز في معركة واغرام الهائلة فعوض ان يقسم املاك النمسا الى ولايات صغيرة ارتضى باخذ بعض مقاطعات وبعقد عقد الزواج على الاميرة ماري لويزا ابنة امبراطور النمسا فتزوج بها وطلّق امرأتهُ الامبراطورة جوزيفين التي قبلت بشرب تلك الكاس المرّة فحرمهُ البابا لاجل ذلك العمل

المذموم اما نابوليون فلم يبا لِ بجرمهِ وارسل وقبض عليهِ وأُتي بهِ الى فرانسا اسيرًا وبقي بها الى سنة ١٨١٤ . وسنة ١٨١١ ولد لهُ ولدٌ ذكر من زوجتهِ ماري لويزا ودعي من حين ولادتهِ ملك رومية

وسنة ١٨١٢ اشهرت الامبراطورية الحرب على القيصر الروسي لانهُ نكث بعهود صلح تيلسيت فنهض نابوليون بجيش جرار وقطع المانيا ودخل بلاد روسيا فوقعت بينهُ وبين الروسيين معركتان كبيرتان وما زال يطارد العدو الى ابواب موسكو عاصمة روسيا في ذلك الوقت حيث التقى بالجنرال كوتوزوف الروسي فهزم جيشهُ وشتت شملهُ ودخل موسكو . غير ان الروسيين كانوا قد هيأوا طريقةً لاحراق عاصمتهم قبل ان يخلوها فاضرموا فيها النار وكاد يهلك نابوليون وكل جيشهِ . فانهزم الفرنساويون واخذوا من ذلك الوقت يتقهقرون ويهلكون افواجًا افواجًا من البرد الشديد والجوع والمرض . واخيرًا لما اخذ الضعف منهم كل ماخذ شرع القواد الروسيون في مهاجمتهم ومطاردتهم فهلك اكثرهم الاَّ القليل فهرب نابوليون وعاد الى باريس متنكرًا وجنَّد صفوفًا جديدة وخرج سنة ١٨١٣ لمحاربة الدول المتحدة وهي روسيا والنمسا وبروسيا واكثر ولايات المانيا التي كانت قد هاجت عليهِ بسبب خيبتهِ في حربهِ الاخيرة مع الروسيين فانتصر اولاً وفاز ولكنهُ غُلب اخيرًا ودخل المتحدون باريس واشهروا ارجاع الملكية من سلالة آل بوربون في ٣١ اذار سنة ١٨١٤ ودعوا لويس الثامن عشر وهو اخو لويس السادس عشر المقتول . فاستعفى نابوليون في ٤ نيسان سنة ١٨١٤ واعطوهُ جزيرة الالب ليملك عليها فاقام فيها عشرة اشهر ثم عاد ودخل فرانسا في اول اذار سنة ١٨١٥ واتى باريس بدون مقاوم فهرب لويس الثامن عشر ليلاً وعاد الى انكلترا

اما الدُوَل المتحدة فلما رات ذلك نهضت ايضًا لمحاربة فرانسا ومعها انكلترا فخرج نابوليون من باريس واخذ قيادة الجيش وانتصر في ليني على الجيوش البروسية انتصارًا عظيمًا ولكنهُ غُلب في معركة واترلو الشهيرة من الدوك

ولِّينتون قائد الجيش الانكليزي وكانت معركة هائلة جدًّا فانثنى راجعًا الى الوراء ودخل باريس وتنازل عن الملك الى ابنهِ تحت اسم نابوليون الثاني في ٢٢ حزيران سنة ١٨١٥ غير ان الدول المتحدة لم تقبل بان يتبوأَ تخت فرانسا احد من سلالة نابوليون . وكانت مدة حكمهِ بعد رجوعهِ من جزيرة الالب مئة يوم فقط وبعد تنازلهِ عن الملك ذهب الى روشفورت وطلب من حكومة انكلترا ان تقبلهُ ضيفًا في بلادها حيث يقيم تحت شرائع البلاد وقوانينها فركب من روشفورت البارجة الانكليزية المسماة بلّروفون فانت بهِ الى پليموث احدى المواني الانكليزية وقبل ان ينزل منها الى البر ارسلت اليهِ الحكومة الانكليزية معتمدين انكليزيين اعلنا لهُ انهُ اسير الدُوَل المتحدة فاقام الحجة على ذلك ولكن من غير فائدة فابقتهُ الحكومة الانكليزية في البلروفون تحت الترسيم عشرة ايام ثم شيَّعتهُ الى جزيرة القديسة هيلانة في جنوبي الاوقيانوس الاتلانتيكي فبقي هناك اسيرًا الى ان توفي في ٥ ايار سنة ١٨٢١ فحُنّط ودُفن وبقيت جثتهُ هناك الى سنة ١٨٤٠ ثم اتى بهِ الفرنساويون من تلك الجزيرة ودفنوهُ في دار الانفاليد في باريس وهكذا كانت نهاية الامبراطورية الاولى الفرنساوية وصاحبها

وبعد سقوط نابوليون والامبراطورية انحصرت فرانسا ضمن حدودها القديمة ودعت الدُوَل المتحدة الملك لويس الثامن عشر ثانيةً ليتبوأَ تخت فرانسا فجلس على كرسي الملك ثانيةً في شهر تموز سنة ١٨١٥ ودامت مدة ولايتهِ ٩ سنوات ثم توفي سنة ١٨٢٤ بدون عقب فتبوأَ تخت الملك اخوهُ كارلوس العاشر ولهُ عدة اجراءات حسنة وفي ايام ملكهِ فتح الفرنساويون جزائر الغرب في ٦ تموز سنة ١٨٣٠ وبعد هذا الانتصار ببضعة ايام اراد تقرير بعض قوانين مغايرة لروح الشعب وسلب حرية المطابع والجرائد فاغاظ هذا الامر الشعب جدًّا واحدث هيجانًا عظيمًا كانت نتيجتهُ سقوط كارلوس عن تخت الملك وذلك في ٢٧ و٢٨ و٢٩ تموز سنة ١٨٣٠ فاستعفى متنازلاً عن الملك لحفيدهِ الدوك دي بوردو ولكن بدون نتيجة . فذهب الى اكوس في بلاد الانكليز ومن هناك الى

براغ ومنها الى كورتيز مدينة نمساوية وتوفي فيها سنة ١٨٣٦ في السنة ٨٠ من عمره . فتبوأ تخت الملك بعدهُ لويس فيليب من سلالة آل اورليان في ٩ آب سنة ١٨٣٠ وكان على جانب عظيم من الحذق والدراية والشجاعة والاقدام .وقد اطنب المورخون في مديحهِ . واحدث اصلاحات كثيرة في فرانسا ودامت ولايتهُ من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٤٨ اذ حدثت الثورة الفرساوية الثالثة فسقطت الملكية ثانيةً وأُقيمت الجمهورية الثانية فذهب لويس فيليب وعائلتهُ الى انكلترا ومات هناك سنة ١٨٥٠ في السنة ٧٧ من عمرهِ وفي ايام هذا الملك تمَّ فتح الجزائر في افريقية

الباب السادس

في قيام الجمهورية الثانية من سنة ١٨٤٨ الى ١٨٥٢ وقيام الامبراطورية الثالثة من سنة ١٨٥٢ الى ١٨٧١ وسقوطها وقيام الجمهورية الثالثة سنة ١٨٧١ الى ١٨٨٤

كثيرًا ما يرى ارباب السياسة من نافذة الحاضر ما سيحدث في المستقبل. ان نابوليون الاول عند ما قدم لهُ المجلس القضائي تاج الامبراطورية قال لهم بعد ان شكرهم وشكر الامة الفرنساوية انهُ سيركب في المستقبل احد انسبائي سرير هذه السلطنة ايضًا . وها قد جاء الزمان الذي اشار عنهُ ذلك الرجل العجيب حيث سقطت الملكية ثانيةً وأُقيمت الجمهورية الثانية وتبوأ المسند الاول في ادارة مهام امورها لويس نابوليون ابن اخي الامبراطور نابوليون الاول.هذا ولما كان خبر رجوع الملك للسلالة البونابارتية مستحق الاعتبار لم نجد بدًّا من تقرير بعض الاسباب والحوادث الاكثر اهمية بهذا الشان وذلك بالايجاز الكلي فنقول

انهُ بعد عودة نابوليون الاول بالخيبة من معركة واترلو اجتهد بان يقيم ابنهُ الذي من امرأتهِ الثانية والذي كان وليّ عهد فرانسا امبراطورًا على فرانسا تحت اسم نابوليون الثاني فلم تسلّم بذالك الدول المتحدة فأُرسل الى جدهِ امبراطور النمسا حيث ربي في بلاطهِ وتوفي بداء السلّ سنة ١٨٣٢

فلما تُوُفي وليّ عهد نابوليون الاول صار حق التملك على تخت فرانسا للبرنس نابوليون الثالث الذي كان قد ادرج اسمهُ في دفتر ولاية العهد عند ولادتهِ اذ لم يكن لنابوليون الاول عمهِ ولدٌ لان الشريعة التي سنّت بمصادقة الامة في ولاية العهد لم تعطِ حق ارث الملك اذا لم يكن للامبراطور نسلٌ الاّ لاولاد يوسف ولويس واذ لم يكن لنابولبون الاول ولالاخيهِ يوسف اولاد أُدرج اسم شارل لويس ابن لويس نابوليون تطبيقًا للشريعة المار ذكرها في راس دفتر سلالة العائلة النابوليونية وجرى احتفالٌ عظيم عند ولادتهِ كانهُ مزمعٌ ان يكون وريثًا لتخت مملكة فرانسا . فلما توفي ابن عمهِ وليّ العهد الشرعي واصبح هو وليّ عهد الامبراطورية اخذ يعلق امالهُ بالمستقبل ويصرف قصارى همتهِ ومساعيهِ في الوصول الى ما طالما كان يتمناهُ . وبعد رجوع الملكية الى فرانسا خرجت الاوامر بنفي العائلة النابوليونية من كل تخوم فرانسا

واذ كان البرنس نابوليون غير مركن بدوام حكم الملك لويس فيليب وعالمًا كراهية الاعيان جميعًا للملك المشار اليهِ مما كان يراهُ من ميل العامة نحوهُ وشدة ميل جموع الفرنساويين نحو الامبراطورية السابقة عزم اخيرًا سنة ١٨٣٦ على الخروج من ظلمة المنفى الى ساحة الشهرة وجعل يبذل جهدهُ باشاعة اسمهِ واكتساب الشهرة وذلك بواسطة التآليف الكثيرة التي نشرها من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٣٦ وباستخدام غيرها من الوسائط ايضًا ولكن بمقدار ما كان صيت العائلة النابوليونية شهيرًا كانت الوسائط التي استخدمها لنوال مرغوبهِ قاصرة وضعيفة ولم تاتهِ بالمرغوب ومع ذلك لم يفتر من التظاهر والاجتهاد لنوال غايتهِ الى ان قبضت عليهِ اخيرًا الحكومة ونفتهُ الى البلاد المتحدة ثم عاد منها

عندما بلغهُ خبر مرض والدتهِ في سويتسرا فاقام عندها نحو شهرين الى ان ماتت سنة ١٨٣٧ ثم اخذ يجدد الوسائط لنوال مرغوباتهِ وكانت فرانسا في تلك الايام مرتبكة بسبب المعاهدة التي عُقدت بين الدُوَل في اوروبا في ١٥ تموز سنة ١٨٤٠ التي كان من شروطها منع فرانسا عن الدخول في الاتحاد الاوروبي . فكان اخراج فرانسا من ذالك الاتحاد سبب خسائر سياسية كلية . وفتحت الباب للبرنس نابوليون ان يقيم ثورة في فرانسا

فاخذ البرنس يصرف جهدهُ وهمتهُ في ذالك ولكنهُ لم ينجح ايضًا بل قُبض عليهِ وسجن في قلعة هام وبقي مسجونًا مدة ست سنوات متوالية الى ان اتت سنة ١٨٤٦ لما بلغهُ مرض والدهِ الذي كان شيخًا ومشرفًا على الموت وانهُ يرغب في ان يرى ولدهُ قبل وفاتهِ ولو مرة واحدة . ففيامًا بحق الواجبات البنوية ارتضى بان يطلب من الملك لويس فيليب ان ياذن لهُ ليمضي ويدفن والدهُ ثم يرجع الى السجن ليقضي باقي حياتهِ كما قد حكم عليهِ فلم يجبهُ الملك الى ما طلب فعزم على الفرار لكي يرى اباهُ الذي كان منفيًا حينئذٍ في مدينة فيورنسا فدبَّر طريقة للفرار من تلك القلعة مع ما فيها من الخفر والجنود ونجح فيها . فخرج نابوليون من تلك القلعة بعد ان حلق شاربيهِ وتزيى بزي فاعل واتى بلجيكا ومنها الى مدينة لندن ولما علمت حكومة فرانسا هربهُ كتبت الى دوك توسكانا ان لا يسمح لنابوليون بالدخول لبلادهِ وهكذا سدَّ بوجههِ باب الذهاب الى والدهِ المريض وصارت انكلترا منفىً جديدًا لهُ

واما فرانسا فكانت في ذالك الوقت في هيجان واضطراب عظيم وذلك لان الاهالي كانوا قد طلبوا الى الملك لويس فيليب اصلاح قوانين الانتخاب وغير ذالك فرفض طلبهم فزاد ذلك هيجان الامة وسلبت الامنية وكثر التعدي والقتل في شوارع باريس ولم يعد الملك يأْمن على حياتهِ والتزم ان يهرب الى انكلترا . فدامت الاحوال على هذا المنوال وامتد النزاع الى كل اطراف فرانسا ونودي بالجمهورية واستقر الراي اخيرًا على انتخاب البرنس نابوليون

ليكون رئيساً لها فتسلم زمام الامور في ٣٠ ك ا سنة ١٨٤٨ واخذ يصرف الهمة بجمع اصحاب الاهواء المنحرفة واصلاح الخراب الذي احدثتهُ الثورة عند سقوط الملك لويس فيليب. ولم يمضِ الاَّ القليل حتى توطدت الامنية واخذ دولاب الاعمال يدور كجاري عادتهِ . وسدّت ابواب الفتن والفساد وفُتحت المدارس . هذا فضلاً عن الاصلاحات التي احدثها في دوائر الاحكام والمجالس والعسكرية وهكذا ما زال نابوليون يزيد سطوتهُ ويوطد اركان دولتهِ باستمالة قلوب الامة مع ما كان لهُ من الاضداد والاخصام الاشداء وفرانسا تتقدم وتنمو يوماً فيوماً الى ان ارتقى الى مسند الامبراطورية في ١٤ كانون الثاني سنة ١٨٥٢ فحاز قصب السبق على كل ملوك اوروبا ووصلت فرانسا في ايام دولتهِ الى اعلى درجات المجد والشرف واصبحت ميزان العالم السياسي

وفي اوائل السنة الثالثة من تبوُّء نابوليون تخت الملك شبت نيران حرب القرم اي سنة ١٨٥٤ التي دامت مدة ثلاث سنوات وانتهت سنة ١٨٥٦ فكان فيها للجيوش الفرنساوية من الاعمال الحربية العظيمة ما اكسبها عظمةً ومجداً لا مزيد عليها . وبعد ان فتحوا قلعة سيباستابول طلب القيصر الروسي الصلح وعقدت الجمعية الدولية في باريس بعد ان كانت تجري في ڤيانا عاصمة النمسا وقرروا معاهدة سنة ١٨٥٦ المعروفة بمعاهدة باريس . ومن ذلك الوقت اضحت باريس مرسحاً تتردد اليهِ اكثر ملوك الجيل التاسع عشر واعيانهِ

وسنة ١٨٥٩ حدثت حرب ايطاليا فاخذ نابوليون نفسهُ قيادة الجيش لمحاربة اوستريا فحارب الامبراطور فرنسيس يوسف وانتصر عليهِ في معركتي ماجانتا وسولفرينو وكسر جيوشهُ واخذ منهُ ما كان باقياً من املاك الايطاليانية تحت تسلطهِ وضمها الى ممالك ايطاليا فانفردت كل ايطاليا امَّة لذاتها واخذ مقابل ذلك مقاطعتي سافوا ونيس وعقد الصلح مع اوستريا بعد ان قهرها. وسنة ١٨٦٠ ذهبت الجيوش الفرنساوية تحت قيادة الجنرال مونتوبان مع بعض الجيوش الانكليزية وكانوا جميعاً ١٥٠٠٠ مقاتل فدخلوا الصين ثم الكوشين صين

وكسروا جيوش امبراطور الصين الكثيرة العدد والعدد وبددوا شملهم. فبعث امبراطور الصين يدعوهم للصلح فصالحوه تحت شروطٍ لو سمعها قبل ذلك الصينيون لاقشعرت ابدانهم منها . وسنة ١٨٦٢ ارسل نابوليون جيشًا الى المكسيك وفتحها وأُقيم عليها امبراطورًا الارشيدوك فرديناند مكسيميليان شقيق امبراطور اوستريا . ولكن هذه الحرب لم تجدِ نفعًا لا لفرانسا ولا لذلك الامبراطور المنكود الحظ لانها كانت سبب انصرام حياتهِ ولم يجنِ نابوليون منها سوى القدح واللوم في سياستهِ والمصاريف الباهظة على خزينة المملكة . وهكذا ما زال طالع نابوليون وفرانسا سعيدًا الى سنة ١٨٧٠ حين شبت نيران الحرب الاخيرة بينها وبين بروسيا والمانيا . ولا يخفى ان من جملة الاسباب التي سببت فتح الحرب هي احقادٌ كامنة في الصدور من عهد طويل لانهُ كان ان انتصر الفرنساويون في معركة ينا سنة ١٨٠٦ للميلاد صمم البروسيون على اخذ الثار الى ان انتشبت نيران معركة ليبسيك ومعركة واترلو وهما المعركتان اللتان سببتا سقوط نابوليون الاول ودخول المنتصرين لاسيما البروسيين الى باريس فهكذا تمكن البروسيون من ان يخمدوا بعض ما كان عندهم من الرغبة في الانتقام . لان الدول المتحدة مع بروسيا كانت تمنعها عن تنفيذ كل مآربها وهكذا كانت الامتان تنتهزان كل فرصةٍ لانتقام احداهما من الاخرى . وما زالت الاحقاد كامنةً في الصدور الى ان وقع ما وقع والذي هيج هذه الاحقاد ما حصل سنة ١٨٦٧ من النزاع بين هاتين الدولتين بسبب اقامة بروسيا في لوكسمبرج ولولا مداخلة انكلترا لانتشبت الحرب بينهما فان جمعية لندن الدولية اصلحت الامر في تلك السنة وهكذا اخمدت نيران الحرب التي كادت تشبُّ في ذلك الزمان اخمادًا وقتيًا . لان رماد السياسة سترها بدون ان يطفيها

ومنذ حدوث الثورة في اسبانيا سنة ١٨٦٨ وخلع الملكة ايزابلّة عن الملك اخذ الاسبانيوليون يسعون في اقامة ملك ليتبوأَ عرش ملك بلادهم وكان الجنرال بريم الاسبانيولي قد صرف اقصى جهدهِ بهذا الشان الى انهم اخيرًا طلبوا الامير

ليوبولد البروسيّ . فلما بلغ نابوليون ودولتهُ بان الامير ليوبولد ارتضى بان يصير ملكاً على اسبانيا ورأى في عين السياسة ان ذلك مما يخل بموازنة اوروبا اذ يجعل اتحادًا قويًّا بين دولتي اسبانيا وبروسيا . ويعرّض فرانسا ايضًا الى مخاوف عظيمة اذ يجعلها في مركز خَطِر نظرًا لوضعها الجغرافي التزم ان يشهر الحرب ضد بروسيا فتوسطت انكلترا لانهاء ذلك الخلاف بسياسة الاقلام ولكن بدون فائدة . ولا ريب ان بروسيا كانت تعلم جيدًا ان سماحها لامير المانيّ ان يجلس على كرسي مملكة اسبانيا يسبّب شبوب نيران الحروب بينها وبين فرانسا ولكنها تظاهرت بعدم مداخلتها في ذلك بينما كانت ترغبهُ وتعضدهُ سرًّا

وفي ١٦ تموز سنة ١٨٧٠ اشهرت فرانسا رسميًّا الحرب على بروسيا وخرج نابوليون من باريس ومعهُ قيادة الجيش وخرج ملك بروسيا ايضًا من الطرف الآخر قائدًا جيوشهُ الجرّارة وحدثت المعركة الاولى بين الفريقين في ٢ اب امام مدينة ساربروك وكان الفوز فيها للفرنساويين وحضر هذه المعركة نابوليون وابنهُ وهي المعركة الاولى والاخيرة التي انتصر فيها الفرنساويون وكان سبب رجحانهم فيها مدافعهم الراشّة التي كانت تحصد صفوف البروسيين ومن ذلك اليوم لم يقم للفرنساويين قائم في جميع الحروب والمعارك التي حدثت بين الفئتين وما زال الفرنساويون في تأخر والبروسيون في نجاح الى ان حدثت معركة سيدان في ٤ ايلول وانقهر الفرنساويون فيها ايَّ انقهار واحاط بهم الالمان من كل جهة واخذوا يرمونهم بالكرات المحشوّة والمحرقة فاشتعل القسم الاعظم من المدينة وكادوا يهلكون جميعًا لولا طلب التسليم وذلك بعد ان بذلوا ارواحهم وكل ما هو في طاقتهم للتخلص من الاسر المهين فلم يجدِهم نفعًا . فسلم الامبراطور نابوليون سيفهُ لملك بروسيا وكل جيوشهِ ايضًا واصبح اسيرًا مع نحو ثمانين الفًا من الجنود وبقي اسيرًا في قصر ويلهلم شوه في فاستفاليا من اعمال المانيا الى ان انتهت الحرب بين فرانسا وبروسيا

ولما بلغ ذلك الخبر الشعب والحكومة في باريس اضطربوا اضطرابًا عظيمًا

واخذوا في تحصين العاصمة والاستعداد للحصار واعلنوا سقوط الامبراطورية واقاموا حكومة موقتة تُعرف بحكومة المحاماة عن الوطن وذلك في ٤ ايلول سنة ١٨٧٠ اما البروسيون فما برحوا ينتصرون في اكثر المعارك التي كانوا يقيمونها لا بل في جميعها ويحاصرون القلع ويفتحونها وتقدموا وحاصروا باريس وفي اثناء ذلك سلم المريشال بازين في مينس مع نحو ١٥٠٠٠٠ جندي فسيقوا اسرى الى المانيا افواجًا افواجًا. وما زال الالمان يقيمون الحرب على قدمٍ وساق ويشددون الحصار على باريس ويرمونها بالكرات المحشوة الى ان سلمت اخيرًا وعُقدت شروط الصلح بين الدولتين المتحاربتين تحت شروط لم يجرِ لها مثيل في كل القرون الماضية . ومن جملتها سلخ ولاية الالزاس وخمس ولايات اللورين من فرانسا ودفع غرامة الحرب خمس مليارات من الفرنكات . وهذا المقدار يبلغ نحو نصف عشر مال العالم وابقاء خمسين الف جندي الماني في ولايات فرانسا الى ان تدفع التضمينات المذكورة فهذا ما جنتهُ فرانسا من هذه الحرب الاخيرة اي هلاك عدد عظيم من الانفس والذل والهوان وفقد جانب عظيم من الفخر اراضيها وهكذا سقطت الامبراطورية الثالثة وعادت الجمهورية ثالثةً ورئيسها ادولف تييرس

وبينما كانت هذه الامور جارية مع الاعداء في الخارج كانت القلاقل والاضطرابات آخذة كل مأخذ من داخل بين الفرنساويين انفسهم فان كثيرين من روساء الاحزاب ومحبي الثورات كانوا قد هيجوا واستمالوا كثيرين من الاوباش وسفلة القوم طمعًا بالارتقاء الى المراتب السامية فاقاموا جمعية بباريس تعرف بالكومون واتخذوا من حزبهم بعض القواد والجنود واقاموا الثورة في باريس واخذوا يهيجون الشعب للقيام ضد الحكومة الجديدة فوضعوا ايديهم على مخازن الحكومة ومهماتها وتحصنوا في باريس حاسبين ان حكومتهم هي الحكومة الرسمية وطاعنين في حكومة تييرس واعوانهِ واذ لم تقدر الحكومة على توقيف الثورة والثائرين بقلم السياسة اضطرت ان تلتجي الى اخذ السلاح واشهار الحرب

عليهم فحاصرت باريس زمانًا ليس بقليل ووقع بين الفئتين عدة وقائع الى ان فازت اخيرًا حكومة تيرس بالفوز والغلبة والقت القبض على من كان لهُ دخلٌ في تلك الثورة وقتلت البعض ونفت البعض الاخر وهكذا اخذت الراحة تعود الى فرانسا . على ان اولئك الثائرين لما رأوا عدم نجاحهم في ما طالما صبوا اليهِ اخذوا يوقعون السلب والنهب في باريس واحرقوا اعظم قصورها وابهجها واتلفوا كثيرًا من الآثار النفيسة التي لا تعوَّض واحترق جانب عظيم من مكتبة اللوفر المعتبرة فكان ما اتلفهُ الفرنساويون انفسهم يقارب ما اتلفهُ الالمان في زمن الحرب بطولهِ

هذا وقد ظن اكثر الناس في اثناء الحرب بين فرانسا والمانيا وبعد نهايتها ان فرانسا لا تخرج من وهدة القهقرى التي قفلت اليها الاّ بعد زمان طويل جدًّا وظن البعض انها ربما لا تخرج منها الى ما شاء الله على اننا نرى انهُ لم يمضِ الاَّ بعض السنين حتى رأينا هذه الامة العظيمة الشان قد نهضت نهوضًا عظيمًا من سقطتها وقد وفت غرامة الحرب الهائلة المقدار واخذت تتقدم سريعًا جدًّا وقد توطدت الامنية في داخليتها واخذ دولاب الاعمال يدور كجاري عادتهِ على محور جيدٍ وفي ٢٤ شهر ايار سنة ١٨٧٣ استعفى تيرس من رياسة الجمهورية وانتُخب مكانهُ الماريشال مكماهون الذي شهرتهُ تغني عن ذكر صفاتهِ وفي خلال سنة ١٨٧٨ تنازل المذكور عن الرياسة وانتخب مكانهُ جول كريفي في بداية سنة ١٨٧٩ وهو الرئيس الحالي. ومن اعمال الجمهورية الحاضرة اشهار سيادتها على تونس الغرب وذلك سنة ١٨٨٠ ثم استيلاؤُها على تونكين ومحاربتها الصين سنة ١٨٨٤

الفصل الرابع

في تاريخ مملكة الانكليز

الباب الاول

في جغرافية انكلترا ووصفها الحالي

ان المملكة الانكليزية كائنة على جزيرتين منفصلتين فالاولى تدعى جزيرة بريتانيا الكبرى وتشتمل على انكلترا وويلس واسكوتسيا المعروفة باسكوتلاندا. والثانية جزيرة ايرلاندا ولذلك يسمّي الانكليز مملكتهم مملكة بريتانيا الكبرى وايرلاندا. فجزيرة بريتانيا واقعة على شطوط اوروبا الغربية يفصلها عن فرانسا الخليج الانكليزي الذي عرض مضيقهِ ٢٥ ميلاً. اما ايرلاندا فموقعها غربيّ جزيرة بريتانيا على مسافة نحو ٦٠ ميلاً ولكنَّ جانبًا منها اقرب جدًّا الى اسكوتسيا

ومع ان هاتين الجزيرتين لا تُعدَّان من البلاد المتسعة وبقعتهما تعتبر من الرتبة السابعة من ولايات اوروبا بالنظر الى المساحة فاهاليها ليسوا باقل من ٣٢ مليونًا ويتبعها ايضًا تملكات خارجية كثيرة في القارات الاربع بحيث ان مملكة بريتانيا تحكم على اكثر من ٢٠٠ مليون تقريبًا من الشعوب كما يظهر من الجدول الآتي. هذا عدا ما هي عليهِ من القوة البحرية واتساع المتجر والمعامل والصنائع والعلوم فلذلك تُعتبر الأُولى على وجه الارض في الغنى والقوة والهيئة الاجتماعية

عدد سكان بريتانيا الكبرى وما يتبعها

عدد	عدد	
		في بريتانيا
	٢٣٧٠٤١٠٨	في انكلترا ووالس
	٠٣٣٥٨٦١٣	في اسكوتلاندا
	٠٤٤٠٢٧٥٩	في ايرلاندا
	٠٠٠٥٣٨٦٧	في جزيرة مان
	٠٠٠٩٠٥٦٣	في جزائر نورموندیا
٣١٨١٧١٠٨	٠٠٢٠٧١٩٨	عساكر وبحرية خارج البلاد
١٥٩٦٦٦٤٢٨		في الهند الشرقية
		في املاكها الخارجية ما عدا الهند
	عدد	
	١٦٠٣٦٩	في اوروبا
	٥١٣٣٧٢٣	في اميركا
	١٨٦٠٠٠٠	في افريقية
	١٩٥٨٦٥٠	في اوستراليا
	٢٤٠٥٢٨٧	في سيلان
١١٩٤٣٥٧٣	٤٣٦٠٤٧	في هونك كونك وغير اماكن
٢٠٣٤٢٧١٠٨		

اما اوصاف اهاليها فلا يمكننا اطالة الشرح بالتكلم عنها ولكن يجب القول بانهم شريفو النفس اصحاب حزم وعزم في الامور محبو الوطن وعمل الخير مستقيمو

السيرة والتصرُّف منعكفون على التقدم في الصنائع والعلوم وعندهم الحرية الكاملة في اعمالهم وطبائعهم ومذاهبهم شديدو الرزانة . والديانة العامة بينهم هي البروتستانتية

وفي هذه البلاد انهر كثيرة منها نهر التاميس الذي تصعد فيهِ مراكب كثيرة الى لندن ونهر مرسي الذي يصب في بحر ايرلاندا وغيرها والهواء معتدل في هذه الولايات واراضيها مخصبة واهلها يعتنون في امر الزراعة اكثر من غيرهم . وفي هذه البلاد معادن كثيرة من الفحم الحجريّ والحديد والنحاس والرصاص والقصدير . وفيها من المعامل العظيمة ما لا يوجد في ممالك اوروبا

وقصبة بريتانيا الكبرى مدينة لندن وهي اعظم مدن العالم وعدد سكانها مع ضواحيها ينوف عن ثلاثة ملايين نسمة واسواقها نحو عشرة آلاف سوق يخرقها نهر التاميس في الوسط فتعبر الناس من جانب الى اخر على جسور متقنة جدًّا منها حديد ومنها حجر وليس لهذه المدينة سورٌ محيط بها كباريس وبرلين وباقي مدن اوروبا الكبيرة بل يحيطها خلاء ظريف مبقَّعٌ بضيع صغيرة وقصور وابنية مستظرفة لسكن فصل الصيف وفي هذه المدينة كثيرٌ من الابنية العظيمة مثل كنيسة وستمنستر وكنيسة ماري بولس وسراي بوكينهام التي هي محل اقامة الملكة . وفي هذه المدينة سكك حديدية كثيرة جانبٌ منها تحت الارض بين الاسواق يسير فيها الناس من جهةٍ الى اخرى باسرع وقت

ومن مدن انكلترا مانشيستر حيث تعمل الاقمشة القطنيَّة للعالم . وليڤربول وهي ميناء تجاريٌّ لمراكب العالم . وبرمينكهام وشفيلد محل عمل الآلات والاسلحة الحديدية وغيرها . وفي الجهة الغربية من انكلترا مقاطعة ويلس يتكلم اهلها بلغة مخصوصة لا تفهمها الانكليز . وفيها جبالٌ كثيرة يستخرَج منها الفحم الحجري وغيرهُ من المعادن ومع ان اهاليها كانوا قديمًا في غاية التوحش فالان يعيشون حسنًا وهم اصحاب غيرة واجتهاد

اما اسكوتلاندا فهي الى جهة الشمال من انكلترا وهي مفسومةٌ الى قسمين .

اعلى واسفل فالقسم الاعلى يشتمل على جبال عالية باردة وبعض سكانها يتكلمون الغاليكي الذي يعسر فهمهُ . اما القسم الاسفل فهو لجهة الجنوب يعادل انكلترا في الجودة واهلهُ يعتنون جدًّا في العلوم ويرغبون في اشاعة المعرفة وتكثر في هذه البلاد معادن الفحم والحديد وفيها معامل عظيمة ومدارس كلية واشهر مدنها ادنبرج وفيها مدرسة طبية لا نظير لها في كل بلاد الانكليز . وكلاسكو وهي شهيرة في معاملها واقمشتها

اما جزيرة ايرلاندا فيفصلها عن جزيرة بريتانيا الكبرى خليج مار جرجس وبحر ايرلاندا وهي جيدة التربة وهواؤُها رطبٌ معتدل واهاليها فقراء بسبب عدم التفات الحكومة . فكثيرٌ منهم يهاجرون بلادهم ويستوطنون في اميركا . ولكن المأمول انهُ بواسطة التغييرات الجديدة التي احدثتها الحكومة ستتحسَّن احوال هولاء الشعوب الذين اكثرهم باباويون . ومن اشهر مدن هذه الجزيرة دوبلين وبلفاست . وكانت هذه الجزيرة مستقلة قديمًا لم يتغلب عليها الانكليز الَّا سنة ١١٧٢ مسيحية ولم تصر جزءًا من المملكة الَّا سنة ١٨٠١ حين قُبلت في المعاهدة مع القسمين الاخرين

الباب الثاني

في اصل البريتانيين القدماء واوصافهم وديانتهم وتملك الرومانيين على بلادهم الى سنة ٤٢٠ للميلاد

ان اصل البريتانيين لا يُعرَف بالتحقيق وتاريخهم القديم كباقي التواريخ القديمة لا يُوثَق بهِ والراجح عند العامة ان بريتانيا تشعبت شيئًا بعد شيءٍ من محلات مختلفة من قارة اوروبا غير انهُ لا يُعلم في اي وقت دخلها الناس اولاً . والخبر الوحيد الذي يوثق بهِ من هذا القبيل هو ان جماعةً من الكلتيين وهم

فرعٌ من الغاليين اي الفرنساويين الذين مقر بلادهم بين نهر السين ونهر غارون اتوا من شطوط فرانسا ونزلوا على شواطي بريتانيا بدون مقاومة احد وكان قصدهم في انتقالهم توسيع دائرة متجرهم وفقًا لارادة ملكهم تيوتات الذي كان محبًا للتجارة ونقدمها حبًا مفرطًا . ثم بعد هولاء اتى ايضًا قومٌ من البلج من شمالي فرانسا وهم ايضًا فرعٌ من الغاليين وسكنوا البلاد . فربما ينتسب الى هاتين الفئتين البريتانيون الاولون



كلتيون سكان بريتانيا الاقدمون

ولم يكن للبريتانيين القدماء شيء من المعرفة والتمدن . فكانت ملابس العامة من جلود الوحوش الضارية وكانت زينتهم صبغ اجسادهم بعصير بعض النبات يطلون بهِ ابدانهم واحيانًا ينقشون عليها صور بعض الحيوانات . اما المتقدمون فيهم فكانوا يتزرون بمآزر من قماش حول وسطهم ويطوّقون اعناقهم بسلاسل من ذهب ونساؤهم يلبسن اساور ذهبية . وكانت مساكنهم اكواخًا حقيرة يقيمونها تارةً من اوراق الاشجار وطورًا من طين وكان شغلهم الوحيد صيد الحيوانات واشبهوا عرب البادية جائلين من مكان الى آخر بحسب فصول السنة

فكانوا في زمن الصيف يحلُّون غالبًا في الاودية المخصبة حيث يجدون مرعىً وماء لمواشيهم وفي الشتاء ينتقلون الى التلال والجبال لاجل النشاف للصحة . وكانت مآكلهم لحوم الحيوانات والالبان ولكن بعد دخول البلجيين من غاليا علموا الاهالي ما كانوا يعرفونهُ من امر الزراعة ومن ذلك الوقت ابتدأُوا ان يصطنعوا الخبز . اما احكامهم فكانت عائلية اعني ان كل رب عائلة كان مسئولاً لجيرانهِ عن عائلتهِ

وكان الشعب ينقسم الى ثلاث رتب اشراف واكليروس وعامة وكان اهل هذه الرتبة الاخيرة من ادنياء الشعب يعاملون كالعبيد اما الاشراف فكانوا كالامراء كلٌّ منهم يحكم على مقاطعة مستقلة واما الكهنة فكانوا ينقسمون الى ثلاث رتب اخصها المعروفة بالدرويد . فكانوا معتبرين عند الشعب وكان لهم حق المناظرة ايضًا على كل اعمال الرعية وكان لرئيس هذه الرتبة السلطة والتصرف المطلق في كل الاشغال . فدام تسلط الدرويد على الشعب الى زمن نيرون امبراطور الرومانيين حين استولى على البلاد وامر بقتلهم . واما الرتبتان الأُخريان فاختصت احداهما بنظم الاشعار وانشادها على القياثير والاخرى بالدرس العقلي للفلسفة والاعمال الطبيعية وفي كل علمٍ او كارٍ من شانهِ ان يذهل الشعب ويجعل لهم حرمة عظيمة في عينيهِ . وبناءً عليهِ اعتبر الشعب اهل هذه الرتبة اتصاف الهةٍ ممتازين بمواهب سماوية خصوصية . اما ديانة البريتانيين فكانت صنمية من النوع الاردإ وكثيرًا ما قدموا ذبائح انسانية لالهتهم الكاذبة وكانوا يسجدون للصخور والحجارة وينابيع المياه واما ما كان في مزيد الاعتبار عندهم وكانوا يعبدونهُ بوقارٍ غريب فهو شجر السنديان ونبات آخر ينمو على قاعدتهِ وهذه المعارف عن حالة البريتانيين القدماء وعوائدهم وعبادتهم اتصلت للمتاخرين بواسطة الاشعار التي نظموها وانتقلت من جيل الى آخر

وسنة ٥٥ ق م اتى بريتانيا يوليوس قيصر قائد جيش الرومانيين بقصد

افتتاحها فقاومهُ الاهالي وساعدهم على ذلك هيجان عظيم حدث في البحر شتت كل الفرسان فاستصوب قيصر ان يؤخر المهاجمة الى وقت آخر. ففي الربيع المقبل حضر ثانيةً ومعهُ كاسيوس قائد فرقةٍ من العساكر المشهورة في الحروب ودخل البلاد ولكنهُ لم يتغلب عليها تغلبًا كاملاً . وسنة ٤٣ ب م ارسل كلوديوس امبراطور الرومانيين الرابع بعض القواد ليتملكوا الجزيرة فقاومهم كاراكتاكوس رئيس قبيلةٍ بريطانية فانكسر وقُبض عليهِ وأُرسل اسيرًا الى رومية غير ان كلوديوس اطلقهُ بعد ذلك . وسنة ٥٧ للمسيح اتى سويتونيوس بولينوس من قبل الامبراطور نيرون ليستلم زمام الاحكام فوجد بين كهنة الدورويد المارّ ذكرهم روح العصاوة ومحبة الاستقلالية فعزم على ابادتهم واذ هربوا من امامهِ لحقهم وفتك بهم فلم يسلم منهم الاَّ طويل العمر

وكان بين البريتانيين قبيلةٌ تُدعى قبيلة ايسني مترأسة عليها الملكة بواديكيا فنهضت هذه الملكة وحركت همة الاهالي على اخذ الثار من الرومانيين لاجل قتلهم الدرويديين فاجابوها الى ذلك . وبينما كان سويتونيوس السالف ذكرهُ منشغلاً في ملاحقة هولاء الكهنة نهض البريتانيون على الرومانيين القاطنين بينهم وقتلوا منهم ٧٠ الفًا واحرقوا مدنهم . ولكن عند رجوع سويتونيوس من سفرهِ ونظرهِ الى ما حل بقومهِ انتقم من البريتانيين وقتل منهم ٨٠ الفًا على ما قيل وضايق الملكة بواديكيا فاختارت الموت على الوقوع في ايدي الاعداء وشربت سمًّا وماتت . ولم يكتفِ سويتونيوس بهذا الانتقام بل استمر على مضايقة البريتانيين بقساوةٍ شديدة حتى امرت الدولة الرومانية بعزلهِ وارسلت مامورين غيرهُ كانت سياستهم مجانسة الاهالي وتوطيد السلام . ومن جملة هولاء القواد يوليوس اغريكولا الذي بواسطة سياستهِ العادلة الحكيمة اكمل اخضاع ولاية بريتانيا وثبت سيادة رومية . وكان ذلك من سنة ٨١ الى سنة ٩١ للميلاد في ايام دومينيان امبراطور رومية الحادي عشر

وفي اثناء تملك الرومانيين كانت بريتانيا مقسومة الى خمس ايالات يحكمها

مأمورون من طرف الحكم الاكبر. وكانت البلاد مضطربة على الدوام بسبب غزوات شعوب اسكوتسيا المتوحشة الذين كانت مساكنهم في جبال كاليدونيا. فالتزم اغريكولا ان يقيم سورًا كبيرًا بين نهر فورث ونهر كلايد لاجل منع غزوات السكوتسيين. وبعد ذلك أُقيم سورٌ اخر اعظم من الاول يمتد على مسافة ٨٠ ميلاً اطلق عليهِ اسم سور ادريان نسبةً الى ادريان امبراطور رومية الرابع عشر سنة ١٢١ مسيحية. ثم بعد ذلك بجملة سنين صارت تقوية هذا السور بمعرفة الامبراطور سَيْروس وهو سلطان رومية التاسع عشر الذي توفي في مدينة يورك من اعمال بريتانيا سنة ٢١١. وسنة ٢٨٧ عصى المملكة الرومانية احد قوادها البحريين المدعو كاروسيوس فالتصق بالبريتانيين الذين كانوا يصبون الى خلع طاعة رومية فقبلوهُ وسمّوهُ عليهم ملكًا وبعد ذلك بسنين قليلة قام عليهِ احد اتباعهِ وقتلهُ طمعًا بالولاية فعينت الدولة الرومانية قسطنطيوس القائد لاخضاع بريتانيا فسار اليها واخضعها عنوًا لان الحروب الداخلية والانقسامات سهلت عليهِ الامر فرجعت بريتانيا الى حالتها الاولى ولاية رومانية بعد انفصال عشر سنوات ودامت على ذلك الى الجيل الخامس

وفي مدة الاربعة الاجيال ونيف التي حكم بها الرومانيون البلاد البريتانية تقدم الاهالي تقدمًا نشيطًا في بناء المدائن واتقان الصنائع والزراعة وغير ذلك حتى حصلت البلاد على نوعٍ من الثروة والتمدن. ولاسيما بواسطة دخول الديانة المسيحية التي لم تلبث الا زمنًا قصيرًا فقط لشدة الاضطهاد الذي اثير عليها في زمن تسلط الانكلوساكسونيين ولكنها ظهرت ثانيةً سنة ٥٩٦ كما سياتي

وفي الجيل الخامس قام على المملكة الرومانية بعض قبائل من برابرة الشمال وكانت احوال ايطاليا يومئذٍ في اضطراب فالتزم الرومانيون في ايام الامبراطور فالنتينيان ان يسحبوا قوتهم العسكرية من بريتانيا لاجل المحاماة عن وطنهم فانسحبوا جميعًا تاركين البلاد بيد اهاليها. وكان حدوث ذلك سنة ٤٢٠

الباب الثالث

في ذكر تملك الدولة السكسونية وحكم الدولة الدنيماركية وذلك من سنة ٤٣٠ الى ١٠٦٦

فلما تُرك البريتانيون الى حالهم وجدوا انفسهم غير قادرين على مقاومة غزوات جيرانهم البكتيين والاسكوتسيين لانهم في مدة خضوعهم للرومانيين فقدوا ذاك الروح الحربي الذي كان لهم فاضحوا عرضةً لمغازي اعدائهم الذين كانوا يمتدون رويدًا رويدًا الى داخل البلاد حتى التزم اخيرًا احد روساء البريتانيين سنة ٤٤٩ ان يلتمس معونة السكسونيين (قبيلة جرمانية عند شواطي نهر الالب) ليساعدوهم على مقاوميهم. واذ كان بين القبيلتين مودة وصلة قديمتان اتى البريتانيين فرقة من هولاء القوم تحت قيادة هنجيست وهورسا وساعدوهم على طرد البكتيين والاسكوتسيين من البلاد وارجعوهم الى الجبال التي اتوا منها. ولكن عوضًا عن ان يرجع السكسونيون بعد ذلك الى بلادهم طمعوا في استملاك البلاد واستحسنوا ان يقيموا مكان المطرودين فاتاهم الامداد يوميًّا وانضم اليهم فرق سكسونية وانكلية حتى صاروا عددًا غفيرًا . فلما شعر البريتانيون بمقاصد مساعديهم نهضوا لطردهم ولكن لعدم اتحاد بعضهم مع البعض لم ينجحوا في مساعيهم. فدامت الخصومات والمحاربات بينهم ١٥٠ سنة حتى كاد ينقرض البريتانيون جميعهم والذي سلم منهم نزح والتجأ الى جبال ويلس وكورنوال وبعضهم جازوا المانش وذهبوا الى ارموريكا من اعمال فرانسا وسكنوا هناك وسمي ذلك المكان باسم بريتانيا نسبةً للبريتانيين

اما الانكليون والسكسونيون فقسموا البلاد الى سبع مقاطعات تُعرف

بالسبع ولايات السكسونية وهي كنت وسوسيكس وواسكس وايسيكس ونورثمبريا وانكليا الشرقية ومرسيا. واقاموا ملكاً على كلٍّ من هذه المقاطعات وكان احد هؤلاء السبعة رئيساً على الستة لهُ حق المناظرة العمومية والسيادة على البقية . فمن جرى ذلك وقعت بينهم منازعات عديدة آلت اخيرًا لانفكاك ذلك النظام

وسنة ٥٩٦ دخلت الديانة المسيحية دخولاً حقيقيًا بواسطة اوغسطينوس وغيرهِ من الرهبان المرسلين من طرف البابا غريغوريوس وذلك في زمن اثلبرتْ ملك مقاطعة كَنت حينما كان ملكًا عامًّا على باقي المقاطعات المارّ ذكرها. وكانت برثا زوجة الملك اثلبرت المذكور وابنة كاريبرت ملك باريس قد اقتبلت الايمان المسيحي قبل ذلك بقليل فسعت في ارتداد زوجها فارتدَّ واعتمد هو وكثير من رعاياهُ بعدهُ ومن ذلك الحين اخذت الديانة الاصنامية تتلاشى والديانة المسيحية تمتد شيئًا فشيئًا حتى انها في مدة اجيال يسيرة عمَّت البلاد جميعها

وكان كلما قام ملكٌ عامٌ على السبع المقاطعات يجتهد في توسيع دائرة ملكهِ واخضاع الممالك الصغيرة اليهِ فاخذ هذا الامر يزداد شيئًا فشيئًا حتى انهُ في سنة ٨٢٧ في زمن الملك اغبرت ملك ولاية واسيكس لم يبقَ ملكٌ مستقلٌ على الولايات الست الأُخر فضرب عليها الخراج وصارت جميعها تابعة اغبرت المذكور وهو اول من استقل بالبلاد واول ملك من ملوك انكلترا من الدولة الانكلوساكسونية . ولكن مع ذلك لم ترتح البلاد في ايامهِ لان من تاريخ ملكهِ ابتدأت هجمات الدنيماركيين التي انتهت اخيرًا باستيلائهم على البلاد فكانوا يضرون في البلاد ضررًا جسيمًا وخاصةً بالاديرة واماكن التربية اذ وجَّهوا كل قواهم نحو خرابها . وسنة ٨٦٥ لما كان الملك اثلبرت وهو الثالث بعد اغبرت ملكًا على انكلترا اتى الدنيماركيون تحت قيادة رئيس عمارتهم الشهير المدعو رغنرلودبروك ونزلوا على شاطي نورثمبرلاند فقاومهم رئيس تلك الجهة واسر قائدهم وطرحهُ في مغارةٍ مملوءة من الحيات فاماتتهُ ورجع الدنيماركيون

بدون فائدة ولكن بعد ذلك بقليل نهض اولاد رغنر المذكور واقاربهُ واخذوا بثارهِ وانتقموا لهُ من البريتانيين اشدَّ الانتقام بعد ان افتتحوا اطراف البلاد واستولوا عليها

وبعد وفاة اغبرت تبوأ تخت الملك ابنهُ ثم اولاد ابنهِ الثلاثة وفي مدة حكمهم كانت الحروب مع الدنيماركيين متصلةً وغزوات هولاء مستديمة حتى انهُ في ايام الملك الفريد كانوا قد استولوا على ولايات نورثمبريا ومرسيا وانكليا الشرقية فكان مركز الفريد من اصعب المراكز لانهُ من الجهة الواحدة اراد استخلاص البلاد من المغتصبين ومن الجهة الأُخرى خاف من اقتدارهم واستيلائهم على باقي الجزيرة . فبينما كان متحيرًا من هذا الامر وساعيًا في تدبير منعهِ نهض احد قواد الدنيماركيين المدعو كثروم وهاجم البريتانيين في فصل الشتاء بجموع كثيرة فدهمهم وهم غير مستعدين وانتصر عليهم فهرب الفريد ملكهم واختبأ في بيت احد الفلاحين وبقي هناك مدةً متنكرًا. قيل انهُ في اثناء اقامتهِ في ذلك البيت كان يخدم اهلهُ وانهُ بينما كان يومًا ما واقفًا يخبز كعكًا تاه في ابحر افكار التدابير فاحترق الكعك ولم ينتبه فوبختهُ صاحبة البيت توبيخًا قاسيًا على اهمالهِ. ولكن لم يطل الحال الاَّ ونهض احد اشراف الانكليز وقاوم الدنيماركيين وفتك بهم وهم تحت رياسة ابن رغنر لودبروك المارّ ذكرهُ. حينئذٍ نهض الفريد من مخبإهِ وانضم اليهِ جمهور البريتانيين وحشر الدنيماركيين في مراكزهم وظفر بهم ايَّ ظفر حتى اضطرَّ كثروم رئيسهم ان يسلم . فاسترجع الفريد بلادهُ من ايدي المغتصبين

واذ رأى الفريد ان استئصال الدنيماركيين من البلاد امرٌ مستحيل نظرًا لطول اقامتهم فيها وعددهم الغفير عقد مع كثروم معاهدة خُصِّص لهُ فيها ولمن يخلفهُ ولاية انكليا الشرقية وولاية نورثمبريا بشرط قبول جميع الدنيماركيين الديانة المسيحية وان يكونوا ملزومين للقيام والاتحاد مع البريتانيين في محاربة الاعداء لدى الحاجة . فعقب عقد هذا الارتباط التفت الفريد الى اصلاح ما

كان التحقق بالبلاد من جراء حروبها واقام القلع والتحصينات وشرع في تقوية العمارة من دون ان يغضّ النظر عن اسباب ترقية حال الشعب بواسطة الصنائع والعلوم وايجاد المدارس وتوسيع دائرة التنوير. ومع كل انشغالهِ في تدبير امور المملكة كتب جملة مؤلَّفات وترجم عدة كتب الى اللغة الانكليزية. منها تاريخ الكنيسة للعلاَّمة بيد وكتاب في الفلسفة. وفي وصية هذا الملك وُجدت عبارة طالما الانكليز يلهجون فيها وهي هذه يجب ان يكون الانكليز احرارًا كافكارهم. ثم توفي هذا الفاضل سنة ٩٠ تاركًا لبلادهِ مثالاً شريفًا في كل امر ولُقب بألفريد الكبير

ثم جلس بعدهُ ابنهُ ادوَرد وحكم الى سنة ٩٢٤. وقام بعدهُ ابنهُ اثليستان فكان شجاعًا حارب الدنياركيين وكسرهم مرارًا واستبدَّ بالمملكة وحدهُ. فذاعت سطوة انكلترا في الخارج وصارت الدول الاجنبية تطلب الاتحاد معها. وفي ايامهِ عُقدت اول معاهدة مع فرانسا وتزوجت اختٌ لهُ بكارلوس الثالث ملك فرانسا واخرى بملك جرمانيا اوثو الكبير واخرى بآخر من الذوات الفرنساويين العظام ثم توفي سنة ٩٤٠

ومن ملوك الدولة السكسونية ادغَر تبوأ سرير الملك سنة ٩٥٩ وكانت بريتانيا في ايامهِ حاصلة على تمام الراحة والسلام مهيبةً من الجميع في الداخل والخارج. فكان حكيمًا ونشيطًا في سياستهِ يزور كل اقطار بلادهِ مرةً في السنة ويتفقد احوالها وكانت عمارتهُ البحرية نحو ٤٠٠ قطعة. ومما يذكر عنهُ انهُ فرض على رعيتهِ ثلاث مئة راس ذئب في السنة لانها كانت كثيرة الوجود في تلك البراري. وبهذه الواسطة قرض الذئاب التي كانت مالئة القطر

وفي ايام الملك اثلريد اذ كان بغض الدنياركيين اخذ من قلوب الانكليز كل مأخذ نظرًا لمقاصدهم في استملاك بلادهم اصدر الملك المذكور امرًا عامًّا سنة ١٠٠٢ بقتل كل الدنياركيين القاطنين في انكلترا فقتل الانكليز منهم عددًا كبيرًا وكانت اخت ملك الدنيارك من جملة المقتولين في تلك المذبحة. فهاج

الدنيماركيون واتوا مع ملكهم سوين الى بريتانيا واقاموا الحروب على قدم وساق وافتتحوا البلاد . فالتزم اثلريد ان يهرب مع زوجته وابنيه والتجأ الى نورمنديا وهي ولاية فرنساوية كان اثلريد متزوجًا بابنة دوكها ريكاردوس الثاني واقام هناك الى ان توفي . ولكن لم يستقرّ سوين في بريتانيا حتى توفي هو ايضًا تاركًا فتوحاته وحقوقهُ لابنهِ كانوت الذي يُحسب اول ملوك العائلة الدنيماركية في انكلترا . وكان كانوت عادلاً حكيمًا محسنًا لطيفًا فسعى في توسيع نطاق المملكة واحدث جملة تحسينات في نظام الاحكام والسياسة وقرض جانبًا من سطوة الاشراف المضرة فاحبهُ جميع رعاياهُ لحسن تصرفهِ وخلوص نيتهِ وفي ايامهِ كانت البلاد في هدو وسلام والشعب منعكفًا على تحصيل المكاسب والفوائد الناتجين من الهدو والسكينة . فانتهز كانوت تلك الفرصة وذهب لزيارة الحبر الروماني في رومية وبينما كان في ايطاليا التقى بكونراد امبراطور جرمانيا وزوّج ابنتهُ بابنهِ هنري الثالث . وغب رجوعهِ الى بلاد الدنيمارك من زيارتهِ في رومية بعث كتابًا الى جميع قبائل انكلترا يتضمن العبارات الآتية وهي ليعلم جميعكم باني قد كرّست حياتي لله ونذرت باني احكم كل ممالكي بالعدل وان افعل المستقيم في كل امرٍ . فان كنت في ما مضى وانا في مدة عنفوان الشبوبيَّة وعدم المبالاة خرقت مبادئ العدل والحقانيَّة فانني عازمٌ الآن بمعونة الله ان اعوّض ذلك تعويضًا كاملاً . فبناءً عليهِ ارجو وآمر كل من سلّمتهُ زمام الاحكام ممّن يريد طاعتي ويودّ خلاص نفسهِ ان لا يظلم احدًا فقيرًا كان ام غنيًا . ودعوا الاشراف وغير الاشراف ينالون حقوقهم بالسويَّة وفقًا للشرائع التي لا ينبغي ايقاع الخلل فيها لا خوفًا مني ولا حبًّا برضى خاطر الاقوياء ولا لاجل ملء صناديق خزينتي فاني لا اريد مالاً مجموعًا بالظلم

وكان بعد توفي اثلريد في نورمنديا ان زوجتهُ رجعت الى بريتانيا وتزوجت بكانوت المذكور واما ولداها فبقيا في نورمنديا ولم يتجاسرا على الذهاب الى هناك . ففي سنة ١٠٣٦ لما توفي كانوت وقام عوضًا عنهُ ابنهُ هارولد حضر من نورمنديا

ابن اثلريد الاكبر وكان اسمهُ الفريد وطلب استرجاع تاج ابيهِ . فنهض اعوان هارولد وقتلوهُ واستبد هارولد بالملك مدة ثلاث سنين ولم يحدث في ايامهِ شيء يستحق الذكر. وقام بعده اخوهُ هرديكانوت سنة ١٠٣٩ ولم تطل ايامهُ فتوفي بعد سنةٍ من حكمهِ وبهِ انقرضت الدولة الدنيماركية ورجعت العائلة السكسونية

فاول من تبوأ تخت الملك من العائلة المذكورة بعد هرديكانوت المذكور ادورد احد اولاد اثلريد السالف ذكرهُ وذلك سنة ١٠٤١ . وكان المذكور يميل الى اهل نورمنديا لانهُ صرف بينهم ٢٧ سنة من حياتهِ فاحضر منهم الى بريتانيا عددًا كبيرًا ووظفهم الوظائف العليا فتأثر البريتانيون من ذلك وداخلهم الغيرة والحسد ونهض احد اشرافهم الامير غودوين وقاوم هذا المشروع وبواسطة ما كان لهُ من النفوذ نجح باخراج النورمنديين من البلاد وتعهد بحفظ السلام والقيام بمقتضايات المملكة بدون احتياج الى الاجانب . ثم تزوَّج الملك ادوَرد بابنة غودوين المذكور واذ لم يُرزَق نسلاً ارسل فدعا ابن اخيهِ الاكبر (الذي كان لهُ حق بالارث قبلهُ) بناءً على ان يخلفهُ بالمملكة فحضر مع ابنهِ ادغر ولكن حالما وصل الى البلاد توفي تاركًا ابنهُ في سنٍّ لا يليق بالسلطنة .وفي اثناء ذلك توفي الملك ادوَرد سنة ١٠٦٦ وهو اخر ملوك العائلة السكسونيَّة . فبعد موت ادورد قام هارولد اخو زوجتهِ اي ابن غودوين المارّ ذكرهُ واغتصب لنفسهِ تاج الملك فقاومهُ اخوهُ في السنة ذاتها واهاج عليهِ حربًا غب ان استنجد بالنورمنديين لمساعدتهِ فقُتل الاثنان في اثناء تلك المواقع الكبيرة وبموت هارولد انقرض حكم الدولة السكسونية . فكان عدد ملوكها من سنة ٨٢٧ الى سنة ١٠٦٦ سبعة عشر ملكًا يفصلهم ثلاثة ملوك دنيماركيين وهم كانوت وابناهُ من سنة ١٠١٦ الى سنة ١٠٣٩ كما مرَّ

الباب الرابع

في ذكر تملك العائلة النورمندية والعائلة البلانتاجينية من سنة ١٠٦٦ الى سنة ١٣٩٩

انهُ بعد انقراض الدولة السكسونية كما تقدم حكم انكلترا دولة نورمندية اعني حكامٌ من بلاد نورمندية التي هي ولاية فرنساوية مجاورة للانكليز. فكان اول ملوك هذه الدولة وليَم الاول الملقب بالظافر. وكان قبل استيلائهِ على تخت انكلترا حاكمًا في ولاية نورمندية تحت يد فيليب الاول ملك فرنسا. فلسعد وليم كان فيليب وقتئذٍ صغير السن قصير المعرفة تحت وصاية بودوين احد اشراف الفرنساويين وكان زمام فرانسا بيدهِ. ومع ان بودوين المذكور كان عمًّا لفيليب فكان ايضًا حموًا لوليم وبالضرورة كان يرغب صالح صهرهِ وابنتهِ. فانتهز وليم تلك الفرصة المناسبة واغار على البريتانيين الذين كانوا مهتمين في اقامة ملك عليهم ولم يترك لهم وقتًا للمذاكرة في ذلك الامر وبواسطة تدابيرهِ ومساعيهِ ازال كل الموانع والزم اشراف الانكليز ان يخضعوا لرياستهِ وتوج عليهم ملكًا يوم عيد الميلاد سنة ١٠٦٦ في كنيسة وستمينهستر وشرع حالاً في بناء القلع والحصون وملأها من حراس النورمنديين

ثم بعد تملك وليم زمام البلاد بوقت وجيز ذهب لزيارة نورمندية بلادهِ وترك ادارة الاحكام في يد اخيهِ اودو اسقف بايو. واذ كان يخشى سطوة اشراف الانكليز ولا يامن خلوصهم اخذ معهُ عددًا كبيرًا منهم خوفًا من حدوث فتنةٍ في غيبتهِ فلم يجدِ ذلك الاحتياط نفعًا لان تعديات النورمنديين وظلمهم الزمت البريتانيين ان يتظاهروا بالعصيان فاغتنموا فرصة غياب وليم وارسلوا يستدعون ملك الدنيمارك لمساعدتهم واعدوهُ بتاج الملك واذ لم ياتِ اتحدوا مع السكسونيين

الذين كانوا باقين في البلاد واثاروا جملة فتن ومعارك قتلوا في احداها ٣٠٠٠ من عسكر النورمنديين ذبح السيف . فلما بلغ ذلك وليم حضر عاجلاً وفتك بالعصاة وبعد ان اخمد الفتنة اجرى قصاصات صارمة على المتعصبين وانتقم من الاهالي اشد انتقام وذبح منهم عددًا كبيرًا بعد ان احرق بيوتهم واخرب مزروعاتهم فنزح كثيرون من الانكليز والتجأُوا الى اسكوتلاندا المجاورة لهم وبسبب ذلك مع ما نتج عنهُ من عطل الارض ومحل المواسم حدث مجاعة عظيمة في انكلترا قيل انهُ هلك فيها فوق مئة الف نسمة من الجوع

وكان وليم المذكور عند قيامهِ من نورمندية لافتتاح انكلترا انهُ ترك زمام الاحكام في يد ابنهِ روبرتوس فبقيت في يدهِ عدة سنين حتى بلغ فيليب الاول سن الكمال واستلم سلطنة فرانسا . فلما راى فيليب ما حصل عليهِ وليم من التقدم والنجاح في انكلترا اخذتهُ الغيرة والحسد وشرع بفصل نورمندية عنهُ وترك روبرتوس مستقلاً فيها بدون مداخلة ابيهِ . واذ لم يرتضِ وليم بذلك وقعت الحروب بين الاب والابن واستدامت جملة سنين حتى قيل انهُ في احدى المواقع بارز روبرتوس اباهُ واذ كانا في ملابسهما الحربية بحسب عوائد تلك الاعصر لم يعرف احدهما الاخر حتى غُلِب الاب فخجل الابن . ثم مات وليم من وقعةٍ عن فرسهِ سنة ١٠٨٧ عندما كان ذاهبًا لتخليص بعض اراضي نورمندية التي كان الفرنساويون قد اختلسوها وخلفهُ ابنهُ وليم الثاني الملقب روفوس اي الاحمر من احمرار شعرهِ . وكان وليم روفوس المذكور يريد ان ينزع نورمندية عن اخيهِ روبرتوس ويضمها الى مملكة انكلترا فتأهب لقتالهِ واشتبكت الحروب بينهما زمانًا طويلاً ولم يحصل وليم على ما كان يبتغيهِ . وفي تلك الاثناء ظهرت الحروب الصليبية لتخليص الاراضي المقدسة وكان روبرتوس والي نورمندية من جملة الذين انضموا الى زمرة المحاربين ولكن اذ لم يكن عندهُ مالٌ كافٍ للوازم الحرب استقرض من اخيهِ وليم مبلغًا وافرًا وارهن عندهُ كل الولاية وتوجه . فاتى ذلك وليم طبق المرغوب وامل نوال المراد ولكن ما كل ما يتمنى المرء

يدركهُ فانهُ بعد ذلك بقليل ذهب وليم ذات يوم بقصد الصيد الى الحرش الجديد الذي كان قد انشاهُ والدهُ وبينما كان جائلاً فيهِ اصيب بنبلةٍ انهت حياتهُ فاتهم احدامراء الانكليز بهذا الفعل ولكن اذ لم يكن لوليم روفوس عند جماعة الانكليز قيمة ولا مقدار لقبائحهِ وجورهِ لم يتعنَّ احدٌ لفحص سبب ميتتهِ

وسنة ١١٠٠ قام هنري الاول ملكًا على انكلترا وهو الابن الاصغر لوليم الظافر مع ان حق الارث كان لروبرتوس والي نورمندية ولكن اذ لم يكن قد رجع بعد من سفرتهِ الى الاراضي المقدسة اغتنم هنري الفرصة وسعي في لبس تاج المملكة وكانت سياستهُ ممدوحة واجراءاتهُ حسنة غير انهُ لم يمضِ على ذلك ثلاثون يومًا حتى رجع روبرتوس واذ وجد لهُ حزبًا في انكلترا نهض لتخليص الملك من اخيهِ واتى بقواتٍ كثيرة ونزل في مينا بورتسماوث . فوافاهُ رئيس اساقفة كنتربري وعقد بين الاخوين صلحًا. فتنازل روبرتوس لاخيهِ عن حقوقهِ بشرط ان يرتب لهُ معاشًا سنويًا وان كل الذين تحالفوا معهُ ضدهُ يكونون معافين مستامنين على اراضيهم واموالهم . ولكن بعد قيام روبرتوس نكث هنري بشروط هذه المعاهدة واوصل الضرر الى مَن كان تظاهر في مقاومتهِ. وسنة ١١٠٦ استفتح هنري بلاد نورمندية بعد قتالٍ عظيم واسر اخاهُ وسجنهُ في قصر كرديف حيث توفي في سن الثمانين وضمَّ البلاد الى تاج انكلترا . وسنة ١١١٩ قام ابن روبرتوس بمساعدة لويس السادس ملك فرانسا لاستخلاص مملكة ابيهِ فانتصر عليهما هنري في حرب برنفيل ولم ينالا اربًا . وبعد ذلك وقع النزاع بين هنري وبين البابا كما كان وقع مع ملوك اخرين ايضًا من جهة السيامات الاكليريكية واعطاء الاساقفة العكاز والخاتم وتحليفهم يمين الطاعة للملك . فان الملوك ارادوا ان يكون ذلك مختصًا بهم اما البابا فانكر عليهم هذا الحق موكدًا انهُ لا يستطيع السلطان الزمني ان يمنح المقامات الدينية المشار اليها بالعكاز والخاتم وقد دعي الملوك الذين يداومون استعمال ذلك بالسيمونيين نسبةً الى سيمون الساحر الذي اراد ان يشتري موهبة الروح القدس بالمال

وكان لهنري المذكور ولدان شرعيان فقط صبي وابنة فلاجل منع النزاع بعد وفاته استحسن ان يسمي ابنهُ ملكًا على انكلترا وعلى نورمندية في حياته فاخذهُ الى نورمندية ليعرفهُ بالاشراف وابقاهُ هناك مدةً وبينما كان الولد راجعًا الى انكلترا غرق ومات. واما الابنة وهي ماتيلدا فكانت قد تزوجت بهنري الخامس امبراطور جرمانيا ولكن حين وفاة اخيها كانت ارملة بدون اولاد فزوجها ابوها بامير فرنساوي يدعى جوفروا بلانتاجنيت وهو كونت انجو (اسم مقاطعة في فرانسا) واقامها خليفةً لهُ على انكلترا ونورمندية ثم توفي سنة ١١٣٥

فبعد توفي هنري الاول نهض رجل من الاشراف في نورمندية يدعى اسطفان وهو ابن ابنة وليم الظافر التي كانت تزوجت بكونت بلوا واغتصب حكم انكلترا لذاته مع انهُ كان من جملة الذين اقرُّوا وخضعوا لخلافة ماتيلدا ابنة هنري الثاني. وكان اسطفان المذكور حسن الصفات لين الجانب فجعلهُ ذلك محبوبًا عند الجميع وساعدهُ ايضًا نفوذ اخيه اسقف انكلترا اذ جعل الكنيسة تعضدهُ. واذ كانت البلاد وقتئذٍ مقسومةً الى عشائر كان امر تولية امراةٍ على مملكة امرًا جديدًا عند روساء تلك العشائر فلم يصدر منهم مقاومة لمقاصد اسطفان المذكور فتتوج ملكًا على انكلترا وطاعهُ الجميع ولكن لم يمضِ عليهِ وقت طويل حتى تبدلت صفاتهُ الحسنة بجمرة العظمة والاستكبار فاخذ يتعدى على حقوق الاهالي والاكليروس ويجري من المظالم ما لا يستطيع احد على حملهِ فمقتهُ الشعب ونهض بعضهم لخلعهِ فقاومهم اعوانهُ والمتحزبون لهُ ومن جرى ذلك انتشبت في البلاد حروبٌ اهلية هرقت فيها دماء كثيرة. فاغتنمت ماتيلدا تلك الفرصة وانبرت لمحاربتهِ واستخلاص البلاد من يدهِ فلم تنجح في اول الامر ولكنها اخيرًا اسرتهُ سنة ١١٤١ وحبستهُ واستولت على زمام المملكة. ولكن بعد قليل اذ لم تحسن التصرف هاج عليها الشعب فالتزمت ان تهرب ورجع اسطفان من سجنهِ الى تخت الملك. واذ كان ابنهُ الاكبر قد مات اجرى عهدًا مع هنري ابن ماتيلدا زوجة جوفروا بلانتاجنيت المار ذكرهُ مآلهُ ان اسطفان

يبقى ملكًا مدة حياتهِ وان هنري يكون خليفتهُ في الملك وقبل بذلك الجميع

ففي السنة التالية اي سنة ١١٥٤ توفي اسطفان وجلس على تخت المملكة هنري المذكور وهو هنري الثاني من ملوك الانكليز والاول من العائلة البلانتاجينية(١). وكان هذا الملك على جانب عظيم من الحماسة والشجاعة صاحيًا ومنتبهًا لكل ما يأُول لنجاح البلاد وكان مع ذلك غنيًا جدًّا لهُ جملة مقاطعات في فرانسا ورثها من ابيهِ. فشرع حالاً بازالة القلع والحصون التي كان انشأَها روساءُ العشائر بقصد العصاوة وقت الحاجة فقلَّت بذلك اسباب الحروب الكثيرة التي كانت تجري داخل البلاد. ثم قسم البلاد الى ست مقاطعات واقام قضاةً مخصوصين للفحص عن احوالها وراحة اهلها واصلح الاعوجاجات القديمة ونكس سطوة الاشراف فاتاهُ ذلك بالمديح والشكر من الجميع. وحدث امران مهمان في مدة ولاية هذا الملك اولهما مشاجرتهُ مع توماس آبكيت رئيس اساقفة كانتربري وثانيهما انضمام ايرلاندا الى انكلترا اذ كانت قبل ذلك منقسمة الى خمس ولايات مستقلة. اما سبب مشاجرة هنري الثاني مع توماس ابكيت فهو ان المذكور كان وزيرًا فهيمًا حاذقًا في خدمة الملك واذ كان للكنيسة في ذلك الوقت مدَّعيات سفسطية لم يوافق عليها هنري الثاني واراد تنكيس مداخلاتها فانتخب وزيرهُ توماس المذكور واقامهُ رئيس اساقفة املاً بنوال المرغوب بواسطتهِ. ولكنهُ عوضًا عن الحصول على ذلك وجد في توماس مقاومة كلية جلبت عليهِ اكدارًا بليغة. فنهض اربعة من رجال الملك هنري وذهبوا الى كنتربري وقتلوا توماس ابكيت على المذبح قاصدين بذلك رضى سيدهم فكان هذا العمل الفظيع سببًا لاضطرابات واتعاب كثيرة لان البابا تهددهُ بالحرم فالتزم هنري لاجل تسكين غضب البابا ان يذهب لزيارة قبر ابكيت ويظهر بذلك علامات الاسف على ما وقع. فلما وصل الى الدير حيث كان

(١) ان هذه الكلمة هي اسم نبات اطلقت على هذه العائلة من حشيشة كان يضعها اعضاؤها في برانيطهم

القبر قامت عليهِ زمرة الرهبان وهجموا عليهِ وضربوهُ فاحتمل منهم هنري تلك المعاملة بكل طول اناة ولم يدافع عن نفسهِ وبناءً على صبرهِ واحتمالهِ حصل على سماح الحبر الروماني وغفرانهِ

ومن ملوك هذه الدولة ريكاردوس الملقب بقلب الاسد تتوج سنة ١١٨٩



ريكاردوس الملقب بقلب الاسد

وكان شجاعًا نشيطًا غريب القوة والبسالة محبًّا للحروب والمبارزات وهو الذي ذكرناهُ في الحروب الصليبية حين ذهب مع فرقةٍ من قومهِ لاجل مساعدة الصليبيين واكتسب شهرةً عظيمة في تلك المعارك ولكنهُ بينما كان راجعًا الى

بلادهِ أُسر في بلاد النمسا مدة سنتين ولم يتخلص من اسرهِ حتى فداهُ قومهُ بمبلغٍ جسيم. ثم توفي من نبلةٍ اصابتهُ وهو يحاصر قلعة في نورمندية . ومنهم يوحنا اخو ريكاردوس السالف ذكرهُ وهو اردأ ملك قام بين ملوك الانكليز. وفي ايامهِ خسر الانكليز نورمندية والاراضي التي تملكوها في فرانسا. ومن اجراءاتهِ الذميمة انهُ قتل ابن اخيهِ الذي كان وريث الملك عوضًا عنهُ فاستشاط اشراف الانكليز غضبًا من هذه الافعال واجتمعوا في ١٩ حزيران سنة ١٢١٥ والزموا الملك ان يمضي تعهدًا على نفسهِ وعلى من يخلفهُ مآلهُ التنازل عن السلطة المطلقة وهذه المعاهدة تعتبر اساس حرية الانكليز. ثم توفي سنة ١٢١٦ وخلفهُ ابنهُ هنري الثالث وهو في سن التسع سنين. فاستبدَّ بالمملكة ٥٥ سنة وكان صاحب مقاصد حسنة لكنهُ غير كفوء للاحكام

وجلس بعدهُ ادورد الاول سنة ١٢٧٢ ولُقّب بذي الساقين لطول ساقيهِ وكان فارسًا مهابًا حارب ببسالةٍ في فلسطين وفي الحروب الداخلية التي انتشبت في انكلترا . وهو الذي تغلب على ولاية ويلس وضمها الى انكلترا اذ كانت قبل ذلك مستقلة . ثم انهُ شرع باخضاع اسكوتلاندا ايضًا ولكنهُ لم ينجح كثيرًا وقاومهُ الاهلون المرة بعد الاخرى حتى توفي وخلفهُ ابنهُ ادورد الثاني سنة ١٣٠٧ فسلك مسلك ابيهِ من جهة اخضاع اسكوتلاندا ولكنهُ كان خاليًا من فروسية ابيهِ وسياستهِ ومع انهُ زحف اليها بمئة الف مقاتل لاقاهُ الاسكوتسيون تحت قيادة رئيسهم روبرت بروس بثلاثين الفًا وفتكوا بجيشهِ فتكًا ذريعًا واهلكوا منهم عددًا غفيرًا فقفل ادورد راجعًا بالخيبة والفشل. ولم تكن مناقب ادورد الأخر احسن حالاً من التي ذكرناها فان الخفة وطياشة العقل كانتا من جملة مزاياهُ واخيرًا قامت عليهِ امرأتهُ وحاربتهُ واسرتهُ وبسبب وشايتها قتل اشنع قتلةٍ في الحبس

ثم قام بعدهُ ابنهُ ادورد الثالث سنة ١٣٢٧ وهو في سن الثاني عشرة وحكم ببسالةٍ خلافًا لابيهِ فضرب الاسكوتسيين وفاز عليهم ثم زحف على فرانسا بجيشٍ عظيم واقام عليها القتال مدعيًا بان لهُ حقًّا في تاجها اكثر من فيليب فالوا الذي

كان وقتئذٍ على تخت مملكتها وذلك لان والدتهُ كانت ابنة فيليب الرابع احد ملوك فرانسا السالفين. فكان ذلك سببًا لفتوح الحروب المعروفة بحروب المئة سنة بين انكلترا وفرانسا التي هُرقت فيها دماءٌ كثيرة وتاسست بسببها العداوة الشديدة بين الامتين. وفي بداية هذه الحروب طلب ادورد الثالث من ملك فرانسا المبارزة الشخصية فابى فيليب واستخار ملاقاتهُ بجيش من المقاتلين فوقع بينهما قتال شديد في محل يدعى كريسي في فرانسا سنة ١٣٤٦ كانت الدائرة فيهِ على الفرنساويين وقتل منهم في تلك المعركة نحو ثلاثين الف شخص وجملة من كبار القوم واستولى البريتانيون على عدة اماكن فرنساوية. واذ كانت مدينة كالي التي على المانش هي مفتاح فرانسا للانكليز حوَّل ادوَرد الثالث التفاتهُ نحو افتتاح تلك المدينة وبعد حصار اثني عشر شهرًا استفتحها وطلب من الاهالي ان ياتوا اليهِ بستة اشخاص من كبارهم لكي يقتلهم فديةً عن اهل المدينة. فاوَّل من قدم ذاتهُ فديةً عن بلادهِ على ما قيل رجلٌ فاضلٌ يدعى اوستاك ثم تبعهُ خمسة آخرون والحبال في اعناقهم وهم حفاة الارجل. وفيما كان الملك مصمما على قتلهم حضرت الملكة زوجتهُ التي كانت في محاربة الاسكوتسيين وتوسلت اليهِ بان يعفو عنهم فاجابها الى ذلك واطلقهم. ومن ذلك الحين استولى الانكليز على مدينة كالي وبقيت في ايديهم نحو جيلين. وكان لادورد الثالث ابنٌ وهو وريث عهدهِ يلقب بالامير الاسود بسبب لون درعهِ واسلحتهِ الحربية فارسلهُ ابوهُ سنة ١٣٥٠ لمحاربة فرانسا. وكان ملكها وقتئذٍ يوحنا الصالح ابن فيليب فالوا السالف ذكرهُ. فالتقاهُ بخمسين الف مقاتل ولم يكن مع الامير الاسود سوى عشرة الاف فقط فرمتهم الانكليز بالنبال وانتصروا عليهم واسروا ملكهم واخذوهُ الى مدينة لندن حيث بقي تحت الحفظ حتى مات. وسنة ١٣٧٦ توفي الامير الاسود وبعدهُ بسنةٍ لحقهُ ابوهُ. ومن كل هذه الحروب لم تكتسب انكلترا الاَّ ثلاث مدن شهيرة وهي كالي وبوردو وبايون.

وقد ظهر في عصر هذا الملك رجل يقال لهُ يوحنا ويكليف من اعمال

يورك ولد سنة ١٣٢٤ وكان متفننًا في العلوم صاحب عقل ثاقب فانتُخب رئيسًا للمدرسة الكلية في كانتربري واذ كان له آراء دينية مخالفة للمعتقد الروماني لم يتوقف عن اشهارها فشرع ينادي ويعلم بها علانيةً منها عدم وجوب الرهبنة وانكار سلطة البابوات الروحية والزمنية وانكار الاستحالة وعدم لزوم الاعتراف وعدم التسليم بهلاك الاطفال الذين يموتون بدون معمودية الى غير ذلك فوافقه كثيرٌ من الناس واصبحت تلك التعاليم موضوع المذاكرة والبحث عند البعض حتى صار له جملة تلامذة تابعين افكارهُ فكان ذلك اول صوت بودي به للاصلاح ويعدهُ البرونستانت خميرة لتعاليم يوحنا هوس وجيروم دي براك ومرتينوس اوثيروس ولذلك يسمون ويكليف المذكور نجمة صبح الاصلاح. اما الكنيسة الرومانية فحسبت ويكليف المذكور من اعظم المجرمين بالهرطقة وبناء عليهِ صدر امر البابا غريغوريوس الحادي عشر الى اسقف لندن ورئيس اساقفة كانتربري بان يلقوا القبض على ويكليف ويطفئوا خبرهُ فدعوهُ الى مجمع للمحاكمة ولكنهم لم يستطيعوا ان يصدروا عليهِ حكمًا لان احد امراء الانكليز تصدى لحمايتهِ فاطلقوهُ من بعد ما حرضوهُ على حفظ السكوت . اما هو فازداد غيرةً واخذ يعلم باكثر نشاط حتى التزم البابويون ان يهتموا في اطفاء مفاعيل تلك التعاليم فعقدوا مجمعًا في مدينة لندن سنة ١٣٨٢ وحكموا بالهرطقة على بعض تعاليمهِ واخرجوهُ من مدينة اوكسفورد خوفًا من ازدياد الشر. ولهذا العالم جملة مؤلفات ولهُ ايضًا ترجمة انكليزية للتوراة

وفي ايام ريكاردوس الثاني ابن الامير الاسود الذي خلف جدهُ ادورد الثالث تُركت الاحكام في انكلترا لتهامل الملك وانهماكهِ باللذات فنشأ عن ذلك ثورة كان رئيسها رجل حداد يدعى وات تايلر ومعهُ جملة رفقاء آخرين فمشوا على لندن بمئة الف مقاتل واضروا بالبلاد ضررًا بليغًا . فالتقاهم الملك ومهد الامور بحسن سياستهِ بعد ان قتل رئيس تلك الفتنة فانفضَّ النزاع موقتًا ولكن بعد ذلك بقليل اشتعلت نيرانهُ ثانيةً وزاد مقت الشعب للملكم لقساوتهِ

وسوء تدبيرهِ فانزلوهُ عن الكرسي وحجزوا عليهِ في قلعةٍ وهناك قتل او مات جوعًا وبهِ انتهى تملك العائلة البلانتاجينية وكان عدد ملوكها ثمانية وعدد ملوك نورمندية سلفائهم اربعة

الباب الخامس

في ذكر ملوك عائلة لانكستر وعائلة يورك من سنة ١٣٩٩ الى سنة ١٤٨٥

انهُ بعد انقراض العائلتين السالف ذكرها تناول تاج انكلترا عائلة لانكستر وتسمت هكذا نسبةً الى دوك لانكستر اول ملوكها. وكان الدوك المذكور من العائلة الملكية مشهورًا بين قومهِ ومقبولاً عند الاكثرين وهو المحرك للحادثة المذكورة في الباب السابق التي بها قتل ريكاردوس السالف ذكرهُ . فلما بلغ دوك لانكستر ما كان يتمناهُ من قتل ريكاردوس اغتصب تخت الملك لنفسهِ سنة ١٤٠٠ وقبل بهِ الجميع ودعي هنري الرابع وفي مدة حكمهِ هاج عليهِ فتنتان كان مترأسًا على واحدةٍ منهما رئيس اساقفة يورك ولم يبلغ مُنشئاها من هنري مأربًا فانهُ قهرها ومات بسلام بعدما حكم جملة سنين

وسنة ١٤١٣ تبوأ سرير انكلترا هنري الخامس ابن السالف ذكرهُ وكان جسورًا مهيبًا فبعد جلوسهِ بسنتين زحف لمحاربة الفرنساويين وافتتح بلادهم وتملكها وانتشرت في اطرافها الجنود الانكليزية واستولى زمامها الحكام البرتانيون واضحى الاهلون في ضنك عظيم يكابدون الذل والجور العنيف . ولكن لم ينل هنري ثمرة اتعابهِ لانهُ في وسط انتصاراتهِ توفي وهو في سن الاربع والثلثين .وقام بعدهُ ابنهُ هنري السادس وهو في سن التسعة اشهر فوُضع على راسهِ تاجا فرانسا

وانكلترا وهو في حضن مرضعتهِ في مدينة باريس وكانت فرانسا اذ ذاك دولة انكليزية ولكن لم يمضِ على ذلك الاَّ بضع سنين حتى تخلص الفرنساويون من نير الانكليز واخرجوهم من البلاد شيئًا فشيئًا بواسطة امراة فرنساوية كما اوضحنا في الكلام عن فرانسا ولم يبقَ في ايديهم الاَّ بعض الاماكن فقط فخلع حينئذٍ تاج فرانسا عن راس هنري السادس الذي لعدم اهليتهِ للاحكام كان تاج انكلترا ايضًا سببًا لفقد حياتهِ فيما بعد. والسبب في ذلك هو انهُ كان لطيف المزاج بسيط القلب لا يصلح للوظائف الملكية في تلك الاعصار فكان محتقرًا بين قومهِ وكانت امراتهُ مرغريت انجو تحكم عليهِ حكم الام على ولدها . وفي ايام هذا الملك حدثت الحروب الاهلية المعروفة بحروب الورد التي دامت مدة ثلاثين سنة . وكان السبب في ذلك هو ان ورثة ريكاردوس الثاني الذين اغتصب منهم تاج الملك الدوك لانكستر بعد ان عمل على قتل الملك كما تقدم القول انتظروا فرصةً مناسبة لخلع الطاعة واخذ الثار فلم يستطيعوا على التظاهر في ايام تملكهِ ولا في مدة تملك ابنهِ هنري الخامس لانهما كانا جبارين عنيدين يخافهما الجميع ولكن عند تولي هنري السادس نهضوا لطلب استرجاع الملك الى العائلة السابقة وكان وقتئذٍ الدوك يورك هو الوريث الاقرب من تلك العائلة فقام سنة ١٤٥٥ وحمل السلاح ضد الملك وتحزب معهُ جمهورٌ غفير ولولا مرغريت زوجة هنري السادس وتحزُّب القسم الاكبر من الاشراف لكان فاز الدوك يورك بمقاصدهِ ورفع التاج عن راس خصمهِ . فمن ذلك الحين انقسمت انكلترا الى حزبين كبيرين يمتاز رجال الواحد عن الاخر بلبس وردة من شريط مختلفة الالوان اما على برانيطهم او على صدورهم فكان حزب اليوركيين اي التابعين للدوك يورك يلبسون وردة من شريط ابيض والحزب الملكي يلبس وردة من شريط احمر ومن ذلك نسمت تلك الحروب حروب الورد مع انهُ كان الاولى تسميتها حروب الشوك لانها هشمت عددًا كبيرًا من الفريقين واقلقت البلاد زمانًا طويلاً فضلاً عن الخسائر الجسيمة التي احدثتها . وفي سنة ١٤٦١ غلب حزبُ

الورد الابيض تحت قيادة الامير وادويك حزبَ الورد الاحمر بعدما قتل منهُ ٣٦ الفًا واسروا الملك فنودي باسم الدوك يورك ملكًا على بريتانيا العظمى ولقّب ادورد الرابع ولكن بعد ذلك بقليل وقع الخصام بين الامير وادويك وبين الملك ادورد فاخرج هنري السادس من السجن واجلسهُ على تخت الملك والتزم ادوَرد ان يهرب الى فرانسا ولكنهُ لم يفتر عن مداومة الحرب حتى انتصر مع حزبهِ على الحزب الملكي واسترجع تاج المملكة بعدما قتل هنري السادس وابنهُ سنة ١٤٦٤ وحكم الى سنة ١٤٨٣ واظهر من القساوة ما لا مزيد عليهِ حتى انهُ امر بقتل احد اخوتهِ ولكن اشفاقًا عليهِ خيرهُ باية ميتة يريد ان يموت واذ كان اخوهُ من محبي المسكرات اختار ان يوضع في برميل مملوء من النبيذ ويقفل عليهِ ففعل بهِ كما طلب ومات على تلك الصورة

اما احوال الامة الانكليزية فكانت في ذلك الجيل آخذة في النجاح ولا سيما زراعتها حتى ان الفلاحين الذين من اوطأ درجة صاروا اصحاب اراضي وكان لهم حق الاشتراك في انتخاب وجاق المحامين . واذ كثر عدد الذين ينتخبون وكان ذلك موجبًا للارتباك اصدرت الحكومة سنة ٠ بانهُ لا حق لاحد ان يكون من ذوي الاصوات في الانتخاب ما لم يكن صاحب ايراد ليرتين انكليزيتين من ملكٍ خاص لهُ وبما ان النقود في ذلك الجيل كانت قليلة انحصر حق اعطاء الصوت في ذوي الاقتدار من اهل الفلاحة فانت تلك الشريعة بالغاية المطلوبة . وكان للنقود قيمة هذا مقدارها حتى انهُ من صرف ١٢ ليرة في السنة حُسب من اصحاب الثروة العظيمة ومن المعلوم ان الايرادات كانت وقتئذٍ قليلة فان معاش القضاة الذين ياخذون الآن من الالفين الى الثلاثة الاف ليرة كانت في ذلك الوقت ٧٣ ليرة وكانت الالبسة ايضًا ذات قيمة كبيرة حتى انهُ كان يوصى بها من سلفٍ الى خلفٍ كارثٍ . وكانت وسائط المواصلات عسرة جدًّا بحيث لم يرغب احد في التغرب عن بلادهِ فانهُ ما عدا السائح الذاهب لزيارة الاراضي المقدسة والتاجر الذي يقصد الموالد لاجل بيع

بضائعهِ بالكد كنت ترى رجلاً يتجاسر على ترك وطنهِ. وكانت الكتابة غير معروفة الاَّ عند القليل الى ان اوجد فن الطبع رجل يدعى كاكستون فاخذت حينئذٍ المعارف في الامتداد وطبعت الكتب المقدسة وانتشرت الانارة الحقيقية التي كانت بلا شك واسطة للاصلاح

وسنة ١٤٨٣ توفي أدوَرد الرابع وترك ولدين اكبرهما نسمي ادورد الخامس وكانا كلاهما تحت وصاية عمهما ريكاردوس الدوك غلوسستر الذي بالحال وضع عينيهِ على تاج الملك واعتمد بان يغتصبهُ لنفسهِ فاخذ يستعمل الوسائط اللازمة لذلك فازال كل ما رآهُ مانعاً لنوال مقصدهِ واماتَ جملةً من مقاوميهِ واخيراً ارسل من خنق الاخوين معًا وهما في برج لندن واشهر ذاتهُ ملكاً ونسمى ريكاردوس الثالث ولكن لم تطل عليهِ السنون حتى قتل في حربٍ اقامها عليهِ هنري تيودَر الوريث الوحيد لهنري السادس الملك السابق وكان ذلك بمساعدة فرانسا التي قدمت لهُ جميع مهام الحرب. وبموت ريكاردوس الثالث انتهت حروب الورد التي هلك فيها ١٠٠ الف نفس بعد ما دامت ٣٠ سنة. وانتهى ايضًا حكم العائلة اليوركية المتسلسلة من العائلة البلانتاجينية

الباب السادس

في تملك العائلة التيودَرية من سنة ١٤٨٥ الى سنة ١٦٠٣

ان الملوك الذين تبوأوا تخت انكلترا من هذه العائلة خمسة. اولهم هنري تيودر المتقدم ذكرهُ وهو هنري السابع قام سنة ١٤٨٥ وكان محبًّا للهدو كارهًا الحروب والفتن وهو اول من شرع بما هو جارٍ عليهِ الحال الى الآن في عدم اشهار الحرب عاجلاً عند وقوع النزاع بين دولة ودولة واستعمال طول الاناة لاجل التخابر وتعاطي وسائط السلم اولاً ثم توسط الغير لازالة الموانع اذا امكن ذلك قبل المبادرة لسفك الدم. وهو نعم المشروع. ودلالةً لكرههِ الحروب

عقد تحالفًا دائمًا مع جمس الرابع ملك اسكوتلاندا وازوجهُ بابنتهِ مرغريت وازوج ابنهُ ارثور بكاترينا ابنة فرديناند وايزابلا ملك وملكة اسبانيا ولكن اذ قُضي على ارثور بعد زواجهِ بوقتٍ وجيز اجتهد ملك انكلترا ان يزوج كاترينا بابنهِ الثاني هنري فاستحصل الرخصة اللازمة من البابا وعقد كتاب خطبتهما وكانت سياسة هنري السابع متجهة بالاخص الى تخفيف سطوة العشائر في البلاد فادخل اواسط الشعب في الخدامات الاميرية وقدمهم حتى انهُ رفع الامتيازات التي كانت تُدعى بها اهل العشائر الى ذلك الوقت وفي ايامهِ قام رجلان دجّالان ادّعيا بحقهما لتاج الملك اكثر من هنري السابع فكان احدهما ابن رجلٍ خباز قال عن نفسهِ انهُ ابن اخ ادوَرد الرابع والاخر ابن رجلٍ جزار دعي بانهُ هو احد الاميرين الصغيرين اللذين امانهما الملك ريكاردوس في البرج كما سبقت الاشارة الى ذلك . فكانت هذه الفتنة سببًا لهيجان عظيم لان كثيرًا من الناس ومن الاشراف تحزبوا لهذين الرجلين وتظاهروا بالعصاوة ولكن اخيرًا نجحت الحكومة بالقاء القبض عليهما فامرت بشنق ابن الخباز واما ابن الجزار فجُعِل خادمًا يغسل الصحون في مطبخ الملك . وقد خسرت انكلترا في ايامهِ مقاطعة بريتانيا وهي املاكها الوحيدة الباقية لها في فرانسا وذلك بدون حربٍ لانهُ اذ كان هنري السابع محبًا للمال ومبغضًا للحروب قبل من كارلوس الثامن ملك فرانسا مُبلغ ٤٠٠ الف ليرة لاجل تنازلهِ عن تلك المقاطعة وكان داب هنري جمع المال فكان يخصص لنفسهِ كل ما وصلت اليهِ يدهُ حتى انهُ بعد موتهِ وُجد في قصرهِ مبلغٌ عظيمٌ يحاكي العشرة ملايين ليرة انكليزية

ثانيهم هنري الثامن وهو ابن السالف ذكرهُ . لبس التاج سنة ١٥٠٩ وهو ابن ثماني عشرة سنة فكان بارعًا عالمًا ولكنهُ كان ايضًا عنيدًا قاسيًا سريع الغضب كثيرًا ما امر بقتل بعض الشعب وهو في حدة خلقهِ . وكان لهُ ست زوجاتٍ احداهنَّ ماتت موتًا طبيعيًا واثنتان طلقهما واثنتان قتلهما واما السادسة فحضرت دفنهُ . وكانت امرأتهُ الاولى كاترينا وزوجة اخيهِ ارثور . زُفَّ عليها بعد

جلوسهِ ولبثت معهُ ١٨ سنة وولدت لهُ جملة اولادٍ ماتوا جميعًا في طفوليتهم ما عدا ابنةً يقال لها ماري. واذ كان هنري يشتهي اولادًا ذكورًا ليخلفوهُ في الملك وكان قد وقع في حب ابنةٍ من الاشراف سعى في تخلية كاترينا وطلب من البابا اكليمنضس الثاني ان ياذن لهُ بذلك وكان البابا وقتئذٍ تحت الترسيم في قبضة كارلوس الخامس سلطانْ جرمانيا والممالك الغربية فخاف من اعطاء الرخصة في تخلية كاترينا اذ كانت ابنة اخ كارلوس الخامس السائد السلطة في اوروبا ولكنهُ لاجل عدم التظاهر في مقاومة ملك الانكليز ارسل قاصدًا من طرفهِ لاستماع الدعوى في انكلترا فابت كاترينا الدخول في المرافعة ورفعت دعواها الى رومية فرجع القاصد كما اتى . حينئذٍ اجتمع روساء الدين في انكلترا واصدروا قرارًا بان زواج هنري بكاترينا كان غير جائز من اولهِ لانها امراة اخيهِ فطلقت. وقد حارب هذا الملك فرانسا ثلاث مرات مرةً باتحاد عمهِ ملك اسبانيا ابي امراتهِ حين استولت تلك المملكة على مقاطعة نافار الفرنساوية ومرتين بالاتحاد مع شارلكان . وفي ايامهِ هاجم الاسكوتسيون انكلترا مرتين ورجعوا خايبين بعد ان قُتل ملكهم جمس الرابع في اثناء المعركة . وحدثت في داخل البلاد جملة اصلاحات اتت الشعب الانكليزي بفوائد جمَّة . ومن اعظم ما اشتهر بهِ هنري الثامن اعتناقهُ المذهب البروتستانتي من بعدما كان لهُ عدوًّا ألدَّ في اول الامر وكان كتب والف كتابًا ردًّا على لوثيروس سماهُ السبعة الاسرار الذي لاجلهِ لقبهُ البابا ليون العاشر محامي الايمان . فعضد هنري الاصلاح الى درجةٍ منكرة حتى انهُ كان يامر بقتل من لا يقبلهُ وقد تَرجمت وطبعت في ايامهِ الكتب المقدسة باللغة الانكليزية وانضمت مقاطعة ويلس الى انكلترا وصارت ترسل نوابًا من طرفها الى المجلس الكبير ثم مات اخيرًا سنة ١٥٤٧ وهو في سن الست والخمسين

اما الملك الثالث فهو ادورد السادس ابن هنري الثامن وكان عمرهُ عشر سنين عند جلوسهِ على كرسي المملكة فكان شابًّا ظريفًا ذا معرفة وسياسة ولكنهُ لم يعش زمانًا طويلاً فتوفي بمرض السل وهو في سن الست عشرة

الرابع الملكة مريم شقيقة ادورد المذكور تبوأت تخت الملك سنة ١٥٥٣ وتزوجت في السنة التالية بفيليب الثاني ملك اسبانيا وهو ابن شارلكان المشهور ولُقّبت بالدموية لانها اذ كانت تابعة المذهب الروماني اجتهدت ان تزيل المعتقد البروتستانتي فامرت بحرق من انكر سلطة البابا حتى ان كثيرين من الاساقفة والقسوس الانجيليين هلكوا في وسط لهيب النار في ايامها . وكان المجلس الكبير قد قاومها على هذه الاعمال الفظيعة فخلعت اعضاءهُ واقامت مكانهم اناساً اخرين ممن خضعوا لاوامرها فوافقوها على هذا المشروع واصدروا امرًا بابادة وملاشاة مسببي الهرطقة فكان عدد من قتل منهم ٢٧٧ نفرًا اكثرهم من اعيان الناس واكابرهم ثم قطعوا النفقات المعينة لمعاش الاكليروس المتزوج هذا ما عدا السلب والتعدي الذي جرى على كثيرين . وقد اشهرت هذه الملكة الحرب على فرانسا مساعدةً لزوجها فيليب ملك اسبانيا فلم ياتِ ذلك انكلترا سوى خسارة مدينة كالي التي كان لها حينئذٍ ٢١١ سنة تحت تملكها . وكانت مدة ملك مريم المذكورة خمس سنين وماتت في حالةٍ تعيسة من شدة الوساوس والغموم التي كانت قد تراكمت عليها

الخامس الملكة اليصابات ابنة هنري الثامن واخت مريم المذكورة من امٍ اخرى تتوّجت سنة ١٥٥٨ وكانت بروتستانتية ولكنها لم تتعرض لاذية الكاثوليكيين وقد ساعدت الاسكوتسيين على طلب حريتهم في امر الدين فاخذ الاصلاح يمتد وينتشر في تلك البلاد حتى عمَّ اكثر اقاليمها وبلدانها وبالاجمال نقول ان انكلترا في ايام هذه الملكة العظيمة وصلت الى اعلى درجات المجد والفخار لان سياستها وحسن تدبيرها كانا احسن ما وجد الى ذلك الحين وكانت مع هذه الاوصاف على جانب عظيم من الحذاقة والحزم والجمال والعفة . وكان قد طلبها كثيرون من اشراف البلاد ليتزوجوا بها فلم تقبل واختارت ان تبقى حرة رئيسة على جسدها كما كانت على مملكتها وكانت بهذا المقدار تأنف من الزواج حتى انها كانت تظهر الاسف والحزن عندما يبلغها زواج من تعرفهنَّ من السيدات .

وكان قد خطبها لنفسهِ فيليب الثاني ملك اسبانيا فابت وامتنعت فاغتاظ منها وصمم على افتتاح بلادها فجهز عمارة بحرية وارسلها سرًّا لتلك الاطراف لاخضاع الولايات البريتانية فهاجت عليها عواصف شديدة اعدمت جانبًا منها واما ما سلم من العواصف فاتلفتهُ العمارة الانكليزية

ولهذه الملكة بعض اعمال قاسية تحاكي اعمال ابيها هنري الثامن منها انها امرت بقتل مريم ملكة اسكوتسيا التي اتت الى انكلترا طالبةً الحماية من مقاوميها بعد ان حجزت عليها نحو ١٩ سنة . ولكن نجاح المملكة وتقدمها. سواء كان بحسن سياستها ام بواسطة الرجال العظام الذين اشتهروا في ذلك الوقت واعانوا على انتشار المعارف والصنائع اخفى نقائصها وزلاتها . وفي مدة تملك هذه الملكة حصلت مذبحة مار برثلماوس في فرانسا حيث قتل جمهورٌ غفير من البروتستانت فكان امتداد المعتقد البروتستانتي سببًا لمقاومات وحروب كثيرة في اوروبا وكان اكثرهم جرمانيين وفرنساويين وهولانديين فكانوا يتركون بلادهم ويذهبون للاحتماء في اماكن مختلفة اخصها انكلترا لان اليصابات كانت تحمي كل من استجار بها من هذا القبيل وادخلوا معهم جملة من الصنائع والفنون مما كان مجهولاً او غير متقن في انكلترا فكان ذلك من جملة اسباب التقدم والنجاح . وفي مدة حكم اليصابات ادخل الهولانديون الشاي الى انكلترا والجرمانيون الساعات وادخل احد امراء الانكليز التبغ والبطاطا وسنة ١٥٨٠ عملت المركبات وفي سنة ١٦٠٠ تشكلت شراكة الهند الشرقية التي كانت سببًا لادخال كل تلك البلاد في طاعة بريتانيا الى الآن هذا ما عدا التآليف العديدة وترجمة الكتب الكثيرة التي اتى بها رجال ذلك العصر ثم توفيت هذه الملكة في سن السبعين وتركت الاسف والحزن لشعب الانكليز اذ لم يقم قط في انكلترا من يسوس البلاد مثل تلك الجليلة

الباب السابع

في تملُّك عائلة استوارت

ان اصل ملوك هذه الدولة من اسكوتسيا وكانت اكثر ايامهم عديمة الراحة والانتظام من جرى النزاع والمشاجرات المستطيلة التي كانت تحدث من الشعب ضد السلطة المطلقة سواءٌ كان من طرف الحكام ام من طرف الامراء العظام الامر الذي كان قد اقلق المملكة وافقد المجلس نفوذهُ الشرعي وفي اثناء تلك المشاجرات انتقلت الحكومة مدةً من حالة الملكية الى حالة المشيخة تحت رياسة اوليفر كرومويل كما ستقف عليهِ . وبعد موت اليصابات خلفها جمس استُوارت وهو اول ملوك انكلترا بهذا الاسم والسادس في اسكوتلاندا وكان ابتداء حكمهِ سنة ١٦٠٣ وكان السبب في انتخابهِ ملكًا هو ان اليصابات عند موتها كانت قد اقرَّت لهُ بالخلافة من بعدها لانهُ كان ابن ابن ابنة هنري السابع ملكة اسكوتسيا التي قطعت اليصابات راسها . ومن ذلك الوقت انضمت اسكوتسيا الى بريتانيا العظمى وصارتا تحت حكم ملك واحد

وكان هذا الملك حاذقًا اديبًا نجيبًا بارعًا في العلوم والمعارف محبًّا للمطالعات وقد أَلف كتبًا عديدة مفيدة وكان متمكنًا في اللغة العبرانية واليونانية واللاتينية مغرمًا بالتكلم بها حتى ان وزراءهُ كان يصعب عليهم احيانًا كثيرة ان يفهموا معنى كلامهِ واما هو فكان يحسب نفسهُ من درجة سليمان في الحكمة . وفي ايامهِ حاول بعض الباباويين احراق مجلس البارلمان بمن فيهِ بغضًا للبروتستانت الذين كانوا يزدادون ويتقدمون بمقدار ما كان اولئك ينقصون ويتأخرون فصنعوا كمينًا وضعوا فيهِ ٣٥ برميلاً من البارود وبينما كانوا يترقبون فرصةً مناسبةً لاتمام هذا العمل اكتشف الملك جمس على هذه المكيدة فبادر في الحال وارسل حراسًا

يراقبون اعمال المشتركين في تلك الدسيسة فوقعت يدهم على رجل اسمهُ كاي فوكس وهو في نفس المكان حيث كان البارود موضوعًا فقبضوا عليهِ واحضروهُ امام الملك واخذوا يستنطقونهُ فاعترف بحقيقة الحال واقرَّ عن ثمانين رجلاً من رفقائهِ فاحضرهم الملك وحكم عليهم جميعًا بالموت . وكان لجمس صفة حميدة نادرة الوجود عند الملوك بنوع الاجمال وهي انهُ كان مبغضًا للحروب ولذلك قضى مدة حكمهِ في السلم وتحسين احوال الرعية ومات سنة ١٦٢٥ وخلفهُ ابنهُ كارلوس الاول

وكانت مدة كارلوس متعبة اكثر من زمان ابيهِ وذلك لانهُ كان وقتئذٍ كثيرون من البروتستانت يقاومون كنيسة المملكة والاساقفة لاجل تشبثهم وتمسكهم بالاحتفالات والعوائد الرومانية التي بقيت من بعد خلع الاعتقاد الكاثوليكي . وجانب اخر من الشعب كان يعتقد بان ملوك انكلترا لهم سطوة اكثر من اللازم ولذلك قصدوا ان يضعوا حدًّا لهذه السلطة وان يجعلوا الملك يملك لا لاجل مجرَّد انشراحهِ ومجدهِ بل لاجل خير الشعب . واما كارلوس فلم يخضع لهذه الاعتقادات والتصورات حاسبًا ان عامة الناس خُلقوا لاجل تسلط الملوك عليهم فقط . ففي بداءة حكمهِ اثار اضطهادات على الطائفة الانجيلية ولم يسمح لاحدٍ من قسوسهم ان يباشر وعظًا ولا للشعب ان يحضروا الى الكنيسة لاجل استماع الوعظ وضايقهم كثيرًا لكنهُ لم يجسر ان يامر بحرقهم بالنار كما فعلت الملكة مريم فسافر كثيرون منهم الى اميركا طالبين حرية الدين وكان يوحنا همبدين ويوحنا پيم واوليفر كرومويل وغيرهم من الذوات المشهورين قد صمَّموا على السفر الى اميركا فمنعهم الملك فصاروا بعد حين اقوى اعدائهِ

وكان البارليمنت (مجلس الامة) الى حين حكم كارلوس الاول لم يجسر اعضاؤُهُ قط على مقاومة ارادة الملك واما الآن فوقع بينهم وبين كارلوس مشاجرات مستديمة واصرُّوا على حفظ حقوقهم وكرامتهم وعدم اطلاق العنان للملك فكان ذلك سببًا لعزلهم من مناصبهم وتولية خلافهم ومما يستحق الاستغراب

انهُ كلما اقام الملك مجلساً جديداً وجد مقاومة من اعضائهِ اشد من سلفائهم لان روح الحرية كان قد تمكَّن في صدور العامة والنور كشف عن بصيرتهم رداء الاستعباد لارادة شخص مطلق التصرف . وما زال الحال يزداد يوماً فيوماً حتى لم يبقَ وجه لصرف هذا المشكل بالكلام فتسلح الفريقان ونهضا لمحاربة بعضهم بعضاً وكانت اكثرية عظماء انكلترا واسكوتلاندا واساقفة الكنيسة الانكليزية واكليروسها مع جميع شبان المملكة الفطاحل متحزبين للملك كارلوس واما حزب المجلس فكان بعض الشرفاء والاكثرون كانوا من اهل الصنائع وعامة الشعب فعزم هولاء على مقاومة الملك وحزبهِ وصمموا انهم لا ينثنون عن عزمهم ولو صرفوا جميع اموالهم فابتدأَت الحرب بين الفريقين سنة ١٦٤٢ وحدثت مواقع كثيرة بينهما جرت فيها الدماء كالغدران وكان من جملة المتحزبين للمجلس رجل يقال لهُ اوليفر كروموبل من عائلة معتبرة موصوفاً بالشجاعة وعلو الهمة فنهض لمقاومة الملك واعوانهِ وعيَّن على نفقة نفسهِ الايًا من العساكر الجهادية كان هو مدبرها ورئيسها فنجح في اعمالهِ واشتهر في مواقعهِ حتى ارتقى الى رتبة فريق ولامر يريدهُ الله انتصر في موقعتين عظيمتين احداهما في مارستين مور سنة ١٦٤٤ والاخرى في ناسبي سنة ١٦٤٥ فالتزم الملك كارلوس ان يسلم نفسهُ لاحكام القضاء والقدر اذ لم يجد امكاناً للتخلص من ايدي مقاوميهِ فقبض عليهِ اوليفر كروموبل والقاهُ في قصرهِ تحت الترسيم واخذ كروموبل من ذلك الحين يوجّه افكارهُ وآمالهُ الى الجلوس على سرير المملكة فاستعمل لذلك الوسائط المناسبة واستمال اليهِ قلوب العساكر وقواد الجيوش ثم اشتغل في اقناع المجلس ان يحكم بقتل الملك كارلوس واذ راى كثيرين منهم لا يوافقونهُ في هذا الراي وضع السيف في اعناق البعض ونفى البعض منهم ولم يبقِ في المجلس الاَّ من كان موافقاً لهُ ولما تمَّ لهُ ما اراد اقام محاكمة كارلوس بحضور اعضاء المجلس فوجد خائناً مستحقاً الموت فاضطرب الشعب من هذا الحكم واستعظموهُ ولكن لم يستطع احد ان يحرّك ساكناً لان هيبة كروموبل وسطوتهُ كانتا كافيتين لمنع

العصاوة والشقاق . فعند ذلك امر باحضار الملك من قصرهِ الى محل القتل فأُتي بهِ في ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٦٤٩ حيث كان موضوعًا قطعة من خشب والجلَّاد ببلطتهِ واقفًا بالقرب منها وعساكر كروموبل وقوفًا بسلاحهم حولهُ فتقدم الملك نحوهم بكل ثبات وهدو وقال لقد نزعوا عني تاجي الذي يفنى ولكنني ذاهبٌ لانال تاجًا لن يفنى ثم جثا على ركبتيهِ وصلَّى ثم التفت نحو الشعب وودعهم وبعد ذلك وضع عنقهُ على تلك الخشبة المذكورة فرفع الجلَّاد بلطتهُ وقطع بها راس الملك . وكان الملك قد ترك ولدًا ذكرًا فخاف كروموبل من عاقبة امرهِ لئلَّا يهيج الشعب ثانيةً ويدَّعي بالارث فبادر في الحال باجراء التفتيش عليهِ ليهلكهُ فعثرت بهِ الجنود وهو مع زمرة من المتحزبين لهُ فاحاطوا بهِ وضايقوهُ ولكنهُ اخيرًا تخلص من بين ايديهم وهرب

فلما خلت كرسي مملكة انكلترا من ملكٍ او وليِّ عهد تجمع عظماء الشعب واكابر الاشراف واقاموا عليها مدبرًا ورئيسًا كروموبل المذكور واطلقوا عليهِ اسم محامي انكلترا وسموا حكومتهم الحالية بالجمهورية فكان كروموبل يتعاطى مهام الاحكام ورياسة الجيوش فارتفع قدرهُ وانتشر ذكرهُ ووقعت هيبتهُ في قلوب الناس وما زالت سطوتهُ تمتد في البلاد حتى انهُ في اقرب وقت استولى على زمام المملكة فنفر اعضاء المجلس الكبير من هذا الامر واعترضوهُ على ذلك اما هو فلم يلتفت اليهم بل عزلهم في الحال واقام اناسًا غيرهم ممن كان يأْتمنهم ويعتمد عليهم الَّا انهم لم يقوموا بوظائفهم اكثر من خمسة اشهر حتى استعفوا جميعهم فقبل استعفاءهم حالاً اذ كان ذلك اعز مشتهاهُ وغاية متمنَّاهُ

وسنة ١٦٥٤ نودي بهِ السيد المحامي لجمهورية انكلترا وبقي متقلدًا ذلك المنصب مدة اربع سنوات وكان حاكمًا حازمًا ذا اقتدار وسطوة مهيبًا مكرمًا من اهل المملكة وسائر الدول وكان دائمًا لابسًا درعًا تحت ثيابهِ خوفًا من غدر اعدائهِ واستمر كذلك الى ان مات محمومًا سنة ١٦٥٨ وهو في سن التسع والخمسين وخلفهُ ابنهُ ريكاردس في نفس المنصب ولكنهُ لم يكن كفوءًا لهُ واذ لم

يمكنهُ ان يجعل اهل المملكة تنقاد لاوامرهِ خلع نفسهُ من الوظيفة فاصبحت الحكومة في قلق واضطراب واشتاق الشعب الى ترجيع سليلة ملوكهم ظانين ان الحكومة لا تنجح ثانية الاَّ تحت زمام احكامهم وكان الجنرال جورج منك اول رجل ذي سطوة وهيبة في العسكرية بعد موت كروميل المذكور فدعا بكر كارلوس الاول للرجوع الى بلادهِ ووعدهُ بمساعدة العسكر لهُ لأجل تسميتهِ ملكًا وكان هذا الامير المنفي قد صرف زمان غربتهِ في اماكن مختلفة في اوروبا واتصل الى ادنى درجة من الفاقة فاسرع بالرجوع الى انكلترا ودخل مدينة لندن بكل عزٍ واكرام ففرح الشعب بقدومهِ وتوَّجوهُ سنة ١٦٦٠ ولقبوهُ بكارلوس الثاني ولما استبدَّ بزمام الاحكام وصفت لهُ الايام امر بشنق كثيرين من الاشخاص الذين تداخلوا بقتل ابيهِ الملك السابق ثم اخرج جثة اوليفر كروميل من مدفنها وامر بتعليقها على المشنقة ثم اعادها الى مكانها

وكان كارلوس الثاني هذا قد عاش عيشة رخية مدة نفيهِ وعند جلوسهِ على كرسي المملكة استمر على ما كان عليهِ وصرف اكثر ايامهِ ولياليهِ في شرب الخمر وفي قضاء شهواتهِ الدنية . واتفق سنة ١٦٦٥ ان انكلترا اقامت حربًا على هولاندا مدَّعيةً انها تتعرض لتعطيل تجارتها فارسلت عمارة بحرية تحتوي على ١١٤ قطعة حربية تحت رياسة الدوك يورك اخي الملك وعند وصولها الى تلك الاطراف اشتبك القتال بين الطرفين في ٢١ نيسان من السنة المذكورة كان النصر فيها للانكليز ثم في السنة نفسها حدث وباء عظيم في مدينة لندن اهلك تسعين الف نسمة من الاهالي في سنة واحدة ثم اعقبهُ حريقة مهولة احرقت ثلاثة عشر الف بيتٍ من المدينة ولم تؤثر هاتان الضربتان ادنى تاثير في الملك بل استمر على حالتهِ المعهودة . وكان قد سلم زمام الاحكام بايدي اناس من اهل الشقاوة عديمي المعرفة والشفقة حتى ان الديانة والفضيلة حسبتا خيانة ورذيلة في مدة حكمهِ . وقد حدثت موقعتان اخريان بين انكلترا وهولاندا كانت الدائرة فيها على الانكليز واخيرًا وقع الصلح بين الدولتين وصار امضاء المعاهدة

في بريدا في ١٠ تموز سنة ١٦٦٧ وفي تلك المعاهدة اعطت هولاندا لانكلترا مدينة نيويورك من ممتلكاتها في اميركا وكان مقصد انكلترا في اتحادها مع هولاندا ان تقاوم مطامع فرانسا في افتتاحاتها فارسلت قاصدًا من طرفها الى هولاندا وعقدت معها صلحًا واشترك معهما في هذا الاتحاد مملكة اسوج ونروج فسمي ذلك الاتحاد المثلث . ومن سياسة هذا الملك المقوتة انهُ ابطل بعض شرائع المملكة بدون مخابرة المجلس واقام خمسة نواب من اشراف المملكة للقيام بمهام المملكة وتأييد سلطتهِ المطلقة بدون التفات الى البرليمنت فعقد هولاء عهدًا مع لويس الرابع عشر ملك فرانسا على حرب هولاندا برًّا وبحرًا ونهب اموالها وابادة مشيختها فلم يصدق الهولانديون هذا الخبر ولكنهم تحققوهُ عندما اشهر الملك كارلوس الحرب عليهم سنة ١٦٧٢ باتحاد فرانسا فكان هذا الامر يُعدّ من اعظم العيوب نظرًا للمعاهدات التي كانوا قد اتفقوا عليها . ومن ثمّ انتشبت الحرب بحرًا بين العمارة الانكليزية والعمارة الهولاندية وكانت العمارة الفرنساوية هناك فلم تاتِ الانكليز بالمساعدة المطلوبة وبعد عدة وقائع انسحبت عمارة هولاندا من ميدان المعركة ولم تتبعها عمارة الانكليز فكانت غلبة غير كاملة ثم بعد ذلك غزا الفرنساويون هولاندا برًّا واضروا باهلها ضررًا جسيمًا كما سنذكر ذلك منفصلاً في محلهِ . واذ لم تجنِ انكلترا ثمرة من هذه الحروب الّا هلاك رجالها وصرف اموالها ونبّه المجلس اعمال الملك على سوء تصرفهِ بتلك السياسة وعلى ابطالهِ شريعة قصاص مخالفي الاصلاح الديني فان العامة اعتبرتهُ محبةً للباباويين وتعدّيًا على حقوق المجلس في ابطال شيء كان قد عقدهُ فسلم الملك لدعوى المجلس وابطل مجلس النواب المذكور ثم عقد الصلح مع هولاندا وزوج ابنتهُ مريم بالبرنس وليم اورانج الهولاندي لتوطيد روابط المحبة والاتحاد . وكان قد حدث جملة اضطرابات في داخلية البلاد من جهة الدين والدنيا لم يتصرف بها كارلوس التصرف الحسن واستمر على حالتهِ الى ان مات سنة ١٦٨٥ وخلفهُ اخوهُ جمس الثاني

وكان جمس المذكور كاثوليكيًّا في اعتقادهِ ولم يكن اهتمامهُ الاَّ في كيفية ارجاع شعب بريتانيا العظمى ثانيةً تحت سلطة بابا رومية وبهذا العمل جلب على نفسهِ بغض رعاياهُ حتى رذلوهُ واحتقروهُ وحقدوا عليهِ وصمموا على عزلهِ ليتخلصوا منهُ ثم هاجت منهم العظماء والاشراف ودعوا وليم برنس اورانج لياتي من هولاندا ويصير ملكًا عليهم ولم يكن لهذا البرنس حقٌّ بالتملك غير انهُ كان قد تزوج بابنة اخي هذا الملك كما سبقت الاشارة فحضر وعند وصولهِ الى انكلترا بادر الناس لاستقبالهِ وجاءوا بهِ الى القصر الملكي بموكب عظيم فبايعوهُ بالملك وتوَّجوهُ مع امراتهِ سنة ١٦٨٩ تحت لقب الملك وليم الثالث والملكة ماري . واما جمس فكان قد فرَّ هاربًا الى فرانسا وكان بعض احزابهِ يحاولون ان يعيدوهُ ثانيةً الى كرسي المملكة ولكنهم لم ينجحوا في ذلك فهذا التغيير الذي حدث في المملكة يسمى اعتياديًّا بثورة سنة ١٦٨٨ الجيدة . ومن ذلك اليوم صار وضع بعض النظامات والقوانين لاجل تقييد السلطة الملكية وتثبيت الشرائع المسنونة والتي تُسَنّ ومن جملة تلك القوانين انهُ لا يباح بالتاج الملكي لاحد الاَّ لمن كان بروتستانتيًّا . وفي تلك الاثناء اضطرَّت المملكة الى قرضة دراهم لاصلاح لوازمها فتناولتهُ من اغنياء بلادها وكان ذلك اول دين على الدولة فتشكل لاجلهِ سنة ١٦٩٤ البنك المعروف ببنك انكلترا وهو البنك الباقي الى يومنا هذا . اما وليم فاكبَّ على اصلاح داخلية البلاد واخماد الفتن فنمت في ايامهِ الاقاليم البريتانية وزهت ومن ذلك الحين اخذت تجارتها تمتد من خارج وصنائعها من داخل . ومما ساعد ايضًا على هذا التقدم هو ما حدث في فرانسا في مثل ذلك الوقت في ايام ملكها لويس الرابع عشر عند الغائهِ المنحة المعطاة للبروتستانت من جدهِ هنري الرابع في ممارسة امور ديانتهم بلا معارض فانهُ عند ذاك اتى واستوطن في انكلترا خمسون الفًا من المهاجرين الفرنساويين وكان اغلبهم من ارباب الصنائع والمهن فاقاموا فيها الاشغال معلمين ما كان مجهولاً ومساعدين في ما كان جاريًا فامتدت بواسطتهم دائرة الاعمال والفنون ولتقدم انكلترا اسباب

اخر كثيرة لا يسعنا ذكرها . وإذ كان هذا الملك الفاضل مغرمًا في الصيد كان ذلك سببًا لتعجيل موتهِ فانهُ وقع عن جوادهِ يومًا ما في سنة ١٧٠٢ وهو يصطاد ومات بعد ذلك بشهر وكانت الملكة قد توفيت قبلهُ بعدة سنين

ثم تبوأَ بعدهُ تخت المملكة حنة ابنة جمس الثاني وكان حكمها حكمًا مجيدًا لانكلترا وفي ايامها انتصرْ الدوك ملبروك الشهير في وقائع مشهورة على الفرنساويين وكان ذلك بالاتحاد مع هولاندا والنمسا لاجل تنكيس سطوة فرانسا التي ارادت ان تقيم ملكًا على اسبانيا احد اعضاء ملوكها . وكان اشهر تلك الوقائع حرب بلينهيم حيث كانت خسارة الفرنساويين مع حلفائهم اهل بافاريا ٣٥ الفًا وفقد الماريشال تاللار واما خسائر الانكليز وحلفائهم فكانت ١٢ الفًا. وفي أيام هذه الملكة أُخذ حصن جبل طارق سنة ١٧٠٤ من الاسبانيوليين وهو اعظم حصن في العالم ويعتبر مفتاحًا للبحر المتوسط وقد اجتهد الاسبانيوليون والفرنساويون مرارًا عديدة على اخذهِ من ايدي الانكليز فلم يستطيعوا . واشتهر عصر الملكة حنة بوجود العلماء والفلاسفة المشهورين مثل نيوتون ولوك وميلتون وبنيان ودريدن الذين عاشوا وقتئذٍ والفوا مؤلَّفات عديدة في الفلك والهندسة والشعر والديانة وغير ذلك وبواسطتهم امتدت العلوم والفنون في اقطار المملكة وفي العالم اجمع . واستبدت الملكة حنة بالتصرف الملكي مدة ١٢ سنة وماتت سنة ١٧١٤ ولها من العمر ٤٩ سنة وكانت هي آخر من ملك على انكلترا من عائلة استوارت الذين كانت بداية احكامهم على مملكة الانكليز سنة ١٦٠٣

الباب الثامن

في ملوك بريتانيا العظمى من عائلة هانوفر

وكان الملك جمس المنفي قد توفي في فرانسا سنة ١٧٠١ وخلف ابنًا هناك

فتعصب لهُ لويس الرابع عشر ملك فرانسا وتوّجهُ ملكًا على انكلترا فلقبهُ شعب الانكليز بالمدعي اذ كانوا مصممين على عدم قبولهم ملكًا كاثوليكيًا عليهم . وكان اقرب وريث بروتستانتي للملكة حنة اميرٌ الماني من آل هانوفر امهُ ابنة جمس الاول وعمرهُ يومئذٍ ٥ سنة فنودي بهذا الامير ملكًا على انكلترا تحت لقب جورج الاول وهو اول ملك من العائلة الهانوفرية ولم يكن يعرف اللغة الانكليزية ولا شيئًا عن احوال المملكة التي كان مزمعًا ان يتقلد زمامها. فصرف اكثر اوقاتهِ في هانوفر لانهُ احب وطنهُ محبة شديدة ولم يكن لهُ ميل ورغبة في السكن في قصر ملوك الانكليز. وفي ايام هذا الملك حدث جملة حروب مع اسبانيا لانها ارادت ان تمنع اتصالية التجارة الانكليزية مع تملكاتها الاميركانية وان تستخلص منها جبل طارق فلم تنجح ولا في واحدة منها ثم مات سنة ١٧٢٧

وخلفهُ ابنهُ جورج الثاني الذي ولد ايضًا في جرمانيا وكان في حياة ابيهِ متقلدًا رياسة العساكر الانكليزية . وفي ايامهِ كانت الحرب مع اسبانيا لا تزال سائرة على قدم الاسراع فانتصر جورج في موقعة دتنجن ولكنهُ خسر في موقعة فونطينوي ثم حارب الفرنساويين لاتحادهم مع اسبانيا وانتصر عليهم . وسنة ١٧٤٥ حاول ابن جمس الثاني ان يعيد اليهِ تاج آبائهِ فتجهز بجيشٍ قليل مؤلف من فلاحي اسكوتلاندا وتقدم الى نحو انكلترا ولكنهُ لم ينجح في مشروعهِ واضطرَّ اخيرًا الى الفرار ووقعت جموعهُ في ايدي الانكليز فقتلوهم عن اخرهم. ثم في سنة ١٧٥٠ انتشبت الحروب ثانيةً بين الفرنساويين والانكليز بسبب تملكاتهم الاميركانية فان كلاًّ من الدولتين ارادت استخلاص تملكات الدولة الاخرى والسيادة في تلك الاقطار. وكان وقتئذٍ في وزارة انكلترا وليم بتّ الشهير بالسياسة وحسن التدبير فجعل انكلترا تتحد مع بروسيا وتساعدها في الحروب القائمة وقتئذٍ بينها وبين اوستريا وروسيا بسبب بولونيا وبعض املاك جرمانية واذ كانت فرانسا من المتحالفين ضد بروسيا التزمت عند ما رأت معاضدة انكلترا لفريدريكوس الكبير ان تزيد قوتها العسكرية في اوروبا لمقاومة المتحالفين فنتج

عن ذلك ضعفها في اميركا وكان ذلك غاية مراد وليم بت فاغتنم الانكليز الفرصة المناسبة وجرى بين الطرفين عدة وقائع مهولة في اميركا انتصرت فيها الانكليز واستولت عساكرها على مدينة كويبك تحت قيادة الجنرال ولف وعلى مقاطعتي كندا اللتين كانتا من تملكات الفرنساويين واضافتها الى املاكها الكثيرة فصارت كلّ البلاد المتحدة تملكات انكليزية . وبعد نهاية هذه الحروب بمدة وجيزة توفي جورج الثاني ولهُ من العمر ٧٧ سنة

ثم قام بعدهُ ابنهُ جورج الثالث سنة ١٧٦٠ ولهُ من العمر نحو ٢٣ سنة وكانت احوال المملكة وقتئذٍ جيدة جدًّا فتراكمت عليها مصائب شتى حتى انهُ كان خيرًا لهُ لو مات يوم تتويجهِ . وكان عاقلاً حكيمًا ذا سيرة حسنة يُعدُّ من افضل عموم الملوك ولكنهُ كان عنيدًا بهذا المقدار حتى انهُ كان احيانًا كثيرة يرفض مشورة من كانوا احكم منهُ . وفي ايامهِ حدثت الثورة الاميركانية واستقلت تلك المملكة العظيمة وخلعت طاعة الانكليز كما سياتي تفصيل ذلك عند ذكر اخبار دولة اميركا وتظاهرت فرانسا بمساعدة الاميركان ومقاومة الانكليز واغتنمت اسبانيا ايضًا تلك الفرصة لاستخلاص جبل طارق من ايدي الانكليز فلم ياتها ذلك بادنى فائدة لمهارة وبراعة واليها اليوت الشجاع المشهور الذي دفع عنها مصادمة العدو بشرف جزيل . وبسبب بعض تعصبات دينية في مدينة لندن بين الكاثوليكيين والبروتستانت حصل نوع من الهيجان بواسطة التحزب فاخذ البعض يحرق بيوت البعض فكانت ٣٦ حريقة في وقتٍ واحد في كل اطراف المدينة . وسنة ١٧٩٨ تظاهرت ايرلاندا بالعصاوة وكان السبب في ذلك استقلالية اميركا وجمهورية فرانسا فهيجتا فيها الرغبة والاشتياق الى الاقتداء بهما ولكن اذ لم يكن بين شعبها روح الحزم والانضمام بسبب اختلاف المذهب ولم يوافق البروتستانت الكاثوليكيين على مشروعهم تحولت تلك السياسة الى قضية دينية بين الطرفين

وقد اشتهر في ذلك العصر الاميرال نيلسون احد روساء العمارة الانكليزية

بانتصاراتهِ الكثيرة منها غلبتهُ في ابي قير على العمارة الفرنساوية التي جاءت بنابوليون وجيوشهِ لافتتاح الديار المصرية والتقدم على الولايات الانكليزية الهندية فوافاها في ٢١ آب سنة ١٧٩٨ واصطلت نيران الحرب بين الطرفين وكانت القوة متساوية وفي اقل من ست ساعات انتصر عليهم انتصارًا كاملاً ولم يسلم من سفن الفرنساويين التي كانت سبع عشرة قطعةً غير اربع فقط فانها فازت بالفرار والبقية أُسرت وحُرِقت وكان من جملتها مركب الاوريان المعروف بمركب نصف الدنيا فان لهيبهُ حوَّل ظلام الليل الى نهار واذ كانت رجالهُ في اشد الضنك والخطر ارسل لهم نيلسون القوارب وخلصهم . وفي اثناء هذه المعركة أُصيب نيلسون برصاصةٍ في جبهتهِ ولكنها لم تكن قاتلة. وكان هذا الاميرال المذكور من عجائب الدهر ذكاء وفهمًا وشجاعةً لا يبالي بالاخطار ولا يقدر العواقب وقد ارتقى الى هذا المنصب الرفيع بمهارتهِ ودرايتهِ لانهُ كان من عائلة خاملة الذكر. ومما يستحق ان يحكى انهُ كان بعينٍ واحدة ويدٍ واحدة فقدهما في بعض وقائعهِ السابقة وكان من اشد الناس بغضًا للفرنساويين حتى انهُ اصطنع لنفسهِ تابوتًا من خشب السفينة المدعوة بنصف الدنيا واوصى ان يُدفن بهِ عند موتهِ وهذا من اغرب الامور

وسنة ١٨٠١ اتحدت دولة الدنيمارك مع دولة اسوج ونروج على حرب الانكليز بحرًا وكان ذلك باتفاق وراي روسيا وفرانسا فجهزت انكلترا عمارة بحرية وارسلتها الى بحر البلتيك تحت رياسة سارهيد باركر وكان نيلسون حينئذٍ متقلدًا الرياسة الثانية فلما اشرفا على خليج مدينة كوبنهاجن عاصمة الدنيمارك وجدا تحصينات قويةً جدًّا برًّا وبحرًا تمنعها عن العبور في ذلك الخليج نظرًا لكثرة حصونهِ وقلة مائهِ فولج سارهيد باركر الاميرال نيلسون ان يتعاطى امر الهجمة فامر نيلسون بفتح البناجر واطلاق النار من بعد ما قسم مراكبهُ الى فرق ورتب كيفية المعركة فاشتبك القتال بين الفريقين واضطرمت نيران الحرب وصعد لهيبها على نوعٍ مهول جدًّا حتى انَّ نيلسون عند اجتماعهِ بولي العهد بعد هذه

الواقعة قال انهُ في المئة وخمس مواقع التي حضرها لم يشاهد قتالاً مريعًا مثل ذلك القتال نظرًا لعدم وجود عمق كافٍ والتزام المراكب ان تتقدم الى قدام لكي تتمكن من العدو. وما زالت الحرب قائمة على قدم وساق حتى مسَّت بعض سفنهِ القاع ولم يعد يمكنها الحركة فخسر نيلسون في اثناء ذلك ربع قوتهِ ووقع في خطرٍ عظيم فحينئذٍ رفع لهُ سارهيد باركر علامة الرجوع خوفًا من حلول الاذى عليهِ واما نيلسون فلما أُخبر بان الرئيس الاول يدعوهُ للانسحاب انتزع النظارة ووضعها على عينهِ العوراء ووجهها نحو الاشارة وقال اني لا ارى شيئًا مما تقولون فابقوا راية الحرب منتشرة وواظبوا على اشغالكم ثم رجع الى ما كان عليهِ من تشديد الحرب والهجوم على الاعداء حتى اعدم جملة من مراكب الاعداء ونكس راياتهم وضعضع احوالهم وبعد انتصارهِ هذا عليهم عقد معهم صلحًا تحت شروط معلومة. ومن ذلك الوقت ارتفعت منزلة نيلسون ووقعت محبتهُ في قلوب رجال الدولة الانكليزية فسموهُ لوردًا وقلدوهُ رياسة البحر العمومية. ثم توفي هذا البطل سنة ١٨٠٥ في حرب ترافلكار الشهيرة عند ما تعاضدت فرانسا واسبانيا ضد انكلترا فالتقاها نيلسون بسبع وعشرين قطعة حربية بينما كانت عمارة العدو ٤٠ قطعة. وكان نيلسون قبل وقوع الحرب قد دخل الى غرفتهِ فكتب وصيتهُ ثم صعد الى ظهر المركب واعطى اشارةً لباقي ضباط المراكب يحثهم على الحرب ويعلمهم بان انكلترا تنتظر في ذلك اليوم من كل رجلٍ من رجالها ان يقوم بحق خدمتهِ ويعمل ما يتوجب عليهِ ثم امر باطلاق القنابر والمدافع فاطلقت في الحال واشتد بين الفريقين القتال وكان نيلسون لسوء حظهِ لابسًا كل نياشينهِ فجلب عليهِ ذلك مراقبة خصوصية من طرف الاعداء. وكان بجانب بارجتهِ سفينة فرنساوية على مسافة عشرين ذراعًا فقط فاطلق عليهِ احد جنودها رصاصةً اصابت ظهرهُ فكسرت العظم وجرحتهُ جرحًا بليغًا فوقع مغشيًا عليهِ فنقلوهُ الى غرفتهِ ثم افاق وهو على اخر رمق فاستدعى القبطان اليهِ فلم يحضر الاَّ بعد خمسين دقيقة لانهُ كان منهمكًا في ادارة الحرب ولم يمكنهُ ان يترك مركزهُ الاَّ بعد نهاية المعركة

فدخل عليهِ ليهنيهُ على الانتصار التام الذي انتصرتهُ انكلترا في ذلك اليوم فسالهُ نيلسون ان يعلمهُ عن عدد المراكب الماخوذة من الاعداء واذ لم يكن بعد واقفًا على حقيقة عددها قال ليست هي باقل من ١٤ او ١٥ فاجاب نيلسون جيدًا ولكنني كنت اشرطت على نفسي عشرين مركبًا وبعد ذلك الوقت بساعتين اسلم الروح وهو يقول انني لمرتضٍ ومسرورٌ اذ تممت ما عليَّ. ومن ذلك الوقت تلاشت قوة نابوليون البحرية ولم يقم لها قائم بعدُ

ولكن مع ذلك لم تزل انكلترا في خوف واحتساب من سطوة ذلك الجبار العنيد فكانت تراقب خطواتهِ وتنتهز كل فرصة لتضعفهُ وتكسر شوكتهُ فساعدت ملك نابولي عليهِ برًّا وخوفًا من ان نابوليون يستعين عليها بمراكب الدنيمارك ارسلت عمارة قوية فضربت كوبنهاجن واخذت مراكبها الحربية رهينةً بشرط انها ترجعها لها عند ما يتم الصلح العام في اوروبا

فبينما كانت انكلترا تكتسب مجدًا وفخرًا من خارج بواسطة انتصاراتها العديدة وتوسيع تملكاتها وتوطيد قواعد حكمها في الهند كانت من داخل تزداد نموًّا ونجاحًا وغنى بواسطة تقدم المعامل وسائر الصنائع فصار يمكنها غزل القطن وبيعهُ باثمان بخسة اذ لم يمكن لاحد غيرها ان يسابقها على ذلك فصارت رئيسة سوق العالم في السطوة والتجارة هذا فضلاً عن تقدمها بالاختراعات الميكانيكية وبالاستخراجات الكيماوية وفي اصلاح الطرق الكثيرة وايجاد العربات العمومية لتسهيل منقولاتها في داخل البلاد وفي فتح الترع الكثيرة حتى انهُ في ظرف اربعين سنة فتحت مئة وخمسًا وستين ترعة هذا فضلاً عن عزمها الشديد في امتداد علومها واكتشافاتها الجديدة فانها اكتشفت شطوط اوستراليا وزيلاندا الجديدة التي قصدها كثيرٌ من الناس سنة ١٧٨٨ وسكنوها وغير ذلك من البلاد . واما العلوم والفنون فكانت سوقها في رواج لا مزيد عليهِ ولا سيما علم الهيئة الذي بواسطة نظارة الفيلسوف هرشل تقدم تقدمًا بليغًا وكذلك علم الكيميا بواسطة بريستلي وكافنديش . واما النقش والتصوير والشعر فقد بلغت

درجةً سامية وما يستحق الذكر اكثر من كل ذلك ابطالها التجارة بالعبيد

ولنرجع الآن الى ما كنا بصددهِ من اخبار الملك جورج المذكور فنقول انهُ كان قد اعتراهُ اختلال في عقلهِ ابتدأ فيهِ سنة ١٧٨٨ ودام معهُ عدة شهور ثم اشتد عليهِ الحال سنة ١٨٠٤ وما زال في ازدياد حتى اختلَّ بالكلية ولم يعد يعلم ما هو جارٍ في المملكة فتولج ادارة الملك ابنهُ الاكبر . وفي زمن وكالتهِ كسرت انكلترا شوكة بونابارت باتحاد بعض دول اوروبا ولا سيما في واقعة واترلو الشهيرة التي بها انقرض حكم نابوليون الاول وكان وقتئذٍ قائد جيوش الانكليز الدوك ولينتون الشهير الذي ذاع صيتهُ واشتهر في اقطار العالم بالبسالة والادارة الحربية والانتصارات العديدة في بلاد الهند واوروبا ولا سيما في واقعة واترلو المذكورة . ثم تتوج هذا الملك سنة ١٨٢٠ تحت اسم جورج الرابع ولم يحدث في ايامهِ من الامور المهمة سوى مداخلة انكلترا مع فرانسا وروسيا في اطفاء نيران الحرب التي كانت متقدة بين الدولة العثمانية والدولة اليونانية عندما نهضت طالبةً استقلاليتها . وسنة ١٨٣٠ توفي هذا الملك وخلفهُ وليم الرابع وفي ايامهِ اتسعت دائرة المعاملات التجارية وتحسنت احكام المملكة وصدرت نظامات جديدة مستحسنة اوقت الحكومة من الثورات الداخلية . وفي السنة الاولى من حكمهِ صار انشاء السكة الحديدية الاولى بين ليفربول ومانشستر . وسنة ١٨٣٤ صدر قرار المجلس الكبير باعتاق عبيد الهند الغربية واعطاء ساداتهم على سبيل التعويض مبلغًا قدرهُ ٢٠ مليونًا من الليرات الانكليزية

ثم خلف وليم الرابع فيكتوريا الملكة الحالية وذلك سنة ١٨٣٧ وهي ابنة الدوك كنت الابن الرابع لجورج الثالث تزوجت في ١٠ شباط سنة ١٨٤٠ بالبرنس البرت من جرمانيا . وفي ايامها حدث جملة حركات في تملكات انكلترا لا سيما في الهند لم تنل اصحاب المقاصد والغايات فيها مآربها بل اخمدت هذه الملكة نيرانها بالقوة الفائقة وامتدت سطوتها وهيبتها في كل جهاتها . وكذلك اشهرت الحرب على بلاد افغانستان واستولت عليها بعد وقائع هائلة . وقد

اشتركت ايضًا في محاربة الدولة المصرية واخراجها من الديار الشامية سنة ١٨٤٠ . وفي سنتي ١٨٤٠ و١٨٤١ حاربت بلاد الصين وفتحت الباب لدخول التجارة الانكليزية اليها . ثم حاربت الروسيين في القرم سنة ١٨٥٤ واستظهرت عليهم كما ذكرنا ذلك باكثر تطويل في اخبار الدولة العثمانية . واخضعت بلاد الهند عندما عصت عليها سنة ١٨٥٧ واستلمت زمام حكومتها من ايدي الشراكة التي كان قد صار لها فوق المئة سنة مستولية زمامها وبذلك انتظمت الاحوال نظامًا لا يشوبهُ فساد ونودي باسم فيكتوريا سلطانة الهند . ثم حاربت ثانيةً ملك الصين واجرت معهُ معاهدات افضل من الاولى يمكنها بواسطتها ان توصل تجارتها الى اقصى تلك البلاد وتزيد غناها. ثم حاربت المصريين وقت الثورة العرابية خوفًا على طريق الهند ودخلت مصر سنة ١٨٨٢ وما زالت فيها الى الآن ساعيةً في اصلاح شؤونها ولكنها سنبارحها بحال ايجاد الراحة فيها وبالاجمال ان احوال انكلترا في ايام هذه الملكة في غاية النجاح والاقبال من داخل ومن خارج ولذلك ترى رعاياها يحبونها ويعتبرونها ويثنون عليها وهي في الواقع تستحق ان تنظم في سلك اكابر الملوك العظام نظرًا لحكمتها وجودة رايها وحسن سياستها

الباب التاسع

في ذكر مقاطعة وَيلْس اي غال

ان الذي يزور هذه المقاطعة ويختلط مع شعبها لا يخطر في بالهِ قط انهُ موجودٌ في قسم من بريتانيا العظمى نظرًا لاختلاف اسماء مكانها ولغتها عن اسماء الانكليز ولغتهم ولكن اكثرهم في هذه الايام صاروا يتكلمون اللغة الانكليزية حتى ان لغتهم الاصلية كادت الآن تزول وتضمحل وهي اشبه باللغتين الايرلاندية

والغالية فهذا اكبر دليل وبرهان بان اهلها واهل ايرلاندا او جبال اسكوتلاندا هم من جنسٍ واحد. واما تاريخ ويلس القديم فهو مجهول غير معروف . ولما دخل الرومانيون الى بريتانيا كان سكان جبال ويلس اناسًا اشدّاء غلاظ الرقاب ماهرين في استعمال ضرب النبوت فدافعوا عن جبالهم ومواطنهم بشجاعة وبسالة لامزيد عليها فلم يتمكن الرومانيون من الاستيلاء عليهم . ولما اتى السكسونيون لحرب انكلترا اخضعوها باسرها ما عدا ويلس فانهم لم يتمكنوا منها الاّ على جانب صغير فقط وبقي القسم الاكبر منها مستقلاً تحت حكم امرائهم واشرافهم كما فعل سلفاؤُهم في زمن الرومانيين فيظهر ان اولئك الامراء كانوا ساكنين في قصور منيعة وحصينة كان الاهالي يحامون ويدافعون عن انفسهم فيها في زمن الحرب . ولم يزل اثار بعضها باقيًا الى الآن . وجاء الى ويلس في تلك الازمنة قومٌ من الغرباء فتوطنوا فيها واذ كانوا من الشعراء نظموا اشعارًا نفيسة وقصوا قصصًا تتضمن غارات ووقائع امراء وابطال ويلس فكان عامة الشعب يسر ويطرب من استماعها لتضمنها اخبار وحروب قوادهم ومواقعهم المهولة الدموية . وكانوا يدعون اولئك الشعراء الى قصور الامراء فيعيشون بكل رفاهية وسرور . وقد توصل اهل ويلس الى درجة قبيحة بهذا المقدار حتى انهم كانوا يدّعون النبوة نظرًا لسطوتهم وقوة بأسهم وشجاعتهم

ولا يخفى ان وجود عشيرة صغيرة مستقلة في جوار مملكة ذات شوكة عظيمة مما يصعب احتمالهُ عليها فلذلك رأت ملوك انكلترا ان السكوت عن هذه المقاطعة وعدم ادخالها تحت الطاعة والانقياد مما يشين شرفها ويحط مقام عظمتها فصممت على محاربتها وارسلت جيشًا عرمرمًا لقتالها واخضاعها فلم تتمكن منها الى سنة ١٢٥٨ حين كان ادورد الاول ملكًا على انكلترا واُوَين اميرًا على ويلس . فجهز ادورد عسكرًا جرارًا لحرب ويلس واذ كان شعراء ويلس يحبون الحروب الشديدة هيجوا امراء البلاد ليظهروا نشاطهم وشجاعتهم في تلك الوقائع وكان احد الشعراء قد اخبر اُوَين المذكور بانهُ سوف يسود ويتملك على

جزيرة بريتانيا ولذلك عندما اشرفت مواكب الملك ادوَرد على تلك الاطراف خرج للقائهِ الامير اوين بعسكرٍ قليل فانكسر وقتل ثم قام مكانهُ اخوهُ داود ودافع عن وطنهِ بكل بسالةٍ وبعد عدة وقائع انهزمت جموعهُ وتفرقت اما هو فوقع في اسر الملك ادورد فامر بشنقهِ . وبموتهِ انقرضت سلالة امراء ويلس وزالت استقلاليتها وصارت ايالةً انكليزية من ذلك اليوم. وكان الملك ادورد قد غضب على اولئك الشعراء بسبب تهييجهم الشعب ضدهُ فامر بجمعهم وقتلهم على ما قيل . واما الملك الذي قام بعدهُ فكان مولدهُ في ويلس واُعطي لقب برنس اوف ويلس المعروف ببرنس دي غال ومن ذلك الوقت الى الان صار هذا الاسم لقبًا لابكار ملوك انكلترا . واهل ويلس الآن يعتنون بزراعة ارضهم وبالصنائع المختلفة وفي بلادهم بعض معادن ثمينة من الفحم والحديد

الباب العاشر

في تلميح اخبار اسكوتلاندا اي اسكوتسيا

ان سكان اسكوتلاندا على ما يستفاد من التواريخ كانوا من الامة الغاليَّة والمظنون انهم من نفس الشعب الذي سكن بريتانيا وويلس وارلاندا في الازمنة القديمة وكانوا اصحاب سطوة وبأس حتى انهم قاوموا الرومانيين وحاربوهم عند هجومهم على بلادهم ولما تغلبت الرومان عليهم لم تتمكن قط من اخضاع اهالي الجبال وكانوا تضايقون الرومانيين بهذا المقدار حتى انهم التزموا باقامة سور من نواحي صلوى فريث الى نهر التين ليتخلصوا من مضايقتهم ومع كل هذه الاحتياطات لم يكن ذلك السور كافيًا لمنع تعديات احدهم على الآخر . وفي الجيل الثالث او الرابع اتى قوم من الغوثيين من اوروبا واستوطنوا في اسكوتلاندا في الاراضي الواطئة واستعملوا الزراعة وكانوا يعيشون منها . واما

الاسكوتسيون فكانت مساكنهم في الجبال وكانت معيشتهم بواسطة القنص وهكذا انقسم الشعب الى اهالي الجبل واهالي الوطا وكثيرًا ما وقع بينهما حروب ومنازعات ولم يزالوا على هذه الحالة نوعًا الى يومنا هذا

قيل انهُ سنة ٨٣٩ نهض كنث الثاني الذي كان من قواد اهل الجبال وحارب عشيرة البكت واخضعها وصار ملكًا على اسكوتلاندا وكان هو اول من استولى على تلك المملكة ومن ذلك الوقت الى زمن ادورد الاول ملك انكلترا قام ملوك كثيرون ولكن ليس في تواريخهم شيء مهم

وقد تقدم القول في تاريخ انكلترا ان ملكها ادورد الذي اخضع ويلس اثار حربًا على الاسكوتسيين وجهز جيشًا لاخضاع ما بقي من الايالات العاصية في اسكوتلاندا وكيف مات قبل انمام قصدهِ وذكرنا ايضًا عن كسرة ابنهِ ادورد الثاني في موقعة بانوكبرن على يد روبرت بروس سنة ١٣١٤ وكانت تلك الحادثة سببًا لتحرير اسكوتلاندا التي كانت ملوك انكلترا تتهددها . فمن ذلك العصر الى زمن جمس الخامس ليس في تاريخ اسكوتلاندا سوى حوادث حروب اهلية ومقاتلات شديدة مع انكلترا . اما جلوس جمس المذكور على كرسي المملكة فكان سنة ١٥١٣ ولهُ من العمر ١٣ سنة. وفي اخر ايامهِ مقتهُ الشعب ورذلهُ حتى لم يعد احد يطيع لهُ امرًا . فشق ذلك عليهِ وانتهت بهِ الحال الى انهُ امات نفسهُ جوعًا وعطشًا وهو ابن ٣١ سنة . وكان للمذكور ابنة اسمها ماري ولدت قبل موتهِ بايامٍ يسيرة فتسمت بعد ابيها ملكة تحت وكالة امها التي كانت قد ارسلتها الى فرانسا للتهذيب والتعليم . فاتقنت العلوم والاداب وبرعت فيها وفضلاً عن ذلك كانت على جانب عظيم من الجمال حتى قيل انها كانت اجمل نساء عصرها . ولما بلغت سن الست عشرة تزوجت باميرٍ فرنساوي صار ملكًا على فرانسا بعد زواجها بهِ بسنة واحدة وهو المعروف بفرنسيس الثاني ولسوء حظها لم تطل حيوة زوجها اكثر من ثمانية عشر شهرًا حتى توفي فالتزمت ان ترجع الى اسكوتلاندا حيث لبست تاج ابيها المحفوظ لها

ثم تزوجت برجل من اقاربها يدعى لورد هنري دارنلي فغار عليها واتهمها برجلٍ ايطالياني يسمى دافيد رينسيو كان مستخدمًا عندها بوظيفة معتمد وكاتم اسرار فاستدعى بهِ ذات يوم وقتلهُ بحضورها . واتفق بعد ذلك بايامٍ قليلة انهُ مرض مرضًا شديدًا فنقلتهُ من سرايتها الى قصرٍ منفرد خارج المدينة كان ملغومًا بالبارود ففي صباح ٩ شباط سنة ١٥٦٧ اشتعل ذلك القصر بالنار فالتهب البارود واقتلع ذلك البيت بمن فيهِ فكانت جثة الملك ممزقة ومطروحة في احد الحقول . فاستعظم الشعب ذلك الامر واتهموا بهِ اللورد بوثويل الذي كان تزوج بماري بعد تلك الحادثة بثلاثة اشهر وانهُ لم يُقتل الملك الاَّ بسعيهِ . فقام عليهِ البعض وارادوا ان يقتلوهُ فهرب الى نورمنديا حيث مات بعد عشر سنين . ومن ذلك اليوم وقعت بغضة ماري في قلوب الناس ولا سيما لتمسكها بالمذهب الكاثوليكي بينما كان الاصلاح قد امتد بين الاهالي فقاموا عليها واتفقوا على خلعها ولما علمت منهم ذلك بادرت في الحال وقصدت انكلترا خوفًا على نفسها من القتل والتجات الى الملكة اليصابات قريبتها ولسوء حظها عاملتها اليصابات بئس المعاملة فانها قبضت عليها والقتها تحت الترسيم نحو ١٩ سنة ثم قتلتها بعد ذلك

وكان لماري ولد من اللورد دارنلي خلفها على ملك اسكوتلاندا تحت اسم جمس السادس . وبعد وفاة الملكة اليصابات صار ملكًا على انكلترا ايضًا تحت اسم جمس الاول فكان محبًّا للعلوم وانتشار المعارف واقام عدَّة مدارس في اسكوتلاندا لم تزل آخذةً في التقدم الى عهدنا هذا . واستمرت اسكوتلاندا من سنة ١٦٠٣ الى هذه الايام خاضعة لاحكام انكلترا مع انها عصت احيانًا وحاربت حروبًا عديدة لاسترجاع الملك الى عائلة استوارت ولكنها لم تنجح

الباب الحادي عشر

في تلميح اخبار ايرلاندا

ان تاريخ ايرلاندا او إيرِن الخضراء كما تُسمى احيانًا هو مملوءٌ من الحوادث اللاذَّة . ولكننا نقول بوجه الاختصار ان سكانها الاولين كانوا من الكلتيين الاشدَّاء نظير البريتانيين الذين كانوا يقاتلون بالنبابيت ويميلون الى القتال اكثر من التنعم والرفاهية . وكانوا ينقسمون الى عشائر عديدة ويدعون روٌساءهم ملوكًا وكانت ملوكهم في نفور ومشاجرات مستديمة بعضهم مع بعض . اما ديانتهم الاصلية فنظير بقيَّة العشائر الكلتية كديانة الدرويد ولكن سنة ٥٥٠ اتاهم رسول مسيحي اسمهُ بتريك وكان رجلًا تقيًا حكيمًا فاحبوهُ وائتلفوهُ واقتبلوا منهُ الديانة المسيحية وابتداوا يتمدنون بالتدريج وعاش بتريك المذكور عمرًا طويلًا ومات عندهم وبعد مماتهِ شرع الناس ينسبون اليهِ اعمالًا عجائبية الى انهم اخيرًا حسبوهُ قديسًا ويزعمون حتى الآن انهُ يحامي عن صوالح بلادهم في السماء ويفرزون يومًا في كل سنة لاجل تقديم الصلاة والاكرام لهُ فيذهبون الى الكنيسة ويشربون الخمر ويقتتلون بعضهم مع بعض بالنبابيت . ومن جملة توهماتهم الغريبة الباقية الى هذا اليوم اعتقادهم بان القديس المذكور قد اهلك واباد جميع الافاعي والدبابات المضرة التي كانت في ايرلاندا واما السبب الذي جعلهم يعتقدون بذلك فهو عدم وجود شيء من تلك الحيوانات عندهم حتى ان الفلاحين القاطنين بقرب بحيرة كلَّارني يعتقدون بخرافة مضحكة عن هذا القديس وهي انهُ في اواخر حياة بتريك هذا وُجدت حية عظيمة في تلك البلاد تمنَّعت عن النزاع مع باقي الدبابات المذكورة فحاولها بتريك زمنًا طويلًا ولم يقدر عليها. وكانت تلك الحية تتردد كثيرًا الى شواطي بحيرة كلَّارني فلما اعياهُ امرها احضر

صندوقًا كبيرًا من خشب السنديان ذا اقفال قوية وجاء بهِ الى تلك البحيرة ولما اقترب من تلك الحية حيَّاها بالسلام ولاطفها بالكلام وقال لها قد اتيتكِ بهذا البيت الجميل لتسكني فيهِ وتعيشي باقي عمركِ في ارغد عيش واحسن حال واما الحية فلم تسالك عليها تلك الحيلة ولكنها اذ لم ترد ان تهينهُ وتصدهُ نظرًا لصداقتهِ المتظاهرة اعتذرت قائلةً ان الصندوق لا يسعها فأكَّد لها بانهُ كافٍ لسكنها ثم خاطبها قائلاً ان كان عندكِ يا عزيزتي ادنى شبهة في كلامي فادخليهِ وجرّبي واما هي فلكي تغشهُ وتظهر خضوعها لهُ دخلت ذلك الصندوق تاركةً قيراطًا او اكثر من ذنبها خارج الصندوق وقالت ألم اقل لك انهُ لا يسعني فقال لها احترصي على ذنبكِ يا عزيزتي ثم اطبق الغطاء عليها فاضطرت ان تجذب ذنبها الى داخل الصندوق فعند ذلك قفلهُ وحملهُ على كتفهِ فصرخت الحية اطلقني فقال لها مهلاً اني ساطلقكِ غدًا ثم القى الصندوق في البحيرة فغرق وذهب القديس الى حال سبيلهِ . ومن العجب ان الصيادين المقيمين بقرب تلك البحيرة ينقلون هذه الخرافة الغريبة ويعتقدونها ويؤكدون بانهم ما زالوا يسمعون صوت الحية الى هذه الايام وهي تقول ألم ياتِ الغد بعد ألم يأتِ الغد بعد

وكان هنري الثامن ملك انكلترا قد حارب ايرلاندا واخضعها ولم تزل الى الآن تحت حكم الانكليز ولكنهم لم يلتفتوا اليها كما يجب الى زمن جمس الاول فانهُ شرع في اصلاح حالة شعبها وارباب الشرائع والحكام في ايامنا هذه قد اجتهدوا ايضًا في تمدنها وتحسين حالها

الفصل العاشر

في وصف مملكة البلجيك وتاريخها

هذه المملكة يحدها شمالاً مملكة هولاندا . وشرقًا بلاد جرمانيا . وجنوبًا فرانسا . وغربًا البحر الشمالي . اما أرض هذه البلاد فمنبسطة وهواؤها معتدل وفيها كثير من الاشجار المتنوعة والرياض والمزارع المخصبة وبها عدة أودية وجبال وفي ارضها كثير من معادن الرصاص والحديد وحجر الفحم والزنك . ومقاطع البلاط الاسود والرخام وغير ذلك . ومن حواصلها القمح والشعير والكتان. والصنائع فيها رائجة من ذلك الاقمشة الجيدة والجوخ والصوف. وعدد اهل هذه المملكة خمسة ملايين اكثرهم لاتينيون . وبالنسبة الى مساحة البلاد لا يوجد مملكة في العالم مزدحمة بالناس مثل هذه المملكة . وحكمها من نوع الملكي المقيد . ولاهلها شهرة عظيمة في التجارة وصبغ الاقمشة المتنوعة واستخراج السكّر وعمل البيرة وهم اشدَّاء الباس لطفاء الطباع يميلون الى اكتساب العلوم واتقان الصنائع ويعتنون بالفلاحة والزراعة

واعظم مدن هذه المملكة مدينة بروكسيل وهي قاعدة البلاد وعدد اهلها نحو مئة الف نسمة وفيها مكتبة عظيمة تحتوي على جميع انواع العلوم والفنون تنيف عن ١٠٠ الف مجلد . وعلى اربعة فراسخ الى الجنوب الشرقي منها قرية واترلو التي انهزم فيها نابوليون الاول وكسرهُ المتعاهدون بجنودهم بعد موقعة سنة ١٨١٥ كما مرَّ

اما تاريخ هذه البلاد فلا يحتاج الى التطويل لقصر عهدهِ وقلة اهميتهِ لان المملكة لم تتأسس وتستقل الاَّ من سنة ١٨٣٠ فقط . وكانت قبل ذلك العهد

تابعة ممالك اخرى . فان يوليوس قيصر كان قد ضمها الى احد الاقسام التي قسم فرانسا اليها عند استيلائهِ عليها ومكثت في ايدي الرومانيين الى سنة ٤٠٩. ولما دخلت الافرنك الى فرانسا كانت بلجيكا وقتئذٍ تابعة سلطنتهم التي كانت ممتدة في ايام الملك كلوفيس من حدود الرين الى اللوار. وعقب توفي هذا الملك سنة ٥١١ تقاسمها بنوهُ الاربعة وتناولها خلفاؤُهم الى سنة ٨٠٠ حين ضمها شارلمان وجعلها قسمًا من سلطنتهِ . وبعد انقراض سلطنتهِ انقسمت بلاد البلجيك الى جملة امريات اخصها امرية برابان فانها كانت اعظم الجميع ثم اخذت في النمو والامتداد يومًا بعد يوم حتى ابتلعت باقي الامريات وانحصرت البلاد فيها . وبسبب الوراثة انتقلت سنة ١٤٠٦ الى العائلة البورغونية ومنها سنة ١٤٧٧ الى عائلة اوستريا الملكية بسبب الزواج وبعد ذلك بقليل صارت من املاك سلطنة شارلكان الذي قسمها الى ١٧ ولاية متحدة تعرف بدائرة بورغونيا

وبعد شارلكان تناول البلجيك ورثتهُ ملوك اسبانيا وبقيت في ايديهم الى سنة ١٧١٤ ثم رجعت الى اوستريا واستمرت تحت احكامها الى سنة ١٧٩٢ حين دخلت اليها جيوش الجمهورية الفرنساوية وامتلكتها وقسمتها الى ٩ مقاطعات ولبثت في يدها الى زمن سقوط نابوليون الاول سنة ١٨١٥ عند ما اتفقت الدول المتحدة يومئذٍ على ضم بلجيكا وهولاندا معًا . فانضمتا تحت رياسة غليوم الاول ملك هولاندا وصارتا دولة واحدة معروفة بمملكة البلاد الواطية ولكن اذ لم يحصل الاتفاق في ذلك الاتحاد بين الفريقين انتهز اهالي بلجيكا فرصة طرد البوربونيين من فرانسا سنة ١٨٣٠ فرفعوا راية العصيان على الحكومة الهولاندية وحاربوها وجرى بين الطرفين عدة وقائع مهلكة افضت اخيرًا الى انفصال احداها عن الاخرى . ومن ذلك الوقت صارت البلجيك دولة مستقلة بذاتها وكان اول من تولى عليها ملكًا ليوبولد الاول امير ساكس كوبورج سنة ١٨٣١ ثم خلفهُ ابنهُ ليوبولد الثاني سنة ١٨٦٥ وهو الملك الحالي

الفصل الحادي عشر

في وصف هولاندا المعروفة ببلاد الفلمنك وتاريخها

هذه البلاد يحدها شمالاً وغربًا بحر جرمانيا وشرقًا هانوفر وبروسيا الرينية وجنوبًا مملكة بلجيكا . ويقال لهذه المملكة ايضًا البلاد الواطية سميت بذلك لوطوّ ارضها عن مساحة البحر . ويخرقها نهر الرين في عدة اماكن وفيها انهر عظيمة ومجاري كثيرة تسلك فيها السفن الصغيرة في ايام الصيف ولكنها تجلد في فصل الشتاء . اما هواء هذه البلاد فرديء على الاغلب لكثرة البحيرات والانهر التي تمر فيها ولولا مجاورتها البحر ونظافة سكانها لكان مضرًّا للبدن . وفيها كثير من المروج والاودية المستظرفة البهجة والمراعي المخصبة للمواشي التي يتخذون من البانها السمن والجبن والزبدة . ومن محصولاتها القمح والشعير والفوة والدخان . وفي ارضها كثير من معادن الحديد وغيره . وفيها كراخين ومعامل كثيرة يصنع بها قماش الكتان والصوف والحرير والجوخ والقطن والورق . وعدد اهلها بحسب تعداد سنة ١٨٧٠ بلغ ٣ ملايين و٦١٨ الفًا اكثرهم من البروتستانت . ولهذه المملكة املاك خارجية كثيرة في اسيا وجزائر البحر وافريقية واميركا اخصها في الهند الشرقية يبلغ عدد سكانها نحو ٢٢ مليونًا ونصفًا

واهل هذه المملكة بوجه الاجمال من اهل السخاء والكرم واكثرهم مغرمون بشرب الدخان وموصوفون بالشجاعة والفطنة وعمل الخير . ولهم رغبة كلية في المطالعات والتعليم حتى ان اكثر شبانهم على جانب عظيم من التهذيب والمعرفة لاجتهادهم وكثرة مدارسهم . وحكمهم من نوع الملكي المقيد . ومن اعظم مدن هذه المملكة مدينة امستردام وهي مدينة ظريفة ذات ميناء حسن واسواق جميلة مبنية

على راس خليج وعدد سكانها ٣٢٠ الف نسمة وكانت قديمًا من اشهر مدائن الارض في التجارة . ومدينة هاي وهي قاعدة البلاد ومقرّ كرسي الملك واهلها يبلغون نحو ٧٠ الف نفس

اما تاريخ هولاندا فهو سهل المناولة لعدم قدميتهِ واهميتهِ وكان الرومانيون يسمُّون بلاد الفلمنك بجزائر الباتافيين نسبةً الى قبيلةٍ جاءت قديمًا اليها وسكنت فيها حتى انهُ في ايام يوليوس قيصر اشتهرت وصارت امة عظيمة . وكانت قبل دخول الناس اليها مهجورة تغطيها المياه ستة اشهر في السنة وفي الستة الاخرى يكثر فيها العشب والنبات فتصير اراضيها رطبة ومضرة الى الغاية. فعند دخول الناس اليها شرعوا في بناء سدود عظيمة في بعض الاماكن لوقاية ارضها من الفيضان عند علو المد فاخذ هواؤُها يصطلح بهذه الواسطة ثم قصدها بعد ذلك قبائل اخر كالفريزانيين والبروكتاريين وانضموا الى الباتافيين اي الهولانديين واتخذوها لهم مسكنًا . ففي الجيل الثامن لما كانت امة الافرنك مستولية على فرانسا حارب ملكها شارل مارتل هولاندا فانتصر عليها واخضعها . وفي ايام شارلمان صارت جزءًا من املاك سلطنتهِ الغربية وادخل اليها الديانة النصرانية. ولكن لضعف خلفاء شارلمان ولازدياد سطوة الاشراف حسب روح ذلك العصر انقسمت هولاندا الى ١٧ قسمًا كل قسم منها تناولهُ امير واستقل بهِ . فمنها كانت امرية الفلدريين وامريات برابان واوكرمبورج وليمبورج واسقفيتا غرونيغين واوترخت وغيرها. واستمر حال البلاد على هذا المنوال الى الجيل الخامس عشر حين ضمها معًا فيليب الثالث الملقب بالصالح احد امراء بورغونيا وتناولها بعدهُ ابنهُ كارلوس الملقب بالجسور

وفي سنة ١٤١٧ تناول امرية بورغونيا ماريا ابنة كارلوس الجسور وورثت جميع املاك ابيها . وكان لويس الحادي عشر ملك فرانسا قد صمم يومئذٍ على ان يتغلب على تلك الامرية ويضها الى مملكتهِ واذ كانت رعايا ماريا المذكورة غير منقادة اليها ورافعة راية الخروج عن طاعتها خافت من عواقب الامور

وطلبت ان تتزوج بمن يقدر على حمايتها فتزوجت بمكسميليان ارشدوك اوستريا وبسبب هذا الاتحاد انتقل الى عائلة اوستريا الملكية جميع املاك وحقوق امراء بورغونيا ومن جراء ذلك وقعت بينها وبين فرانسا الخصومات والفتن التي لم تخمد نارها الاَّ بعد عدة اجيال . ولكن بعد توفي الامبراطور شرلكان انتقلت هولاندا الى ورثتهِ في اسبانيا واستمرت تحت تسلطهم مدة طويلة . ولما عوّل فيليب الثاني ملك اسبانيا ان يلاشي مذهب البروتستانت الذي كان منتشرًا وممتدًّا في بلاد الفلمنك ساء ذلك الاهالي وصمموا على خلع طاعة الاسبانيول فاتحد سبعٌ من ولاياتها سنة ١٥٧٩ ونادوا بالمشيخة وقاوموا الاسبانيوليين ببسالة لا مزيد عليها وحرروا انفسهم واستقلوا ببلادهم . ولما كان الاسبانيوليون لا يفترون عن مقاومة الفلمنكيين طمعًا باخضاعهم والانتقام منهم كانت الحروب بين الطرفين متصلة فالتزم الهولانديون ان يستنجدوا بالانكليز ويطلبوا مساعدتهم في ايام الملكة اليصابات فارسلت لمعونتهم عمارة بحرية مشحونة بالمهمات والعساكر الحربية فالتقت بالعمارة الاسبانيولية في بوغاز قادس فحاربتها وانتصرت عليها واستولت على المدينة عنوةً سنة ١٥٩٧ . وسنة ١٦٠٠ حاربوا النمساويين وفازوا عليهم في نيوبورت وغنموا منهم غنائم جسيمة ومع انهم كابدوا مشقات واهوالاً شديدة وفقدوا رئيسهم وليم برنس اورانج نجحوا في نوال مقاصدهم حتى التزمت اسبانيا والنمسا ان تقرَّا لهم باستقلاليتهم اقرارًا نهائيًّا في مصالحة وستفاليا سنة ١٦٤٨

وكان يومئذٍ الهولانديون في رفاهية وعيشٍ رغيد وتجارتهم في اتساع ونجاح حتى ان مدينة انتورب كانت تعد في ذلك الوقت كاعظم مدائن العالم في التجارة والشهرة ولكن بسبب الحروب المار ذكرها التزم تجار هذه المدينة ان ينتقلوا الى امستردام ويجعلوها مركزًا لهم فكان ذلك سببًا لتقدمها . وكان للهولانديين عزمٌ واقدام غريبان في جميع اعمالهم . وقوة وشجاعة عظيمتان في حروبهم . فكانوا اعظم دولة اوروبية في النجاح والاقبال وتقدم التجارة اذ اقتفوا

اثار البورتوغاليين في اسفارهم الى الصين والهند واستولوا على جملة اراضي فيها ثم تبعوهم ايضًا الى اقطار قارة اميركا وكادوا يستخلصون منهم مملكة برازيل . وكانت احوالهم الداخلية مع كل ذلك في تقدم وارتقاء وعمارتهم البحرية في ازدياد واقتدار فحسدتهم اكثر الدول وخافهم بعض الملوك وقد وقع بينهم وبين الانكليز عدة وقائع بحرية فكانوا يصادمونهم بنوع غريب حتى كان الانكليز بكل صعوبة يستظهرون عليهم في بعض الاحيان

ولما نشأت حروب الوراثة الاسبانيولية في اوروبا وكانت فرانسا ساعية في توسيع دائرة اراضيها عقد الهولانديون مع الانكليز والاسوجيين اتحادًا على مقاومتها وهو المعروف بالاتحاد الثلاثي فالتزم لويس الرابع عشر ملك فرانسا ان يتوقف عن عزمهِ ويجري مخابرة الصلح مع باقي الدول فتمت شروطهُ في اكس لاشابل سنة ١٦٦٨ وبموجبها تُرك لفرانسا جميع الاراضي التي كانت امتلكتها الى ذلك الوقت وأُشرط عليها ان تتنازل عن كل دعاويها بالولايات الاسبانيولية . ولكن اذ كانت بغية الملك لويس الانتقام من هولاندا على ما بدا منها في مقاومتها لهُ سعى في حل ذلك الاتحاد المذكور واخذ يستميل انكلترا اليهِ حتى استجلب خاطر ملكها كارلوس الثاني نحوهُ بعدما غرهُ بالدراهم الجزيلة فنهض لمعونتهِ وحارب معهُ الفلمنكيين برًا وبحرًا واضروا بهم ضررًا جسيمًا وربما كانوا ابادوهم لو لم ينتصر لهم امبراطور جرمانيا ومنتخب براندبورج وملك اسبانيا . ولكن اذ لم يكن شعب انكلترا راضيًا باعمال الملك كارلوس باتحادهِ مع فرانسا على حرب الهولانديين نهض المجلس الكبير في السنة التالية وقاوم الملك على صنيعهِ المذموم والزمهُ ان ينسحب عن ساحة القتال فانسحب من يومهِ واعتزل وبعد ذلك انسحبت فرانسا ايضًا

وسنة ١٧٩٥ استولى على هولاندا المشيخة الفرنساوية ولقبتها بمشيخة باتاف . ولما جلس نابوليون الاول امبراطورًا على كرسي مملكة فرانسا اطلق عليها لقب مملكة سنة ١٨٠٦ بعدما اقام اخاهُ لويس بونابارت ملكًا على كرسيها .

وسنة ١٨١٠ انضمت الى فرانسا وصارت قسمًا من املاكها فتعطل متجرها وتوقفت حركتها فانتهزت الانكليز تلك الفرصة واستولت على املاكها الخارجية ولكن عند سقوط نابوليون سنة ١٨١٤ حصل لهولاندا الفرج من ذلك الاسر ورجع اليها برنس اورانج الذي هرب منها سنة ١٨٠٥ فضمّ اليهِ بلاد البلجيك وتسمى على المملكتين ملكًا تحت لقب غليوم الاول ودُعيت البلاد من ذلك اليوم مملكة البلاد الواطية . فارجع الانكليز حينئذٍ للهولانديين كل املاكهم الخارجية التي كانوا استولوا عليها ما عدا راس الرجاء الصالح وسيلان وغيانا ٠

وسنة ١٨٣١ حدث ثورة عظيمة في بلاد البلجيك لم تستطع حكومة هولاندا على اخماد نارها فالتزموا ان يعتزلوا عن البلجيكيين وجعلوا بينهم حدًّا فاصلاً بمعاهدة جرت سنة ١٨٣٣ . وسنة ١٨٤٩ تبوأ سرير مملكة هولاندا الملك غليوم الثالث وهو الملك الحالي ولم تزل هذه المملكة حتى الآن تدعى مملكة البلاد الواطية

الفصل الثاني عشر

في الممالك الجرمانية او السلطنة الالمانية

الباب الاول

في وصف هذه البلاد واقسامها

ان بلاد جرمانيا وتعرف ايضاً بالمانيا يحدها شمالاً البحر الجرماني وتخوم دنيمارك وبحر البلتيك وشرقاً بروسيا واوستريا وجنوباً اوستريا وسويسرا وغرباً فرانسا وبلجيكا وهولاندا واهلها يبلغون نحو ٤١ مليوناً ونيف بما فيه بروسيا وملحقاتها الجديدة. واذ كانت جرمانيا تتضمن ممالك وامريات عديدة وليس لنا محل هنا ان نصف كلاً منها على حدتها ونحدد وضعها ونذكر حالة شعوبها واوصافهم اقتصرنا على وضع الجدول الآتي ليتبين منهُ اسماء وعدد الممالك والدول التي تتكون منها السلطنة الجرمانية وايّة منها مملكة وايّة امرية وعدد شعوب كل منها لتكون الفائدة تامة

جدول الدول الجرمانية وعدد شعوبها

عدد		اسماء
٢٤٧٠٠٠٠٠	١	مملكة بروسيا وملحقاتها
٤٨٦٥٠٠٠	٢	" بافاريا
٢٥٦٠٠٠٠	٣	" ساكس
١٨٢٠٠٠٠	٤	" ورتنبرج

كراندوكات بادن	٥	١٤٦٥٠٠٠
" هس	٦	٨٥٥٠٠٠
" مكلنبورغ سوَيرين	٧	٨٦٠٠٠٠
" ساكس وايمر	٨	٢٧٠٠٠٠
" مكلنبورغ استريليتس	٩	١٠٠٠٠٠
" اولدينبورغ	١٠	٣١٧٠٠٠
دوكات برونزويك	١١	٣١٢٠٠٠
" ساكس مينجن	١٢	١٨٨٠٠٠
" ساكس التنبورغ	١٣	١٤٣٠٠٠
" ساكس كوبورغ غوطا	١٤	١٧٥٠٠٠
" دانهالت	١٥	٢٠٥٠٠٠
امرية شوارسبورغ رودولستاد	١٦	٧٦٠٠٠
" شوارسبورغ سوندرسهاوزن	١٧	٦٨٠٠٠
" والديك	١٨	٥٧٠٠٠
" روس (في سلالة الابكار)	١٩	٤٦٠٠٠
" روس	٢٠	٩٠٠٠٠
" شوامبورغ ليب	٢١	٣٢٠٠٠
" ليب ديتمولد	٢٢	١١٢٠٠٠
مدائن حرة لوبيك	٢٣	٥٣٠٠٠
" بريم	٢٤	١٢٣٠٠٠
" همبورغ	٢٥	٣٤٠٠٠٠
مكتسبات جرمانيا من فرانسا الالزاس واللورين	٢٦	١٥٥٠٠٠٠

ومن اعظم مدائن الممالك الجرمانية همبورج وهي مدينة شهيرة لتجارتها . ثم مونيخ قصبة مملكة بافاريا. ودريسدن عاصمة ساكسونيا وهي من اظرف مدن اوروبا . وليبسيك وكالسروخ عاصمة امرية بادن حيث يجتمع بها كثيرٌ من عظماء واغنياء العالم في كل سنة للتنزه في زمن الصيف ويصرفون اكثر اوقاتهم في الملاهي ولعب القمار وبهذه الواسطة يتبعهم جمهور غفير من الناس المتوسطي الحال من ذوي المطامع في المكاسب السريعة فكثير منهم يفقدون اموالهم وبعضهم الحياة بسبب خسائرهم الباهظة. وما عدا مدائن جرمانيا الظريفة فيها انهر عديدة اكثر من خمسين اكثرها عظيمة وكبيرة بحيث تجري فيها السفن واشهرها الدانوب والرين والالب والاودر والمين

واكثر اهالي جرمانيا على مذهب البروتستانت والحرية مطلقة لجميع المذاهب. وهم موصوفون بالحزم والثبات في الاعمال والحرص والامانة. وهم الذين اخترعوا البارود وعمل النظارات وصناعة الطبع التي في افضلها اخترعها غوتنبرج الشهير في اواسط الجيل الخامس عشر بمساعدة رفيقيهِ بطرس شافر ويوحنا فاوست . ولهم اليد الطولى في اصطناع الالات الموسيقية والالعاب المتنوعة للاولاد . وعلماؤُهم مشهورون بالغيرة في تاليف الكتب والتدقيق في اللغات الاجنبية. ولهم انصباب غريب على المباحث في العلوم والفنون والتدقيق في الامور البعيدة فلا يكفون عن الاجتهاد في تحصيل المعارف وايجاد الفوائد للبشر . وبينهم انتشر الاصلاح الديني في الجيل السادس عشر. وقد تقدم الجرمانيون تقدمًا عظيمًا في معرفة فنون الحرب فيُعَدُّون الان من اعظم الدول واشدها قوة في اوروبا وما ساعدهم في تقدمهم انما هو انضمامهم بعضهم لبعض وانقيادهم لروسائهم

وانقسمت بلاد جرمانيا قديمًا الى ٢٩ قسمًا وكل قسم منها لهُ حاكمٌ مخصوصٌ اما من رتبة الامراء او من رتبة القواد المشهورين ثم جرت العادة بين اهالي تلك الولايات من بداءة سنة ٩١٢ ان ينتخبوا ملكًا من اولئك الامراء ويسمونهُ امبراطورًا



يوحنا غوتنبرج وفاوست مخترعا فن الطبع

على كل اعمال جرمانيا فيكون مطلق التصرف ورئيسًا على الجميع وبعد موته ينتخبون اخر واستمر الحال كذلك الى سنة ١٤٣٨ حين انتسخت هذه العادة وصار تاج المملكة وراثة في عائلة هابسبورج الى سنة ١٨٠٦ عندما انحلت السلطنة الجرمانية واتحدت ممالكها الغربية وأُنشئت المعاهدة المعروفة بمعاهدة الرين تحت حماية نابوليون الاول. ولكن بعد سقوط المذكور سُنة ١٨١٥ تبدلت تلك المعاهدة باخرى جديدة بين اربع وثلاثين دولة وتلقبت بالمعاهدة الجرمانية تحت رياسة امبراطور النمسا . اما الخمس ممالك الاخر تتمة التسع والثلاثين فالتحقت بممالك اخرى اما بالارث او بانقراض سلالة الملك . وكانت كل مملكة من الاربع والثلاثين المذكورة مستقلةً في داخليتها الّا انها خاضعة الى مجلسٍ عام مُنظَّم من وكلاء كثيرين يرسلون من طرف المقاطعات المختلفة الى مدينة فرنكفورت لاجل المحاماة عن حقوق الممالك الداخلية وتحسين حالة الامة وسن التراتيب والقوانين العمومية . وبسبب ذلك الاتحاد والارتباط كانت الممالك الجرمانية ملتزمة ان تساعد بعضها البعض وقت الحاجة حتى ان جميع رجالها كانت تجر الى الحرب عند الطلب بدون استثناء وليس ذلك الّا احتياطاً من مهاجمات الاعداء على بلادها وحذرًا من سطوة فرانسا التي كانت قد اضرَّت بها ضررًا عظيمًا في ايام نابوليون الاول. فدام هذا الترتيب الى سنة ١٨٦٦ حين اضطرمت نيران الحرب بين بروسيا والنمسا وانتصرت فيها الاولى بعد حرب وجيزة فانفصلت دولة النمسا من المعاهدة الجرمانية واسست دولة بروسيا معاهدة تُعرف بمعاهدة المانيا الشمالية فتحالف معها احدى وعشرون دولة من الدول الجرمانية واما البقية فعقد ستٌّ منها معاهدة تحت رياسة دولة بافاريا تعرف بالمعاهدة الجنوبية وستٌّ ضمتها بروسيا الى املاكها واثنتان بقيتا تحت تسلط ملك هولاندا وهما دوكاتو لوكزمبورج ودوكاتو ليمبورج

الباب الثاني

في اخبار الجرمانيين القدماء وما حدث في ايام سلاطينهم من سنة ٩١٢ مسيحية الى ظهور مرتينوس لوثيروس

ان قبائل جرمانيا الاولى كان يقال لها برابرة منها قبيلة الغوثيين والفيزيغوثيين والفنداليين والسويفيين والكمبريين والتوطونيين والهروليين والالمانيين وغير ذلك من القبائل والطوائف التي جاءت من اسيا وسكنت تلك البلاد . وكانوا على جانب عظيم من التوحش والتمرد يلبسون جلود الوحوش الضارية ويشنون الغارات في كل جهات اوروبا حتى انهم استولوا على عدّة مدائن واستخلصوا جملة ممالك واضروا باكثر السلطنات العظيمة واقلقوا الارض بحروبهم ووقائعهم المتصلة حتى ان السلطنة الرومانية مع كل سطوتها وقوة بطشها وشوكتها كانت تهابهم وتحسب حسابهم وما زالوا كذلك الى زمن قيصر فحاربهم واخضعهم بعد حربٍ شديدة ووقائع عديدة

فبواسطة دخول الرومانيين الى جرمانيا تحسنت احوال هولاء البرابرة فانهم اقتبسوا عنهم جملة صنائع وعوائد مفيدة جعلتهم متمدنين نوعًا سواءً كان في معيشتهم ورفاهيتهم ام في امورهم وسياستهم الحربية واصطناع اسلحتهم. وازدادوا يوميًا في التقدم والنجاح بينما كان الرومانيون يضعفون ويسقطون ولم يمضِ عليهم اربع مئة سنة حتى اغتنم الجرمانيون تلك الفرصة فاستعدوا ونهضوا لافتتاح البلاد التي كانت خاضعة لرومية فدخلوا اسبانيا وايطاليا وبلاد اليونان وغيرها من الممالك واستوطنوا بين تلك المدائن الزاهرة الغنية حيث جمعت رومية غناها

ومجدها . واما ما بقي من اولئك البرابرة في بلاد جرمانيا الذين لم يخرجوا مع القوم للغزو فاخذوا يتقدمون وينمون حتى انهم في ايام شارلمان ملك فرانسا الشهير صاروا امة عظيمة ذات شوكة وباس. ولكن مع كل ذلك استظهر عليهم هذا الملك فاخضعهم في الجيل الثامن واستولى على بلادهم وتسمى سلطانًا عليها واقام فيها واصلح شانها وتناولها خلفاؤُهُ من بعدهِ وبقيت متحدة بالسلطنة الغربية الجديدة التي اسسها شارلمان المذكور الى سنة ٨٨٧ نهاية امبراطورية كارلوس السمين . فمن ذلك الوقت اخذ بنيان الامبراطورية في ارتجاج واعقب ذلك سقوطها التام فاضمحلت وتلاشت كانها اضغاث احلام وانفصل تاج المانيا عن تاج فرانسا وصارتا دولتين ممتازتين عدوتين لبعضها الى هذا اليوم. وبعد ذلك بقليل اتحد بعض ممالك جرمانيا وابطلوا حقوق الوراثة الملكية واستقر الراي على قيام الملوك بالانتخاب

ولم يكن الاتحاد الالماني في اول الامر عامًّا بين كل ممالك جرمانيا بل كان منحصرًا بين خمس ممالك فقط وهي فرانكونيا وساكسونيا وسوابيا وبافاريا ولورين . وكان القصد في ذلك الانضمام ليكونوا يدًا واحدة للمحاماة والمدافعة عن بلادهم من غزو الهونيين الذين كانوا منتشرين في كل جهات بانونيا التي لقبت بهونكاريا نسبةً لهم وهي بلاد المجر. فتحالف شعب هذه الممالك وامراؤُها واقاموا عليهم ملكًا يدعى كونراد امير فرانكونيا وذلك سنة ٩١٢ وهو الاول من ملوك جرمانيا فاستبد بالسلطنة العامة الى سنة ٩٢٠ واذ رأى نفسهُ متعبًا من مهام السياسة والحروب تنازل عن تاج الملك الى خصمهِ هنري الاول امير ساكسونيا الذي بهِ ابتدأت عائلة ملكية جديدة فاظهر مزيد الشجاعة والبسالة في محاربة المجر اذ كسر شوكتهم ودفع ضررهم عن بلادهِ

وكانت جرمانيا وقتئذٍ بعد سقوط سلطنة شارلمان رئيسة السياسة في اوروبا ولها التقدم العام على باقي الممالك في اهمّ الامور والاعمال ولاسيما في ايام اوثون الكبير الذي خلف اباهُ هنري الاول سنة ٩٣٦ فانهُ كان ملكًا مهيبًا ذا سطوة

وشوكة فاوجد للسلطنة رونقًا جديدًا وبهجةً غريبة فعظم بأسها وخيفَ بطشها في اوروبا. ولكن لم تكن الراحة تامة داخل البلاد لانهُ اذ كان الاشراف يشتغلون في توطيد شوكتهم التي اكتسبوها في ما مضى كان الامبراطور اوثون وخلفاؤهُ بعدهُ يسعون في كسر تلك الشوكة فنشأَ عن ذلك منازعات اهلية اوجبت اشهار السلاح بين الامبراطور وبعض الاشراف المذكورين

وكان السبب في اكتساب اشراف المانيا الشوكة والاستقلال هو انهُ بعد موت الامبراطور كارلومان (احد خلفاء شارلمان في السلطنة الغربية) حصل لبعض خلفائهِ عجزٌ وعسرٌ عظيمان. فانتهز تلك الفرصة الاشراف ومن هو اقل منهم ايضًا وادَّعوا لانفسهم حقوقًا وامتيازات جديدة فحصلوا عليها لعدم وجود من يقاومهم. وكان ايضًا البعض الآخر من اولئك السلاطين مشغولين بحروب دائمة من داخل فاضطروا ان يطلبوا مساعدة الاكابر واحزابهم فلذلك كانوا يراعون خاطرهم ويتغافلون عن تعدياتهم الكثيرة ويمنحونهم حقوقًا فوق العادة. فبهذه الواسطة صار للاشراف مقام كبير وشوكة عظيمة وبالتدريج صارت الالتزامات وراثية في العائلة يطلبها ويتناولها الوارثون كحقوق شرعية. وفضلًا عن ذلك كان هولاء الاشراف يرتبون في اراضيهم قوانين واحكامًا خصوصية مخالفة لنظام المملكة حسب استحسانهم. وكان السلاطين يرون ذلك ويغضون النظر عنهُ لاحتياجهم اليهم ولكي يطمئن اوثون من ثورات اولئك الاشراف وهياجهم ارتأى ان يقيم في البلاد حزبًا اخر يوازي ويعادل حزب الاشراف ليقمع بهِ شوكتهم عند اللزوم فاخذ ينشط حزب الاكليروس ومنحهم حقوق الامراء المدنيين وامتيازاتهم وغمرهم بالانعامات وساواهم بالصف الآخر فكان ذلك من بئس السياسات لانهُ ولئن اتى هذا التدبير موقتًا ببعض الفوائد واوقف سير شوكة الاشراف ولكنهُ عاد اخيرًا بنتائج ردية لانهُ لما تقوى حزب الاكليروس واغتنى رجالهُ وجد ملوك المانيا فيهم عداوة مرَّة ومقاومة شديدة لمقاصدهم فعوض العدو الواحد صار لهم اثنان وكان الاخير اضرَّ من الاول

وقد قهر اوثون مملكة بوهيميا واضافها الى احكام جرمانيا وضرب عليها المال . ثم حارب المجر في اوكسبرج وانتصر عليهم وحارب الدنيمارك وفرانسا وقهرها وبالجملة كان رجلاً مسعودًا ومنصورًا في جميع حروبهِ ومغازيهِ . وقد تزوج بعدلايد ارملة لوثير ملك لومبارديا واذ صار لهُ بسبب هذا الزواج حق المداخلة في امور ايطاليا دعاهُ البابا يوحنا الثاني عشر ليخلصهُ من جور بيرنجر ملك ايطاليا فذهب اوثون اليهِ وخلعهُ عن كرسي المملكة وضمَّ ايطاليا الى امبراطورية المانيا بعد ان توج ملكًا عليها سنة ٩٦٢ . فلما راى اوثون ما هو فيهِ من النجاح والظفر عميت بصائرهُ واغترَّ بفتوحاتهِ ولقب نفسهُ اوغسطوس قيصر زاعمًا انهُ خليفة امبراطرة الرومانيين القدماء وانهُ وريثهم في حقوقهم وسلطنتهم فلم يسر البابا يوحنا الثاني عشر من انتصار اوثون الغريب ومن دعواهُ بالامبراطورية الرومانية وخاف ان يفقد رياستهُ الزمنية فجاهر ضدَّهُ وحرَّك الآخرين ايضًا فانقضَّ اوثون عليهِ وخلعهُ عن كرسيهِ ونصب مكانهُ ليو الثامن وصمم من ذلك الوقت ان يجعل السلطة المدنية تسود على السلطة الكنائسية وان تسمية الباباوات وتفويض الاساقفة ينحصران فيهِ وفي خلفائهِ من بعدهِ . ولكن بعد رجوع اوثون الى بلادهِ وتوفي البابا ليو انكر اهل رومية على اوثون حق تسمية الخليفة الجديد فالتزم ان يحاربهم فوافاهم بالجنود والرجال واخضعهم واقام من اراد ثم مات هذا الملك الشهير سنة ٩٧٣ مكلَّلاً بالمجد والظفر

وخلف اوثون الكبير ابنهُ اوثون الثاني الذي كان قد تسمى خليفةً في حياة ابيهِ وكان قد قام لهُ خصمٌ من اقاربهِ وهو امير مملكة بافاريا فاظهر لهُ العداوة والعصاوة طمعًا بالملك ولكنهُ لم يقدر عليهِ . واذ كان قد صمم لوثير ملك فرانسا على امتلاك مقاطعة اللورين ارسل جيشًا واستولى على مينس وغيرها من الولايات التابعة لاحكام جرمانيا فزحف اليهِ اوثون وحاربهُ ودخل بجندهِ الى وسط مدينة باريس قوةً وجبرًا والزم فرانسا على التباعد والسكوت عن تلك

الدعوى ثم زحف من هناك الى ايطاليا واخضع بعض البلاد التي اظهرت العصاوة. وكان يومئذٍ شغبٌ عظيم بين اهالي رومية بسبب انتخاب ثلاثة باباوات في وقتٍ واحد وكان كل واحد منهم يحرم ويلعن الآخر فاعاد اوثون بنديكتوس السابع الى كرسي الحبرية وبعد ذلك بمدة يسيرة توفي في رومية وعمرهُ ٢٨ سنة

وخلفهُ ابنهُ اوثون الثالث سنة ٩٨٣ فكانت بداءة ايامهِ متعبة بسبب تمرد الايطاليابيين لانهُ كان قد ظهر يومئذٍ في رومية رجل يقال لهُ كريسنتيوس لقَّب نفسهُ قنصلاً وشرع بارجاع المشيخة الى رومية بعدما خلع البابا غريغوريوس عن كرسيهِ فوافقتهُ عامة الشعب على هذا المشروع ولكنهُ لم يتمكن من اتمام مقاصدهِ اذ لم يجد بين الشعب الروماني محبة الحرية . فوافاهُ اوثون الثالث وحاربهُ في مدينة ميلان وقبض عليهِ وقتلهُ بعدما استولى على المدينة ثم اعاد البابا غريغوريوس الى كرسيهِ . وقد استظهر هذا الامبراطور على الدنيمارك وعقد معاهدةً مع ملكها ابريك الذي كان ملكًا ايضًا على اسوج ونروج ومن جملة الشروط المدرجة فيها ان يسمح الملك ابريك للمرسلين المسيحيين بالدخول الى بلادهِ وتكون لهم الحرية في تعليم الشعب فاتى ذلك بفوائد جليلة. ومن جملة اعمالهِ ايضًا انهُ طرد المسلمين من جنوبي ايطاليا حيث كان صار لهم ٤ سنة يغزون البلاد

وبعد موت اوثون الثالث وقع الانتخاب على هنري الثاني حفيد اوثون الثاني فاقاموهُ امبراطورًا عليهم وكان المذكور على جانب عظيم من التواضع والزهد حتى قيل انهُ نزع تاج السلطنة عن راسهِ وذهب الى بعض الاديرة قاصدًا ان يصرف باقي عمرهِ في العيشة المنفردة . فقال لهُ رئيس الدير ذات يوم وكان قد قبلهُ كاحد الرهبان اعلم ايها الاخ انهُ من شروط الرهبنة الطاعة والخضوع لاوامر الرئيس فبحسب كوني رئيسك آمرك الآن ان ترجع الى كرسيك فان ذلك افضل جدًّا من انسحابك فاجاب هنري سؤالهُ ورجع الى سرير ملكهِ واستمر امبراطورًا الى ان توفي سنة ١٠٢٤ . فاجتمع امراءُ جرمانيا

للمفاوضة والمذاكرة في انتخاب خليفة لهُ وبعد مرور ستة اسابيع اتفق رايهم على كونراد الثاني امير مقاطعة فرانكونيا فبايعوهُ بالملك والبسوهُ التاج وفي مدة حكمهِ الحقت برغونيا بالسلطنة الجرمانية . وبعد موتهِ خلفهُ هنري الثالث فكانت ايامهُ في بداية الامر مشتبكة بحروبٍ متصلة مع المجر واهالي بوهيميا وبولونيا فانتصر في جميع وقائعهِ . وكانت سطوتهُ مطلقة اكثر من جميع سلفائهِ من سلاطين جرمانيا فتذمر اشراف الشعب من صنيعهِ وحقدوا عليهِ ولكنهم لم يستطيعوا التظاهر بالعداوة الى ايام ابنهِ هنري الرابع الذي تبوأ سرير السلطنة سنة ١٠٥٦

واشتهر حكم هنري الرابع بالحروب والفتن التي وقعت بينهُ وبين بابا رومية بسبب حق تسمية وتقليد الاكليروس وظائفهم . وقد ذكرنا فيما تقدم ان اوثون الكبير ومن خلفهُ قد جعلوا هذا الامر تحت سلطة كرسي السلطنة ولكن في ايام هنري الثالث انكر عليهم هذا الحق البابا اسكندر الثاني واصدر منشورًا يصرح بهِ انهُ بما ان السلطة الروحية هي اعظم من السلطة العالمية فلا يليق للاكليروس ان ياخذوا تسميتهم وحق التصرف بوظيفتهم من روساء عالميين بل انهم ينالون ذلك راسًا من الله وبناءً عليهِ ينبغي ان الامبراطور يخضع للسلطة الكنائسية ولا يكون لهُ حق ان يتصرف بملكهِ الا برخصة من البابا . ففي ايام هنري الرابع الذي نحن بصددهِ ارسل اليهِ البابا غريغوريوس السابع رسولاً يمنعهُ عن التشبث في دعواهُ بحق السيامات الاكليريكية ويطلب اليهِ ان يجتنب التعدي على ما هو من وظائف البابوات فلم يقبل هنري ترك هذه الحقوق لانها كانت ثابتة لاسلافهِ فرفض مداخلة البابا في ذلك واحتقر رسولهُ وردهُ خائبًا . فغضب غريغوريوس من معاندة هنري واذ كان يعلم ما في قلوب اشراف الجرمانيين من البغضة والعداوة المتسلسلة من ايام هنري الثالث وما قبل اشهر حرمًا ضد هذا السلطان مانعًا اياهُ عن التصرف بحكمهِ ومحرضًا الشعب للخروج عن طاعتهِ فنشأ عن ذلك منازعات شديدة افضت لاخذ

الاسلحة وسفك الدماء زمنًا طويلاً . وتُعرف تلك الحروب بحروب السيامات الاكليريكية . وكان من جملة من خرج عن طاعة هنري الرابع امراء المانيا واعيانها واكابر قسوسها فاخذوا في قتالهِ وحرضوا عليهِ امهُ وزوجتهُ واولادهُ حتى ابغضوهُ وتبرأوا منهُ وانضموا الى حزب اعدائهِ . فاصبح هذا الامبراطور محاطًا بالاخطار من جميع قومهِ ومتروكًا من اهلهِ ولم يجد سبيلاً للتخلص من تلك الورطة الاَّ بواسطة تمهيد غضب الحبر الروماني فذهب اليهِ سنة ١٠٧٦ الى ايطاليا ليطلب العفو والسماح على ما صدر منهُ فلم يقبلهُ البابا في اول الامر بل ابقاهُ ثلاثة ايام داخل الدار الخارجية ملفوفًا بعباءة وحافي الرجلين في شهر كانون الثاني ثم بعد ذلك اذن لهُ بالدخول عليهِ . وبعد ما اخذ عليهِ عهد الطاعة واشرط عليهِ شروطًا مفضحة حلهُ من الحرم واطلقهُ . ولكن بعد ذلك بسنتين نهض هنري للانتقام من البابا وكان قد تحزب معهُ جمهورٌ غفيرٌ من اللومبارديين وبينما كان مشتغلاً في محاربتهِ عصتهُ رعاياهُ فحرمهُ البابا ثانيةً ونادى بتنزيلهِ بعد ان عيَّن مكانهُ رودولف امير الصوابيين فلم يثنِ عزم هنري عن الاستمرار في سبيل تتميم مقاصدهِ فاخذ عاجلاً في تقوية قوتهِ الحربية وكان قد استمال اليهِ بعض الاساقفة الذين لم يسرُّوا من صنيع غريغوريوس فانزل البابا عن كرسي الحبرية بالقوة الجبرية واقام مكانهُ اكليمنضوس الثالث . ثم ان هنري بعد ما اخمد الفتن الداخلية في جرمانيا وقتل رودولف اثنى على ايطاليا واقام الحصار على رومية حتى افتتحها بعد سنتين متواليتين اما غريغوريوس فهرب والتجأ الى روبرتوس ملك نورمنديا ومات هناك . وبعد رجوع الامبراطور الى جرمانيا نهض جماعة من اهل رومية ممن كانوا يعادون هنري المذكور فانزلوا البابا اكليمنضوس الذي كان قد اقامهُ واقاموا مكانهُ البابا فيكتور الاَّ انهُ لم تطل ايامهُ حتى توفي وبموتهِ فُتح الباب لدخول اوربانوس الثاني

اما هنري فكانت مصائبهُ الاخيرة اشرَّ من الاولى لان البابا اوربانوس

هيج عليهِ الحروب من كل جهة وجعل ابنهُ كونراد يقوم عليهِ ويعصيهِ ويتحد مع باقي اعدائهِ فاستخلص اكثر ولايات ايطاليا بمساعدة البابا المذكور واقام عليها ملكًا ولكن لم يصفُ الزمان لا للبابا اوربانوس ولا لكونراد لان الموت فاجاها في وقتٍ قريب . فخلف اوربانوس البابا باسكال الثاني وقد حذا حذو سالفهِ فانهُ عند جلوسهِ على كرسي الحبرية اشهر حرمًا ضد هنري الرابع واغرى هنري ابنهُ الاصغر ان يعصي اباهُ ويجلس مكانهُ كما اغرى اوربانوس كونراد قبلهُ فنجح الابن بهذا المشروع وخلع والدهُ عن سرير السلطنة واذلهُ وجلس مكانهُ تحت اسم هنري الخامس فهرب هنري الرابع الى بلاد البلجيك وهناك صرف باقي عمرهِ باحتياجٍ شديد

وقد نشأ عن المشاجرة التي حصلت بين هنري المذكور وبين البابا غريغوريوس عداوة مرَّة وحروب كثيرة بين حزبين عظيمين احدهما يقال لهُ حزب الغوالف والاخر حزب الجبيلين . فمكثت نيران تلك الحروب مضطرمة بين المانيا وايطاليا ثلاثة قرون من غير خمود فكان حزب الغوالف يعضد الباباوات ومدَّعياتهم وحزب الجبيلين يحامي عن شوكة الامبراطورية ولا محل هنا لذكر الوقائع والخسائر التي حدثت بسبب تلك الحروب

اما هنري الخامس فلم يستقرّ زمانًا طويلاً مكان ابيهِ حتى اخذ يسلك سلوكهُ في مقاومة الكنيسة وروسائها وذلك لان البابا باسكال كان لا يزال مصرًّا على رفض حقوق السلاطين والملوك في المداخلة بمسئلة السيامات الاكليريكية . فاستمر هنري الخامس في تلك المنازعات عدة سنوات يغزو ايطاليا ويضرّ بها حتى اضعف شوكة البابا بتكرار مغازيهِ وحروبهِ واخيرًا اسرهُ والزمهُ قهرًا ان يقر لهُ بتلك الحقوق ويخضع لسلطانهِ غير ان البابا بعد تخلصهِ من قبضة الاسر اقام الحجة على تلك المعاملة الاغتصابية التي اجراها معهُ الامبراطور هنري وحرمهُ واستشاط هنري غيظًا وقصد مدينة رومية بالعساكر والابطال فاضرَّ بها وباملاكها ضررًا جسيمًا وطرد البابا منها واقام حبرًا اخر مكانهُ وكسر شوكة

المعاندين. واستمرت تلك المنازعات مدة ليست بيسيرة حتى قام البابا كاليكتوس الثاني واصلح الامور بواسطة مجمع عقدهُ في مدينة ورمس حيث تنازل الامبراطور هنري الخامس لكرسي رومية في حق التصرف الديني للاكليروس . وكان هذا الامبراطور قد اقام حروبًا كثيرة مع المجر واهل بولونيا وفرانسا وغيرها فعُدَّت مدة احكامهِ من جملة الاحكام الدموية التي جرت في ممالك اوروبا ثم توفي سنة ١١٢٥ ولم يترك نسلاً

وجلس بعدهُ على سرير السلطنة لوثير امير سوبانبرج سنة ١١٢٥ بانتخاب الشعب فحارب البوهيميين واخضعهم ثم انتصر للبابا اينوسنت الثاني ضد اناكليتوس الذي ادَّعى بالباباوية وزحف على ايطاليا لاجل توطيد سلطة البابا في رومية . وكان روجير امير مملكة ابوليا متعصبًا لاناكليتوس فوقع بينهما حربٌ بهذا السبب الجأت روجير ان يترك املاكهُ في ايطاليا ويقصد سيسيليا التي كان قد تملكها مؤخرًا من المسلمين واما اناكليتوس فكان قد قُبض عليهِ وسُجن

وتبوأَ تخت السلطنة بعد لوثير المذكور كونراد الثالث سنة ١١٤١ وفي ايامهِ وقعت حروب اهلية كان سببها امير ولاية بافاريا الذي انكر على كونراد حق السلطنة فنهضا لمحاربة بعضهما بعضًا واستمرت بينهما الحروب زمنًا طويلاً . وبعد نهايتها اشترك كونراد في الحروب الصليبية فسار بجيش عديد الى بيت المقدس ولكنهُ رجع بالخيبة كما مرَّ ذلك في تاريخ الصليبيين . ثم تولى بعدهُ زمام السلطنة فريدريك بارباروسا سنة ١١٥٢ بانتخاب الشعب وكان شجاعًا مقدامًا وبطلاً هامًا حارب البولونيزيين واخضعهم واوقع الرعب في قلوب البوهيميين الذين كانوا لا يفترون عن التظاهر بالعصاوة والتمرُّد . ثم حارب ملك الدنيمارك واذلهُ . وكان وقتئذٍ اللومبارديون يصبون لاستنشاق نسيم الحرية والتخلص من جور جرمانيا فشجعهم على ذلك البابا اسكندر الثالث فخلعوا الطاعة ورفعوا راية العصيان على السلطنة فحاربهم فريدريك ولم يفز منهم بطائل . ثم

زحف الى ايطاليا بجيش جرار لاخذ الثار والانتقام من اهلها لانهم كانوا سببًا لهذه الحروب فحاصر بعض مدن تلك البلاد وهدمها ولاسيما ميلان فانهُ على ما قيل محاها بالكلية وزرعها ملحًا

ثم خلفهُ ابنهُ هنري السادس سنة ١١٩٠ وكان كابيهِ موصوفًا بالشجاعة وقوة البأس فادَّعى بتاج ملك صقلية بعد موت وليم ملكها لان زوجتهُ كانت اخت الامبراطور المذكور فانكرت عليهِ مالك ايطاليا هذا الحق واذ اعترضوهُ في هذا الامر جرَّد عسكرًا وزحف بهِ على ايطاليا واستولى تقريبًا على كل كامبانيا وكالابريا وابوليا ثم افتتح في تجريدةٍ اخرى مملكتي صقلية ونابولي ونال ما كان يؤملهُ. وكانت مقاصد هذا الملك متجهة الى ابطال عادة انتخاب السلاطين وان يجعلها وراثيةً في عائلتهِ فسمحوا لهُ بعد مشاجرات طويلة بتسمية ابنهِ فريدريك الثاني امبراطورًا من بعدهِ. وكان فريدريك المذكور صغير السن عند موت ابيهِ فأُقيم عمهُ فيليب وصيًا عليهِ الى ان بلغ العمر اللائق فاستلم زمام السلطنة. وكانت وقتئذٍ الحروب الصليبية منتشرةً في بلاد الشرق. واذ رغب البابا في ان يستميل هذا الامبراطور لمعاضدة الصليبيين ازوجهُ بابنة يوحنا بريانَّ ملك القدس بعد ان وهبها ابوها تلك المملكة في مقابلة جهازها وكان البابا يلحّ عليهِ للقيام الى تلك الجهات فوعد فريدريك بالذهاب ولم يذهب. ولما طال الوقت وانقطع الامل لم يعد الحبر الروماني يجد سبيلاً سوى اشهار الحرم على فريدريك الامر الذي دعى هذا الامبراطور الى اشهار الحرب على ايطاليا. فزحف اليها وضيَّق عليها فالتزم البابا ان يهرب من رومية ووضع فريدريك يدهُ على كل املاك الكرسي الروماني. ثم وفى بعد ذلك نذرهُ وذهب الى الاراضي المقدسة فنجح في سفرتهِ اكثر من سلفائهِ اذ عقد صلحًا بدون حرب على عشر سنوات مع الملك الكامل الايوبي تحت شروط معلومة منها استرجاع مدينة القدس مع بعض البلاد المجاورة. ولما صمم فريدريك ان يتوّج نفسهُ ملكًا على مدينة القدس اعترضهُ البابا غريغوريوس التاسع في ذلك ومنع الاكليروس عن تتويجهِ

فالتزم فريدريك ان يتناول التاج عن المذبح ويتوّج نفسهُ بيدهِ. فحرمهُ البابا ثانيةً وبهذا السبب اتشبت الحروب مرة اخرى بينهُ وبين ايطاليا واشتدت بهذا المقدار حتى جرت فيها الدماء كسواقي الماء . وبينما كانت جرمانيا في تلك الايام مضطربة الاحوال وعديمة الانتظام من جرى الحروب والوقائع نهضت بعض الممالك المخالفة مع السلطنة الجرمانية وهي دنيمارك وهولاندا وهنكاريا وخلعت الطاعة واستقلت

وسنة ١٢٤١ جرى الاتحاد المعروف بالاتحاد الانسياتيكي بين اكثر مدائن جرمانيا الجنوبية مثل هامبورج ولوبيك وبرونزويك وغيرها قصدًا لحفظ حريتهم وردع سطوة امراء الولايات واهل الطمع عن اذيتهم . وقد نسمّت تلك المدن بمدائن الهانس التي معناها باللغة الجرمانية المدائن المشتركة واتى هذا الاتحاد بنتائج مفيدة التجارة بهذا المقدار حتى انهُ دخل تحت لوائهِ ثمانون مدينة من اعظم المدائن الكائنة على بحر البلتيك ونهر الرين واقتطف اهاليها اثمار المكاسب والسلم والقوة الناتجين ضرورةً من التوافق والتعاضد . وكانت المعاهدة الانسياتيكية مكرمة ومهابة عند الجميع حتى ان اعظم الملوك كانوا يودُّون مصاحبتها ويخشون بأسها ويحافظون على علاقاتها الحبية معها. ولكن عند اكتشاف اميركا وافتتاح باب جديد للتجارة اخذت صوالح المدن الانسياتيكية ترجع الى الوراء فانحلَّ عقد ذلك الاتحاد سنة ١٦٣٠ ولم يبقَ مشتركًا فيهِ سوى ثلاث مدن فقط وهي هامبورج وبريم ولوبيك وانضمت هذه ايضًا الى بروسيا سنة ١٨٦٧ ولم يبقَ للحكومة الانسياتيكية اسمٌ الآن

ثم بعد موت فريدريك الثاني حدث اضطراب عظيم بسبب انتخاب خليفة لهُ فتسمى جملة اشخاص ولكنهُ لم يقع اتفاقٌ عامٌ على احدٍ منهم حتى قام اخيرًا رودلوف هابسورج احد الامراء المشاهير من عائلة الغوالف القديمة وكان ذا ثروة واملاك كثيرة في بلاد السويس فبايعوهُ بالسلطنة سنة ١٢٧٣ ومنهُ نبغت

ملوك النمسا وكثيرٌ من ملوك جرمانيا ضربنا صفحًا عن ذكرهم لعدم اهمية اخبارهم في مختصرٍ كهذا الى حين ظهور الامبراطور كارلوس الخامس المعروف بشارلكان

الباب الثالث

في بعض اخبار مرتينوس لوثيروس والاضطراب الذي حدث في جرمانيا بسبب آرائهِ الدينية

ان اول من تظاهر في اراء دينية مخالفة للمعتقد الروماني الكاثوليكي بعد ويكليف الانكليزي رجل يقال لهُ يوحنا هس من مدينة براك في بوهيميا في اواخر الجيل الثالث عشر وبسبب اذاعتهِ تلك الاراء ومناداتهِ بها بين الشعب حدث شجس عظيم في الكنيسة. ولما عظم الامر واشتد قصد سجيسموند سلطان جرمانيا ان يزيل تلك الاسباب ويصلح حال الكنيسة فاتفق مع الحبر الروماني على عقد مجلس للنظر في تلك الامور فعُقد مجمعٌ في مدينة قسطنسية التابعة امرية بادن سنة ١٤١٤ وأُحضر يوحنا هس للمرافعة فحكم عليهِ بالهرطقة ومن ثم بالموت فحُرِق ولم يرتد عن ارائهِ . وكان ليوحنا هس صديقٌ عالمٌ يقال لهُ جيروم فوافقهُ في ارائهِ وعلَّم بها فاصابهُ ما اصاب صديقهُ ومات حرقًا بالنار بعد رفيقهِ بسنتين ولكن لم تُمت تلك التعاليم بموت ذينك الرجلين فانها امتدت اكثر فاكثر واشغلت افكار الشعوب حتى انفجرت اخيرًا في الجيل السادس عشر بمناداة مرتينوس لوثيروس

وكان لوثيروس المذكور من مدينة اسلابان من اعمال سكسونيا وُلد سنة

١٤٨٣ ومع ان اهلهُ كانوا من ذوي الفقر والفاقة ترّبي تربية جيدة وتمكن من العلوم وكان لهُ صفات خصوصية تدل على نباهتهِ وندور قريحتهِ وكانت نفسهُ تميل طبعًا الى معرفة الامور الصعبة التي تقصر دونها هم الرجال وكان زاهدًا في امور الدنيا يحب الوحدة والانفراد . فدخل الى دير من اديرة الرتبة الاوغسطينية وترهب واشتهر بالتقوى والصلاح والاجتهاد الغريب في المطالعات والعلوم اللاهوتية وعثر يومًا على نسخةٍ من الكتاب المقدس في مكتبة الدير فاخذها وبذل جهدهُ في تصفحها ومراجعتها المرة بعد الاخرى حتى تمكن من تعاليمها ومعانيها فاقتبس منها ايات كثيرة لم يكن اقرانهُ قد اعتادوا على استعمالها فحصل على تقدم عظيم وشهرة فائقة حتى ان فريدريك امير ساكسونيا انتخبهُ ان يكون معلمًا للفلسفة واللاهوت في مدرسةٍ انشأها في مدينة وتمبرج . وكان وقتئذٍ البابا لاون العاشر حبرًا في رومية فتوسع سنة ١٥١٧ في منح الغفرانات التي كان سلفاؤهُ قد شرعوا فيها لمن يذهب ويساعد في الحروب الصليبية او لمن يبذل شيئًا من الدراهم لبناء كنائس او مقاصد اخرى دينية ووجّه اناسًا مخصوصين لبيع تلك الغفرانات بالدراهم وفاءً عن ذنوبهم ومعاصيهم من جملتهم احد رهبان الدومينيكيين البلغاء اسمهُ تتزل فكان يجول مع رفقائهِ بين شعوب جرمانيا مناديًا بالبركات الروحية التي تعقب الغفرانات الممنوحة من راس الكنيسة المنظور ببيعونها للعامة بابخس الاثمان . فنفرت قلوب الملوك والامراء من ذلك الصنيع اذ راوا اموال رعاياهم ذاهبة الى خزينة البابا لاون لينفقها في الاسراف والتبذير . وكان كثيرون من اتقياء الناس يتاسفون على ضلال العامة في تصديق ذلك التعليم والاعتماد عليهِ في خلاص الانفس من جملتهم مرتينوس لوثيروس الذي نحن في صددهِ فانهُ لم يتوقف عن المناداة علنًا في الكنائس والمحافل بفساد ذلك التعليم وغيرهِ من العقائد التي حسبها من البدع المضرة بالديانة والآداب فاستولى كلامهُ على قلوب الناس وجنحت العامة على استماع مقالاتهِ . فاقترح ٩٥ مسئلة تتضمن فحوى افكارهِ وارائهِ في

شان الغفران ونشرها على العامة وطرحها امام العلماء ليحولوا ويثبتوا منها ما استحسنوهُ وعيَّن اياماً معلومة لاجتماعهم لاجل المذاكرة والمفاوضة فيها وكان مع ذلك مظهراً غاية الطاعة والانقياد للكنيسة الرومانية

فمضت الايام المعينة ولم يأتهِ احد بل تصدَّى لمعارضتهِ بعض العلماء فكتبوا ردًّا على تلك المسائل ونشروها مشنعين بحقهِ كل التشنيع . وكانت استناداتهم في احتجاجاتهم مبنية على اراء العلماء والاحبار والقوانين الكنائسية اما هو فكان قدحهُ بيع الغفرانات مبنيًّا على نصوص وبراهين قاطعة مقتبسة من الكتاب المقدس ومن العقل السليم . فظهر للعامة ان مجادلة اولئك اللاهوتيين واعتراضاتهم انما كانت مبنية على اغراض نفسانية لا ثقة فيها نظراً لركاكتها ومخالفتها العقل والنصوص الالهية

ولما لم يفتر لوثيروس عن السكوت في تغليط تلك الاقوال اخذ اخصامهُ يلحّون على ديوان رومية بتأديبهِ ومعاقبتهِ لان تعاليمهُ كانت قد اثرت تاثيراً عظيماً في جميع الاقطار الالمانية وصارت من الامور الخطرة المقتضي مداركتها . فارسل البابا لاون يستدعي لوثيروس الى رومية للمحاكمة. فابى التوجه خوفاً من الغدر والخيانة والتمس فحص دعواهُ في نفس المانيا وساعدهُ على ذلك اصدقاؤهُ وامير سكسونيا وكتب هو كتاباً في ذلك الشان الى الحبر الروماني يظهر بهِ طاعتهُ وامتثالهُ لاوامر ديوان رومية فعفاهُ البابا لاون من التوجه الى رومية وامر نائبهُ في المانيا الكردينال كاتيجان ان يفحص تلك التشكيات ويحكم بما يستحسنهُ فذهب اليهِ لوثيروس الى مدينة اوجسبرج وجرى بينهما مباحثات ومجادلات كثيرة فسلك كاتيجان معهُ مسلك الكبر والعنفوان لا مسلك الحق والاذعان وتهدَّدهُ بالغضب والقصاص عند ما راهُ متشبثاً بارائهِ وغير منثنٍ عن عزمهِ فخاف عليهِ اصحابهُ وعملوا على ارجاعهِ لوطنهِ فقبل لوثيروس النصيحة ورجع . اما كاتيجان فلما بلغهُ هرب لوثيروس غضب وكتب الى فريدريك امير سكسونيا يطلب منهُ ان يقبض عليهِ ويرسلهُ اسيراً الى رومية فابى

فريدريك اجابة ذلك الطلب . ولكن مع كل هذه المساعدة كان لوثيروس في ريب وخوف من جهة دوام حماية فريدريك لهُ نظرًا لما يعلمهُ من سطوة الكنيسة في ذلك الوقت

واذ كانت حالة السياسة يومئذٍ في ارتباك بسبب موت الامبراطور مكسيميليان وانتخاب خليفة لهُ والكنيسة مهموكة في ذلك لم يلتفت كما ينبغي الى لوثيروس ومقالاتهِ فكان على نوعٍ ما في هدوٍ وسكون وتمكنت تعاليمهُ في قلوب كثيرين في سكسونيا وباقي جرمانيا واتصلت الى بلاد السويس حيث كانت تباع الغفرانات بدون عائق ولا اعتراض بمعرفة رهبان الفرنسيسكانيين. وعندما كانوا يعرضون هذه البضاعة على الشعب للبيع في مدينة زوريخ نهض لمقاومتهم زوينكليوس العالم الشهير وبجسارةٍ غريبة اعترضهم وصدّهم ولم يقبل بدخول هذا الامر الى وطنهِ ولم يحسب ذلك مضرًّا فقط بالعباد بل عدّهُ سلبًا واختلاسًا للحقوق الربانية ايضًا وساعدهُ على المجاهرة والتصدي لمقاومة تلك الاعمال حرية البلاد وحكومتها الجمهورية غير المقيدة براسٍ مخصوص فكان مطلق التصرف في حركاتهِ . فسر لوثيروس بذلك اذ وجد لهُ مساعدًا يؤيد رايهُ في تلك المسئلة المهمة وابتدأ حينئذٍ يتظاهر باكثر جسارة في فساد اعتقادات الكنيسة الرومانية حتى زلزل بمناداتهِ واعتراضاتهِ اركان قواعد ديوان رومية . حينئذٍ امتلأ البابا لاون وجميع اساقفة الكنيسة ومناصبها غيظًا وحنقًا على لوثيروس فعقدوا مجلسًا للبحث والمشورة في تلك التعاليم التي كان قد صار لها ثلاث سنوات تنتشر وتمتد بين قبائل المانيا واصدروا منشورًا يحرمون بهِ لوثيروس ومؤلفاتهِ وكل من يطالعها ويحثون العامة على حرق كتبهِ ورسائلهِ وعينوا لهُ مهلة ٦٠ يومًا للتوبة والرجوع الى حضن الكنيسة وانهُ بعد مضي المدة المذكورة ان لم يرجع ويعترف بخطائهِ على رؤوس الاشهاد يكون مقطوعًا ومخذولًا وضالًا

فلم تفتر همة لوثيروس من هذا الحرم لانهُ كان منتظرهُ من قبل بل زاد تشبثًا بما عندهُ واخذ يذم البابا وظلمهُ وتعدّيهُ مسميًا اياهُ المسيح الدجال ويحرّض

الملوك على الخروج عن طاعتهِ وعدم الانقياد لامرهِ وافتخر بكونهِ استوجب غضبهُ حبًّا بحرية البشر والصالح العمومي . ومع انهُ الى ذلك الوقت لم يتّبع احدٌ من الامراء وعظماء الناس مذهب لوثيروس ولم يكن قد حصل تغيير في صورة الدين ولكنهُ تقرَّر في عقول الاكثرين مجادلات لوثيروس واعتراضاتهُ وادركوا ضعف احتجاجات الاكليروس واستحسنوا التخلص من اسر ديوان رومية وفرحوا بالفرصة التي اتتهم للهرب من تحت ذلك النير . على انهُ يجب ان نذكر ان الطرق التي سلك فيها لوثيروس لاجل انتشار تعاليمهِ ومذمتهِ من لم يوافقهُ عليها اوجبت لهُ اللوم في الاعصر المتاخرة وحُسبت من المثالب غير اللائقة ولكن لم تنفر منها القلوب في عصرهِ بل تلقَّاها الجميع بفرحٍ وقبول لان الناس كانوا في قلقٍ وكرب من جور رومية وتعديها

ولما تبوأ شارلكان سرير سلطنة جرمانيا وراى انهُ لا بد لهُ من استمالة البابا اليهِ لاجل مصالحهِ في بلادهِ الخارجة عن سلطنة جرمانيا ولاسيما لاجل مقاومة عدوهِ الاكبر فرنسيس الاول ملك فرانسا لم يجسر على المحاماة عن لوثيروس فالزمهُ ان يحضر الى مدينة وُرمس امام الجمعية المنعقدة فيها تحت رياسة الامبراطور نفسهِ لكي يجاوب عن المشكيات والدعاوي القائمة عليهِ . فذهب بكل جسارة وتلقاهُ الاهالي بالاكرام والاحترام وكان عدد المحدقين بهِ من الناس اكثر من اجتمع حول شارلكان وقت دخولهِ المدينة بالاحتفال . ولما وقف لوثيروس امام ذلك المجلس اظهر من الشجاعة والبسالة ما يدل على ثبات جنانهِ ومع انهُ اعترف بكونهِ تجاوز الحد في طعنهِ وذمهِ الكنيسة قال انني لا احيد عن معتقدي الَّا اذا اقنعتموني بالبراهين القاطعة والادلة الواضحة من كلام الله عن بطلانهِ

واذ لم تنفع معهُ المحاورات والتهديدات اشار بعض القسوس على ارباب المجلس ان يسلكوا معهُ سلوك جمعية قسطنسية مع يوحنا هس ويريحوا الكنيسة من هرطقة هذا المبتدع . فلم يُقبَلْ ذلك الراي لانهُ كان حضر تحت الاستئمان

ويُحسب الغدر بهِ على تلك الصورة من الامور المنكرة فمضى لوثيروس آمنًا . ولكن بعد ذهابهِ بايامٍ يسيرة صدر امرٌ من البابا باسم شارلكان وعموم مجلس وُرمس بتاريخ ٢٦ نيسان سنة ١٥٢١ مضمونهُ ان لوثيروس قد استوجب القتل وانهُ لا يجوز لاحدٍ من الامراء والاعيان ان يدخلهُ تحت ظل حماهُ بعد نهاية المدَّة المعيَّنة في ورقة الامان .

واذ كان فريدريك امير ساكسونيا محبًّا للوثيروس وعرف انهُ لابد من قتلهِ اذا بقي جائلاً حسب عادتهِ ارسل لهُ جماعة من الفرسان قبضوا عليهِ في الطريق وهو راجعٌ من وُرمس وجاءوا بهِ الى قلعة ورتبورج حيث بقي تسعة اشهرٍ تحت الحفظ في مكان خفي لا يطلع احدٌ عليهِ صارفًا اوقاتهُ في الكتابات والتأليفات الدينية لاجل احياء عزم اصحابهِ التابعين آراءهُ وبواسطة صديقهِ ملانكثون العالم البليغ كانت تلك المؤلفات تُطبع وتُنشر بين الناس . وبينما كان لوثيروس في ذلك المنفى اخذ يترجم بعض الكتاب المقدس الى اللغة الجرمانية مسميًا سجنهُ باسم بطمس اشارةً الى الجزيرة التي نُفي اليها يوحنا اللاهوتي . فكان المذهب اللوثيري في تقدم وانتشار مع كل المقاومات والاضطهادات التي هاجت عليهِ ليس فقط في جرمانيا وايطاليا بل في فرانسا وانكلترا ايضًا لان جمعية العلوم في باريس (اونيفرسيته) اصدرت حكمًا قاطعًا ببطلان مذهب لوثيروس واعلنت ذلك بكتابات رسمية لمعرفة الجميع وكذلك هنري الثامن ملك انكلترا فانهُ كتب ردًّا على لوثيروس سماهُ بالاسرار السبعة مدافعةً عن الكنيسة الرومانية ولكن مع ذلك كلهِ لم ينثنِ عزم لوثيروس ولم يكترث بجمعية احبار باريس ولم يخشَ سطوة هنري الثامن بل بادر حالاً بنشر ردٍّ على حكم جمعية باريس وعلى كتاب الملك هنري وسلك في نصّهِ مسلك الخشونة والقدح ولم يُحسب ذلك وقاحةً منهُ في ذلك العصر بل كان برهانًا ودليلاً على جسارتهِ وثباتهِ . وبعد مضي تسعة اشهر من سجنهِ خرج من قلعة ورتبورج ورجع الى مدينة وتنبرج حيث قبلهُ الجميع فرحين .

واذ كان الامبراطور شارلكان يومئذٍ مهتمًّا باموارٍ اخرى اهمّ من امر لوثيروس تستدعي كل الالتفات اليها لاجل خير سلطنتهِ اشتهرت تعاليم لوثيروس وامتدت اكثر فاكثر في مدة الثمان سنوات التي عقَبت مشورة ورمس فاتصلت الى فرانسا وانكلترا وهولاندا .ولكن لما هدأَت حروب شارلكان مع فرانسا امر بالتئام مجمع في سپاريس لاجل فض الجدال الديني الذي اوجب القلق فصدر حكم المجلس المذكور بتثبيت حكم مجمع ورُمس ورفض التعاليم المستجدة. فاجتمع حينئذٍ امير ساكسونيا مع بعض الامراء والوكلاء الى مدينة من مدائن جرمانيا واقاموا الحجة على ذلك الحكم ومن ذلك اليوم غلب عليهم وعلى تابعي الاصلاح لقب بروتستانت اي محاجين . ثم امر شارلكان بعقد مجلس اخر في اوجسبورج لم يسمح البروتستانت للوثيروس ان يحضرهُ خوفًا عليهِ من الغدر فحضر مكانهُ ملاكثون وقدَّم للمجلس صورة الايمان البروتستانتي واجتهد ان يصلح الحال بين الطرفين فلم يأْتِ ذلك بادنى فائدة واصدر المجلس حكمًا صارمًا ضد البروتستانت حينئذٍ اجتمع البروتستانت وعقدوا تحالفًا بعضهم مع بعض سنة ١٥٣١ وهو المعروف بمحالفة سمالكالد (اسم مدينة في جرمانيا) اتحد بها جميع البروتستانت وتعهدوا على مقاومة من يقاومهم واجروا ايضًا اتحادًا سرّيًا مع هنري الثامن ملك انكلترا وفرنسيس الاول ملك فرانسا عدو شارلكان الاكبر. فمن ذلك الوقت الى سنة ١٥٤٤ كانت جماعة البروتستانت في المانيا في راحة وهدوٍ بسبب انشغال شارلكان بمحاربة فرانسا والاتراك فكانوا ينمون ويزدادون في كل اقطارها وفي البلاد الخارجية ايضًا . وسنة ١٥٤٦ توفي مرتينوس لوثيروس تاركًا الاسف لجميع اصحابهِ .

الباب الرابع

في اخبار الامبراطور كارلوس الخامس المعروف بشارلكان

ان اخبار هذا الامبراطور وسيادتهُ على اوروبا مما نستحق ان تُخلَّد في بطون التواريخ نظرًا لشهرتهِ وكثرة وقائعهِ وحروبهِ ومهما قصدنا ان نطيل الكلام في ذكر اخبارهِ وحالة اوروبا في عصرهِ لا نستطيع ان نستوفي الشرح اللازم عنها في هذه الصحف ولذلك نختصر ونقول . ان شارلكان هو الابن الاكبر لفيليب ارشيدوك النمسا وامهُ حنة ابنة فردينند ملك اسبانيا وايزابلة ملكة اسبانيا . وُلد سنة ١٥٠٠ للميلاد وتربى في بلاد الفلمنك التي ورثها عن ابيهِ وتتوَّج ملكًا على اسبانيا ونابولي سنة ١٥١٦ بعد موت جدهِ فردينند . وكان مكسيميليان الاول امبراطور جرمانيا جدهُ ابا ابيهِ . فلما توفي هذا الامبراطور انتخب الشعب شارلكان خليفةً لهُ سنة ١٥١٩ وكان من افراد رجال الدهر ذا سطوة وشوكة فتحسنت احوال السلطنة في ايامهِ ووقعت هيبتها في قلوب ملوك اوروبا لان الدولة الجرمانية وقتئذٍ كان لها التقدم ونفوذ الكلمة على سائر الدول الافرنجية لاسيما اذا كان امبراطورها من اصحاب الذكاء والمهارة

ولكن قبل جلوس شارلكان على سرير سلطنة جرمانيا نهض فرنسيس الاول ملك فرنسا وزاحمهُ على لبس التاج اذ ارسل رسلاً الى بلاد المانيا لالقاء الوساوس بين الشعب وعدم قبولهم شارلكان امبراطورًا مظهرًا لهم انهُ صغير السن وليس فيهِ لياقة واهلية لمكافحة المسلمين الذين كانوا يتهددون ممالك اوروبا وان السلطنة تحتاج الى رئيس خبير صاحب دراية وسياسة لكي يخمد بحكمتهِ نيران الاضطرابات الممتدة في داخليتها بسبب المنازعات الدينية التي اشغلت عقول الاكثرين . وكان مع تلك النصائح يبذل المال والهدايا لمن

بيدهِ زمام الحل والربط ليستميلهم اليهِ ولكن كل تلك الوسائط لم تنفع لان الالمانيين بوجه العموم رفضوا سؤالهُ ولم يرتضوا باقامة امبراطور اجنبي عليهم فبحسب عادتهم في اوقات كهذه اجتمع روساء الممالك وعقدوا مجلسًا عامًّا في مدينة فرانكفورت حيث استقر راي السبعة الذين لهم حق الانتخاب بمبايعة شارلكان بعد ما اختاروا اولاً فريدريك امير ساكسونيا ولم يقبل

فلما اشتهر في ممالك اوروبا وقوع الانتخاب على شارلكان غضب فرنسيس الاول غضبًا شديدًا وداخلهُ من الحقد والحسد ما يداخل كل من كان طماعًا وصمم من ذلك الوقت على معاكستهِ ومقاومتهِ كما كان شارلكان ايضًا عند حصولهِ على ما كان يصبو اليهِ صمم ايضًا على الانتقام من عدوهِ ومن ثم نشأَت العداوة التي تخمد نيرانها في كل مدة هذين الملكين . على انهُ كان يوجد اسباب أُخر موجبة للنفور والخصام بين الطرفين . منها ان مملكة نابولي كانت في ايدي الفرنساويين فاستخلصها منهم فرديناند ظلمًا وعدوانًا وضمها الى اسبانيا فكان فرنسيس يسعى لاسترجاع تاجها . ومنها ان امرية ميلان كانت وقتئذٍ في ايدي فرانسا وكان شارلكان يطلبها كاراضي امبراطوريتهِ وحسب امرية بورغونيا ايضًا من متروكات اجدادهِ وان وضع يد فرانسا عليها هو من باب التعدي والاغتصاب. فهذه الاسباب مع ما تقدم ذكرهُ من العداوة هيجت الفتن بين فرانسا والمانيا زمنًا طويلاً واشترك فيها اكثر الدول الاوروبية

واذ كانت انكلترا وقتئذٍ ذات صولة وشوكة تحت حكم ملكها هنري الثامن اخذ كلٌّ من شارلكان وفرنسيس في استعمال الوسائط لاستجلاب خاطر هذا الملك اليهِ فنجح شارلكان بنوال غايتهِ بواسطة الكردينال ولسي وزير هنري الثامن واعدًا اياهُ بالكرسي الحبريّ . فانضم هنري الى الامبراطور شارلكان وكان سندًا عظيمًا لهُ ضد فرانسا . اما البابا لاون فكان يتردد في اول الامر بين الحزبين محتارًا في سياستهِ لان الخصمين كانا قويين ولا بد للمنتصر منهما من الاستيلاء على كل ممالك ايطاليا مع ان غايتهُ العظمى كانت ابعاد الاثنين عن

ايطاليا واستخلاصها من ايدي الاجانب فمكث مدة وهو يتردد ولكنهُ اخيرًا عقد معاهدة مع الملك فرنسيس ووعدهُ بمساعدة الايطاليانيين بشرط ان يقتسما بينهما مملكة نابولي التي كانت تحت تسلط شارلكان . ولكن بعد ذلك بقليل تنحّى البابا لاون عن فرنسيس وانضمَّ الى حزب شارلكان وعقد معهُ شروطًا ضد فرانسا فكانت تلك المعاهدة اساسًا لشوكة شارلكان في ايطاليا

فبناء على هذه المعاهدة نشر المتعاهدان راية الحرب على فرانسا وبينما كانا مستعدين على مهاجمة امرية ميلان اشتبكت الحرب في مملكة نافار التابعة اسبانيا . وسبب ذلك ان هذه المملكة كانت في ايدي عائلة والبرت على نوعٍ من الاستقلال واستخلصها منهم الاسبانيوليون في زمن ملكها حنا والبرت . وطلب اولاد هذا الملك مرارًا عديدة من شارلكان ان يردَّ لهم مملكة ابيهم فكان يحاولهم من وقت الى آخر فانتصر لهم فرنسيس ملك فرانسا وامدَّهم بالجيوش الفرنساوية فدخلوا المملكة وتغلبوا عليها اذ لم يجدوا فيها من يقاومهم ثم تقدموا على مملكة كاستيل واقاموا الحصار على بعض مدنها فوافتهم حينئذٍ العساكر الاسبانيولية وانضمت الى عساكر كاستيل وهجمت عليها وقاتلتهم واذ كان قائد الجيوش الفرنساوية الامير لسبار لا يحسن ادارة العساكر انهزم ثم أُسر مع جملة من أُسر من اعيان الضباط واسترجع الاسبانيوليون مملكة نافار في وقتٍ اقلَّ مما لزم للفرنساوية لافتتاحها

واذ راى فرنسيس ما حلَّ بجنودهِ ازداد حنقًا واخذ يبحث عن علة يتعلل بها ليهجم على اراضي شارلكان فاخذ يهيج الامير روبرت دي لامرك ملتزم اقليمي بُولون وشمبانيا ليخرج عن طاعة شارلكان فقبل روبرت النصيحة وبعث اليهِ يعلمهُ بما قد صمم عليهِ وبعد ما ضمَّ جيوشهُ الى الجيوش التي جمعها سرًّا من فرانسا زحف على لوكزمبورج وحاصر قلعة ورتون فتعجب شارلكان من وقاحة ذلك الامير وعرف باطن الطوية فاخذ يشكو من مداخلة فرنسيس الاول المغايرة العهود بينهما . فادَّعى فرنسيس بان ليس لهُ مداخلة في ذلك الامر وان

الجيوش الفرنساوية التي مع روبرت لم يرسلها هو برضاهُ بل انضمت اليهِ بدون علمهِ. واذ كان ذالك عذرًا غير مقبول ٍ ارسل شارلكان من ساعتهِ يطلب من هنري الثامن ملك انكلترا ان يوجه جنودهُ لمحاربة الفرنساويين فخاف فرنسيس من عواقب الامر وامر روبرت ان يطلق سبيل العساكر الفرنساوية. اما شارلكان فلم يكتفِ بذلك بل جهز الجنود وارسلها للانتقام من روبرت فتغلبت على سائر مدنهِ واقاليمهِ ثم بعثها الى فرانسا فاستولت على مدينة موزون وامتدت من هناك الى محاصرة ميزيير فلم تنجح هناك بل رجعت مدبرةً بالفشل والخيبة

حينئذٍ امر ملك انكلترا بانعقاد جمعية في مدينة كاليس لاجل المذاكرة في امر الصلح بين الطرفين فاجتمع الوزراء واخذوا يتخابرون ويتداولون ولكن بدون فائدة لان كلاًّ من الدولتين كانت تطلب من الاخرى مطاليب باهظة. وفي اثناء المذاكرة ذهب الكردينال ولسي وزير انكلترا لمقابلة الامبراطور شارلكان في جرمانيا بقصد اقناعهِ للمساهلة في شروط الصلح ولكن لما اجتمعا تآمرا واعتصبا على حرب الملك فرنسيس وتوافقا على ان شارلكان يهجم عليهِ من جهة اسبانيا وهنري الثامن من جهة پيكارديا

وكان البابا لاون العاشر بناء على عهدهِ مع شارلكان وبناء على مخاصمتهِ مع فرنسيس ملك فرانسا بحجة تعدي حكومة ميلان الفرنساوية عليهِ وهتكها حرمة الكنيسة في اغارتها على بعض اراضيها قد تجهز واستعد لمحاربة فرانسا واستأجر عسكرًا من بلاد سويسرا وضمهُ الى جيوش الامبراطور فهاجموا الفرنساويين في امرية ميلان واستظهروا عليهم واخيرًا فتحوا مدينة ميلان واستولوا على باقي المدائن وفرَّ الجنرال لوتريك الفرنساوي الى ارض البندقية وانضمت مدينة پارما ومدينة پليزانسا الى الكنيسة وخسر الفرنساويون جميع املاكهم في البندقية ما عدا مدينة كريمون وبعض القلع والحصون. فلما بلغ البابا لاون اخبار تلك النصرة العظيمة كاد يطير فرحًا ولفرط سرورهِ أُصيب بحمَّى شديدة

لم يتدارك امرها في مبدإها فتمكنت منهُ ومات بها على زعم بعض المؤرخين .

وقبل الانتقال من هذا الموضوع لا بد من ذكر الحادثة الغريبة التي اوجبت انكسار العساكر الفرنساوية في هذه الحرب فنقول انهُ كان قد تعين بين العساكر الفرنساوية جمهور من اهالي سويسرا اما حبًّا بالكسب او لغاية اخرى . وكان ايضًا البابا لاون قد استاجر منهم ١٢ الفًا وضمهم الى عساكر شارلكان. فلما رأت جمهورية سويسرا ان شعبها قد انضم مع الدولتين المتحاربتين وانهم سوف يدمرون بعضهم البعض فضلاً عن العار الذي يجلبونهُ على بلادهم بعثت تطلب من قومها تخلية صفوف المعسكرين والعودة الى الوطن. فأُخفي الامر الذي باسم العساكر التي من جهة البابا والامبراطور ولم يصل الى محلهِ لان الكردينال روسيون كان ارشى الرسل حاملي تلك الرسالة . اما الامر الآخر الذي باسم اولئك الذين في صفوف الفرنساويين فوصل وكان السويسيون قد ضجروا من الحروب ولا سيما من عدم صرف اجورهم فبادروا حالاً للامتثال الى امر حكومتهم وخرجوا من المعسكر ومن ذلك الوقت اخذ الفرنساويون يخسرون ويتاخرون

وبعد توفي البابا لاون أُقيم مكانهُ ادريان السادس وكان ادريان هذا كردينالاً نائبًا للامبراطور شارلكان في اسبانيا فعظمت شوكة الامبراطورية من ذلك اليوم وصفت لها الايام وفازت نفوذًا على باقي دول اوروبا ولا سيما على فرانسا التي كادت حروبها معها تكون بلا انقطاع وعلى الخصوص في واقعة باويا حيث انتصر جيش الامبراطور وأُسر الملك فرنسيس وبقي نحو سنة في الاعتقال ولم يُطلق الاَّ في بداءة سنة ١٥٢٦ تحت شروط مهينة

ومن اعمال هذا الامبراطور انهُ تغلب على رومية وافتتحها سنة ١٥٢٧ في ايام البابا اكليمنضوس وذلك بسبب اتحادهِ مع فرانسا ضد السلطنة الجرمانية فاسرهُ وابقاهُ تحت الحفظ مدة من الزمان ولم يطلقهُ الاَّ خشيةً من زيادة التعصب ضدهُ في اوروبا . ومنها انهُ ذهب الى افريقية سنة ١٥٣٥ بعمارة عظيمة وجيش

كثير فاستخلص تونس من يد مغتصبها بربروس واعادها الى ملكها الاصلي المولى حسن الذي استجار بهِ فكان هذا المشروع من اعظم اعمالهِ واكثرها فائدة لانهُ خلَّص من الاعتقال نحو ٢٠ الف نفس من اسرى النصارى في تونس ومراكش ممن كان المغاربة قد قبضوا عليهم في مغازيهم البحرية

وكان قد داخل هذا السلطان الباهر الشأن الزهد والورع بعد تلك الوقائع والانتصارات العظيمة التي جرت على يدهِ فنزع تاج السلطنة عن راسهِ ووضعهُ على راس ابنهِ فيليب وانقطع عن العالم واضطراباتهِ وقصد ديرًا في احدى مقاطعات اسبانيا فصرف فيهِ نحو سنتين منعكفًا على النسك والعبادة. وكان في اوقات تفرغهِ يقصد الجنينة ويلهي نفسهُ في شغلها وزرع النباتات. وكان لهُ رغبة عظيمة في اصطناع الساعات وفي فن الآلات الميكانيكية فصرف فيها اوقاتًا ولكن دأبهُ الاكبر كان الصلاة والعبادة والتاهب للرحيل الى دار الاخرة . ثم هجر كل تسلية واتبع الطرق المتعبة الشاقة بقصد التكفير عن ذنوبهِ وجرائمهِ فكان يجلد نفسهُ احيانًا جلدًا مؤلمًا حتى كانت دماؤهُ تسيل على الارض ومن جرى ذلك اعتراهُ القلق والخوف وتراكمت عليهِ الاوهام والاحزان حتى انسلبت راحتهُ واضطرب ذهنهُ. ومن اغرب ما فعل انهُ صمم يومًا ما على ان يعمل لهُ جنازة في حياتهِ لكي يكون لهُ سببًا قويًّا فعالاً لعدم نسيان الموت فلفَّ نفسهُ بلفائف الكفن وامر اتباعهُ ان يحملوهُ الى القبر الذي كان قد اعدهُ لدفنهِ فحملوهُ على نعش وبيدهم الشموع وهم يتلون امامهُ صلاة الاموات فكان هو يتلو معهم وينوح ويندب كما لو كانت جنازة حقيقية وعند نهاية الجنازة تركوهُ في الكنيسة وانصرفوا . فبعد انصرافهم قام وذهب الى مخدعهِ وهو في حالة الاضطراب الشديد متاسفًا على نفسهِ ومتاثرًا من صورة الموت فاعتراهُ عقب ذلك حمّى شديدة انتهت بها حياتهُ وكان موتهُ في ٢١ ايلول سنة ١٨٥٥

ومن سلاطين جرمانيا بعد شارلكان المذكور فرديننـد الثاني قام سنة ١٦١٩ وكان عدوًّا مرًّا للبروتستانت في كل الاقطار الجرمانية حتى دعاهُ

الكاثوليكيون الامبراطور الرسولي ولما كثر جورهُ وتعديهِ على البرونستانت انتصر لهم فريدريك الخامس منتخب امرية البالاتين واشهر السلاح ضد فرديننذ فلم ينجح في مساعيهِ . ثم انتصر لهم ايضاً كريستيان الرابع ملك الدنيمارك ولم ينجح ايضاً فالتزم البرونستانت ان يستغيثوا بغوستاف ادولفوس ملك اسوج فاعانهم وزحف على جرمانيا وحاربها فانتصر في عدة وقائع فاغتنمت فرانسا تلك الفرصة واتحدت مع اسوج ضد المانيا واستمرت تلك الحروب عدة سنين وهي المعروفة بحروب الثلاثين سنة الى ان انتهت سنة ١٦٠٨ في معاهدة وستفاليا التي عادت بالخسران على بيت اوستريا وعلى الحبر الروماني . اما على الاولين فلانها انزلتهم عن حقوق واراضي كثيرة تابعة السلطنة الالمانية الى فرانسا واسوج وغيرها واما على الثاني فلانها اضعفت شوكة ديوان رومية ومدعيات قسوسها من جهة محو الهراطقة عن وجه الارض وجعلت للبرونستانت الحرية التامة في استعمال شعائر دينهم . وقام بعد فرديننذ المذكور جملة سلاطين ضربنا صفحاً عن ذكرهم لعدم اهمية ما حدث في ايامهم

وسنة ١٧٩٢ تسلطن على جرمانيا فرنسيس الثاني وفي ايامهِ حدثت حروب نابوليون الاول فكان المذكور من جملة الملوك والسلاطين الذين خضعوا لبطشهِ واقبالهِ فالتزم في سنة ١٨٠٦ ان يتنازل عن سلطنة جرمانيا واقتصر على ان يكون امبراطوراً على اوستريا واستمر سلطاناً الى ان توفي سنة ١٨٣٦ وكانت سلطنة النمسا في اواخر ايامهِ من اعظم ممالك اوروبا . ومن سنة ١٨٠٦ لم يعد يقم امبراطورٌ على البلاد الجرمانية الى سنة ١٨٧١ حين تغلب حضرة وليم الاول ملك بروسيا على فرانسا فعرض عليهِ الالمان لقب امبراطور فقبلهُ وبهذه الواسطة اتحدت جرمانيا ثانيةً تحت سلطنة واحدة

الفصل الثالث عشر

في وصف سويسرا اي بلاد السويس وتاريخها

يحدُّ هذه البلاد شمالاً امارة بادن وشرقًا اوستريا وجنوبًا ايطاليا وغربًا فرانسا وسنة ١٨٧٠ بلغ عدد اهلها ٢٦٧٠٠٠٠ وهواؤُها جيد وتربتها مخصبة وبها جبال الالب او الباوهي اعلى جبال اوروبا لا ينقطع عنها الثلج من سنة الى سنة وفيها من الاماكن البهجة المكتسية بالنبات ما يسر عيون الناظرين . ويخرقها عدة بحيرات عذبة وانهر كبيرة والمراعي فيها عظيمة مشبعة فيخرج منها احسن انواع السمن والزبدة والجبن ولذلك يعتني اهلها بتربية الحيوانات والمواشي. ومن معادن هذه البلاد الحديد والنحاس والرخام والكبريت وفيها كثير من المياه المعدنية التي تقصدها الناس للمعالجة . ولاهلها رغبة عظيمة في اكتساب العلوم والمعارف ولهم اليد الطولى في جميع الصنائع ولا سيا في عمل الاقمشة القطنية والحريرية وفي اصطناع الساعات ودبغ الجلود . اما ديانة هذه البلاد فهي بين اللاتينية والبروتستانتية مناصفةً وحكمها من نوع المشيخة الجمهورية ولها رئيس ينتخبهُ الشعب كل سنة. وتنقسم هذه المملكة الى ٢٢ مقاطعة كل واحدةٍ منها مستقلة بنفسها في مصالحها الداخلية ولها مجلس ورئيس وجميع هذه المقاطعات متحدة اتحادًا عامًا كدولةٍ جمهورية كبيرة . ومن اعظم مدنها زوريخ وبرن وولسرن وجنيفة . ومع ان وسائط المعيشة في هذه البلاد كثيرة يوجد بين اهلها فقرٌ كثير فلذلك يضطرون الى ترك اوطانهم ويقصدون ممالك اوروبا في طلب معاشهم فمنهم من يتجند بين عساكر الاجانب ومنهم من يجول في البلاد الغريبة متعاطيًا اسباب

التجارة والغناء والموسيقى بحيث لايكاد يوجد قطرٌ في العالم خاليًا منهم

وكانت بلاد سويسرا تُعرف قديمًا عند الرومانيين باسم هلوجيا وشعبها من جملة قبائل برابرة الشمال استولى عليها الرومانيون سنة ٥٨ قبل الميلاد وبقيت تحت تسلطهم الى القرن الخامس حين انقرضت سلطنتهم الغربية فانضمت الى جرمانيا ما عدا بعض ولايات منها. ثم بعد ذلك صارت قسمًا من مملكة بورغونيا (التي هي الآن ولاية فرنساوية) فتسلط عليها تارةً الفرنساويون وتارةً الالمانيون. وفي زمن الالتزامات في اوروبا دخلت في ايدي عدة عشائر اخصها عائلة هابسبورج التي منها رودولف هابسبورج سلطان جرمانيا. فكانوا يحكمون البلاد ويتصرفون فيها كيفما ارادوا. ولما جلس رودولف المذكور على سرير سلطنة جرمانيا وكان ذا ثروة وشوكة عظيمتين في بلاد سويسرا ضمَّ القسم الاكبر من هذه البلاد الى سلطنتهِ فصارت تابعة لها فاحسن معاملتهم وكان محبوبًا منهم. ولكن لما قام بعدهُ ابنهُ البرت سنة ١٢٩٨ اساء التصرف معهم وجار عليهم وارسل لهم عمالاً قساة فكانوا يظلمونهم ويتعدون عليهم بحيث نفرت قلوب الناس منهم فابغضوهم واخذوا يسعون في التخلص من حكمهم

ومن هولاء العمال رجلٌ قبيح الخصال يقال لهُ جسلر نصب ذات يوم عمودًا في احدى ساحات المدينة ووضع على راس ذلك العمود برنيطتهُ وامر بان كل الذين يمرون من هناك يخضعون امامها ويقدمون لها مزيد الاحترام. فامتثل الناس امرهُ خوفًا من العقاب والاهانة الاَّ رجلاً حرَّاثًا يقال لهُ وليم تِلّ فانهُ لم يخضع لامر جسلر ولم يحترم برنيطتهُ. فلما بلغ جسلر عدم انقياد تلّ الى امرهِ غضب وصمم على قتلهِ فارسل واستدعى بابن تلّ. ثم التفت وقال لابيهِ اني اشفاقًا عليك اريد ان اعطيك فرصةً لتنجو من الموت فها اني ساضع على راس ابنك تفاحةً فأْتِ بقوسك وارمِ هذه التفاحة بنبلة من بعيد فان اصبتها عفوت عنك والاَّ فلا بد من قتلك. وكان تل المذكور من ارمى الناس بالنشاب فجاء بقوسهِ ورمى تلك التفاحة فاصابها وحصل على العفو. وكان مع تل نبلة اخرى مخبأة

بين ثيابهِ فابصرها جسلر وسالهُ عنها فقال هي لكي ارميك بها واريح الناس من شرك واذاك . فاستعظم خطابهُ فامر بقبضهِ وقيدهُ وصم على نفيهِ ثم القاهُ في بعض القوارب وعبر بهِ قاصداً القاطع الثاني من بحيرة لوسرن لينفيهُ هناك . وبينما كان الملاحون يقذفون هبت عليهم ريح عاصفة حتى كاد القارب يغرق بهم. واذ كان تل نوتيًّا ماهرًا حلوهُ من وثاقهِ ليعينهم ويساعدهم في تدبير ما يلزم لنجاة القارب فعند وصولهم الى الشاطي خرج تل اولاً من القارب وجلس على بعض الصخور وبينما كان جسلر ساعيًا في الخروج رماهُ بنبلةٍ القاهُ قتيلاً ثم اخذ في الهرب واجتمع باصحابهِ في اقليم شونيز حيث كانوا جميعًا ساعين في استخلاص بلادهم والحصول على حريتهم

وكان للسويسيين ثلاثة روساء من محبي الوطن قد اجمع رايهم على العصاوة وخلع طاعة السلطنة الجرمانية وكانوا مترقبين الفرص المناسبة لذلك. ولما بلغهم ما فعلهُ وليم تل سروا جدًّا وحسبوا تلك الحادثة فرصة مناسبة للعمل فاقاموهُ عليهم رئيسًا واتفقوا من ذلك اليوم على حرب القوم وجرت بينهم حروب عديدة ابتدأت سنة ١٢٠٤ وانتهت بانتصارهم على الجرمانيين سنة ١٢١٥ فطردوهم من بلادهم واستخلصوا المملكة من ايديهم

ومما يستحق التعجب منهُ انهُ لم يزل الى الآن بعض جماعة من السويسيين يعتقدون بان وليم تل لم يمت الى الآن لكنهُ راقد في مغارة بالقرب من بحيرة لوسرن مع رفيقين لهُ من المساعدين في تاسيس الجمهورية للمحافظة والمحاماة عن بلادهم حتى اذا دخلت سويسرا مرةً اخرى في قبضة الاسر ينهض هولاء الرجال من رقادهم ويتقلدون اسلحتهم القديمة ويحثون الشعب على القيام وطلب الحرية

وبعد استقلال سويسرا لم تفتر الحروب بين اهلها وبين ملوك جرمانيا الذين صبوا الى استرجاعها ليس فقط لاجل توسيع دائرة سلطنتهم وثروتها

ولكن لاجل الاستعانة بهم على الاعداء لانهم كانوا من الشجعان والفرسان المعدودين. فدامت تلك الحروب بين الطرفين الى الجيل الخامس عشر وكان الانتصار فيها غالبًا للسويسيين. فالتزمت حينئذٍ جرمانيا ان تقر باستقلاليتهم بعد ان انسحبت عن محاربتهم. وسنة ١٦٤٨ انعقدت الشروط العمومية بين الدُوَل الاوروبية المعروفة بصلح وستفاليا واقرّ الجميع باستقلاليتها ودامت كذلك الى سنة ١٧٩٢ حين استولت عليها الجمهورية الفرنساوية ونظمت لها ترانيب وقوانين جديدة ولكن بعد سقوط نابوليون الاول سنة ١٨١٥ رفضوا تلك التنظيمات ورجعوا الى قوانينهم الاصلية من بعد ما حسنوها وهذبوها. وسنة ١٨٤٨ نظموا ترتيبات جديدة لاتحادهم واحكامهم وهي التي اشرنا اليها في اول الفصل

واول من نادى بالمذهب البروتستانتي في هذه البلاد زوينكليوس سنة ١٥١٩ في مدينة زوريخ ثم كلفينوس في مدينة جينيفة في الجيل نفسهِ وهو فرنساوي الاصل من اعمال بيكارديا وكان من فطاحل العلماء واعيان اللاهوتيين ولهُ عدة مؤلفات مشهورة واكثر الفرنساويين البروتستانت يلقبون كلفينيين باسمهِ

الفصل الرابع عشر

في بلاد النمسا اي اوستريا

الباب الاول

في وصف هذه البلاد

ان مقرّ سلطنة النمسا واقع في اواسط اوروبا ويحدها شمالاً روسيا وبروسيا وساكسونيا وشرقًا روسيا ايضًا ومولدافيا وجنوبًا ايطاليا وبحر البندقية وتوركيا في اوروبا وغربًا بافاريا وورتنبرج وسويسرا . وسنة ١٨٦٩ بلغ عدد سكانها نحو ٣٦ مليونًا بما فيهِ اهالي بلاد المجر الذين يبلغ عددهم ١٥ مليونًا ونصفًا. والديانة الغالبة في اوستريا هي اللاتينية وعاصمة البلاد مدينة فيانا يخرقها نهر الداوب المسمى نهر طونة الذي كثيرًا ما يجمد ماؤُهُ في فصل الشتاء وتجتازهُ الناس على الجليد . وفي هذه المدينة كثيرٌ من الابنية الفاخرة والمعابد المستظرفة والساحات الجميلة وعدد سكانها بلغ سنة ١٨٦٤ نحو ٦٠٠ الف نفس بما فيهِ العساكر المقيمون فيها. ومن هذه السلطنة ايضًا مدينة تريسته الواقعة على شاطي بحر البندقية وهي ميناء للمتجر واهلها نحو ٧٥ الفًا

اما هواء هذه البلاد فعلى الاغلب باردٌ وتربتها جيدة سواءٌ للزرع ام للمرعى وهي تُعدُّ من اغنى الممالك الاوروبية من جهة المعادن فان فيها معادن الذهب والفضة والنحاس والزئبق والرصاص والحديد والملح والتوتيا والانتيمون والزاج والزرنيخ وفي بعض المواضع من بلاد النمسا بعض الاحجار الثمينة كالياقوت الاحمر

وغيره واتربة جيدة لعمل الخزف الفاخر وغير ذلك . وفيها كثير من العيون المعدنية فان في بلاد المجر ما ينوف عن الالف عين . اما الصنائع في اوستريا فهي في رواج وفيها عدة معامل معتبرة ولاهلها الاعتناء في اتقان صناعة الجوخ والاقمشة الحريرية والقطنية والكتان والقرطاس والزجاج الصيني وعمل امتعة البيوت وصناعة الفراء ولكن ليس لهم خبرة كافية في الفلاحة والزراعة فلذلك الحراثة قليلة عندهم بالنسبة الى غيرها من البلاد . وفي هذه البلاد عدد عظيم من الحيوانات النافعة مثل البقر والخيل والحمير والضأن والخنزير وقد اخذ تعديلها فبلغت نحو ٥٥ مليونًا . وفيها ايضًا عدة جمعيات لتقدم صناعة الفلاحة وجملة شراكات لاعانة الفلاحين وامدادهم بالمال بفوائد قليلة لاتقان مشروعاتهم. وللنمساويين اعتناء بالعلم والتعلم وعندهم مدارس كثيرة يبلغ عدد تلامذتها مليونين ونصفًا بين ذكور واناث ولهم مكاتب لسائر العلوم الرياضية وعدة مكاتب مخصوصة بالصنائع وغيرها من المدارس الخاصة بالفنون البحرية والعسكرية والاحكام وغيرها

وتنقسم هذه السلطنة الآن الى قسمين كبيرين القسم الاول مملكة النمسا وما يتبعها من البلاد الالمانية والسلافية كامرية سالسبورج وكارينول وستيريا والتيرول النمساوي ومملكة بوهيميا وورافيا وغيرها ممن كانت مرتبطة بالاتحاد الالماني وانفصلت عنهُ . والقسم الثاني مملكة المجر التي ولئن كانت تعتبر قسمًا من دولة النمسا منذ سنة ١٥٦٠ لم يلبس تاجها الامبراطور فرنسيس يوسف الأ سنة ١٨٦٧ وتعد هذه الدولة من الدول الاولية ماديًّا وادبيًّا

الباب الثاني

في تاريخ بلاد النمسا

ان هذه المملكة كانت في اول الامر ولاية من ولايات الرومانيين المسماة

نوركاوپانونيا العليا انضمت للسلطنة الرومانية سنة ٣٣ للميلاد في ايام طيباريوس قيصر. وفي الجيل الخامس بعد انقراض تلك السلطنة استولت عليها برابرة الشمال كجماعة الهون والاستروغوث والفندال واللونغوبارد . ثم اقتسمها اهل باڤاريا والتتر الى ان استولى عليها شارلمان ملك فرانسا سنة ٧٩١ للميلاد وأُطلق عليها اسم اوستريا وبقيت في ايدي الفرنساويين الى سنة ٩٨٣ حين استولى عليها اوثون الثاني سلطان جرمانيا وولّى عليها ليوبولد الاول من عائلة بامبرج وتوارثها نسلهُ من بعدهِ تحت لقب مرغراف اي ولاة ثم تحت لقب مركيز ودوك . وكان عدد من تولى اوستريا تحت هذه الالقاب من هذه العائلة اثني عشر رجلاً . ثم بعد انقراض هذه العائلة سنة ١٢٤٦ دخلت اوستريا في ايدي فريدريك الثاني امبراطور جرمانيا ثم انتقلت بعد سنين الى اوتوكاد ملك بوهيميا ثم انضمت الى المانيا سنة ١٢٧٦ في زمن الامبراطور رودولف هابسبورج الذي ولّى عليها ابنهُ البرت سنة ١٢٨٢ وبقيت تحت تسلط تلك العائلة يتداولها الخلف عن السلف تحت لقب دوك الى سنة ١٤٥٣. ثم بعد ذلك العهد أُطلق عليها لقب ارشيدوك بدون ان تنفصل عن السلطنة الجرمانية وقد قام من ارشيدوكاتها الذين هم من عائلة هابسبورج عدة اشخاص تبوَّأُوا سرير السلطنة الالمانية ولكن لم يستقر لهم حق الوراثة فيها الاَّ الى سنة ١٤٣٨ حين انتُخب لسريرها البرت الخامس ارشيدوك اوستريا تحت اسم البرت الثاني

وفي ذلك الوقت كانت اوستريا قد تعاظمت جدًّا اولاً بانضمام ستيريا والالزاس والصواب المعطاة اليها من الامبراطور رودولف وثانيًا بسبب اقتران الامبراطور مكسيميليان بماريا من عائلة بورغونيا سنة ١٤٧٧ فأُضيف اليها بلاد هولاندا وقسم كبير من بورغونيا اي برغنديا. ولما استولى شارلكان على السلطنة الجرمانية واوستريا اضاف اليها مملكة اسبانيا مع كل ممتلكاتها الخارجية ولكن بالقسمة التي جرت بينهُ وبين اخيهِ الارشيدوك فرديننذ سنة ١٥٢١ وقعت هولاندا ودائرة بورغونيا في سهم شارلكان وارشيدوكاتو اوستريا مع توابعها في

سهم فردينند الذي في سنة ١٥٢٦ سُمي ملكًا على بوهيميا عقب موت ملكها لويس فضمها الى اوستريا مع ولايات موراڤيا وسيليزيا ولوزاس مع الاسقفيات الثلاث التي كانت تحت حكم المطارين وهي نول ومتس وڤردون. ولما تنازل شارلكان عن الاحكام سنة ١٥٥٦ وجلس اخوهُ فردينند مكانهُ على تخت السلطنة الجرمانية قاومهُ البابا بولس الرابع تحت حجة ان تنازل الواحد وانتخاب الثاني بدون مصادقة مجلس رومية لا يصح فلم يعبأ فردينند بهذا الكلام ورفض لزوم التثبيت من الكرسي الروماني كما كانت العادة جارية في تلك الايام. وكانت احكامهُ في غايةٍ من الهدو والسلم حتى انهُ صرف اكثر ايامهِ الاخيرة في الاجتهاد بان يصلح الكاثوليك مع البروتستانت ولم ينجح

وسنة ١٦٤٨ في ايام سلطنة فردينند الثالث عند انعقاد صلح وستفاليا الذي هو نهاية حروب الثلاثين سنة بين المانيا وفرانسا واسوج انتزعت من اوستريا ولايتا اللوزاس والالزاس والاسقفيات الثلاث ولكنها استعاضت تلك الخسارة فيما بعد باستيلائها على ترانسلڤانيا اي الاردل في ايام الامبراطور ليوپولد الاول سنة ١٦٩٩ وعلى كرواتيا. وفي سنة ١٧١٣ ورثت اوستريا من كارلوس الثاني ملك اسبانيا اراضي بورغونيا وامرية مانتو ومملكتي نابولي وسردينيا ولكنها استبدلت سردينيا بمملكة صقلية سنة ١٧١٤ ثم بعد ذلك ببضع سنين ارجعت الصقليتين اي نابولي وصقلية الى دون كارلوس الاسبانيولي واخذت عوضًا عنهما امرية پارما وبلاشنسا وكواستالا

وعند موت كارلوس السادس ارشيدوك اوستريا وامبراطور المانيا ورثتهُ ابنة ماريا تريزا في السلطنة سنة ١٧٤٠ اذ لم يترك نسلاً من الذكور فتزوجت بفرنسيس دوك لورين وجعلتهُ شريكًا بالاحكام. وكان وقتئذٍ منتخب امرية باڤاريا يصبو للحصول على السدة الامبراطورية وعضدتهُ فرانسا فقاومهُ فرنسيس اشد مقاومة وبعد منازعات ومتاعب كثيرة نودي باسم فرنسيس الاول امبراطورًا سنة ١٧٤٥ وهو جد العائلة المعروفة بعائلة اوستريالورين المستولية

الآن . ثم توفي بعد ان حكم ٣٠ سنة وخلف ستة عشر ولدًا منهم يوسف الثاني الذي خلفهُ على الكرسي من بعد موت امهِ ماريا تريزا سنة ١٧٨٠ ومنهم ماري انتوانيت المنكودة الحظ التي تزوجت بلويس السادس عشر ملك فرانسا وقتلها الشعب اشنع قتلة

ثم ان حروب الجمهورية الفرنساوية مع المانيا في أُخر الجيل الثامن عشر وحروب نابوليون الاول في اوائل الجيل التاسع عشر حين فاز على النمساويين ودخل مدينة فيانا بالقوة والاقتدار سلبت من اوستريا قسمًا كبيرًا من املاكها في المانيا وايطاليا مع جانب عظيم من سطوتها وسيادتها وانزلت فرنسيس الثاني عن سلطنتهِ الجرمانية وحصرت حكمهُ في الممالك التي لهُ فيها حق الوراثة فقط . فمِنْ ذلك الوقت نبغت الامبراطورية النمساوية ولُقّب فرنسيس الثاني بفرنسيس الاول وانحلت السلطنة الجرمانية . ولكن عند سقوط نابوليون ووقوع حوادث سنة ١٨١٥ استرجعت اوستريا ولاياتها القديمة ما عدا دائرة بورغونيا فانها استعاضتها بمملكة لومبارديا وفنيس اي البندقية

وسنة ١٨٤٨ عقب الثورة الفرنساوية نبغ في اوستريا ثورة تعرف بثورة اللومباردية والبندقية كان المقصود فيها خلع سلطة النمسا والالتصاق بايطاليا لانهما فرعان منها. واذ كان النمساويون غير مرتضين من سياسة مترنيخ الوزير قاموا هم ايضًا في مدينة فيانا واظهروا العصيان. فالتزمت العائلة الامبراطورية مترنيخ ان يتنازل عن وظيفتهِ فتنازل وهرب الى انكلترا . اما الامبراطور فرديننـد الاول فاذ لم يقدر على تهدئة الشعب ترك هو ايضًا فيانا وذهب الى اينسبروك حيث اقام نحو ثلاثة اشهر . ثم رجع الى العاصمة بطلب من الاهالي ولكن اذ رأى ان روح الثورة لم يزل متقدًا في قلوب الشعب اخذ عائلتهُ ووزراءهُ وذهب الى اولموتز واقام الحصار على فيانا وبعد قتال شديد دخلتها جنودهُ واخضع اصحاب الفتن. ولما حصلت الراحة في البلاد تنازل فرديننـد الاول عن تاج السلطنة لابن اخيهِ فرنسيس يوسف في ٢ كانون اول من سنة

١٨٤٨ وهو الامبراطور المستولي الآن

وسنة ١٨٥٩ نبغ النزاع بين سردينيا والنمسا بسبب بعض املاك ايطاليانية واغراض سياسية افضى بهم الى القتال رغمًا عن كل الوسائط التي استعملتها الدول المتحابّة لحفظ السلام. واذ كانت فرانسا تريد مساعدة الايطاليانيين في حصولهم على حريتهم نهض نابوليون الثالث لمساعدة سردينيا واستظهرت الدولتان المتحالفتان على اوستريا في واقعتي ماجنتا وسولفرينو ثم عقد نابوليون صلحًا مع امبراطور النمسا بعد ما حصل منهُ على تنازل عن الجانب الاكبر من لومبارديا الى ايطاليا وانسحب عساكر الفريقين بعد ما نودي باسم فكتور عمانوئيل ملكًا على لومبارديا . اما فنيس فمع انها بقيت تحت تسلط اوستريا اشترط بدخولها في الاتحاد الايطالياني

ولما كانت العداوة بين دولتي النمسا وبروسيا متأسسة من قديم الزمان بسبب الرياسة على الممالك الجرمانية . وكانت ايطاليا ترغب استخلاص عمالة البندقية من النمسا وقعت المعاهدة بين ايطاليا وبروسيا على محاربة النمسا فاصطلت نيرانها سنة ١٨٦٦ وانتصر البروسيون على النمساويين في معركةٍ شهيرة في سادوفا واستخلصوا منهم جملة اماكن انضمت الى بلادهم وصار التنازل لايطاليا عن البندقية وباقي لومبارديا. وبسبب الحروب المار ذكرها ترتب على النمسا ديون كثيرة ووقعت في الارتباك ولكن لحسن التفات امبراطورها وتدابيرهِ الحكيمة اخذت البلاد تتخلص من ذلك الارتباك وتتقدم في سيرها ونموها في الثروة والاقتدار . وفي ٨ حزيران سنة ١٨٦٧ تُوّج هذا الامبراطور ملكًا على بلاد المجر فصار لقبهُ سلطان النمسا وملك المجر فازداد بسبب ذلك دخل الدولة وسطوتها

الفصل الخامس عشر

في مملكة بروسيا

الباب الاول

في وصف هذه البلاد واهلها

هذه المملكة يحدها شمالاً بحر بلتيك ومملكة الدنيمارك وشرقًا روسيا وجنوبًا بلاد النمسا وبعض الممالك الجرمانية وغربًا مملكة البلجيك ودوكانو لوكزامبورج الكبرى وفرانسا. وكان عدد اهلها قبل حربها مع النمسا سنة ١٨٦٦ تسعة عشر مليونًا ولكن بعد ان انضمت اليها مملكة هانوفر واراضي شليسويك هولستين ولاونبرج وهس كاسيل وهس هامبورج وامرية ناسو ومدينة فرانكفورت وبعض اقسام بافاريا وغير ذلك من الولايات والاقاليم اتسعت املاكها وزاد عدد سكانها فصارت تُحسب نحو ٢٥ مليونًا. اما انهرها وجبالها فمتوسطة وهواؤها باردٌ رطب ولكنهُ في النواحي الجنوبية معتدلٌ وتربتها بالاجمال قليلة الخصب وانما ما يخرج من زرعها يكفي لوازم اهلها ولبرد اقليمها تقل بها زراعة العنب. ولكن الاقاليم التي على شاطي نهر الرين تكثر فيها الكروم ويخرج منها العنب الجيّد. ومن محصولاتها البطاطا واللفت والدخان وقصب السكر والعسل والقنب والزعفران وفيها ايضًا الخيل والحرير والكهرباء. ومن معادنها النحاس والرصاص والشب وملح البارود والزاج والحديد والملح. والصنائع في بلاد بروسيا عظيمة متقدمة حتى انها تضاهي تقريبًا صناعات فرانسا وانكلترا خصوصًا

قماش الكتان والصوف والحرير والقطن واصطناع الاسلحة المتنوعة والقرطاس والساعات والبلور والخزف . والمطابع فيها عديدة والعلوم ناجحة والمدارس كثيرة بحيث قوانين البلاد تلزم الاهالي ان يرسلوا اولادهم للمدارس عقب بلوغهم سن الست سنين وقد بلغ عدد التلامذة سنة ١٨٦١ ثلاثة ملايين والديانة العامة هي البروتستانية

ومن امهات مدن بروسيا مدينة برلين عاصمة المملكة وهي من المدن الظريفة ذات ابنية وقصور جميلة واسواق واسعة يحيطها سورٌ له ستة عشر بابًا واهلها يبلغون ٥٠٠ الفًا . ثم مدينة برسلو وهي ثانية برلين في الاتساع وكثرة الاهالي وبها معامل وصنائع عديدة وتجارتها كثيرة . ومدينة كونيسبرج وهي مدينة ظريفة وعدد اهلها نحو ٨٠ الف نفس وبها قصرٌ جميل للملك وكنيسة عظيمة جيدة البناء

اما الحكم فمن نوع الملكي المقيد . وعساكرها كثيرة العدد نظرًا لقوانينها وشرائعها لان كل رجل من الاهالي عند بلوغهِ السبع عشرة سنة يجب ان يدخل في العسكرية ثلاث سنوات وبعد ذلك يبقى رديفًا الى سن الثلاثين سنة وفي اثناء هذه المدة يلتزم ان يتعلم مرة واحدة في كل اسبوع وبهذه الواسطة ترى اكثر رجالها عسكرًا عند اللزوم والاحتياج وبالجملة ان عساكر هذه البلاد وشهرة قوادها وخبرتهم في امور الحرب تفوق باقي جنود اوروبا كما اتضح من حروبها الاخيرة مع النمسا وفرانسا . ولكن بمقدار ما قوتها البرية عظيمة ومنتظمة بعكس ذلك عمارتها البحرية . اما الآن فهي مجتهدة في تكثير مراكبها الحربية وقد خصصت مبلغًا جسيمًا لبناء سفن جديدة مدرعة اقتداء بباقي الدول

وتنقسم هذه المملكة الآن الى تسع ايالات وهي بروسيا وبوزن وبرندابورج وبوميرانيا وسيليزيا وساكسونيا ووستفاليا والرين وهوهنزولرن . ولغة هذه المملكة هي اللغة الجرمانية ولكنهُ يوجد في اطرافها اقوامٌ من الصقالبة الذين لم يزالوا يتكلمون بلغتهم الاصلية

الباب الثاني

في تاريخ مملكة بروسيا

انهُ في القرن الاول من الميلاد جاء قومٌ من اللومبارديين وجماعة من قبائل الصواب والفندال واستوطنوا ايالة براندبورج التي هي من جملة ايالات بروسيا المار ذكرها ومكثوا سوية الى القرن الخامس حينما نهض الاندالِيون وطردوا تلك الشعوب من بينهم واستقروا في تلك الايالة واخضعوها لانفسهم الَّا انهم لم يمكثوا بها زمانًا طويلاً حتى دهمهم الرومانيون فاخضعوهم واستولوا عليهم . ثم جاء بعد ذلك شارلمان ملك فرانسا وضمَّ تلك البلاد الى سلطنتهِ ومن بعدهِ اخذت تتناولها بعض امراء المقاطعات الجرمانية الى ان دخلت في ايدي البرت الملقب بالدب ففي ايامهِ تهذبت اخلاق اهلها واعتنقوا الديانة النصرانية بعد ان كانوا وثنيين ثم في الجيل الخامس عشر لما كان سيجرموند امبراطورًا على المانيا اقام فريدريك السادس من عائلة هوهنزوارن حاكمًا على ايالة براندبورج فاشتراها منهُ بمبلغ ٣٠٠ الف فيوريني واخذ لقب اليكتور حسب العادة الجارية في تلك الايام وتسمى بفريدريك الاول من براندبورج وجميع حكام بروسيا وملوكها من ذلك الوقت الى الآن هم من ذرية هذا الامير

وكانت يومئذٍ ايالة براندبورج منقسمة الى ثلاثة اقسام وهي المارش القديمة الكائنة غربي وادي الالب والمارش المتوسطة بين وادي الالب ونهر الاودر . واما المارش الجديدة فلم تنضم اليها الَّا سنة ١٤٤٥ في ايام فريدريك الثاني الملقب بسن الحديد عندما استخلصها من الكفالارية التوطونيين الذين كانوا مستولين على ايالة بروسيا المنفصلة عن باقي الايالات الجرمانية

واما السبب في تسمية هذه الايالة ببروسيا فهو انهُ بعد خروج الامم الغوثية

منها اغار عليها جماعة من السلاف الذين كانوا يسكنون وادي الڤيستول وكان يقال لهم بروسي فامتلكوها وتسمت باسمهم وكانوا من البرابرة عابدي الاوثان . وفي اواخر الجيل الثالث عشر اخضع هولاء القوم قبيلة التوطونيين التي كانت في محاربة المسلمين في فلسطين واستولوا على بلدانهم وحكموها . وكان قائدهم يسمى هرمن سالزا فجعل دار اقامتهِ في مرينبورج سنة ١٣٠٩ . ثم تواردت عليهم طوائف الالمان التي في جوارهم فسكنت بينهم وفي مدة قصيرة تحسنت احوالهم وكثر عددهم ونموا قوةً وغنًى وابتنوا لهم مدنًا وقرى . ولكن اذ كانوا لا يحسنون التصرف مع الرعايا ويكثرون في ظلمهم نهض الاهالي للتخلص منهم واستعانوا باهل بولونيا عليهم فساعدوهم على قتالهم حتى ظفروا بهم وتخلصوا من حكمهم سنة ١٤١٠ . وبعد محاربات اخرى بينهم وبين باقي طوائف البلاد المختلفة انقسمت بروسيا الى قسمين غربي وشرقي فالاول تبع مملكة بولونيا والثاني بقي بيد ولاتهِ باسم بروس التوطوني تحت حماية بولونيا

وسنة ١٥٢٥ استولى زمام القسم الشرقي الامير البرت من عائلة براندبورج السالف ذكرها فاستقل بهِ واورثهُ لذريتهِ ومن ذلك الوقت صارت تلك الايالة معروفة بدوكاتو بروس . يتناولها حكام ايالة براندبورج الذين اتقنوا ادارتها وسعوا في تقويتها حتى صارت من الامريات المتسعة ذات سطوة وشوكة يتبعها جملة ملحقات . ففي سنة ١٦٨٣ لما كان فريدريك الثالث اميرًا على امرية بروسيا وليوبولد امبراطورًا على السلطنة الجرمانية اعان فريدريك ليوبولد على محاربة الاتراك وتحالف معهُ سنة ١٧٠٠ ضد لويس الرابع عشر ملك فرانسا في حروب وراثة اسبانيا فمقابلة لتلك الخدمة طلب من الامبراطور ان يلقبهُ ملكًا فاجاب طلبهُ وسنة ١٧٠١ لقبهُ ملكًا تحت اسم فريدريك الاول فصارت بلادهُ مملكة مستقلة من ذلك اليوم واعترف بتتويجهِ جميع دول اوروبا فحكم وعدل واتقن احوال المملكة وسعى في ترقية اسباب تقدمها ثم توفي سنة ١٧١٣

وجلس بعدهُ على كرسي المملكة ابنهُ فريدريك غليوم الاول ولم يكن ميلهُ كابيهِ الى امتداد التمدن والمعرفة بل انجهت اميالهُ الى الامور الحربية والترانيب العسكرية والاعمال الجسدية . وكان دابهُ التفتيش على من كانت ابدانهم واجسادهم قوية وقاماتهم طويلة فياتي بهم ويدخلهم في سلك عسكرهِ . وكان لهذا الملك الاي مخصوصٌ لخدمتهِ من نخب الرجال واطولهم قامة يبلغ طول الرجل ثلاثة اذرع ونصفًا . ومن جملة مزاياهُ انهُ كان محبًّا للمال لا يطيق ان يرى انسانًا كسلانًا بدون شغل وكثيرًا ما كان يحمل عصاهُ ويدور في اسواق برلين وحينما وجد شخصًا بلا شغل ضربهُ ضربًا مؤلمًا

وبعد موت فريدريك غليوم الاول خلفهُ ابنهُ فريدريك الثاني الملقب بالكبير سنة ١٧٤٠ وكان شديد الباس عالي الهمة وفي السنة الاولى من حكمهِ توفي الامبراطور كارلوس السادس من عائلة اوستريا تاركًا السلطنة لابنتهِ ماريا تريزا واذ كانت المذكورة في ارتباكٍ عظيم من جهة احوال المملكة وسياستها انتهز الملك فريدريك تلك الفرصة وادعى بحقوقهِ في ايالة سيليزيا فزحف اليها بالعساكر وامتلكها وضمها الى مملكتهِ . واذ نهضت الملكة المذكورة لقتالهِ واسترجاع تلك الايالة حاربها وانتصر على جيوشها في فريدبرج سنة ١٧٤٥ ثم عقد معها شروطًا في مدينة دريسد تتضمن تنازلها لهُ عن الايالة المذكورة . وكانت همة فريدريك لا تفتر عن اصلاح حال المملكة طرفة عين فبذل غاية جهدهِ في ترقية التجارة والصنائع المختلفة والفنون والعلوم خصوصًا في التنظيمات والترتيبات العسكرية . فاصبحت البلاد في ايامهِ في اعلى درجة من المجد والعز والشوكة والغنى فاحدقت بها اعين الجميع وحسدها الحاسدون وخافها اكثر الملوك وتظاهروا ضدها ولاجل تنكيس سطوتها اتحد على حربها ومقاومتها فرانسا والنمسا وروسيا ثم ساكسونيا واسوج فانضمت جيوشهم بعضها مع بعض واشهروا على فريدريك الحرب وهي المعروفة بحرب السبع سنين وقاتلوهُ فانتصر عليهم في بعض الوقائع ولكنهم اخيرًا استظهروا عليهِ واستخلصوا منهُ عدة اماكن ومدائن

حتى اوشكت مملكتهُ تقع فريسة في ايدي المتحدين ولكنهُ شمر اخيرًا عن ساعد العزم والثبات واقتحم صفوف النمساويين والفرنساويين سنة ١٧٥٧ في روسباخ ففتك بهم فتكًا عظيمًا واخذ في استرجاع املاكهِ شيئًا فشيئًا وسنة ١٧٦٣ عقد صلحًا مع الدول المذكورة واقروا لهُ بايالة سيليزيا التي كانت في اول الامر سببًا لهذه المنازعة . وبعد خروج فريدريك من هذه الحرب المستطيلة حوّل التفاتهُ الى داخلية بلادهِ ورجع الى ما كان عليهِ من الاصلاح والتحسين فاوجد فيها السعة والنجاح وضمَّ اليها سنة ١٧٧٢ القسم الغربي من بروسيا وبعض الاقاليم والمحلات وذلك عند انقسام اراضي بولونيا . ومما يستحق الذكر انهُ كان قد شرع يومًا في بناء قصر عظيم للنزهة في بستان كثير الاشجار والزهور وكان بجانب ذلك البستان طاحون تدور بالهواء لرجلٍ من عامة الناس وكان يضر بنظارة القصر لقربها منهُ فارسل فريدريك بعض غلمانهِ ليشتريها لهُ من صاحبها بالثمن فابى ولم يقبل فضاعف لهُ في ثمنها فامتنع ايضًا ولما بلغ فريدريك ذلك استعظم الامر واستدعى الرجل اليهِ وقال لهُ ماذا يمنعك عن بيعها وقد ضاعفت لك في ثمنها فاجابهُ يا سيدي انها عزيزة عليَّ وهي عندي بمنزلة قصرك پوتسدم . فازداد الملك تعجبًا من جسارتهِ وقال لهُ يا جاهل الا تعلم اني قادر على اخذها منك غصبًا وقهرًا . فاجابهُ الرجل نعم كان يمكنك ذلك لو لم يكن عندنا قضاة في برلين . فتبسم الملك والتفت الى من حولهُ من الوزراء والاعيان قائلاً لقد صدق الرجل في كل كلامهِ ثم اطلقهُ وبقيت الطاحون كما كانت الى هذا العصر شاهدة على حلم هذا الملك وعدلهِ واستمر فريدريك المذكور بالملك الى ان مات سنة ١٧٨٦ في عزٍ واقبال

ثم خلفهُ ابن اخيهِ فريدريك غليوم الثاني وكان منعكفًا على الملاهي واللذات غير ملتفتٍ لصالح البلاد وراحة العباد وفي ايامهِ انقسمت پولونيا ثانيةً سنة ١٧٩٣ وحازت بروسيا على جميع اقاليم پولونيا الكبرى وغيرها من الاراضي . وكان هذا الملك قد عوَّل على محاربة الجمهورية الفرنساوية ولكنهُ عدل اخيرًا عن

قصدهِ وتوفي سنة ١٧٩٧ بعدما حكم ١١ سنة . وخلفهُ ابنهُ فريدريك غليوم الثالث الذي في ايامهِ وقعت حروب نابوليون الشهيرة وخسرت بروسيا خسائر جسيمة اذ قتل من جيشها في معركة يانه سنة ١٨٠٦ نحو عشرين الف نسمة وكانت الاسرى اضعاف هذا العدد ودخل الفرنساويون برلين فاستولوا عليها وعلى غيرها من المدائن . وسنة ١٨٠٧ فقدت بروسيا جميع املاكها في ايالتي وستفاليا وفرانكونيا ثم خسرت ايضًا بولونيا الكبرى التي اعطاها نابوليون لملك سكسونيا بعد ان جعلها امرية ولقبها بامرية فرسوفيا ولكنها الغيت سنة ١٨١٥ واقتسمتها بروسيا وروسيا . وفي سنة ١٨١٢ وسنة ١٨١٤ وقع ايضًا بين بروسيا وفرانسا حروب مهلكة خسرت فيها بروسيا خسائر ليست بقليلة فقل اعتبارها وسقط رونق مجدها غير انها في السنة التالية بعد انتصارها مع باقي الدول المتحزبة على الفرنساويين في واقعة واترلوا وسقوط نابوليون اخذت بثارها ودخلت عساكرها مدينة باريس واسترجعت اراضيها واملاكها . وشرع ملكها فريدريك المذكور من ذلك اليوم باصلاح حال المملكة وبذل غاية الجهد في ارجاعها الى ما كانت عليهِ . وكان غيورًا ومحبًّا لرعاياهُ لا يفتر عن خيرهم الروحي حتى انهُ كان يوزّع عليهم الكتب المقدسة . ثم توفي سنة ١٨٥١ تاركًا الملك لابنهِ فريدريك غليوم الرابع

فحكم هذا الملك الى سنة ١٨٥٨ واضاف الى مملكتهِ امارتي هوهنزولرن سنة ١٨٥٨ ثم اعتراهُ مرضٌ في دماغهِ واشتد عليهِ حتى انهُ لم يعد يمكنهُ الانتباه الى مهام المملكة فتولج اخوهُ مكانهُ نائبًا وما زال الحال يشتد على الملك الى ان توفي في ٢ كانون الثاني سنة ١٨٦١ واستبد اخوهُ بالملك بعدهُ تحت اسم غليوم الاول وهو الملك الحالي . وكان قبل جلوسهِ على سرير الملك ازوج ابنهُ البكر وريث عهدهِ البرنس فريدريك غليوم بابنة ملكة انكلترا في بداءة سنة ١٨٥٨ فكان ذلك من جملة اسباب التحالف والتعاضد بين الدولتين

وقد اشتهر هذا الملك بين الناس في حسن السيرة والسريرة ولاسيما في

انصبابهِ على ترقية اسباب تقدم شعبهِ ونجاحهم . ولكن لما كانت البواطن غير رائقة بين دولتي النمسا وبروسيا بسبب خصومتهما واختلافهما على السيادة والرياسة في قيادة الممالك الجرمانية انفجرت بينهما منازعات شديدة سنة ١٨٦٦ افضت بهما الى اشهار السلاح ومحاربة بعضهما بعضًا فكانت الدائرة في ذلك على النمسا في واقعة سادوا فارتفع شان بروسيا في ذلك الاستظهار واضافت الى املاكها جملة اراضي واماكن كما لمحنا عن ذلك في جغرافية هذه المملكة وعقدت اتحادًا عامًّا مع ممالك وامريات ومدائن جرمانيا الشمالية وابطلت من ذلك الوقت اسم بروسيا واطلقت على ذاتها اسم اتحاد شمالي المانيا

فلما حصل البروسيون على هذه الشهرة والنفوذ والقوة تحرك فيهم روح اخذ الثار من اعدائهم الفرنساويين الذين طالما اضروا بهم في ايام نابوليون الاول . فكان هذا الروح عامًّا في بروسيا وباقي البلاد الجرمانية وكان الجميع ساعين ومنتظرين الفرصة المناسبة ليس لفتح الحرب ولكن لمقاومة فرانسا التي كانت ترشقهم بنظر عكر غير سارّة في نجاحهم وتقدمهم . فاستمرت هذه الاحساسات مكنونة في صدور الامتين الى ان نبغت قضية انتخاب البرنس ليوبولد هوهنزولرن الجرماني لتخت مملكة اسبانيا . فنهضت فرانسا لمقاومة هذا المشروع الذي من شانهِ ان يزيد جرمانيا سطوةً ونفوذًا ويعرّض فرانسا الى عواقب ردية اذ يجعلها بين امتين قويتين متحدتين في سياسة واحدة فوقع حينئذٍ النزاع بين فرانسا وبروسيا واعلنت هذه الاخيرة عدم مداخلتها في ذلك الامر واخيرًا اذ رأى البرنس ليوبولد ما وقع من الخصومة بين الدولتين بسببهِ رفض انتخاب الاسبانيوليين لهُ وحرر لهم بعدم قبولهِ وكان يُظَنّ ان المشكل قد انفض. ولكن لم تكتفِ فرانسا بهذا التنازل وكانت تريد ان بروسيا تتعهد لها بمنع امراء الجرمانيين ان يقبلوا تاج اسبانيا في المستقبل فلم تقبل بروسيا ان تعطي تعهدًا عليها في ذلك واذ تشبثت فرانسا بطلب التعهد المذكور بواسطة سفيرها في برلين موسيو بنيدتي الحّ المذكور على الملك غليوم الاول الحاحًا يفوق حدود

اللياقة فزجرهُ الملك رافضاً ذلك الطلب . حينئذٍ نادت فرانسا بالحرب ونهض القومان للقتال واصطلت بينهم نيرانهُ سنة ١٨٧٠ فاستظهر البروسيون في اغلب وقائعهم وكانوا يتقدمون على الاراضي الفرنساوية ويستولون على قلعهم وحصونهم الى ان استولوا في ٢ ايلول على امبراطورهم نابوليون الثالث في واقعة سيدان المهلكة مع عددٍ عظيم من الاسرى. ثم تقدموا بجموعهم الى باريس وبعد حصار ١٢١ يوماً افتتحوها في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٨٧١. حينئذٍ عُقد صلحٌ بين الدولتين تحت شروط معلومة اخصها ان فرانسا تسلم بروسيا ولايتي الالزاس وخمس اللورين وتدفع لها فوق ذلك مبلغاً مقدارهُ خمسة الاف مليون من الفرنكات في مقابلة مصاريفها . وممن يجب ذكرهم من مشاهير رجال بروسيا في الجيل التاسع عشر الجنرال مولتك قائد الجيوش والبرنس بيزمارك قائد السياسة الفريد

الفصل السادس عشر

في تاريخ روسيا

الباب الاول

في جغرافية هذه المملكة

انهُ لا يمكن تعيين حدود لهذه المملكة في الازمنة القديمة اذ لم يكن لها حدود كما في الازمنة المتاخرة نظراً لما كانت عليهِ من الانقسامات والتقدم

والتأخر. اما حدودها الآن فمن الشمال البحر المتجمد الشمالي ومن الجنوب البحر الاسود واوستريا وسلطنة آل عثمان ومن الشرق بحر قزبين او الخزر وجبال اورال الفاصلة بينها وبين املاكها في اسيا ونهر دون ومن الغرب بحر بلتيك واسوج وبروسيا واوستريا وبعض البلاد العثمانية وهي اوسع ممالك الارض لامتدادها في اوروبا واسيا ويحدها في اسيا بعض المملكة العثمانية والفُرس وتركستان والصين وعدد شعوب هذه السلطنة بحسب تعداد سنة ١٨٦٧ يبلغ نحو ٨٢ مليونًا وهذا بيانهُ

الف	مليون	
٣٧٠	٦٩	في روسيا في اوروبا بما فيه پولونيا
٨٣٥	١	امرية فينلاند
٦٦٣	٤	حكدارية القوقاس
٣٣٠	٣	سيبيريا
٧٤٠	٣	اواسط اسيا
٩٣٧	٨١	

واكثر اهالي هذه البلاد من طائفة الروم وفيها ايضًا من جميع طوائف العالم. والحكم فيها من نوع الملكي المطلق وكانت اكثر الرعية بمنزلة العبيد للاشراف واعيان البلاد الذين كانوا يجورون عليهم ويستعبدونهم ولا يرغبون في تهذيبهم ونجاحهم اما الامبراطور الحالي فقد اعتقهم من نير هذه العبودية العنيفة بالامر الذي اصدرهُ في التاسع عشر من شهر شباط سنة ١٨٦١ ومن جرى هذا العمل الحسن المهمّ الذي اجراهُ الامبراطور اسكندر الثاني امسى في خطرٍ من مطامع الاشراف الذين لم يرتضوا بهذا الاصلاح لانهم لم يكونوا يهتمون سوى في صوالحهم الخصوصية قاطعين النظر عن صوالح البلاد وتقدم الرعايا وكثيرًا ما تهددوا امبراطورهم وصمموا على قتلهِ من هذا القبيل فنجا مرارًا من اشراك المنية التي نصبوها لهُ

ثم ان اهالي روسيا منقسمون الى خمس طبقات وهي الاشراف وخدَمة الدين والبُورْجوَا اي اهل الحضر واهل البادية والقرى وهم قسمان احرار ومستعبدون واما الآن فجميعهم احرارٌ كما تقدم آنفًا . والامبراطور عندهم هو رئيس الكنيسة من عهد بطرس الاكبر ويعينهُ في ادارة مهامها السينيدوس اي المجلس الديني ويختلف التمدن في هذه المملكة باختلاف البلدان ومواقعها وعاداتها اما العلوم والفنون والآداب وسائر الحرف والصناعات فليست بنامية الاَّ في مدنٍ مخصوصة

اما اراضي هذه البلاد فواسعة جدًّا وذات سهول عظيمة جدًّا تصلح للزرع وكثيرٌ منها مكتسية بالعشب ترعاهُ المواشي ومنها مقفرٌ لا نبات فيهِ وغير صالح للزرع وفي اراضيها كثير من انواع المعادن والحيوانات المختلفة وحواصلها كثيرة جيدة على ان كثرة الظلم هناك اخَّرت الناس عن التقدم والاتساع في الغنى . وانهر هذه البلاد كثيرة وعظيمة وجبالها ايضًا لكنها قليلة بالنسبة الى اتساع البلاد . اما هواؤُها فيختلف بحسب مواقع اجزائها فهو بارد جدًّا في الشمال ويعتدل في الجنوب ويشتد البرد في ثلاثة ارباع السلطنة في الاقل مدة تسعة شهور من السنة ويعقبها صيفٌ في غاية الحرّ والقصر . وفيها الان عدة مدارس كلية وجزئية ولم يزل امبراطورها مجتهدًا في تحرير ادارة لائقة في ما يختص بتعليم العامة اما الصنائع فيها فلم تزل متنازلةً عن باقي الممالك الاوروبية بمراحل وفي هذه المملكة عدة مدن معتبرة قاعدتها مدينة بطرسبرج وكانت عاصمتها اولاً مدينة موسكو القائمة في وسط سهل وسيع جدًّا في قلب المملكة . ولم يزل الجانب الاعظم من الروسيين الى يومنا في حالة الخشونة ما عدا سكان بعض المدن المعتبرة

الباب الثاني

في اصل الروسيين وبداءة مملكتهم ودياناتهم وعوائدهم من قبل الميلاد الى سنة ١٤٦٢ للميلاد

ان هذه المملكة الواسعة العظيمة كانت في العصور القديمة مقرًّا لجملة قبائل رُحَّل مختلفة الاجناس والمذاهب والعوائد وافوا من اماكن مختلفة. بعد تفرُّق بني نوح وقيل ان بعضهم متسلسلون من جومر بن يافث بن نوح الذي سكن نسلهُ عند شطوط بحر بلتيك واقدم تلك القبائل قبيلة السلاف ولم يُعرف قديمًا من اهل هذه المملكة الأَّ سكان الاقاليم الجنوبية وكان القدماء يسمون هذه الجهة باسمي سكيثيا وسرماتيا من دون تحديد معلوم والقبائل المستوطنة بها كثيرة منها الروكسلان والسرمات والكيمريس والمازيج والاغاتريس وغير ذلك ومن ثمَّ وافاهم لفيف من طوائف مختلفة كالفينية والتتر والقلمون والمغول والاتراك وغيرهم ولذا قيل لهذه البلاد روسيا اي القبائل المتشتتة . وكانوا قديمًا على مذاهب مختلفة فمنهم من عبد الاصنام ومنهم من عبد النار وغير ذلك من العبادات الخشنة واما عوائدهم فكانت من هذا القبيل ايضًا فكان الوالدون يقتلون بناتهم خوف الفضيحة والعار والاولاد يقتلون والديهم متى شاخوا وعجزوا لكي يتخلصوا من الاهتمام بالقيام في امر معيشتهم . وكانوا يحرقون جثث موتاهم الى غير ذلك من الامور المنكرة وكان الروسيون القدماء على جانب عظيم من البسالة والشجاعة ودابهم الصيد والغزو وشنّ الغارة على ما جاورهم من الامم والقبائل

ثم انهُ في القرون الاول من السلطنة الرومانية اغارت قبيلة السرمات (وهم فرعٌ من السلاف سكان شمال روسيا الاصليين) على الجهات الجنوبية المتقدم ذكرها واستولوا عليها واستمرت خاضعة لهم الى القرن الثالث للميلاد

حين هجمت عليهم امم الغوثيين وتغلبت على اكثر القبائل النازلة بين بحر بلتيك والبحر الاسود وتكوَّن من ذلك بين انهار الفولكا والدنيبر والنيمن والدون مملكة عظيمة شملت جميع ما يُعرف اليوم بروسيا في اوروبا واستمرت الى سنة ٣٧٦ للميلاد الى ان خرجت عليها امة الهونيين واسقطوها فاستمرت بعد ذلك مدة اربعة اجيال ممرًّا للامم الواردة من الشرق الى اوروبا ومسرحًا للقلاقل والاضطرابات الدائمة بين الامم المتنازعة فيها . ومع تلك القلاقل والاضطرابات المتعاقبة قد تأسست فيها في القرن السادس مدن معتبرة واشهرها نوفوغرود الكبرى وكييف وكانت الاولى اشهر من الثانية حتى كان يقال من ذا الذي يتجاسر على الله ونوفوغرود الكبرى . ولما آل امر الروسيين الى تلك الحالة من تمزيق سلطتهم وتنازع الامم الاجنبية فيها فلكي يتخلصوا من تلك المشاق والمضار اجمعوا على ان يقيموا لهم ملكًا ليسوس احوالهم ويدبر امورهم فارسلوا وفدًا الى امة الفاراك وهي من القبائل الجرمانية الساكنين عند شواطي بحر بلتيك وطلبوا اليها ان تعطيهم ملكًا ليملك عليهم . فاتاهم ثلاثة اخوة اسم احدهم روريك والثاني سيناوس والثالث تروفور وذلك سنة ٨٦٢ للميلاد ومن هذا الوقت يبتدي لروسيا تاريخ حقيقي متتابع اما المؤرخون فلا يحسبون بداءة التاريخ الروسي الاَّ من اواخر القرن العاشر للميلاد حين تنصَّر ملكها فلاديمير الاول

فاقام الاخوة الثلاثة المذكورون كلٌّ منهم على مقاطعة وكان روريك احذقهم واعظمهم سطوة فاستولى على نوفوغرود بلقب الدوك الاكبر وسنة ٨٦٤ توفي اخواهُ المتقدم ذكرهما واستبدَّ بالحكم وحدهُ واتحدت جميع القبائل الشمالية تحت سلطتهِ واستولى على مدينة كييف ومن ثمَّ اهتمَّ في اصلاح حال بلادهِ وتحصينها وقايةً من هجمات الامم المتبربرة وغاراتهم الى ان مات سنة ٨٧٩ وهو يُعدُّ اول مؤسس لدولة روسيا وبقي الملك بيد ذريتهِ من بعدهِ زمانًا طويلاً وامتدت سلطتهم في وقت قريب حتى استولوا على القسم الجنوبي من روسيا واستقرت حكومتهم في كييف ولم يزالوا على العبادة الوثنية الى ايام

ڤلاديمير الاول الملقب بالكبير الذي استولى عليهم سنة ٩٨٠ فازدادت شوكتهم وعظمت سطوتهم وقد غزا ڤلاديمير المذكور بعض املاك السلطنة الرومانية الشرقية وضايق على مدينة القسطنطينية فخاف اهلها وساعدتهُ التقادير ففتح بعض املاكها وعقد الصلح مع الامبراطورين باسيليوس وقسطنطين بشرط ان يتزوج بشقيقتهما الاميرة حنّة فتمّ ذلك وردّ الى اخويها ما كان قد استولى عليهِ من اراضيهما ولما عاد الى مدينة كييف تنصّر في محفلٍ حافل واقتدى بهِ الجانب الاعظم من رعاياهُ ومن ثمّ شرع في سحق وملاشاة الاصنام التي كان يعبدها سابقًا

وكان يومئذٍ على القسطنطينية بطريركٌ يدعى فوتيوس فطلب اليهِ ڤلاديمير ان يرسل الى بلادهِ كهنةً من لدنهُ لتنصير الاهالي وتعليمهم فبعث البطريرك المشار اليهِ اسقفًا يدعى ميخائيل سيرا واردفهُ ببعض الكهنة لينذروا الروسيين ويلقوا التعاليم الارثوذكسية في كنائسهم ويضموها الى بطريركية القسطنطينية فكان كذلك وخضعت كنائس روسيا الى بطاركة القسطنطينية الى سنة ١٥٨٨ ولذا استعمل الروسيون في لغتهم حروفًا هجائية من اللغة اليونانية الّا ان اساس لغتهم السلافية بقي على ما كان عليهِ ما عدا بعض كلمات تتعلق بامورهم الدينية الكهنوتية ومن التاريخ السالف ذكرهُ اي من سنة ١٥٨٨ انفصلت كنائس روسيا عن الخضوع لبطاركة القسطنطينية واستقلت بنفسها وأُقيم عليها بطريركٌ خصوصيٌّ من نفس البلاد فمن ذلك الوقت اخذ بطاركتها السيادة على باقي البطاركة

وبعد ان استقلت بطاركة هذه الدولة واغتنوا خامرهم طلب المجد والسطوة ورفعة الشان فصاروا يتداخلون في الامور السياسية التي ليست من تعلقاتهم ويشاركون ملوكهم في احكامهم لا بل تطلبوا السيادة عليهم تحت برقع الديانة حتى كان الملك يمشي يومًا في السنة بين يدي البطريرك مترجلاً مكشوف الراس قائدًا فرسهُ الى الكنيسة . واتصل بهم الحال الى ان ادعى احد هؤلاء

البطاركة المدعو نيفون بان تخت البطريركية هو اعلى مقامًا من تخت الملك وزعم انهُ لا يجوز فتح حرب او عقد صلح الاَّ برايهِ فنتج عن ذالك فتن وتعكيرات كثيرة كما حصل في ممالك اخرى من جرى مطامع خدَمة الدين . ودام حال هولاء البطاركة على هذا المنوال الى عهد بطرس الاكبر حين ابطل وظيفة البطريركية وابدلها بالاسقفية وجعلها خاضعة للحكم المُدني كسائر الرعية الامر الجاري الى هذا اليوم

ولم تزل شوكة الروسيين تزداد في مدة ڤلاديمير الكبير الى ان توفي سنة ١٠١٥ وهو ذاهب لاخضاع احد بنيهِ الذي كان قد عصي عليهِ.وكان لڤلاديمير اثنا عشر ولدًا فوقع بينهم الشقاق بعد موت ابيهم وبعدما كانت البلاد قد اخذت في الاتحاد والتقدم في عهد ابيهم امست بعد موتهِ في حالة الارتباك ومع ذلك ارتفع شان روسيا وازدادت شوكتها زمانًا قليلاً في مدة الامير الاكبر ياروزلاف الاول صاحب شرائعهم واحكامهم وذلك من سنة ١٠١٩ الى سنة ١٠٥٤ ب م ثم بعد ذلك بانت في اسوإ حالٍ فاقدةً ما كانت قد حصلتهُ من السطوة ورفعة الشان وشبت فيها نيران الحروب الاهلية التي أُهرق فيها انهرٌ من الدماء وذلك بسبب عادتهم السيئة من تقسيم المملكة بين امراء العائلة الملكية . فان كل امير منهم كان يستولي على اقليمٍ بما فيهِ ويستبد فيهِ على نوعٍ ما وهكذا كان يُعطى ايضًا للاناث عند زواجهنَّ فكان ذلك داعيًا لشبوب نيران الحروب الاهلية التي انقسمت بها المملكة الى اقسامٍ عديدة يتعذر بسببها اتحاد السلطنة فبقيت مدينة كييف مقرًّا للدوك الاكبر وبقية الاقسام تحت سلطة امراء من تلك العائلة ومع هذا الاضطراب الذي كان داخل المملكة كانت الغارات المشرقية تتداول عليها.ولكن بينما كانت اخذةً ثانيةً في الاتحاد والنمو وسائرة في طريق النجاح دهمها من سنة ١٢٢٤ وصاعدًا ما لم تكن تترصدهُ من البلايا والمصائب العظيمة التي اتت البلاد بالويل والهوان

وذلك انهُ كان في تلك الاثناء قد ظهر في العالم الشرقي جبارٌ عظيم يقال

لهُ تيموتشين الذي تلقب فيما بعد باسم جنكيزخان اي الامير العظيم فهذا الجبار المغولي الذي كان قد نشأ من حالةٍ بسيطة بعد ان تغلب على الجانب الاعظم من العالم الشرقي حوّل افكارهُ ونظرهُ ووجه سهامهُ نحو الامصار المغربية وارسل جيشًا سنة ١٢٠٢ للميلاد تحت امرة اثنين من عظماء رجالهِ لغزو بعض الاقاليم الروسية الشرقية . فتقدم القائدان المذكوران بجيوشهما ولما صارا على الحدود ارسلا وفدًا الى بعض القبائل الروسية بهِ يطلبان منهم الخضوع والامتثال الى بعض الشروط فغضب الروسيون من وقاحة التتر وتمنعوا من قبول مطاليبهم وقتلوا الرسل . فلما بلغ ذلك القائدين المتقدم ذكرهما غضبا غضبًا لا مزيد عليهِ ونهضا من ساعتهما وزحفا بجيوشهما الجرارة فانتشروا كالجراد في تلك البلاد واخذوا في تدمير الاماكن التي يطأُونها خاربين وناهبين وقاتلين ما وجدته ايديهم غير محترمين لا شيخًا عاجزًا ولا طفلاً قاصرًا ولا صبية ولا امرأة وافسدوا مدنًا كثيرة واضرموا فيها النيران وبعد ان غنموا غنائم جسيمة قفلوا راجعين الى سيدهم جنكيزخان فالتقاهم احسن ملتقى وانعم على القائدين ووهبهما هبات كثيرة ووهب العساكر الجانب الاعظم من السلب

اما الروسيون فظنوا ان ما جرى كان نهاية البلايا التي حاقت بهم وان التتر لا يعودون الى عمل ما قد عملوهُ فلم ياخذوا الاحتياطات اللازمة من هذا القبيل لاسيما في الاماكن التي لم تطأها ارجل التتر وحسبوا ان ذلك امرٌ لا يُعتدُّ بهِ . ولكن جاء الامر بخلاف ما توهموا اذ لم تطل مدة غياب اولئك القوم الفاتكين حتى وافوهم ثانيةً وعملوا من القطائع والخراب والتدمير وانزلوا بالروسيين من البلايا ما يعجز القلم عن حق وصفهِ واسس باتوخان بن جنكيزخان في القسم الجنوبي من روسيا السلطنة العظيمة المعروفة بسلطنة كبوجاك وصار الروسيون يحملون الخراج الى التتر . ثم في سنة ١٢٤٠ استولى باتو بن توشي احد امراء المغول على امرية كييف فامست روسيا على نوعٍ ما مملكة تترية ولم يبقَ منها مستقل بامرهِ الاَّ موسكو التي تأسست سنة ١١٤٧ والتي لُقب صاحبها سنة

البطاركة المدعو نيفون بان تخت البطريركية هو اعلى مقامًا من تخت الملك وزعم انهُ لا يجوز فتح حرب او عقد صلح الاَّ برايهِ فنتج عن ذالك فتن وتعكيرات كثيرة كما حصل في ممالك اخرى من جرى مطامع خدمة الدين . ودام حال هولاء البطاركة على هذا المنوال الى عهد بطرس الاكبر حين ابطل وظيفة البطريركية وابدلها بالاسقفية وجعلها خاضعة للحكم المُدني كسائر الرعية الامر الجاري الى هذا اليوم

ولم تزل شوكة الروسيين تزداد في مدة ڤلاديمير الكبير الى ان توفي سنة ١٠١٥ وهو ذاهب لاخضاع احد بنيهِ الذي كان قد عصي عليهِ .وكان لڤلاديمير اثنا عشر ولدًا فوقع بينهم الشقاق بعد موت ابيهم وبعدما كانت البلاد قد اخذت في الاتحاد والتقدم في عهد ابيهم امست بعد موتهِ في حالة الارتباك ومع ذلك ارتفع شان روسيا وازدادت شوكتها زمانًا قليلاً في مدة الامير الاكبر ياروزلاف الاول صاحب شرائعهم واحكامهم وذلك من سنة ١٠١٩ الى سنة ١٠٥٤ ب م ثم بعد ذلك بانت في اسوإ حالٍ فاقدةً ما كانت قد حصلتهُ من السطوة ورفعة الشان وشبت فيها نيران الحروب الاهلية التي أُهرق فيها انهرٌ من الدماء وذلك بسبب عادتهم السيئة من تقسيم المملكة بين امراء العائلة الملكية . فان كل امير منهم كان يستولي على اقليمٍ بما فيهِ ويستبد فيهِ على نوعٍ ما وهكذا كان يُعطى ايضًا للاناث عند زواجهنَّ فكان ذلك داعيًا لشبوب نيران الحروب الاهلية التي انقسمت بها المملكة الى اقسامٍ عديدة يتعذر بسببها اتحاد السلطنة فبقيت مدينة كييف مقرًّا للدوك الاكبر وبقية الاقسام تحت سلطة امراء من تلك العائلة ومع هذا الاضطراب الذي كان داخل المملكة كانت الغارات المشرقية تتداول عليها .ولكن بينما كانت اخذةً ثانيةً في الاتحاد والنمو وسائرة في طريق النجاح دهمها من سنة ١٢٢٤ وصاعدًا ما لم تكن تترصدهُ من البلايا والمصائب العظيمة التي انت البلاد بالوبل والهوان

وذلك انهُ كان في تلك الاثناء قد ظهر في العالم الشرقي جبارٌ عظيم يقال

لهُ تيموتشين الذي تلقب فيما بعد باسم جنكيزخان اي الامير العظيم فهذا الجبار المغولي الذي كان قد نشأ من حالةٍ بسيطة بعد ان تغلب على الجانب الاعظم من العالم الشرقي حوّل افكارهُ ونظرهُ ووجه سهامهُ نحو الامصار المغربية وارسل جيشًا سنة ١٢٠٣ للميلاد تحت امرة اثنين من عظماء رجالهِ لغزو بعض الاقاليم الروسية الشرقية . فتقدم القائدان المذكوران بجيوشهما ولما صارا على الحدود ارسلا وفدًا الى بعض القبائل الروسية بهِ يطلبان منهم الخضوع والامتثال الى بعض الشروط فغضب الروسيون من وقاحة التتر وتمنعوا من قبول مطاليبهم وقتلوا الرسل . فلما بلغ ذلك القائدين المتقدم ذكرهما غضبا غضبًا لامزيد عليهِ ونهضا من ساعتهما وزحفا بجيوشهما الجرارة فانتشروا كالجراد في تلك البلاد واخذوا في تدمير الاماكن التي يطأونها خاربين وناهبين وقاتلين ما وجدتهُ ايديهم غير محترمين لا شيخًا عاجزًا ولا طفلاً قاصرًا ولا صبية ولا امرأة وافسدوا مدنًا كثيرة واضرموا فيها النيران وبعد ان غنموا غنائم جسيمة قفلوا راجعين الى سيدهم جنكيزخان فالتقاهم احسن ملتقى وانعم على القائدين ووهبهما هبات كثيرة ووهب العساكر الجانب الاعظم من السلب

اما الروسيون فظنوا ان ما جرى كان نهاية البلايا التي حاقت بهم وان التتر لا يعودون الى عمل ما قد عملوهُ فلم ياخذوا الاحتياطات اللازمة من هذا القبيل لاسيما في الاماكن التي لم تطأها ارجل التتر وحسبوا ان ذلك امرٌ لا يُعتدُّ بهِ . ولكن جاء الامر بخلاف ما توهموا اذ لم تطل مدة غياب اولئك القوم الفاتكين حتى وافوهم ثانيةً وعملوا من القطائع والخراب والتدمير وانزلوا بالروسيين من البلايا ما يعجز القلم عن حق وصفهِ واسس باتوخان بن جنكيزخان في القسم الجنوبي من روسيا السلطنة العظيمة المعروفة بسلطنة كبوجاك وصار الروسيون يحملون الخراج الى التتر . ثم في سنة ١٢٤٠ استولى باتو بن توشي احد امراء المغول على امرية كييف فامست روسيا على نوعٍ ما مملكة تترية ولم يبقَ منها مستقل بامرهِ الا موسكو التي تأسست سنة ١١٤٧ والتي لُقّب صاحبها سنة

١٢٣٨ باسم الدوك الكبير هذا ودامت حال روسيا على هذا المنوال يؤدي امراؤها الطاعة والخراج الى خانات التتر مدة اكثر من قرنين وذلك من سنة ١٢٤٠ الى سنة ١٤٨١ بعد ان قام فيها ايڤان الثالث فحررها من ثقل تلك العبودية الجائرة

الباب الثالث

في ما جرى منذ تولّى ايڤان الثالث من سنة ١٤٦٢ الى سنة ١٥٨٤

قد ذكرنا في ما تقدم ان مملكة روسيا انقادت للتتر واستعبدت لهم زمنًا طويلاً ثم تغير حالها بالكلية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر باستيلائها على عدة إمريات وجمهوريات وذلك ان خانة هوردة الكبرى الم بها الضعف لما وقع فيها من الشقاق والحروب الداخلية ثم بوقوع حروب اهلية في المغول والتتر واستيلاء تيمورلنك على بلادهم ارتفعت عن روسيا ربقة العبودية وعظم شان دوكاتها الذين كانوا يحملون الخراج لتلك الحكومة وقويت شوكتهم حيث انضم اليهم عدة امريات خصوصية كانت متحدة تحت حكومة روسيا الشمالية منذ مدة مستطيلة . ثم ان ايڤان الثالث ابن باسيليوس الثالث وولي عهدهِ الذي كان من اشهر امراء دولة روريك اخذ بزمام دوكية موسكو الكبرى سنة ١٤٦٢ للمسيح ولهُ من العمر ٢٢ سنة فاقبل عليهِ الدهر وسالمتهُ الايام فانتهز الفرصة من ذلك الوقت وسعى في تمكين حكومتهِ وتوطيدها في داخل المملكة واخذ في توسيع دائرتها بالحروب والغارات وبعد عدة غزوات تغلب على نوڤوغرود التي كانت يومئذٍ جمهورية قوية الشوكة تتظاهر بالاستقلال تظاهرًا كليًا فادخلها ايڤان المذكور تحت الطاعة سنة ١٤٧١ ثم خرجت عن طاعتهِ سنة ١٤٧٨ فلحق حكومتها من الظلم والعسف ما لا مزيد عليهِ وفقدت مجدها

ومزاياها واملاكها وسقط رونق فخارها واخذت في الانحطاط والخمول يوماً بعد يوم حتى انهُ في اقل من مئة سنة اضمحلت بالكلية وصارت لا تُعدّ من المدائن العظيمة

وكان ايفان الثالث اول من ابطل من حكام روسيا ما كان جارياً عندهم من العادة الموجبة المذلة اذ كان يجب على الدوكات الكبار ان يخرجوا الى مقابلة سفراء خانات هوردة التي لُقّبت هوردة الذهب مشاةً على اقدامهم بل رفض حكومتهم بالكلية وامتنع عن دفع الجزية التي كان يدفعها سلفاؤهُ الى حكومة كبوجاك منذ بضعة قرون . ففي سنة ١٤٨٠ بعث اليهِ احمد خان سفراء من لدنهُ ومعهم رسالة مختومة بالختم الملكي يطلب بها منهُ الجزية فرمى ايفان بالرسالة الى الارض ووطئها بقدميهِ وقتل الرسل جميعهم الاّ واحداً ردّهُ الى مولاهُ فكبر ذلك على الخان المار ذكرهُ وعزم على الانتقام من ايفان في نظير هذه الاساءة فشنّ الغارة على روسيا وما زال يتقدم فيها حتى الى شواطي نهر اوغرا فوقع هناك في ايدي الروسيين وقتلوهُ بعد ان كان هرب من ايديهم وامسكوهُ ثانياً وبموتهِ طفئت بهجة هوردة وفخارها ولم تبقَ من سلطنة كبوجاك ذات الشوكة والسطوة الاّ بعض القبائل وهي قازان وازدراهان والقرم. وصار لايفان الثالث مهابة وحرمة عظيمة عند هولاء التتر لاسيما تتر قازان الذين اخضعهم بعد مقاتلات كثيرة وضرب عليهم المال واستولى اخيراً على بلادهم ومن ذلك الوقت صارت قازان تابعة لروسيا وصار الدوك الكبير يولي عليها حكاماً من طرفهِ وكان ذلك سنة ١٤٨٦ . ثم ان ايفان فتح ايضاً جملة امريات وضمها الى مملكتهِ ولم تاتِ سنة ١٤٩٩ حتى تمت وحدة الحكومة الروسية في عهد ايفان الثالث فصار يحكمها امير واحد واكتسب ايفان شهرة عظيمة بما بذلهُ من الجهد في جلب التمدن الى بلادهِ وبما صدر عنهُ من الفتوحات وبما انشأهُ من التنظيمات والابنية الفاخرة منها صرح كريملين وهو قصرٌ عظيم في مدينة موسكو سكنهُ القياصرة الروسيون الى عهد بطرس الكبير واحدث في سائر مواضع ادارتهِ

نظامًا جديدًا وترتيبًا عسكريًّا وبالجملة هو اول من اسس لمملكة روسيا اركان عظمها وفخارها ثم ادركتهُ الوفاة سنة ١٥٠٥

ولا يخفى ان ملوك روسيا يسمون كزار او تزار ولعل ذلك ماخوذ من لفظة جار التي هي لقبٌ لكل من تملك على مقاطعة قازان واول من تلقب بهذا اللقب ايفان الثالث بعد ان تغلب على قازان في القرن السادس عشر ثم صار يُلقب بهِ من خلفهُ في الحكم وربما ان كلمة تزار ماخوذة عن لفظة تراس التي يلقب بها ملوك الفرس او عن لفظة قيصر التي يُلقب بها ملوك الرومان والروم. ولم يكن ايراد دولة روسيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد الاَّ ٢٥ مليونًا من الفرنكات فشتان بين الحالة التي كانت عليها حينئذٍ وبين حالتها الآن من الثروة والشوكة

وقد خلف ايفان الثالث ابنهُ باسيليوس او باسيل الرابع وفي السنة الثالثة من ملكهِ التجأ اليهِ امير بلاد پولونيا الذي اراد الاستقلال بالحكومة واستغاث بهِ فانتصر لهُ باسيل وشبت نيران الحرب ودامت مدةً طويلة وانتهت سنة ١٥٢٣ بانتصار الروسيين في اكثر المواطن وعما قليل ادخل باسيل تحت طاعتهِ تتر قازان الذين كانوا قد تظاهروا بالعصيان ثم ادركتهُ الوفاة سنة ١٥٢٤ وفي ايامهِ ازدادت مملكة روسيا اتساعًا حيث انضمت اليها امرية ريزان. وبعد موت باسيل الرابع خلفهُ ابنهُ ايفان الرابع الملقب بالهائل تحت وكالة امهِ هيلانة اذ لم يكن لهُ من العمر الاَّ اربع سنين. وكان الروسيون قد اعتادوا على ان ارامل ملوكهم يعتزلنَ في الاديرة ويتنازلنَ عن ابهة المنصب الذي فقدنهُ بموت ازواجهنَّ فاغتاظوا من استيلاء امرأة ولدٍ صغير فتعكرت ايام نيابة هيلانة ولكنها فازت بالصعوبات التي حالت قليلاً دون المرغوب الاَّ انها لم تتمتع مدةً طويلة باجتناء ثمرة تعبها اذ ماتت بعد ذلك باربع سنوات. واذ كان ايفان لا يزال حديثًا وغير كفوء للقيام بادارة المملكة بانت الدولة في اختلالٍ عظيم ولكن لما بلغ ايفان السنة الرابعة عشرة من العمر اظهر من الدراية والذكاء

والثبات ما يفوق طاقة سنهِ فتولى ادارة المملكة وسعى في قتل ونفي ظَلَمتهِ وقمع تعصبات اهل البغي والفساد وهكذا لما كان مضطرًّا منذ حداثتهِ على اجراء الانتقام وإيقاع الرعب في قلوب رعاياهُ تعود قساوة الاخلاق التي استحالت الى الظلم وحب سفك الدماء ولذا لُقّب بالقاسي والهائل

وكان تتر قازان يتحملون مع الضجر ربقة الخضوع التي الزمهم بها ايفان الثالث فنبذوها عنهم سنة ١٥٥١ فزحف ايفان الرابع في جيش كبير لاخضاعهم ثانيةً وبعد ان كسرهم في جملة مواطن فتح مدينتهم عنوةً واباد حكومتهم . وسنة ١٥٥٤ حارب ايورغي امير استرخان واستولى على بلادهِ وسنة ١٥٥٥ وقعت حرب بينهُ وبين خان القرم فكانت الدائرة فيها على الاخير . وسنة ١٥٥٦ اشهر غوستاف واصا ملك اسوج الحرب على روسيا اجابةً لتوسل اهل ليفونيا الذين باتوا هدفًا لتهديدات الروسيين فارسل ايفان جيشًا الى فينلاند فانتصر على جيش الاسوجيين بقرب ويبرج واذ لم يأتِ الاسوجيين الامدادات التي كان الليفونيون قد وعدوا بها عقدوا مع ايفان الصلح سنة ١٥٥٧ على ٤٠ سنة . ثم تغلب ايفان على ليونيا في السنة التي بعدها واستولى سنة ١٥٦٣ على جملة اماكن من ليثوانيا ولكنهُ انهزم في السنة التالية امام حاكم ويلنا عند سواحل نهر دنيبير . وكان تتر القرم قد اغاروا على روسيا بتحريض البولونيين وتوغلوا فيها حتى بلغوا ابواب موسكو واحرقوا ضواحيها سنة ١٥٧١ فدفعهم ايفان وعقد معهم صلحًا وعقد مع ملك بولونيا هدنة اجلها ثلاث سنين ثم وجه سهامهُ نحو الاسوجيين وانتصر عليهم وعقد سنة ١٥٧٥ مع ملكهم كريستيان الثالث هدنةً اجلها سنتان

وكان ايفان قاسيًا جدًّا سريع الغضب يفعل افعالاً تنفر منها الوحوش وتقشعرُّ منها الابدان فانهُ كثيرًا ما اطلق الوحوش الضارية على جماهير الناس الذين كانوا يقفون احيانًا للمكالمة في الشوارع فكانت تلك الوحوش تهجم عليهم وتوقع بهم اضرارًا عظيمة وتهلك بعضهم وهو جالس عند احدى نوافذ قصرهِ ينظر اليهم ضاحكًا على القوم الذين كانوا يولولون ويتراكضون من امام

الوحوش . واذ كان يومًا يتناول الطعام زارهُ احد خواصهِ فبشَّ في وجههِ متبسمًا فدنا ذلك المسكين من كرسيهِ وانحنى امامهُ بكل وقار فاخذ ايڤان سكينًا وقطع اذنهُ وهو يتقهقه ضاحكًا . وكثيرًا ما كان يُلبس بعض المنكودي الحظ جلود الادباب ويطلق عليهم الكلاب الانكليزية الكبيرة فتهجم عليهم وتنهش اجسادهم وهو ينظر اليهم ضاحكًا حتى يستلقي على قفاهُ وفظائعهُ اكثر من ان تذكر. فان كانت هذه افعالهُ في اوقات نعيمهِ وحظهِ فكم بالحري تكون في اوقات بؤسهِ وغيظهِ ومع ان ايڤان كان قاسيًا بهذا المقدار يعد من مشاهير ملوك روسيا بسبب التحسينات والتنظيمات الكلية التي اوجدها لترقية اسباب التجارة والعلم والصنائع

ومن ثم ينسب الى ايامهِ استكشاف بلاد سيبيريا . وذلك ان تاجرًا من اصحاب الثروة كان مقيمًا في حكومة اركانكل اخبر اولاً بوجود هذا القطر وتم استكشافهُ رئيس من روساء الكزك يُسمى يورماك فان هذا الرئيس كان مولعًا بالغزو وشن الغارات وايقاع السلب والنهب في سواحل نهر فولكا وفي اكناف بحر الخزر فطردتهُ فرقة من جيش روسيا ودفعتهُ الى ما وراء الحدود . فتوجَّه الى نواحي سيبيريا وتجاسر على الشروع في فتحها مع فرقة قدرها ٧٠٠٠ الاف نفس من الكوزك . وبعد ان هجم بضع مرارٍ على تتر سيبيريا وعلى خانهم كوتشوم تغلب ايضًا على مدينة سيبيريا التي كانت اعظم حصونهم سنة ١٥٨١ الاَّ ان معظم اصحابهِ هلكوا . فلما لم تتيسر لهُ الاقامة بها مع العدد القليل من الرجال الباقين معهُ اشترى من الكزار ايفان العفو عن ذنوبهِ القديمة بالتنازل عن فتوحهِ هذا . فتملكت العساكر الروسية بلاد سيبيريا سنة ١٥٨٢ ومع ذلك لم يتم انقياد هذه البلاد تمامًا الاَّ في ايام الكزار فيودور ايڤا نوفيتش ابن ايڤان ووليّ عهدهِ وبنى سنة ١٥٨٧ مدينة توبولسك التي صارت من ذلك الوقت تخت سيبيريا للولاة الروسيين

الباب الرابع

في ما حدث منذ وفاة ايفان الرابع وانقراض سلالة روريك الى ظهور بطرس الاكبر من سنة ١٥٨٤ الى سنة ١٦٨٢

وبعد وفاة ايفان الملقب بالهائل خلفهُ في الملك ولدهُ فيودور وكان عمرهُ اذ ذاك سبع عشرة سنة غير انهُ كان فاتر الهمة قليل النشاط والصحة لا يصلح لادارة زمام مملكة عظيمة متسعة تكثر فيها التغييرات والانقلابات . ولما كان والدهُ ايفان عالمًا بعدم لياقة ولدهِ المذكور اقام ثلاثة وكلاء مساعدين لهُ فكان زمام المملكة بيدهم ولم يكن لفيودور من الملك الاَّ مجرَّد الاسم فقط

وان بوريس غودونوف اخا زوجة ايفان وخال فيودور لما رأى ما كان من ضعف ابن شقيقتهِ وعدم صلاحيتهِ للملك وانحلال جسمهِ طمع بالاستيلاء على الملك من بعدهِ واخذ يزرع الفساد والشقاق بين الوكلاء المذكورين وغيرهم من الاعيان واخيرًا بمساعدة اعوانهِ اقام الحجة على الواحد بعد الاخر فقتل البعض ونفى وسجن البعض الاخر واصبح ذا سطوة وهيبة عظيمة . ثم قتل سنة ١٥٩٧ الامير ديمتري ابن ايفان من زوجتهِ الاولى الذي كان لهُ الحق في ارث تخت الملك. وكانت صحة فيودور تزداد انحلالاً وامال بوريس تزداد انتعاشًا. وفي تلك الاثناء ولد لفيودور ابنة وتعلقت آمال الناس بها وايس بوريس من بلوغ الارب على انهُ لم تطل حياة تلك الابنة بل ماتت بعد ولادتها بسنة . ثم مات اخيرًا فيودور سنة ١٥٩٨ وبهِ انتهت دولة روريك

فاستولى بوريس على المملكة زورًا وتعدّيًا وتتوَّج بتاج الملك باحتفال

عظيم وبعد ما ارتكب كثيرًا من الجرائم والفظائع لنوال مرغوبهِ اخذ يستميل قلوب الاهالي لتوطيد اركان دولتهِ الجديدة . وفي غضون ذلك ظهر شابٌ يقال لهُ غريغوري بوريبف كان قد دخل في زمرة الرهبان فوسوس لهُ بعضهم انهُ شبيهٌ بالامير ديمتري الذي قتلهُ بوريس . وكان هذا الراهب على جانبٍ عظيم من الدراية والذكاء فحدثهُ عقلهُ انهُ سيتبوأُ يومًا ما عرش امبراطورية روسيا فسمى نفسهُ ديمتري واخذ يستميل بكثيرين اليهِ زاعمًا انهُ هو الامير ديمتري الذي شاع عنهُ انهُ قُتل وانهُ هو الملك الشرعي للمملكة وانهُ لم يُقتل بل فرَّ من ايدي الذين ارادوا قتلهُ . ولما شاع امرهُ اخيرًا عند بوريس خاف ان يفعل بهِ ما فعلهُ بغيرهِ ففرَّ هاربًا والتجأَ الى پولونيا. فعضد دعواهُ ملك بولونيا مع خلق كثير ممن كانوا يكرهون بوريس وامدَّهُ بجيشٍ لمحاربة بوريس وتنزيلهِ عن الملك. ولما بلغ الامر الى بوريس خاف وارتعد وارسل جيشًا لمحاربة ديمتري الكاذب فكسر ديمتري جيشهُ فارسل بوريس جيشًا ثانيًا فانكسر ديمتري وعاد الى بولونيا

فاجتهد بوريس ان يقنع ملك پولونيا ان دعوى ديمتري كاذبة فلم يجدِهِ نفعًا . واتفق ذات يومٍ بعد الغذاء انهُ اصاب بوريس أَلم شديد في احشائهِ فمات بعد ساعتين فانتهز ديمتري هذه الفرصة وقام بالعساكر الپولونية وتقدم ودخل روسيا ولبس تاج الملك بالقوة زورًا وعدوانًا .ولكن لم يطل الحال حتى انكشف امرهُ فقام عليهِ الاهالي وقتلوهُ واحرقوا جثتهُ بالنار فتعاقب بعدهُ كرسي الملك ثلاثة ملوك زعم كلٌّ منهم انهُ الامير ديمتري الوريث الحقيقي.وهذه الامور المخلة تدل على الاختلال الذي كان في هذه الدولة وعدم انتظام احوالها ولا عجب من ذلك فان كل امة كسدت فيها بضاعة العلم والنور سهل اغراؤُها لان من طالع مطوَّلات الاسفار لا يخفى عليهِ ما ترتب على دعاوي اولئك المدَّعين المزورين من ازدياد اختلال دولة روسيا

ان الپولونيين الذين هم اول من عضدوا دعوى المزوّر الاول واضرموا

نيران الفتن والشقاق اوشكوا اخيرًا ان يستولوا على دولة روسيا . وتقاسم اهل اسوج جزءًا من بلادها في فينلاند وزعموا ان لهم حقًّا في تاج المملكة المذكورة فتطلبوهُ فاتى ذلك الدولة بالخراب والدمار مدة طويلة وكادت تسقط الى حضيض الاضمحلال . ولما كانت الدولة غارقة في وسط هذه الانواء والشدائد عقد اخيرًا كبار الروسيين جمعية سنة ١٦١٣ واستقرَّ الراي فيها على انتخاب شاب عمرهُ خمس عشرة سنة يقال لهُ ميخائيل رومانوف وهو جد بطرس الكبير وقلَّدوهُ المنصب الملكي. وكان هذا الشاب من عائلة اكليريكية وهو ابن مطران يقال لهُ فيلاريت وامهُ راهبة لها قرابة من جهة نساء ملوك روسيا الاقدمين

ولعل البعض يستغربون كيف ان مطرانًا يكون ذا اولاد من راهبة فالسبب في ذلك هو ان المطران المذكور كان من اعيان البلاد المتزوجين اصحاب الصولة فجبرهُ بوريس غودونوف على الترهب كما جبر زوجتهُ على ذلك ايضًا . وكان بعد ذلك ان ديمتري الكاذب جعلهُ مطرانًا وارسلهُ سفيرًا الى بولونيا فسجنهُ البولونيون لانهم كانوا يومئذٍ في حربٍ مع الروسيين . وكان انتخاب ميخائيل المذكور ملكًا في مدة سجن ابيهِ في بولونيا ففدى والدهُ باسرى البولونيين ورقاهُ الى منصب البطركية فكان في الواقع هو صاحب الامر والنهي

وكان الملوك الروسيين من سنة ١٤٩٠ للميلاد لا يتزوجون ببنات الدول الاجنبية وربما اقتبسوا ذلك عن العوائد الشرقية منذ استيلائهم على امارتي قازان واسترخان .فكان اذا اراد الملك الزواج اتوا الى قصرهِ باجمل بنات البلاد حسنًا فتستقبلهنَّ كبيرة نساء القصر وتجعل كلاًّ منهنَّ في مكان على حدتها ثم تجمعهنَّ ساعة الاكل على مائدة واحدة فيشاهدهنَّ وينتخب منهنَّ من ارادها . وكان يُعيَّن للزفاف يومًا قبل الانتخاب فاذا جاء اليوم المعيَّن خلع على التي وقع عليها الانتخاب سرًّا خلعة العرس ثم يوزع خلعًا اخرى على باقي البنات وينصرفنَ الى حيث اتينَ وعلى هذا الوجه كان زواج الكزار ميخائيل بابنة رجل فقير الحال يحرث الارض

هذا ولم يكن تنصيب الملوك في روسيا بطريقة الانتخاب ولكن لما لم يبقَ احد من ذرية ملوكها القدماء اقتضى انتخاب ملكٍ جديد ونتج بسبب هذا الانتخاب حروب جديدة مع الاسوجيين والبولونيين فان كلاًّ من الفئتين زعمت ان لها حقًّا في الاستيلاء على كرسي مملكة روسيا . ودامت الحرب بينهم زمنًا طويلاً ثم عُقد الصلح فاخذ اهل بولونيا امرية سمولانسك والاسوجيون اخذوا اقليم إينغريا . وبعد هذا الصلح سكنت احوال دولة روسيا ولم يعرض عليها من التغييرات ما يفسد ادارتها او يصلح حالها

وسنة ١٦٤٥ توفي ميخائيل وخلفهُ ولدهُ ألكسيس وهو ابو بطرس الكبير ولهُ من العمر ست عشرة سنة وقد سلك الكسيس في الزواج مسالك ابيهِ سنة ١٦٤٧ ثم تزوَّج ثانيةً سنة ١٦٧١ . وفي عهد الكسيس حدثت منازعات وفتن داخلية وخارجية سفكت فيها دماء كثيرة ووقع ايضًا بينهُ وبين اهل اسوج واهل بولونيا حروب جديدة ففاز على الفئة الثانية واسترجع منها بعض الاقاليم ولكنهُ لم ينجح مع الفئة الأُولى . وكان الكسيس من افاضل ملوك الروسيين فانهُ اول من وضع دستورًا للشرائع والقوانين وادخل في ممالكهِ المتسعة صنائع الاقمشة والحرير . وكانت العادة في تلك الايام ان الاسرى يكونون ارقاء لمن وقعوا في اسرهِ فجعلهم الكسيس في خدمة الفلاحة وزراعة الاراضي وبذل غاية جهدهِ لادخال النظام والتربية العسكرية بين عساكرهِ غير ان الدهر لم يسالمهُ الى النهاية لكي يتمم مقاصدهُ اذ ادركتهُ المنية سنة ١٦٧٧ وبموتهِ وقع الاختلال بنظام الامور كلها

وكان الكسيس قد اعقب من زوجتهِ الاولى ولدين ذكرين وست بنات وكان اسم البكر منهما فيودور والثاني ايفان وكان الاثنان نحيفي الجسم لا سيما ايفان . وكان عمر فيودور اذ ذاك خمس عشرة سنة وكان شابًّا فاضلاً محبوبًا فتبوأ تخت الملك بعد موت ابيهِ . وكان الكسيس قد اعقب ايضًا من زوجتهِ الثانية ولدين بطرس وهو المعروف بالكبير وابنة يقال لها ناتالي واما البنات

الست اللواتي من زوجتهِ الاولى فكان اشهرهنَّ الاميرة صوفية التي امتازت على شقيقاتها بذكائها ووفور عقلها . وكان ولداهُ من زوجتهِ الثانية غير محبوبين من الاهالي فلم يكن احد يظن ان بطرس سيتبوأُ يومًا تخت مملكة روسيا . ولما كانت عادة ملوك روسيا ان يتزوجوا ببنات رعيتهم كانت هناك عادةٌ اخرى وهي ان بناتهم كان يُندر في تلك الايام زواجهنَّ فينقضي اغلبهنَّ حياتهنَّ في الاديرة . وكان فيودور يزداد بجسمهِ من يوم الى اخر نحولاً وسقمًا . وسنة ١٦٨٢ لما احسَّ بقرب حلول اجلهِ وكان يعلم ان اخاهُ الثاني ايفان لا يصلح لمنصب الملكية اوصى بوراثة الملك لاخيهِ بطرس ولم يكن لهذا الاخير اذ ذاك من العمر الأ عشر سنين لكنهُ كانت تلوح على وجههِ دلائل النشاط ووفور العقل

وقد سبقت الاشارة ان الاميرة صوفية كانت على جانبٍ عظيم من الدراية وجودة العقل وكانت شاعرة كاتبة فصيحة جميلة المنظر غير ان طمعها كان سببًا في خسران بهجتها . فلما احسَّت ان اخاها فيودور صار على همة مفارقة الحياة ورات ان اخويها ايفان وبطرس لايصلحان اذ ذاك للحكم لعدم صلاحية احدهما لهُ ولصغر سن الثاني خرجت من عالم المنفى اي الدير الى عالم الشهرة وعزمت على ان تاخذ زمام الدولة وقصدت ان تضر باخيها بطرس لكي تسلب منهُ حق التملك . فاخذت تضرم نيران الدسائس والفتن بقصد الوصول الى مرغوبها فوقع في وجاق عساكر السترلينس فتنة كبيرة سُفك بسببها دماءٌ كثيرة واصبحت البلاد كانها قبر مفتوح لابتلاع الناس فكثر التعدي والاضطراب ووقعت الحكومة في ارتباك لامزيد عليهِ . وكانت الاميرة صوفية تحرّض اولئك الطُغاة سرًّا على الازدياد في الفواحش والقبائح طمعًا بنوال المرغوب ففعلوا من الامور ما يعجز القلم عن وصفهِ فانهم فاقوا على الانكشارية من هذا القبيل . هذا وما زال الهرج والقلاقل آخذة كل مأخذ الى ان انتهت اخيرًا في شهر حزيران سنة ١٦٨٢ واستقرَّ الراي بتنصيب الاميرين ايفان وبطرس ملكين سويةً واختها صوفية شريكة لها في الملك بطريق الوكالة

الباب الخامس

في استيلاء بطرس الكبير واعمالهِ العظيمة وما حصل من المشاجرات والفتن في ايامهِ والحروب الى غير ذلك من سنة ١٦٨٢ الى سنة ١٧٢٥

وحدث ايضاً بعد ذلك قلاقل واضطرابات كثيرة وكانت الاميرة صوفية تحاول الاستبداد بالحكم وحدها وعزمت على اهلاك اخيها بطرس املاً بالوصول الى المرغوب . على ان مساعيها لم تاتِ بفائدة فان اخاها بطرس تقوّى وصار لهُ حزبٌ عظيم فانتصر على كل الموانع التي كانت تحول بينهُ وبين توطيد سطوتهِ فكشف عن دسائس اختهِ صوفية واعادها الى عالم المنفى في ديرها بمدينة موسكو . ومن ثمَّ تولى الملك بطرس ولم يعد لاخيهِ ايفان يد في مهام الدولة ولم تطل حياتهُ بل مات سنة ١٦٩٦ للميلاد . فاستبدَّ بطرس بالامر وحدهُ ولم يعد لهُ معارض ولا منازع على انهُ كان يخشى عليهِ من بعض الاحزاب نظرًا لحداثة سنهِ . وكان اول امر حاول اصلاحهُ في مملكتهِ قمع شوكة عساكر السترليتس وردعهم عن العصيان . وكان عازمًا على محاربة تتر القرم وشن عليهم الغارة ولكن من دون ان يبلغ اربهُ منهم وانتهى اخيرًا الحال بينهم بعقد هدنة لم يجرَ العمل بموجبها الاَّ مدة وجيزة

وفي اثناء ذلك اخذ بطرس في تحصين بلادهِ من داخل ومن خارج قاصدًا بذلك ردع مهاجمات الاعداء لكي يتفرغ لادخال التمدن والفنون والمعارف الى مملكتهِ اذ كان الروسيون لم يزالوا الى ذلك العصر في غاية الافتقار الى ذلك ولم يكن عندهم منهُ الاَّ القليل بالنسبة الى ما كان عند غيرهم من

دول اوروبا المتمدنة . وكانت افكارهُ تصبو الى الفتوحات وتوسيع مملكتهِ من جهة بحر بلتيك شمالاً والبحر الاسود جنوبًا . وكانت مملكة آل عثمان يومئذٍ في ارتباك فانتهز بطرس هذه الفرصة واخذ في تمرين جيوشهِ استعدادًا للحرب وجهز سنة ١٦٩٤ جيشًا كبيرًا تحت قيادة الجنرال شرمتوف وسار هو بنفسهِ مع هذا الجيش بصفة جنديّ طوعي وحاصروا في اوائل فصل صيف سنة ١٦٩٥ مدينة ازوف وفتحوها بعد حروبٍ وحصارٍ طويل وفازوا على التتر والاتراك وعقب هذا النصر امر بتحصين البحر عند ازوف واقيم فيهِ عدة سفن حربية احتياطًا . ثم عاد الى موسكو باحتفالٍ عظيم وكان دخولهُ اليها بهذا الاحتفال شبيهًا باحتفالات قدماء الرومانيين عند رجوعهم من حروبهم وانتصاراتهم وعقب هذا الفوز عُمِل في روسيا اول نيشان للافتخار اذ لم يصنع قبل هذا العهد

ولما راى في اثناء غزوتهِ المار ذكرها ان سفنهُ لم تكن عمل اهل مملكتهِ تأسف كثيرًا فاخذته الحمية من ذلك وارسل سنة ١٦٩٧ جملة من شبان الروسيين الى هولاندا وايطاليا واوستريا ليقتبسوا العلوم والفنون من كل نوع ولم يكتفِ بذلك بل عزم على ان يتغرب هو بنفسهِ في الممالك الاوروبية المتقدمة يومئذٍ في الاصلاح والتمدن لكي يتعلم منها حسن الادارة والتدبير وليدرس بعض العلوم والفنون . فبعد ان مهد ووطد سطوتهُ في بلادهِ واناط بامر ادارتها وتدبير مهامها بعض اعيان وكبار دولتهِ خرج متنكرًا وبصحبتهِ خادم واحد ونديمهُ واتوا جميعًا مدينة امستردام قاعدة هولاندا . فاتخذ لهُ هناك منزلاً صغيرًا في الترسخانة البحرية وتزيّى بزي رئيس مركب ثم اتى قرية هناك يقال لها ساردم حيث كان يصنع بها كثير من السفن فتعجب من كثرة ارباب المهن والاشغال الجارية بها فابتاع لنفسهِ سفينةً وكان قلعها مكسورًا فاصلحهُ هو ثم اخذ يتعلم صناعة بناء السفن وسلك في معيشتهِ مسلك اهل تلك الحرفة في اللبس والمآكل والمشرب كواحدٍ منهم الامر الذي لم يسبق لهُ نظير من انسانٍ في مقامه ورتبتهِ .

وكان يشتغل مع اولئك الفعلة في معامل الحديد والحبال والطواحين وغير ذلك وقيَّد نفسهُ في دفتر الترسخانة من جملة الفعلة باسم بطرس ميخائيلوف . ثم رجع الى امستردام ثانيةً وتعلم فيها فنَّ التشريح و بعض عمليات جراحية وتعلم علم الطبيعيات والمواليد وغير ذلك . وبعد ما جال في اماكن اخرى رجع الى امستردام وعاد الى ما كان عليهِ من الاشغال وتمَّ بنفسهِ بناء سفينة حربية تحمل ستين مدفعاً كان قد شرع في عملها قبل سفرهِ واستمر على تلك الحال منعكفاً على الدروس والاعمال الى ان سافر في اول سنة ١٦٠٨ الى انكلترا في اثر سفارة كان قد بعث بها قبل خروجهِ من مملكتهِ للطوائف في الممالك الاوروبية الاكثر تمدنًا . فاقتبلهُ الملك وليم ورعاياهُ بالترحاب . فاقام بطرس مدةً في انكلترا وهو على حالة البساطة واتخذ لهُ منزلاً بقرب الترسخانة الكبرى وصرف معظم وقتهِ في الشغل والتعلم . فاتقن هناك صناعة عمار السفن على طريقة اكمل مما هي في بلاد هولاندا وتعلم ايضًا فنَّ الساعات واتقنهُ غاية الاتقان. وبالجملة انهُ لم يدع شيئًا من الفنون البحرية من عظيمها وحقيرها من سبك المدافع الى فتل الحبال الاَّ وباشرهُ بيدهِ . وبعد ان اقام مدة طويلة في انكلترا رجع الى هولاندا ومنها أتى فيننا عاصمة اوستريا واقام فيها مدةً . وبينما كان يستعد للسفر الى ايطاليا والبندقية لتتميم مشروعهِ ورد اليهِ خبر وقوع بعض قلاقل في ممالكهِ فعدل عن مشروعهِ وقفل راجعًا سرًّا في شهر ايلول سنة ١٦٩٨ الى مدينة موسكو . ولما دخل موسكو تعجب الاهالي غاية العجب من مشاهدتهِ على حين غفلة فاخذ حالاً في ملافاة الامر واصلاح ما قد فسد وقاصَّ المذنبين باشد واصرم العقابات وكافأ الذين يستحقون المكافاة . ثم ابطل وجاق عساكر الستريلتس ولم يبقِ منهم الاَّ نفرًا قليلاً . واقام سنة ١٦٩٩ عوضًا عن هذا الوجاق جنودًا منتظمة اشبه بالعساكر النمساوية واحدث ايضًا عدة اصلاحات في العوائد الخشنة وفي نظام الدولة والديانة الى غير ذلك مما يستحق الاعتبار. وكنا نودُّ ان نذكر امورًا كثيرة منها على ان ضيق المقام لا يسمح بذلك

وحدث في اثناء غياب هذا الملك أنَّ الدولة الروسية كانت قد انتصرت على تتر القرم وتغلبت على مدينة اريكوب المعروفة بمدينة الذهب ولم يكن بينها وبين الدولة العثمانية سلمٌ فبرجوع بطرس الى ديارهِ عقد هدنةً بينهُ وبين الدولة المشار اليها وخوفًا من الفشل لم يجسر على ما طالما كان يصبو اليهِ لجهة توسيع حدود مملكتهِ من ناحية المملكة العثمانية . واذ راى ان بحر الخزر لا يصلح للعمارات الحربية انتهز فرصة الهدنة المذكورة ووجه مقاصدهُ نحو بحر بلتيك ليكون لهُ موانٍ في تلك الاطراف . وكان لدولة روسيا في الناحية المذكورة اقليمان قد فتحتهما بالحرب ثم خسرتهما ثانيةً في عهد الدولة الديمترية الكاذبة واستولى عليهما الاسوجيون . فتعاهد بطرس مع فريدريك ملك دنيمارك واوغسطس ملك بولونيا وتحزبوا جميعًا على كارلوس الثاني عشر ملك اسوج الذي مع صغر سنهِ كان يعد من افراد ابطال القرن السابع عشر . فاشتبكت الحرب بين المتحالفين والاسوجيين وجاء الامر بخلاف المظنون فان كارلوس المذكور فاز عليهم جميعًا في وقائع عديدة حتى ايس بطرس من الغلبة . ولكن مع ذلك لم ينثنِ عن عزمهِ واستمر على محاربة كارلوس مدة اكثر من تسع سنوات يربح في جهة ويخسر في الاخرى الى ان ظفر بهِ اخيرًا سنة ١٧٠٩ في واقعة بلتوفا . ففرَّ كارلوس والتجأ الى الدولة العثمانية واستولى بطرس على جملة اقاليم في الجهات الشمالية واعاد اوغسطس ملك بولونيا الى ملكهِ بعد ان كان قد عزلهُ عنهُ كارلوس ومع انشغال بطرس في هذه الحروب لم ينفك عن الالتفات الى صوالح مملكتهِ وتحسينها . وسنة ١٧٠٣ وضع اساسات مدينة بطرسبرج التي صارت من ذلك الحين قاعدة السلطنة الروسية الى الآن

وسنة ١٧١٠ اشهر السلطان احمد الثالث حربًا على روسيا وكانت فيها الواقعة المعروفة بواقعة نهر بروث فدارت فيها الدائرة على الروسيين ولولا تدارك كاترينا زوجة بطرس الثانية الآتي ذكرها لاوشك بطرس ان يبات اسيرًا في قبضة الفريق العثماني فانها الزمت زوجها على عقد الصلح الذي تقررت

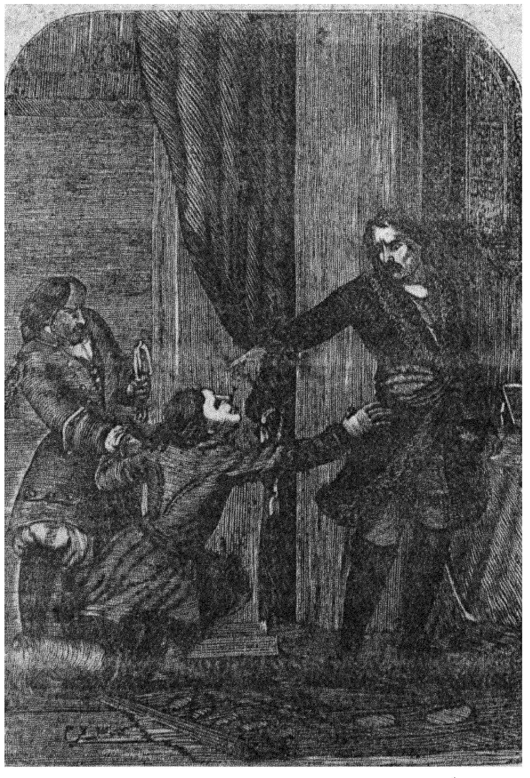
شروطهُ بين الدولتين كما مرَّ في تاريخ الدولة العثمانية

اما كاترينا زوجة بطرس المذكورة فكانت ابنة احد الفقراء من قرية رنجان ولما بلغت سن الاربع عشرة سنة خدمت عند قسيسٍ بروتستاني في مدينة مريانبورغ ولما صار عمرها ثماني عشرة سنة تزوجت بعسكري اسوجي سنة ١٧٠٢ وفي غد عرسها هزم الروسيون شرذمة من جيش الاسوجيين كان زوجها من جملتهم ولم نقف لهُ على خبر وبعد ذلك بمدة يسيرة اسرها القائد الروسي بوير فخدمت عندهُ ثم انتقلت لخدمة السرعسكر كزرمتوف ثم اعطاها للامير منزيكوف فاتفق ان بطرس الاكبر رآها يومًا عندهُ فاحبها وتزوج بها خفيةً سنة ١٧٠٧. وكان منذ مدة طويلة قد طلَّق امرأتهُ الاولى لانها كانت تعارضهُ في ما يريد اجراءهُ بممالكهِ. ولما تزوجت كاترينا ببطرس تركت الديانة البروتستانية التي تربت فيها واعتنقت الديانة الروسية فعمدوها ثانيةً وبدلوا اسمها من مرثا الى كاترينا

وبعد ان رجع كارلوس الثاني عشر من بلاد آل عثمان في اواخر سنة ١٧١٤ حدثت وقائع جديدة بين الروسيين وبينهُ كان الفوز فيها لهم. فاتسعت حدود دولتهم من الشمال والغرب. ولما كانت سنة ١٧١٧ جدَّد الامبراطور بطرس سياحتهُ في الممالك التي كان قد زارها قبلاً ليقتبس منها العلوم والفنون وذلك لاغراضٍ سياسية ولمشاهدة ما كان متولعًا بمشاهدتهِ في الممالك الاجنبية واتى اخيرًا فرانسا وهناك حصل لهُ مزيد الاعتبار والاحترام ثم عاد راجعًا منها الى بلادهِ

وكان بين بطرس وولدهِ ووليّ عهدهِ ألكسيس نفور من زمان طويل من جملة اوجه وكان يومئذٍ هذا الامير في مدينة نابولي هاربًا من وجه ابيهِ فاستدعاهُ والدهُ واعدًا اياهُ اذا حضر بالعفو والسماح. فلما اتى مدينة موسكو عقد مجلسًا من الامراءِ والاعيانِ وخدَمة الدين واشهر امام هذا المحفل حرمان ولدهِ المذكور من وراثة الملك بعدهُ وفي هذا المعنى كلام طويل لا نقدر على استيفائهِ في هذا

الباب المختصر . على اننا نقول ان الامبراطور بطرس بعد حرمانهِ ولدهُ من الملك امراخيراً بقتلهِ ايضاً لاسبابٍ لا تستدعي هذا الامر الهائل زاعماً ان الذي حملهُ على ذلك الاثم حبهُ للوطن وللمملكة لانهُ كان يخشى بعد موتهِ من ان ابنهُ ذا السيرة المنهورة يلاشي ويهدم كل ما بناهُ والدهُ وعمهُ في مدة طويلة ويرجع بالمملكة التهقرى والتأخر وكان ذلك سنة ١٧١٨



بطرس الاكبر

ثم ان ما بقي من ايام الامبراطور بطرس بعد قتل ولدهِ لم يصرفها الاَّ في

تكميل اغراضهِ ومآربهِ العظيمة . وسنة ١٧٢٢ وقع بينهُ وبين دولة الفرس نزاع افضى الى فتح الحرب فسار في ٥ ا من ايار سنة ١١٢٢ مع زوجتهِ كاترينا وجيش عظيم وفي ١٤ ايلول من السنة المذكورة وصل بجيوشهِ الى مدينة دَربند وحدث بينهم وبين الفرس بعض مواقع كان الفوز فيها للروسيين. غير انهم لم يستطيعوا وقتئذٍ ان يتقدموا في فتوحاتهم لان سفنهم الحربية ومهماتهم وخيلهم وجيش نجدتهم غرقت جميعًا بقرب مدينة ازدراهان ففقفلوا راجعين الى موسكو ثم جُددت الحرب ثانيةً في السنة التالية وفاز الروسيون واخذوا من الفُرس بعض الاقاليم الواقعة عند بحر الخزر وهي جيلان واستراباد ومازندان . وكان بطرس سنة ١٧٢١ قد عقد صلحًا مع دولة اسوج يعرف بصلح الشمال اورث دولتهُ فخرًا عظيمًا اذ بموجبهِ استولى على اقاليم ليونيا واستيونيا واينغرمانيا ونصف كاربليا وويربورج. فلقبهُ عقب ذلك الصلح كبار ذواتهِ ووكلاؤُها الاكبر وابا الوطن وامبراطورًا وما زال الدهر مسالمًا لهُ الى ان توفي في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٧٢٥ .وعند ما احس بقرب حلول اجلهِ اراد ان يكتب وصيتهُ لكنهُ لم يستطع ولم يكتب الاَّ بعض كلمات غير ظاهرة عسرة القراءة جدًّا فلم يمكن ان يُقرأ منها الاَّ ما معناهُ اعطوا كل شيءٍ الاَّ . . . .

الباب الخامس

في ذكر ما حدث بعد موت بطرس الكبير وانقطاع سلالة رومانوف وقيام الدولة الهولستينية من سنة ١٧٢٥ الى سنة ١٨٨٤

قد سبق في ما تقدم ان بطرس عند موتهِ لم يعين خليفة لهُ وقد مات عن

حفيده بطرس الثاني وهو ابن الكسيس المقتول وعن ابنته البكر زوجة دوك هولستين غوترب. وكان هناك حزبٌ كبير لابن الكسيس غير ان الامير منتزيكوف الذي كان يميل الى الامبراطورة كاترينا زوجة بطرس الاكبر تدارك امر اخماد نفوذ المتعصبين لابن الكسيس واثبت حق الوراثة لكاترينا فتبوأت تخت الملك بعد زوجها وكانت امراة عاقلة وعلى جانب عظيم من الدراية ووفور العقل ولئن كانت لاتعرف القراءة والكتابة على ما قيل. وكانت ذات مقاصد عالية سامية كزوجها غير ان الدهر لم يسمح لها بابرازها من حيز القوة الى الفعل اذ ماتت بعد استيلائها الملك بسنتين فخلفها سنة ١٧٢٧ بموجب وصيتها بطرس الثاني ابن حفيد زوجها وهو في سن الاثنتي عشرة سنة تحت وكالة ابنتيها حنة واليصابات ودوك هولستين والامير منتزيكوف وخمسة اشخاص من اعضاء المجلس العالي الى ان يبلغ سن الست عشرة سنة من العمر. غير ان ايامهُ كانت قصيرة اذ أُصيب سنة ١٧٣٠ بمرض الجدري فمات سريعًا فكان يقتضي بموجب وصية كاترينا الاولى ان يخلف بطرس الثاني ابنتها البكر حنة زوجة دوك هولستين وذريتها ولكنها اذ توفيت تولّت المُلك الاميرة حنّة ابنة ايفان الخامس اخي بطرس الاكبر ودام ملكها الى سنة ١٧٤٠ ولم يحدث في ايامها امر مهم يستحق الاعتبار فخلفتها الاميرة اليصابات ابنة بطرس الكبير. وسنة ١٧٤٢ لما استقرّت بالملك ارسلت واتت بابن شقيقتها حنة الدوك هولستين لان لهُ حقًّا بالوراثة قبلها واعلنت بانهُ يكون وريثًا لها فاعتنق المذهب الرومي ودُعي باسم بطرس الثالث. ثم زوجتهُ في اول شهر ايلول سنة ١٧٤٤ بصوفيا اوغسطا ابنة كريستيان اوغسط التي اعتنقت المذهب الرومي ايضًا ودُعيت كاترينا. وبعد عشر سنين من هذا الاقتران وُلد لهما وَلدٌ سمي بولس تولّى في ما بعد تحت اسم بولس الاول. اما اليصابات فماتت في ٢٩ كانون الاول سنة ١٧٦١ بعد ان حكمت عشرين سنة وكانت حاذقة عاقلة محبة للعلم والآداب وانشأت دارًا للعلوم في موسكو واكادمية للفنون

وبعد موتها خلفها بطرس الثالث وهو دوك هولستين المذكور انفًا فلما انتقل الملك سنة ١٧٦٢ الى العائلة الهولستينية بموت اخر وريث لدولة رومانوف وقف تقدم الدولة الروسية هنيهةً ولم يعش بطرس الثالث الاَّ سنة واحدة ومات مخنوقًا قيل ان زوجتهُ كاترينا اشتركت بهذا الفعل . فتبوأت عرش الملك سنة ١٧٦٢ واشتهرت جدًّا هذه الملكة بوفور عقلها وبحسن التدبير والسياسة وعادت الدولة في ايامها الى التقدم وارتقت الى اعلى درجات العز والفخار حتى بلغت ما بلغت من السطوة والشهرة الى ان صارت تُعد من اعظم دول اوروبا واوقعت الرعب في ما جاورها من الممالك . وحدث في زمن استيلاء كاترينا الثانية جملة حروب بين روسيا والدولة العثمانية وبولونيا واسوج كان الفوز والغلبة لها في جميعها ففتحت بلاد التتر الصغرى مع اقليم القرم واخذت ليثوانيا من البولونيين واستولت على كورلاد والشركس وظفرت سنة ١٧٧٢ بنصف مملكة بولونيا ودام ملكها معززًا الى سنة ١٧٩٦ وهي تعد من مشاهير هذه الدولة مع بطرس الكبير وقد فضلها بعضهم عليهِ

وخلف كاترينا ولدها بولس الاول فكان فاتر الهمة ضعيف الراي بينهُ وبين امهِ بون عظيم وكانت يومئذٍ الحروب قائمة في اوروبا على قدمٍ وساق بين دولة فرانسا ودوَل اوستريا وايطاليا وانكلترا . فدخل بولس المذكور في التحزُّب الاوروبي على فرانسا وجهز سنة ١٧٩٩ جيشًا وارسلهُ تحت قيادة القائد سوڤاروف الى نواحي ايطاليا وبلاد السويس لمحاربة الفرنساويين. وسنة ١٨٠٠ لما عاد بونابارت من مصر تحالف معهُ على انهُ مات في السنة التالية والمظنون ان موتهُ كان اغتصابيًا . فخلفهُ سنة ١٨٠١ ولدهُ اسكندر الاول وكان شابًا نجيبًا شجاعًا سافر العزم . فتجدد النفور في ايامهِ بين دولتهِ ودولة فرانسا الى سنة ١٨٠٥ وتحزب مع دولة اوستريا بمداخلات انكلترا فانتصر نابوليون الاول عليهِ وعلى اوستريا في واقعة اوسترليتز الشهيرة وكانت واقعة هائلة حضرها كلٌّ من امبراطوري روسيا واوستريا وفرانسا ولذلك دُعيت بموقعة الثلاثة

امبراطورين . فعقدت اوستريا مع نابوليون صلح بريسبورج واما اسكندر فانسحب بباقي جيشهِ من دون ان يعقد صلحًا . وسنة ١٨٠٦ بينما كان نابوليون الاول يحارب بروسيا انتصر لها اسكندر فقهرهُ نابوليون بعد ان قهر بروسيا في جملة معارك عظيمة اخصها معركة فريدلند التي دامت اثنتي عشرة ساعة وهلك فيها من الطرفين ٥٠٠٠٠ نفس. فطلب اسكندر الصلح فاجابهُ نابوليون اليهِ وعُقدت شروطهُ عند نهر النيامين المعروفة بشروط تيلسيت وقد سبقت الاشارة عنها في تاريخ فرانسا

ولما كان في شروط هذا الصلح ما يصعب الايام بهِ نكث اخيرًا اسكندر ببعضها فتجددت الحرب سنة ١٨١٢ بينهُ وبين فرانسا ودخل نابوليون الاول روسيا بجيش جرار. فكان الروسيون يخلون البلاد ويحرقونها فاضر ذلك بالفرنساويين كثيرًا ولما دخلوا موسكو وظنوا ان المصاعب قد زالت حرق الروسيون عاصمتهم حتى لا يكون لاعداهم مأوى بها ولا واسطة للتزود فكاد يهلك نابوليون مع جيشهِ وانهزموا جميعًا على اسوإ حال من جرى شدة البرد القاسي ولحق بهم الروسيون واعملوا فيهم السيف والنار فهلك منهم مئات الوف وقد مر ذلك في تاريخ فرانسا. ومع ما تحملتهُ روسيا في هذه الحرب من الخسائر الجسيمة لم تكف عن اظهار البسالة في اعمالها فانها اخذت في تلك الاثناء اقليم فينلاندا واقليم الكرج وبوثنيا الشرقية وحاربت فرانسا سنة ١٨١٣ وسنة ١٨١٤ مع الدول المتحدة ودخل الامبراطور اسكندر باريس حين حدث تنزيل نابوليون الاول عن الملك المرة الاولى وسنة ١٨١٥ استولت على اكثر من ثلثي بولونيا التي كان نابوليون الاول قبل ذلك بثمان سنين عقب صلح تيلسيت انشأها دولة مستقلة فجعل لها اسكندر حكومة ذات كونستيتوسيون تحت اسم مملكة بولونيا . وكانت روسيا وقتئذٍ من اعظم دُوَل اوروبا في السطوة والنفوذ ورئيسة للاتحاد المعروف بالاتحاد المقدس المنعقد بينها وبين دول اوستريا وانكلترا وبروسيا وبعض دُول اوروبا الثانوية على محاربة فرانسا ونابوليون

وسنة ١٨٢٥ توفي اسكندر الاول وخلفهُ ولدهُ نقولا ولما رسخت قدمهُ واستبد بالسلطنة تتبع خطوات سلفائهِ في محبة الافتتاح وتوسيع دائرة ممالكهِ فتسلطت روسيا في ايامهِ على القسم الاعظم من ارمينيا واخذتهُ من يد الفرس واخذت ايضًا ايالة اخالسكي ومصب نهر دانوب من الدولة العثمانية وتظاهرت في مساعدة تحرير اليونان من سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٨٢٧. وسنة ١٨٢٩ وقع خلافٌ بينها وبين الدولة العلية وبلغت الجيوش الروسية الى نواحي القسطنطينية فتداخلت الدول الاولية في اوروبا وفصلت الخلاف الواقع بين الطرفين بدون قتال . ثم سعت روسيا في تحرير اهل السرب والافلاخ والبغدان ولكنها لم تنجح يومئذٍ بان تجعلهم تحت حمايتها على نوع رسمي . وفي سنة ١٨٣٠ اثار اهل بولونيا ثورة عظيمة فقهرهم الامبراطور نقولا وادخلهم في الطاعة ثانيًا بعد صعوبات كلية ومن ذاك الحين امست بولونيا قسمًا من مملكة روسيا بعد ان كانت حائزة قبل ذلك على نوعٍ من الاستقلال ومراعاة الخاطر . وما زالت روسيا متقدمة في طرق النجاح والفلاح الى سنة ١٨٥٣ . ولما راى الامبراطور نقولا ان الظفر سائر في مقدمة اعلامهِ في كل صقعٍ وناد وان الدهر قد صفا لهُ وسالمتهُ الايام عزم في السنة المذكورة على محاربة الدولة العثمانية لاسباب ذكرناها في تاريخ الدولة العلية فاصطلت نيران الحرب بين الدولتين واشترك فيها بعض دُوَل اوروبا ضد روسيا فاستدامت اكثر من سنتين وسفك فيها دماء كثيرة وانكسر الجيش الروسي في اغلب المواطن وفي غضون هذا الحرب توفي الامبراطور نقولا وخلفهُ ابنهُ اسكندر الثاني وبعد ان تبوأ زمام السلطنة ببضعة اشهر بعث الى الدول المتحدة يطلب الصلح بعد فقد مدينة سيباستبول في القرم فعقدت جمعية دولية في باريس تمت فيها شروط الصلح في اواخر شهر اذار سنة ١٨٥٦ وقد استوفينا ذلك في تاريخ آل عثمان

وبعد اتمام شروط المصالحة المذكورة اخذ اسكندر في ملافاة واصلاح ما فسد في الحروب المشار اليها وأرجاع السلم والراحة الداخلية وتوطيد وتقويم

حال سلطنتهِ وشرع في مشروعاتٍ حسنة جدًّا لم يسبقهُ اليها احد من سلفائهِ فابتدأ بتحرير الرعايا العامة من ثقل نير سلطة الاعيان الجائرة ووضع نظامات جديدة من هذا القبيل ونظم كيفية تعليمهم فامسى من جرى اجراءاتهِ هذه الممدوحة في خطر مبين من مطامع الاشراف لان تلك الاصلاحات كانت تباين مقاصدهم ومآربهم كل المباينة وكثيرًا ما تهددوهُ بالقتل فنجا من اشراك المنية التي نصبوها لهُ . وبينما كان في اثر هذه المشروعات والاصلاحات متفقدًا حال بلادهِ تجددت الثورة في بولونيا سنة ١٨٦٢ فتلافى الامر حالاً غير انهُ لم يتمكن من ارجاع الثائرين الى حيز الطاعة الاَّ بعد الثورة بسنتين فسفكت فيها دماء كثيرة وادخلهم اخيرًا في الطاعة واقام اخاهُ قسطنطين نائب ملك عليها فهدأت الاحوال واستكنت . وفي هذا الوقت تقدمت فتوحات روسيا في الشرق الاعلى من قارة اسيا فاستولت على اغلب خانات تركستان كبخارى وسمرقند والكشغار وغيرها . ولما كانت شروط معاهدة باريس تثقل على روسيا انتهزت فرصة اشغال فرانسا بالحروب الاخيرة مع بروسيا سنة ١٨٧٠ وطلبت ابطال بعض شروط المعاهدة فعقدت جمعية دولية في مدينة لندن حيث صار تسوية الخلاف في تنقيح بعض الشروط ايجابًا لطلب روسيا

وفي سنة ١٨٧٦ اذ كانت نار الفتن مشتعلة في بعض ولايات الدولة العثمانية الكائنة في اوروبا كالهرسك والبشناق وجبل الاسود اتخذ الملك اسكندر تلك الحوادث وسيلةً لاشهار الحرب على آل عثمان بغية تحرير تلك البلاد الثائرة من سلطان المسلمين فامدَّ الاهلين اولاً بالذخائر والمؤن الحربية ثم بالمال ثم بالرجال فاصطلت نيران الحرب في كل تلك الانحاء واستدامت نحوًا من سنتين وكان الظفر بها للروس بعد ان كابدوا خسائر يكل عن وصفها القلم ووصلت عساكرهم الى ابواب القسطنطينية ولولا تظاهر الانكليز لمقاومتهم وادخال بوارجهم الى مرفاء المدينة لدخلوها وفي اثناء ذلك وقع الصلح بين الدولتين وتقررت شروطهُ بين الطرفين وتعهدت الدولة بدفع غرامة الحرب وقدرها

نحو ٢٠ مليون ليرا واما كيفية حل تحرير تلك البلاد الثائرة وما يتعلق بادارتها المستقبلة فقد ترك لراي الدول الكبيرة التي اجتمعت نوابها في برلين سنة ١٨٧٨ وبمقتضى ما تقرر في ذلك الموتمر صار الاجراء بموجبه وحينئذٍ قامت العساكر الروسية من امام القسطنطينية ورجعت الى الاوطان وفي تاريخ توركيا ذكرنا شيئًا عن قرارات موتمر برلين . وقد عاش الملك اسكندر الثاني بعد ذلك الى سنة ١٨٨١ ومات قتلاً من جماعة النيهيلست اضداده الذين كانوا يطلبون حرية الشعب وتغيير نظامات البلاد وجلس مكانهُ ابنهُ اسكندر الثالث في ١٢ اذار سنة ١٨٨١ والله اعلم ماذا يكون من امره واجراآته

الفصل السابع عشر

في وصف بلاد اسوج ونروج وتاريخها

ان مملكة اسوج ونروج ويقال لها سويد ونورويج ويحدها شمالاً البحر المتجمد الشمالي . وشرقًا مملكة روسيا وبحر البلتيك وخليج بوثنيا . وجنوبًا بحر البلتيك المذكور وبوغازا كاتيغات وسكاجيراك . وغربًا البحر الشمالي . وعدد اهلها اربعة ملايين ومئتا الف في اسوج ومليون و٧٥٠ الفًا في نروج . وقد كانت المملكتان منفصلتين احداهما عن الاخرى ثم اتحدتا معًا وصارتا تحت حكم ملكٍ واحد سنة ١٨١٤ ولكلٍ منهما لغةٌ وعوائد واصطلاحات تخالف الاخرى . وفي هذه المملكة كثيرٌ من البحيرات والانهر والجبال الشامخة التي لا ينقطع عنها الثلج . وفيها ايضًا معادن الحديد والفضة والنحاس والكبريت والرصاص . وهواؤُها بارد والشتاء بها قاسٍ الى الغاية ويدوم ستة اشهر بحيث لا يوجد وقت

للربيع والخريف وصيفها قصير جدًّا لا تزيد مدتهُ اكثر من خمسين يومًا . واما تربتها فقليلة الخصب ولا يصلح للزراعة الاَّ القليل منها . وفي احراشها وجبالها اجناسٌ كثيرة من الحيونات يتخذون جلودها للفراء . وهناك حيوانٌ يسمى الرنه وهو عظيم الخلقة على قدر الثور الكبير اشبه بالايل يستعملهُ الاهالي لنقل الامتعة وجر العربات . وفي بحيراتها كثيرٌ من انواع السمك خصوصًا النوع المسمى مورو اي الحوت فانهم يصطادون منهُ مقادير وافرة ويستخرجون منهُ الشحم والزيت المعروف بزيت كبد الحوت المفيد لبعض الامراض .

اما الصنائع في هذه البلاد فرائجة وفيها كثير من المعامل لاصطناع اقمشة الصوف والقطن والحرير وغير ذلك . وتنقسم اسوج الى ٢٤ مقاطعة . ونروج الى ١٧ مقاطعة . ومن مدن اسوج استوكهلم وهي من امهات مدن المملكة ومقرُّ كرسي الملك واهلها نحو ١٢٠ الف نفس وهي مدينة ظريفة ذات ميناء حسن ومعامل كثيرة . ومدينة غوتنبرج وهي بعد استوكهلم في التجارة والصنائع . ثم مدينة كريستيانيا وهي قصبة بلاد نروج واهلها نحو ٣٥ الف نسمة وهي مدينة حسنة ذات تجارة عظيمة في الحديد والخشب والسمك وبها مقر كرسي نائب الملك . وليس لهذه المملكة من الولايات خارج اوروبا الاَّ جزيرة مار برثولماوس في اطراف الهند الغربي وهي جزيرة صغيرة يبلغ عدد اهلها نحو خمسة الاف نسمة

واكثر اهالي هذه البلاد من طائفة البروتستانت . وحكمها من نوع الملكي المقيد . وبما ان بردها قاسٍ جدًّا نجد اهلها من ذوي الشجاعة والباس وهم ايضًا حسان الخلقة اصحاب خفة ونشاط يتجلدون على الاشغال الشاقة ويميلون للحرب طبعًا ولكنهم مع ذلك موصوفون بالانس والدعة ولهم رغبة شديدة في العلوم والمطالعات حتى يقال انهُ لا يوجد بينهم واحد في الالف من يجهل القراءة والكتابة

اما تاريخ هذه المملكة فلا يعلم عنهُ شيء في الازمنة القديمة سوى ان اهلها

كان اصلهم من الجرمانيين فاتوا واستوطنوا فيها منذ القديم وتنصروا في الجيل التاسع بواسطة مرسلين انكليز وفرنساويين وكان يقال لهم القبائل السكاندينافية. وكانت هذه البلاد خاضعة لملوك دنيمارك واول من اخضعها الملكة مرغريتة والديار اذ تغلبت عليها بقوتها وحيلتها وصيرتها مع نروج ودنيمارك مملكة واحدة . ولكن بعد موت هذه الملكة هاج الاسوجيون على طلب الحرية وبعد قتال يذكر تخلصوا من اسر الدنيماركيين ثم رجعوا اليهم ثانية واتخذوا لهم منهم ملوكًا ومدبرين . ولما كانت سنة ١٥٢٠ اذ كان كريستيان الثاني ملكًا على دنيمارك ومطران اوبسال رئيسًا على مطارنة المملكة وكانا كلاهما كثيري العيوب قاسيي القلب متفقين على ظلم الرعايا ونهبهم لم يعد ممكنًا للاسوجيين تحمل ذلك الجور العنيف فاخذوا يسعون في ايجاد طريقة لتخلصهم . فلما شم الملك رائحة ذلك اتفق مع المطران على ضبط اكابر مدينة استوكهلم وحكامها فالقى القبض على ٩٤ رجلًا من ارباب المشورة وامر بقتلهم محتجًا بان البابا قد حكم بكفرهم واخرجهم من دين النصرانية لعدم طاعتهم للمطران . فحينئذٍ نفر الاهالي من هذا العمل الفظيع ولم تعد الصعوبات تمنعهم عن طلب الاستخلاص من عبودية الدنيماركيين فاقاموا عليهم قائدًا يسمى غوستاف واصا . وهو شابٌّ من نسل الملوك القدماء كان مختبئًا في وسط الغابات وكان شجاعًا مشهورًا فصيحًا اديبًا محبًا لوطنهِ وجاهدوا الجهاد الحسن في مقاومة ظالميهم وبعد عدة وقائع يطول شرحها انتصروا عليهم وقبض غوستاف واصا على الملك كريستيان والمطران وطردهما من اسوج فانتخبهُ الاهالي ملكًا عليهم سنة ١٥٢٣ وحالما استامن على مركزهِ اخذ ينتقم من الاساقفة والقسس ممن اعتقد انهم مستولون على اموال اسوج ويفقونها في ظلم الناس ومحاربة الملوك فعاقبهم ما امكن وفي مدة وجيزة نزع من البلاد الديانة اللاتينية الغالبة وجعل رعاياهُ يتمسكون بالمذهب البروتستانتي ثم توفي في عزٍّ وفخر ولهُ من العمر ٧٠ سنة

وخلفهُ في المملكة احد اولادهِ المسمى غوستاف ادولف فتبوأ تاجها سنة

١٦١١ وكان من اشجع ابناء زمانهِ موصوفًا بالحزم والفهم سعيدًا في مغازيهِ فاخذت البلاد في ايامهِ تتقدم حتى اكتسبت شهرة عظيمة لاسيما بواسطة انتصاراتهِ الكثيرة وافتتاحاتهِ العديدة . وكانت المملكة يومئذٍ مشتبكة في حرب مع روسيا ودنيمارك وبولونيا فبعد ما عقد صلحًا مع الدولتين الاوليين استظهر على بولونيا في موقعتين عظيمتين والزمها ان تتنازل لهُ عن كل حصون ليفونيا وبولونيا البروسية . وبعد نهاية هذه الحروب اتحد مع امراء المانيا البروتستانت وتحزب للطائفة البروتستانتية ضد الامبراطور فرديناند الثاني الذي كان يعاملهم بالقساوة والجفا فاشهر عليهِ حربًا واقتحم جيوشهُ سنة ١٦٣١ في واقعة ليبسيك التي كانت تحت قيادة الجنرال تلي ففتك بها وانتصر عليها انتصارًا عظيمًا بعد ما قتل منهم عددًا وافرًا . ثم في سنة ١٦٣٢ فتك ثانيةً بجيوش فرديناند في لوتسين ولكنهُ قُتل في وسط المعركة . وخلاصة الكلام انهُ اضعف سلطنة فرديناند الثاني وفتح نحو مئة محل في بلاد المانيا أُرجعت بعد موتهِ

وجلس على سرير المملكة بعد ادولف المذكور ابنتهُ كريستينا وكانت كاثوليكية المذهب فريدة في جودة العقل والفطنة محبة للعلوم والعلماء غير ان بعضهم اتهمها بقبح السيرة فبعد ان استبدت بالملك بعض سنين تنازلت عن الكرسي لقريبها كارلوس العاشر من العائلة المسماة بالفلطزتين ففتح جملة فتوحات وانتصر على الدنياركيين مرارًا واشتهر بانتصارهِ في واقعة وارسو وعند محاربتهِ في بولونيا واضاف اقليم ايسكانيا الى اسوج

ومن اعاظم ملوك العائلة المذكورة الملك كارلوس الثاني عشر وُلد في ٢٧ حزيران سنة ١٦٨٢ وكان منذ صغرهِ فريدًا بين الناس ذا همة عالية وصفات مستكملة محبًّا لركوب الخيل وللرياضات العنيفة وتحمُّل الاتعاب الشاقة وكان مع ذلك غير ناقص في العلوم والفضائل الادبية فنشأ شابًّا حكيمًا وجبارًا منيعًا. ولما كان لهُ من العمر خمس عشرة سنة جلس على سرير الملك مكان ابيهِ كارلوس الحادي عشر وقام باعباء المملكة اتم قيام ففتح فتوحات كثيرة وفعل افعالاً عجيبة

يقصر اللسان عن وصفها وتعجز الاقلام عن شرحها . وكان بطرس الكبير ملك روسيا قد اتحد مع فريدريك ملك دنيمارك واوغسطس ملك پولونيا على حربهِ فالتقاهم كارلوس وحاربهم وانتصر عليهم في عدة وقائع بعدما فرّق جموعهم ومزقها وانزل اوغسطس عن تخت پولونيا قوةً واقتدارًا واقام مكانهُ ملكًا اخر يدعى استانيسلاس . ثم حدث بينهُ وبين بطرس المذكور مواقع اخرى انتصر فيها عليهِ لاسيما في واقعة نرفا المشهورة سنة ١٧٠١ فانهُ كسر فيها جيوش الروسيين اشأم كسرةٍ فذاع صيتهُ وانتشر بين ممالك الارض حتى امست اكثر دول اوروبا في خوفٍ وحذر من سطوتهِ وبطشهِ . وما زالت الحروب بينهُ وبين بطرس المذكور متصلة بدون انقطاع مدة تسع سنين الى ان حدثت بينهما اخيرًا واقعة بيلترفا المشهورة سنة ١٧٠٩ وكانت قد كلت وضعفت جيوش كارلوس من كثرة الحروب والمشقات المتتابعة وهلك اكثرها من الجوع والبرد فانتصر بطرس عليهِ بعد موقعتين عظيمتين وانجرح كارلوس فيها جرحًا بليغًا وتشتت شمل جيشهِ كل التشتت واسر منهُ جانب ففر هاربًا وهو على اسوإ حال والتجأ الى الدولة العثمانية واقام في بلادها مدة طويلة بعدما فقد اكثر فتوحاتهِ وضاعت على مملكة اسوج اقاليم وولايات معتبرة . وبعد رجوع كارلوس الى بلادهِ نهض سنة ١٧١٨ لمحاربة نروج واسترجاع الاقاليم التي كانت قد استولت عليها من بلادهِ وفي اثناء محاصرتهِ مدينة فردريكهال اصابتهُ رصاصة في صدغهِ مات منها على الفور . ولم يقم لاسوج قائم بعد كارلوس الثاني عشر واخذت من بعدهِ المملكة في الانحطاط شيئًا فشيئًا وغيرت الامة نظامات البلاد ورفعت من ايدي ملوكها التصرف المطلق واودعتهُ مجالس شورية فكان ذلك سببًا لاطفاء نيران كثيرة على ان البلاد لم تخلُ من الفتن والمفاسد

وسنة ١٧٥١ تبوأ سرير مملكة اسوج ادولف فريدريك من عائلة هولستين غوتورب ثم تناول المملكة بعدهُ كارلوس الثالث عشر واذ لم يكن لهُ مَن يورثهُ من ذريتهِ تبنى المارشال برندوت الفرنساوي ليكون وريثًا وفي ايامهِ انضمت

مملكة نروج الى اسوج سنة ١٨١٤ . وبعد توفي كارلوس المذكور قام بالملك بعدهُ المارشال برندوت المذكورة سنة ١٨١٨ تحت اسم كارلوس الرابع عشر. وقام بعدهُ باعباء المملكة اوسكار الاول سنة ١٨٤٤ ثم خلفهُ اوسكار الثاني سنة ١٨٧٢ وهو الملك الحالي

الفصل الثامن عشر

في وصف مملكة الدنيمارك وتاريخها

هذه المملكة هي احدى الممالك الاسكنديناڤية الثلاث واصغرهنَّ يحدها شمالاً مضيق سكاجيراك الفاصل بينها وبين نروج وشرقًا اسوج وجنوبًا هامبورج ونهر الالب اللذان يفصلانها عن هانوفر وغربًا بحر جرمانيا اي بحر الشمال. وهي على شبه جزيرة يتبعها ارخبيلٌ للشرق وبعض جزائر صغيرة وعدد سكانها قبل سنة ١٨٦٦ كان مليونين ونصفًا ولكن بعد انفصال الثلاث امريات التي ضمتها بروسيا اليها وهي شليسويك وهولستين ولاونبرج تنازل عدد اهلها الى مليون . ويتبع هذه المملكة بعض املاك في الخارج منها جزيرة ايسلاندا في اميركا الشمالية اكتشفها احد قرصان نروج سنة ٨٦٠ ومن ذلك الوقت اخذ النروجيون يستوطنون فيها . وبها جبل مهول يدعى هكلا وهو بركان يتصاعد منهُ احيانًا نار ودخان ومواد ملتهبة فتهتز الجزيرة من هيجانهِ . وعدد سكان هذه الجزيرة ٦٥ الفًا . ومن املاكها جزيرة كرينلاندا وهي ايضًا في اميركا الشمالية اكتشفت في الجيل التاسع وعدد اهلها نحو عشرة الاف نسمة يسكنون في القسم الغربي الجنوبي من الجزيرة . ومن املاكها ايضًا جزائر فارو في شمال اسكوتلاندا يبلغ عدد سكانها نحو ٩٠٠٠ نفس وثلاث جزائر صغيرة في الهند الغربية اهلها نحو ٣٨ الفًا.

وكانت بلاد فنلاندا ايضًا تابعة لاسوج قديمًا اخضعها الاسوجيون في اواسط الجيل الثاني عشر وادخلوا اليها الديانة المسيحية بعد ان كان اهلها عَبَدَة اوثان ولكن في معاهدة نيستاد الواقعة سنة ١٧٢١ استولت روسيا على ما كان يعرف باقليم ڤيبورج وسنة ١٨٠٩ استخلصت باقي البلاد من الاسوجيين قهرًا بحيث لم يبقَ لهم علقة في تلك الناحية . ومن مدن هذه المملكة مدينة كوبنهاغن قصبة البلاد وهي مدينة حصينة جميلة ذات ميناء حسن وتجارة عظيمة ممتدة في غالب بلاد اوروبا واهلها نحو ١٥٠ الفًا . ثم مدينة السينور موقعها على البوغاز الداخل الى بحر بلتيك المسمى سند وفي هذه المدينة كانت تؤخذ قديمًا الخفارة للملك من جميع السفن التي تدخل في البحر المذكور

اما هواؤها هذه البلاد فرطبٌ لان الجانب الاكبر منها محاطٌ بالمياه وبردها معتدل بالنسبة الى موقعها . وفيها يقصر النهار ويطول بخلاف العادة المالوفة فيكون في بعض شهور الشتاء ست ساعات ونصفًا وفي بعض شهور الصيف سبع عشرة ساعة ونصفًا

اما محصولات هذه البلاد فتكاد لا تذكر بالاجمال واشهرها القمح والشعير والذرة . ومع انهم يستخرجون من الشعير البيرا التي هي مشروب عموم الاهالي ويصطنعون من الذرة اكثر خبز البلاد يرسلون من هذين الصنفين مقادير وافرة الى الخارج برسم التجارة . ولاهل دنيمارك اليد الطولى في اصطناع اقمشة الصوف والكتان والفخار والساعات الخشبية والوجاقات . وفي هذه البلاد معامل كثيرة لصب الحديد والقرطاس وعمل البلور والعربيات والات الموسيقى والصابون والشمع والسكر . واكثر هذه المعامل تختص بالحكومة منها معمل عظيم في مدينة كوبنهاغن لعمل الفرفوري وكرخانة جوخ في ارسرود

اما الحكم فيها فهو من نوع الملكي المقيد يجري بواسطة مجالس ودواوين . والديانة العامة هي البروتستانتية والعلوم فيها ناجحة . وقد اشتهر فيها جملة افاضل مثل تيخو براهي وثورسوالدسن واندرسن وغيرهم

اما تاريخ هذه البلاد فهو كباقي تاريخ المالك الصغيرة لا يحاط باهمية عظيمة وكانت قديمًا تنقسم الى عدة مقاطعات صغيرة يسكنها شعوب مختلفة الاجناس كالغوثيين والكمبريين والانغليين وكانوا قبائل متبربرة يحبون الحرب وشن الغارات برًّا وبحرًا . ولكن بمعاشرتهم الرومانيين تحسنت احوالهم واكتسبوا منهم فوائد كثيرة واشتهروا في الشجاعة والثبات في الوقائع والمغازي حتى انهم قاوموا شارلمان واضروا بالسلطنة الكارلوفنجية وبالمانيا واسبانيا ضررًا جسيمًا وبنوعٍ خصوصي بانكلترا حينما افتتحوها في الجيل التاسع وامتلكوها مرتين لا سيما في ايام كانوت الذي ادخل اليها الديانة النصرانية في الجيل الحادي عشر كما سبقت الاشارة في الكلام على انكلترا

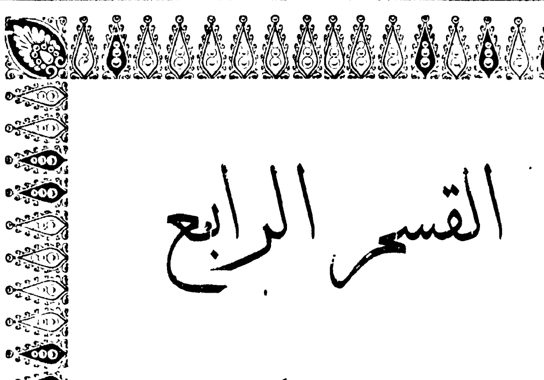
وسنة ١٣٩٧ انضم الى مملكة الدنيمارك مملكتا اسوج ونروج تحت رياسة الملكة مرغريتة ابنة والديمار الثاني التي كانت على جانب عظيم من الذكاء والبطش حتى انهم يسمونها سميراميس الشمال تشبيهًا لها بسميراميس ملكة المشرق . والاتحاد المذكور يعرف باتحاد كلمار ولكن لم يكن لهُ من الفائدة سوى الاسم فقط لان الاضطراب والاختلال كانا متصلين وانتهى الحال بانفكاكهِ سنة ١٤٤٩ . وسنة ١٤٢٨ انتخب الدنيماركيون ملكًا عليهم كريستيان الاول امير اولدنبورج الذي دام الملك في عقبهِ الى سنة ١٤٦٣ ومن اعمالهِ انهُ كان قد ضمَّ امريتي شليسويك وهولستين . وسنة ١٥١٣ تبوأ تخت المملكة كريستيان الثاني حفيد الاول وكان قاسيًا ظالمًا اطلق عليهِ لقب نيرون الشمال . واذ كانت اسوج يومئذٍ منقسمة الى حزبين حرك رئيس اساقفة اوپسال كريستيان على افتتاح تلك المملكة فزحف اليها وحاربها وقتل ملكها . وبعدما استولى عليها عمل وليمة دعا اليها الاشراف والاساقفة فلما اجتمع الجمع وكان عددهم اربعة وتسعين شخصًا قتلهم عن بكرة ابيهم ثم اطلق العساكر على الاهالي فانقضوا عليهم كالبواشق وقتلوا من وقع بين ايديهم فكانت الدماء تجري من كل اطراف المملكة . فالتزم حينئذٍ الاسوجيون ان يقروا لهُ بالرياسة وتوجوهُ ملكًا عليهم سنة

١٥٣٠ فدام كريستيان متسلطًا عليهم الى سنة ١٥٢٣ حين قام غوستاف واصا احد اشراف الاسوجيين مع جمهورٍ من ابناء وطنهِ وخلعوهُ عن كرسي ملكتهم . ثم خلع ايضًا عن تخت مملكة الدنيمارك ومات محبوسًا سنة ١٥٢٩ ومن ذلك الوقت انفصلت اسوج عن دنيمارك انفصالاً نهائيًا واما نروج فبقيت منضمة اليها الى سنة ١٨١٤

ومن ملوك هذه الدولة فريدريك الثاني تملك سنة ١٥٥٩ وكان اول امر شرع بهِ اشهار الحرب على الاسوجيين طمعًا باخضاعهم الى مملكتهِ فحاربهم مدة سبع سنين بدون نتيجة . وهو الذي وهب تيخوبراهي الفلكي الشهير جزيرة هون لبناء مرصد سلطاني لرصد الاجرام السموية باقٍ الى هذا اليوم . ومن ملوكهم ايضا كرّيستيان السابع جلس على كرسي المملكة سنة ١٧٦٦ وتزوج بكارولين ماتيلد اخت جورج الثالث ملك الانكليز . وبما ان حكومة الدنيمارك كانت من حزب فرانسا في زمن حروب نابوليون الاول هاجمت الانكليز عاصمتها سنة ١٨٠٧ واطلقت عليها القنابر واستولت عليها فهرب الملك الى هولستين ومات هناك في السنة التالية . وخلفهُ ابنهُ فريدريك السادس فاصلح ما دمرهُ الانكليز في المملكة . ثم حارب الاسوجيين الذين كانوا مصممين على استخلاص بلاد نروج فاستظهر عليهم والزمهم في طلب المصالحة . وسلك مسلك ابيهِ في التحزب والميل الى فرانسا ولكنهُ سنة ١٨١٤ اعقد مع انكلترا واسوج صلحًا بعد ان تنازل عن نروج الى اسوج وعن جزيرة هليكولاند[1] الى انكلترا . وسنة ١٨١٥ تنازل الى بروسيا عن بوميرانيا الاسوجية وعن روغن الماخوذتين من اسوج بدلاً عن نروج واستعاضها بامرية لاونبرج التي استرجعتها بروسيا مع غيرها فيما بعد كما

١ ان جزيرة هليكولاند ومعناها الارض المقدسة كائنة في البحر الشمالي وهي ذات فائدة عظيمة لانكلترا في وقت الحرب لانها تستخدمها اذ ذاك كمخزن لوضع مهامها ولوازمها البحرية . وعدد سكانها ٢٨٠١ ويقصدها كثيرون في هذه الايام للتنزه والاستحمام في البحر

تقدم القول . وكان اخر ملوك عائلة اولدنبورج الملك فريدريك السابع تولى
سنة ١٨٤٨ وتوفي سنة ١٨٦٣ واذ لم يترك وارثًا تولى بعدهُ الامير
كريستيان غلوسبورج وفقًا لمعاهدة لندن سنة ١٨٥٢
وتلقب بكريستيان التاسع
وهو المتولي
الان .



الفصل الاول

في وصفها الجغرافي واخبار اهلها القدماء

اعلم ان قارة اميركا هي قسمٌ عظيم جدًّا من الكرة الارضية وهي الجزء الثاني من اجزاء الدنيا الخمسة . اما حدودها فمن الشرق الاوقيانوس الاتلانتيكي الذي يفصل بينها وبين قارتي افريقيا واوروبا . ومن الغرب الاوقيانوس الباسيفيكي وهو الفاصل بينها وبين اسيا . ومن الشمال البحر الشمالي. ومن الجنوب المحيط ايضًا . وعدد اهلها ٩٠ مليون نفس منها ٥٥ مليونًا في اميركا الشمالية وخمس ملايين في الهند الغربية و٣٠ مليونًا في اميركا الجنوبية

وهذه القارة قسمان اصليان يُعرَف احدهما باميركا الشمالية والثاني باميركا الجنوبية يفصلهما برزخ داريان الذي يبلغ عرضهُ بين ٣٠ او٤٠ ميلاً . وبين اميركا واسيا من الجهة الشمالية الغربية مسافة وجيزة يفصل بينهما بوغاز بيرين او بهرين وهو بوغاز ضيق معظم طولهِ نحو ٣٠ او٤٠ ميلاً وفي بعض الاماكن ١٨ ميلاً فقط . وقد انقسمت هذه القارة الى عدة اقسام كبرى منها ستةٌ في

اميركا الشمالية واثنا عشر في اميركا الجنوبية سنذكرها في محلاتها ان شاء الله تعالى. والحكم في هذه الاقسام من نوع الجمهورية ما عدا برازيل فانها سلطنة. وبين اميركا الشمالية واميركا الجنوبية عدة جزائر حسنة يقال لها جزائر الهند الغربية. واكثر هذه البلاد غنية بالمعادن الثمينة من ذهب وفضة وحديد ونحاس ورصاص وزئبق وغير ذلك. وفيها انواع الرخام والحجارة الثمينة كاللؤلؤ والزمرد والياقوت والماس. اما هواؤها فيختلف بحسب مواقع اجزائها في المنطقة الحارة او الباردة. فانهُ في شمالي اميركا الشمالية يشتد البرد بهذا المقدار حتى لا تنمو فيها الاشجار ولا ينبت بارضها نبات ويجمد بحرها من الجليد مدة تسعة اشهر فلا يمكن لمخلوق ذي حياة ان يسكنها حتى في الصيف ايضًا ومن النوادر ان يرى فيها دبٌّ او رنه. ولكن كلما تقدمت جنوبًا اعتدلت المنطقة بحيث متى وصلت الى الولايات المتحدة والاماكن التي تجاه خليج مكسيكو وباقي الاراضي الواقعة شمالي اميركا الجنوبية تجد اعتدالاً كاملاً وهواء لطيفًا كهواء الربيع والصيف. واذا تقدمت اكثر فاكثر نحو الجنوب يبرد الهواء ويطول فيها الشتاء حتى ان البلاد التي عند راس هورن يدوم شتاؤها مدة تسعة اشهر. اما حيوانات هذه القارة فكثيرٌ منها ما يوجد في بقية اجزاء العالم كالفيل والجمل والنمر والكركدن والاسد والنعام وفرس النهر والزرافة ومنها ما يندر وجودهُ او لا وجود لهُ في باقي القارات كالجاموس البري والماعز البري والغنم البري والوعل وانواع كثيرة من الغزلان والقرود والدبابات والزحافات والطيور. وفيها ايضًا جبالٌ كثيرة وانهر عديدة اعظمها نهر امازون ونهر مسيسبي اللذان لا نظير لهما في باقي قارات الكرة. وبالاجمال ان هذه القارة كثيرة المحصولات وافرة الخيرات والغلال واسعة الاراضي والفلوات حتى لو زاد اهلها على عددهم عشرة اضعاف لكان لهم مكان ومعاش. واكثر سكان هذه القارة من نسل اهل اوروبا الذين هاجروا اليها بعد اكتشافها واستوطنوها. وفيها بعض من العبيد الذين جُلبوا اليها من افريقية وبعض من الهنود الاصليين الذين كانوا هناك

قبل اكتشافها

ولم تكن هذه القارة معروفة عند اهل العالم القديم حتى كشفها كريستوفورس كولمبوس سنة ١٤٩٢ للميلاد ووجد هناك يومئذٍ قبائل كثيرة في حالة التوحش يشبهون اهل الهند في اللون والصفات ولهذا سموا هنودًا . وقد اختلف العلماء في كيفية وصول هذه القبائل الى هناك اختلافًا كثيرًا ولهم في ذلك اقاويل عديدة فعلى حسب راي بعض المدققين ان اول من دخل قارة اميركا قوم الاسكيمو الذين يسكنون الجزء الشمالي من اميركا الشمالية وهم قومٌ من شمالي اوروبا سافروا اليها بسفنهم الصغيرة كما فعل النروجيون في الجيل التاسع وقت اكتشافهم جزيرتي ايسلاندا وكرينلاندا ولكنهم لم يستوطنوها . ومما يؤيد ذلك امتياز الاسكيمو عن هنود اميركا ومشابهتهم الكلية باللاپلانديين في شمالي روسيا في اوروبا. اما دخول الهنود فليس هو الاَّ من اسيا التي كما تقدم القول تكاد تكون متصلة باميركا فلا يبعد ان قومًا من التتر في الاعصر السالفة اتوا اميركا من تلك الجهة القريبة كما يفعل اهل اسيا حتى الآن اذ يعبرون هذا المضيق بالقوارب. ويظنُّ ايضًا ان اهل جنوبي اسيا قصدوا اميركا عابرين بالاوقيانوس الباسيفيكي ومتنقلين من جزيرة الى اخرى بسفنهم الصغيرة . ومما يؤيد صحة ذلك مشابهة هنود اميركا بعض القبائل من اسيا في الهيئة وبعض العوائد

وقد ظن البعض ان القرطجنيين اكتشفوا اميركا الشمالية وسكنوها ونقشوا بعض كتابات عند مونتي فيديو ولكن حقيقة ذلك مجهولةٌ وبالاحرى هو وهمٌ لا صحة له ولكنهُ امرٌ محقق في هذه الايام ان الدنيماركيين الذين اتوا اولاً الى جزيرة ايسلاندا ثم الى كرينلاندا دخلوا ايضًا الولايات المتحدة سنة الف للميلاد تقريبًا ولم يسكنوها وبقيت اخبار دخولهم مطموسة الى حين اكتشاف كولمبوس القارة

الفصل الثاني

في اكتشاف اميركا من سنة ١٤٩٢ الى موت كريستوفورس كولمبوس سنة ١٥٠٦

انهُ بعد ان بقي نصف العالم الغربي احقابًا عديدة مجهولاً عند اهل العالم القديم ونحو خمسة عشر جيلاً للتاريخ الحديث ظهر اخيرًا بعناية الله رجل عجيب



كريستوفورس كولمبوس

كشف الحجاب عما استتر من دنيانا ادوارًا مستطيلة وهو كريستوفورس كولمبوس . وكانت ولادة هذا الرجل في مدينة جنوا سنة ١٤٣٥ ولما بلغ سن

الخمس عشرة سنة انتظم في سلك الملاّحين فمارس هذه المهنة واتقنها غاية الاتقان حتى فاق فيها على اقرانهِ وتعوَّد الاسفار واقتحام الاخطار. فاتفق ذات يوم بينما كان في احدى سفراتهِ وقع بين سفينتهِ وسفينة قرصانية معركة قوية كانت الدائرة بها على سفينتهِ فالقى نفسهُ في البحر طالبًا النجاة وبيدهِ مجذاف واخذ في السباحة حتى قطع مسافة طويلة وبعد ان قاسى اهوالاً كثيرة القتهُ التقادير على شواطي بلاد البورتوغال فسار قاصدًا عاصمة المملكة الى ان وصل الى مدينة ليسبون وكان لهُ يومئذٍ من العمر نحو ٣٥ سنة. فسكن في تلك المدينة وبعد مدة تزوج هناك بابنة قبطان بورتوغالي كان ابوها قد صرف زمانهُ في الاسفار فاكتسب منهُ كولمبوس فوائد كثيرة وبتكرار اسفارهِ الى جزائر البحار اصبح من احسن ملاّحي اوروبا وامهرهم. ولكن اذ كان هو وزوجتهُ في حالةٍ فقرية اخذ يشتغل في رسم الخارتات لاجل تحصيل معاشهِ

وبينما كان ذات يوم مهموكًا في رسم الخارتات انذهل متعجبًا عندما افتكر بالجهات المتسعة من الكرة الارضية التي لم يكن احد يعرف عنها شيئًا الى ذلك اليوم . ثم اخذ يحدث نفسهُ بقولهِ ياترى هل الارض مسطحة او كرة فاذا فرضنا انها مسطحة فاين تكون نهايتها وان كانت كرة فما هو حجمها فارتأى اخيرًا بعد البحث الدقيق والتأمل الكثير انها كرة وحكم باستدارتها وحجمها وقد استنتج ذلك عقلاً كما يستنتج كل حاذقٍ لبيبٍ أن اوروبا واسيا وافريقية ليست الاَّ قسمًا من الكرة الارضية يلزم بالضرورة ان يوازيهُ قسمٌ اخر يقابلهُ . ومما زادهُ اقتناعًا وتوكيدًا على صحة افكارهِ ما كان يسمعهُ من ارباب الملاحة من المحوظات والتخمينات في هذا الخصوص . من ذلك ان ملاَّحًا بورتوغاليًّا حدثهُ ذات يوم انهُ كان قد توغل في بعض اسفارهِ لجهة الغرب وقطع مسافة طويلة من البحر لم يقطعها احدٌ غيرهُ من اهل ذلك العصر فوجد قطعة خشب منقوشة وعائمة على وجه الماء تدفعها نحوهُ رياحٌ غربية فاستنتج كولمبوس من ذلك انها آتية من بعض اراضٍ مجهولة واقعة في تلك الناحية . ثم حدثهُ اخر انهُ شاهد

على سواحل جزائر اسورة اشجارًا مقلوعة قذفتها الامواج الى تلك الجهة عقب رياح غربية شديدة وبلغهُ ايضًا انهُ شوهد مرةً جثتا رجلين ميتين لا يشبهان اهل اوروبا وافريقية في هيئتهما. فهذه المعلومات مع ما استفادهُ من الملاحين الذين كانوا يترددون عليهِ بعد رجوعهم من اسفارهم البعيدة حققت لهُ وجود اراضٍ جديدة في العالم ذات غنى وبهجة مجهولة عند الناس

واذ كان لا بد لكولمبوس ان يستعين بمَن يمدهُ بالمال للوصول الى هذا الامر لاح بفكرهِ اولاً ان يجعل فخار ذلك المشروع عائدًا لوطنهِ فسافر الى جنوا واعرض للحكومة بما في ضميرهِ ملتمسًا منها المعاضدة والامداد فلم يجبهُ المجلس الى طلبهِ وحسبهُ ضربًا من الجنون فارتد راجعًا الى ليسبون وعرض افكارهُ على ملك البورتوغال يوحنا الثاني فاجابهُ الى سؤالهِ وترحب بهِ الاَّ انهُ لما اشترط عليهِ كولمبوس ان يكون نائبهُ على تلك البلاد المزمع ان يكتشفها وان يكون لهُ عشر ايراداتها مكافاةً لاتعابهِ توقف عن الاجابة واحال روية ذلك الى عمدة خصوصية من علماء ليسبون لاجل النظر في هذه المسئلة فاستحسن بعضهم افكار كولمبوس لكنَّ الاكثرين رفضوها وحكموا بان ما ذهب اليهِ انما هو وهمٌ وهذيان

فلما لم ينجح كولمبوس لا في جنوا ولا في البورتوغال ذهب الى اسبانيا في اواخر سنة ١٤٨٤ ليعرض مشروعهُ على الملك فردينند والملكة ايزابلَّة ومع انهما كانا يومئذٍ مشتغلين بقتال العرب وطردهم من اقطار البلاد قابلاهُ بكل انس وسمعا لهُ باصغاء ولذَّة ثم فوضا النظر في قضيتهِ الى معلم ذمَّة الملكة ايزابلَّة فاخذ يبحث ويستعلم ممن لهُ خبرة في ذلك ويستدعي كولمبوس لايراد ادلتهِ وبراهينهِ امامهم فمضى عليهِ خمس سنوات وهو يناقشهم ويبرهن لهم واخيرًا حكموا بما لا يوافق غرضهُ . فازداد بكولمبوس الحزن والقلق وعزم على التوجه الى انكلترا ليعرض افكارهُ على ملكها هنري الرابع فمنعهُ احد اصدقائهِ وكان رئيسًا على بعض الاديرة ومعلم ذمة الملكة ايزابلَّة سابقًا فبعث اليها بكتابٍ يلتمس بهِ الالتفات

العظيم الى مقصد كولمبوس . فأثر فيها كتابهُ واذعنت لرأيهِ وارسلت تستدعيهِ اليها فنهض مسرعًا واتى غرناطة حيث كانت الملكة محاصرتها . ولما تمثل امامها اقنعها بحسن ذلك المشروع فطلبت حضور كولمبوس لمقابلتها فحضر حالاً واتفق وصولهُ في الوقت الذي انتصر فيهِ الاسبانيول على العرب . فعند اجتماع الملكة بكولمبوس سالتهُ عما يريد فاخبرها بما كان في ضميرهِ من ذلك الامر وقال اني التمس من عظمتكِ ان تاذني لي ببعض السفن لاكتشاف اراضٍ جديدة ذات ثروة وغنى واريد مكافاةً عن ذلك ان اكون نائبًا لعظمتكِ على ما اكتشفهُ من الاراضي والبلاد وان يكون لي عشر ما ينتج من تلك الاكتشافات . فاستعظم الوزراء وارباب الديوان هذا الطلب ونسبوهُ منهُ وقاحةً وجسارةً فطلبت الملكة من كولمبوس تخفيض ما طلبهُ فلم يقبل وخرج بغضبٍ من وسط الديوان فركب فرسهُ وارتد راجعًا الى الدير في بالوس قاصدًا السفر من هناك الى فرانسا

فانزعجت ايزابلَّة من خروج كولمبوس على تلك الكيفية وخافت ان تخسر اسبانيا شرف ذلك الاكتشاف اذا تمَّ فكاشفت زوجها عما لاح في خاطرها من هذا القبيل فقال لها ان الخزينة الآن في عسرٍ لكثرة الاموال التي انفقناها في الحروب مع العرب ولا يوجد فيها ما يقوم بمصروف هذا المشروع . فاجابتهُ ايزابلَّة قائلةً انني اجري ذلك على نفقتي الخصوصية وسأرهن ما عندي من الجواهر والحلى واستحصل ما يلزم من النقود لهذا الامر . ثم ارسلت في الحال ساعيًا في اثر كولمبوس تستدعيهِ اليها فرجع واجتمع بها فترحَّبت بهِ كثيرًا واجابتهُ الى ما كان قد طلبهُ من الشروط المذكورة وهكذا وضع فرديناند وايزابلَّة امضاها في السابع عشر من شهر نيسان سنة ١٤٩٢ على المعاهدة التي عُقِدت بينهما وبين كولمبوس بهذا الصدد

وبعد عقد الشروط بين الطرفين صدر الامر الملكي للحكومة في بالوس بتجهيز سفينتين حربيتين مشحونتين بما يلزم من المؤونة والملاحين للسفر مع كولمبوس

الى حيثما اراد . وجهز كولمبوس سفينةً ثالثة على حساب صديقٍ لهُ اسمهُ مرتين الونزو . وكان جملة ما صُرِف على هذه العمارة الحقيرة مائة الف فرنك . وفي اليوم الثالث من شهر آب سنة ١٤٩٢ سافر كولمبوس من ميناء بالوس وبعد اسبوع اشرف على جزائر كناري المعروفة بالخالدات التي تبعد نحو الف ميل عن اسبانيا وكان قد تعطَّل معهُ سفينة في اثناء الطريق فاقام في تلك الجزائر نحو ثلاثة اسابيع حتى جهَّز سفينة جديدة مكانها . ثم اقلع من هناك قاصدًا تلك الجهات ولما توغل في البحر وصار في وسط لجج المحيط انزعج الملاحون وخافوا خوفًا عظيمًا فاخذوا يتذمَّرون على كولمبوس ويلومونهُ على هذه المخاطرة . وكانت تذمراتهم تزداد يومًا بعد يوم وعزموا ان لم يرجع بهم الى اسبانيا أن يطرحوهُ في البحر ويتخلصوا منهُ . واما هو فكان تارةً يقوّيهم وينشطهم بالكلام ويعدهم ببلوغ المرام وتارةً يتهددهم . فلما طال الامر اشتد حنقهم عليهِ وصمموا على قتلهِ لينجوا من تلك البلية فلم يبلغوا منهُ مرامًا لان ثباتهُ وشجاعتهُ مع صبرهِ ولطفهِ جعلتهُ يسود عليهم ويقتادهم الى الطاعة

واتفق في مساء اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٤٩٢ بينما كان البحر هادئًا والنسيم رائقًا لطيفًا لمح كولمبوس في منتصف الليل نورًا سطع عن بعدٍ ثم اختفى حالاً فانذهل واخذ يقول في نفسهِ ما عسى ان يكون هذا النور وبينما هو مندهش حائرٌ ظهر لهُ النور مرةً اخرى . ثم بعد ذلك ببضع ساعات سمع صوتًا من السفينة المسماة پنتا التي كانت تتقدمهم وقائلاً يقول البر البر . فما جاء النهار حتى اشرفوا على جزيرة بهية المنظر ذات اشجار وغابات فكان النسيم اللطيف يهب عليهم من الشاطي حاملاً روائح الزهور العطرة . واذ كانوا قد ملوا وضجروا من مشقات المحيط واهوال لججهِ مدة اكثر من شهرين كان ذلك المنظر لديهم كمنظر الفردوس فالقوا مراسيهم واخذوا يسبحون الله رافعين اصواتهم بالشكر نحوهُ ثم بكوا من شدة الفرح والتعجُّب وبعد ذلك خرُّوا على اقدام كولمبوس وطلبوا منهُ الصفح والمسامحة على ما فرط منهم في حقهِ . ثم انهم

عند طلوع الشمس تقلدوا اسلحتهم وانزلوا القوارب فنشروا فيها الرايات الاسبانيولية وقصدوا البر وكانوا كلما دنوا من الشاطي يزيدهم منظر الجزيرة بهجةً وفرحًا لاسيا منظر بيوت الاهالي الظريفة المتفرقة بين تلك الغابات الخضراء التي كستها الطبيعة باجمل حلاها . وعند وصولهم الى البر خرج كولمبوس اولاً رافعًا سيفهُ ثم جثا على ركبتيهِ ورفع عينيهِ نحو السماء وشكر الله تعالى على حفظهِ اياهُ وتكليل عملهِ بالنجاح فكان هو اول من وطئ من اهل اوروبا ارض الدنيا الجديدة

وقد سمَّى كولمبوس هذه الجزيرة سان سلفادور ومعناهُ المخلص ثم رفع راية اسبانيا باحتفال عظيم على شاطيها وبعد ذلك حلف لهُ يمين الطاعة جميع من كان معهُ من الملاحين والاتباع . وبينما هم في سرورٍ وانشراح اقبل عليهم اهالي تلك الجزيرة وهم ينظرون اليهم متعجبين من بياض الوانهم وطول لحاهم ومن اسلحتهم اللامعة وراياتهم الحريرية . وكان اهالي هذه الجزيرة على جانب عظيم من اللطف وسلامة النية . فصرف كولمبوس واصحابهُ ذلك النهار بالطواف بين الغابات والاحراش وهم يتناولون من ثمارها الشهية ويتعجبون من مناظرها ثم ذهب بهم الاهالي الى منازلهم وترحبوا بهم غاية الترحب وكان عندهم ذلك النهار يوم عيد وفرح عظيم . ورأى كولمبوس اكثر سكان تلك المدينة يعلقون في انوفهم اقرطة من الذهب فسالهم عنها وعن الاماكن التي يستخرجونها منها فاشاروا لهُ الى جهة الجنوب . فاصحب معهُ جماعة منهم وسار قاصدًا تلك الجهة المذكورة فاكتشف على عدة جزائر صغيرة واراضي واسعة منها جزيرة كوبا فجال فيها وتعجب من خصب اراضيها لكنهُ لم يجد فيها من الذهب ما يشفي الغليل . فدلهُ اهلها على جزيرة ثانية في الجهة الشرقية تدعى هايتي فقصدها كولمبوس ووصل اليها في ٦ كانون الاول وسماها اسبانيولا ثم سماها الفرنساويون والانكليز بعد ذلك بسانت دومينيكو ولم تزل الى الآن تعرف بهذه الثلاثة الاسماء . واذ وجد كولمبوس عند اهالي هذه الجزيرة ذهبًا كثيرًا اقام عندهم بضعة ايام وبادلهم

على ذهبهم باشياء لا قيمة لها كاجراس وخرز ودبابيس ومسامير وما اشبه ذلك •

ثم اخذ يطوف من جزيرة الى اخرى فانكسرت معهم سفينةٌ ولم يبقَ معهُ سوى سفينة واحدة صغيرة لان الثالثة كانت قد انفصلت عنهُ عقب هذا الاكتشاف . فارتبك في امرهِ خوفًا من ان يكون رئيسها قد عاد الى اسبانيا ليكون اول مبلغ بنجاح مشروعهِ فكان ذلك سببًا لرجوعهِ الى اسبانيا بدون ابطاء . فترك في الجزيرة جماعة من اصحابهِ ليتعلموا لغة الاهالي ويستميلوهم اليهم وبنى لهم حصنًا من خشب السفينة المكسورة وحصّنهُ ببعض المدافع ثم ودَّع اصحابهُ واصحب معهُ جماعة من اهالي البلاد وارتد راجعًا الى اسبانيا فوصل اليها بعد غياب سبعة اشهر واحد عشر يومًا. فالتقتهُ الملكة ايزابلة وزوجها الملك فرديند بالترحاب والاكرام وسألاهُ ان يقص عليهما اخبار سفرتهِ فحدثهما بواقعة الحال وما جرى لهُ من البداءة الى حين رجوعهِ واراهما ما كان قد جاء بهِ من الذهب فتعجبا غاية العجب وسرًّا بهِ فرفعا منزلتهُ وقرباهُ اليهما . ولما شاع في اوروبا خبر نجاح مشروعهِ استعظمهُ الناس واستغربوهُ وكان ذلك موضوع بحثهم ليلاً ونهارًا

وبعد ان اقام كولمبوس مدة وجيزة في دار الملك استأذن الملكة بالرجوع الى اميركا ليقوم بحق اكتشافات جديدة فاذنت لهُ بذلك وجهزت لهُ سفنًا حربية لتكون في خدمتهِ وتحت طوع اوامرهِ . فاخذ معهُ كثيرًا من البضائع واللعب التي يعلم رواج سوقها بين الهنود واصحب معهُ بعض المبشرين لينذروا القوم ويهدوهم الى الديانة المسيحية . وكان عدد الذين دخلوا السفن المذكورة ١٥٠٠ نفس . وفي ٢٥ ايلول سنة ١٤٩٣ اقلع كولمبوس من ميناء قادس وفي ٢ من تشرين الثاني من السنة المذكورة اشرف على جزيرة لم تكن معروفة عندهُ بعد واذ اتفق ان يوم وصولهِ الى تلك الجزيرة كان يوم الاحد سماها دومينيكا ومعناهُ يوم الاحد وفي نفس ذلك النهار اكتشف ست جزائر اخرى وكان اهلها من

البرابرة الذين ياكلون لحوم البشر. وفي السابع والعشرين من تشرين الثاني وصل الى جزيرة اسبانيولا فلم يجد بها احدًا من الاسبانيوليين الذين كان قد تركهم هناك فاخذهُ العجب من جرى ذلك وعند خروجهِ الى البر وجد الحصن خرابًا . وكان السبب في ذلك ان الاسبانيوليين بعد ارتحال كولمبوس عنهم سلكوا مع الاهالي مسالك الظلم والجور فمقتوهم وكرهوهم وابادوهم عن اخرهم

فلما راى رفقاء كولمبوس ما كان من امر فقد اخوانهم اخذوا يشتمونهُ ويصفونهُ بالمكر والخداع فلكي يلهيهم بعث بقومٍ منهم الى داخلية الجزيرة لكي يبحثوا على معادن الذهب وشرع يبني عوض الحصن مدينة جديدة صغيرة وسماها باسم الملكة ايزابلة وبعد ان فرغ من ذلك مرض مرضًا شديدًا كاد يموت بهِ. ولما شُفي اخذ يطوف مقابل شطوط جزيرة كوبا حتى وصل الى جزيرة جامايكا فمنعهُ اهلها عن الخروج فخرج قهرًا عنهم واذ لم يجد فيها ذهبًا انثنى راجعًا الى كوبا . ثم طاف مدة خمسة اشهر واكتشف عدة جزائر وبعد ذلك عاد راجعًا الى جزيرة ايزابلة فلما وصل اليها وجد ان جماعة الاسبانيوليين قد اثاروا حروبًا كثيرة مع قبائل الهنود واذلوهم واستعبدوهم معامليهم بئس المعاملة

وكان قد رجع الى اسبانيا بعض رفقاء كولمبوس فوشوا بهِ الى الملك والملكة وتكلموا عنهُ بما لا يليق حسدًا وبغضًا . فبعثا من طرفهما سفراء لاجل الفحص والتحقيق عن ذلك وعند اجتماعهم بكولمبوس عاملوهُ بعنف وقساوة فالتزم ان يرجع الى اسبانيا لكي يبرّئ نفسهُ من تهمهم وعند وصولهِ دخل الى الملكة واقنعها ببطل ما اتهمهُ بهِ اعداؤُهُ . ثم جهزت لهُ سفنًا اخرى فعاد بها الى اميركا وهي السفرة الثالثة . وبعد ان جال جنوبي القارة ليتحقق أجزيرة هي ام لا رجع الى ايزابلة في هايتي في ٣٠ اب سنة ١٤٩٤ فوجدها في اسوإ حالٍ لان قومهُ الاسبانيوليين بسبب الحروب التي اثاروها على الاهالي حوّلوا تلك الجنّة العدنية الى قفرٍ تقريبًا وامسى الفريقان في انعس حالٍ

وسنة ١٥٠٠ وشى بكولمبوس بعض مبغضيهِ مرةً اخرى الى حكومة اسبانيا

فارسلت مأمورًا من العائلة الملكية لينظر في تلك التشكيات ورخَّصت لهُ في عزلهِ والتولي مكانهُ ان وجد مذنبًا . واذ كان لذلك المأمور كل الصالح في تجنيح كولمبوس لم تعسر عليهِ الوسائط لتذنيبهِ فامر بوضع الحديد في رجليهِ وارسلهُ مقيدًا الى اسبانيا . فلما بلغ فرديننـد وايزابلة ما لحق بكولمبوس من الاساءة والاهانة غضبا لذلك وأمرا بفكهِ من الاغلال . وعندما استحضراهُ اليهما واثبت براءتهُ لدى الديوان امرا بعزل المأمور المذكور عن ولاية تلك البلاد ولكنهما لم يعيدا كولمبوس الى منصبهِ بل اقاما مكانهُ نقولادي وندو سنة ١٥٠١

ولكن مع كل هذه المظالم والتعديات لم تفتر همة كولمبوس عن مداومة الاكتشافات بل شرع سنة ١٥٠٢ في رحلة رابعة فكانت مشومة عليهِ وقاسى بها من المتاعب والاضطرابات ما تعجز الاقلام عن استيفائهِ فالتزم ان يرجع الى اسبانيا بعد غياب سنتين وعند وصولهِ اليها بلغهُ وفاة الملكة ايزابلة فانقطع بموتها ما كان يؤملهُ من مساعدتها وامدادها . ولما كان زوجها فردينند لا يلتفت اليهِ زادهُ ذلك همًّا وغمًّا . وانتهى الحال بموتهِ سنة ١٥٠٦ وهو في حالة الفاقة ولهُ من العمر سبعون سنة وبعد ان دُفن في مدينة اشبيلية نقلهُ الاسبانيوليون الى اميركا وما زالت بقاياهُ موجودة الآن في مدينة هافانا في جزيرة كوبا . فاين عيناهُ لتنظرا ما وصلت اليهِ الآن تلك البلاد الزاهرة وتلك الشعوب المتمدنة وتنسيا تلك المخاطر والمناظر المريعة التي صادفتاها وذلك السهر الذي حرَّم اجفانها لذيذ النوم سنين عديدة

انّي رايتُ وفي الايام تجربةٌ
للصبر عاقبة محمودة الاثرِ
وقلَّ من جدَّ في امرٍ يحاولهُ
واستصحب الصبر الَّا فاز بالوطرِ

الفصل الثالث

في مداومة اكتشافات الاسبانيوليين وسبب تسمية القارة اميركا الى حين اكتشاف مكسيكو

وكان لما راى الاسبانيوليون نجاح ما شرع بهِ كولمبوس حسدوهُ وصار لهم رغبة عظيمة للتوجه الى تلك الاماكن فالتمسوا من الملك ان ياذن لهم بالسفر على نفقة انفسهم ليكتشفوا ما بقي هناك من البلاد المجهولة فاذن لهم واخذ يسافر الواحد بعد الاخر بدون رضى كولمبوس. وكان اول من سافر رجلٌ يقال لهُ الونزو احد رفقاء كولمبوس في سفرتهِ الثانية فسافر من اسبانيا سنة ١٤٩٩ وبرفقتهِ رجل من اعيان فلورنسا يسمى اميريكوس فسبوسيوس وكان ذا معرفة وخبرة بعلم سالك البحر. فلما رجع اميريكوس الى اوروبا ألف كتابًا ضمَّنهُ الحوادث التي وقعت لهُ في هذا السفر وسالك في تاليفهِ مسلكًا حسنًا ونسب بهِ لنفسهِ فخر ذلك الاكتشاف فكان اول تخطيط اشتهر في وصف العالم الجديد. فاخذ الناس من ذلك العهد يتعودون رويدًا رويدًا على تسمية العالم المذكور باسم اميريكوس مع انهُ كان يجب ان يسمى باسم كاشفهِ الحقيقي. وفي سنة ١٥٠٠ وصل البورتوغاليون الى بلاد برازيل فاستولوا عليها وهي باقية الى الآن في ايدي عائلة ملوك البورتوغال.

وكان لما وُشي بكولمبوس المرة الثانية ان الملكة ايزابلة ارسلت واليًا من طرفها على جزيرة اسبانيولا يقال لهُ اوفاندو فكان ذا همة ونشاط واسس عدة مدن في اكثر جهات الجزيرة المذكورة وزرع في اراضيها مزارع متسعة من قصب السكر. وفي مدة قصيرة اصبحت هذه الزراعة معظم شغل اهل اسبانيولا وعلَّة

ثروتهم. الاّ ان الوالي المذكور بقدر ما كان محبوبًا من الرعايا الاسبانيوليين نظرًا لحسن تصرُّفهِ معهم كان بعكس الامر مكروهًا من الهنود لسوء معاملتهِ اياهم. فلما بلغ ايزابلّة جور الاسبانيوليين على الهنود صدر امرها برفع المظالم عنهم ومعاملتهم باللطف ولم يطل ذلك اذ ماتت هذه الملكة فادخلهم الوالي ثانيةً في الاسر والعبودية ومن جرى ذلك هلك بعضهم من الاتعاب الشاقة التي كانوا يكابدونها وبعضهم قتلوا انفسهم بايديهم ليتخلصوا من تلك الشقاوة. ومن ثمَّ صاروا يتناقصون على وجهٍ سريع ولم يمضِ عليهم ١٥ سنة حتى اصبحوا نحو ٦٠ الف نسمة بعد ان كانوا عددًا غفيرًا. وسنة ١٥٠٨ عُزِل ذلك الوالي واُقيم مكانهُ دون دييغ ابن كولمبوس حيث اثبت لنفسهِ وراثة حقوق ابيهِ فلم ياتِ هذا التغيير بنتيجة حسنة للهنود بل لم تاتِ سنة ١٥١٦ الاّ وتناقص عددهم الى ١٤ الفًا فانتصر للهنود جملة من الاسبانيوليين والمرسلين الذين حضروا من اوروبا لتبشير الاهالي وتنصيرهم واعترضوا الحكومة في ذلك الامر المنكر وكتبوا الى الدولة في مادريد يعلمونها بواقعة الحال فلم تلتفت الى اقوالهم

وبينما كان اهل الرافة والشفقة ينتصرون للهنود بدون نتيجة كان لا يزال الاسبانيوليون مستمرين على اكتشافاتهم. ففي سنة ١٥٠٨ توغَّل جوان بونس دي ليون في جوانب جزيرة پورتوريكو واستعبد اهلها وعاملهم كما عامل رفقاؤُهُ اهل اسبانيولا فلم يمض عليهم الاّ زمن قليل حتى انقرضوا واضمحلوا بالكلية. وفي اثناء ذلك طاف سيباستيان اوكمپو حول جزيرة كوبا وعلم انها ليست ارضًا قارة كما كانوا توهموها قبلاً. وفي سنة ١٥٠٩ طاف رجلان اخران كانا قد اكتشفا في السنة الماضية اقليم يوكاتان الواسع فجالا في اماكن عديدة حتى وصلا الى الدرجة الاربعين من العرض الجنوبي وعادت رحلتهما هذه بالمنافع على الاسبانيوليين اذ استنتجوا منها في شان امتداد اميركا فوائد كثيرة اصح مما كانوا استنتجوها سابقًا وعنَّ لهم عند ذلك ان يصنعوا لهم منازل ومستعمرات جديدة. وكان اول من انشأ مستعمرًا نونيز بالبوا في خليج داريان

وترأس عليهِ . وسنة ١٥١١ قصد دون دييغ كولمبوس ادخال جزيرة كوبا تحت الطاعة وقلد رجلاً من اتباعهِ يدعى ڤيلاسكيز ادارة هذا المشروع . فلما علم اهل كوبا قدوم الاسبانيوليين اليهم نهضوا لمقاومتهم تحت راية رئيسهم هاتيوَي فهزمهم الاسبانيوليون وبددوا شملهم واسروا قائدهم المذكور وحكموا عليهِ بالموت حرقًا بالنار فربطوهُ الى عمودٍ وجعلوا تحتهُ الحطب . فبينما هو على تلك الحالة اذ وافاهُ راهبٌ فرنسيسكاني فاخذ يرغبهُ في الديانة المسيحية ويشجعهُ على الموت ويطلب اليهِ ان يتنصر ويعدهُ بنعيم الفردوس أن مات مسيحيًا . فقال لهُ ذلك المسكين هل في الفردوس الذي ذكرتهُ لي احدٌ من الاسبانيوليين . فقال لهُ الراهب نعم ولكن لا يدخلهُ الا الاخيار الصالحون فقط . فاجابهُ الهندي قائلاً وهل بين الاسبانيوليين صالحون ان هذا من المستحيل واما انا فلا اريد قط ان اذهب الى مكانٍ يجمعني بواحدٍ منهم ثم مات وهو في لهيب النار . فمن هنا نرى درجة كراهية سكان اميركا للاسبانيوليين

وسنة ١٥١٢ سافر بونس دي ليون بقصد الاكتشاف فلما جاوز جزائر لوكايس قصد الجهة الجنوبية الشرقية واكتشف جزءًا من ارض القارة الشمالية فسماهُ فلوريدا . وكان قد بلغهُ من بعض الهنود ان بقرب خليج بهاما في احدى جزائر لوكايس المذكورة عينَ ماءٍ كل من اغتسل فيها من ذوي الامراض شفي حالاً وان كان شيخًا عاد شابًا . فصدق بونس هذه الخرافة واستمر مدة طويلة وهو يطوف ويبحث عن تلك العين ولكن مع ان تفتيشهُ كان على اوهام خرافية نتج عنهُ منافع جسيمة وهي معرفة خليج بهاما على وجه حقيقي فان الملاحين بعد ذلك اخذوا في سلوكهِ الى اوروبا

وسنة ١٥١٣ بلغ بالبوا حاكم داريان من احد مشايخ البلاد انهُ على مسيرة ستة ايام للجهة الجنوب يوجد محيط آخر يكتنف ولاية عظيمة يكثر فيها الذهب حتى ان اهلها يستعملونهُ في الاشياء التي لا طائل تحتها . وكان هذا الخبر اول دليل للاسبانيوليين على وجود بيرو فبادر بالبوا لتاكيد ذلك وسار

من يومهِ بمئتي رجل ولم يبالِ بكل الصعوبات التي حالت دونهُ ودون المرغوب. وما برح يتوغل في مسيرهِ حتى اشرف على الاوقيانوس الجنوبي واستولى على اطراف شطوطهِ وتحقق من هنود هذا الساحل انهُ يوجد على البعد من الساحل المذكور في الجهة الشرقية مملكة قوية غنية فصمم على افتتاحها ولكنهُ لم يجسر ان يقتحمها في شوذمةٍ قليلة من الجنود بل أخَّر ذلك الى وقتٍ آخر وارتد راجعًا الى سنت ماري كرسي ولايتهِ وبعث الى اسبانيا يخبر الدولة في ذلك الشان طالبًا الامداد لانجاز هذا المشروع . فبعثت الدولة بعمارة بحرية مشحونة بالمهمات والعساكر تحت لواء پدراريا س وقلدتهُ حكومة داريان . وسنة ١٥١٥ سارَ جوان دياز بجانب اميركا الجنوبية وتوغل في تلك الاطراف حتى اشرف على مصب ريو دولابلاتا وهو نهرٌ عظيم من هذا الجزء فقتلهُ الهنود الذين يأكلون لحوم البشر وقتلوا ايضًا بعض اصحابهِ فارتد من بقي منهم الى اوروبا ولم يتمدوا في استكشافاتهم اكثر من ذلك خوفًا من العواقب . وسنة ١٥١٨ اكتشف الاسبانيوليون بلاد المكسيك ولزيادة الايضاح سنفتح لها فصلاً مخصوصًا

الفصل الرابع

في الاستيطانات الاوروبية

ولما انتشر في اوروبا خبر اكتشاف العالم الجديد والمكاسب التي كان الذاهبون اليهِ يحصلون عليها اخذ الناس يهاجرون اوطانهم ويقصدونهُ افواجًا افواجًا ويبنون لهم مستعمرات ويستوطنون فيها . فكان اشهر من قصد تلك القارة بعد الاسبانيوليين الفرنساويون والبرتوغاليون والانكليز والفلمنكيون

واول قسم استوطنوهُ سواحل اميركا الشمالية . فان احد الفرنساويين المدعو جمس كارتيا كان اول من اكتشف بوغاز ونهر مار لورنس سنة ١٥٤٢ فبنى هناك قلعة عظيمة واقام فيها مع جمهور من قومهِ ثم انضم اليهم بالتدريج جماهير كثيرة من فرانسا فاخذوا يتمدون ويجولون في تلك الاراضي والاقاليم الواسعة حتى توصلوا الى كانَدا وسكنوها ثم الى اسكوتسيا الجديدة واستولوا على جميع اراضيها وبنوا لهم فيها ابنية وحصنوها . وسنة ١٦٠٨ شرعوا في تأسيس مدينة كويبك وبنوا فيها قلعة عظيمة وحصنوها بالسلاح والمدافع فاصبحت احصن مستعمرات اميركا . وعلى تمادي الاوقات صار لهم املاكٌ واسعة وكانت فرانسا ترسل من طرفها واليًا مخصوصًا لادارة احكام املاكها ورجالها . وكان الفرنساويون في ودادٍ ومحبة مع سكان اميركا الاصليين فكانوا يتزوجون من نسائهم ويتعاملون معهم في التجارة ويجتنون خيرات بلادهم ويشترون منهم الفراء الثمينة بابخس الاثمان ويرسلونها الى اوروبا فيربحون فيها ارباحًا جسيمة

اما الانكليز فلم يبتدئوا ان يهاجروا الاَّ في اواسط الجيل السادس عشر واول محل سكنوهُ مقاطعة فيرجينيا سنة ١٥٨٤ وهم الذين لقبوها بهذا الاسم ومعناهُ عذراء نسبةً الى ملكتهم اليصابات التي صرفت حياتها بدون زواج . ولكن لم يلبث هذا الاستيطان زمنًا حتى اندثر بالكلية بسبب الامراض التي استحوذت على سكانهِ ولكنهُ تجدد ثانيةً سنة ١٦٠٧ بواسطة القبطان كريستوفر نيو پورت الذي هو اول من وضع اساسًا لمدينة جمس تاون

وسنة ١٦٠٩ اكتشف نهر هدسون رجل انكليزي يدعى بهذا الاسم وكان يومئذٍ مستخدمًا في مراكب الفلمنكيين فوقع النزاع بين الطائفتين من جهة النهر المذكور وكان كلٌّ من الفريقين يدعي حق الشفعة بهِ فلم يقع بينهما اتفاقٌ نهائي في اول الامر الاَّ انهُ دخل في حيز الانكليز فيما بعد . وسنة ١٦١٤ استولى الفلمنكيون على الاراضي المجاورة النهر المذكور واقاموا فيها ابنية فكان ذلك اساسًا لمدينتي نيو يورك والباني الحاليتين . اما نيو يورك فدعوها امستردام نسبة

الى عاصمة بلادهم في هولاندا وبقيت في ايديهم الى سنة ١٦٦٤ حين تنازلوا عنها للانكليز بعد وقائع شديدة

وسنة ١٦٢٠ ذهب الى اميركا قوم من الانكليز الاتقياء مع نسائهم واولادهم وقسوسهم في مركبٍ يقال لهُ ميفلاوَر كانوا قد طُردوا من انكلترا بسبب اضطهاد ديني فاستوطنوا في الجهات الشمالية من البلاد المتحدة وبنوا لهم فيها اكواخًا وصاروا يتعيشون من الصيد والزراعة ولكن ليس بدون مشقات واكدار شديدة سواء كان من حالة الاحتياج ام من مقاومات الاهالي المتوحشين . ثم انضم اليهم شعوب اخرون من اهل الفاقة والاحتياج فاخذوا يتمدّنون في تلك البراري الشاسعة ويقيمون فيها الابنية المختلفة فاصبحوا في برهةٍ وجيزة اربعة جماهير غفيرة متفرقين في اربعة اماكن مختلفة الاول في بليماوث الثاني في ميساشوستس الثالث في كونكتيكوت والرابع في نيوهاڤن . وكان لكل من هذه المقاطعات حكومة خصوصية ولاربعهنَّ اتحادٌ واحدٌ ومجلسٌ عامٌّ يجتمع فيهِ كل سنة نوابٌ من طرف المقاطعات الاربع المذكورة لاجل المفاوضة في ما يتعلق بخير الشعب وسنّ النظامات المقتضية لحفظ الراحة العمومية

ولما كان كارلوس الاول ملكًا على انكلترا وهب احد اشراف بلادهِ المدعو لورد بالتيمور اقليمًا من اراضي اميركا الشمالية فاتاها سنة ١٦٣٤ بمئتي نسمة من الانكليز الكاثوليكيين وعمروها وسموها ولاية ماري لاند اي ارض ماري نسبة لماري زوجة كارلوس المذكور . ثم سنة ١٦٨١ شرع رجل انكليزي يسمى وليم پن في عمار اقليم بنسلفانيا فاخذ يشتري من الهنود بعض الاراضي ويصلحها للزراعة ويقيم فيها الابنية حتى صارت في وقت قصير من المستعمرات المهمة وهكذا بالتتابع امتلأت تلك الاقاليم بالعمائر والابنية المختلفة . ولكن لم يكن للانكليز سلمٌ في استيطانهم لان الفرنساويين والاسبانيوليين كانوا يقاومونهم اشد مقاومة ويظهرون لهم العداوة ويوقعون بهم الضرر اما جهارًا او بواسطة الاهالي . وكان الفرنساويون كثيرًا ما يتحدون مع الهنود على محاربتهم فيقتلون منهم ويأسرون

ويحرقون قراهم فكان ذلك يزيد العداوة المتأصلة بين الامتين ويضيف على الاحقاد القديمة البغض الشديد وروح الانتقام . وبالجملة كانت المنازعات بينهم متصلة دائمة والخصومات والحروب غير منقطعة فمن اراد الوقوف على اخبارها وتفاصيل احوالها فعليهِ بمطولات الاسفار

واذ كانت مدينتا كويبك ولويزبورك من احصن وامنع مستملكات الفرنساويين في اميركا كانت اعين الانكليز متجهة اليها لاسيما كويبك لانها كانت مفتاح كل ولاية كاندا. فقصدها سنة ١٦٢٩ السار دافيد كابز بجمهورٍ من الانكليز وافتتحها فبقيت في ايديهم الى سنة ١٦٣٢ حين التزموا ان يرجعوها. وسنة ١٧١١ ارسلت الحكومة الانكليزية عمارة بحرية مع ٧٠٠٠ جندي تحت لواء الاميرال سار هافندن والكر بقصد ضرب كويبك واستخلاصها من الفرنساويين. فلما وصلت السفن الى فم نهر مار لورانس وشرعت في الدخول غطاها ضبابٌ حالك حجب عنها ضوء النهار ثم هبت ريحٌ عاصفة عقب ذلك القت ثمانيًا منها على الصخور فكسرتها واتلفتها فاتى ذلك بخسارة جسيمة على الانكليز اذ فقد منهم في تلك الحادثة نحو الف شخص ما عدا خسارة المراكب وما فيها من المهمات والمؤونة والتزم الباقون ان يتوقفوا عن سيرهم لاخذ كاندا

وسنة ١٧٤٥ اجمع راي الانكليز على ان يستخلصوا من الفرنساويين مدينة لويزبورك الكائنة في راس بريتون فارسلوا اليها فرقة من الجنود يقودها رجل تاجر من مدينة بوستون يقال لهُ وليم پاپريل صاحب دراية ونشاط ولكنهُ عديم الخبرة في فنون الحرب وابواب القتال .وكانت جنودهُ تجهل ايضًا امر الحرب لانها ماخوذة من وراء المحراث والات الصنائع غير معتادة على مواقف الاهوال فاحاطت بالمدينة وبعد مهاجمة خمسة عشر يومًا افتتحتها عنوةً ولكن بعد نهاية الحرب ارجعتها الى الفرنساويين ثم استخلصتها ثانيةً سنة ١٧٥٨ بمناظرة الجنرال وُلف

وفي السنة التالية زحف الجنرال وُلف المذكور بعساكرهِ لافتتاح مدينة

كويبك فحالت عدة صعوبات بينهُ وبين اخذها نظرًا لمناعتها وارتفاعها وكثرة عدد محافظيها من داخل ومن خارج اذ كان يحسب امتلاكها امرًا مستحيلاً. ولكن اذ كان الجنرال وُلف من ذوي الشجاعة ومتعوّدًا خوض المعامع واقتحام الاخطار لم يدع تلك الصعوبات تمنعهُ من نوال المرغوب فعزم على فتح المدينة قوةً واقتدارًا ولو اضطرهُ الامر الى فقد حياتهِ وصمم على مهاجمتها . فصعد بجندهِ ليلاً الى جهةٍ مرتفعة وهناك اخذ مركزًا مساويًا لمركز المدينة وعند الصباح اقتحمها بعسكرهِ . فصدمهُ الماركيز مونتكالم بجيوش الفرنساويين واشتبك القتال بين الفريقين فكان يومًا عظيمًا اشتد فيهِ الويل من هجمات الرجال والابطال وسقوط الكرات والرصاص المتوالية . هذا والجنرال ولف في مقدمة صفوفهِ يشدّد الرجال بالكلام ويحثهم على الهجوم والاقتحام. وكان قد جُرح في موضعين ولم يرضَ ان يفارق ساحة المعمعة حتى أُصيب برصاصةٍ ثالثة فالقتهُ طريحًا على الارض . ولما يئس من السلامة حملهُ العسكر الى مضربهِ وبينما كان في ألم شديد وهو على اخر رمق سمع رجلاً ينادي ويقول انهزموا انهزموا فسال من هم الذين انهزموا اجابهُ احد القواد وقال الفرنساويون فرّوا وانهزموا ونحن انتصرنا وقهرنا فتبسم وظهرت على وجههِ علامات الفرح وقال اني اموت الان مسرورًا ثم اسلم الروح . وهذا السرور نفسهُ شمل الماركيز مونتكالم ايضًا لانهُ كان قد أُصيب برصاصةٍ قاتلة ولعلمهِ بانتصار الانكليز قال وهو في حالة النزاع اني اموت فرحًا مسرورًا بحيث لا ترى عيناي تسليم المدينة. وبعد ذلك بايام يسيرة سلمت مدينة كويبك للانكليز. وسنة ١٧٦٣ جرت معاهدة الصلح في باريس وتنازلت فرانسا للحكومة الانكليزية عن جميع ولايات كاندا وعن جميع املاكها الشمالية وهي باقية الى الان تحت تسلطها

الفصل الخامس

في البلاد المتحدة الاميركانية

الباب الاول

في وصف البلاد المتحدة وذكر الاسباب التي هيأَت انفصالها عن انكلترا

يحد هذه البلاد شمالاً الاملاك الانكليزية وشرقًا الاوقيانوس الاتلانتيكي وجنوبًا خليج مكسيكو وغربًا الاوقيانوس الباسيفيكي ومساحتها كمساحة قارة اوروبا تقريبًا وعدد سكانها بحسب تعداد سنة ١٨٦٠ بلغ ٣٢ مليونًا بما فيهِ الهنود الذين يبلغون ٣٠٠ الف نسمة تقريبًا واما الان فيؤكدون ان عدد الاهالي هو ٤٠ مليونًا . ولكن كثير من القسم الغربي من هذه البلاد اما مهجور او مسكون ببعض الناس المتفرقين بين قبائل الهنود . وكانت البلاد المتحدة تنقسم قبل الان الى ١٣ ولاية واما في هذه الايام فهي ٣٤ ولاية متحدة اتحادًا واحدًا وهذه اسماؤُها. الاولى مين. ثم نيوهمشير. ومساشوستس. وفرمونت. ورود ايلند وكونكتيكوت . ونيويورك . ونيوجرسي . وبنسيلفانيا . ودَلاوار . وماريلاند . وفيرجينيا. وكرولينا الشمالية. وكرولينا الجنوبية. وجاورجيا. وفلوريدا. والاباما. وتنيسي . ومسيسيبي . ولويزيانا . وتكساس. وويسكونسين . وايوا. وميسوري. وايلينوي. وانديانا. ومشيكان. واوهايو. وكنتوكي. واركانساس . وكليفورنيا التي

ظهر فيها معدن الذهب ١٨٤٨ ومنيسوتا . وكانساس. واوريكون . ولكل من هذه الولايات حاكمٌ مخصوصٌ يقيمهُ الشعب بالانتخاب على مدة معينة ما عدا القضاة فانهم ينتخبون على مدة حياتهم ولا يعزلون الاَّ تحت جنحةٍ او ذنب. وجميع هذه الولايات متحدة اتحادًا عامًّا تحت نظارة رئيس عام ومجلسين كبيرين في مدينة واشنتون العاصمة يحضرها وكلاء الولايات المذكورة لتدبير امور البلاد والمخابرة في ما يتعلق بالعلاقات الاجنبية . وما عدا الولايات المار ذكرها اقاليم أُخر لم تدخل بعد في المعاهدة العمومية لقلة اهاليها ومقاطعة واحدة لها معاهدة خاصة بها يقال لها مقاطعة كولومبيا

وفي هذه البلاد كثيرٌ من الانهر العظيمة والترع الكبيرة والجبال المرتفعة ما لا سبيل الى ذكرهِ هنا . اما تربتها فجيدة وحواصلها كثيرة متنوعة . ومن اعظم واغنى نتائجها القطن والسكر والبن والحبوب المختلفة . وفيها كثيرٌ من المعادن اخصها الذهب فانهُ وُجد منهُ مقادير وافرة سنة ١٨٤٨ في ولاية كاليفورنيا ولحد الان يقصدها الناس من جميع الجهات ويشتغلون في استخراجهِ

اما الديانة الغالبة في هذه البلاد فهي البروتستانتية. والعلوم فيها ناجحة الى الدرجة القصوى ووسائط التعليم كثيرة فان فيها عددًا كبيرًا من كل رتب المدارس . اما المطابع فيها فتكاد لا تُعدّ لكثرتها وبسبب ذلك تنازل اسعار الكتب والجرائد وتسهل وسائط التنوير. واما اهلها فيعدون من الرتبة الاولى في التنوير وحسن الصفات. ولهم رغبة شديدة في التقدم والنجاح وشهرة عظيمة في الحزم وقوة الجنان وهم بوجه الاجمال من اهل اللطف يحبون السلام وخير القريب . ومما يستحق العجب تكاثر عددهم ونموُّهم الى الدرجة التي هم عليها الآن في وقت قصير اعني في اقل من ٢٠٠ سنة على ان عدد الذاهبين الى تلك البلاد من الانكليز والفلمنك والاسوجيين وغيرهم منذ ارتحالهم اليها الى وقت استقلالية البلاد لم يزد عن مليوني نسمة فيستبان ان تكاثرهم الى هذه الدرجة ليس من التسلسل او عقب الذرية بل من استدامة انضمام الناس اليهم ولا سيما

من الاملاك الانكليزية المجاورة لهم

اما الاسباب التي اوجبت الاميركانيين ان ينفصلوا عن انكلترا اهمها فليست هي الاَّ جور العمال الانكليز والمظالم التي اجروها عليهم في تلك الاطراف . فلا يخفى انهُ عند ما كثرت الاهالي في البلاد المتحدة وصار لهم فيها املاكٌ واسعة سواءٌ كان بالشراء ام مما اكتسبوهُ في حروبهم مع الهنود قسم الحكم الانكليزي البلاد الى اقسام شتى وارسل اليها عمالاً ليقوموا باشغالها ويدبروا اعمالها. فاخذ هولاء العمال يثقلون على الاهالي ويجورون عليهم حتى الزموهم ان يشكوا من سوء معاملتهم ويسترحموا من الدولة الانكليزية التخفيف عنهم فاجابت طلبهم وصدر حينئذٍ امرها بعزل اولئك الولاة وان ينصب غيرهم بانتخاب الاهالي بحيث يبقى للحكومة الانكليزية التسلط العام فلم يات ِ ذلك بعظيم فائدة ولم يحصل الشعب من ذلك الامتياز الظاهر على راحةٍ بل بقوا على ما كانوا عليهِ من المتاعب والاثقال

وفضلاً عما تقدم لما رأت الحكومة الانكليزية نجاح الشعب وتقدمهُ في الثروة قصدت ان تختطف منهُ بعض المكاسب لذاتها فسعت في ضرب المال على الاهالي. وكان اول شيءٍ اجرتهُ انها اصدرت حكمًا مجلسيًّا سنة ١٧٦٥ لاجل استعمال الطوابع في البلاد المتحدة على جميع صكوك المبايعات والمضابط والمعاهدات وغيرها وان كلما كان محرر على ورق بغير طوابع يكون غير صحيح ولا يعمل بهِ واقامت اناسًا مخصوصين لهذا العمل وسلمتهم تلك الاوراق ليبيعوها للاهالي بالثمن. فانف الاميركانيون من ذلك جدًّا ورفضوا هذه الاجراءات واستعظموها ليس فقط هربًا من دفع ثمن الورق في المستقبل ولكن خوفًا مما سوف يحدث من المنازعات والدعاوي التي تتصدر عليهم من جهة املاكهم المستولين عليها من مداتٍ مستطيلة بحق وضع اليد من دون صكوك شرعية على اوراق اميرية . فلذلك عقد الاهالي جمعية عمومية في مدينة نيويورك استقرت اراؤُهم فيها على عدم قبول ما شرع بهِ الحكم الانكليزي ثم قدموا معروضًا للملك وللمجلس

الاشراف والعامة في لندن يسترحمون رفع تلك الضريبة ورفضوا من ساعتهم مشترى الورق المذكور وعاملوا من هو منوط في بيعهِ اسوأ معاملة . فالتزم حينئذٍ الحكم الانكليزي ان يبطل ذلك القرار

ولكن اذ كان لا بدَّ للدولة الانكليزية من ان تربط اهالي المستعمرات الاميركانية وتخضعهم لاحكامها لانهم رعاياها اصدرت قرارًا بالزام الاميركانيين الى دفع رسم جمرك على الشاي الوارد الى بلادهم وتشبثت في اجراء ذلك ولو بالقوة الجبرية . فلم يقبل الاميركانيون ايضًا بهذه الضريبة الجديدة واظهروا النفور وعدم الامتثال فالتزمت حينئذٍ الحكومة ان تستعمل القوة الغاصبة لاقتيادهم الى الطاعة . فلما كانت سنة ١٧٧٣ اشرف على ميناء مدينة بوستن ثلاث سفن انكليزية مشحونة بالشاي . فنزل اليها ليلاً بعض الاميركانيين وهم متنكرون في زي الهنود والقوا كل ما فيها من الشاي الى البحر . فلما بلغ خبر ذلك الى انكلترا استشاطت الحكومة غيظًا وحنقًا من وقاحة اولئك القوم وعدم انقيادهم لاحكامها واذ رات ان تسلطها عليهم آخذٌ في الضعف والانحطاط عمدت على اخضاعهم بقوة الاسلحة . فارسلت جيوشًا وقوادًا لحربهم واذلالهم

الباب الثاني

في استقلالية البلاد المتحدة وحوادثها الى هذا اليوم

فلما راى الاميركانيون ما عزم عليهِ الحكم الانكليزي من ضربهم واخضاعهم اخذوا يتجهزون للقتال ويستعدون للنزال ودفع القوة بالقوة . اما الانكليز فاتوا بعمارتهم الحربية الى مدينة بوستن واذ علم قائد الجيش بان للاميركانيين بعض مدافع وادوات حربية في مكان يقال لهُ كونكورد بالقرب من بوستن بعث ٨٠٠ جندي لاتلاف تلك التجهيزات . وعند وصولهم الى تلك الجهة نجحوا

بانلافها ثم التقاهم الاميركانيون وصدموهم صدمة قوية فهزموهم وارجعوهم الى المدينة بعد ان قتلوا منهم ٧٠ ؟ نفرًا وكان ذلك اول واقعةٍ جرت بين الطرفين. ثم اخذ الاميركانيون يتجهزون باكثر نشاط وغيرة ويتجمعون حتى انهُ في برهة وجيزة بلغ عدد المتجمعين حول بوستن وضواحيها عشرين الف مقاتل. وفي الحال اجتمع ارباب الديوان العام في مدينة فيلادلفيا وعقدوا مجالسًا لاجراء التدابير اللازمة فاستقر الراي على مداومة الحرب وتحرير بلادهم من ايدي الانكليز فقلدوا الجنرال واشنتون وكان من شجعان الرجال في ادارة الحرب وولوعهُ بالمحاماة عن الوطن



الجنرال واشنتون

ولما كان مقصد الاميركانيين طرد الانكليز من بوستن صعدوا ليلاً على تلٍّ عالٍ يقال لهُ تل بنكر يكشف المدينة واخذوا فيهِ مركزًا محكمًا وشرعوا في

تحصينهِ واقامة المتاريس فيهِ. فقاومهم الانكليز اشد مقاومة وصعد اليهم ثلاثة الاف من العسكر ووقع بينهم قتال مريع ثم تداركت بينهم الحملات والهجمات بضرب السيوف وطعن الحراب فانتصر الانكليز في تلك الواقعة على الاميركانيين وطردوهم من ذلك المركز ولكنهم خسروا اكثر من ثلث جمهورهم. اما الاميركانيون فلم ينثنِ عزمهم من خسارتهم المركز المذكور ولبثوا مثابرين على المناضلة والمقاومة واقام الجنرال واشنتون القائد العام الحصار على بوستن بعد ان كان استولى على المستحكمات والقلع المجاورة لها. وفي ١٧ اذار سنة ١٧٧٦ التزم الانكليز بان يتركوا المدينة وينسحبوا الى مراكبهم بعد احراقهم اكثر الاساكل البحرية. وبينما كانت الحرب قائمة على قدمٍ وساق في هذه الاطراف من البلاد ارسل الجنرال كانيون فرقتين من العساكر تحت لواء بعض القواد لافتتاح كاندا وضرب الانكليز هناك فلم ينجحوا في مشروعهم وفي اثناء مهاجمتهم مدينة كويبك قُتِل قائد جيشهم وتفرق شمل جنودهم فرجعوا بالخيبة والفشل

ولما كان اليوم الرابع من تموز سنة ١٧٧٦ قرَّ قرار الديوان الكبير المنعقد في فيلادلفيا بوجوب استقلالية البلاد المتحدة وطرح نير الانكليز. فنادوا بالحرية بعد ان اخذوا عهودًا على معاضدة الجمهور في اتمام ذلك غير مبالين بالصعوبات والاخطار المحدقة بهم فنشروا رايات الحرب واستعدت جماهيرهم للقتال والنزال وانتشبت الحروب بين الطرفين حتى لم يعد سبيلٌ لاخماد نارها لان الاميركانيين كانوا قد صمموا على عدم الطاعة والانقياد لاحكام الانكليز مهما كلفهم ذلك. وكانت فرانسا واسبانيا وهولاندا نظرًا لما لهنَّ من البغض والنفور لانكلترا يحرّكنَ الاميركانيين على العصيان ويعدنهم بالمساعدة والامداد عند الحاجة واللزوم. فاستمرت الحروب بين الانكليز والاميركانيين مدة ثمان سنين متوالية وجرى بينهم عدة مواقع كبيرة وصغيرة يطول شرحها كان الفوز والانتصار في اكثرها للانكليز ما عدا واقعتين عظيمتين فانها خسرت بهما خسارة جسيمة وانتصر عليها الاميركانيون انتصارًا عظيمًا. اما الاولى فجرت في ساراتوكا سنة ١٧٧٧ وكان

قائد جيوش الانكليز الجنرال بوركون وقائد جيوش الاميركان الجنرال كينس اشتد فيها القتال وانتهى الامر بانحصار الانكليز في مراكزهم حتى لم يعودوا قادرين على الانسحاب فالتزموا ان يسلموا انفسهم للاعداء وكان عدد من قُتل وجرح وأُسر منهم نحو ٩٠٠٠ نفس. فهذا الانتصار انعش قلوب الاميركانيين وشدَّد عزائمهم وجعل فرانسا تبعث جنودًا ومراكب لمساعدتهم. واما الواقعة الثانية فجرت سنة ١٧٨١ بين الجنرال واشنتون وبين لورد كورنواليس في مدينة يورك التابعة ولاية ڤيرجينيا حيث كان اللورد المذكور معسكرًا ومنتظرًا الامداد من المعسكر المقيم في نيويورك. فانتهز واشنتون تلك الفرصة المناسبة واظهر من التدابير ما يدلّ بان غاية قصدهِ مهاجمة نيويورك. فجعل ذلك واليها السار هنري كلنيتون يتأهب للمدافعة ويمتنع عن ارسال الامداد للورد كورنواليس فاتى ذلك بما رامهُ واشنتون. ولما تمَّ لهُ ما اراد حوَّل عنان عزمهِ بسرعةٍ غريبة الى مدينة يورك وبعد ان اختلط بعسكر فرانسا الذي كان قد حضر في السنة الماضية اقتحم جنود الانكليز وامسكت العمارة الفرنساوية عليهم فم نهر يورك لتمنع عنهم الامداد والذخائر فحصل بين الفريقين معركة هائلة وبذل اللورد كورنواليس كل الجهد في مدافعة العدو ومصادمتهِ فلم يجدهِ ذلك نفعًا والتزم اخيرًا ان يسلم في ١٩ ت ١ من سنة ١٧٨١ مع من معهُ من الجنود وكان عددهم سبعة الاف نفس. واستولى الفرنساويون على بارجتين حربيتين وعشرين سفينة وسقية مشحونة بالمهمات والذخائر

فهذه الضربة مع انها ألمت بالانكليز واضعفت امالهم لم تمنعهم عن مداومة القتال ولم تكن سببًا لانسحابهم من ميدان النزال لانهم لبثوا مثابرين على عزمهم بعد هذه الحادثة مدة سنتين من الزمان ناشرين الوية الحرب غير مبالين بخسائرهم ولا مقرين للاميركانيين باستقلاليتهم. ولم يكن امرًا صعبًا على انكلترا ان تستمر على تلك الحال زمانًا طويلاً في مقاومة اعدائها ومصادمتهم ولكنها اذ رأَت من الجهة الواحدة ان التشبث في ذلك الامر لا ياتيها بالمرغوب لان

الشعب الاميركاني كان مصرًّا على المجاهرة والمناضلة تحت اية كلفةٍ كانت وان انتصاراتها عليهم في عدة مواقع مشهورة لم تكسبها الاّ اراضي خربة ومستعمرات خالية من السكان . ومن الجهة الاخرى اذ كانت فرانسا واسبانيا وهولاندا متحداتٍ على محاربتها في اوروبا واسيا ومجتهدات في مقاومتها ونزع ما امكن من املاكها وسطوتها كان امرًا مستحيلاً على انكلترا ان تقابل اعدائها بقوةٍ كافية في كل الجهات وتفوز عليهم جميعًا فلذلك عمدت حكومتها على ترك مشروع اخضاع الاميركانيين والانسحاب من تلك البلاد ففي صيف سنة ١٧٨٢ ابتدأت جنودها ان ترحل راجعةً الى اوطانها . وفي شهر ايلول من السنة المذكورة وقع الصلح في باريز وجرت المعاهدة بين الدول المارّ ذكرها على ان انكلترا ترجع لفرانسا اراضي السنيكال الكائنة في غربي افريقية وان ترجع لاسبانيا اقليم فلوريدا في اميركا الشمالية وان تقرّ باستقلالية البلاد المتحدة وعلى هذا الوجه انتهى النزاع وترك الاميركانيون اسلحتهم والتفتوا الى اصلاح بلادهم وترتيبها

وقد اشتهر الجنرال واشنتون شهرة عظيمة في اثناء محاربة الانكليز ليس فقط لبسالتهِ ودرايتهِ في فنون الحرب ولكن لتدابيرهِ الحسنة وثباتهِ وحسن مقاصدهِ لانهُ بحال انفكاك الحرب قصد اكثر جماهير الشعب الاميركاني ان يقيموهُ عليهم ملكًا فلم يقبل . وغب تقديمهِ دفاتر الحسابات والمصاريف للديوان اصرف القواد الذين كانوا تحت رياستهِ ثم اصرف نفسهُ ايضًا وانسحب الى منزلهِ. وممن اشتهر ايضًا في الحروب المذكورة ويعتبرهُ الاميركانيون اعتبارًا عظيمًا الماركيز لافايت وهو رجلٌ فرنساوي ذهب الى اميركا اذ كان عمرهُ ٢٠ سنة بفرقاطةٍ على نفقة نفسهِ واشترك مع الاميركان على حرب الانكليز واظهر من الخلوص والبسالة ما لا مزيد عليهما ولم تنحصر مساعدتهُ في تقديم ذاتهِ فقط ولكنهُ قدَّم من اموالهِ ما امكن للوازم الحرب . فكان الشعب الاميركاني ممنونًا لهُ بهذا المقدار حتى انهُ في سنة ١٨٢٤ عندما راقت البلاد واستراحت دعوهُ من فرانسا

لزيارتهم واحتفلوا بهِ احتفالاً عظيماً واهدتهُ الحكومة مبلغاً مقدارهُ ٢٠٠ الف ريال مع قطعة ارض ثمينة في ولاية فلوريدا

ولما استقل الاميركانيون اخذوا يسعون في ترتيب حكومةٍ لبلادهم فنظم علماؤهم وقضاتهم سنة ١٧٨٩ الترتيب الجمهوري الحاليّ فجعلوهُ دستوراً لهم وقانوناً لشرائعهم. وكان اول من انتخبوهُ ليكون رئيساً عاماً لجمهوريتهم الجنرال واشنتون واقاموا جون ادامس نائباً لهُ فاتقنا واجبات ماموريتهما واصلحا احوال البلاد فزادت رغبة الاهالي بهما وانتخبوهما على اربع سنين اخرى. وفي سنة ١٧٩٤ انفتح باب النزاع ثانيةً بين حكومة البلاد المتحدة وانكلترا. وكان السبب في ذلك ان الاميركانيين كانوا يتعاملون مع الفرنساويين ويبيعونهم غلات بلادهم بينما كانت انكلترا مشتبكة في حرب معهم. فاغتاظت الحكومة الانكليزية من هذا القبيل ونسبت الى الاميركانيين الاشتراك مع اخصامها فاصدرت الاوامر لعماراتها البحرية ان تفتش كل المراكب الاميركانية حتى اذا وجد منها ما هو مشحونٌ بالحبوب تحجز عليهِ. فهذه المعاملة مع عدم تخلية الانكليز لبعض اماكن البلاد المتحدة مما كان يجب تسليمها وتخليتها للاميركانيين بحسب معاهدة سنة ١٧٨٣ اوجبت الحكم الاميركاني ان يحجز كل مراكب الانكليز الموجودة في مواني بلادهِ مدة ثلاثين يوماً. فادَّى ذلك الى الخصام والنزاع ولكن تُدُورِكَ الامر بالمخابرات والمداولات وارسل الاميركانيون معتمداً من طرفهم الى بلاد الانكليز فعقدوا مع حكومتها معاهدة تجارية فيها تجدَّدت الحقوق والشروط التي من شانها ان تمنع بواعث النزاع

وسنة ١٧٩٧ تُوفي الجنرال واشنتون في سن الثاني والستين وترك الحزن والاسف لجميع ابناء وطنهِ لانهم كانوا يحسبونهُ رئيساً لاستقلاليتهم وابا لجمهوريتهم. فانتخبوا مكانهُ جون ادامس الذي كان وكيلهُ ونائبهُ وجددوا انتخابهُ عند نهاية مدة الاربع سنين. ثم خلفهُ توماس جفرسون الذي اشتهرت مدتهُ بشتراهُ من فرانسا ولاية لويزيانا الوسيعة بمبلغ خمسة عشر مليون ريال سنة ١٨٠٣

وسنة ١٨١٢ تعكرت السياسة ثالثةً بين الامتين المذكورتين وسبب ذلك ان انكلترا عندما كانت في ارتباكٍ عظيم من جهة افتتاحات نابوليون الاول وامتداد سطوة فرانسا في اوروبا كانت مجتهدة كل الاجتهاد في توقيف ذلك التقدم والنجاح حبًّا بحفظ الميزانية العمومية ولذلك اشتركت في اشهار الحروب ضدها . وكانت تجتهد بانتباهٍ شديد على توقيف كل ما من شانهِ ان يؤدي لتقوية عدوتها ولاجل نوال الغاية المذكورة كانت كلما عثرت مراكبها بسفينة اجنبية تطاردها وتفتشها فان وجدت فيها شيئًا من الامداد والمهمات المشبوهة تضع يدها عليها وتحجزها . فحدث يومًا ان البوارج الانكليزية التقت ببعض السفن الاميركانية فقبضت عليها وفتشتها وبعد ان اخذت ما ارادت منها اشتبهت في ان بعض الملاَّحين هم من رعاياها فاخذتهم ايضًا ومنعتهم عن خدمة الاجانب ولم تلتفت الى تاكيد الاميركانيين بان اولئك الرجال هم اميركانيون ومولودون في البلاد المتحدة . فانف الحكم الاميركاني من هذه المعاملات وحسبها عارًا واهانةً في حقهِ وفي ١٨ حزيران من سنة ١٨١٢ اشهر الحرب على الانكليز وانتشرت راياتها وزحفت جيوش الاميركانيين على الاملاك الانكليزية التي في جوارهم واصطلت نيران القتال بين الفريقين ووقع بينهم عدة وقائع برًّا وبحرًا كان النصر فيها تارةً للفريق الواحد وتارةً للاخر . وقد اشتهر وقتئذٍ الاميركانيون في معاركهم البحرية لانهم انتصروا في اكثرها واما في الوقائع البرية فكان النجاح للانكليز لانهم استولوا على العاصمة الاميركانية واحرقوا ابنيتها الفاخرة بعد ان كانوا هزموا جمًّا غفيرًا من الجيش . واما الواقعة الاخيرة التي جرت بين الفريقين في ٨ ك ٢ سنة ١٨١٥ المعروفة بحرب نيو اورلينس فنال فيها الاميركانيون فخرًا عظيمًا اذ فازوا على اعدائهم وفتكوا بهم وهزموهم ولكن لم يحصلوا على مرغوبهم من جهة افتتاح كاندا . وبعد قليل وقع الصلح بين الامتين وتمت شروطهُ في كنت سنة ١٨١٥ وارجعت كل دولة منهما للاخرى ما كانت استخلصتهُ منها ولم يعد يقع بينهما قتالٌ ولا نزاعٌ من ذلك الوقت

اما الحكومة الاميركانية فاخذت بعد عقد الصلح المذكور في اجراء التدابير والتنظيمات الحسنة لاصلاح احوال البلاد وسعت في اقامة المباني والحصون وتوسيع دائرة التجارة والزراعة والصنائع وساعد على ذلك ميل الاهالي وجدّهم وحبهم للوطن . فاقيمت البنوك الكبيرة والشراكات التجارية وتأسست المعامل وانشئت الطرق الحديدية وغير ذلك من وسائط التقدم فانضم اليها اقليمٌ بعد اقليمٍ وولايةٌ بعد ولايةٍ حتى اصبحت البلاد المتحدة ٤٢ ولاية كما تقدم القول

وسنة ١٨٤٦ وقع الخصام بين البلاد المتحدة ومكسيكو من جهة اقليم تكساس الذي كان قد انضم للمعاهدة الاميركانية مع ان مكسيكو كانت تدّعيهِ لنفسها وتنكر على اهلهِ حق الانضمام للجمهورية . فانتهى الحال بوقوع الحرب بين الدولتين وتكافح الفريقان في عدة مواقع وانتصر الاميركانيون على المكسيكانيين ودخلوا عاصمتهم واذلوهم واخيرًا عقدوا معهم صلحًا بعد ان اخذوا منهم نيومكسيكو وكاليفورنيا بمبلغ ١٥ مليون ريال دفعوهُ لهم كرمًا وانعامًا خلافًا لعادة الامة الظافرة التي من اصطلاحها ان تغرم الامة المغلوبة وتضرب عليها المال . فهذه الحادثة تستحق بالحقيقة ان تورخ في بطون الصحف والتواريخ دلالةً على حسن صفات الاميركانيين وصفاء نياتهم

وسنة ١٨٦١ انتشبت الحرب الاميركانية الاهلية التي دامت نحو اربع سنوات وهُرِق فيها دماء كثيرة . وسببها ان الحكم الاميركاني كان قد صمم على ابطال التجارة بالعبيد وملاشاتها من البلاد المتحدة فلم يوافقهُ على ذلك اهالي الولايات الجنوبية اذ كان لهم في تلك التجارة صوالح عظيمة فوقع النفور والخلاف بين الطرفين واستمرت المنازعة بينهما جملة سنين ثم انتهى الحال بانفصال احدى عشرة ولاية من ولايات الجنوب عن الجمهورية والانفكاك من عهودها فاشهروا ذلك علنًا واقاموا لانفسهم رئيسًا ونظموا قانونًا ودستورًا فلم تقبل بذلك الولايات الشمالية وحسبتهُ خرقًا للعهود . فاضطرمت الحرب بين الفريقين ثلاث سنين وانتهت بانتصار الشماليين على الجنوبيين واخضاعهم . وكان يومئذٍ رئيس

الجمهورية الاميركانية البرازيدنت لينكولن وكان رجلاً ممدوحًا ومحبوبًا من ابناء وطنهِ فحدث انهُ في ساعة الانتصار التام التي خمدت بها نيران الحرب دخل عليهِ رجلٌ مجنون وطعنهُ بسكينٍ قتلهُ بها

ومن روساء الجمهورية المشهورين الجنرال غرانت وهو من شجعان الرجال اشتهر في الحرب الاهلية السالف ذكرها موصوفٌ بالاستقامة وحسن الدراية انتخبتهُ الجمهورية سنة ١٨٦٩ ولحسن تصرفاتهِ انتخب ثانيةً عند نهاية مدتهِ الاولى

الفصل السادس

في وصف بلاد مكسيكو وتاريخها

يحد هذه المملكة شمالاً وشرقًا الولايات المتحدة الاميركانية وخليج مكسيكو. وغربًا البحر المحيط. وجنوبًا كواتمالا والمحيط ايضًا. وهي عريضة في الجهة الشمالية وضيقة جدًّا في الجنوبية. اما شطوطها فاكثرها واطية يخترقها من البر بعض خلجانٍ صغيرة. اما الشطوط التي الى جهة المحيط فهي واسعة جدًّا ومرتفعة اكثر من غيرها. وتخرق هذه البلاد سلسلة جبال صخرية. وفيها براكين كثيرة يبلغ ارتفاع بعضها نحو ٢٠ الف قدم. ويحدث فيها زلازل كثيرة. واراضي هذه البلاد جيدة ولكن قلما يعتني الاهالي بها ولذلك ترى اكثرها مهملاً. وفيها عدة بحيرات عظيمة وآثار ابنية قديمة. اما هواؤُها فجيدٌ في الاراضي المتوسطة واما في السواحل فيشتد الحر زمن الصيف وتكثر امراض الحميات. وفيها كثيرٌ من معادن الذهب والفضة والزئبق. وتنقسم هذه المملكة الى ٢٧ ولاية. ومن

مدنها مكسيكو وهي كرسي الحكومة وتمبيكو وكيرانيرو وغير ذلك من المدائن . واهلها يبلغون بحسب تعداد سنة ١٨٦٨ فوق التسعة ملايين . والديانة العامة فيها هي الديانة الكاثوليكية . وحكمها الآن جمهوري . واهلها من الاسبانيوليين وبينهم اخلاطٌ من سكانها الاصليين

اما شعوب هذه البلاد قبل الاكتشاف فكانت مؤلفة من قبائل مختلفة اشهرها قبيلة الازتيكيين . وكانت بينهم عادة وحشية وهي تقدمات قرابين بشرية لآلهتهم الوثنية . وكانوا يقتنصون بعضهم بعضاً في الحروب والمغازي فمن وقع في ايدي الآخرين ذبحوهُ ضحية ثم اخذوا لحمهُ وطبخوهُ وعملوا عليهِ وليمة عظيمة . قيل انهُ وجد في مكان كومة من جماجم المذبوحين على الكيفية المذكورة فأُحصيت فبلغت ١٠٠ الف جمجمة

اما تاريخها المعروف فيمتد من سنة ١٥١٨ فقط حينما اكتشفها القبطان يوحنا غريجالڤا الاسبانيولي . ثم افتتحها الاسبانيول عن يد فرنند كورتيز في زمن الامبراطور شارلكان سنة ١٥١٩ بعد عدة وقائع جرت بينهم وبين اهاليها القدماء . وكان لما ذهب اليها كورتيز المذكور لم يكن معهُ من العسكر سوى ست مئة نفر وبعض مهمات حربية . وكان يومئذٍ مونتيزوما ملكاً على المكسيك فخاف من قدوم الاسبانيوليين واشتبه في كونهم بشراً ام آلهةً وتردد بين مقاومتهم او الاسترحاب بهم فاستصوب اخيراً ان يتخلص منهم بالتي هي احسن . فارسل الى كورتيز هدايا فاخرة من جملتها هلال من فضة وشمس مذهبة وعدة برانس ثمينة مشغولة ومزخرفة بريش الطيور الجميلة واصحب هذه الهدايا بجانب من اثمار تلك البلاد وزهورها وطلب اليهِ ان يتحوَّل عن تخومهِ ولا يقترب لعاصمتهِ . فهذه الهدايا بدلاً من ان تاتي بالمطلوب اهاجت طمع كورتيز وازالت مخاوفهُ وجعلتهُ يتصلب على عزمهِ . فكان يقول للمكسيكيين ان الاسبانيوليين طالبون ذهباً لا هديةً وانهُ معتريهم مرضٌ في القلب لا يشفيهِ الاَّ الذهب

ثم ان كورتيز لشدة عزمهِ ولكي يُقطع امل اصحابهِ من الرجوع احرق مراكبهُ

بالنار ونقدم باعوانهِ من مدينة فيراكروز الى العاصمة فاستقبلهُ الملك بالاكرام واضافهُ احسن ضيافة فغدر بهِ كورتيز وقبض عليهِ وسجنهُ . ولما مات في السنة التالية قام مكانهُ ابن اخيهِ كواتاموزين الذي وقع هو ايضًا في اسر الاسبانيوليين فعذبوهُ عذابًا اليمًا وبعد ذلك قتلوهُ واخضعوا البلاد

وبعد ان تم للاسبانيوليين هذا الافتتاح ارسل كورتيز يعلم الامبراطور شارلكان باستخلاصهِ تلك البلاد فصدر امرهُ بتقليدهِ حكومتها . فاقام في مدينة مكسيكو وجعلها كرسي الولاية ولما استقر لهُ الامر اخذ يرمم هذه المدينة ويقيم فيها القصور والحصون حتى اصبحت بالتدريج عروسًا بين مدائن العالم الجديد . وسميت تلك المملكة من ذلك اليوم باسم اسبانيا الجديدة . وبقيت خاضعة لاحكام الدولة الاسبانيولية حتى استقلت تحت الحكم الجمهوري سنة ١٨٢٤ ولكنها لم تتوطد فيها الجمهورية كما يجب لانقسام اهلها الى احزاب عديدة

ثم حدثت فيها حروبٌ اهلية اضرت بها كثيرًا وكانت دائمًا في اضطراب وقلاقل لاختلاف الاحزاب . وسنة ١٨٤٥ تعكرت السياسة بينها وبين الولايات المتحدة وانتشبت الحرب بين الدولتين سنة ١٨٤٦ ودامت سنتين فانتصرت جيوش الولايات المتحدة في كل وقائعها وافتتحت جملة مدائن واخيرًا دخلت مدينة مكسيكو قوةً واقتدارًا . فاضطرت حينئذٍ دولة المكسيك الى المصالحة . وسنة ١٨٤٨ تقررت شروط الصلح فاخذت الولايات المتحدة منها الاراضي الكائنة شرقي ريونورتي ومكسيكو الجديدة وكاليفورنيا الجديدة واعطتها في مقابلة ذلك ١٥ مليون ريال اميركاني

وسنة ١٨٦٠ بينما كان جوارز رئيس الجمهورية اجتهد بعض الاحزاب في اقامة سلطنة في المكسيك بدل الجمهورية ومن جرى ذلك وقع الاختلال في اطراف البلاد . ولما اشتد الحال انتخب لهُ وزيرًا من اهل الشرف والدراية ليكون لهُ معينًا ومساعدًا على توطيد حكومتهِ . ولكن اذ كانت المملكة يومئذٍ مديونة لانكلترا وفرانسا واسبانيا دينًا باهظًا وكان صندوق الجمهورية في عسرٍ

وضرورة الحال تحتاج الى ملافاة الامر وتدبيرما من شانهِ ان يسكت طلبات اصحاب الديون لم يتمكن جوارز من نوال اربهِ بحيث امست الحكومة في هرج واضطراب حينئذٍ كتب جوارز الى الدول المذكورة يطلب منها مهلةً ليتحقق مقدار الديون المطلوبة وهل في امكان الحكومة دفعها بالمقاسطة ام لا الاان هذا الطلب لم يناسب ارباب الدين وحسبوهُ من باب المحاولة . فتشبثت حينئذٍ انكلترا وفرانسا واسبانيا على اجبار الحكومة لدفع الدين المذكور او انها تقدم لهم كفلاء مقتدرين في المال والشرف واذ كان الاوروبيون القاطنون في المكسيك يتشكون من ظلم الحكومة وجورها في معاملتهم وكان لنابوليون الثالث مقصد سياسي في ابطال جمهورية المكسيك واقامة الامبراطورية فيها اتفقت فرانسا وانكلترا واسبانيا على ضرب المكسيك بينما كانت الولايات المتحدة مشتغلة في محاربة الجنوب . ولكن بعد قليل استصوبت انكلترا الانسحاب من ذلك الاتفاق وتبعتها اسبانيا اما نابوليون فلم ينثنِ عمَّا شرع بهِ وارسل سنة ١٨٦١ العمارة البحرية مشحونة بالمهمات والجيوش الفرنساوية الى المكسيك تحت قيادة الجنرال بازين . فلم تنتصر الراية الفرنساوية كما كان يظن ولم يستولِ الفرنساويون الاَّ على بعض اساكل بحرية بعد خسائر جسيمة

فترتب حينئذٍ في المكسيك حكومة موقتة بدل الجمهورية . ثم اجتمع اشراف البلاد وعقدوا مجلسًا قرَّ رايهم فيهِ على وجوب اقامة سلطنة عوضًا عن مشيختهم . فوقع اختيارهم على الارشيدوك فرديننذ مكسيميليان شقيق امبراطور النمسا فارسلوا في ٣٠ نيسان سنة ١٨٦٣ سفيرًا من طرفهم الى الارشيدوك المشار اليهِ يطلبون منهُ قبول هذا الانتخاب فامتنع اولاً ثم اجابهم الى ذلك وسافر مع زوجتهِ الاميرة كارلوتة في بارجة نمساوية فوصلا في ٢٨ ايار سنة ١٨٦٤ الى مينا فيراكروز ومنها سافرا برًّا الى مدينة مكسيكو فاستقبلها الاهالي بالفرح والسرور ودخلا المدينة بموكبٍ عظيم

وكان هذا الامبراطور متخلقًا بجميل الاخلاق فلما تقلَّد زمام السلطنة

اشتغل بتنظيمها وحسن ترتيبها فاصلح قوانين الاحكام ونظم ادارة المالية وسياسة المملكة وبذل همتهُ في كل ما يأول لخير البلاد وباشر بعمل طريق حديدية من مكسيكو الى مينا فيراكروز. ولكن مع كل هذه المشروعات لم تنجح مساعيهِ في بلادٍ نظير هذه خالية من المبادي الادبية والنظامات السياسية لكثرة تقلبات الاهالي وتحزباتهم . وكان جوارز لا يزال مجتهدًا غاية الاجتهاد في ان يعيد نفسهُ ثانيةً الى رياسة الجمهورية ولذلك لم يفتر طرفة عين من اثارة الفتن وتهييج الشعب على حرب الامبراطورية فانحاز اليهِ جمهورٌ غفيرٌ من الاهالي ومن جرى هذه الامور والحركات وقع الاختلال وتظاهرت الاحلاف وامست الامبراطورية في قلقٍ واضطراب . فلما راى مكسيميليان تلك الاحوال والقلاقل تاضل بعزمٍ ونشاط بمساعدة العساكر الفرنساوية واستظهر على بعض المدائن العاصية بعد حروبٍ شديدة . ولكن عند ذهاب الفرنساويين من مكسيكو سنة ١٨٦٦ ارسلت حكومة البلاد المتحدة الى جوارز رسولاً من طرفها تعدهُ بالمساعدة وتقرُّ لهُ بالرياسة ان ثبت على عزمهِ فقوي بذلك ظهرهُ واشتد ساعدهُ واشهر السلاح واجتمعت اهالي البلاد اليهِ من كل فجٍّ عميق

فاستعظم مكسيميليان هذا الامر وخاف من عواقبهِ ولذلك ارسل الامبراطورة الى اوروبا لتستعين بالدول الاوروبية على نجاتهِ من هذه الورطة . فانت اولاً فرانسا وبذلت فيها غاية الجهد فلم تحصل على مرغوبها من نابوليون الثالث لان صوت الشعب كان ضدهُ من جهة فتح هذه الحرب التي لم تورث فرانسا فخرًا . ثم قصدت رومية واجتمعت بالبابا وطلبت منهُ المساعدة فلم تستفد شيئًا فضاقت عليها الدنيا بما رحبت ومن فرط همها وحزنها فقدت عقلها وخابت مساعيها.

وكان مكسيميليان لما اشتد عليهِ الخطب وراى ان الامر لا ينتهي بدون حربٍ شديدة استعد للقتال وسار لملاقاة العدو ولقدْ كان نجح وانتصر على خصمهِ لولا خيانة احد اركان حربهِ الذي اتفق مع الاعداء على مولاهُ وسلمهُ

ليلا اليهم فأُخذ اسيرًا وسقطت من ذلك اليوم الامبراطورية وعادت الجمهورية وسجن الامبراطور في صومعة في احد اديرة الكبوشيين وكانَ محلاً قذرًا فقاسى في مدة سجنهِ متاعب كثيرة . ولما يئس من السلامة كتب الى اخيهِ الامبراطور فرنسيس يوسف والى انكلترا وفرانسا ورومية يعلمهم بواقعة الحال ويطلب منهم المساعدة بنجاتهِ فبذلوا جميعًا مساعيهم ادبيًا لتخليصهِ فلم يجدِ ذلك نفعًا . واخيرًا حكم عليهِ بالقتل . وفي ١٩ حزيران سنة ١٨٦٧ قتلوهُ رميًا بالرصاص مع اثنين من قوادهِ في مدينة كوارترو . وبعد مكسيميليان عاد جوارز فاستولى رياسة الجمهورية وبقي في الرياسة الى ان توفي سنة ١٨٧٢ فجأَةً . وكان هذا الرجل قبيح الصوت كبير الراس قاسي القلب . وكان في اول امرهِ مستخدمًا عند احد المتشرعين فتعلم عندهُ علم الشريعة حتى اتقنهُ وبهذه الواسطة ارتقى الى درجة القضوية في العاصمة . ثم سُمّي معاونًا لرئيس الجمهورية . وبعد هزيمة كومون فورت سنة ١٨٥٨ استلم رياسة الجمهورية رغمًا عن مقاوميهِ

الفصل السابع

في الكلام عن الهند الغربية

• اعلم ان الهند الغربية عبارة عن ارخبيل يتضمن نحو ست مئة جزيرة كبيرة وصغيرة واقعة في الفسحة الكائنة بين اميركا الجنوبية واميركا الشمالية . ويقسمها الجغرافيون الى ثلاثة اقسام فيسمون الاول جزائر بهاما والثاني جزائر انتيل والثالث جزائر كاريبي . وكثيرٌ من هذه الجزر لا بل اغلبها وعرة صخرية خالية من السكان وما هو عامرٌ منها هو في ايدي الاوروبيين ما عدا الجانب الغربي من سكان دومينكو فانهُ مستقلٌ بذاتهِ تحت حكم جمهورية هايتي . وهذا

بيان املاك الدول الاوروبية من جزائر الهند الغربية

الاملاك الاسبانيولية

كوبا . وبورتوريكو . والجانب الشرقي من سان دومينكو وكلٌّ منها تحتوي على عدة مدن ومقاطعات وعدد سكانها يبلغ نحو مليون وسبع مئة الف

الاملاك الانكليزية

جامايكا . جزائر بهاما . جزائر فرجين . باربودا . ماركريستوفر . انتيكوا . مونتسيرات . دوالينيكا . مارلوسيا . مارفنسان . باربادوس . غرينادا . توباغو . ترينيداد وغيرها . وعدد سكانها يبلغ نحو ٩٥٠ الفًا

الاملاك الفرنساوية

كوادلوب . ومارتينيك وملحقاتها . وعدد سكانها ٢٩٢ الفًا

الاملاك الفلمنكية

كوراسوا . بونير . وآروبا وغيرها . وعدد سكانها نحو ٣٢ الفًا

الاملاك الدنيماركية

سان توماس . سانتاكروز . سان جان . وعدد سكانها نحو اربعين الفًا

املاك اسوج ونروج

سان بورتولوميد وفيها ٩٠٠٠ من السكان

واغلب سكان هذه الجزر هم من جنس العبيد الذين اتى بهم الاوروبيون من افريقية لاجل خدمة الارض ومزروعاتها . ومع ان الدولة الانكليزية ابطلت الاتجار بالعبيد في سائر املاكها بعد ان حررت ما كان منهم تحت تسلط رعاياها وسعت في اقتياد باقي الدول الى هذا الفعل الجميل لم يزل في هذه الجزائر وفي اماكن من اميركا الجنوبية عددٌ كبيرٌ منهم في حالة الاسر بايدي الاوروبيين يستخدمونهم في حراثة الارض وزراعتها ويعاملونهم معاملة القساوة التي ينفر منها الطبع البشري

اما هواء هذه الجزر فهو حارٌ جدًا حتى ان فصول السنة فيها تُعَدّ كايام الصيف وذلك لعدم وقوع الثلج والمطر . وتربتها جيدة بهذا المقدار بحيث ان اشجارها لا تعرى واثمارها لا تنقطع . ومن نتائجها قصب السكر ويستخرجون منهُ السكر والدبس ثم اللبن والقطن والنيلة والتبغ والجوز الهندي والليمون والبردقان والكباد والتين والموز والصنوبر وجوز الطيب والفلفل وانواعٌ كثيرة من البهار اخصها الفانيل المعروف بالخرنوب الاميركاني يستعملونهُ كثيرًا في الحلويات الافرنجية لرائحتهِ وغير ذلك من الاشجار والنباتات التي لا يسعنا ذكرها . وفي بعض هذه الجزر شجر الخبز واثمارها اشبه بالخبز وهي من المغذيات القوية . وفي احراشها كثيرٌ من الاخشاب المتنوّعة الاجناس منها ذات قيمة كالخشب المعروف بالماهوكاني . وفيها اجناسٌ من الطيور الظريفة وانواعٌ من القرود والافاعي المضرة . ويكبر فيها الضب بحيث شوهد منهُ ما طولهُ ذراعان ونصف

وهذه الجزائر هي التي جاء اليها كولمبوس اولاً فان اول جزيرة اكتشفها هي ما سماهُ سان سلفادور المساة الآن جزيرة كات ثم كوبا وسان دومينكو . وقد ذكرنا كيف استولى الاسبانيول على اعظم هذه الجزائر وكيف كانت معاملتهم للاهالي والقساوة التي اجروها في هلاكهم بحيث لم يبقَ اليوم اثرٌ لسكانها الاصليين . اما جمهورية هايتي فهي في القسم الغربي من جزيرة سان دومينكو وهذه الجزيرة هي من اكتشافات كولمبوس في سفرتهِ الاولى . وكان الاهالي يدعونها هايتي . اما الاسبانيوليون فدعوها اسبانيولا كما تقدم وبقيت تحت تصرف احكامهم زمنًا طويلاً الى ان اتى الفرنساويون واستولوا على القسم الغربي منها فكانت الجزيرة بالاشتراك بين الامتين . وفي سنة ١٨٠٠ كان قد كثر عدد العبيد في تلك الجزيرة وقوية شوكتهم على ساداتهم فنهضوا لمقاومتهم واستخلصوا من ايديهم الجزيرة . فارسلت فرانسا ٣٠ الف مقاتل لحربهم وقتالهم ووقع بينهم عدة حروب تردَّد النصر فيها بين الطرفين وانتهى الحال بانتصار

العبيد على الفرنساويين وساعدهم على ذلك وقوع الحميات الخبيثة في جيوش الفرنساويين من الجهة الواحدة ومحاصرة الانكليز لمراكبهم من الجهة الثانية فالتزم ما بقي من الفرنساويين ان يسلموا انفسهم الى العمارة الانكليزية في ٣٠ ت ٢ سنة ١٨٠٣ بعد ان قتل الاهالي منهم ومن الاسبانيوليين عددًا غفيرًا . وحينئذٍ استقل العبيد بانفسهم واقاموا عليهم ملكًا ونظموا لانفسهم قوانين واحكامًا . ثم تبدلت تلك الترتيبات بجمهورية وهم الآن في تقدم ونجاح وكثيرون منهم من ذوي الادراك والبصيرة . والزراعة عندهم نامية والمتجر في تقدم عظيم . اما عدد سكان هذه الجمهورية فيبلغ ٥٧٢ الفًا

واما القسم الشرقي من سان دومينكو فسكانهُ من الاسبانيوليين وبينهم كثيرون من العبيد . ففي سنة ١٨٢١ نهض العبيد على الحكومة طالبين الاستقلالية ولقبوا البلاد تحت اسم جمهورية هايتي الاسبانيولية . ولكن اذ لم يكن هذا المشروع مقبولاً عند الجميع وكان العبيد والجنس المختلط يرغبون الانضمام الى جمهورية هايتي المتقدم ذكرها نهض الهايتيون لضرب الاسبانيوليين فقلبوا حكومتهم الجديدة واخضعوهم وضموا الجزيرة كلها تحت حكمٍ واحدٍ مدة ٢١ سنة . ولكن لم يكن هذا الاتحاد اتحادًا مخلصًا فانهُ في سنة ١٨٦٤ نهض الاسبانيوليون وخلعوا عنهم طاعة جمهورية هايتي وقاوموهم واسترجعوا استقلاليتهم ولم يدعوهم ان يستملكوا عليهم مرةً ثانية . وبعد ان نجح الاسبانيوليين في ردع اعدائهم لقبوا حكومتهم بجمهورية دومينكا واقرّت لهم فيها انكلترا وفرانسا ودنيمارك واجرت معهم عهودًا . ولكن سنة ١٨٦١ بعد ان جرّب الاهالي حكم هذه الجمهورية مدة ١٧ سنة التمسوا من اسبانيا ان تسترجع زمام احكامها فضمنها اليها وهي الآن في يدها وتحسب من املاكها وملحقاتها الخارجية

الفصل الثامن

في اميركا الوسطى

ان اميركا الوسطى هي الاراضي الواقعة في اواسط القارة بين قسميها الكبيرين يحدها شمالاً مكسيكو وخليج مكسيكو . وشرقًا بحر كريبيان . وجنوبًا اميركا الجنوبية . وغربًا الاوقيانوس الباسيفيكي . ومركزها اشبه بمركز استوائي متصلٌ بجميع اطراف العالم لانها فضلاً عن انها توصل اميركا الشمالية باميركا الجنوبية موانيها مفتوحة لاوروبا وافريقية من جهة الشرق ولاسيا وجزائر المحيط من جهة الغرب كما ترى بالامعان الى الخارطة

وتتضمن هذه البلاد ما يتضمنهُ غيرها من الجبال المرتفعة والانهر والبحيرات الكبيرة . وهواؤُها على الاغلب جيدٌ مع انهُ كثير التغير. واهلها يتقنون الزراعة احسن اتقان لان باقي الصنائع مهملة عندهم وليس لهم معول الاَّ على محصولات الارض . اما الديانة العامة فيها فهي الرومانية ووسائط التعليم والتنوير محصرة في بعض المدن الكبيرة فقط فلا يقال الاَّ انها قليلة وتنقسم هذه البلاد الى خمسة اقسام كبرى وهي

	عدد السكان بوجه التقريب
كواتيمالا	١٠٠٠٠٠٠
سان سلفادور	٥٠٠٠٠٠
هندوراس	٣٥٠٠٠٠
نيكاداكوا	٣٥٠٠٠٠
كوستاريكا	١٥٠٠٠٠
المجموع	٢٣٥٠٠٠٠

واكثر هولاء السكان هم من الهنود الاصليين ومن اجناس مختلطة واما الجنس الابيض فهو قليل بينهم لا يزيد عن ستة في المئة

ولكل من الاقسام المذكورة بلاد واراضٍ واسعة واحكام مستقلة من نوع الحكم الجمهوري لهُ رئيس ومجالس ونظامات تقارب بعضها البعض في الترتيب والاصطلاح . ولكلٍ منها ايضاً قوات عسكرية ونظامات سياسية ومعاملات وعلاقات خارجية ومتجرٌ متوسطٌ ولبعض الدول الاجنبية وكلاء وقناصل في هذه الاقاليم

وكانت هذه البلاد قديماً عقب اكتشافها تحت تسلط دولة اسبانيا ولكنها انسلخت عنها واستقلت بذاتها كما استقلت باقي البلاد وانفرد اهلها الاسبانيول عن طاعة الدولة ونظموا لهم فيها روابط وضوابط جمهورية سالكين بمقتضاها . وليس لهذه البلاد حوادث تاريخية مهمة تستحق الذكر وجل القصد في التكلم عنها انما هو لاجل معرفة وجودها ومركزها وبيان عدد اهلها واحوالها تتميماً للفائدة

الفصل التاسع

في الكلام عن اشهر اقسام اميركا الجنوبية

الباب الاول

في وصف اميركا الجنوبية وتعداد بلادها

ان اميركا الجنوبية يحدها شمالاً بحر كريبيان وشرقًا المحيط الاتلانتيكي وغربًا المحيط الباسيفيكي وتتضمن ما تتضمنهُ باقي القارات من الجبال والسهول والانهر والحيوانات . وهي متسعة الاراضي تقارب مساحتها القسم الشمالي من هذه القارة ولكنها كثيرة الاحراش قليلة السكان لا يزيد عدد اهلها عن ٢١ مليونًا من الشعوب والقبائل المختلفة هذا عدا الهنود الذين الى الآن لم يتمدنوا ولم يزالوا في حالة التوحش يجولون بين براريها وصحاريها لانهُ لا يعلم حقيقة عددهم ولكن بحسب الارجحية يبلغون مليون نسمة

اما الجنس السائد بين شعوب اميركا الجنوبية فهو الجنس الابيض الآتي من اوروبا عقب الاكتشاف والجنس المختلط اي الذي اختلط معهُ الاوروبيون بواسطة الزواج . واما السكان الاصليون فليس لهم شيءٌ من السيادة والتسلط . وقد ذكرنا في بداءة القسم الرابع عند الكلام عن جغرافية هذه القارة ان في اميركا الجنوبية اثنتي عشرة دولة منها سلطنة برازيل والبقية جمهوريات صغيرة واذ كان لا يهم التكلم عن كل واحدةٍ من تلك الجمهوريات اقتصرنا على ذكر

بعضهنَّ مكتفين بوضع الجدول الآتي ليعلم منهُ اسماء تلك الجمهوريات وقصباتها وعدد شعوبها كما ترى

عدد سكان العاصمة	اسم العاصمة	عدد الشعب بوجه التقريب	اسم المملكة
٢٠٠٠٠٠	ريوجنيرو	٨ ٠٠٠ ٠٠٠	سلطنة برازيل
٥٠٠٠٠	بوكوتا	٣ ٥٠٠ ٠٠٠	بلاد كولومبيا المتحدة (نيوغرانادا)
٨٠٠٠٠	كويتو	١ ٣٠٠ ٠٠٠	جمهورية ايكوادور
٦٠٠٠٠	كاراكاس	١ ٥٦٥ ٠٠٠	" فنزويلا
٢٥٠٠٠	جورج تاون	٢٥٠ ٠٠٠	" كوايانا(١)
٢٥٠٠٠	سوكر	١ ٨٠٠ ٠٠٠	" بوليفيا
١٢٠٠٠٠	ليما	٢ ٢٥٠ ٠٠٠	" پيرو
٨٠٠٠٠	سانتياكو	١ ٦٠٠ ٠٠٠	" شيلي
١٠١٠٠٠	بوينُس ابريس	١ ٢٠٠ ٠٠٠	" الاتحاد الارجنتيني بما فيهِ بلاد بوينُس ابريس
٤٨٠٠٠	اسونسيون	١ ٢٥٠ ٠٠٠	" باراكواي
٢٨٠٠٠	مونتيفيديو	٣٤٠ ٠٠٠	" اوركواي
			" پاتاكونيا شرقي جبال انديس

١ تنقسم كوايانا الى ثلاثة اقسام . الاول وهو الاكبر تحت تسلط الانكليز . والثاني يختص بالفلمنكيين ويحكمهُ والٍ منهم . واما الثالث فيتبع فرانسا ويحكمهُ مجلسٌ بلدي تنتخبهُ الاهالي

الباب الثاني

في جمهورية كولومبيا

ان جمهورية كولومبيا المتحدة المعروفة سابقًا باسم نيوغرانادا اي غرناطة الجديدة هي بلاد متسعة ذات اراضٍ فسيحة معظم طولها من الشمال الى الجنوب الف ميل ومن الشرق الى الغرب سبع مئة وستون ميلاً يتبعها عدة جزر صغيرة وخلجان ظريفة ويخترقها جملة جبال وانهر وبحيرات كبيرة وعدد اهلها نحو مليونين ونصف من اجناسٍ مختلفة وفيها نحو مئة وعشرين الفًا من الهنود الاصليين في حالة التوحش والتبربر منتشرين في اطراف البلاد وصحاريها لم يدخلوا في التمدن والطاعة . ومما يستحق الذكر هو انهُ سنة ١٨١٠ لم يكن عدد اهالي هذه البلاد اكثر من ثمان مئة الف نسمة فقط . فتكون هذه الزيادة قد تمت في ظرف ستين سنة وهذا مما يدل على حسن البلاد ووجود ما يجذب الناس اليها . وينتظم في سلك هذه الجمهورية ثمانية اقاليم او ايالات مستقلة باحكامها واعمالها ولكنها مرتبطة بعضها ببعض بارتباطٍ عام كارتباط البلاد المتحدة الاميركانية . فكل ولاية من الولايات المذكورة ترسل كل سنة ثلاثة نواب من طرفها فيجتمعون في مدينة بوكوتا العاصمة للمفاوضة والمداولة في الاصلاحات والتراتيب اللازمة . اما رئيس الجمهورية فيكون انتخابهُ باكثرية الصوت على ست سنوات عوض الاربع اما الديانة العامة في كولومبيا فهي الرومانية ولكنهُ ليس للحبر الروماني تسلط على اعمال تلك الكنائس لانها غير خاضعة لهُ والذي يسوسها ويدبر امورها الدينية رئيس اساقفة مدينة بوكوتا . ولم يلتفت في السابق الى تقدم العلوم وتهذيب الاهالي في هذه المملكة واما الان فقد تحسنت احوالهم وتقدموا كثيرًا في

المعارف وانواع الفنون نظرًا لرغبتهم واهتمامهم وعندهم جملة مدارس بسيطة وكلية لتعليم الصنائع المختلفة وباقي العلوم . ويوجد في العاصمة مرصد فلكي لا يوجد لهُ مثيل في العالم في الاتقان والارتفاع. اما تجارة هذه البلاد فلا تذكر لانعكاف الاهالي على الزراعة والصناعة غير المتقنتين ايضًا كما يجب

واول من اكتشف نيوغرانادا كولمبوس في سفرتيهِ الثالثة والرابعة فسكنها الاسبانيوليون تحت احكام مختلفة ولكنهُ اخيرًا أُقيم فيها حكمدارية عمومية سنة ١١٣٢. وكانت اراضيها تمتد على كل ما يعرف اليوم تحت اسم جمهورية بلاد كولومبيا وجمهورية ايكوادور . وفي سنة ١٨١٠ خلع اهلها طاعة الحكومة الاسبانيولية وجاهروا بالعصيان ودامت الحرب بين الطرفين الى سنة ١٨٢٤ حينما انتصر الاهالي ولم يبقَ للعساكر الملكية سبيلٌ للمدافعة . وكان مقدام هذه الثورة ورئيسها رجل يقال لهُ بوليفار كان قد اشار باتحاد ڤنزويلا مع نيوغرانادا وايكوادور فاستحسن الاهالي رايهُ واستصوبوهُ واتحدوا جميعًا وتلقبت الجمهوريات الثلاث بجمهورية كولومبيا . ولكن لم يدم ذلك الاتحاد اكثر من عشر سنين حتى انحل وانسحبت ڤنزويلا سنة ١٨٣٠ وتبعتها ايكوادور وبقيت نيوغرانادا منفردة وحدها مع ولاياتها التابعة لها الى سنة ١٨٦١ حين تحولت تلك الولايات الى بلدانٍ مستقلة وعقدت تحالفًا واتحادًا عامًّا تحت اسم بلاد كولومبيا المتحدة

الباب الثالث

في سلطنة برازيل

ان هذه البلاد هي اعظم اقسام اميركا الجنوبية واكبر من البلاد المتحدة مساحةً غير ان جانبًا عظيمًا منها براري واسعة واحراش فسيحة خالية من الانيس

والجليس وعدد اهلها ثمانية ملايين والبعض يبالغون في عددهم ويجعلونهم احد عشر مليونًا. وبينهم قبائل هنود متوحشة وكثيرون من العبيد يستخدمهم الاهالي غالبًا في الزراعة وفي التقاط حجر الماس والياقوت الاصفر من بين رمال انهرها لان هذين المعدنين كثيرا الوجود في تلك البلاد والذهب والفضة لا ينقصان ايضًا . اما الزراعة فقلما يعتني الاهالي بها . وبين احراشها كثيرٌ من الاشجار التي لا توجد في غيرها الاَّ نادرًا كشجر صمغ المرن والماهوكاني والشوكولاتا. اما تجارتها فاغلبها بيد الاجانب . ومن محاصيلها التي ترسل الى الخارج البن والسكر والقطن والخشب والصمغ والماس والياقوت الاصفر . والحكم فيها من نوع الملكي المقيد والديانة الغالبة اللاتينية وعاصمة المملكة مدينة ريوجنيرو واهلها نحو ثلاث مئة الف نفس

اما تاريخ هذه المملكة فحديث كما لا يخفى واول من اكتشفها رجل اسبانيولي يسمى پنسون ولكنهُ نسب اكتشافها الى رجل پورتوغالي يقال لهُ كابرال ذهب اليها سنة ١٥٠٠ فجال في اراضيها وتوغل في صحاريها وقدَّم عنها شرحًا مطولاً لم يكن معروفًا عند احد من الناس . ولم يكن للبورتوغاليين في اول الامر ادنى رغبة ولا اعتناء في برازيل ولم يقصدها احد من الناس الاَّ من كان مجرمًا فينفيهُ الحكم اليها وكان يحسب مفقودًا. وسنة ١٥٤٨ نفي الى برازيل جمهورٌ من اليهود فاخذوا يزرعون قصب السكر ونجحوا فيهِ فصارت تتوارد اليها الناس وتقيم فيها . ولما راى ملك البورتوغال ان البلاد في تقدم ونجاح اراد ان يشترك في مكاسبها وياخذ ما نابهُ من ايراداتها فارسل حاكمًا من طرفهِ ليحكم البلاد ويضرب على اهلها المال . ولما تمكنت احكام البورتوغاليين فيها حسدهم عليها الانكليز والفرنساويون والفلمنكيون والاسبانيوليون وسعوا في استخلاص البلاد منهم فلم يتمكنوا من ذلك لان معاملة البورتوغاليين للاهالي كانت حسنة فكانوا يميلون اليهم . ومع ان الفلمنكيين كانوا قد استولوا على اكثر اطراف البلاد طردهم الاهالي منها واخذ البورتوغاليون مكانهم

ولما هاجم الفرنساويون مملكة البورتوغال في اوروبا سنة ١٨٠٨ هرب ملكها يوحنا السادس الى برازيل واقام فيها ولم تكن بعد تدعى مملكة . وعند ما سقط نابوليون الاول لقب يوحنا المذكور نفسهُ ملك بورتوغال وبرازيل وبقي مقيمًا هناك الى سنة ١٨٢١ حينما حدثت الثورة في مملكتهِ في اوروبا فالتزم ان يذهب الى ليسبون وترك ابنهُ دون بدرو نائبًا مكانهُ . ففي سنة ١٨٢٢ طلب شعب برازيل تحرير البلاد وانفصالها عن بورتوغال فانفصلت ونودي باسم دون بدرو المذكور امبراطورًا واقرَّ لهُ الجميع في ذلك. ولما كانت سنة ١٨٣١ اذ لم يكن الشعب مرتضيًا من سياسة امبراطورهم تنازل دون بدرو عن تاج السلطنة لابنهِ ولصغر سنهِ أُقيم لهُ وكلاء الى سنة ١٨٤٠ حين نودي بامبراطوريتهِ تحت اسم بدرو الثاني وهو المستولي الآن . وقد ابطل مؤخرًا الحكم البرازيلي التجارة بالعبيد من بلادهِ على انهُ لم يزل يوجد من يتعاطاها اما سرًّا او بوجهٍ آخر

الباب الرابع

بلاد بيرو

اما بلاد بيرو فيحدها شمالاً جمهورية ايكوادور وبرازيل وشرقًا بوليفيا وبرازيل ايضًا وجنوبًا احدى ولايات بوليفيا وغربًا المحيط الباسيفيكي. وهي واسعة الاقطار كثيرة الجبال والانهار وعدد سكانها نحو مليونين ونصف ثلثهم من الهنود والثمن من اصل اوروبي والبقية من جنس مختلط وما عدا هؤلاء يوجد بعض العبيد في السواحل البحرية . وقصبة هذه المملكة مدينة ليما واهلها نحو مئة الف نسمة . وتكثر في هذه البلاد معادن الفضة والذهب والنحاس ولاسيما

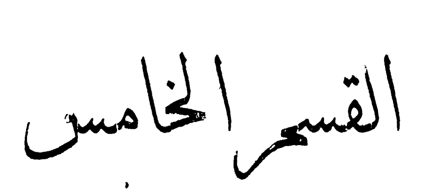
الفضة فانهُ من سنة ١٦٣٠ الى الان بلغ قيمة ما أستُخرج منهُ ١٥٠٠ مليون ريال. اما الزراعة فيها فقلما تذكر وتربتها تحتاج الى اتعاب جزيلة واخص محصولاتها السكر والارز والصوف والجلد وبعض اصناف طبية تخرج برسم التجارة . اما نظام الاحكام فهو على النسق الجمهوري والرئيس يُنتخب على ست سنوات. وقوتها البرّية ٣٠٠٠ جندي والبحرية ١٤ مركبًا تحمل ٧٤ مدفعًا. والديانة الغالبة فيها اللاتينية ووسائط التنوير في داخليتها قليلة

اما تاريخ هذه البلاد فيبتدئ منذ اكتشفها فرنسيس پيزارو سنة ١٥٢١ وهذا الرجل من جملة قواد الاسبانيوليين الذين ذهبوا الى الهند الغربية . وكان في اثناء اقامتهِ هناك قد حصل على بعض معلوميات من جهة هذه المملكة فرجع الى اسبانيا ليطلب الرخصة والوسائط لافتتاح تلك البلاد فاذنت لهُ الحكومة في ذلك ومدَّهُ كورتيز الذي اكتشف مكسيكو بمبلغ من المال ليستعين بهِ على اتمام تجهيزاتهِ . فجهز ثلاث سفن صغيرة وجنَّد مئة وثمانين رجلًا وسافر بهم مع رفيق لهُ يدعى الماكرو. فلما وصل الى پيرو راى تمدن الاهالي وحالتهم العمومية ليستا باحسن حالةٍ من حالة اهالي مكسيكو وراى بينهم انشقاقًا فانهم كانوا منقسمين الى حزبين احدهما مع الملك المستولي والثاني ضدهُ وكانت الحرب قائمة بينهما . فسرَّ پيزارّو من تلك الحالة واظهر بانهُ يريد الانضمام الى حزب الملك ويعينهُ على قتال عدوهِ فقبلهُ الملك وترحب بهِ الجميع وبهذه الوسيلة دخل مع جماعتهِ الى داخل البلاد فصادف حسن الاستقبال ومزيد اللطف والاكرام من الاهالي. ولما تمكن منهم وعرف حقيقة احوالهم غدر بهم فقاتلهم واسر ملكهم وكان اسمهُ اتاباليبا فعرض عليهِ الملك مبلغًا وافرًا من المال ليعتقهُ من الاسر فاخذ منهُ الفدية ثم غدر بهِ وقتلهُ وحارب الاهالي فاخضعهم وجار عليهم جورًا عنيفًا. وسنة ١٥٤١ وقع الخصام بين پيزارّو ورفيقهِ الماكرو المذكور افضى بهما الى القتال فانقسم العسكر بين الاثنين وجرى بينهما عدة وقائع كانت الدائرة بها على الماكرو فقبض عليهِ پيزارّو وقتلهُ . ولكن لم تذهب تلك المعاملة بدون

مجازاة فانهُ بعد تلك الحادثة ببرهة قصيرة اخذ ابن الماكرو بثار ابيهِ اذ وثب على بيزارو وقتلهُ

واستمرت بلاد بيرو تحت تسلط الحكومة الاسبانيولية نحو ثلاث مئة سنة وكانت نامية وناجحة اكثر من باقي البلاد الكائنة في اميركا الجنوبية ولم تنفصل عنها الاَّ سنة ١٨٢١ وذلك بمساعدة جمهوريتي شيلي وبوينُس آيريس فانهما ارسلتا عسكرًا الى تلك البلاد تحت قيادة الجنرال سان مرتين فحارب الاسبانيوليين وهزمهم ونودي باستقلالية بيرو في ٢٨ تموز من السنة المذكورة . واذ لم يرضخ الاسبانيوليون الى ذلك دام القتال بين الفريقين الى سنة ١٨٢٤ حين حدثت واقعة اياكوشو فانهت النزاع باستقلال البلاد استقلالاً تامًّا وبابعاد الاسبانيوليين ابعادًا نهائيًا

وسنة١٨٢٦ وقع بين الحكومة والاهالي خصامٌ ونزاع فاستعانت الحكومة بجمهورية بوليفيا التي في جوارها فاتاها ساناكروز رئيس الجمهورية المذكورة بجيش من الجنود وضرب العصاة فادخلهم تحت الطاعة . ثم قسم بيرو الى قسمين شمالي وجنوبي وضمها الى بوليفيا واقام ذاتهُ محاميًا لها. غير انهُ في سنة ١٨٣٩ طُرِد المذكور من بيرو وبطلت المعاهدة السالف ذكرها ورجعت كل دولةٍ من بيرو وبوليفيا الى حدودها الاصلية ونظامها الاول ومع كل ذلك لم تتوطد الراحة التامة في بيرو. وكثيرًا ما يتنازعون الرياسة والاحكام الى الان بحيث لم يوجد رئيس من روسائهم مَن اكمل مدة احكامهِ المعينة على التمام بل خلع الجميع عن كراسيهم بدون استثناء قبل نهاية ايامهم . ولكن هذه المنازعات لم تمتد في كل البلاد بل هي منحصرة في العاصمة فقط واحيانًا في جوارها



القسم الخامس

في اوسيانيكيا او اوسيانيا

ان هذا القسم يشتمل على عددٍ وافرٍ من الجزر الكائنة في المحيط الباسيفيكي والمحيط الهندي قد اكتشفها الناس في اوقاتٍ مختلفة بعد اكتشاف قارة اميركا ولذلك يجوز تسميتها بالعالم الجديد . وقد تسمت اوسيانيا او اوقيانيا نسبةً الى الاوقيانوس المحيط بها . وهي جزائر كثيرة متفرقة في اماكن مختلفة لو التصقت بعضها ببعض لبلغت مساحتها بين اربعة او خمسة ملايين من الاميال المربعة . اما عدد اهلها فثمانية وعشرون مليونًا من شعوب وقبائل متنوعة الاجناس كثيرٌ منها تحت تسلط الاوروبيين . وتنقسم هذه الجزر الى ثلاثة اقسام كبرى الاول يقال له ماليزيا والثاني اوسترالازيا والثالث بولينيزيا وسنتكلم عن كلٍّ منها على حدتهِ

الفصل الاول

في الكلام على ماليزيا

ان ماليزيا او الارخبيل الماليزيّ اسمٌ يُطلق على عدة جزائر كبيرة في بحر

الهند بالقرب من قارة اسيا دُعيت بهذا الاسم نسبةً الى اهلها فانهم من جنس ماليزي او ماليكازي نظير اكثر سكان جزيرة مداكسكر وهذا الجنس هو فرعٌ من العائلة المغولية . واذ لم يكن للاهالي قيدٌ لتسجيل حوادثهم الماضية فلا يقدر احد ان يهتدي الى معرفة احوالهم وحوادثهم السابقة الاّ من زمن الاكتشاف فقط. ويحتوي هذا القسم على عدة جزائر كبيرة تستحق الاعتبار. منها بورنيو وهي اعظم جزيرة في العالم بعد اوستراليا تبلغ مساحتها نحو ٢٣٠ الف ميل مربع يخترقها سلسلة جبال من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي يحدرُ منها جملة ينابيع فتتكوّن منها انهر كبيرة . ويكثر بين معادنها الماس والذهب وقد وجد مرةً بين صخورها حجرٌ من الماس بلغ وزنهُ ٣٦٧ قيراطًا . وما عدا ذلك يوجد في اراضيها الفحم الحجري والحديد والنحاس والقصدير والانتيمون . اما هواء هذه الجزيرة فحارٌ لوقوعها تحت خط الاستواء . ومن حواصلها جوز الهند وقصب السكر وجنس من جوز الطيب لا رائحة لهُ وجنس من القرفة وشجر صمغ المرن وغير ذلك. ومن حيوانانها اجناسٌ من القرود والسعادين قلما توجد في غيرها ثم النمر الكاسر وجنس غريب من الخنزير قبيح المنظر ذو لحية كبيرة ثم الجاموس البري واجناس من الايل. وهذه الجزيرة تحت تسلط الفلمنكيين وعدد اهلها نحو مليونين ونصف وهم اجناسٌ مختلفة ينقسمون الى عدة قبائل يترأس عليها شيوخها وبينهم مئة واربعون الفًا من الصينيين

ومن جزائر ماليزيا ايضًا سوماترا وهي تقارب بورنيو في الكبر والاتساع ولكنها اكثر منها سكانًا فان عدد اهلها يبلغ اربعة ملايين ونصفًا تقريبًا منها ثلاثة ملايين ونصف تحت حكم الفلمنكيين والباقي مستقلٌ بذاتهِ . ولكن عين دولة هولاندا ما زالت متجهة نحو امتلاك كل الجزيرة وقد وصلت غزواتها الى جوار مدينة انشين واستولت على جميع الاساكل البحرية . اما الديانة العامة بين السوماتريين فهي الاسلامية واللغة الدارجة الماليزية ومع ان التقدم بينهم في تأخر والتهذيب يكاد يكون مفقودًا فهم على جانب عظيم من الانس واللطف يحبون

السلام ويتجنبون الاذية والضرر. واما هواؤها فلا يختلف عن هواء جزيرة بورنيو لانها واقعة تحت خط الاستواء نظيرها. ومن محصولاتها الارز وجوز الهند وقصب السكر والذرة والفلفل والكافور والقطن وشجر القنب وفيها من الحيوانات الفيل والنمر وجنس من الدب الاسود والايل واجناس من القرود الغريبة الشكل والاسم وفيها ايضاً الكسلان والفرقذان والظربان وحيوان الزبد والارمديل والتمساح . ومن اشهر طيورها الطاووس ومن زحافاتها الافعى المعروف بالجول والحرباء النشابة ويكثر فيها النحل بحيث يحسب العسل والشمع من جملة صادراتها . ومن معادنها الذهب والنحاس والحديد والكبريت والنطرون وفيها عدة ينابيع معدنية ويتبع جزيرة سوماترا عدة جزر صغيرة مجاورة لها يبلغ عدد اهلها نحو خمس مئة الف نسمة

ومن جزر هذا القسم ايضاً جزيرة جافا وهي اعمرهنّ ارضاً واكثرهنّ سكاناً واعظمهنّ متجراً اكتشفها البورتوغاليون سنة ١٥١٠ واخذ الفلمنكيون بعد ذلك في امتلاكها وهي من جملة املاكهم الشرقية الى هذا اليوم . وكان قد استولى عليها الانكليز سنة ١٨١١ ولكنهم ارجعوها لاصحابها بعد ان بقيت في ايديهم مدة خمس سنين . اما عدد سكان هذه الجزيرة فليس اقل من ١٤ مليوناً واغلبهم من العائلة المالكازية ولكنهم يفوقون عليهم معرفةً وتمدناً ولهم اليد الطولى في اتقان الزراعة وبعض الصنائع كصناعة التجارة والصباغة والدباغة والغزل وغيرها . ومن اشهر محصولاتها الارز والبن والسكر والتبغ والقرفة والفلفل والشاي. واكثر تجارة الاهالي في اوروبا هي مع هولاندا وانكلترا . وعاصمة هذه الجزيرة وباقي املاك الفلمنك في الشرق مدينة باتافيا وهي مركز الحكومة ومحل اقامة الوالي وعدد سكانها بحسب تعديل سنة ١٧٨٠ بلغ ١٦٠ الفاً واما الآن فلا يزيد عن ١٢٠ الفاً وسبب هذا النقصان هو مهاجرة الاجانب وعدم رغبتهم في الاستيطان فيها لرداءة هوائها لانها مبنية عند مصب نهر جوكاترا على ارض منخفضة ويخرقها مياه كثيرة فيحدث فيها حميات خبيثة قاتلة بحيث شوهد احياناً ان بعض

المراكب الراسية في مينائها فقدت كل رجالها بسبب الامراض المذكورة

ثمَّ يتبع هذا القسم من اوسيانيكيا جزائر الفيليپين الواقعة شمالي الارخبيل يبلغ عددها على الاقل ١٢٠٠ ما بين كبيرة وصغيرة وعدد سكانها نحو خمسة ملايين وهي تحت تسلط الاسبانيوليين الذين اكتشفوها سنة ١٥٢٠ واستوطنوها وتحسب من افضل املاكهم الخارجية واحسنها نظرًا لخصب اراضيها وكثرة محاصيلها ولا حاجة الى وصف هوائها وتعداد اجناس حيواناتها ومنتوجاتها لانها لا تختلف عن باقي الجزائر التي ذكرناها . اما سكانها فاجناسٌ مختلفة منهم مليون نفس من الجنس الباباوني و٢٧٠٠٠٠٠ من الهنود الماليزيين و٥٥٠٠٠٠ من الصينيين و٢٤٥٠٠٠٠ من الجنس الابيض والديانة العامة بينهم الرومانية . ولهم اليد الطولى في اصطناع بعض الاقمشة الرفيعة والحصر والبرانيط والسيكارات النفيسة المعروفة بسيكارات منيلاً وهو اسمٌ لعاصمة جزائر الفيليپين ومركز الولاية الاسبانيولية . ويتبع اوسيانيكا ايضًا سيليب وهي جزيرة كبيرة تحت تسلط الفلمنك يبلغ عدد اهلها ٣٥٠ الفًا وكثيرٌ غيرها اقتصرنا عن ذكرها خوف الاطالة والملل

الفصل الثاني

في اوسترا ليزيا

ان القسم الثاني من اوسيانيكا يدعى اوسترا ليزيا وهو يتضمن اوستراليا وتزمانيا اي ارض فانديمان وغينيا الجديدة وزيلاندا الجديدة . واذ كانت اوستراليا من اعظم جزائر هذا القسم واشهرهنَّ راينا ان نوجه اكثر كلامنا اليها فنقول

ان اوستراليا وتعرف ايضًا باسم هولاندا الجديدة هي اعظم جزيرة في العالم ولذلك يسوغ ان تعد من جملة القارات نظرًا لاتساعها فان مساحتها نحو ثلاثة ملايين من الاميال المربعة وذلك اكثر من ثلاثة ارباع مساحة قارة اوروبا . وموقعها بين بحر الهند والمحيط الباسيفيكي وعدد اهلها بحسب التعداد الاخير ينوف عن مليون ونصف وهي تحت تسلط دولة انكلترا . وتنقسم هذه الجزيرة الى ستة اقسام كبرى وهي ويلس الجنوبية الجديدة وفيكتوريا وكوينسلاند واوستراليا الجنوبية واوستراليا الشمالية واوستراليا الغربية ولكل من هذه الاقسام والٍ خاصٌ وحكومة خاصة من طرف الدولة الانكليزية

واول من اكتشف اوستراليا الفلمنكيون سنة ١٦١٠ ولم تتملكها الانكليز حتى سنة ١٧٧٠ بواسطة القبطان جمس كوك السائح الشهير الذي جال بين شطوطها الشرقية ولكثرة ما وجد فيها من النباتات المختلفة دعاها بوتاني باي اي بوغاز النبات ولكن تحول ذلك الاسم فيما بعد الى ويلس الجنوبية الجديدة. وكانت الانكليز ترسل اليها في اول الامر على سبيل النفي والقصاص كل المذنبين والمجرمين فتجمع فيها في وقتٍ قصير عددٌ كبير من اوباش الانكليز وصعاليكهم فكانوا يتعيشون بواسطة فلاحة الارض ومنتوجاتها . ومع توالي الايام وتردد الناس اليها سواء كان على سبيل النفي ام على سبيل الاستيطان الاختياري نموا وكثروا واستولوا على جميع اطراف الجزيرة واخضعوا الاهالي الاصليين . ثم اخذت الحكومة الانكليزية تعتني في ترقية اسباب التمدن واصلاح سيرة القوم فأسست بينهم المعامل والمدارس واقامت المستشفيات والبيمارستانات وانشأت الترع والجسور والطرق الحديدية حتى صارت بلادًا زاهية لايأنف الاجانب ان يسكنوها . اما المدارس فيها فليست باقل من ٢٠٠٠ مدرسة بين كلية وبسيطة والحكومة تدفع لهذه المدارس مبالغ جسيمة في كل سنة على سبيل الاعانة

اما هواء هذه الجزيرة فبالاجمال معتدلٌ ومياهها قليلة وليس فيها من الانهر الكبيرة الاَّ قليلاً . واما تربتها فهي عديمة الخصب وثلثاها سباخٌ لا يصلح

الاَّ للمرعى ولا يُرجى اصلاحهُ للزراعة اصلاً ولذلك تعد تلك البلاد من الاقاليم القاحلة لقلة محاصيلها ما عدا الحنطة وباقي الحبوب فانها تعطي منها مقادير وافرة . وينتج في اقسامها الجنوبية التبغ الجيد والعنب والزيتون والتوت والبلوط . ويوجد في بعض اراضيها عدة معادن ثمينة اخصها الذهب الذي اكتُشِف سنة ١٨٥١ وفي مدة عشر سنوات بلغ مقدار ما استخرجهُ الناس منهُ ٣٠ مليون اوقية وما عدا الذهب فيها معادن ثمينة من النحاس والحديد والرصاص والفحم وغير ذالك . ومن العجب انهُ لا يوجد في هذه الجزيرة حيوان مفترس كالسبع والنمر وفرس البحر والفيل حتى ولا الابل والقرد ولكن من الجهة الثانية يدب فيها بعض حيوانات تختص بها لا توجد في غيرها من البلاد كالقنقر والابوسوم وانواع كثيرة من ذوي الاكياس والكلب البري والثعلب الذي يشب وغير ذالك من الاجناس المختلفة المجهولة الاسماء . وبين طيورها النسر والباز والشاهين والببغاء والبوم . ومن زحافاتها التمساح والافاعي المجنسة السامَّة

اما اهالي اوستراليا الاصليون فهم من العائلة السودانية من الجنس الپپواني والوانهم شديدة الاسمرار اشبه بلون الشوكولاتا وهم بوجه الاجمال قصار القامة صغار الرؤُوس وشعورهم كثيفة وايديهم وارجلهم سلعة ولكنهم مع هذه الاوصاف القبيحة اصحاب قوة وحركة خفيفة وما زال بعضهم الى الآن في حالة البربرة والتوحش يجولون بين صحاري البلاد المقفرة مع ان كثيرين من رفقائهم قد دخلوا في سلك التمدن والمعرفة

ومن جملة ملحقات وتوابع اوسترالازيا جزيرة تزمانيا وكانت تدعى قديمًا ارض فانديمان وهي على مسافة ١٠٠ ميل منها الى جهة الجنوب يفصل بينهما بوغاز باس وهو اسم ضابطٍ انكليزي تحقق بانها جزيرة . ثم أُطلق عليها اسم تزمانيا نسبةً لتزمان الذي اكتشفها سنة ١٦٤٢ وهي تابعة للدولة الانكليزية وسكانها نحو تسعين الفًا . ويقال في هوائها وتربتها وحيواناتها واهلها ما قيل

في اوستراليا . وكان يُرسل الى هذه الجزيرة ايضًا بعض المذنبين المنفيين من بريتانيا ومن اوستراليا ولكن من بعد سنة ١٨٥٢ الغيت تلك العادة . ومن اشهر معادنها الذهب فانهُ لغاية سنة ١٨٦١ صار تعديل قيمة المستخرج منهُ فبلغت ٧١٢١١٥٠ ليرة انكليزية . والديانة العامة فيها البروتستانتية

واما غينيا الجديدة فهي الى الشمال من اوستراليا لم تزل داخليتها مجهولة الى الآن لعدم وجود مَن دخلها وبحث عن احوالها . وتحصر معرفتها بالسواحل البحرية فقط . وقد تنازع البورتوغاليون والاسبانيوليون من جهة اكتشافاتها وكلٌّ منهما يدعي حق الاكتشاف لنفسهِ . وسنة ١٨٢٨ وضع الفلمنكيون ايديهم عليها واستملكوها ولا يوجد فيها الى الآن استيطانات اوروبية . اما اهلها فهم من الجنس البوانى المذكور انفًا ومن جنس ماليزي مختلط . والى الشرق من اوستراليا زيلاندا الجديدة وهي جزيرتان كبيرتان تابعتان دولة الانكليز وعدد سكانهما يبلغ ١٤٠ الفًا منهم ستون الفًا من الاهالي الاصليين والبقية من الاوروبيين اكتشفهما تزمان المذكور آنفًا سنة ١٦٤٢ ثم قصدهما بعد ذلك القبطان كوك سنة ١٧٦٩ وجال فيهما ولكن لم تبتدئ فيها الاستيطانات حتى سنة ١٨٢١ وكانت اذ ذاك تابعة اوستراليا ولكن سنة ١٨٤٥ انفصلت عنها وصارت حكومة مستقلة . اما اهالي هاتين الجزيرتين فهم من العائلة المغولية وقد دخلت بينهم الديانة المسيحية ولم يبقَ من عوائدهم الوثنية الا ما ندر وهم آخذون الآن في التقدم

الفصل الثالث

في بولينيزيا

ان القسم الثالث من اوسيانيكا يدعى بولينيزيا وهو اسم مركَّب من كلمتين

يونانيتين معناها جزر كثيرة . ويشتمل هذا القسم على جميع جزائر المحيط الباسيفيكي الواقعة شرقي اوستراليا وتمتد الى قرب الشاطي الغربي من قارة اميركا. ولكثرة هذه الجزائر لا يعرف لها عدد حقيقي . وتنقسم هذه الجزائر الى ثلاثة مراتب طبيعية ممتازة الاولى الجزائر ذات الجبال الثانية الجزائر ذات التلال الثالثة الجزائر الواطية المرجانية .اما جزائر الرتبة الاولى فهي احسنهن منظرًا واظرفهنّ رونقًا تكسوها الطبيعة جمالاً لا تستطيع يد الصناعة ان تأتي بمثله ومما يزيدها بهجةً بعض جبالها المرتفعة التي تحجب رؤوسها بين السُحب المارة بها بينما اواسطها مكسوة باحراشٍ متنوعة الاجناس واوديتها مملوءة بشجر ثمر الخبز واشجار اخرى مفيدة . وفي كل هذه الجبال اثارٌ بركانية تنطبخ في داخلها الى ان تتفاقم فتنقذف الى الخارج وتضر بالاماكن المجاورة . وقد وجد في رؤوس تلك الجبال كثيرٌ من الصدف والمرجان ومواد اخرى بحرية تدل على ان تلك الجبال كانت قديمًا مغطاة بالمياه . اما جزائر الرتبة الثانية فلا ترتفع جبالها اكثر من خمس مئة قدم وهي اقل ظرفًا من تلك وصخورها من كربونات الجير البلوري ومحاصيلها كمحاصيل جزائر الرتبة الاولى . واما جزائر الرتبة الثالثة فهي واطية جدًا لا تعلو عن البحر الاَّ بعض اقدامٍ فقط ولوطوّ تربتها يقل فيها النبات ما عدا جزائر الاصدقاء فانهُ ينتج فيها ما ينتج بجزائر الرتبتين الاوليين وذلك لعمق تربتها . واما الجزائر المعروفة بجزائر الشركة وكثيرٌ غيرها فهي محاطةٌ بصخورٍ مرجانية عرضها من اربع اذرع الى ٢٠ ذراعًا منها على مسافة قريبة من البحر وبعضها على مسافة ميلين وعلى هذه الصخور تلطم امواج المحيط العجاج بشدة مخيفة

اما اهالي بولينيزيا بوجه الاجمال فهم من اجناس ماليزية مختلفة وبينهم مشابهة كلية تختلف قليلاً بحسب الاقاليم والعوائد وهم على الاغلب قصار القامة معتدلو السمانة اصحّاء البدن ذوو اوجه مستديرة مجوّفة الخدود لارتفاع عظم الخد وعيونهم سود صغيرة كالصينيين . ومن عوائدهم استعمال الوشم على ابدانهم

واوجههم فينقشون عليها اشكالاً من الاشباح والاشكال الغريبة بحيث كثيرًا ما تخفي صورة الانسان الاصلية . ومن اقبح عوائدهم اكلهم اللحوم البشرية وافتراس من وقع في ايديهم وتقدمة الذبائح البشرية لاصنامهم ولكن في هذه الايام قد اصطلح حال بعضهم وتنوَّر كثيرون منهم لا سيما اهالي جزائر سندويج بواسطة المبشرين بالانجيل واعتنق كثيرون منهم الديانة المسيحية

ومن اشهر جزائر هذا القسم جزائر سندويج وهي ١٣ جزيرة ثمانية منها مسكونة والبقية خالية من السكان واعظمهنَّ جزيرة هاواي المشهورة بجبالها النارية وفيها جبلٌ ارتفاعهُ ١٣٦٠٠ قدمًا انقذفت نيرانهُ سنة ١٨٥٥ واضرَّت بكثيرين من الناس . وقد اكتشف هذه الجزائر القبطان كوك الانكليزي سنة ١٧٧٨ فترحب بهِ الاهالي في اول الامر اذ حسبوهُ الهًا واكرموهُ اكرامًا فوق العادة الى ان كان ذات يوم فسرق احدهم لهُ قاربًا فنزل اليهم القبطان المذكور في جماعة من اتباعهِ وكان قصدهُ ان يقبض على ملكهم ويبقيهُ عندهُ الى ان يأتوهُ بالقارب . فعند وصولهِ الى البر اجتمع اليهِ عددٌ غفيرٌ من الاهالي فارتد راجعًا من امامهم حتى اشرف على اصحابهِ الذين كانوا ينتظرونهُ على الشاطي فتبعهُ القوم بضجيج عظيم ورموهُ بالحجارة ولما اشتد عليهِ الامر اطلق بارودتهُ على احدهم فقتلهُ فعند ذلك انطبقت عليهِ جماهيرهم من كل ناحيةٍ وضربهُ رجلٌ منهم بقطعة خشب القاهُ على الارض ثم طعنهُ بحربةٍ انهت حياتهُ . فاجتهد رجالهُ على تخليصهِ من بين ايديهم فلم يستطيعوا وولّوا مدبرين وهكذا انتهت حياة هذا الرجل الفاضل الذي ترك ذكرًا حميدًا على احتمال المشقات والاخطار في سفراتهِ الثلاثة التي احاط بها الكرة الارضية ولاكتشافاتهِ العديدة التي لاجلها اصبح العالم مديونًا لهُ . اما عدد سكان جزائر سندويج الآن فيبلغ مئة وخمسين الفًا بعد ان كان اربع مئة الف وليس هذا التناقص ناتجًا الاَّ من شرور الاهالي وكثرة قبائحهم التي تجلب طبعًا الامراض والموت فان لم تأتِ الوسائط المستعملة الآن بين اولئك القوم بالفوائد المطلوبة فلا بد انهم يمحون من على وجه الارض

وتبقى تلك الجزائر بدون سكان

ثم يتبع بولينيزيا ايضًا جزائر لادروني وهي نحو ١٨ جزيرة تكثر فيها البراكين وعدد اهلها ٧٥٠٠ نسمة وهم من الاسبانيوليين المنتقلين من مكسيكو واهالي هذه الجزائر يعيشون في الاكواخ ويقتاتون من محصولات الاراضي المخصبة. وقد اكتشف هذه الجزر رجل بورتوغالي كان في خدمة الاسبانيوليين سنة ١٥٢١ ودعاها لادروني وهي كلمة اسبانيولية معناها لصوص ثم دُعيت فيما بعد جزر مريانا نسبةً الى اسم ملكة اسبانيا زوجة فيليب الرابع

ويتبع هذا القسم ايضًا جزائر كارولين وهي عدة جزر بعضها خالية من السكان وبعضها يسكنهُ اجناس من البشر من رتبةٍ مختلفة في التنوير يعيشون من غلّات اراضيهم وليس لهم من التجارة الاّ ما لا يذكر. ومن اخص اشجار تلك الاماكن شجر جوز الهند ولهُ عندهم منافع جمّة فانهم يستظلون بظل اشجارهِ وياكلون من اثمارهِ ويتعشون من شرب عصيرهِ ويصطنعون من قشرهِ اوعية الماء ومن سلوخ الاعمدة سلالاً ومن القرامي حطبًا ومن الوَبَر حبالاً وخيطانًا لصيد السمك فضلاً عن الخشب الذي يستخدمونهُ لقيام اكواخهم ولوازم سفنهم . وقد اكتشف هذه الجزائر احد الاسبانيوليين سنة ١٥٤٢ ودعيت بجزائر كارولين نسبةً الى كارلوس الثاني ملك اسبانيا

ومن الجزر التابعة لبولينيزيا جزائر الشركة اعظمهنَّ جزيرة تاهيتي يبلغ طولها ٣٢ ميلاً ويعلوها جبالٌ مرتفعة مكسوَّة بالنبات والاشجار فيرَى منظرها من البحر في غاية الحسن والظرف ويكثر فيها شجر الخبز. وقد اكتشف هذه الجزائر في اول الامر كويروس الاسبانيولي سنة ١٦٠٦ فدعا جزيرة تاهيتي لاساجيتاريا ولكن لفقد الكاشف المذكور بقي ذلك الاسم مجهولاً في العالم الى سنة ١٧٦٧ حين ارسلت انكلترا القبطان واليس لبعض اكتشافات في المحيط وعند وصولهِ الى هذه الجزيرة ظن في نفسهِ بانهُ هو اول من اكتشفها فلقبها بجزيرة الملك جورج نسبةً لاسم ملك انكلترا . ولكن سنة ١٧٦٩ ذهب اليها

القبطان كوك مصحوبًا ببعض العلماء بقصد ان يرصد مرور الزهرة على قرص الشمس وفي اثناء ذلك جال القبطان المذكور بين تلك الاطراف واكتشف عدة جزائر في جوارها فلقبها جميعًا بجزائر الشركة ولم يزل هذا اللقب الى الآن. فصادفت هذه الاكتشافات مزيد السرور في انكلترا وتحركت همة اهل الخير والاحسان فارسلوا لاهالي تلك الجزائر مرسلين لينوّروهم ويهدوهم الى معرفة الله فنجحوا نجاحًا كاملاً ومع توالي الايام ترك الوثنيون عبادة اصنامهم وقبلوا الديانة المسيحية قبولاً حقيقيًا. فحسد ذلك النجاح مجمع البروباكاندا الروماني وارسل قسيسين رومانيين للمعارضة كعادتهم فلم يقبلهم الاهالي بل اساءوا معاملتهم فاوجب ذلك وقوع التشكي من طرفهم وتداخلت الحكومة الفرنساوية في تحصيل الترضية وتهدية الحال فسلبت من الاهالي حريتهم واستقلاليتهم واقامت عليهم محاميًا بحيث لم يبقَ للشعب حرية التصرف. اما عدد سكان هذه الجزائر فهو سائر في سبيل التناقص ككثير من جزائر المحيط وقد حسبهُ القبطان كوك سنة ١٧٧٤ فبلغ ٢٠٠ الف نسمة اما المرسلون فعدلوهُ سنة ١٧٩٧ بلغ ١٦٠٥٠ نسمة ولكن بحسب تعداد سنة ١٨٥٧ لم يزد عن ٦٩٠٦ نسمات فقط منهُ ٥٩٨٠ سكان جزيرة تاهيتي والباقي سكان باقي الجزائر

ويتعلق بهذه الجزائر حادثة غريبة تستحق الذكر وهي انهُ في سنة ١٧٨٨ ارسلت الحكومة الانكليزية ابريقًا حربيًا الى جزائر الشركة لكي ياخذ منها مقدارًا وافرًا من شجر الخبز وينقلهُ الى الهند الغربية. فلما وصلت السفينة الى جزيرة تاهيتي استقبل الاهالي رجال المركب بكل بشاشةٍ ولطف وترحبوا بهم غاية الترحب بحيث لم يبقَ لبعض النوتية ميلٌ ان يفارقوا الجزيرة واختاروا ان يصرفوا حياتهم فيها على ركوب الابحار. ولكن اذ كان لابد لهم من السفر امتثالاً لامر القبطان التزموا ان يخضعوا فتركوا الجزيرة باسفٍ شديد وكانوا كلما ابتعدوا ازدادوا تاسفًا وشوقًا الى اصحابهم حتى انهم صمموا على الرجوع باي وجهٍ كان. وكان بينهم ضابطٌ يقال لهُ كريسنيان يكره القبطان ويبغضهُ فهيج القوم

على ان يقوموا عليهِ ويعصوهُ ويستولوا زمام السفينة . فوقع بينهم الاتفاق على ذلك الأمر ونهضوا ذات يوم صباحًا بينما كان القبطان راقدًا ودخلوا عليهِ وقيدوهُ وتهددوهُ بالقتل ان اظهر المقاومة ثم طرحوهُ في قارب مع ١٨ شخصًا من رجال السفينة ممن لم يوافقهم على العصيان وسلموهم لامواج المحيط وارتدوا راجعين الى جزيرتهم المحبوبة فاقاموا فيها ايامًا . اما كريستيان رئيس ومقدام تلك الفتنة فلعلمهِ بحزم وصرامةِ حكومة بلادهِ وعدم غض نظرها عن امرٍ مثل هذا لم يستصوب الاقامة في الجزيرة خوفًا من العاقبة فاقلع هو واصحابهُ مع عددٍ من رجال ونساء تلك الجزيرة قاصدين مكانًا اخر يستوطنونهُ ماعدا اربعة عشر نفرًا من جماعتهِ فانهم تخلفوا في الجزيرة ولم يرافقوهُ هذا ما كان من امر هؤلاء . واما القبطان فلسعادة حظهِ وصل الى انكلترا مع رفقائهِ في حال السلامة واعلم الحكومة بتلك الحادثة فاستعظمت الامر وفي الحال ارسلت بارجة حربية تدعى باندور للتفتيش على العصاة والقبض عليهم وعند وصولها الى الجزيرة المذكورة لم تجد من القوم الأ الاربعة عشر الذين كانوا قد تخلفوا هناك كما تقدم فالقت عليهم القبض وارتدت راجعةً قاصدة انكلترا . وفي اثناء مسيرها صدمت صخرًا كبيرًا فانكسرت وفُقد بعض رجالها من جملتهم اربعة من العصاة اما العشرة الآخرون فنُقلوا الى انكلترا وهناك شنقت الحكومة منهم ثلاثة . فمضى على تلك الحادثة مدة عشرين سنة ولم يسمع احد خبرًا لا عن كريستيان ولا عن السفينة حتى كان يُظنُّ بانهم غرقوا وفقدوا جميعًا وعلى تمادي الايام تناسى ذلك الخبر بالكلية حتى لم يعد يخطر على بال احد •

واتفق سنة ١٨١٣ ان بارجة حربية انكليزية كانت سائرة من بعض جزائر المحيط قاصدة احدى مواني اميركا الجنوبية فمرّت في طريقها على جزيرة صغيرة كثيرة النبات والاشجار تدعى بيتكرن تبعد عن جزيرة تاهيتي جملة فراسخ للجنوب الشرقي . فاستحسن القبطان ان يرسو هناك قليلاً ليرى ما هي تلك الاشجار والمزروعات التي كان يشاهدها من المركب ومن هم القوم الساكنون في تلك

الابنية التي كانت تفوق حسنًا على مساكن شعوب تلك الجهات واكواخهم . فبينما كان القبطان وجماعتهُ يتاملون في ذلك اذ راوا قاربًا مقبلاً من البر وفيهِ نفران من الملاحين يجذفان بكل عجلة قاصدين السفينة . فلما اقتربا منها وكان البحر هائجًا لا يسمح لهما ان يدنيا منها صاح احدهما باعلى صوتهِ الى ملاحي الفرقاطة قائلاً باللغة الانكليزية ألا تلقون لنا حبلاً يا اصحاب». فاندهشوا جميعًا عندما سمعوا من يتكلم بلغتهم في تلك الاماكن المهجورة وبادروا حالاً والقوا لهما حبلاً فتناولاهُ واستعانا بهِ على الصعود الى السفينة ولما تمثلا امام القبطان سألهما عن حالهما وقصتهما فاخبراهُ بانهما من جملة ذرية كريستيان واصحابهِ وان كريستيان عندما عصى رئيسهُ ورجع الى جزيرة تاهيتي لم يستطع على الاقامة بها خوفًا من قصاص دولتهِ فقصد هذه الجزيرة مع جماعتهِ وعدد اخر من الاهالي ذكور واناث وسكنوها بعد ان احرقوا السفينة خوفًا من انكشاف امرهم ثم غرسوا هذه المزروعات والاشجار التي ترونها وتزوجوا بالنساء اللواتي حضرنَ معهنَّ وها نحن من نسلهم . وقد مات كريستيان وباقي جماعتهِ ولم يبقَ منهم غير شيخ كبير يقال لهُ جون ادامس وهو معتكف الآن على تهذيب الناس وتعليمهم قراءة كتاب الله وان يكونوا مستقيمي السيرة والسريرة فتعجب القبطان ومن حضر من ذلك الاتفاق الغريب واحسنوا الى القوم بما امكن

—ooo—

جدول

يتضمن ملخص الاختراعات والاكتشافات الكلية

الفخار والصيني	الفخار قديمٌ جدًّا واول ما اصطُنع منهُ الطُوب في بناء برج بابل سنة ٢٢٠٠ ق.م ولا بد انهُ كان قبل الطوفان ثم تفنن فيهِ الناس وعملوا منهُ الآنية. وكان للفرس والعرب معرفة باصطناع الفخار الشبيه بالصيني وقد اخذهُ الاوروبيون عنهم سنة ١٤١٥ ب.م. اما الخزف المعروف بالصيني فكان يصطنعهُ اهل الصين ويابان في القرن الاول للمسيح وادخلهُ البورتوغاليون الى اوروبا سنة ١٥١٨
النحاس والحديد	ان وجود هذين المعدنين قديم جدًّا فقد ذُكرا في الاصحاح الرابع من سفر التكوين قبل الطوفان حيث قيل ان توبال قايين الضارب كل آلةٍ من نحاسٍ وحديد. واما كيفية استخراجها واصطناع الآنية والآلات منها فمجهولان والمعلوم عند المتاخرين انهُ عند احتراق احراش جبل ايدا في كريت سنة ١٤٠٠ ق.م سال بعض تراب هذا المعدن الحديدي وجد فعرفوهُ وينسبون الى ذلك اول اكتشاف الحديد غير انهُ لا ينفي قدميتهُ

الزجاج	الزجاج قديم ايضاً وقد ذُكر في الكتاب المقدس في سفر ايوب وامثال سليمان. وينسب بعضهم اختراعهُ الى الفينيقيين وبعضهم الى المصريين. والمرجح ان المصريين اخترعوهُ اولاً وتفننوا في اصطناعهِ ولوّنوهُ وذهّبوهُ. وادخلهُ الرومانيون الى بلادهم سنة ٣٠٠ ق.م واخذ عملهُ يمتد في اوروبا. وسنة ٥٥٠ للميلاد اصطنعوا منهُ الواحًا للشبابيك. وسنة ١٣٠٠ ب.م عمل اهل البندقية المرآة الاولى من الزجاج. وفي اوائل القرن السابع عشر نقش كازبر ليهامان الزجاج وخرطهُ وما زال يتقدم الى هذا اليوم
الاحرف والكتابة	لا يعلم يقيناً من اخترع اولاً احرف الهجاء فالبعض نسبوهُ الى ممنون المصري نحو سنة ٢٠٠٠ ق.م. وظن البعض انهُ كان قبل ذلك وبعضهم يظن ان الفينيقيين اول من اخترعها والامر دائر بين هاتين البلادين فاما ان تكون هذه واما تلك والمعروف بان كادموس ابن احد ملوك فينيقية وضع لليونانيين ستة عشر حرفاً اكملها فيما بعد بلاميدس وسيمونيدس
البوصلة او بيت الابرة	يقال ان الصينيين اول من استعملها في البرّ منذ نحو ٤٠ جيلاً ولا يوجد دليل لاستعمالهم لها بحرًا الاّ في القرن التاسع ب.م في اسفارهم الى خليج الفرس والبحر الاحمر. وعن الصينيين اخذها الهنود. وعن هولاء اخذها العرب ثم اخذها عنهم الاوروبيون في القرن الثاني عشر ب.م وتفننوا في اتقانها ولم تُستعمل عندهم قبل اواسط القرن الثالث عشر

ضرب النقود والمعاملات	ان ضرب النقود يُنسب الى اليونانيين قال هيرودوتوس في كلامهِ عن اهل ليديا انهم اول شعب ضربوا النقود ولكن قد اتضح بان ذلك غلط وان اهالي ايجينيا في زمن فيدون ملك ارغوس اول من اخترعهُ سنة ٨٩٥ ق . م . ثم تطرق من بلاد اليونانيين الى بلاد الفرس والعرب وغيرها
الشطرنج	ان لعبْ الشطرنج قديم العهد وعُرف منذ سنة ٦٠٨ ق . م. فالبعض ينسب اختراعهُ الى الصينيين والبعض الاخر الى الهنود والارجح ان هولاء اول من اخترعهُ وقيل ان واضعهُ الحكيم صَصَه ويسمونهُ شاتورانكا . وادخلهُ الصليبيون الى اوروبا بعد خروجهم من فلسطين .
الارقام الهندية	لا يُعلم بوجه الحصر بداءة وضع الارقام الهندية ولكنهُ محقق ان اول استعمالها كان بين اهل الهند وعنهم اخذها الفرس والعرب وهولاء أدّوها للاوروبيين سنة ٩٩١ ب . م
الورق	الورق قديم ايضًا كان المصريون يصطنعونهُ من نبات البابيروس الذي ينبت على شاطي النيل وكان صالحًا لقبول الكتابة عليهِ . واما الورق الحالي فاول من اخترعهُ اهل الصين واليابان وكان الصينيون يصطنعونهُ من الحرير واليابانيون من القطن والكتان وقشر التوت وقشر الارز . وادخل العرب صناعة الورق الى اسبانيا في القرن الحادي عشر ثم اخذهُ عنهم الاورويون وتفننوا فيهِ حتى اوصلوهُ الى الحالة الراهنة
المنافخ	كان استعمالها في بلاد اليونان سنة ٥٥٤ ق . م

الاجراس	ان الاجراس الصغيرة قديمة جدًّا بدليل ما جاء في سفر الخروج من انها كانت من جملة ما يتزين بهِ رئيس الكهنة. اما الاجراس الكبيرة المستعملة في الكنائس فاول من اخترعها باولينوس اسقف مدينة نولا في ولاية كامبانيا من ايطاليا سنة ٤٠٠ ب.م
الساعة	اول الساعات التي استعملها الناس هي الساعات المائية واول من اخترعها اليونان وهي اشبه بالساعات الرملية المستعملة لحد هذا اليوم. ثم اخذها عن اليونان الرومانيون وأستُعملت في رومية سنة ١٥٨ ق.م وقد اخذها العرب ايضًا عن اليونان وتفننوا في صناعتها فان الخليفة هرون الرشيد اهدى الامبراطور شارلمان في اواخر القرن الثامن ب . م ساعة مائية ذات ثِقَل لم يكن لها مثيل في اوروبا . وسنة ١٢٧٠ ب.م اختُرِعت اول ساعة غير مائية استنبطها رجلٌ الماني يدعى هنري روفيك . اما الساعات الصغيرة التي يحملها الناس فلا يُعلم يقينًا اول مصطنع لها ولا زمن اختراعها تمامًا
التاريخ المسيحي	بداءة استعمالهِ في الكتابات والمعاملات كان سنة ٥١٦ ب.م وواضعهُ ديونيسيوس السكيثي
الطاحون المائية	الطحن بواسطة قوة الماء يُنسب اختراعهُ الى بليساريوس الروماني سنة ٥٥٥ ب.م
الطاحون الهوائية	طواحين الهواء ادخلها من الشرق الصليبيون الى اوروبا سنة ١٢٩٩ ولا يعلم بالتحقيق زمان استعمالها في المشرق
العوينات	اُخترعها راهب من مدينة بيزا في ايطاليا يقال لهُ اسپينا سنة ١٢٩٩ ب.م

البارود	المقرر اليوم ان الصينيين استعملوهُ في بداءة التاريخ المسيحي وقيل ان العرب استعملوهُ في حصار مكة سنة ٦٩٠ ب.م ولكنهُ لم يُعرف في اوروبا الى سنة ١٢٥٧ ب.م. واول من فطن في قوة انفجار البارود في اوروبا هو روجير باكون احد علماء القرن الثالث عشر ثم اتقن صناعتهُ راهب الماني سنة ١٣٣٦ ب.م
النار اليونانية	النار اليونانية كان بداءة استعمالها في القسطنطينية سنة ٦٧٣ ب.م ومخترعها كاليكوس السوري. وهذه النار كانت تحرق في وسط الماء والمظنون ان اختراعها كان قبل هذا العهد. يرجعون ذلك لاهل الصين
المدافع	المؤكد الآن ان اول من اخترع المدافع هم الايطاليانيون من اهالي فلورنسا سنة ١٣٢٥ ب.م. واول من استعملها في الحرب ادورد الثالث ملك الانكليز ضد الفرنساويين وذلك في موقعة كريستي سنة ١٣٤٦ . وكان فم المدفع اوسع من اسفلهِ
البرانيط	اخترعها رجل سويسري في فرانسا سنة ١٤٠٤ ب.م
الطباعة	المظنون ان الطباعة قديمة عند اهل الصين نقرًا على الخشب. اما صناعة الطباعة على ما هي عليهِ الآن فقد اخترعها يوحنا غوتنبرج من مدينة مايانس في المانيا سنة ١٤٣٦ وتمَّ اختراعهُ سنة ١٤٥٠ واول كتاب طُبع هو التوراة
الليثوغرافية	وهي مطبعة الحجر كان اختراعها سنة ١٧٩٩ والمخترع لها ألويس سنفلدر من مدينة براغ في المانيا
حفر الصور	حفر الصور على النحاس والخشب التي يضعونها في

	الكتب اخترعت سنة ١٤٥٣ وواضعها مازو فينيفيرًا من فلورنسا
النظارات	اول نظارة فلكية اخترعها يوحنا ليبرسهي من ميدلبورغ في هولاندا سنة ١٦٠٨ ثم تفنَّن فيها الفيلسوف اسحق نيوتون والبارون هرشل والامير رَوس وغيرهم
الميكروسكوب	الميكروسكوب او النظارة المكبرة اختُرع سنة ١٥٩٠ ب.م من رجل هولاندي يدعى زخريا جانسن وقال بعضهم بل هو كرنيليوس دْرِيبِّل وهو هولاندي ايضًا وذلك سنة ١٥٧٢ ولعلهُ فكر فيهِ
البارومتر	وهو ميزان ثقل الجو او الهواء واول من اهتدى الى معرفة ثقل الجو توريشلي تلميذ غاليلا وسنة ١٦٢٠ ثم انجز هذه المأثرة العالم الفرنساوي پاسكال الشهير سنة ١٦٤٨ وفي اثنائها استعمل اولاً بارومتر منتظم
الترمومتر	وهو ميزان الحرارة كان اول استعمالهِ في جرمانيا سنة ١٦٢١ ومخترعه كرنيليوس دريبل الهولاندي ثم تفنن فيهِ العلماء نيوتون واموتتون وفهرنهيت وريومور وهم الاشهر
الكهربائية	الكهربائية لفظة فارسية معربة ومعناها جاذبة القش وقد عرف القدماء بعض خصائصها واول اكتشافها في اوروبا كان سنة ١٤٦٧ . واول آلةٍ اصطُنعت منها كانت سنة ١٦٠٠ ب.م من رجل الماني من مدينة مكدبورج اسمهُ اتّو دوكيوريك ثم تفنن فيها العلماء فتقدمت كثيرًا ونتج عنها فوائد جزيلة كالتلغراف وغيرهِ كما سيأتي
اصطناع الإبر	اول اصطناع الابر كان في انكلترا سنة ١٥٤٥

جواذب الصاعقة	جاذبة او مانعة الصاعقة اخترعها فرانكلين الاميركاني الشهير سنة ١٧٥٢ واستُعملت سنة ١٧٦٠
معمل نسج الحرير	اول معمل لنسج الحرير ظهر في مدينة ليون من فرانسا سنة ١٦٦
معمل نسج القطن	اول معمل لنسج القطن ظهر في انكلترا ثم في فرانسا في القرن السابع عشر
صب الحديد	اول معمل لصب الحديد أُنشئ في انكلترا سنة ١٧٤٠
الساعة البرقية	اول ساعة برقية ظهرت هي تلك التي اخترعها ستاينهل من مونيخ عاصمة بافاريا سنة ١٨٣٩ ثم انقنها وانستون الانكليزي سنة ١٨٤٠
الالة البخارية	لقد تنازع الانكليز والفرنساويون والاميركانيون من جهة اول مخترع الآلة البخارية وليس هنا مكان لتفصيل مواقع الخلاف ولكن نقول ان اول من شرع في عمل الآلة البخارية هو طبيب بروتستانتي فرنساوي الاصل اسمهُ دينيس پاپين سنة ١٦٩٠ وهو اول من ركب تلك الآلة على سفينة صغيرة في وادي فولدا في كاسل سنة ١٧٠٧. ولكن لسوء حظهِ قام على سفينتهِ بعض الاوباش في وادي الويزر وكسروها لهُ ولم يعد في وسعهِ تجديدها ثم اعتنى في هذه المائرة جمس وات الانكليزي المشهور وحسَّن الاختراع وكاد ينجح نجاحًا تامًّا في عمل السفينة البخارية . من ثم تداولت هذا العمل ايادٍ كثيرة ولكن لم تاتِ تلك المساعي بتمام المرغوب حتى سنة ١٨٠٣ اذ وضع روبرت فلطن الاميركاني الذي كان في فرانسا اول سفينةٍ بخارية قامة بدواليب على نهر السين في

	باريز ولكن لم يتم انجاز هذه المأثرة في فرانسا فذهب فلطن الى اميركا وطنهِ وهناك صار انجازها وفي ١٠ آب سنة ١٨٠٧ انزل الى البحر السفينة الأُولى البخارية المسماة كلارمون وسافرت من نيويورك الى فيلادلفيا
آلة الذنب للفابورات	ان آلة الذنب المسماة عند الافرنج هاليس او آليس وهي المستعملة الآن في السفن البخارية عوضًا عن الدواليب فاول من فكر فيها دوكي الفرنساوي سنة ١٧٢٧ . ولكن لم يتفق انجازها الاَّ عن يد المهندس اريكسون من اهل اسوج في البلاد المتحدة الاميركانية سنة ١٨٤٤ واستُعملت في السنة التي بعدها
تطعيم او تلقيح الجُدَري	اخترعهُ الطبيب هنري جنَّر الانكليزي سنة ١٧٧٦ وانعمت عليهِ الدولة في مقابلة ذلك الاكتشاف الثمين بثلاثين الف ليرة انكليزية
المركبة الهوائية	وهي المعروفة بالايروستا والبالون كان اختراعها سنة ١٧٨٣ وصانعها الاخوان مونغوفيه وصعدا بها في الجو تلك السنة
التلغراف	انهُ بعد ان وقف العلماء على خصائص الكهربائية فكر كثيرون منهم بامكان اختراع التلغراف. وسنة ١٧٦٠ افتكر جورج ليزاج الفرنساوي الاصل باصطناع تلغرافٍ وانهاهُ سنة ١٧٧٤ ولكن لم يتوفق العمل بهِ حيث لم يكن مستوفيًا الشروط . وما برحت الايدي تتداولهُ حتى سنة ١٨٢٣ اذ باشر العمل بهِ الطبيعي صموئيل مورز الاميركاني وهو يُعد المستنبط الاول للتلغراف . وسنة ١٨٤٤ نصبٌ السلك الاول بين واشينتون وبالتيمور .

	واستعملهُ من ثم اكثر دول اوروبا ما عدا انكلترا فانها لم تستعمل الاَّ الطريقة التي وضعها المهندس الانكليزي وانستون . وسنة ١٨٥٠ انتظم اول تلغرافٍ بحري بين فرانسا وانكلترا
آلة النسج الميكانيكية	اخترعها جاكرَ الفرنساوي وهي التي تنسج من نفسها من دون واسطة الايدي سنة ١٨٠١
السنينوغرافي	السنينوغرافي كلمة يونانية معناها كتابة ضيقة او مختصرة وهي كيفية تمكن السامع استيعاب كل ما يتكلمهُ الخطيب وتدوينهُ باصطلاحٍ مخصوص . والواضع لها رامزي من اسكوتلاندا في بريتانيا سنة ١٦٨١
الفوتوغرافية	او تصوير الشمس ان اول من باشر هذا الاختراع يوسف نيسيفور نيابس الفرنساوي من سنة ١٨١٣ وتم هذا الاختراع بالاشتراك مع داغير الباريزي وظهر للوجود سنة ١٨٣٩ . وكان هذا الاستنباط مقصوراً في اول الامر على الصفائح النحاسية وقد سمي داغير يوتيب نسبة الى داغير. اما طريقة اخراج الصورة على الورق كما هو جارٍ الان فقد اخترعها فوكس تالبوت الانكليزي سنة ١٨٣٩ وظهرت للوجود سنة ١٨٤٥
الستيريوسكوب	الستيريوسكوب وهي النظارة ذات العينين التي تجسم بها الصوَر وتستعمل في البيوت لاجل الفرجة أُخترع سنة ١٨٣٨ وواضعهُ وانستون الانكليزي
الطريق الحديدية	اول طريقٍ حديدية تامة محكمة تجري عليها العربات بالبخار تمت سنة ١٨٢٩ وسافرت سنة ١٨٣٠ من

	ليڤربول الى منشستر وهي من اختراع جورج وروبرت ستيفانسون من انكلترا
المطبعة الميكانيكية	اول مطبعة ميكانيكية اي التي تطبع من نفسها اخترعها نيكولسون الانكليزي سنة ١٧٩٠

جدول تاريخي

يتضمن اهم الحوادث العظيمة التي جرت في العالم

قبل المسيح	
٤٠٠٤	الخليقة
٢٣٤٨	الطوفان
٢٢٤٧	تبلبل الالسن
٢٢٢٩	تأسيس أشور المملكة الاشورية وبناه نينوى
٢٢٠٤	تأسيس نمرود لبابل
٢٠٠	قيام نيناس ملك الاشوريين بعد امهِ سميراميس
١٩٩٦	ولادة ابرهيم
١٩٢١	دعوة ابرهيم من أور الكلدانيين الى ارض كنعان
١٧٩٩	احتراق سدوم وعمورة
١٧٢٩	بيع يوسف للاسمعيليين
١٧٠٦	نزول يعقوب مع عائلتهِ الى مصر
١٦٨٩	موت يعقوب
١٦٣٥	موت يوسف
١٥٧١	ولادة موسى
١٥٥٦	تأسيس سيكروب المصري مملكة اثينا . وكدموس الفينيقي مدينة ثيبة اليونانية في هذا القرب

ق م	
١٤٩١	خروج الاسرائيليين من مصر وعبورهم البحر الاحمر واعطاء العشر الوصايا
١٤٥٢	موت موسى
١٤٥١	خلافة يشوع بن نون وتغلُّب الاسرائيليين على ارض كنعان واقتسامهم اياها
١٤٤٣	موت يشوع بن نون وابتداء حكم القضاة
١١٨٤	اخذ اليونانيين تروادة
١١٤٨	انتقال ايليا
١٠٩٥	مسح شاول ملكًا على اليهود
١٠٨٣	حرب الهيراكليدية وموت ملكهم كودروس
١٠٥٥	تملك داود النبي على بني اسرائيل
١٠١٤	تملك سليمان ابنهِ
١٠١٤—١٠٠٤	بناء هيكل سليمان
٩٨٠	موت سليمان
٩٧٥	انقسام اليهود مملكتين اعني يهوذا واسرائيل
٩٠٠	ولادة هوميروس الشاعر اليوناني
٨٨٤	اعطاء ليكورغوس شرائعهُ الى اهالي سپارتا
٨٥٦	ذهاب يونان النبي ليعظ اهل نينوى
٨٤٠	تأسيس قرطاجنة وقيل سنة ٨٧٨
٧٧٦	الملاعب الاولمپيكية اليونانية
٧٥٩	انقراض مملكة اشُّور الأُولى
٧٥٣	تأسيس رومولوس مدينة رومية

ق م	
٤٧٧	تملك نابونصر بن بيليزيس على بابل ووضعهُ التاريخ الجديد المعروف بالتاريخ الكلداني
٧٢١	اسر شلمناصر عشرة اسباط اسرائيل
٧١٥	موت رومولوس
٧١٢	هلاك جيش سنحاريب حول اورشليم
٧١٠	ديجوسيس مؤسس مملكة مادي
٨٦٠	اخذ اسرحدون اورشليم وضمهُ مملكة بابل الى مملكة أشور
٦٧٢	حرب الهورانيين والكورياتيين
٦٢٦	اخذ نابوبولصَّر بابل
٦١٢	خراب نينوى من نابوبولصَّر واستياج بن كياكسار
٦٠٥	تملك نبوخذ نصر الثاني المعروف بالكبير
٥٩٤	شرائع صولون للاثينيين
٥٨٨	اخذ نبوخذنصر اورشليم وخرابهُ الهيكل وسبيهُ اليهود الى بابل. واخذهُ صور
٥٨٥	تملك استياج على مادي
٥٥٩	تملك كريسوس ملك ليديا الشهير بالغنى
٥٤٧	تغلب كورش ملك فارس ومادي على كريسوس ملك ليديا
٥٣٧	اخذ كورش بابل وجعل مملكتي مادي وفارس مملكة واحدة
٥٣٦	اصدارهُ امرًا ببناء الهيكل في اورشليم
٥٢٩	موت كورش وتولي كمبيز ابنهُ
٥٢٥	تغلُّب كمبيز بن كورش على الديار المصرية

ق م	
٥٢٥	اتمام بناء الهيكل في زمن داريوس بن هستاسب
٤٩٦	افتتاح داريوس الاول بلاد السكيثيين
٤٩٤	اخذ اليونان سارديس من الفرس واحراقها
٤٩٠	تغلُّب اليونان على جيش داريوس في ماراتون
٤٨٩	انسحاب كوريولانوس من رومية واتحادهُ مع الغولسيين
٤٨٥	موت داريوس الاول
٤٨٠	ظهور هيرودوتوس
٤٨٠	حروب زركسيس بن داريوس مع اليونان وانكسارهُ وهربهُ
٤٧٠	قتل ارطبانيس زركسيس وتولي ابنهِ ارتكزارسيس
٤٦٤	التجاء ثيميستوكليس القائد اليوناني المشهور الى ارتكزارسيس
٤٥٧	بناء نحميا اسوار اورشليم بامر ارتكزارسيس
٤٥٠	سينسناتوس مدبّر في رومية
٤٤٩	قتل ڤيرجينيا بيد ابيها في رومية
٤٤٠	سوقراط الفيلسوف في اثينا
٣٩٦	موت سوقراط
٤٣١	بداءة حرب البوليبونيسوس اي حرب المورة
٤٢٩	موت بريكليس رئيس احكام اثينا
٣٨٩	هجوم الغاليين الاول على رومية واخذهم اياها وحرقها تحت قيادة برينوس
٣٨٠	تعليم بلاتون في اثينا
٣٨٣	حرب لوكترا بين سپارتا واثينا
٣٣٠	ظهور ارسطوطاليس وتعليمهُ في اثينا
٣٣٨	تملك فيليب المكدوني على بلاد اليونان

ق م	
٣٣٦	موت فيليب المكدوني وقيام ابنهِ اسكندر
٣٣٤	تغلب اسكندر الكبير على داريوس وافتتاحهُ سورية وصور
٣٢٤	ومصر والهند ثم موتهُ وهو في سن الثلاث والثلاثين
٣٠١	حرب إبشوس واقتسام مملكة اسكندر بين قوادهِ الاربعة
٢٨٠	مهاجمة الرومانيين البلاد اليونانية
٢٦٤	اول حرب الرومانيين قرطاجنة
٢١٨	حرب قرطاجنة الثانية وانتصار هنيبال اولاً وثانياً على الرومانيين
١٩	تاسيس مجمع اليهود الكنايسي المسمى سنحدريم
١٩٣	تغلب الرومانيين على انتيوخوس الكبير في ثرموبيلي
١٦٦	مقاومة المكابيين لانتيوخوس الكبير ملك سوريا
١٤٥	حرب قرطاجنة الثالثة وخرابها من الرومانيين تحت قيادة
١٤٦	سيبيو او شيبيو
١٤٦	حرب كورنثوس وخرابها وتغلب الرومان على بلاد اليونان وجعلها ولاية رومانية
١٣٣	استيلاء الرومانيين على اسبانيا وجعلها ولاية رومانية
١٢١	صيرورة ميتريدات الكبير ملكاً على بنتس
٩١	تغلب الرومانيين على كل ايطاليا
٨٦	حرب ماريوس وسيلا القائدين الرومانيين
٦٦	تغلب پومپاي القائد الروماني على ميتريدات ملك بنتس
٦٠	اقامة يوليوس قيصر وپومپاي وكراسوس حكاماً على المملكة الرومانية وهو الحكم الثلاثي الاول المعروف بالترينفيرات

ق م	
٥٨	مهاجمة يوليوس قيصر فرانسا
٥٥	افتتاح يوليوس قيصر بريتانيا
٥٤	موت كراسوس القائد في محاربة البارثيين بعد فقد عساكرهِ
٤٧	تسمية يوليوس قيصر مدبرًا عامًا للمملكة الرومانية
٤٧	صدور امرهِ ببناء قرطاجنة وكورنثوس
٤٤	موت يوليوس قيصر قتلاً
٤٣	تجديد الحكم الثلاثي الثاني اوكتافيوس وانطونيوس وليدوس
٤٠	افتتاح الرومانيين القدس واقامة انتيباتر الادومي نائبًا على المملكة اليهودية
٣٧	عزل انتيباتر عن ولاية اليهودية واقامة هيرودس الكبير مكانهُ
٣١	تغلب اوكتافيوس على رفيقهِ انطونيوس وكليوپاترا واخضاعهُ بلاد مصر
٣٠	اخضاع الرومانيين بلاد مصر وضمها الى الولايات الرومانية
٢٧	ترقي اوكتافيوس الى لقب اوغسطس وصيرورتهُ امبراطورًا
بعد المسيح	
١	موت هيرودس الكبير وقيام ابنهُ ارخلاوس مكانهُ
١٤	موت اوغسطوس واستخلاف طيباريوس
٣٣	صلب المسيح وقيامتهُ وحلول الروح القدس في يوم الخمسين
٣٤	استشهاد ماري اسطفانوس
٣٥	ارتداد بولس
٣٧	موت طيباريوس واستخلاف كاليغولا الشرير
٥٠	التئام المجمع المسيحي الاول من الرسل في اورشليم
٦٦	عصاوة اليهود على المملكة الرومانية ومحاربة نيرون اياهم

ب٠م	
٦٦	اضطهاد المسيحيين الاول من الامبراطور نيرون — (ان عدد اضطهادات المسيحيين في ايام الدولة الرومانية هو عشرة انظر تبيان ذلك في وجه ٢٦٦)
٦٦	استشهاد ماري بولس في رومية
٦٨	قتل نيرون نفسهُ
٧٠	اخذ تيطس اورشليم في سلطنة ابيهِ فسباسيانوس
٧٩	صيرورة تيطس امبراطورًا على الرومانيين
٩٥	القاء ماري يوحنا في الزيت المغلي ونفيهُ الى جزيرة بطمس حيث كتب الرؤيا وانجيلهُ معًا
١٠٧	استشهاد اغناطيوس اسقف انطاكية
٢٣٠	محاربة الاعجام الفرثيين وطردهم وتولي اردشير اول ملوك الدولة الساسانية
٢٥١ } ٢٦٠ }	دخول البرابرة الغوثيين وغيرهم اوروبا واستيلاؤهم على بعض الولايات الرومانية في ايام الامبراطور ديسيوس
٢٦٠	قيام ڤاليريانوس على الفرس واسرهم اياهُ
٢٧٣ } ٢٧٤ }	تغلب اوريليان على زينوبيا ملكة تدمر وتأسيس سطوتهِ في الشرق
٣٠٦	تملك قسطنطين الكبير
٣١٢	تنصر قسطنطين وجعلهُ الديانة المسيحية ديانة المملكة
٣٢٦	التئام المجمع المسكوني الاول بامر قسطنطين في نيقية ضد اراء اريوس
٣٣٠	نقل قسطنطين كرسي السلطنة الرومانية الى مدينة القسطنطينية

ب ٠ م ٠	
٣٣٧	موت قسطنطين بعد ان قسم المملكة بين اولادهِ الثلاثة قسطنطين وقسطنطيوس وقسطنس
٣٥٨	مهاجمة قبيلة الافرنك فرانسا واستيطانهم فيها
٣٩٥	قسم ثيودوسيوس السلطنة الرومانية الى غربية وشرقية
٤١٠	اخذ الاريك رومية وموتهُ فيها .
٤٢٧	عبور جنسريك قائد الفندال من اسبانيا الى افريقية وتاسيسهُ مملكةً فيها
٤٣٠	خروج الرومانيين من بريتانيا
٤٤٩	دعوة الانكليز السكسونيين لاجل انقاذهم من تعدي الاسكوتسيين ويعتبر ذلك بداءة استيطانهم في بريتانيا
٤٥٢	تأسيس مدينة ڤنيس في ايطاليا
٤٥٥	اخذ جنسريك رومية ونهبها—غرق امتعة الهيكل والاواني التي اتى بها تيطس من اورشليم وهي مشحونة الى قرطاجنة
٤٧٦	انقراض المملكة الرومانية في الغرب واستيلاء اودواكر ملك الهرول على رومية
٤٨١	تاسيس المملكة في فرانسا بواسطة كلوڤيس احد العائلة الميروفنجية
٤٩٦	تنصر الملك كلوڤيس المذكور مع عائلتهِ وجنودهِ
٥٢٧	تولي جوستينيانوس امبراطورًا على السلطنة الشرقية
٥٣٣	انقراض مملكة الفندال من افريقية بواسطة القائد بليساريوس
٥٧٠	ولادة حضرة محمد نبي المسلمين
٦٢٢	مهاجرة حضرة النبي مكة وذهابهُ الى المدينة
٦٢٦	حرب الطوائف او الاحزاب ضد النبي

ب · م ·	
٦٤٠	تغلب عمرو بن العاص على مصر وافتتاحهُ الاسكندرية واحراقهُ مكتبتها
٦٥٢	انغلاب يزدجرد اخر ملوك الدولة الفارسية الساسانية وانضمام بلادهِ الى المملكة الاسلامية في خلافة عثمان
٦٦١	مهاجمة الخليفة معاوية القسطنطينية
٦٦٧	اختراع الحراريق النارية اليونانية وتخليص القسطنطينية من مهاجمة المسلمين
٦٧٣	تاسيس بغداد مركز الخلافة
٧٠٩	تغلب المسلمين على المغاربة في افريقية
٧١٢	دخول طارق الى اسبانيا وتغلبهُ على الملك رودريك وضم
٧١٣	اسبانيا وبورتوغال الى الخلافة
٧٠٤	غلبة شارل مارتل في مدينة تور ومنعهُ المسلمين عن تقدمهم لتملك اوروبا
٧٤١	مقاومة الكنيسة الشرقية للكنيسة الرومانية الغربية من اجل عبادة التماثيل
٧٥٢	جلوس پايين على كرسي فرانسا وهو اول ملوك العائلة الكرلوفنجية
٧٥٤	استخلاص پايين ملك فرانسا راڤينا من اللومبارديين واعطاؤُها للبابا وهكذا كانت بداءة البابا وية
٧٧٤	انقراض ملك اللومبارديين من ايطاليا بواسطة شارلمان
٨٠٠	تتويج شارلمان امبراطورًا للمغرب وانفصال الكنيسة الغربية عن الشرقية
٨٠٩	صيرورة البندقية مشيخة مستقلة

ب م .	
٨٣٧	اتحاد السبع حكومات السكسونية في انكلترا تحت تسلط الملك اغبرت وهو اول ملك للبريتانيين
٨٤٣	سقوط سلطنة شارلمان الغربية وانقسامها الى ثلاث ممالك
٨٦٠	اكتشاف ايسلاندا للنروجيين
٨٦٥	ابتداء دخول الدنيماركيين الى انكلترا واستيلاؤهم عليها
٩١٢	بداءة السلطنة الجرمانية بالامبراطور كونراد
٩٥٥	دخول الديانة المسيحية الى بلاد المسكوب
٩٨٧	بداءة تملك العائلة الكابتيانية في فرانسا واول ملوكها هوك كابيت
١٠١٦ اـ١٠٣٩	تغلب كانوت ملك دنيمارك على انكلترا وتتوجهُ عليها ملكًا مع ولديهِ اللذين خلفاهُ . وتعرف هذه المدة بمدة المملكة الدنيماركية
١٠٥٦	بداءة حرب السيامات الاكليريكية بين هنري الرابع امبراطور جرمانيا وبين احبار رومية
١٠٥٧ اـ١٠٧٤	تملك السلجوقيين على اخص الخلافة الشرقية تحت راية طغرلبك
١٠٦٦	تولي وليم اول ملوك النورمنديين على انكلترا
١٠٧٦ اـ١٠٧٨	تملك السلجوقيين القدس وبر الاناضول وتأسيسهم ولاية قونية
١٠٧٧	اذلال البابا غوريغوريوس السابع لهنري الرابع امبراطور جرمانيا
١٠٩٩	الحرب الصليبية الاولى واخذهم القدس
١١٦٤	ظهور جنكيزخان سلطان المغول

ب . م .	
١١٧١	استيلاء الدولة الايوبية على مصر الى سنة ١٢٥٠
١١٨٧	انتصار صلاح الدين على الصليبيين في طبريا واخذه القدس منهم
١١٨٩ – ١١٩١	حصار الصليبيين عكاء واخذها
١٢١٠ – ١٢٢٣	اضطهاد الولدنسيين والالبيجنسيين في اوروبا وقتلهم
١١٤١	الاتحاد الانسياتيكي
١٢٥٠	استيلاء المماليك اي الدولة الجركسية على البلاد المصرية الى سنة ١٥١٧
١٢٥٨	استيلاء التتر تحت راية ملكهم هلاكو على بلاد العجم وبغداد وانقراض الدولة العربية في خلافة المستعصم بن المستنصر
١٢٦٤	اول مجلس شوري ترتب في انكلترا (بارليمنت)
١٢٧٣	قيام رودولف هابسبورغ امبراطورًا على جرمانيا وهو راس عائلة اوستريا الحالية
١٢٧٧	قيام بيبرس اشهر ملوك الدولة الجركسية في مصر صاحب الفتوحات الكثيرة
١٢٨٣	انضمام مقاطعة ويلس الى تاج انكلترا
١٣٠٠	بداءة دولة آل عثمان وتأسيسها ببر الاناضول
١٣٠٥	انتقال مركز الباباوية من رومية الى افينيون في فرانسا حيث بقي ٧٠ سنةً
١٣١٥	استقلالية اهل سويسرا عن جرمانيا
١٣٣٧–١٤٥٣	بداءة حروب الفرنساويين والانكليز المعروفة بحروب المئة سنة

ب . م .	
١٣٨٤	ظهور يوحنا ويكليف اول مصلح الديانة المسيحية في انكلترا
١٣٩٧	انضمام نروج الى بلاد دنيمارك
١٤٠٠	اكتشاف الاوروبيين يابان
١٤٠٣	تغلب تيمورلنك على السلطان بايزيد واسرهُ اياهُ في انقرة
١٤١٠	موت تيمورلنك
١٤١٤	معارضة يوحنا هس آراء الكنيسة الرومانية والحكم عليهِ بالحرق في مجمع قسطنسية
١٤١٦	احراق جروم من مدينة براك لاجل مناداتهِ باصلاح الديانة
١٤٢٩	تغلب جان دي ارك (ابنة فرنساوية) على الانكليز وتخليصها بعض اقاليم فرانسا ووقعها في ايدي الانكليز واحراقهم اياها
١٤٣١	تتويج هنري السادس ملك انكلترا ملكًا على الفرنساويين وهو في باريس
١٤٥٣	افتتاح السلطان محمد الثاني القسطنطينية وانقراض السلطنة الرومانية الشرقية
١٤٥٣	اجلاء الانكليز من فرانسا اصالةً
١٤٥٥ } ١٤٨٥	حروب الورد في انكلترا وهي حروب اهلية بين حزبين كبيرين
١٤٨٠	قيام التفتيش والتجسس الديني في مدينة اشبيلية في اسبانيا
١٤٨٢	بداءة التجارة بالعبيد بواسطة البورتوغاليين
١٤٨٠ } ١٤٩٢	حروب الاسبانيوليين مع عرب الاندلس واجلاؤهم في ايام فرديناند وايزابلة

ب . م .	
١٤٨٦	اكتشاف راس الرجاء الصالح لبرثلماوس دياس
١٤٩٢	نفي ١٦٠ الفًا من اليهود من اسبانيا
١٤٩٢	اكتشاف كولومبوس اميركا
١٤٩٨	مرور البورتوغاليين الى الهند عن طريق راس الرجاء الصالح
١٥٠٠	اكتشاف برازيل من البورتوغاليين
١٥١٧	استخلاص آل عثمان بلاد مصر في ايام السلطان سليم الاول من ايدي المماليك
١٥١٧ } ١٥١٩ }	ظهور لوثيروس ومناداتهُ بالاصلاح في جرمانيا وزوينكليوس في بلاد السويس
١٥١٩	مسح شارلكان امبراطورًا على جرمانيا
١٥٢٠	افتتاح مكسيكو لفرنند كورتيز
١٥٢٢	استفتاح السلطان سليمان جزيرة رودس من انصار بيت المقدس
١٥٢٣	طرد غوستاف واصا كريسنيان من بلاد اسوج
١٥٢٥	انتصار شارلكان على فرنسيس الاول ملك فرانسا واسرهُ اياهُ
١٥٢٧	مهاجمة جيوش شارلكان رومية ونهبها وقبضهم على البابا اكليمنضس السابع وسجنهُ
١٥٢٩	اقامة مسيحيو الاصلاح الحجة على مقاوميهم واطلاق لقب البروتستانت عليهم من جرى ذلك
١٥٣٥	تغلب شارلكان على قرصان المغاربة واخذهُ تونس
١٥٤٠	تأسيس اغناطيوس لويولا جمعية اليسوعيين
١٥٤٥	التئام المجمع التريدنتيني

ب . م .	
١٥٦٦	قيام الاتحاد المقدس في فرانسا لاجل ملاشاة الهرطقة
١٥٦٧	بداءة عصيان الهولانديين على فيليب ملك اسبانيا بسبب تعرضهِ لمذهبهم
١٥٧١	استفتاح آل عثمان جزيرة قبرس في ايام السلطان سليم الثاني
١٥٧٢	مذبحة بروتستانت فرانسا يوم عيد ماربرثلماوس
١٥٧٤	استيلاء الدولة العثمانية على تونس
١٥٧٩ ـ ١٥٨١	بداءة الجمهورية الفلمنكية واتحاد سبع ولايات منها
١٥٨٠	ضم البورتوغال الى اسبانيا بواسطة ملكها فيليب الثاني الذي تبوأ تخت اسبانيا سنة ١٥٥٦
١٥٩٣	تملك هنري الرابع على فرانسا بعد جحدهِ الديانة البروتستانتية
١٦٠٣	اتحاد اسكوتلاند وانكلترا في ايام جمس الاول من عائلة استوارت
١٦٠٩	اكتشاف هدسن النهر المسمى باسمهِ في الولايات المتحدة الاميركانية
١٦١٠	قتل رافاليك اليسوعي هنري الرابع ملك فرانسا
١٦١١	طرد عدد غفير من المغاربة من اسبانيا في ايام ملكها فيليب الثالث
١٦١٤	استيطان الفلمنكيين في نيويورك والباني
١٦٢١	اثارة الكردينال ريشيلو في فرانسا حربًا على البروتستانت وحصرهم في قلعة روشل واخضاعهم

ب ٠ م ٠	
١٦٣٨	افتتاح السلطان مراد الرابع مدينة بغداد من الاعجام
١٦٤٠	انفصال بورتوغال عن اسبانيا وابتداء تملك عائلة براغانسة فيها
١٦٤٢	مجاهرة الانكليز ملكهم كارلوس الاول بالعصيان وبداءة الحرب الاهلية بينهم
١٦٤٨	معاهدة وستفاليا
١٦٤٩	اسر الانكليز كارلوس المذكور وقتلهُ
١٦٥٣	صيرورة كْرومْويل محاميًا للجمهورية الانكليزية
١٦٥٤	حروب انكلترا البحرية مع هولاندا ودوامها الى سنة ١٦٦٧ حين تمَّ صلح بريدا
١٦٥٨	موت الجنرال اوليفر كْرومْويل
١٦٦٠	اعادة الملكية الى انلكترا بواسطة الجنرال مونك وتولي كارلوس الثاني وتُعرَف هذه المدة عند الانكليز بمدة العَوْد او الاسترجاع
١٦٦٥	حدوث طاعون مهلك في مدينة لندن مات فيهِ ١٠٠ الف نفس
١٦٦٦	حدوث حريقة مريعة في مدينة لندن خرب فيها ١٣٠٠٠ بناية
١٦٦٧	اخذ انكلترا مدينة نيويورك في اميركا من الفلمنكيين ووقوع الصلح بين الامتين
١٦٧٢	نكث كارلوس الثاني ملك انكلترا معاهدتهُ مع الفلمنكيين ومحاربتهُ لهم بعد اتحادهِ مع فرانسا
١٦٨٢	تملك بطرس الاكبر على روسيا
١٦٨٢	ولادة كارلوس الثاني عشر ملك اسوج ونروج

ب . م .	
١٦٨٣	انجاد سوبياسكي النمساويين ومنع الاتراك عن اخذ فينّا
١٦٨٦	اتحاد هولاندا واسبانيا وانكلترا على فرانسا في معاهدة اوكسبورج
١٦٨٨	حدوث الثورة الانكليزية وتنزيل الملك جمس الثاني
١٦٨٩	استدعاء الانكليز الامير اورانج الفلمنكي واقامتهُ ملكًا تحت اسم وليم الثالث
١٦٤٣	استيلاء الاتراك على مدينة ازوف
١٦٤٩	أخذ الاتراك بلغراد وبلاد المجر العليا وخوف اوروبا منهم
١٧٠٠	توصية كارلوس الثاني ملك اسبانيا بملكهِ الى فيليب دي انجو حفيد لويس الرابع عشر ملك فرانسا ووقوع الحروب المعروفة بحروب الوراثة الاسبانيولية
١٧٠١	تغلب كارلوس الثاني عشر ملك اسوج على الروسيين في نارفا
١٧٠١	تحزُّب انكلترا وهولاندا والنمسا على فرانسا واسبانيا لمنع
١٧٠٣	البوربون عن التملك في اسبانيا وتغلب فرانسا عليهم
١٧٠٣	تأسيس بطرس الاكبر مدينة بطرسبرج
١٧٠٤	انتصار الدُوَل المتحدة على فرانسا بواسطة ملبروك الشهير في حرب بلينهيم
١٧٠٤	استيلاء الانكليز على حصن جبل طارق
١٧٠٧	انتصار الفرنساويين والاسبانيوليين على الدول المتحدة
١٧٠٧	انضمام اسكوتلاندا الى انكلترا
١٧٠٩	انتصار بطرس الاكبر على كارلوس الثاني عشر ملك اسوج في بلتوفا

ب . م .	
١٧١١	تغلب آل عثمان على بطرس الاكبر عند نهر پروث
١٧١٣	انتهاء حروب الوراثة الاسبانيولية بمصالحة اوترخت
١٧١٨	الاتحاد الرباعي بين انكلترا وفرانسا واوستريا وهولاندا لمقاومة مقاصد اسبانيا لجهة استيلائها على فرانسا وبعض ايطاليا
١٧١٨	تنازل الاتراك عن بلغراد وبعض السرب والفلاخ الى اوستريا واستيلاؤهم على المورة من مشيخة البندقية
١٧٤٠—١٧٤٨	حروب الوراثة النمساوية ضد الملكة ماريا ترزيا
١٧٤٥	أخذ الانكليز لويزبورج من الفرنساويين في اميركا
١٧٥٥	حدوث زلزلة مهلكة في ليسبون عاصمة البورتوغال خُرِب فيها اكثر المدينة
١٧٦٥	تولية المماليك البحرية على الديار المصرية من طرف الدولة العثمانية في زمن السلطان مصطفى الثالث
١٧٥٧	سيادة الانكليز في الهند بعد حرب پلاسي
١٧٥٩	غلبة الانكليز على الفرنساويين في حرب كويبك في اميركا واستيلاؤهم على المدينة
١٧٦٣	صلح باريز بين فرانسا وانكلترا واسبانيا وتنازل فرانسا عن كانادا الى الانكليز
١٧٧١	اقتسام بولونيا الاول بين روسيا وبروسيا واوستريا
١٧٧٣	ابطال عادة تقبيل رجل البابا
١٧٧٦	مناداة الاميركانيين باستقلاليتهم ووقوع الحروب بينهم وبين الانكليز
١٧٨٣	مصالحة باريز ونهاية حرب اميركا واستقلاليتهم التامة

ب . م .	
١٧٨٩	قيام الجنرال واشنتون رئيسًا لولاية الجمهورية الاميركانية
١٧٨٩	بداءة الثورة الفرنساوية العظيمة وسقوط لويس السادس عشر الذي كان قيامهُ سنة ١٧٧٤
١٧٩٢	اشهار الجمهورية في فرانسا وابطال الملكية ويُعتبر ذلك بداءة تاريخ فرانسا الحديث
١٧٩٣	قتل الفرنساويين ملكهم لويس السادس عشر
١٧٩٤	انشاء الجمعية الوطنية الفرنساوية والحكومة المدبرية . وابطال يوم الاحد وترتيب السنين والشهور والاسابيع والمناداة بقلب جميع الاديان ورئيس هذا المذهب روبسبير
١٧٩٧	ذهاب نابوليون بونابارت الى مصر وفتحها واخذهُ جزيرة مالطة
١٧٩٧	موت واشنتون محرر اميركا
١٧٩٨	انتصار الاميرال نيلسون الانكليزي وتكسيرهُ البوارج الفرنساوية في ابي قير
١٧٩٨	انضمام مشيخة البندقية الى النمسا
١٧٩٩	مجيء نابوليون الى الشرق ومحاصرتهُ عكاء ومقاومة السار سدني سميث لهُ ورجوعهُ عنها
١٧٩٩	رجوع نابوليون الى فرانسا وتغيير الحكومة المدبرية وصيرورتها قنصلية وتبوؤهُ رياستها
١٨٠٠	انضمام ايرلاندا الى انكلترا
١٨٠٠	شبوب الحرب بين الفرنساويين والنمساويين وانتصار نابوليون في مارانكو
١٨٠١	حرب الانكليز للدنماركيين والاسوجيين المعروفة بحرب

ب.م.	
	كوبنهاجن
١٨٠١	موت بولس امبراطور روسيا وتولي ابنهِ اسكندر الاول
١٨٠١	خروج الفرنساويين من الديار المصرية
١٨٠٢	تسمية نابوليون قنصلاً اولاً مدة حياتهِ
١٨٠٤	تتويج نابوليون الاول امبراطورًا للفرنساويين
١٨٠٤	معاهدة انكلترا واوستريا وروسيا لمقاومة فرانسا
١٨٠٤	تولي محمد علي باشا خديوي مصر
١٨٠٥	انتصار نابوليون على النمساويين والروسيين في اوسترليتس في ك ا
١٨٠٥	انتصار الانكليز بحرًا على الفرنساويين والاسبانيوليين في ترافلكار وموت نيلسون في المعركة
١٨٠٥	مصالحة اوستريا وفرانسا المعروفة بصلح بريسبورج في ٢٧ ك ا
١٨٠٦	انشاء معاهدة الرين تحت حماية نابوليون وانحلال السلطنة الجرمانية واتخاذ فرنسيس الثاني لقب امبراطور اوستريا فقط
١٨٠٦	اتحاد انكلترا وبروسيا على فرانسا — انتصار نابوليون على بروسيا في يانا وغيرها ودخولهُ منتصرًا الى برلين
١٨٠٦	استيلاء الانكليز على راس الرجاء الصالح من الفلمنكيين
١٨٠٧	انتصار نابوليون على الروسيين لاسيما في فريدلند
١٨٠٧	صلح تيلسيت بين نابوليون واسكندر وفصلهُ وستفاليا عن بروسيا واعطاؤُها لاخيهِ جيروم
١٨٠٧–١٨٠٨	مهاجمة الانكليز كوبنهاجن واستيلاؤُهم على العمارة الدنيماركية

ب٠م٠	
	لاجل منع استعانة نابوليون الاول بها
١٨٠٧	ارسال نابوليون عسكرًا الى بورتوغال ومهاجرة العائلة الملكية الى برازيل
١٨٠٨	تنازل فرديننـد ملك اسبانيا عن الملك الى نابوليون
١٨٠٨	قيام يواكيم مورات صهر نابوليون الاول ملكًا على نابولي
١٨٠٨–١٨٠٩	انتصار الانكليز لاسبانيا والبورتوغال لمنع فرانسا عن نوال مآربها
١٨٠٩	انتشاب الحرب بين فرانسا واوستريا وانتصار نابوليون ودخولهُ فينا وعقدهُ الصلح وتطليق نابوليون زوجتهُ وزواجهُ بماريا لويزا ابنة فرنسيس الاول امبراطور اوستريا
١٨١٠	انضمام بلاد الفلمنك الى فرانسا
١٨١٢	اشهار الاميركان الحرب على الانكليز لاجل بعض تعديات بحرية
١٨١٢	شبوب الحرب بين فرانسا وروسيا. دخول نابوليون منتصرًا الى موسكو . احراق الروسيين موسكو . رجوع نابوليون بالخيبة وهلاك جيشهِ
١٨١٢	احضار نابوليون البابا بيوس السابع من رومية وترسيمهُ عليهِ في فونتنبلو
١٨١٦	الاتحاد السادس ضد فرانسا (جميع دول اوروبا) ودخول العساكر المتحدة الى باريس . تنازل نابولهون الاول عن الملك وذهابهُ الى جزيرة البا ملكًا عليها واقامة لويس الثامن عشر ملكًا على فرانسا
١٨١٤	ضمُّ نورِوج الى اسوج

ب.م.	
١٨١٤	انضمام جينوا الى مملكة سردينيا
١٨١٤	ضمُّ بلجيكا وهولاندا وجعلهما مملكة واحدة يترأس عليها غليوم الاول ملك هولاندا
١٨١٥	مصالحة الانكليز والاميركانيين
١٨١٥	رجوع نابوليون من البا وتوليهِ ثانية مدة ١٠٠ يوم . تجديد المتعاهدين الحرب عليهِ وانغلابهُ في واترلو وتسليمهُ نفسهُ للانكليز وارسالهم اياهُ الى جزيرة القديسة هيلانة في المحيط الجنوبي من افريقية
١٨١٥	رجوع الملكية الى فرانسا
١٨١٥	انفصال برازيل عن بورتوغال
١٨٠٥	الغاء التجسس الديني في بورتوغال
١٨٢٠	حدوث ثورة في اسبانيا وبورتوغال والغاء التجسس الديني من اسبانيا
١٨٢١	توفي نابوليون الاول في الجزيرة المذكورة
١٨٢٢	عصيان اليونان على الدولة العثمانية ومقتلة خيو المهلكة
١٨٢٦	قتل الانكشارية في توركيا
١٨٢٧	حرب نافارين بحرًا بين فرانسا وانكلترا وروسيا من جهة والدولة العثمانية من جهة لاجل تحرير اليونان وحرقهم العمارتين العثمانية والمصرية وتسليم الدولة باستقلالية اليونان
١٨٣٠	وقوع ثورة في باريس وتنزيل كارلوس العاشر وتولية لويس فيليب الاول
١٨٣٠	انتصار الفرنساويين في الجزائر في الغرب

ب.م.	
١٨٣٠	وقوع ثورة في البلاد الواطية وانفصال بلجيكا عن هولاندا
١٨٣١	وصيرورة كل منهما مملكة قائمة بذاتها
١٨٣٢	مصالحة ادرنة بين الدولة العلية وروسيا
١٨٣٢	استيلاء ابرهيم باشا على الديار الشامية
١٨٣٣	ابطال الانكليز التجارة بالعبيد في مستملكاتهم
١٨٣٤	حرب الافيون بين الانكليز والصين
١٨٣٧	جلوس فيكتوريا الحالية ملكة على انكلترا بعد وليم الرابع
١٨٤٠	جلوس السلطان عبد المجيد
١٨٤٠	خروج الدولة المصرية من الديار الشامية
١٨٤٦—١٨٤٧	حروب الاميركان على المكسيك وانتصارهم عليها
١٨٤٧	غلبة الفرنساويين التامة على جزائر الغرب وتسليم الامير عبد القادر لهم
١٨٤٨	حدوث الثورة الفرنساوية الثالثة في ٢٤ شباط وسقوط لويس فيليب وقيام الجمهورية ثم انتخاب لويس نابوليون الثالث رئيساً لها
١٨٤٨	حدوث ثورات في جرمانيا وبروسيا واوستريا وفي لومبارديا وولايات اخرى ايطاليانية . هرب البابا الى نابولي واشهار الجمهورية في رومية
١٨٤٨	اكتشاف المعادن الذهبية في كليفورنيا
١٨٤٨	تنازل فرديننـد عن تاج اوستريا الى الامبراطور فرنسيس يوسف الحالي في ٢ كانون الاول
١٨٤٨	تولي ابرهيم باشا خديوية مصر وموته وقيام اخيه عباس

ب.م.	
	باشا مكانه
١٨٤٩	تنازل كارلوس البرتوس ملك سردينيا عن تاج الملك الى ابنه فيكتور عمانوئيل الحالي بعد تغلب النمساويين عليه واستيلائهم على لومبارديا
١٨٤٩	ارسال فرانسا جيشًا الى رومية وضربهم المدينة وانحلال الجمهورية واعادة البابا اليها
١٨٥٠	ظهور العصاوة في الصين
١٨٥١	انشاء اول معرض عام في مدينة لندن
١٨٥٢	انحلال الجمهورية الفرنساوية الثانية وارتقاء نابوليون الثالث الى الامبراطورية
١٨٥٣	بداءة حرب القرم
١٨٥٤	تولي سعيد باشا خديوية مصر
١٨٥٥	موت الامبراطور نقولا وجلوس ابنه اسكندر الثاني في ٢ اذار
١٨٥٥	اخذ الدول المتحدة سبستبول وانتهاء حرب القرم
١٨٥٦	معاهدة باريس من جهة شروط صلح القرم
١٨٥٩	حرب فرانسا وايطاليا ضد اوستريا وتحرير ايطاليا
١٨٦٠	حادثة لبنان ومذبحة حاصبيا وراشيا ودير القمر ودمشق ومجيء العساكر الفرنساوية الى سوريا وانفصال الجبل عن حكومة سوريا وترتيب حاكم نصراني له
١٨٦٠	موت السلطان عبد المجيد وتولي السلطان عبد العزيز
١٨٦٠	استيلاء الحكم الانكليزي على الهند من يد الشركة الانكليزية
١٨٦١—١٨٦٥	حرب اميركا الاهلية

ب. م.	
١٨٦١	حرب الفرنساويين في المكسيك واقامة مكسيمليان امبراطورًا
١٨٦٧	عليها ثم قتل جوارز اياهُ واعادة الجمهورية
١٨٦٣	تبوُّؤ اسمعيل باشا المدة الخديوية
١٨٦٤	اتحاد بروسيا واوستريا ومحاربتها دنيمارك واخذ بروسيا اقليمي شلمويك وهولستين منها
١٨٦٦	حرب بروسيا واوستريا وانتصار بروسيا في صادوفا
١٨٦٦	انفصال البندقية عن النمسا وانضمامها الى ايطاليا
١٨٦٧	حدوث معرض عام في باريز حضرهُ بعض الملوك
١٨٦٨	وقوع الثورة في اسبانيا وهرب الملكة ايزابلة الى فرانسا
١٨٦٩	فتح خليج السويس بمحفل حافل
١٨٧٠	حرب فرانسا وبروسيا واسر نابوليون الثالث في سيدان وسقوط الامبراطورية وقيام الجمهورية الثالثة
١٨٧٠	التئام مجمع مسكوني في رومية والمناداة بعصمة البابا
١٨٧١	تتويج غليوم ملك بروسيا امبراطورًا على المانيا في فرساليا
١٨٧١	دخول الايطاليانيين رومية وجعلها عاصمة المملكة
١٨٧١	تثبيت الجمهورية الفرنساوية واقامة تيرس رئيسًا لها
١٨٧٣	موت نابوليون الثالث في انكلترا
١٨٧٣	تنازل تيرس وقيام المارشال مكماهون رئيسًا للجمهورية الفرنساوية
١٨٧٦	حرب توركيا وروسيا
١٨٨٦	موت السلطان عبد العزيز وقيام السلطان مراد
١٨٧٦	قيام السلطان عبد الحميد بدلاً عن السلطان مراد

سنة م.	
١٨٧٨	صلح روسيا وتركيا وعقد مؤتمر برلين
١٨٧٨	استيلاء الانكليز على جزيرة قبرس بموجب معاهدة خصوصية
١٨٧٩	تنزيل اسماعيل باشا خديوي مصر واقامة ابنه توفيق باشا مكانه
١٨٨٠	استيلاء الفرنساويين على تونس
١٨٨٢	الثورة العرابية في مصر
١٨٨٢	دخول الانكليز بلاد مصر بعد ضربهم مدينة اسكندرية